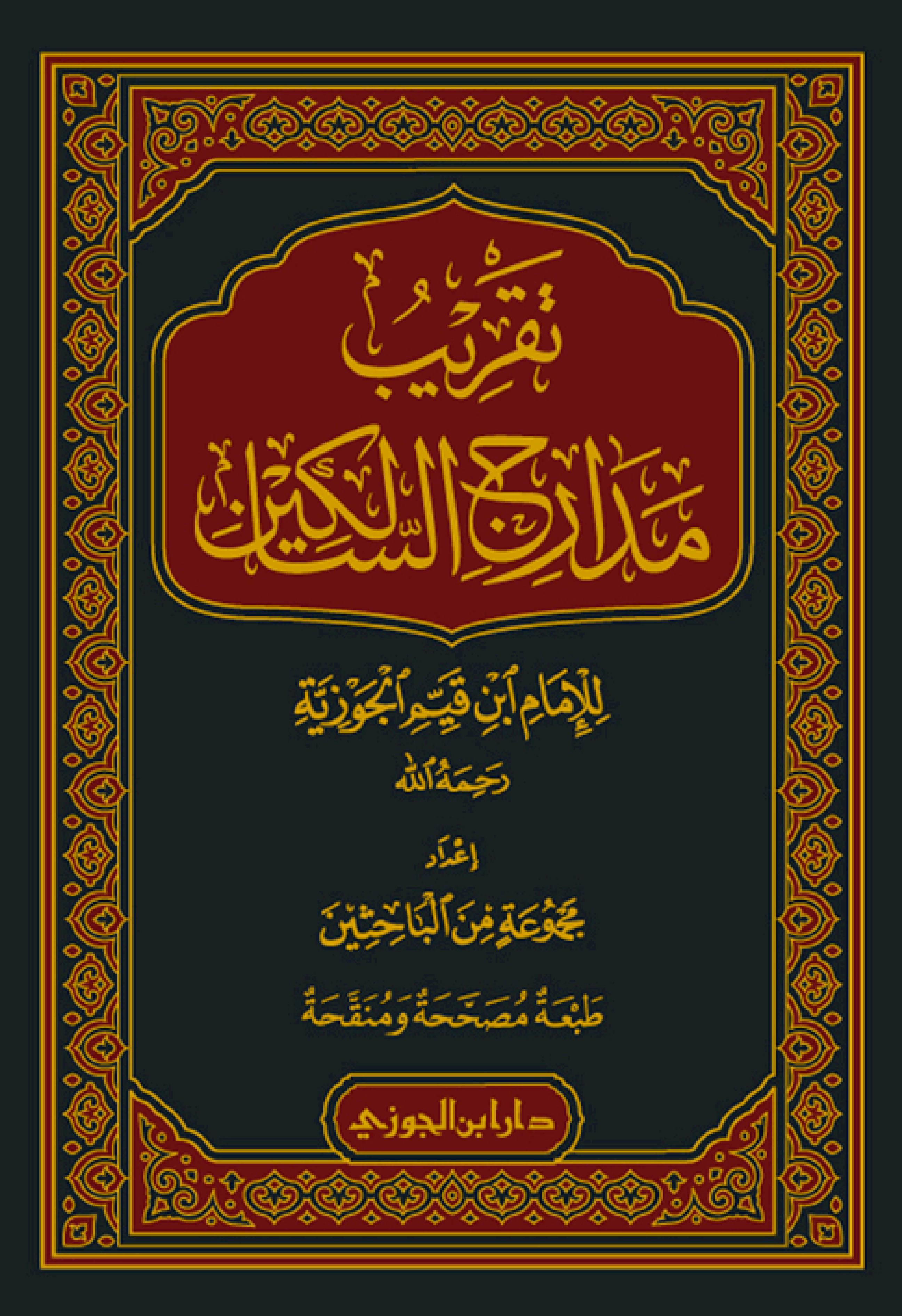
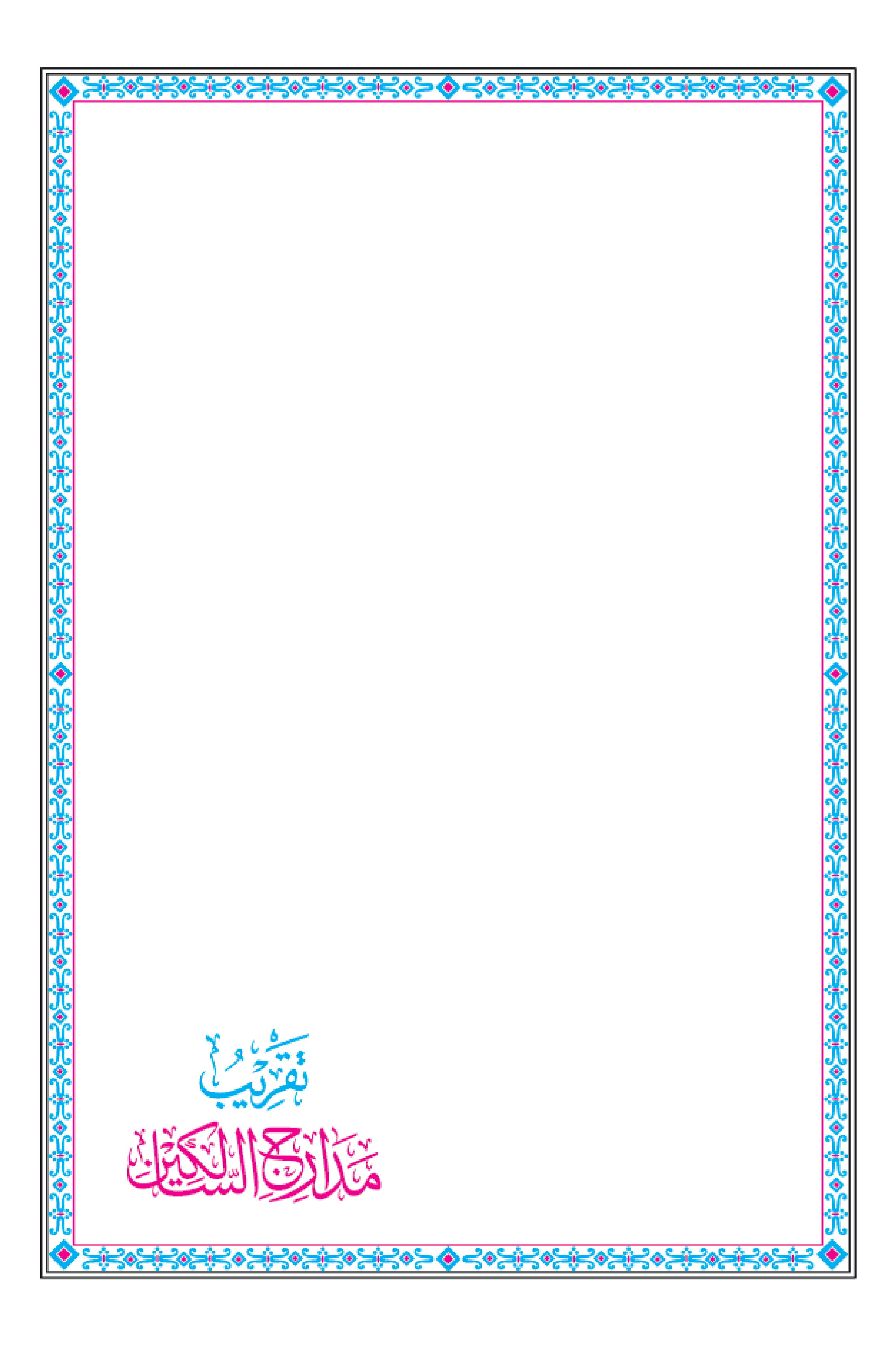

تقريب
مدارج السالكين
للإمام ابن قيم الجوزية
رحمه الله
إعداد
مجموعة من الباحثين
طبعة مصححة ومنقحة
دار ابن الجوزي


تقريب
مدارج السالكين



دارابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحميد، محمد

تقريب كتاب مدارج السالكين لابن القيم./محمد الحميد.- الدمام، ١٤٣٩هـ

٧٦٤ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٣ - ٨٤ - ٨٢٢٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ ـ التصوف الإسلامي ٢ ـ الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٢٦١ ١٤٣٩/٤٥٦٣

الطبعة الثانية

١٤٤١هـ

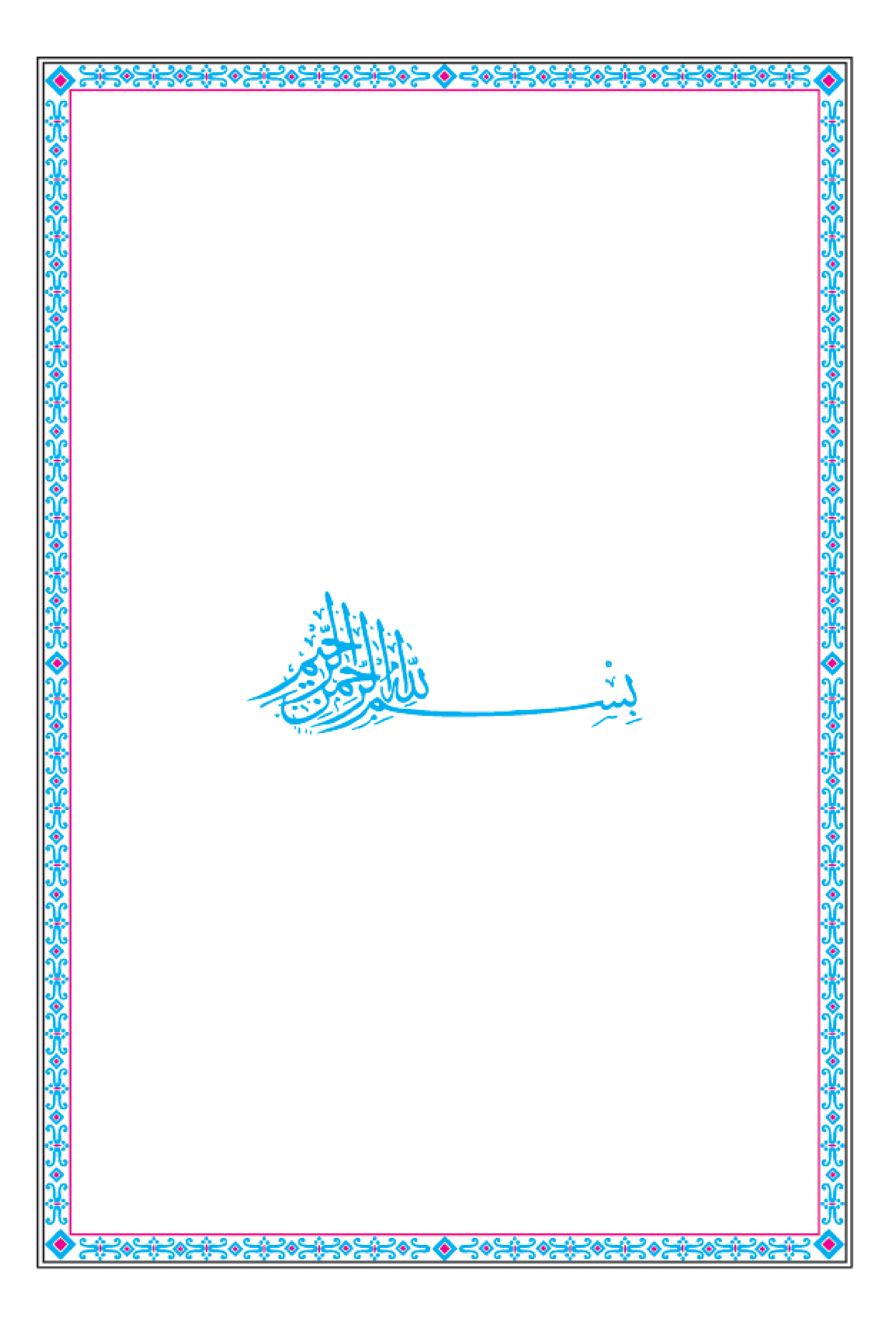
الباركود الدولي: 9786038222843



إعداد

مجموعة من الباحثين

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدِّمة

مقدمة التقريب

الحمدُ لله الذي أكرَمَ عِبادَه بالسُّلوك إليه، وتفضَّل عليهم بمعرفة الطريقِ والسَّيرِ عليه، ثم الصَّلاةُ والسَّلامُ على إمام السالِكين ومُقَدَّمِهم، وخاتَمِ المُرسَلينَ ومُعَظَّمِهم، وعلى مَن تبِعه من الصالحين إلى يوم جَمْعِهِم، **أمَّا بعدُ**:

فإنَّ السائرَ إلى الله مُحتاجٌ في سَيْره إلى ماءٍ يَرْوِي به ظَمَأ رُوحِه، وزادٍ يُشبعُ به جوعَ نفسِه، وحادٍ يحدو به أمَامَه، ورادع يَزْجُرُه خَلْفَه، وإن العبد لا يَتَحَقَّقُ بذلك حتى يُنِيخَ رَكَائبه على مَعِينِ الكِتَابِ والسُّنَّة، ولن يَصِحَّ له شُربٌ حتى يكونَ إناؤُهُ من نَحْتِ سَلَفِ الأُمَّة.

وقد دَأبَ أهلُ العلم على بَيَانِ الطَّريقِ إلى الله وما يَعْتَورُهَا، وإيضاحِ السَّبِيل إلى المولى وما يَكْتَنِفُها، وكان من أولئك الأئمَّة الأفذاذ الذين لم يألوا جهدًا في نصح عباد الله: الإمام ابنُ قيِّم الجَوزيَّةِ، الذي كان ولا زال نَجمًا يُستضاء به في هذا الفَلَك الإيمانيِّ، وإماما يقتدى به في الإصلاح الرُّوحَانِي، فظَلَّ يُؤلِّف، ويَشرح، ويَتَعَقَّب، ويُعَلِّق، مما جعل تراثه في هذا الباب بحرًا لا تُكدِّره الدِّلاء.

ومَعَ كثرةِ ما كَتَبَهُ ابنُ القيِّم في الرِّقاق وأعمالِ القلوب وإصلاحِ النُّفوس، فإنَّ المُعتَنين بتراثه مُجمِعون على أن واسطة عِقْدِ مؤلفاته هو كتاب: «**مدراج السالكين**»، وقد فَتَحَ الله عَلِيه في هذا الكتاب فتْحًا

عظيمًا، حتى غَدَا كتابًا لا يُسْتَغْنَى عَنْه، بل لا يكاد يُغْنِي غَيرُه عَنْه.

والحاجَةُ إلى هذا الكتاب وأمثاله بالغةٌ؛ فإنَّ المرء محتاجٌ بيْن الفَيْنةِ والأخرى لِما يُلين قلبَه، ويَزيدُ إيمانَه، ويَشحَذُ هِمَّتَه، ويُداوي نفْسَه، وأحوَجُ الناسِ إلى ذلك العاملون لدِين اللهِ، مِن طلَّابِ عِلم، ودُعاةٍ، ومربِّين.

ورَغبةً في نشْرِ العِلم بين جُمُوعِ المسلمين، وطَمَعًا في تيسير الانتفاع بهذا الكتابِ الثَّمِين؛ عَزَمْنَا على مَشْرُوعِ: «**تقريب مدارج السالكين**»، وَفقَ ما يأتي:

منهجية العمل:

• أولًا: المقصدُ الأساس من هذا العملِ تهذيبُ المدارج مِن كلِّ ما ليس له صِلَةٌ بأصل موضوع الكتابِ ومَقصدِه الرئيسِ، ألا وهو أعمالُ القُلوب والمنازِل التي يترقَّى فيها العبدُ مراقي العُبودية؛ ولذا حرَصْنا على إبقاء كلِّ ما يَتعلَّقُ بالرِّقاق وأعمالِ القلوب، وحذْفِ ما سواها.

فالأصل هو الإبقاءُ على كلام ابنِ القيِّم، وأمَّا ضابط ما يُحذف منه، فعلى النحو الآتي:

١ ـ يُحذف المكرَّر في الموضعِ الواحدِ مِن منقول ابن القيِّم أو من كلامه إذا تضمَّن المعنى نفْسَه، وكان الحذفُ غيرَ مخلٍّ، وغير مُفوِّتٍ لكلامٍ نفيسٍ ومِن ذلكَ مثَلًا: حينما يَسرُدُ ابن القيِّم عددًا كبيرًا مِن التعريفات أو المَقولاتِ أو الأبيات الشِّعريةِ، فإننا نحذِفُ بعضَها إذا كان في الموجود غُنْية.

٢ ـ يُحذف المكرَّر مِن النُّصوص (آيات، أحاديث، آثار) ما لم يُضِفْ معنى زائدًا في محلِّ الاستشهاد.

٣ ـ تُحذف عباراتُ الهَرَويِّ المنتقَدةُ أو المُلغِزة أو الوعرة، وما لَحِقها مِن نقاشات ورُدودٍ لابن القيِّم، ولو ترتَّبَ على هذا حذْفُ منازلَ كاملةٍ. ومن ذلك: المنازلِ التي لم يَتناوَلْها ابنُ القيِّم إلا على

سبيلِ الانتقادِ أو المناقشات للصُّوفية، ومنها: منازلُ: القبض، والبسط، والسكر، والصحو، والاتصال، والبقاء، والتلبيس، وكذا منازلُ الحزن، والدهش، والهيمان؛ فقد نصَّ ابنُ القيم على أنَّها ليست مِنَ المَنازلِ. وكذلك حُذفَتْ منازلُ: النَّفْس، والغرَق، والغَيبة؛ لقلَّةِ الكلام فيها جدًّا، ولعدم إضافتِها لجديد يناسِبُ ذكرُه في هذا التقريب.

وأحيانًا نَذكُرُ كلامَ ابن القيِّم ممَّا كتَبَه إنشاءً وليس تعليقًا على كلام الهَرَويِّ، ونكتفي به في الكلام على المنزلة؛ وذلك للإشكالِ في كامِلِ كلام الهَرَويِّ عليها، مِثل مَنزلة القَلَق، والوَجْد، واللَّحْظ، والسُّرور، والغُربة، والمُكاشَفة، والمشاهدة، والانفصال، والفناء، والتحقيق، والوجود، والتفريد، والجمع، والتوحيد.

وفي بعضِ المنازِل لم نذكُرْ من كلام الهرويِّ إلا درجةً واحدةً، مِثل منزلة الغَيْرة، والوقت، والتمكُّن، والمعرفة.

٤ ـ تُحذف المباحثُ العَقَديَّة والفِقهيَّة واللُّغوية والبَلاغية إذا لم تتضمَّن فوائدَ إيمانيَّةً، سواءٌ كانت تأصيلًا أو استِطرادًا؛ لأنَّ التَّقريب يركِّز على مقصدِ تأليف الكتاب، وأمَّا من أراد نفائسَ ابنِ القيِّم التي ذَكَرها في المدارج فليراجع الكتابَ الأصل للاطِّلاع عليها.

ولذلك تَركْنا كثيرًا من المواضع التي يَذكُر ابنُ القيِّم فيها التَّقسيماتِ العِلميَّةَ، وأوجُهَ الاستدلالِ، والأخطاءَ والانحرافاتِ العِلميَّةَ والعَمليَّةَ للمبتدعة وغيرهم.

٥ ـ أحيانًا يَرِدُ في الأصل كلامٌ لابن القيم يوافق مقصود التقريب، ولكنَّه يقع في سطرين أو ثلاثةٍ ونحوها، وقد حُذِف سابقُه ولاحقُه وَفْقَ الضوابط السابقة، ممَّا يجعل إبقاءَه غيرَ منسجِمٍ مع سبْكِ التقريب؛ ولذا حذَفْنا ما كان هذا حاله ـ وإن لم يكن كثيرًا ـ، وغالبًا ما توجد المعاني المحذوفة في مواطنَ أخرى.

وفي النهاية؛ فإنَّ هذا التَّقديرَ لِما يُحذَف ـ مع حِرصنا على ضبطه ـ

خاضعٌ للاجتهاد، وقد حرَصْنا ألَّا يكونَ اجتهادًا فرديًّا، وإنما مِن خلال فريق يراجع التقريب على مراحلَ مُتواليةٍ.

• **ثانيًا:** حذَفْنا كَلِمة (فصل) التي يَفصِل فيها ابنُ القيِّم بين الفصول، فنَصِل الكلامَ بعضَه ببعضٍ؛ رغبةً في الاختصار، ولأنَّ سياقَ التَّقريبِ قد اختَلَف عن سِياق الكتابِ الأصل، إلا إنْ كان سِياقًا جديدًا فإنَّا نَفصِلُه بعلامة (***).

• **ثالثًا:** أبقَيْنا كلامَ الهَرَويِّ إذا تناولَه ابنُ القيِّم بالشَّرحِ والتَّعليق؛ إذْ يَصعُب إلغاؤُه مِنَ التَّهذيب؛ فكتابُ المدارج ما قام إلَّا على شرحه، فكيف يُحذَف؟! بخلاف ما فعَل الشامي صاحب المهذب ـ وفَّقه الله ـ ولأنَّ حذْفَه سيَجعلُنا بيْن **أمرين**:

أحدهما: حذْفُ كلامِ ابن القيِّم في التعليق عليه.

الثاني: إبقاء كلام ابن القيِّم مع حذْفِ كلام الهَرَويِّ، وهذا سيتطلَّبُ تَصرُّفًا كثيرًا في كلام ابنِ القيِّم حتى تستقيمَ العِبارة، ويكونَ كلامًا مُستقلًّا، وليس شرحًا لكلامٍ آخَرَ.

عِلمًا بأننا نَحذِفُ أحيانًا من عِباراتِ الهَرويِّ ما عِيبَ عليه منها مع الإبقاء على الجزء السالم من الانتقاد، حتى لو كانت في سِياق الواحدِ، مِثل قولِه في إحدى درجات القصد: (الدرجة الثالثة: قَصْد الاستسلام لتهذيب العِلم، وقصْد إجابة داعي الحُكم، وقصد اقتحام بَحْر الفَناء)، فقد حذَفْنا الجملة الأخيرةَ التي تحتها خط.

• **رابعًا:** يَضَعُ الهَرَويُّ للمَنزلةِ ثَلاثَ درَجاتٍ غَالِبًا، وكثيرًا ما يكونُ في كلامِه على الدرجة الثالثة ما يكونُ مخالفًا لمنهج أهل السُّنَّة، إمَّا في المعنى أو في الترتيب بيْنه وبيْن الدَّرَجاتِ التي قَبْله، ويَتَعَقَّبُ أكْثَرَ ذلك ابنُ القيِّم؛ فقد قَرَّرَ مخالفةَ الدَّرجةِ الثَّالثةِ الَّتي يَذكُرُها الهَرويُّ في أكثَرِ الأحيانِ، فقال: «والشيخ رَحِمَهُ اللهُ ممَّن يُبالغُ في إنكارِ الأسبابِ، ولا يرَى وراء الفَناء في توحيدِ الرُّبوبيَّةِ غايةً، وكلامُه في الدرجة الثالثة في معظم الأبواب يرجع إلى هذين الأصلين، وقد عرَفْتَ ما فيهما، وأنَّ الصوابَ

خِلافهُما، وهو إثباتُ الأسباب والقوى، وأنَّ الفَناء في توحيد الرُّبوبيَّة ليس هو غايةَ الطريق، بل فَوقَه ما هو أجَلُّ منه وأعلى وأشرفُ، ومِن هاتين القاعدتَين عَرَض في كتابه مِنَ الأمور التي أُنكرَتْ عليه ما عَرَضَ»[١].

وقال مرَّةً على إحْدَى الدَّرجاتِ الَّتي رتَّبَها الهَرَويُّ: «وفي جعْلِه هذه الدرجةَ أعلى من التي قَبلها نظرٌ لا يخفى، وهو نَظيرُ جَعْلِه الصَّبرَ بالله أعلى من الصَّبر لله.

والذي ينبغي: أنْ تكون الدَّرجةُ الأولى أعلى شأنًا وأرفَعُ قَدْرًا؛ فإنَّها مُختصَّةٌ، وهذه الدَّرجةُ مُشترَكةٌ»[٢].

ولَمَّا ذَكَر ابنُ القيِّم عن الهَرَويِّ أنَّه يجعلُ الفَناءَ هو الغايةَ، قال في تعليقه على كلام الهَرويِّ في مَنزلةِ المَحبَّةِ: «والصَّوابُ أنَّ الدَّرجةَ الثانيةَ أكمَلُ مِن هذه وأتَمُّ، وهي درجة الكَمَلةِ مِن المُحبِّين»، ثم قال: «فهذا وأمثالُه ممَّا يَدُلُّ على أنَّ الدَّرجةَ الثَّانيةَ الَّتي أشار إليها أكمَلُ مِنَ الثالثة وأتمُّ، وهكذا في جميع أبواب الكتاب»[٣].

ولذا فإنَّنا نَحذِفُ هذه الدرجة الثالثة إذا تُعقِّبت بالكامل، ونَحذِفُ ما قبلها من ذِكر عدِّ الدَّرجاتِ في مِثلِ قولِه: (على ثلاثِ درَجاتٍ)، فنقولُ: (على درجات)؛ حتَّى يَستقيمَ ذِكْرُنا لدرجتَينِ.

وإذا كان فيها ما هو صحيحُ المعنى أبقيناه، وحَذَفْنا منها المُتعقَّبَ فقط.

النُّسخة المعتمدة:

اعتَمَدْنا في النصِّ على نسخة دار الصميعي التي حُقِّقَتْ في رسائل دكتوراه في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد نَحيدُ عمَّا اعتَمده المحقِّقون في المتن في حالات، **وهي**:

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣١٩).
(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٩٠٧).
(٣) «طريق الهجرتين» (٢/ ٧٠٣ ـ ٧٠٥).

١ ـ إذا كان في النُّسَخ الأخرى المذكورةِ في الهامش ما هو أصح، وأوفق للسِّياقُ.

٢ ـ إذا وُجِدَتْ زِياداتٌ أو اختلافات في بعض النُّسَخ الأخرى، لكنْ المُحَقِّقَين لَمْ يُثبِتوها في الهامش، فنَعدِلُ إليها مُعْتَمِدِين على تحقيقاتٍ أخرى (مثل طبعة الفقي والجليل والأرناؤوط)، ممَّا لا نَجِدُه مذكورًا في النُّسَخ التي اعتمد عليها محقِّقو طبعة دار الصميعي.

وقد بُذل في المقابلة بين النُّسَخ جهد كبير على عدةِ مراحل حتى كادَ أن يتحول العمل إلى تحقيق وضبط بدلًا من كونه مجرد تقريب، كل ذلك لأجل تقديم السياق الأمثل لنص الكتاب.

٣ ـ إذا احتاج السياقُ إلى زيادة ممَّا لا يُوجد في إحدى النُّسخ الخَطيَّة أو المطبوعة؛ فإنَّنا نُضِيفُه بين معقوفتين.

خطوات العمل:

١ ـ قُسم أصلُ كِتاب المدارج إلى أجزاءٍ، ووُزِّعَتْ على فريق العمل، وقام كلٌّ باحث بتقريب جزئه.

٢ ـ راجَعَ كلُّ باحث تقريبَ الباحث الآخَر.

٣ ـ قام اثنان من الباحثين بمراجعةِ التقريب كاملًا بعد تهذيبه ومراجعته من الباحثِينَ.

٤ ـ وُزِّعَتِ الأجزاءُ مرَّةً أخرى على الباحثِينَ لمراجعةِ التَّقريب، ومقابلته بنصِّ المدارج، بالإضافة إلى مقابلته بأشهر تهذيبَينِ للمدارج[1]، وهُمَا: (تهذيب مدارج السالكين لعبد المنعم العزي، والمُهَذَّب لصالح

(١) ومن التهذيبات: المُنتقى الثمين من كتاب «مدارج السالكين»، لزامل الزامل، طبع بدار قارة سنة ١٤١١هـ، و«بُغية القاصدين من كتاب مدارج السالكين» لعبد الله السبت، طبع بالدار السلفية سنة ١٤٠٧هـ، ومسار الراغبين إلى «مدارج السالكين» لصالح الخلف، طبع سنة ١٤١٩هـ، و«تهذيب مدارج السالكين» لمحمد بيومي.

الشامي)، وذلك للمُقارنةِ والاستفادة منهما لما قد يفوتُ على فريق العَمل.

٥ ـ سُلِّم العملُ إلى فريق مختصٍّ لضبط النَّصِّ المهذَّبِ كاملًا، ومقابلتِه على النصِّ المحقَّق، وأُجريَتْ في هذه المرحلة أيضًا مراجعاتٌ ومقترَحاتٌ للإضافة والحذف، بالإضافة إلى الاجتهاد في اختيارِ النَّصِّ الأَمَثلِ وَفْقَ نُسَخِ الكتابِ الموجودة دون التَّصرُّفِ بنصِّ المؤلِّف.

٦ ـ صُفَّ التَّقريبُ، وعُزيت آياتُه، وخُرِّجَتْ أحاديثُه، وخُدِم بعَلاماتِ التَّرقيم والتَّشكيلِ لِما يُشْكِلُ.

٧ ـ وُزِّع التَّقريبُ بعدَ هذه المراحلِ على مجموعة من المختصِّين لتحكيمه.

٨ ـ رُوجِعَت الملحوظاتُ وعُدِّلتْ بحسَبِ اجتهادِ الفريق.

صِلَة هذا التَّقريبِ بغيره من الأعمال المشابِهة:

لا عجَبَ مِن كَثرةِ التواليفِ الَّتي توالَتْ على المدارج، ولا لَومَ على مُصنِّفيها؛ إذْ هو كَنزٌ ثمين، وهو أهلٌ أن يَعتني به المُعتَنون، وأن يُنقِّب فيه المُنقِّبون؛ لتَخْرُجَ للناس دُرَرُه، ويُجلى منه كَدَرُه.

ويأتي هذا العمل مُتمِّمًا للجهود المباركة في تهذيب المدارج وتقريبِه للناس، ونزعم أنَّه بفضلِ اللهِ وحدَه قد توفَّرَ لهذا التَّهذيبِ مِيزاتٌ يُمكن معها تقديمُه للقرَّاء على غيره، ومنها ما يلي:

• العمل في هذا التَّقريبِ جَماعيٌّ، عَمِل عليه فريقٌ من الباحثين، وخَضَع للمراجعاتِ المتوالية، وحكَّمه جمْعٌ مِن المختصِّين والمُعتَنينَ، وقد اتَّضح أثَرُ ذلكَ بالمقارنة بالتَّهذيبات الأخرى، والَّتي خَضَعَتْ في اختيارها للمعيار الشَّخصيِّ عند المُهذِّب.

• الاعتِماد على طبعة محقَّقةٍ (طبعة الصميعي) فيها تعديلٌ لكثير من الأخطاء الموجودة في الطبعات القديمة الَّتي اعتمدت عليها التَّهذيباتُ السابقة، بالإضافة لعدم الاقتصار عليها وإنما رُجع إلى الطبعات الأخرى.

• لا يوجد تصرُّفٌ في ترتيب الكتاب، بخلاف تهذيب العزيِّ؛ فتَصَرُّفُه كثيرٌ يَصعُبُ حصْرُه، وكذلك يَفْعَلُ الشامي أحيانًا، ومن ذلك أنه أتى بكلامٍ في منزلة متأخِّرةٍ في آخِرِ الكتاب ووضَعَها في أوَّل كتابه[1]، وإن كان هذا اجتهادًا مأجورًا بإذن الله، لكنه تصرُّفٌ في الكتاب الأصل.

• إعمال ضابطِ التَّقريبِ من أوَّلِ الكتابِ إلى آخِره، وعدَمُ التَّوسُّعِ في إبقاء ما كان خارجَ ضابِطنا، بخلاف تهذيب العزي، ومِن ذلك: أنَّه أبقى كلام ابن القيم برُمَّتِه في آخِرِ منزلة السَّماعِ في حُكم الغِناء والرَّدِّ على مَن أباحه بما يَزيدُ عن عشْرِ صفَحاتٍ، وأبقى كلامًا طويلًا في مجموعة من الصَّفحات في منزلة المعرفةِ عن معطِّلةِ الأسماء والصِّفات.

• إبقاءُ كلام الهَرَويِّ وتَمييزُه عن كلامِ ابنِ القيِّم، بخلاف الشامي الذي حذَفه تمامًا، وخلافًا للعزي الذي ذَكَر في مقدمته أنَّ طريقته دَمْجُ كلام الإمامين، وإنْ كان لم يَلتزِمْ بذلك في مواطنَ من تهذيبه، حيث نصَّ في مواضعَ على كلام الهروي.

• لا توجد إضافةٌ على النصِّ لمْ تُوضَعْ بين معقوفتين، بخِلاف تهذيب العزي، فإنه بَعد الحذفِ قد يُضيفُ مِن كلامه ليستقيمَ الكلامُ ما يَصِلُ إلى السطر والسَّطرَينِ دون أنْ يُبيِّنَ هذا.

الفِئة المستهدفة من هذا التقريب:

قَصَدْنا بهذا العملِ خِدمةَ طلَّابِ العِلم ونُخَبِ القرَّاءِ والدُّعاةِ ممن يَرغَبون بقراءة المدارج لكنْ يَعوقهم عن ذلك تلك المباحثُ التي تُشتِّتُ القارئَ وتَعوق استرسالَ رُوحِه وقلبِه مع درر الهَرَويِّ وابنِ القيم، وها نحن نقدِّمُه لهم ـ قدر استطاعتنا ـ نقيًّا من تلك القواطعِ التي لا ننتقِدُ ابنَ القيم عليها، وإنما كان لذكرها مناسبةٌ وهدف خاصٌّ، وعلى من أرادَها الرجوعُ إلى الأصل فهي موجودةٌ فيه.

---

(١) انظر (ص٥٧ ـ ٥٨) و(٦١ ـ ٦٤).

وإنَّنا نَعِدُ بإذن الله بخُروج كِتابٍ آخَرَ أسمَيْناه «الإكْسِير»، والذي نرجو أن يكون نصفَ هذا التقريب من حيثُ الحجمُ؛ حتى يكون صالحًا لفئةٍ أوسعَ؛ فيكون مناسبًا لعموم القُرَّاء، إضافةً إلى مناسبته لفئةِ كِتابنا هذا، وسيكون بإذن الله مُشتملًا على مقاصدِ كتاب المدارج، محذوفًا منه كلامُ الهَرَويِّ وما كان متَّصِلًا به؛ بحيث يُصبِح خلاصة إيمانيةً يَصِحُّ عليه ما قال ابنُ القيِّم: «الإكسير الكيماوي، الذي إذا وُضِع منه مِثقالُ ذرَّةٍ على قَناطيرَ مِن نُحاسِ الأعمال قلَبَها ذهبًا».

وفي الخِتام، نسألُ اللهَ تعالى أن يتقبَّل هذا العملَ خالصًا لوجههِ الكريم، ونَحمده سُبحانه ونُثْني عليه بما هو أهلُه على إتمامِه وتَيسيرِه لهذا العملِ، ثم الشُّكر والعِرفان لكلِّ مَن أسهم فيه مِن مراجعين ومُدقِّقين ومُحكِّمين؛ فهم شركاءُ في الأجرِ بإذن اللهِ.

فريق العمل:

١ ـ د. صالح بن عبد العزيز المحيميد.

٢ ـ أ. تركي بن عبد الله التركي.

٣ ـ د. حازم بن عبد الرحمٰن البسَّام.

٤ ـ د. فهد بن محمد الخويطر.

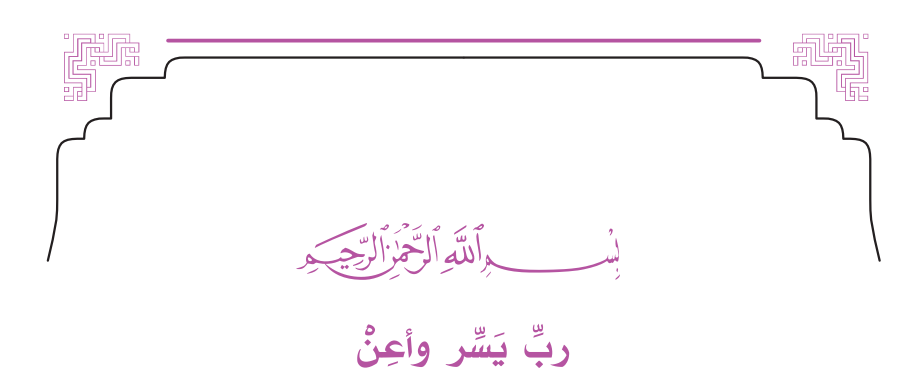
٥ ـ أ. محمد بن عبد الله الحميد.

ونسعد بأي ملحوظة أو اقتراح على هذا العمل على الإيميل:

tagrebalmdareg@gmail.com







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربِّ يَسِّر وأعِنْ

مقدمة ابن القيم

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، والعاقبة للمُتَّقِين، ولا عُدوانَ إلا على الظالمين، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، ربُّ العالَمين، وإلٰهُ المُرسَلين، وقيومُ السَّموات والأرَضين، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالكِتاب المبين، الفارِقِ بين الهُدى والضلال، والغيِّ والرَّشاد، والشكِّ واليقين. أنزله لنقرأه تدبُّرًا، ونتأمَّله تبصُّرًا، ونسعد به تذكُّرًا، ونحمِلَه على أحسنِ وجوهه ومعانيه، ونصدِّقَ أخباره، ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه، ونجتني ثِمارَ علومه النافعة المُوصلة إلى الله سبحانه مِن أشجاره، ورياحين الحِكَم من بين رِياضه وأزهاره.

هدايات القرآن العظيم

فهو كِتابُه الدالُّ عليه لمن أراد معرفته عليه، وطريقه الموصلةُ لسالكها إليه، ونورُه المبين الذي أشرقتْ له الظلمات، ورحمتُه الْمُهْدَاةُ التي بها صلاحُ جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابُه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يُغْلَق إذا غُلِّقت الأبواب.

وهو الصِّراطُ المستقيم الذي لا تَميل به الآراء، والذِّكْر الحكيم الذي لا تَزيغ به الأهواء، والنُّزُل الكريم الذي لا يَشبع منه العلماء، لا تَفنى عجائبه، ولا تُقلع سحائبه، ولا تَنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأمُّلًا وتفكيرًا، زادها هداية وتبصيرًا، وكلما بَجَستْ مَعِينَه فجَّر لها ينابيع الحكمة تفجيرًا؛ فهو نور البصائر مِن

عَماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجَوَاها، وحياةُ القلوب، ولذَّة النفوس، ورياض القلوب، وحادِي الأرواح إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهلَ الفلاح، حيَّ على الفلاح. نادى به منادِي الإيمان على رأس الصراط المستقيم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ [الأحقاف: ٣١].

أَسْمَعَ - واللهِ - لو صادف آذانًا واعية، وبصَّر لو صادف قلوبًا من الفساد خالية، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواءُ فأطفأت مصابيحها، وتمكَّنت منها آراءُ الرجال فأغلقت أبواب رشدها، وأضاعت مفاتيحها، ورَانَ عليها كَسْبُها فلم تجد حقائقُ القرآن فيها منفذًا، وتحكمت فيها أسقامُ الجهل، فلم تنتفِعْ معها بصالح الغذاء.

حرمان المعرضين عن نصوص الوحي

سبحان الله! ماذا حُرِم المُعرِضون عن نصوص الوحي واقتباسِ العلم من مشكاتها من كنوز الذخائر؟ وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟ قَنَعُوا بأقوال استنبطتها معاوِلُ الآراء فِكْرًا، وتَقَطَّعُوا أمرهم بينهم لأجلها زُبُرًا، وأوحى بعضُهم إلى بعض زخرفَ القول غرورًا، فاتخذوا - لأجل ذلك - القرآن مهجورًا.

دَرَسَت معالمُ القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودَثَرَت معاهدُه عندهم فليسوا يعمرونها، ووقعت ألويته وأعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأفَلَتْ كواكبه النَّيِّرَة من آفاق نفوسهم فلذلك لا يُحْيُونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظُلَم آرائهم وعُقَدِها فليسوا يبصرونها.

أفيظُنُّ المعرِض عن كتاب ربه وسُنَّة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلَّص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروبِ الأقيسة وتنوُّعِ الأشكال، أو بالإشارات والشطحات وأنواع الخيال؟!

هيهات والله! لقد ظن أكذبَ الظنِّ ومَنَّتْهُ نفْسُه أبْيَنَ المحال، وإنما ضُمنت النجاة لِمَن حَكَّم هدى الله على غيره وتزود التقوى وائتم بالدليل، وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم.

أهمية اجتماع العلم النافع والعمل الصالح

وبعدُ: فلمَّا كان كمالُ الإنسان إنما هو بالعِلم النافع، والعمل الصالح ـ وهما الهُدَى ودِينُ الحقِّ، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، فأقسم سبحانه أنَّ كل أحد خاسِرٌ إلا مَن كمَّل قُوَّتَه العِلمية بالإيمان، وقُوَّتَه العَملية بالعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه؛ فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتم إلا بالصبر عليه، والتواصي به ـ كان حقيقًا بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره ـ بل أنفاسَه ـ فيما ينال به المطالب العالية، ويَخلُص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبالِ على القرآن وتفهُّمِه وتدبُّره، واستخراجِ كنوزه، وإثارةِ دفائنه، وصرْفِ العناية إليه، والعكوفِ بالهِمَّة عليه؛ فإنه الكفيلُ بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والمُوصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة، والأذواق والمواجيد الصحيحة، كلُّها لا تُقْتَبَس إلا من مِشكاته، ولا تُستثمر إلا من شَجَراته.

ونحن بعون الله نُنَبِّه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأُمِّ القرآن، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب، وما تضمَّنَته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها، ومواهبها وكسبياتها، وبيان أنه لا يقوم غيرُ هذه السورةِ مَقامَها، ولا يسدُّ مسدَّها؛ ولذلك لم يُنْزِل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مِثْلَها.

والله المستعان، وعليه التُّكْلَان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.





[بيان اشتمال الفاتحة على أمهات المطالب]

اعلم أنَّ هذه السورةَ اشتملتْ على أمهات المطالبِ العالية أتَمَّ اشتمال، وتضمَّنتها أكملَ تضمُّن؛ فاشتملتْ على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مَرجِعُ الأسماء الحسنى والصفاتِ العُليا إليها، ومدارُها عليها، وهي: (الله، والرب، والرحمٰن)، وبُنِيَت السورةُ على الإلٰهية، والرُّبُوبِيَّة، والرحمة؛ فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبنيٌّ على الإلٰهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى صراطه المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمورَ الثلاثة، فهو المحمود في إلٰهيَّته، وربوبِيَّتِه، ورحمته، والثناءُ والمجدُ كمالان لحمده.

وتضمَّنت إثباتَ المعاد، وجزاءَ العباد بأعمالهم، حسَنِها وسَيِّئِها، وتفرُّدَ الربِّ تعالى بالحُكم إذْ ذاك بين الخلائق، وكونَ حُكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤].

إثبات الفاتحة للنبوات

وتضمَّنت إثباتَ النُّبُوَّات من **جِهات عديدة**:

أحدها: كونه ربَّ العالمين؛ فلا يليق به أن يترك عباده سُدًى هَمَلًا لا يُعرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرُّهم فيهما، فهذا هضْمٌ للربوبية، ونسبة إلى الرب تعالى ما لا يليق به، وما قدَره حقَّ قدْره مَن نسَبه إليه.

الثاني: أخْذُها مِن اسمه «الله»، وهو المألُوه المعبود، ولا سبيل للعِباد إلى معرفة عبوديته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: مِن اسمه «الرحمٰن»، الذي رحمتُه تمنع إهمالَ عباده، وعدمَ تعريفهم ما ينالون به غايةَ كمالهم، فمَن أعطى اسمَ «الرحمٰن» حقَّه، علِم أنه متضمِّن لإرسال الرسل، وإنزالِ الكتب، أعظمَ

مِن تضمُّنِه إنزالَ الغيث، وإنباتَ الكلأ، وإخراج الحَبِّ؛ فاقتضاءُ الرحمة لِما يحصل به حياة القلوب والأرواح أعظمُ من اقتضائها لِما يحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكنِ المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسمِ حظَّ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك.

الموضع الرابع: مِن ذِكر ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]؛ فإنه اليوم الذي يَدينُ اللهُ العِبادَ فيه بأعمالهم، فيُثِيبُهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليُعَذِّبَ أحدًا قبل إقامة الحُجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكُتُبِه، وبهم استُحِقَّ الثوابُ والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسِيقَ الأبرارُ إلى النعيم، والفجارُ إلى الجحيم.

الموضع الخامس: مِن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإن ما يُعْبَدُ به الربُّ تعالى لا يكون إلا على ما يُحبُّه ويرضاه؛ وعبادته هي شكره، وحُسنه فطريٌّ معقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبُّدِ وما يُعبدُ به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله، وفي هذا بيانُ أن إرسال الرسل أمر مستقِرٌّ في العقول؛ يستحيل تعطيل العالَم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع، فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل ولم يؤمن به؛ ولهذا جعل اللهُ سبحانه الكفرَ برسوله كفرًا به.

الموضع السادس: مِن قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].

معاني الهداية وأقسامها

فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرُّسُل، فإذا حصل البيان والدلالةُ والتعريف تَرَتَّبَ عليه هدايةُ التوفيق، وجعْلُ الإيمان في القلب، وتحبيبُه إلى العبد، وتزيينه في قلبه، وجعله مُؤْثِرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه.

افتقار الخلائق للهداية الربانية

وهما هدايتان مسؤولتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمِّنانِ تعريفَ ما لم نَعلَمْه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامَنا له، وجعْلَنا مُرِيدِينَ لاتِّبَاعِه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلْقَ القدرة لنا على القيام

بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامةَ ذلك لنا، وتثبيتَنا عليه إلى الموافاة.

ومن هاهنا يُعلَم اضطرارُ العبد إلى هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلانُ سؤال مَن يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعافُ المعلوم، وما لا نريد فِعْلَه تهاوُنًا وكسلًا مثل ما نريده، أو أكثر منه، أو دونَه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمرٌ يفوتُ الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامَّة، فمَن كَمَلَتْ له هذه الأمور كان سؤالُ الهداية له سؤالَ التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى ـ وهي آخر مراتبها ـ: وهي الهداية يومَ القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصلُ إليها، فمن هُدِيَ في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسَل به رسولَه، وأنزل به كتابَه، هُدِيَ هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنَّتِه ودارِ ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدمه على هذا الصراط الذي نصبَه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوتُ قدمه على الصراط المنصوب على مَتْنِ جهنم، وعلى قدر سَيْرِه على هذه الصراط يكون سَيْرُه على ذاك الصراط؛ فمنهم مَن يَمُرُّ كالبرق، ومنهم مَن يَمُرُّ كالطرف، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالريح، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كشدِّ الركاب، ومنهم مَن يسعى سعيًا، ومنهم مَن يَمُرُّ مشيًا، ومنهم مَن يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المُكَرْدَسُ[(١)] في النار.

فلينظرِ العبدُ سَيْرَهُ على ذلك الصراط مِن سَيْرِه على هذا حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة؛ جزاءً وِفاقًا: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النمل: ٩٠]، ولْيَنظُرِ الشهواتِ والشُّبهاتِ التي تعوقه عن سَيْرِه على هذا الصراط

(١) **المُكَرْدَسُ**: الذي جُمِعَت يداهُ ورِجلاه وأُلقي إلى موضع. «النهاية» لابن الأثير (٤/ ١٦٢).

المستقيم؛ فإنها الكلاليب التي بِجَنَبَتَيْ ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، إنْ كثُرت هنا وقَوِيَتْ فكذلك هي هناك: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]؛ فسؤال الهداية متضمِّنٌ لحصول كل خير، وللسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفْس المسؤول، وهو الصراط المستقيم؛ ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمَّن خمسةَ أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارِّين عليه، وتعيُّنه طريقًا للمقصود. ولا يخفى تضمُّن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

الموضع الثامن: مِن ذِكر المُنعَم عليهم، وتمييزِهم عن طائفتَي الغضب والضلال؛ فانقسم الناس بحسَب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة؛ ففي ذِكر المُنعَم عليهم ـ وهُم مَن عرَف الحق واتَّبعَه ـ، والمغضوبِ عليهم ـ وهُم مَن عرفه واتَّبَع هواه ـ، والضالِّينَ ـ وهُم مَن جَهِلَه ـ: ما يستلزم ثبوتَ الرسالة والنبوة؛ لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

❊ ❊ ❊

الفرق بين الصراط المستقيم وسبل الغاوين

وذُكِر «الصراط المستقيم» مُفرَدًا معرَّفًا تعريفين: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة؛ وذلك يفيدُ تعيينه واختصاصَه، وأنه صراطٌ واحدٌ، وأما طرُق أهلِ الغضب والضلال فإنه سبحانه يَجمَعُها ولا يُفردها، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ فوحَّد لفظ «صراطه» و«سبيله»، وجَمَعَ «السُّبُلَ» المخالِفة له.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: خَطَّ لنا رسولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، وقال: «**هذا سَبِيلُ اللهِ**»، ثمَّ خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن يسارِه، وقال: «**هَذِهِ سُبُلٌ، على كُلِّ سَبِيلٍ شَيطانٌ يَدْعُو إليهِ**»، ثمَّ قرأ قولَه تعالى: «﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[١].

وهذا لأنَّ الطريق الموصل إلى الله واحدٌ، وهو ما بعَث به رُسلَه، وأنزل به كُتبَه، لا يوصل إليه إلا من هذا الطريق، ولو أتى الناسُ من كل طريق، واستفتَحوا من كل باب، فالطُّرُق عليهم مسدودة، والأبواب في وجوههم مُغلَقة، إلا هذا الطريق الواحد؛ فإنه متَّصِل بالله، موصل إلى الله تعالى.

التنكب عن الصراط ووحشة التفرد

ولَمَّا كان طالبُ الصراط المستقيم طالبَ أمْرٍ أكثرُ الناس ناكِبون عنه، مريدًا لسلوكِ طريقٍ مرافقُه فيها في غاية العِزَّة، والنفوس مجبولةٌ على وحشة التفرُّد، وعلى الأُنس بالرفيق؛ نبَّه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هُمُ الذين: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]؛ فأضاف الصراطَ إلى الرفيق السالِكين له، وهُمُ الذين أنعم الله عليهم؛ ليزولَ عن الطالب للهداية وسلوكِ الصراط وحشةُ تفرُّده عن أهل زمانه وبَني جِنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هُمُ الذين أنعم الله عليهم؛ فلا يكترث بمخالفة النَّاكِبينَ عنه له؛ فإنهم هُمُ الأقلُّون قَدْرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: «عليكَ بطريق الحق، ولا تَستَوحِشْ لقِلَّة السالكين، وإياك وطريقَ الباطل، ولا تَغتَرَّ بكثرةِ الهالِكين».

الرفيق الصالح يزيل وحشة التفرد

وكلَّما استوحشتَ في تفرُّدك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللَّحاق بهم، وغُضَّ الطرف عمَّن سِواهم؛ فإنهم لن يُغْنُوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سَيرِك فلا تلتفتْ إليهم؛ فإنك متى التفتَّ إليهم أخذوك، أو عاقوك.

وقد ضُرِب لذلك مَثَلانِ، فليكونَا منك على بال:

المَثَل الأول: رجُل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غَيْرَها، فعرَض له في طريقه شيطانٌ من شياطين الإنس، فألقى عليه كلامًا يؤذيه،

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٤٢، ٤٤٣٧)، والنَّسائي في «الكبرى» (١١١٠٩، ١١١١٠)، وابن حبان (٦، ٧) وقال الأرنؤوط: «إسناده حسن».

فوقف وردَّ عليه، وتماسكًا، فربما كان شيطانُ الإنس أقوى منه فقهَرَه، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتتْه الصلاة، وربما كان الرجلُ أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بِمُهاوَشتِه عن الصفِّ الأول، وكمالِ إدراك الجماعة، فإنِ التفت إليه أطْمَعه في نفْسه، وربما فَتَرَتْ عزيمتُه، فإن كان له معرفةٌ وعِلمٌ زاد في السَّعي والجَمْزِ[١] بقَدْر التِفاته أو أكثر، فإنْ أعرَضَ عنه واشتَغل لما هو بصدده، وخاف فوتَ الصلاة أو الوقت، لم يَبلُغْ عدوُّه منه ما شاء.

المَثَل الثاني: الظَّبيُ أشدُّ سَعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحسَّ به التفتَ إليه؛ فيَضعُفُ سعيُه، فيُدرِكُه الكلب، فيأخُذُه.

والقصد: أنَّ في ذِكْر هذا الرفيقِ ما يُزيل وحشةَ التفرُّد، ويَحُثُّ على السَّير والتشمير للَّحاق بهم.

* * *

الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب

ولما كان سؤالُ اللهِ الهِدايةَ إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونَيْلُه أشرفَ المواهب، علَّم الله عِبادَه كيفيةَ سؤاله، وأمَرهم أن يُقدِّموا بين يديه حمْدَه والثناءَ عليه، وتمجيدَه، ثم ذَكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم؛ توسُّلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وتوسُّلٌ إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدعاء، وهم الوسيلتان المذكورتان في حديثَي الاسم الأعظم:

أحدهما: حديث عبد الله بن بُريدة، عن أبيه رضي الله عنهما، قال: سمِع النبيُّ ﷺ رجلًا يدعو ويقول: اللَّهُمَّ إنِّي أسألك بأنِّي أشهد أنَّك الله الذي لا إلٰه إلا أنت، الأحدُ الصمد، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفُوًا أحد، فقال: «**والَّذي نَفْسي بيَدِه، لَقَدْ سَأَلَ اللهَ باسْمِهِ الأعظَمِ، الذِي إذا دُعِيَ بِه أجابَ، وإذا سُئِلَ بِهِ أعْطَى**»[٢]، قال

(١) **الجمز**: ضربٌ من السير السريع. النهاية لابن الأثير (١/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٩٥٢، ٢٣٠٤١)، وأبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، =

الترمذي: «حديث حسن صحيح»، فهذا توسل بتوحيده وعبوديته.

والثاني: حديث أنس رضي الله عنه؛ أنَّ رسول الله ﷺ سمِع رجلًا يدعو: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك بأنَّ لك الحمدَ، لا إلٰه إلا أنت المنَّان، بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قَيُّومُ، فقال: «**لَقَدْ سَأَلَ اللهَ باسْمِهِ الأعظَمِ**»[(١)].

فهذا توسُّلٌ إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جَمعتِ الفاتحةُ الوسيلتين، وهما التوسُّلُ بالحمد والثناء عليه وتمجيدِه، والتوسُّلُ إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤالُ أهمِّ المطالب، وأنجحِ الرغائب ـ وهو الهداية ـ بعد الوسيلتين؛ فالداعي به حَقيقٌ بالإجابة.

ونظير هذا دُعاءُ النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلِّي من الليل، رواه البخاريُّ في «صحيحه»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ، أنتَ نورُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَنْ فيهِنَّ، ولكَ الحَمْدُ، أنتَ قَيِّمُ السَّمواتِ والأرضِ ومَنْ فيهِنَّ، ولكَ الحَمْدُ، أنتَ الحَقُّ، ووَعْدُكَ الحَقُّ، ولِقَاؤُكَ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبيُّونَ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، ومحمَّدٌ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لكَ أسْلَمْتُ، وبكَ آمَنْتُ، وعَلَيكَ تَوَكَّلْتُ، وإلَيكَ أنَبْتُ، وبكَ خاصَمْتُ، وإلَيكَ حاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسْرَرْتُ وما أعْلَنْتُ، أنتَ إلَهِي لا إلَهَ إلَّا أنتَ**»[(٢)]، فذَكَر التوسُّلَ إليه بحمده والثناءِ عليه، وبعبوديته له، ثم سأله المغفرة.

* * *

علاقة اسم (الله) بجميع أسمائه وصفاته

اسم «الله» مُستلزِمٌ لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالٌّ عليها

= وقال: «حديثٌ حسَن غريب»، كما في المطبوع من جامع الترمذي بخلاف ما ذَكَره ابنُ القيم، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وابن حبان (٨٩٢).

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٠٥)، وأبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٠، ٦٣١٧)، ومسلم (٧٦٩).

بالإجمال، والأسماءُ الحسنى تفصيلٌ وتبيينٌ لصفات الإلٰهيَّة التي اشتُقَّ منها اسم «الله»، واسم «الله» دالٌّ على كونه مألوهًا معبودًا، تَأْلَهُه الخلائق محبَّةً وتعظيمًا وخضوعًا، ومفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزِم لكمال رُبوبيته ورحمته، المتضمِّنَتَينِ لكمال المُلكِ والحمد، وإلٰهيَّتُه وربوبيتُه ورحمانيتُه ومُلكُه مستلزِمٌ لجميع صفات كَمالِه.

فصفاتُ الجلال والجمال أخَصُّ باسم «الله».

وصفاتُ الفِعل والقدرة، والتفرُّدِ بالضرِّ والنفع، والعطاءِ والمنع، ونفوذِ المشيئة وكمالِ القوة، وتدبيرِ أمْرِ الخليقة: أخَصُّ باسم «الرَّبّ».

وصفاتُ الإحسان، والجُودِ، والبِرِّ، والحَنان، والمِنَّة، والرأفةِ واللُّطف: أخَصُّ باسم «الرحمٰن».

دلالات أسماء «الله، والرب، والرحمٰن»

وتأمَّل ارتباطَ الخَلْقِ والأمْر بهذه الأسماء الثلاثة، وهي: «الله، والرب، والرحمٰن»، كيف نَشأ عنها الخَلْقُ والأمر، والثوابُ والعقاب، وكيف جمعَتِ الخَلْقَ وفرَّقَتْهم؟ فلها الجمع، والفرق.

فاسم «الرب» له الجمعُ الجامعُ لجميع المخلوقات؛ فهو ربُّ كلِّ شيء وخالِقُه، والقادر عليه، لا يَخرُج شيءٌ عن رُبوبيته، وكل مَن في السَّموات والأرض عبدٌ له في قبضته، وتحتَ قهْرِه، فاجتمَعوا بصفة الربوبية، وافترَقوا بصفة الإلٰهية؛ فألَّهَهُ وحْدَه السعداءُ، وأقرَّوا له طَوعًا بأنه الله الذي لا إلٰه إلا هو، الذي لا تنبغي العبادةُ والتوكُّل، والرجاءُ والخوف، والحب والإنابة، والإخباتُ والخشية، والتذلُّلُ والخضوع، إلَّا له.

وفي ذِكر هذه الأسماء بعد الحمْد، وإيقاع الحمْد على مضمونها ومقتضاها، ما يدلُّ على أنه محمودٌ في إلهيَّتِه، محمودٌ في ربوبيَّته، محمود في رحمانيَّته، محمود في مُلكه، وأنه إلٰهٌ محمودٌ، وربٌّ محمودٌ، ورحمانٌ محمود، ومَلِكٌ محمودٌ؛ فله بذلك جميعُ أقسام الكمال: كمالٌ من هذا الاسم بمفرده، وكمالٌ من الآخَر بمفرده، وكمالٌ مِن اقتران أحدِهما بالآخَر.

مراتب الهداية الخاصَّة والعامَّة

وهي عشْرُ مراتبَ:

المرتبة الأولى: **مرتبة تكليم الله تعالى لعبده يقظةً بلا واسطة**، بل منه إليه، وهذه أعْلى مراتبِها، كما كلَّم موسى بنَ عِمرانَ صلواتُ الله وسلامُه على نبيِّنا وعليه.

المرتبة الثانية: **مرتبة الوحي المختصِّ بالأنبياء** ﷷ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣].

المرتبة الثالثة: **إرسال الرسول الْمَلَكيِّ إلى الرسول البشريِّ**، فيوحِي إليه عن الله ما أمَرَه أن يُوصلَه إليه. فهذه المراتب الثلاثة خاصَّةٌ بالأنبياء ﷷ، لا تكونُ لغيرهم.

المرتبة الرابعة: **مرتبة التحديث**، وهذه دُون مرتبةِ الوحي الخاصِّ، فتَكونُ للصِّدِّيقين، كما كانت لعُمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، كما قال النبي ﷺ: «**إنَّهُ قد كان في الأُمَمِ قَبْلَكُم مُحَدَّثُون، فإنْ يَكُنْ في هذهِ الأُمَّةِ فعُمرُ بنُ الخطَّابِ**»[1] رضي الله عنه.

والمُحدَّث: هو الذي يُحدَّث في سِرِّه وقلبِه بالشيء، فيكونُ كما يُحدَّثُ به.

المرتبة الخامسة: **مرتبة الإفهام**؛ قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩].

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سُئل: «هل خصَّكم رسولُ الله ﷺ بشيء دُون الناسِ؟ فقال: لا، والذي فَلَقَ الحبَّةَ، وبَرَأ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

النَّسَمةَ، إلَّا فَهْمًا يؤْتيهِ اللهُ عبدًا في كِتابِه، وما في هذه الصَّحيفةِ، وكان فيها العَقْلُ، وهو الدِّيَاتُ، وفَكَاكُ الأسير، وأنْ لا يُقتَلَ مسْلمٌ بكافرٍ»[(١)].

وفي كتاب عُمرَ بنِ الخطاب لأبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنهما: «والفَهْمَ الفَهْمَ فيما أُدلِيَ إليك»[(٢)]؛ فالفَهمُ نِعمة من الله على عبده، ونورٌ يَقذِفُه في قلبه، يدرِك به ما لا يدرِكُه غيرُه، فيَفهمُ من النصِّ ما لا يَفهمُه غيرُه، مع استوائهما في حِفظِه، وفَهْمِ أصلِ معناه.

فالفَهمُ عن الله ورسولِه عنوانُ الصِّدِّيقية، ومنشورُ الوراثة النبوية، وفيه تفاوتتْ مراتب العلماء، حتى عُدَّ ألْفٌ بواحد.

المرتبة السادسة: **مرتبة البيان العامِّ**، وهو تبيينُ الحقِّ وتمييزُه من الباطل بأدلَّته وشواهِدِه وأعلامه، بحيث يصير مشهودًا للقلب، كشهود العينِ للمرئيَّات.

وهذا البيان نوعان: بيانٌ بالآيات المسموعةِ المَتلوَّة، وبيانٌ بالآيات المشهودةِ المرئيَّة، وكلاهما أدلةٌ وآيات على توحيد الله وأسمائِه وصفاتِه وكماله، وصِدْقِ ما أخبرَتْ به رُسُلُه عنه؛ ولهذا يدعو اللهُ عباده بآياته المتلوَّةِ إلى التفكُّر في آياته المشهودة، ويَحضُّهم على التفكُّر في هذه وهذه.

المرتبة السابعة: **البيان الخاصُّ**، وهو البيان المستلزِمُ للهداية الخاصَّةِ، وهو بيانٌ تقارنه العناية والتوفيقُ والاجتباء، وقطع أسباب الخِذلان ومواردِها عن القلب، فلا تتخلَّفُ عنه الهدايةُ البتةَ، قال تعالى في هذه المرتبة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]؛ فالبيان الأول شرطٌ، وهذا موجب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٧، ٦٩١٥).

(٢) أخرجه الدارقطني (٤٤٧١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٥٣٧).

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٣]، وهذا الإسماع أخَصُّ من إسماع الحُجَّةِ والتبليغ؛ فإنَّ ذلك حاصلٌ لهم، وبه قامت الحُجَّةُ عليهم، لكن ذاك إسماعُ الآذان، وهذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظٌ ومعنى، وله نسبةٌ إلى الأذن والقلب وتعلُّقٌ بهما؛ فسماع لفظِه حظُّ الأذن، وسماع حقيقةِ معناهُ ومقصودِه حظُّ القلب؛ فإن الله سبحانه نفى عن الكفار سماعَ المقصودِ والمرادِ الذي هو حظُّ القلب، وأثبتَ لهم سماعَ الألفاظ الذي هو حظُّ الأذن، في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [الأنبياء: ٢ ـ ٣].

ومرتبة السماع مدارُها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب، وترتَّب على هذا السماعِ سماعُ القَبول. فهو إذن ثلاثُ مراتبَ: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القَبولِ والإجابة.

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام؛ قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨]. وقال النبي ﷺ لحُصين الخُزَاعيِّ لمَّا أسلمَ: «**قُل: اللَّهُمَّ أَلْهِمْني رُشْدي، وقِنِي شَرَّ نَفْسي**»[(١)].

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرُّؤيا الصادقة، وهي من

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٩٩٢)، والترمذي (٣٤٨٣) وقال: «حديث غريب»، وابن حبان (٨٩٩)، والحاكم (١٨٨٠) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٧٦).

أجزاء النبوَّة؛ كما ثبَت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**الرُّؤْيا الصَّادِقةُ جُزءٌ مِن سِتَّةٍ وأربَعينَ جُزءًا مِنَ النُّبوَّةِ**»[(١)].

والرؤيا مبدأُ الوحي، وصِدْقُها بحسَب صِدقِ الرائي، وأصدَقُ الناس رؤيا أصدَقُهم حديثًا، وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تُخطئ، كما قال النبي ﷺ[(٢)].

قال عُبادة بن الصامت رضي الله عنه: «**رُؤْيَا المؤْمِنِ كَلامٌ يُكَلِّمُ بِه الرَّبُّ عَبْدَه في المَنامِ**»[(٣)]. وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبوَّةِ إلَّا المُبَشِّراتُ**». قيل: وما المُبَشِّراتُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ يَراها المؤْمِنُ، أوْ تُرَى له**»[(٤)].

والرؤيا كالكشوف؛ منها رحمانيٌّ، ومنها نفْساني، ومنها شيطاني، وقال النبي ﷺ: «**الرُّؤْيا ثلاثةٌ: رُؤْيا مِنَ اللهِ، ورُؤْيَا تَحْزِينٍ مِنَ الشَّيطانِ، ورُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ بِه الرَّجُلُ نَفْسَه في اليَقَظةِ فيَراهُ في المَنَامِ**»[(٥)].

والذي هو مِن أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصَّةً.

ومَن أراد أن تصْدُق رؤياه فليَتحرَّ الصِّدق، وأكْلَ الحلال، والمحافظةَ على الأمر والنهي، ولْينَمْ على طهارة كاملةٍ، مستقبلَ القِبلة، ويذكر اللهَ حتى تَغلِبَه عيناه؛ فإنَّ رؤياه لا تكاد تَكذبُ البتَّةَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم ٤/ ١٧٧٤ (٨/٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «**إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا**».

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٤٨٧) مرفوعًا، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٣٠٧٨). المؤلف ذكره موقوفًا ثم إن الألباني عاد فصححه في الصحيحه (١٧٨٦).

(٤) أخرجه البخاري (٦٩٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٤٧٩) من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأصدَقُ الرؤيا: رؤيا الأسحار؛ فإنه وقتُ النزول الإلٰهي، واقترابِ الرحمة والمغفرة، وسكونِ الشياطين، وعكْسُه رؤيا العَتَمة، عند انتشار الشياطينِ والأرواحِ الشيطانية.



اشتمال الفاتحة على الشِّفاءين: شِفاء القلوب، وشِفاء الأبدان

فأمَّا اشتمالُها على شفاء القلوب: فإنها اشتَملتْ عليه أتمَّ اشتمال؛ فإنَّ مدار اعتلالِ القلوب وأسقامِها على أصلين: فسادِ العِلم، وفساد القصد. ويترتَّبُ عليهما داءانِ قاتِلان، وهما الضلالُ والغضب؛ فالضلال نتيجةُ فسادِ العِلم، والغضب نتيجةُ فسادِ القصد، وهذان المرَضان هما مِلاكُ أمراض القلوبِ جميعِها.

فهداية الصراط المستقيم تتضمَّنُ الشفاءَ من مرَض الضلال؛ ولذلك كان سؤالُ هذه الهدايةِ أفرَضَ دُعاءٍ على كل عبدٍ، وأوجبَه عليه كلَّ يوم وليلةٍ في كل صلاة؛ لشدة ضرورتِه وفاقتِه إلى الهداية المطلوبة، ولا يَقومُ غيرُ هذا السؤالِ مَقامَه.

والتحقُّق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ عِلمًا ومعرفةً، وعملًا وحالًا؛ يتضمَّنُ الشفاءَ من مرَض فساد القلبِ والقصد؛ فإنَّ فساد القصد يتعلَّق بالغايات والوسائل، فمَن طلب غايةً منقطعة مُضْمَحِلَّةً فانية، وتوسَّل إليها بأنواع الوسائل الموصلةِ إليها، كان كِلا نَوْعَيْ قصْدِه فاسدًا، وهذا شأن كلِّ مَن كان غايةُ طلبه غيرَ الله وعبوديتِه، من المشركين ومُتَّبِعِي الشهوات، الذين لا غايةَ لهم وراءَها، وأصحابِ الرِّياسات الْمُتَّبِعِينَ لإقامة رِياستهم بأيِّ طريقٍ كان من حقٍّ أو باطل، فإذا جاء الحقُّ معارِضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإنْ عجَزوا عن ذلك دفعوه دفْعَ الصائل، فإنْ عجَزوا عن ذلك حَبَسُوه في الطريق، وحادُوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعِدُّون لدفْعِه بحسَب الإمكان؛ فإذا لم يجدوا منه بُدًّا أعْطَوه السِّكَّةَ والخُطبةَ، وعزلوه عن التصرُّف والحُكْمِ والتنفيذ.

وإنْ جاء الحقُّ ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالُوا، وأتَوْا إليه مُذْعِنِينَ، لا لأنَّه حقٌّ، بل لموافقته غرضَهم وأهواءَهم، وانتصارهم به؛ ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ [النور: ٤٨ ـ ٥٠].

والمقصود: أنَّ قصْد هؤلاء فاسدٌ في غاياتهم ووسائلِهم، وهؤلاء إذا بَطَلتِ الغاياتُ التي طلبوها، واضمَحلَّتْ وفَنِيَت، حصَلوا على أعظَم الخسرانِ والحسرات، وهُم أعظمُ الناس ندامةً وتحسُّرًا إذا حَقَّ الحقُّ وبطَل الباطلُ، وتقطَّعت بهم أسبابُ الوصلُ التي كانت بينهم، وتيقَّنُوا انقطاعَهم عن رَكْبِ الفلاح والسعادة، وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرَّحيلِ منها والقُدوم على الله تعالى، ويَشتدُّ ظهورُه وتحقُّقه في البَرزخ، وينكشف كلَّ الانكشاف يومَ اللِّقاء، إذا حَقَّت الحقائقُ، وفاز المُحِقُّون، وخَسِر المُبْطِلون، وعلِموا أنهم كانوا كاذِبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هناك مِن عِلم لا ينفع عالِمَه، ويقينٍ لا يُنجي مُسْتَيْقِنَه!

الوسيلة الخطأ من أعظم القواطع

وكذلك مَن طلبَ الغاية العُليا والمَطلب الأعلى، ولكن لم يتوسَّل إليه بالوسيلة الموصلةِ له إليه، بل توسَّل إليه بوسيلةٍ ظنَّها موصلةً إليه، وهي من أعظمِ القواطع عنه، فحالُه أيضًا كحال هذا، وكلاهما فاسدُ القصد، ولا شفاءَ من هذا المرضِ إلا بدواء: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنَّ هذا الدواءَ مركَّبٌ من سِتَّة أجزاء: عبودية اللهِ لا غَيْرِه، بأمْرِه وشرْعِه، لا بالهوى، ولا بآراء الرجالِ وأوضاعِهم ورسومِهم وأفكارهم. واستعانةٌ على عبوديتِه به، لا بنَفْس العبدِ وقوَّتِه وحَوْلِه ولا بغيره؛ فهذه هي أجزاء ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإذا ركَّبَها الطبيبُ العالِمُ بالمرض، واستعملها المريضُ، حصَلَ بها الشفاءُ التامُّ. وما نَقَصَ من الشِّفاء فهو لِفَواتِ جزءٍ من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

مرضان عظيمان يصيبان القلب

ثم إنَّ القلب يَعرِضُ له مرَضانِ عظيمان، إنْ لم يَتداركْهُما تَراميَا به إلى التَّلَف ولا بد، وهما: الرِّياء، والكِبْر؛ فدواء الرِّياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواءُ الكِبْر بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمَعُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ قدَّس اللهُ رُوحَه يقول: بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تَدفع الرِّياء، وبـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ تَدفع الكِبرياءَ.

فإذا عُوفِيَ مِن مرَضِ الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومن مرَضِ الكبرياء والعُجب بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ومن مرَض الضلال والجهل بـ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]؛ عُوفِيَ مِن أمراضه وأسقامِه، ورَفَلَ في أثواب العافية، وتَمَّت عليه النعمة، وكان من المُنْعَم عليهم، غيرِ المغضوب عليهم؛ وهُم أهلُ فسادِ القصد، الذين عرَفوا الحقَّ وعَدَلُوا عنه، والضالِّين؛ وهُم أهلُ فسادِ العِلم، الذين جَهِلوا الحقَّ ولم يَعرِفوه.

وحُقَّ لسورة تَشتمِلُ على هذين الشِّفاءين أن يُستشفَى بها من كلِّ مرَض؛ ولهذا لَمَّا اشتَملتْ على هذا الشفاء الذي هو أعظَمُ الشِّفاءين، كان حصولُ الشفاءِ الأدنى بها أولى؛ فلا شيءَ أشفى للقلوب التي عقَلَتْ عن الله كلامَه، وفهِمَتْ عنه فَهمًا خاصًّا، اختصَّها به مِن معاني هذه السورة.

تضمن سورة الفاتحة لشفاء الأبدان

وأمَّا تضمُّنُها لشفاء الأبدان: فنذكُر منه ما جاءت به السُّنَّة، وما شهِدتْ به قواعدُ الطب، ودلَّت عليه التَّجرِبة.

فأمَّا ما دلَّت عليه السُّنَّة: ففي «الصحيح» من حديث أبي المتوكِّل عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه؛ أنَّ ناسًا من أصحاب النبيِّ ﷺ مرُّوا بحيٍّ من العرب، فلم يَقْرُوهم، ولم يُضيِّفوهم، فلُدِغَ سيِّدُ الحي، فأتوهم، فقالوا: هل عندكم من رُقْيَةٍ، أو هل فيكم مِن راقٍ؟ فقالوا: نعم، ولكنَّكم لم تَقْرُونا، فلا نَفْعَلُ حتى تجعلوا لنا جُعلًا، فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم، فجعل رجلٌ منَّا يقرأُ عليه بفاتحة الكتاب، فقام

كأنْ لم يكن به قَلَبَةٌ، فقلنا: لا تَعْجلوا حتى نأتيَ النبي ﷺ، فأتيْناه، فذكَرْنا له ذلك، فقال: «**ما يُدْريك أنَّها رُقْيَةٌ؟ كُلُوا، واضْرِبُوا لي مَعَكُم بِسَهْمٍ**»[(١)].

فقد تضمَّن هذا الحديثُ حصولَ شفاء هذا اللَّديغ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنَتْه عن الدواء، وربما بلغتْ مِن شفائه ما لم يبلُغْه الدواء، هذا مع كَوْنِ المَحَلِّ غيرَ قابل؛ إمَّا لكون هؤلاء الحيِّ غيرَ مسلمين، أو أهلَ بخلٍ ولُؤم؛ فكيف إذا كان المَحَلُّ قابلًا؟!

وأمَّا شهادةُ قواعدِ الطب بذلك: فاعلمْ أنَّ اللدغة تكون من ذوات الحُمَاتِ والسُّموم، وهي ذوات الأنفس الخبيثةِ التي تتكيَّف بكيفية غضبيَّة، تُثير فيها سُمِّيَّةٌ نارية، فإذا قابلت النَّفسُ الزاكية العُلويةُ الشريفة التي فيها غضبٌ وحَميَّةٌ للحَقِّ هذه النفوسَ الخبيثة السُّمِّيَّة، وتكيَّفت بحقائقِ الفاتحة وأسرارِها ومعانيها، دفَعتْ هذه النَّفسُ بما تكيَّفت به من ذلك أثرَ تلك النَّفْسِ الخبيثةِ الشيطانيَّة، فحصل البُرءُ؛ فإن مبنى الشفاء والبُرْءِ على دفْع الضد بضدِّه، وحِفْظِ الشيءِ بمِثله، ولا يتمُّ هذا إلا بقوةٍ من النفْس الفاعلة، وقَبولٍ من الطبيعة المُنفَعِلة، فلو لم تَنفعِلْ نفْسُ الملدوغ لقَبول الرُّقية، ولم تَقْوَ نفْسُ الراقي على التأثير، لم يَحصُلِ البُرءُ.

فهنا أمور ثلاثةٌ: موافقةُ الدواء للداء، وبَذْلُ الطبيب له، وقَبولُ طبيعة العليل، فمتى تخلَّف واحد منها لم يَحصُلِ الشفاء، وإذا اجتمعت حصَل الشفاءُ ولا بدَّ بإذن الله تعالى.

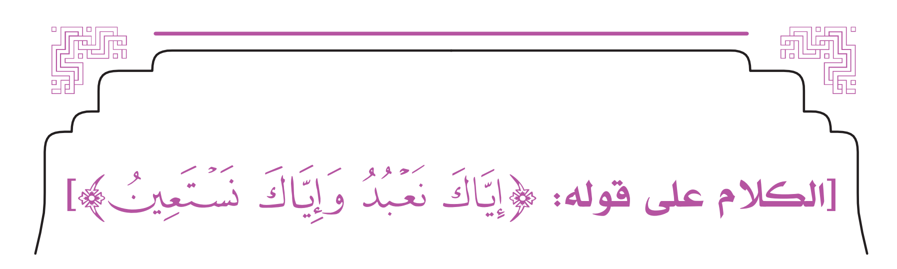
استشفاء ابن القيم بسورة الفاتحة

وأمَّا شهادة التَّجارِب بذلك: فهي أكثرُ من أن تُذْكَر، وذلك في كل زمان، وقد جرَّبْتُ أنا من ذلك في نفْسي وفي غَيري أمورًا عجيبة، ولا سيَّما مدَّةَ المُقامِ بمكةَ أعزَّها الله تعالى؛ فإنه كان يَعرِضُ لي آلامٌ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٦، ٥٧٤٩)، ومسلم (٢٢٠١).
«**ما به قَلَبَةٌ**»؛ أي: ليست به عِلَّةٌ. يُنظر: «الصحاح» للجوهري (١/ ٢٠٥).

مُزْعِجة، بحيث تكاد تَقطعُ الحركةَ منِّي، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسحُ بها على محلِّ الألم فكأنه حصاةٌ تسقط. جرَّبْتُ ذلك مِرارًا عديدة، وكنت آخذُ قَدَحًا من ماء زمزم، فأقرأ عليه الفاتحة مرارًا، وأشربُه، فأجدُ به من النفع والقوَّةِ ما لم أعهَدْ مِثلَه في الدواء، والأمر أعظمُ من ذلك، ولكن بحسَب قوةِ الإيمان، وصحَّةِ اليقين، والله المستعان.





[الكلام على قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾]

أهمية عبادة الله تعالى والاستعانة به

سِرُّ الخَلْقِ والأمْر، والكُتُبِ والشَّرائع، والثواب والعِقاب، انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدارُ العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعةَ كتُب، جمَع معانيَها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمَع معانيَ هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمَع معانيَ القرآن في المُفَصَّل، وجمع معاني المفصَّل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

وهما الكلمتان المقسومتان بيْن الرب وبيْن عبدِه نِصفين، فنِصفُهما له تعالى، وهو ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ونِصفُهما لعبده، وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذُّلِّ والخضوع، والعرب تقول: طريق مُعَبَّد؛ أي: مُذَلَّل، والتعبُّد: التَّذَلُّل والخضوع، فمَن أحببتَه ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له، ومَن خضعْتَ له بلا محبَّةٍ لم تكن عابدًا له، حتى تكون مُحِبًّا خاضعًا.

والاستعانة تجمع أصلين: الثقةَ بالله، والاعتمادَ عليه؛ فإن العبد قد يَثِقُ بالواحد من الناس ولا يَعتمد عليه في أموره، مع ثقته به؛ لاستغنائه عنه، وقد يَعتمدُ عليه مع عدم ثقتِه به؛ لحاجته إليه، ولعدم مَن يقوم مَقامَه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

والتوكُّل معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

حِكمة تقديم العبادة على الاستعانة

وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل؛ إذِ العبادة غايةُ العباد التي خُلِقُوا لها، والاستعانة وسيلةٌ إليها.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ متعلِّقٌ بألوهيته واسمِه «الله»، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ متعلِّقٌ بربوبيته واسمِه «الرب»، فقدَّم ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، كما قدَّم اسمَ (الله) على (الرب) في أول السورة.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ قسمُ الرب، فكان مِن الشطر الأول، الذي هو ثناءٌ على الربِّ تعالى؛ لكونه أولى به، و﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ قسمُ العبد، فكان من الشَّطر الذي له، وهو ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ إلى آخر السورة.

ولأن العبادة المُطلَقة تتضمَّنُ الاستعانةَ من غير عكْس، فكل عابدٍ لله عبوديةً تامَّة مُستعينٌ به، ولا ينعكس؛ لأنَّ صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمَلَ وأتمَّ، ولهذا كانت من قِسمِ الربِّ تعالى.

ولأنَّ الاستعانة جزءٌ من العبادة من غير عكْس.

ولأنَّ الاستعانة طلبٌ منه، والعبادة طلبٌ له، ولأنَّ العبادة لا تكون إلا من مُخلِص، والاستعانة تكون من مُخلِص ومِن غير مُخلِص.

ولأنَّ العبادة حقُّه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلبُ العون على العبادة، وهو صدقَتُه التي تَصدَّق بها عليك، وأداء حقِّه أهمُّ من التعرُّض لصدقته.

ولأنَّ العبادة شكرُ نعمتِه عليك، والله يحبُّ أن يُشكَر، والإعانة فِعْلُه بك وتوفيقُه لك، فإذا التزمْتَ عبوديته، ودخلتَ تحت رِقِّها، أعانك عليها، فكان التزامُها والدخولُ تحت رقِّها سببًا لنَيل الإعانة، وكلما كان العبد أتمَّ عبوديةً كانت إعانةُ الله له أعظَمَ.

العبودية محفوفة بإعانتين

والعبودية محفوفة بإعانتَين؛ إعانة قَبْلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدًا، حتى يَقضيَ العبدُ نَحْبَه.

ولأنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ له، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ به، وما له

مقدَّمٌ على ما به؛ لأنَّ ما له متعلِّقٌ بمحبَّته ورضاه، وما به متعلِّق بمشيئته، وما تعلَّق بمحبته أكملُ ممَّا تعلَّق بمجرَّد مشيئته؛ فإن الكون كلَّه متعلِّقٌ بمشيئته، والملائكةُ والشياطينُ، والمؤمنون والكفَّار، والطاعاتُ والمعاصي، والمتعلِّق بمحبَّته: طاعتهم وإيمانُهم، فالكفَّارُ أهلُ مشيئته، والمؤمنون أهل محبَّته؛ ولهذا لا يستقر في النار شيءٌ لله أبدًا، وكل ما فيها فإنه به وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبيَّن بها حِكمةُ تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

حكمة تقديم المعبود والمستعان على الفعلين

وأمَّا تقديم المعبود والمستعانِ على الفِعلين؛ ففيه: أدبُهم مع الله بتقديم اسمه على فِعْلِهم، وفيه الاهتمام وشدةُ العناية به، وفيه الإيذانُ بالاختصاص المسمَّى بالحصر؛ فهو في قوة: (لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك)، والحاكم في ذلك ذَوقُ العربية والفِقهُ فيها، واستقراءُ مواردِ استِعمال ذلك مُقدَّمًا.

وتأمَّلْ قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة: ٤١]؛ كيف تجده في قوة: (لا ترهبوا غيري)، (ولا تتقوا سواي)، وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ هو في قوة: (لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك)، وكل ذي ذوق سليمٍ يفهم هذا الاختصاصَ من هذا السياق.

* * *

أقسام الناس في العبادة والاستعانة

إذا عُرِف هذا، فالناس في هذين الأصلين ـ وهُما: العبادة والاستعانة ـ أربعةُ أقسام:

أجلُّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانةِ بالله عليها؛ فعبادة الله غايةُ مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفِّقَهم للقيام بها؛ ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الربُّ تبارك وتعالى الإعانةُ على مرضاته، وهو الذي علَّمه النبي ﷺ لحِبِّه معاذِ بنِ جبل رضي الله عنه، فقال «**يا مُعاذُ، واللهِ إنِّي لأُحِبُّك، فلَا تَنْسَ أنْ تقولَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ: اللَّهُمَّ أعِنِّي على ذِكْرِك وشُكْرِك وحُسْنِ**

عِبادَتِكَ»[(١)]، فأنفع الدعاء طلبُ العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافُه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورةِ مدارُها على هذا، وعلى دفْع ما يُضادُّه، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، فتأمَّلْها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رضي الله عنه: «تأمَّلت أنفع الدعاء فإذا هو في سؤال الله العونَ على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة، في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]».

ويقابل هؤلاء القِسمُ الثاني، وهم المُعرِضون عن عبادته والاستعانةِ به؛ فلا عبادة ولا استعانة، بل إنْ سأله أحدُهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه؛ فإنه سبحانه يسأله مَن في السموات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغضُ خلقه إليه عدوُّه إبليس لعنه الله، ومع هذا فقد سأله حاجةً فأعطاه إيَّاها، ومتَّعه بها، ولكن لمَّا لم تكُن عونًا له على مرضاته، كانت زيادةً له في شقاوته، وبُعدِه من الله تعالى وطرْدِه عنه، وهكذا كل مَن استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته، كان مُبعِدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولا بدَّ.

عظيم لطف الله تعالى بسائليه

فليتأمَّل العاقل هذا في نفْسه وفي غيره، وليعلمْ أنَّ إجابة الله لسائليه ليستْ لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبدُه الحاجةَ فيَقضيها له، وفيها هلاكُه وشِقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبَّتِه له، فيمنعه حمايةً وصيانةً وحفظًا لا بُخلًا، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يُريد كرامتَه ومحبَّته، ويُعامله بلطفه، فيظنُّ بجهله أنَّ ربه لا يُحبُّه ولا يُكرمه، ويراه يَقضي حوائج غيره، فيُسيء ظنَّه بربه، وهذا حشوُ قلبِه ولا يشعر به، والمعصوم مَن عصمه الله.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وابن خزيمة (٧٥١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٥٢٢).

فاحذر كل الحذَرِ أن تسأل شيئًا معيَّنًا خِيرتُه وعاقبتُه مغيَّبةً عنكَ، وإذا لم تجد من سؤاله بدًّا، فعلِّقه على شرطِ عِلْمِه تعالى فيه الخيرةَ، وقدِّم بين يدَيْ سؤالك الاستخارةَ، ولا تكن استخارةً باللسان بلا معرفة، بل استخارةَ مَن لا علم له بمَصالحِه، ولا قُدرةَ له عليها، ولا اهتداءَ له إلى تفاصيلها، ولا يَملِكُ لنفْسه نفعًا ولا ضرًّا، بل إن وُكلَ إلى نفسه هلك كلَّ الهلاك، وانفرط عليه أمرُه.

حكمة الله في عطائه ومنْعه

وإذا أعطاكَ ما أعطاك بلا سؤالٍ فاسأله أن يَجعله عونًا لك على طاعته، وبلاغًا إلى مَرضاته، ولا يجعلَه قاطعًا لكَ عنه، ولا مُبعدًا عن مرضاته، ولا تظنَّ أن عطاءه كلَّ ما أعطى لكرامة عبدِه عليه، ولا مَنْعَه كلَّ ما يمنعُه لهوان عبدِه عليه، ولكنَّ عطاءه ومنْعَه ابتلاءٌ وامتحان، يمتحِنُ بهما عباده؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧]؛ أي: ليس كلُّ مَن أعطيتُه ونعَّمْته وخوَّلتُه فقد أكرمتُه، وما ذاك لكرامتِه عليَّ، ولكنه ابتلاء منِّي، وامتحانٌ له، أيشكرني فأُعطيَه فوق ذلك، أم يَكفُرني فأسلُبَه إياه، وأخوِّلَه غيرَه؟ وليس كل مَن ابتليتُه فضيَّقتُ عليه رِزقه، وجعلْتُه بقَدَرٍ لا يفضل عنه، فذلك مِن هوانه عليَّ، ولكنَّه ابتلاء وامتحان منِّي له، أيَصبِر فأُعطيَه أضعافَ أضعافِ ما فاته مِن سَعةِ الرزق، أمْ يَتسخَّطُ فيكونَ حظُّه السخطَ؟

فرَدَّ اللهُ سبحانه على مَن ظنَّ أن سَعة الرزق إكرام، وأنَّ الفقر إهانة، فقال: لم أبْتَلِ عبدي بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتلِه بالفقر لهوانه عليَّ، فأخبر أن الإكرام والإهانةَ لا يَدوران على المال وسَعةِ الرزق وتقديره؛ فإنَّه سبحانه يوسِّع على الكافر لا لكرامته، ويُقتِّر على المؤمن لا لإهانته، إنما يُكرم مَن يُكرمه بمعرفته ومحبَّتِه وطاعته، ويُهينُ مَن يُهينُه بالإعراض عنه ومعصيته، وله الحمدُ على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرةِ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

القسم الثالث: مَن له نوع عبادة بلا استعانة؛ وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القَدَرِيَّة القائلون بأنه قد فَعَل بالعبد جميعَ مقدورِه من الألطاف.

النوع الثاني: مَن لهم عباداتٌ وأوراد، ولكنَّ حظَّهم ناقصٌ من التوكُّل والاستعانة، لم تتَّسِع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدَر، وتلاشيها في طيِّه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالمَوَات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالرُّوح المحرِّك لها، والمُعَوَّلُ على المحرِّك الأول.

فلم تَنفُذْ قوى بصائرهم من المتحرِّك إلى المحرِّك، ومن السبب إلى المسبِّب، ومِن الآلة إلى الفاعل، فضَعُفت عزائمهم، وقَصُرت هِمَمُهم، فقلَّ نصيبهم من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ولم يَجدوا ذَوق التعبُّد بالتوكُّل والاستعانة، وإن وجَدوا ذَوقه بالأوراد والوظائف.

وهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذِ والتأثير بحسَب استعانتهم وتوكُّلِهم، ولهم من الخِذلان والضَّعفِ والمهانة والعجزِ بحسَب قِلَّة استعانتهم وتوكُّلِهم، ولو توكَّل العبد على الله حقَّ توكُّله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأزاله.

معنى التوكل والاستعانة

فإنْ قلتَ: فما معنى التوكُّل والاستعانة؟

قلتُ: هو حالٌ للقلب يَنشأُ عن معرفته بالله تعالى، وتفرُّدِه بالخَلق والتدبير، والضرِّ والنفع، والعطاءِ والمنع، وأنه ما شاء كان وإنْ لم يشأِ الناسُ، وما لم يشأْ لم يكن وإنْ شاءه الناسُ، فيوجِب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينةً به، وثقةً به، ويقينًا بكفايته لِما تَوَكَّل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أو أبَوْهُ، فتُشْبِهُ حالتُه حالةَ الطفل مع أبويه فيما يَنوبه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما، فانظر في تجرُّد قلبه عن الالتفات إلى غير أبَوَيْهِ، وحبْسِ هَمِّه على إنزال ما ينوبه بهما، فهذا حال المتوكِّل، ومَن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بُدَّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

القسم الرابع: وهو مَن شهِد تفرُّدَ الله بالضرِّ والنفع، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكن، ولم يَدُرْ مع ما يُحِبُّه ويرضاه، فتوكَّل عليه، واستعان به على حُظوظه وشهواتِه وأغراضه، وطلبَها منه، وأنزَلَها به، فقُضيتْ له، وأُسعِفَ بها، سواء كانت أموالًا أو رياسةً أو جاهًا عند الخَلق، أو أحوالًا مِن كشْفٍ وتأثير، وقوةٍ وتمكين، ولكن لا عاقبة له؛ فإنَّها من جنس الملك الظاهر، والأموال لا تستلزمُ الإسلام، فضلًا عن الولاية والقرْبِ من الله؛ فإن المُلك والجاهَ والمال والحال مُعْطَاةٌ للبَرِّ والفاجر، والمؤمنِ والكافر، فمَنِ استَدلَّ بشيء من ذلك على محبَّة الله لمَن آتاه إياه، ورِضاهُ عنه، وأنه من أوليائه المقرَّبين، فهو من أجهلِ الجاهِلين، وأبعدِهم معرفةً بالله تعالى ودينه.

❊ ❊ ❊

شرطا قبول الأعمال الصالحة

إذا عُرِف هذا فلا يكون العبدُ متحقِّقًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا **بأصلين عظيمين:**

أحدهما: متابعة الرسول.

والثاني: الإخلاص للمعبود. فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

والناس منقسمون بحسَب هذين الأصلين أيضًا إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل **الإخلاص للمعبود والمتابعة،** وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقةً؛ فأعمالهم كلها لله، وأقوالُهم لله، وعَطاؤهم لله، ومنْعُهم لله، وحبُّهم لله، وبُغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحدَه، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شُكُورًا، ولا ابتغاءَ الجاه عندهم، ولا طلبَ المَحمدة والمنزلةِ في قلوبهم، ولا هربًا من ذمِّهم، بل قد عَدُّوا الناس كأصحاب القبور؛ لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فالعمل لأجل هؤلاء، وابتغاءُ الجاهِ والمنزلة عندهم، ورجاؤُهم للضر والنفع منهم، لا يكون مِن عارف بهم البتَّةَ، بل مِن جاهل بشأنهم، وجاهِلٍ بربِّه، فمَن عرَف الناس أنزلَهم منازلهم، ومَن عرَف الله أخلَص له أعمالَه وأقوالَه، وعطاءَه ومنْعَه، وحُبَّه وبُغضَه، ولا يعامل أحدٌ

الخَلْقَ دون الله إلا لجَهْله بالله وجَهْله بالخَلق، وإلا فإذا عرَف الله وعرَف الناس آثَرَ معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلُّها وعبادتُهم موافقةٌ لأمر الله، ولِما يحبُّه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يَقبل الله مِن عاملٍ سِواه، وهو الذي بَلَا عِبادَه بالموت والحياة لأجْلِه؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وجَعَل ما على الأرض زينةً لها؛ ليَختبِرَهم أيُّهم أحسَنُ عملًا.

قال الفُضَيل بن عِياض رضي الله عنه: «هو أخلَصُه وأصوَبُه. قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصُه وأصوبُه؟ قال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبَل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السُّنَّة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]».

الضرب الثاني: **مَن لا إخلاصَ له ولا متابعة**، فليس عملُه موافِقًا للشرع، وليس هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزيِّنين للناس، المُرائِين لهم بما لم يَشرَعْه الله عز وجل ورسولُه، وهؤلاء هم شِرار الخَلق، وأمْقَتُهُم إلى الله عز وجل، ولهم أوفر نصيبٍ من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]، يَفرَحون بما أتَوْا من البدعة والضلالةِ والشِّرك، ويحبُّون أن يُحْمَدُوا باتِّباع السُّنَّة والإخلاص، وهذا الضرب يَكثُر فيمَن انحرف من المنتسبين إلى العِلم والفقر والعبادةِ عن الصراط المستقيم؛ فإنَّهم يرتكبون البدع والضلالات، والرِّياءَ والسُّمعةَ، ويحبُّون أن يُحْمَدُوا بما لم يفعلوه من الاتِّباع والإخلاصِ والعِلم، فهم أهلُ الغضب والضلال.

الضرب الثالث: **مَن هو مخلصٌ في أعماله**، لكنها على غير متابعة الأمر، كجُهَّال العُبَّاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكلِّ مَن

عَبَدَ الله بغير أمْره، واعتقده قُربةً إلى الله فهذه حاله، كمن يَظنُّ أن سماع المُكَاء والتَّصْدِيةِ قُربة، وأن الخَلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قُربة.

الضرب الرابع: **مَن أعمالُه على مُتابَعةِ الأمر**، لكنَّها لغير الله تعالى، كطاعات المُرائِين، وكالرجل يُقاتِل رِياءً وحَميَّةً وشجاعةً وللمَغْنَم، ويَحُجُّ ليُقال، ويَقرأُ القرآن ليُقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرُها أعمالٌ صالحة مأمور بها، لكنَّها غيرُ خالصة؛ فلا تُقْبَل ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

* * *

الخلاف في أفضل العبادات

ثم أهلُ مقامِ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لهم في أفضلِ العبادة وأنفعِها، وأحقِّها بالإيثار والتخصيصِ أربعةُ طُرُق، وهُم في ذلك **أربعةُ أصناف**:

الصِّنف الأوَّل: **عندَهم أنفع العبادات وأفضَلُها: أشقُّها على النفوس وأصعبُها**؛ قالوا: لأنه أبعدُ الأشياء مِن هَواها، وهو حقيقة التعبُّد. قالوا: والأجر على قدْر المشقَّة. وهؤلاء: هُم أهلُ المجاهدات والجَورِ على النفوس.

الصِّنف الثاني **قالوا: أفضلُ العبادات وأنفعُها: التَّجرُّد، والزهدُ في الدنيا**، والتقلُّلُ منها غايةَ الإمكان، واطِّرَاحُ الاهتمام بها، وعدمُ الاكتراث بكلِّ ما هو منها. ثم هؤلاء **قِسمان**:

فعوامُّهم ظنُّوا أنَّ هذا غايةٌ، فشمَّروا إليه، وعمِلوا عليه، ودَعَوُا الناس إليه، وقالوا: هو أفضلُ مِن درجة العلم والعبادة، فرأَوُا الزهدَ في الدنيا غايةَ كلِّ عبادة ورأسَها.

وخواصُّهم رأَوْا هذا مقصودًا لغيره، وأنَّ المقصود به عكوفُ القلب على الله تعالى، وجمْعُ الهِمَّة عليه، وتفريغُ القلب لمحبَّته، والإنابةِ إليه، والتوكُّل عليه، والاشتغالِ بمرضاته، فرأَوْا أنَّ أفضل العبادات في الجمعيَّة على الله تعالى، ودوامِ ذِكره بالقلب واللسان، والاشتِغالِ بمراقبته، دون كلِّ ما فيه تفريقٌ للقلب، وتشتيتٌ له.

ثم هؤلاء قِسمان:

فالعارفون المتَّبِعُون منهم إذا جاء الأمر والنهيُ بادَروا إليه، ولو فرَّقهم وأذهَبَ جمعيَّتهم.

والمنحرفون منهم يقولون: المقصودُ من العبادة جمعيَّةُ القلب على الله، فإذا جاء ما يُفرِّقه عن الله لم يُلتفَتْ إليه، وربما يقولُ قائلُهم:

يُطالَبُ بِالأورادِ مَن كان غافِلًا فكيف بقَلْبٍ كُلُّ أوقاتِهِ وِرْدُ

وسأل بعضُ هؤلاء شيخًا عارفًا، فقال: إذا أذَّن المؤذِّن وأنا في جمعيَّتي على الله تعالى، فإن قمتُ وخرجتُ تَفرَّقتُ، وإن بقيتُ على حالي بقيتُ على جمعيَّتي، فما الأفضل في حقِّي؟

فقال: إذا أذَّن المؤذِّن وأنت تحت العرش فقُمْ، وأجِبْ داعِيَ الله، ثم عُدْ إلى موضعك.

وهذا لأنَّ الجمعيَّة على الله حظُّ الرُّوح والقلب، وإجابة الداعي حقُّ الرب، ومَن آثَر حظَّ رُوحه على حق ربِّه فليس من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

الصِّنف الثالث: **رأوْا أنَّ أفضلَ العِبادات وأنفعَها ما كان فيه نفعٌ مُتعَدٍّ**: فرأوه أفضلَ من ذي النفع القاصر، فرأوا خِدمة الفقراء، والاشتغالَ بمصالح الناس وقضاءِ حوائجهم، ومساعدتَهم بالمال والجاهِ والنفع أفضلَ، فتصدَّوْا له، وعمِلوا عليه.

واحتجُّوا بأنَّ عمَل العابد قاصرٌ على نفْسه، وعمَلَ النَّفَّاع متعَدٍّ إلى الغير، وأين أحدُهما من الآخَر؟!

قالوا: وقد قال رسولُ الله ﷺ لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لَأنْ يَهدِيَ اللهُ بك رجُلًا واحِدًا خيرٌ لَك مِن حُمْرِ النَّعَمِ**»[١]، وهذا التفضيل للنفع المتعدِّي.

واحتجُّوا بأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام إنما بُعِثوا بالإحسان إلى الخَلق

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

وهدايتِهم، ونَفْعِهم في معاشهم ومعادهم، لم يُبْعَثوا بالخلوات والانقطاعِ عن الناس والترهُّب، ورأى هؤلاء أنَّ التفرُّقَ في أمْر الله، ونفْع عباده، والإحسانِ إليهم، أفضلُ مِن الجمعيَّة عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: **قالوا: إنَّ أفضل العبادة العملُ على مرضاة الربِّ تعالى في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقتِ ووظيفتُه**، فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهادُ، وإنْ آلَ إلى ترْك الأوراد؛ من صلاة الليل، وصيام النهار، بل ومِن ترْك إتمامِ صَلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حُضور الضيفِ مثلًا: القيامُ بحقِّه، والاشتغالُ به عن الوِرد المُستحَبِّ، وكذلك في أداء حقِّ الزوجة والأهل.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليمِ الجاهِل: الإقبالُ على تعليمه، والاشتغالُ به.

والأفضلُ في أوقات السَّحر: الاشتغالُ بالصلاة والقرآن والدعاءِ والذِّكر والاستغفار.

والأفضل في وقتِ الأذان: ترْكُ ما هو فيه مِن وِرده، والاشتغالُ بإجابة المؤذِّن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخَمسِ: الجِدُّ والنُّصحُ في إيقاعها على أكملِ الوجوه، والمبادرةُ إليها في أوَّل الوقت، والخروجُ إلى الجامع، وإنْ بعُد كان أفضلَ.

والأفضل في أوقات ضرورةِ المحتاج إلى المساعدةِ بالجاه، أو البَدَنِ، أو المال: الاشتغالُ بمساعدته، وإغاثةُ لهفته، وإيثارُ ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قِراءة القرآن: جمعيَّةُ القلب والهِمَّة على تدبُّره وتفهُّمِه، حتى كأنَّ الله يخاطبُك به، فتَجمعُ قلبَك على فَهْمه وتدبُّره، والعزمِ على تنفيذ أوامرِه أعظمَ مِن جَمعيَّة قلْبِ مَن جاءه كتابٌ من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوفِ بعرفة: الاجتهادُ في التضرُّع والدعاء والذِّكرِ، دون الصَّومِ المُضعِف عن ذلك.

والأفضل في أيام عَشْرِ ذي الحِجَّة: الإكثارُ من التعبُّد، لا سيَّما التكبير والتهليل والتحميد؛ فهو أفضل من الجهاد غير المُعَيَّن.

والأفضل في العَشْر الأخيرِ من رمضان: لزومُ المسجد فيه، والخلوةُ والاعتكاف، دون التصدِّي لمخالطة الناس والاشتغالِ بهم، حتى إنَّه أفضلُ من الإقبال على تعليمهم العِلمَ، وإقرائِهم القرآنَ، عند كثيرٍ من العلماء.

والأفضل في وقت مرَضِ أخيك المسلم أو موتِه: عيادتُه، وحضورُ جنازتِه وتشييعُه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيَّتِك.

والأفضل في وقت نزول النوازلِ وأذى الناس لك: أداءُ واجب الصبر مع خُلطتك بهم، دون الهرب منهم؛ فإنَّ المؤمن الذي يخالِطُ الناس ويصبر على أذاهُم أفضلُ من الذي لا يخالِطُهم ولا يؤْذونه.

والأفضل خُلطتهم في الخير؛ فهي خيرٌ من اعتزالهم فيه، وعزلتُهم في الشرِّ؛ فهو أفضلُ من خلطتهم فيه، فإنْ عَلِمَ أنه إذا خالطهم أزالَه أو قلَّله فهي خير من عزلتهم.

فالأفضل في كلِّ وقت وحالٍ: إيثارُ مرضاة الله في ذلك الوقتِ والحال، والاشتغالُ بواجب ذلك الوقتِ ووظيفتِه ومُقتضاه.

سمات أهل التعبد المطلق

وهؤلاء هم أهل التعبُّد المُطْلَق، والأصنافُ قبْلَهم أهلُ التعبُّدِ المقيَّد؛ فمتى خرج أحدهم عن الفرْع الذي تعلَّق به من العبادة وفارَقه يرَى نفْسَه كأنه قد نقَص وترَك عبادته، فهو يعبد الله على وجهٍ واحد، وصاحب التعبُّد المطْلَق ليس له غرضٌ في تعبُّدٍ بعينه يُؤثره على غيره، بل غرضه تتبُّع مرضاة الله تعالى أين كانت؛ فمدارُ تعبُّدِه عليها، فهو لا يزال متنقِّلًا في منازل العبودية، كلَّما رُفعت له منزلةٌ عَمِلَ على سَيره إليها، واشتغل بها حتى تلوحَ له منزلةٌ أخرى، فهذا دأبُه في السير حتى

ينتهي سيرُه، فإنْ رأيتَ العلماء رأيتَه معهم، وإنْ رأيت العُبَّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدِّقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعيَّةِ وعُكوفِ القلب على الله رأيتَه معهم.

فهذا هو العبدُ المطْلَقُ، الذي لم تَملِكْه الرُّسوم، ولم تقيِّده القيود، ولم يكن عملُه على مراد نفْسه وما فيه لذَّتُها وراحتُها من العبادات، بل على مراد ربِّه، ولو كانت راحةُ نفْسه ولذَّتُها في سواه، فهذا المتحقِّق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ حقًّا، القائمُ بهما صدقًا، مَلْبَسُه ما تهيَّأ، ومأكلُه ما تيسَّر، واشتغالُه بما أُمِرَ به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى ووجَدَه خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يُقيِّده قيد، ولا يستولي عليه رسْم، حرٌّ مجرَّد، دائر مع الأمر حيث دار، يَدِين بدِين الآمِر أنَّى توجَّهَتْ ركائِبُه، ويدور معه حيث استقلَّت مضارِبُه، يأنس به كُلُّ مُحِقٍّ، ويستوحش منه كُلُّ مُبْطِلٍ، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يَسقُط ورقُها، وكلُّها منفعة حتى شوكُها، وهو موضع الغلظةِ منه على المخالفين لأمر الله، والغضبِ إذا انتُهكتْ محارمُ الله؛ فهو لله وبالله ومع الله، قد صحِب اللهَ بلا خَلق، وصحِب الناس بلا نفْس، بل إذا كان مع الله عزَل الخلائق من البَيْن، وتخلَّى عنهم، وإذا كان مع خَلقه عَزَلَ نفْسه مِن الوسط وتخلَّى عنها، فواهًا له! ما أغرَبَه بين الناس! وما أشدَّ وحشتَه منهم! وما أعظمَ أُنسَه بالله وفرَحَه به، وطمأنينتَه به، وسُكونَه إليه والله المستعان، وعليه التُّكْلان.

* * *

حقيقة العبودية

وبناءُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعدَ: التحقُّق بما يحبُّه الله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمَلِ القلب والجوارح.

فالعبودية: اسمٌ جامعٌ لهذه المراتب الأربع؛ فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾حقًّا هُم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر اللهُ سبحانه به عن نفْسه،

وأسمائِه وصِفاتِه وأفعاله، وملائكتِه، ولقائِه، على لسان رسولِه ﷺ.

وقول اللسان: الإخبارُ عنه بذلك، والدعوة إليه، والذَّبُّ عنه، وتبيينُ بطلانِ البِدَع المخالفةِ له، والقيامُ بذِكره، وتبليغُ أوامره.

وعملُ القلب: كالمَحبَّة له، والتوكُّل عليه، والإنابةِ إليه، والخوف منه، والرَّجاءِ له، وإخلاصِ الدِّين له، والصبر له على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرِّضا به وعنه، والموالاةِ فيه، والمعاداة فيه، والذلِّ له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغيرِ ذلك من أعمال القلوب التي فَرْضُها أفرضُ من أعمال الجوارح، ومُسْتَحَبُّها أحبُّ إلى الله من مستحَبِّها، وعمَلُ الجوارحِ بدونها إمَّا عديمُ المنفعة أو قليلُ المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصَّلاة والجهاد، ونقْلِ الأقدامِ إلى الجمعة والجماعات، ومُساعدةِ العاجز، والإحسان إلى الخَلق، ونحوِ ذلك.

فـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ التزامٌ لأحكام هذه الأربعة، وإقرارٌ بها، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ طلبُ الإعانةِ عليها، والتوفيقِ لها، و﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ مُتضمِّنٌ للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريقِ السالكين إلى الله بهما.



مراتب ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ علمًا وعملًا

للعبودية مراتبُ بحسَب العِلم والعمل؛ فأمَّا مراتبُها العِلميَّةُ **فمرتبتان؛ إحداهما: العِلم بالله، والثانية: العِلم بدينه.**

فأما العِلمُ به سبحانه فخَمسُ مراتبَ: العِلم بذاته، وصفاتِه، وأفعاله، وأسمائِه، وتنزيهُه عمَّا لا يليقُ به.

والعِلمُ بدينه مرتبتان؛ إحداهما: دينُه الأمريُّ الشرعيُّ، وهو الصراط المستقيمُ الموصل إليه. والثانية: دينه الجَزائيُّ، المتضمِّن ثوابَه وعقابَه، وقد دخَل في هذا العِلمِ العِلمُ بملائكته وكُتُبِه ورسله.

وأما مراتبُها العَمليَّةُ فمرتبتان: مرتبة أصحابِ اليمين، ومرتبة السابقينَ المقرَّبين.

فأما مرتبةُ أصحاب اليمين: فأداءُ الواجبات، وتَرْكُ المُحرَّمات، مع ارتكاب المباحات، وبعضِ المكروهات، وترْكِ بعضِ المستحبَّات.

وأما مرتبةُ المقرَّبين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وتَرْكُ المحرَّمات والمكروهات، زاهدِين فيما لا ينفعُهم في مَعادهم، متورِّعين عما يخافون ضررَه. وخاصَّتُهم قد انقلبت المباحاتُ في حقِّهم طاعاتٍ وقُرُباتٍ بالنِّيَّة، فليس في حقِّهم مباحٌ متساوي الطرفين، بل كلُّ أعمالِهم راجحةٌ، ومَن دونهم يَتركُ المباحات مشتغلًا عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعاتٍ وقُرُبات، ولأهْل هاتَينِ المرتبتين درجاتٌ لا يُحصيها إلا اللهُ تعالى.

* * *

قواعد العبودية وأحكامها

ورحَى العبوديةِ تَدور على خمسَ عشْرةَ قاعدةً، مَن كمَّلها كمَّل مراتبَ العبودية.

وبيانُها أن العبودية منقسمةٌ على القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كلٍّ منها عبوديَّةٌ تخصُّه.

والأحكام التي للعبودية خمسةٌ: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.

عبوديات القلب

فواجب **القلب** كالإخلاص، والتوكُّل، والمَحبَّةِ، والصبر، والإنابةِ، والخوف، والرجاء، والتصديقِ الجازم، والنيَّةِ في العبادة، وهذه قدرٌ زائد على الإخلاص؛ فإنَّ الإخلاص هو إفرادُ المَعبود عن غيره.

ونيَّةُ العبادة لها مرتبتان؛ إحداهما: تمييز العبادة عن العادة. والثانية: تمييز مراتبِ العباداتِ بعضِها عن بعض.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبيَّةِ لها طرَفان: واجبٌ مستحَقٌّ؛ وهو مرتبة أصحاب اليمين. وكمالٌ مُستحَبٌّ؛ وهو مرتبة المقرَّبين.

والقصد: أنَّ هذه الأعمالَ ـ واجبُها ومستحَبُّها ـ هي عبودية القلب، فمَن عطَّلها فقد عطَّل عبودية المَلِكِ وإنْ قام بعبودية رعيَّتِه من الجوارح.

والمقصود: أن يكون مَلِكُ الأعضاء قائمًا بعبوديته لله تعالى هو ورعيَّتُه.

وأما المحرَّمات التي عليه: فكَالكِبْر، والرياء، والعُجبِ، والحسد، والغفلة، والنِّفاق.

وهي نوعان: كفْرٌ، ومعصية؛ فالكفر: كالشكِّ، والنفاق، والشِّركِ، وتوابِعِها.

والمعصية نوعان: كبائرُ، وصغائر؛ فالكبائر: كالرياء، والعُجبِ، والكِبر، والفَخرِ، والخُيلاء، والقنوطِ من رحمة الله، واليأس من رَوْح الله، والأمن من مكر الله، وتوابعِ هذه الأمورِ التي هي أشد تحريمًا من الزنا وشُربِ الخمر وغيرِهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبةِ منها، وإلا فهو قلبٌ فاسد، وإذا فسَدَ القلب فسَدَ البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأُ من الجهل بعبودية القلب، وترْكِ القيام بها، فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على القلب قَبل الجوارح، فإذا جهِلَها وترَك القيامَ بها امتلأ بأضدادها ولا بُدَّ، وبحسَب قيامِه بها يتخلَّصُ من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوُها قد تكون صغائرَ في حقه، وقد تكون كبائرَ، بحسَب قوَّتِها وغِلَظِها، وخِفَّتِها ودِقَّتِها.

ومِن الصغائر أيضًا: شهوةُ المحرَّمات وتمنِّيها، وتفاوُتُ درجات الشهوةِ في الكِبَر والصِّغَر بحسَب تفاوت درجاتِ المُشتهَى، فشهوةُ الكفر والشِّركِ كفْر، وشهوة البدعة فِسْق، وشهوة الكبائر معصية.

* * *

عبوديات اللسان

وأما عبوديات اللسانِ الخَمسُ:

فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوةُ ما يلزمه تلاوتُه من القرآن، وهو ما تتوقَّف صحَّة صلاتِه عليه.

وأما مُستحبُّه: فتلاوة القرآن، ودوامُ ذِكْر الله، والمذاكَرة في العلم النافع، وتوابعُ ذلك.

وأما محرَّمُه: فهو النطق بكل ما يُبغِضه اللهُ ورسولُه.

ومكروهُه: التكلُّم بما ترْكُه خيرٌ من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف: هل في حقِّه كلامٌ مباحٌ متساوي الطرَفين؟ على قولين، والتحقيق: أنَّ حركة اللسان بالكلام لا تكون متساويةَ الطرَفين، بل إما راجحة، وإما مرجوحة؛ لأن للِّسان شأنًا ليس لسائر الجوارح، وكل ما يتلفَّظ به اللسانُ فإما أن يكون ممَّا يُرضي اللهَ ورسولَه أم لا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح، وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح، فإن صاحبها قد ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرَفين؛ لِما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأُبِيحَ له استعمالُها فيما فيه منفعةٌ له، ولا مضرَّة عليه فيه في الآخرة،

وأما حركةُ اللسان بما لا ينتفع به فلا يكونُ إلا مضرَّة، فتأمَّلْه.

* * *

عبوديات الجوارح

وأما العُبودياتُ الخَمسُ على الجوارح فعلى خَمسٍ وعشرين مرتبةً أيضًا؛ إذِ الحواسُّ خَمسٌ، وعلى كل حاسَّةٍ خَمسُ عبوديات.

فعلى السمعِ: وُجوبُ الإنصاتِ والاستماعِ لِما أوجبه اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ عليه؛ مِن استماعِ الإسلام والإيمانِ وفروضِهما.

ويَحرُم عليه استماعُ الكفرِ والبدعِ، وكذلك استماعُ أصواتِ النِّساء الأجانبِ التي تُخشى الفتنةُ بأصواتِهنَّ، إذا لم تدْعُ إليه حاجةٌ. وكذلك استماعُ المعازف.

وأما السمعُ المستحَبُّ: فكاستماعِ المُستحَبِّ من العلمِ، وقراءةِ القرآن، وذِكرِ الله.

والمكروهُ عكْسُه، وهو استماعُ كلِّ ما يُكرَهُ ولا يُعاقَب عليه.

والمباح ظاهرٌ.

وأما النظرُ الواجبُ: فالنظرُ في المصحفِ، وكُتبِ العلمِ عند تعيُّن تعلُّم الواجب منها.

والنظرُ الحرامُ: النظرُ إلى الأجنبيَّاتِ بشهوةٍ مُطلقًا، وبغيرِها إلا لحاجةٍ.

والمُستحبُّ: النظرُ في كتبِ العلمِ والدِّين التي يزدادُ بها الرجلُ إيمانًا وعلمًا.

والمكروهُ: فضولُ النظرِ الذي لا مصلحةَ فيه.

والمباحُ: النظرُ الذي لا مضرَّةَ فيه في العاجلِ ولا الآجلِ، ولا منفعةَ.

ومن النظرِ الحرام: النظرُ إلى العوراتِ.

وأما الذَّوق الواجبُ: فتناولُ الطعام والشرابِ عند الاضطرارِ إليه، وخوفِ الموتِ، وتناولُ الدَّواءِ إذا تيقَّن النجاةَ به مِن الهلاك.

والذوقُ الحرامُ: كذوقِ الخمرِ.

وأما المكروهُ: فكذوقِ المُشتبهاتِ، والأكلِ فوقَ الحاجة.

والذوقُ المُستحبُّ: أكلُ ما يُعينك على طاعةِ اللهِ ﷻ، مما أذِنَ اللهُ فيه.

والذوقُ المباح: ما لم يكُن فيه إثمٌ ولا رُجحانٌ.

وأما تعلُّق العُبودياتِ الخمسِ **بحاسَّةِ الشمِّ**:

فالشمُّ الواجبُ: كلُّ شمٍّ تعيَّنَ طريقًا للتمييزِ بين الحلال والحرامِ؛ كالشمِّ الذي يُعلم به هذه العينُ: هل هي خبيثةٌ أو طيبةٌ.

وأما الشمُّ الحرامُ: فالتعمُّدُ لشمِّ الطِّيب في الإحرام.

وأما الشمُّ المستحبُّ: فشمُّ ما يُعينك على طاعةِ اللهِ، ويُقوِّي الحواسَّ.

والمكروهُ: كشمِّ طِيب الظَّلَمة، وأصحابِ الشُّبهاتِ، ونحو ذلك.

والمباحُ: ما لا منْعَ فيه من اللهِ ولا تبعةَ، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلُّق له بالشرعِ.

وأما تعلُّقُ هذه الخمسةِ **بحاسَّة اللمسِ**:

فاللمسُ الواجبُ: كلمسِ الزوجةِ حين يجِب جماعُها.

والحرامُ: لمْسُ ما لا يحِلُّ من الأجنبيَّات.

والمستحبُّ: إذا كان فيه غضُّ بصرِه، وكفُّ نفْسِه عن الحرامِ، وإعفافُ أهلِه.

والمكروهُ: لمْسُ الزوجةِ في الإحرامِ لِلَذَّةٍ، وكذلك في الاعتكافِ.

والمباحُ: ما لم يكن فيه مفسدةٌ ولا مصلحةٌ دِينية.

وهذه المراتبُ أيضًا مرتَّبَةٌ على البطشِ باليدِ، والمشيِ بالرِّجل، وأمثلتُها لا تَخفى.

فمِن البطشِ الواجبِ: إعانةُ المضطرِّ، ورميُ الجمارِ، ومباشرةُ الوضوءِ، والتيمُّم.

والحرامُ: كقتلِ النفْسِ التي حرَّم اللهُ قتْلَها، ونهبِ المال المعصومِ.

وأما المكروهُ: فكالعبثِ واللعِبِ الذي ليس بحرامٍ.

والمستحبُّ: كتابةُ كلِّ ما فيه منفعةٌ في الدِّين، أو مصلحةٌ لمسلمٍ، والإحسانُ بيده.

والمباحُ: ما لا مضرَّة فيه ولا ثوابَ.

وأما المشيُ الواجب: فالمشيُ إلى الجُمعاتِ والجماعاتِ.

والحرامُ: المشيُ في معصيةِ اللهِ، وهو مِن رَجِلِ الشيطانِ؛ قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وكذلك تتعلَّق هذه الأحكامُ الخمسةُ **بالرُّكوب** أيضًا:

فواجبُه: الركوبُ للغزوِ، والجهادِ، والحجِّ الواجب.

ومستحبُّه: الرُّكوبُ للمُستحبِّ من ذلك، ولطلبِ العِلم، وصلةِ الرَّحم، وبرِّ الوالدين.

وحرامُه: الرُّكوب في معصيةِ اللهِ ﷻ.

ومكروهُه: الرُّكوب لِلَّهوِ واللعبِ، وكلِّ ما تركُه خيرٌ من فِعله.

ومباحُه: الرُّكوب لِما لم يتضمَّن فوتَ أجرٍ، ولا تحصيلَ وِزرٍ.

فهذه خمسونَ مرتبةً على عشرةِ أشياءَ: القلبِ، والسمع، والبصر، واللسان، والأنفِ، والفمِ، واليَدِ، والرِّجل، والفَرج، والاستواءِ على ظَهرِ الدَّابَّة.



منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التي يَنتقِل فيها القلبُ منزلةً منزلةً في حال سَيْرِه إلى الله تعالى

منزلة اليقظة

فأولُ منازلِ العُبوديَّة: **اليقظة**، وهي: انزعاجُ القلب لِرَوعة الانتباه مِن رقدة الغافلين.

وللهِ ما أنفعَ هذه الرَّوعةَ! وما أعظمَ قدْرَها وخطرَها! وما أشدَّ إعانتَها على السلوك! فمَن أحسَّ بها فقد أحسَّ واللهِ بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبَهَ شمَّر للهِ بهمَّته إلى السفر إلى منازله الأُولى، وأوطانِه التي سُبِيَ منها.

فحَيَّ على جَنَّاتِ عَدْنٍ فإنَّها مَنازِلُكَ الأُولَى وفيها المُخَيَّمُ
ولكنَّنا سَبْيُ العدُوِّ فهلْ تُرَى نَعُودُ إلى أوطانِنا ونُسَلَّمُ؟

فأخَذ في أُهبة السفر، فانتقل إلى **منزلة العزم**؛ وهو العقد الجازم على المَسِير، ومفارقةِ كلِّ قاطع ومعوِّق، ومُرافقةِ كل مُعِين ومُوَصِّل، وبحسَب كمالِ انتباهه ويقظتِه يكون عزمُه، وبحسَب قوة عزمِه يكون استعدادُه.

فإذا استيقظ أوجبت له اليقظةُ **الفكرةَ**؛ وهي تحديقُ القلب نحوَ المطلوب الذي قد استعَدَّ له مُجمَلًا، ولَمَّا يَهتدِ إلى تفصيله وطريقِ الوصول إليه.





[منزلة البصيرة]

فإذا صحَّت فكرتُه أوجبت له البصيرةَ؛ فهي نور في القلب يُبصِر به الوعدَ والوعيد، والجنةَ والنار، وما وَعَد اللهُ في هذه لأوليائه، وفي هذه لأعدائه، فأبصَرَ الناسَ وهم قد خرَجوا من قبورهم مُهْطِعِينَ لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكةُ السموات فأحاطت بهم، وقد جاء الله، ونُصِبَ كُرّسِيُه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض لنوره، ووُضِعَ الكتاب، وجِيءَ بالنبيِّينَ والشهداء، وقد نُصِبَ الميزان، وتطايرت الصُّحُف، واجتمعت الخُصوم، وتعلَّق كلُّ غَريم بغريمه، ولاحَ الحَوضُ وأكوابُه عن كَثَب، وكثُر العِطَاشُ وقَلَّ الوارِد، ونُصِبَ الجسر للعبور، ولُزَّ الناسُ إليه، وقُسمت الأنوارُ دون ظلمته للعبور عليه، والنار يَحْطِمُ بعضُها بعضًا تحتَه، والمتساقطون فيها أضعافُ أضعافِ الناجين، فينفتح في قلبه عينٌ يرى بها ذلك، ويقوم بقلبه شاهدٌ من شواهد الآخرة يُرِيهِ الآخرةَ ودوامَها، والدنيا وسرعةَ انقضائها.

مفهوم البصيرة

فالبصيرة نورٌ يقذفه الله في القلب، يرى به حقيقةَ ما أخبرت به الرسل، كأنه شاهَدٌ رأيَ عَيْنٍ، فيتحقَّق مع ذلك انتفاعُه بما دعت إليه الرسل، وتضرُّره بمخالفتهم، وهذا معنى قول بعضِ العارفين: البصيرة تحقُّق الانتفاع بالشيء والتضرُّر به. وقال بعضهم: البصيرة ما خلَّصك من الحيرة؛ إما بإيمان، وإما بعِيان.

درجات البصيرة

والبصيرة على ثلاث دَرجات؛ مَن استَكملها فقد استَكمل البصيرة: بصيرة في الأسماء والصفات، وبصيرة في الأمر والنَّهي، وبصيرة في الوعْد والوعيد.

فالبصيرة في الأسماء والصفات: ألَّا يتأثَّر إيمانُك بشُبهة تُعارِضُ ما

وصَف الله به نفْسَه، ووصفَه به رسولُه، بل تكون الشُّبَه المُعارضة لذلك عندك بمنزلة الشُّبَه والشكوكِ في وجود الله، فكلاهما سواء في البطلان عند أهل البصائر.

تأملات أهل البصيرة في عظمة الله سبحانه

وعقْدُ هذا أن يشهَدَ قلبُك الربَّ تبارك وتعالى مستويًا على عرشه، متكلِّمًا بأمرِه ونهيه، بصيرًا بحركات العالم عُلْويِّه وسُفْليِّه، وأشخاصه وذواته، سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وأسرارهم، وأمْرُ الممالك تحت تدبيره، نازلٌ مِن عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تُنفِّذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، منزَّهًا عن العيوب والنقائص والمثال، هو كما وصَف نفْسه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه، حيٌّ لا يموت، قيُّوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقالُ ذَرَّةٍ في السموات ولا في الأرض، بصير يرى دَبيبَ النملةِ السوداء، على الصخرة الصمَّاء، في الليلة الظلماء، سميع يَسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنُّن الحاجات، تَمَّتْ كلماتُه صِدْقًا وعدلًا، فجلَّت صفاتُه أن تُقاس بصفات خلْقِه شَبهًا ومِثلًا، وتعالت ذاتُه أن تُشبه شيئًا من الذوات أصلًا، ووسعِتْ الخليقةَ أفعالُه عدلًا وحكمةً ورحمةً وإحسانًا وفضلًا، له الخَلْقُ والأمر، وله النعمة والفضل، وله المُلكُ والحمد، وله الثناء والمجد، أولٌ ليس قبله شيء، آخرٌ ليس بعده شيء، ظاهر ليس فوقَه شيء، باطن ليس دونَه شيء، أسماؤه كلُّها أسماء مدْحٍ وحمدٍ، وثناءٍ وتمجيدٍ، ولذلك كانت حُسْنَى، وصفاتُه كلُّها صفاتُ كمالٍ، ونُعوته نُعوتُ جلال، وأفعاله كلُّها حكمةٌ ورحمة، ومصلحة وعدل، كلُّ شيء من مخلوقاته دالٌّ عليه، ومرشِد لمن رآه بعين البصيرة إليه، لم يَخلُقِ السمٰواتِ والأرضَ وما بينهما باطلًا، ولا ترَك الإنسان سُدًى عاطلًا، بل خلق الخَلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبَغَ عليهم نِعَمَه ليتوسَّلوا بشكرها إلى زيادته وكرامته، تعرَّف إلى عباده بأنواع التعرُّفات، وصَرَّف لهم الآيات، ونَوَّع لهم الدلالات، ودعاهم إلى محبته من

جميع الأبواب، ومدَّ بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب، فأتمَّ عليهم نِعَمَهُ السابغة، وأقام عليهم حُجَّتَه البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكَتَب على نفْسه الرحمة، وضَمَّن الكِتابَ الذي كتبه: أن رحمته تَغلِبُ غضبَه.

البصيرة في الأمر والنَّهي؛ وهي تجريده عن المعارضة بتأويل، أو تقليد، أو هوًى، فلا يقوم بقلبِه شُبهةٌ تُعارِض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوةٌ تمنع من تنفيذه وامتثالِه والأخذ به، ولا تقليدٌ يُزيحه عن بذْل الجُهدِ في تلقِّي الأحكام من مِشكاة النصوص.

فهو أن تشهد قيامَ الله تعالى على كل نفس بما كسبت في الخير والشر، عاجلًا وآجلًا، في دار العمل ودار الجزاء، وأنَّ ذلك هو موجِب إلٰهيته وربوبيته، وعدله وحكمته.

* * *

ولصاحب «المنازل» في البصيرة طريقةٌ أخرى؛ قال: (**البَصيرةُ ما يُخلِّصُكَ مِن الحَيْرةِ، وهي على ثلاثِ درجاتٍ:**

الأُولى: أنْ تَعلَمَ أنَّ الخبرَ القائِمَ بتمهيدِ الشَّريعةِ يَصدُرُ عنْ عَينٍ لا تَخافُ عواقبَها، فتَرَى مِن حقِّهِ أنْ تُؤَدِّيَهُ يقينًا، وتغضبَ له غَيْرَةً).

ومعنى كلامه: أنَّ ما أخبر به الرسولُ ﷺ صادرٌ عن حقيقة صادقة، لا يَخافُ متَّبِعُها فيما بعدُ مكروهًا، بل يكون آمنًا من عاقبةِ اتِّباعها؛ إذ هي حقٌّ، ومُتَّبعُ الحقِّ لا خوفٌ عليه، ومِن حق ذلك الخبرِ عليك أن تؤدِّيَ ما أُمِرْتَ به منه من غير شكٍّ، ولا سلوكِ الأحوطِ.

قال: (**الدَّرجةُ الثَّانيةُ: أنْ تَشهَدَ في هدايةِ الحَقِّ وإضلالِهِ: إصابةَ العَدلِ، وفي تَلوينِ أقسامِهِ: رِعايةَ البِرِّ، وتُعايِنَ في جَذْبِهِ: حَبْلَ الوِصالِ**).

يُريد رَحِمَهُ اللهُ بشهود العدل في هدايته مَن هَدَاه، وفي إضلاله مَن أضلَّه **أمرين**:

أحدهما: تفرُّده بالخَلق، والهُدى والضلال.

والثاني: وقوع ذلك منه على وجْهِ الحكمة والعدل، لا بالاتِّفاق، ولا بمحض المشيئة المجرَّدةِ عن وضع الأشياء مواضِعَها، وتنزيلِها مَنازلَها.

قوله: **(وفي تَلوينِ أقسامِهِ رِعايةَ البِرِّ)**: يريد بتلوين الأقسام: اختلافَها في الجنس والقَدْرِ والصِّفَة، من أقسام الأموال والقوى، والعلوم والصنائع وغيرِها، قسَّمها على وجه البِرِّ والمصلحة، فأعطى كلًّا منهم ما يُصْلِحُه، وما هو الأنفع له؛ برًّا به وإحسانًا.

وقوله: **(وتُعايِنُ في جَذْبِه حَبْلَ الوِصالِ)**، يريد: تعايِنُ في توفيقه لك للطاعة، وجذبه إياك من نفْسك: أنه يريدُ تقريبَك منه، فاستعار للتوفيق الخاصِّ الجذبَ، وللتقريب الوصالَ، وأراد بالحبل السببَ الموصِّل لك إليه. فأشار بهذا إلى أنك تستدلُّ بتوفيقه لك، وجَذْبِك من نفسك، وجَعْلِك متمسِّكًا بحبله الذي هو عهده ووصيته إلى عباده على تقريبه لك، بل تشاهد ذلك ليكون أقوى في المحبة والشكر، وبَذْل النصيحة في العبودية، وهذا كلُّه من تمام البصيرة، فمَن لا بصيرة له هو بِمَعْزِل عن هذا.

قال: **(الدَّرَجةُ الثالثةُ: بَصيرةٌ تُفَجِّرُ المعرفةَ، وتُثْبِتُ الإشارةَ، وتُنْبِتُ الفِرَاسةَ)**، فإنَّ بهذه البصيرة تتفجَّر من قلب صاحبها ينابيعُ من المعارف، التي لا تُنال بكسبٍ ولا دراسة، إنْ هو إلا فَهْمٌ يؤتيه الله عبدًا في كتابه ودينه، على قدر بصيرته.

وقوله: **(وتُثبِتُ الإشارةَ)** يريد بالإشارة: ما يُشير إليه القوم من الأحوال والمنازلات، والأذواق، فإن كان له بصيرةٌ ثبَّتت بصيرتُه ذلك له، وحقَّقَتْه عنده، وعرَّفته تفاصيله، وإن لم يكن له بصيرةٌ بل كان جاهلًا، لم يعرِفْ تفصيل ما يَرِد عليه، ولم يهتدِ لتثبيته.

قوله: **(وتُنْبتُ الفِراسةَ)**؛ يَعني: أن البصيرة تُنبِت في أرض القلب الفِراسةَ الصادقة، وهي نور يقذفه الله في القلب، يُفرِّق به بين الحق والباطل، والصادقِ والكاذب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ

﴿٧٥﴾ [الحجر: ٧٥]، وفي الترمذيِّ من حديث أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**اتَّقُوا فِرَاسةَ المؤْمِنِ؛ فإنَّه يَنظُرُ بِنُورِ اللهِ** عز وجل»، ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥][(١)].

لأنهم يَستدلُّون بما يُشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسلُ، من الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وقد ألْهَم الله تعالى ذلك لآدم عليه السلام، وعلَّمه إياه حين علَّمه أسماءَ كلِّ شيء، وبَنُوه هم نسخته وخلفاؤه، فكل قلب فهو قابل لذلك، وهو فيه بالقوة، وبه تقوم الحُجَّة، وتحصل العِبرة، وتَصِحُّ الدَّلالة، فبعث الله رسله مذكِّرين ومنبِّهين، ومكمِّلين لهذا الاستعداد، بنور الوحي والإيمان، فينضاف ذلك إلى نور الفِرَاسة والاستعداد، فيصير نورًا على نور، فتقوى البصيرةُ، ويعظُم النور ويدوم؛ لزيادة مادَّتِه ودوامِها، ولا يزال في تزايُد حتى يُرَى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال.

ومَن لم يَقبل هُدَى الله ولم يَرفَع به رأسًا دخل قلبُه في الغلاف والكِنَان، فأظلَمَ، وعَمِيَ عن البصيرة، فحُجِبَتْ عنه حقائقُ الإيمان، فيرى الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا، والرشدَ غيًّا، والغيَّ رشدًا، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، و«الرَّيْن» و«الرَّان»: هو الحجاب الكثيف المانِع للقلب من رؤية الحق والانقياد له.

أنواع الفراسة وعلاقتها بقوة البصيرة

وعلى حسَب قوة البصيرة وضعفِها تكون الفِرَاسة، وهي نوعان:

فراسة عُلوية شريفة مختصَّة بأهل الإيمان، وفراسة سُفلية دنيئة مشتركة بين المؤمن والكافر؛ وهي فراسة أهل الرِّياضة والجوع والسهر والخَلوة، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل، وهؤلاء لا تتعدَّى

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧)، وقال: «هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه»، والطبراني في الأوسط (٧٨٤٣)، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٨٢١).

فراستهم هذه السُّفليات؛ لأنهم محجوبون عن الحق تبارك وتعالى، فلا تَصعد فراستهم إلى التمييز بين أوليائه وأعدائه، وطريقِ هؤلاء وهؤلاء.

وأما فِراسة الصادقين، العارفين بالله تعالى وأمرِه؛ فإن هِمَمَهم لمَّا تعلَّقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته، ودعوةِ الخَلق إليه على بصيرة، كانت فراستُهم متصلة بالله، متعلِّقةً بنور الوحي مع نور الإيمان، فمَيَّزتْ بين ما يحبُّه الله وما يبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال، وميَّزت بين الخبيث والطَّيِّب، والمُحِقِّ والمُبطِل، والصادق والكاذب، وعرَفت مقادير استعداد السالكين إلى الله تعالى، فحملت كل إنسان على قدر استعداده، عِلمًا وإرادة وعملًا.

وفراسة هؤلاء دائمًا حائمة حول كشف طريق الرسول وتعريفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشْف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريقة المرسَلين؛ فهذا أشرف أنواع البصيرة والفِراسة، وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.





[منزلة القصد]

فإذا انتبه وأبصر أخذ في «القصد» وصِدْق الإرادة، وأجْمَعَ القصدَ والنية على سفر الهجرة إلى الله، وعَلِم وتيقَّن أنه لا بدَّ له منه، فأخذ في أُهبَة السفر، وتعبئةِ الزاد ليوم المعاد، والتجرُّد عن عوائق السفر، وقطع العلائق التي تمنعه من الخروج.

درجات القصد وفوائده

وقد قسَّم صاحب «المنازل» القصد إلى ثلاث درجات؛ فقال: (**الدَّرجةُ الأُولَى: قَصْدٌ يَبعثُ على الارْتِياضِ، ويُخَلِّصُ مِنَ التَّردُّدِ، ويَدْعو إلى مُجانبةِ الأغراضِ**).

فذكر له ثلاثَ فوائدَ: أنه يبعث على السلوك بلا توقُّف، ولا تردُّد، ولا علَّة غير العبودية، من رياء أو سمعة، أو طلب مَحْمَدةٍ، أو جاهٍ، أو منزلة عند الخلق.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: قَصْدٌ لا يَلْقَى سببًا إلَّا قَطَعَه، ولا حائِلًا إلَّا مَنَعَه، ولا تحامُلًا إلَّا سهَّلَه**)؛ يعني: أنه لا يلقى سببًا يعوق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلًا دونه إلا منعه، ولا صعوبة إلا سهَّلها.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: قَصْدُ الاستِسلامِ لتَهذيبِ العِلْمِ، وقَصْدُ إجابةِ دَواعِي الحُكْمِ الدِّينيِّ الأمْرِيِّ**)، يُريد أنه ينقاد إلى العلم ليتهذَّب به ويَصلحَ به، ولكنَّ مراده بدواعي الحُكْم: الأسرار والحِكَم الداعية إلى شرع الحُكْم، فإجابتها قدرٌ زائد على مجرَّد الامتثال؛ فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال، والمعرفة والحمد، والأمر يدعو إلى الامتثال، وما تضمَّنه من الحِكَم، والغاياتُ تدعو إلى المعرفة والمحبة.

❁ ❁ ❁



[منزلة العزم]

فإذا استحكَمَ قصدُه صار «عزمًا» جازمًا، مستلزمًا للشروع في السفر، مقرونًا بالتوكُّل على الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والعزم: هو القصدُ الجازم المتَّصل بالفعل، ولذلك قيل: إنه أوَّل الشروع في الحركة لطلب المقصود، وحقيقته: هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

والعزم **نوعان**؛ **أحدهما**: عزم المُريد على الدخول في الطريق، وهذا من البدايات. **والثاني**: عزمٌ في حال السَّير، وهو أخصُّ من هذا.

* * *

ترابط مقامات السالكين وتداخلها

واعلم أنَّ ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويُفارقه وينتقل إلى الثاني، كمنازل السير الحِسِّي، هذا مُحَال، ألا ترى أن اليقظة معه في كل مقام لا تفارِقه؟ وكذلك البصيرة والإرادة والعزم، وكذلك التوبة؛ فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضًا، بل هي في كل مقام مُسْتَصْحَبة؛ ولهذا جعلها الله تعالى آخِرَ مقاماتِ خاصته، فقال تعالى في غزوة تبوك ـ وهي آخر الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنهايات ـ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧]؛ فجعل التوبة أوَّلَ أمْرِهم وآخِرَه.

ومن المقامات ما يكون جامعًا لمقامَين، ومنها ما يكون جامعًا

لأكثر من ذلك، ومنها ما يَندرج فيه جميع المقامات، فلا يستحقُّ صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه.

فالتوبة جامعة لمقام المحاسَبة ومقام الخوف، لا يُتصَوَّر وجودُها بدونهما.

والرضا جامعٌ لمقام الصبر ومقام المحبة، لا يُتصوَّر وجودُه بدونهما.

والتوكُّل جامع لمقام التفويض والاستعانةِ والرضا، لا يُتصوَّر وجودُه بدونها.

والرجاء جامع لمقام الخوف والإرادة.

والخوف جامع لمقام الرجاء والإرادة.

والإنابة جامعة لمقام المحبَّةِ والخشية، لا يكون العبد مُنيبًا إلا باجتماعهما.

والإخبات جامع لمقام المحبة والذلِّ والخضوع، لا يكون أحدُها بدون الآخَر إخباتًا.

والزهد جامع لمقام الرغبة والرهبة، لا يكون زاهدًا مَن لم يرغبْ فيما يرجو نفعه، ويرهب مما يَخاف ضررَه.

ومقام المحبة جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة؛ فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة، وبها تحقُّقُها.

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار، ومُقَرَّبُون؛ فالأبرار في أذياله، والمقرَّبون في ذِرْوَة سَنامه، وهكذا مراتبُ الإيمان جميعُها، وكلٌّ من النوعين لا يُحصِي تفاوتَهم، وتفاضُلَ درجاتهم إلا الله تعالى.

أعلى مقامات السالكين وأحوالهم

وقد يعرض «للعبد» له أعلى المقامات والأحوال في أول بداية سَيْرِه، فيَنفتح عليه من حال المحبة والرضا والأُنسِ والطمأنينة ما لم يحصل بعدُ للسالك في نهايته، ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور

ـ من البصيرة، والتوبة، والمحاسبة ـ أعظم من حاجة صاحب البداية إليها، فليس في ذلك ترتيب كلِّيٌّ لازمٌ للسلوك.

فالأولى الكلامُ في هذه المقامات على طريقة المتقدِّمين من أئمة القوم كلامًا مُطلقًا في كل مقام مقام، ببيان حقيقته ومُوجِبه، وآفته المانعة من حصوله، والقاطع عنه، وذِكْر عامِّه وخاصِّه، فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج؛ فإنَّهم تكلموا على أعمال القلوب وعلى الأحوال كلامًا مُفصَّلًا جامعًا مبينًا مطلقًا من غير ترتيب، ولا حصر للمقامات بعددٍ معلوم، فإنهم كانوا أجلَّ من هذا، وهِمَمُهم أعلى وأشرف، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النفوس، وتصحيح المعاملة؛ ولهذا كلامهم قليلٌ فيه البركة، وكلام المتأخِّرين كثيرٌ طويل قليل البركة.

وتالله ما امتاز عنهم المتأخِّرون إلا بالتكلُّف، والاشتغالِ بالأطراف التي كانت هِمَّةُ القوم مراعاة أصولها، وضبْطَ قواعدها، وشَدَّ معاقدها، وهمِمُهم مُشمِّرةٌ إلى المطالبِ العالية في كلِّ شيءٍ، فالمتأخِّرون في شأنٍ والقومُ في شأنٍ آخر، و﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

فالأَولى بنا: أنْ نذكُرَ منازلَ العُبودية الواردة في القرآن والسُّنَّة، ونشيرَ إلى معرفةِ حُدودِها ومراتبِها؛ إذ معرفةُ ذلك مِن تَمامِ معرفةِ حدودِ ما أنزل اللهُ تعالى على رسولِه، وقد وصَف اللهُ تعالى مَن لم يعرِفْها بالجهلِ والنِّفاق، فقال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]، فبمعرفةِ حُدودِها درايةٌ، والقيامُ بها رِعايةٌ، يستكملُ العبدُ الإيمانَ، ويكونُ مِن أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

ونذكر لها ترتيبًا غيرَ مُستحقٍّ، بل مُستحسنٌ، بحسب ترتيبِ السَّيرِ الحسيِّ؛ ليكونَ ذلك أقربَ إلى تنزيلِ المعقولِ منزلةَ المشهودِ بالحسِّ، فيكونَ التَّصديقُ به أتمَّ، ومعرفتُه أكملَ، وضبطُه أسهلَ.



[منزلة اليقظة]

فاعلم أنَّ العبدَ قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة، قلبُه نائم وطرْفه يَقظان، فصاح به الناصح، وأسمعه داعي النجاح، وأذَّنَ به مؤَذِّن الرحمٰن: «حيَّ على الفلاح».

فأول مراتب هذا النائم اليقظةُ والانتباه من النوم.

وصاحب «المنازل» يقول: (**القَوْمةُ للهِ هيَ اليَقَظةُ مِن سِنَةِ الغَفلةِ، والنُّهوضُ عن وَرْطةِ الفَتْرةِ، وهيَ أوَّلُ ما يَستَنيرُ قلبُ العبدِ بالحياةِ لرُؤيةِ نورِ التنبيهِ، وهي ثلاثةُ أشياءَ: لَحْظُ القلبِ إلى النِّعْمةِ، على اليأسِ مِن عَدِّها، والوقوفِ على حَدِّها، والتَّفَرُّغُ إلى معرفةِ المِنَّةِ بها، والعِلْمُ بالتَّقصيرِ في حَقِّها**).

موجب اليقظة وأثرها

وهذا الذي ذكَره هو مُوجِبُ اليقظةِ وأثرها؛ فإنه إذا نهَض من ورطة الغفلة، واستنار قلبه برؤية نور التنبيه، أوجَبَ له ذلك ملاحظةَ نِعَم الله الباطنة والظاهرة، وكلَّما حدَّق قلبُه وطرْفُه فيها شاهَدَ عظمتها وكثرتها، فيئِس من عَدِّها، والوقوف على حدِّها، وفرَّغَ قلبه لمشاهدة مِنَّة الله عليه بها، من غير استحقاق، ولا استجلاب لها بثمن، فتيقَّنَ حينئذ تقصيرَه في واجبها، وهو القيامُ بشكرها.

فأوجب له شهودُ تلك المِنَّةِ والتقصير نوعين جليلين من العبودية: محبَّة المُنعِم، واللَّهَج بذِكْرِه، وتذلُّله وخضوعه له، وإزراءَه على نفسه؛ حيث عجز عن شكر نِعَمِه، فصار متحقِّقًا بـ«**أبُوءُ لكَ بِنِعمَتِكَ علَيَّ، وأبُوءُ بذَنْبي، فاغفِرْ لي؛ إنَّه لا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنتَ**»[١]، وعلِمَ حينئذ

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

أن هذا الاستغفار حقيقٌ بأن يكون سيِّدَ الاستغفار، وعلم حينئذٍ أن الله لو عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذَّبَهُم وهو غير ظالم لهم، ولو رحِمَهم لكانت رحمتُه خيرًا لهم من أعمالهم، وعَلِم أنَّ العبد دائمًا سائر إلى الله بين مطالعة المنَّة، ومشاهدة التقصير.

قال: (**الثاني: مُطالَعةُ الجِنايةِ، والوقوفُ على الخَطَرِ فيها، والتَّشمِيرُ لِتَدارُكِها، والتَّخلُّصُ مِن رِقِّها، وطَلَبُ النَّجاةِ بتَمْحيصِها**).

فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة، ويعلم أنه على خطر عظيم فيها، مُشْرِف على الهلاك بمؤاخَذةِ صاحب الحقِّ بموجِب حَقِّهِ، وقد ذمَّ الله تعالى في كتابه مَن نسيَ ما قدمت يداه، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، فإذا طالَعَ جنايته شمَّر لاستدراك الفارِط بالعلم والعمل، وتخلَّص من رِقِّ الجناية بالاستغفار والنَّدم، وطَلَبِ التمحيص، وهو تخليصُ إيمانه ومعرفته من خَبَثِ الجناية.

تمحيص المؤمن في الدنيا والآخرة

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياءَ: بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحِيَة، والمصائبِ المُكَفِّرة، فإنْ مَحَّصَتْه هذه الأربعةُ وخلَّصته كان من الذين تتوفَّاهم الملائكة طيِّبينَ، يُبَشِّرونهم بالجنة، وكان من الذين ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وإن لم تَفِ هذه الأربعةُ بتمحيصه وتخليصه؛ فلم تكن التوبةُ نصوحًا، وهي العامَّةُ الشاملة الصادقة، ولم يكن الاستغفار كاملًا تامًّا، وهو المصحوبُ بمُفارَقة الذنب والندم عليه، هذا هو الاستغفار النافع، لا استغفارَ مَن في يده قدح المُسْكِر، يقول: أستغفر الله، ثم يَرفعه إلى فيه! ولم تكن الحسناتُ في كَمِّيَّتِها وكيفيَّتِها وافيةً بالتكفير، ولا المصائب، وهذا إما لعِظَم الجناية، وإما لضَعْف المُمَحِّص، وإما لهما: مُحِّصَ في البرزخ **بثلاثة أشياءَ**:

أحدها: صلاة أهل الإيمان عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم له.

الثاني: تمحيصُه بفتنة القبر، وروعة الفَتَّان، والعَصْرَة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يُهدي إليه إخوانُه المسلمون من هدايا الأعمال.

فإنْ لم تَفِ هذه الثلاثةُ بالتمحيص: مُحِّصَ بين يَدَيْ ربه في الموقف بثلاثة أشياءَ: أهوال القيامة وشدة الموقف، وشفاعة الشُّفَعاء، وعفو الله عَزَّقِجَلَّ.

فإن لم تَفِ هذه الثلاثة بتمحيصه: فلا بدَّ له من دخول الكِير، رحمةً في حقِّه؛ ليتخلَّص ويتمحَّص، ويتطهَّر في النار، فتكون النارُ طُهرةً له وتمحيصًا لخبثه، ويكون مُكثُه فيها على حسَب كثرة الخبث وقلَّته، وشدَّته وضعفه وتراكُمه، فإذا خرج خبثُه وصُفِّي ذَهَبُه، وصار خالصًا طيبًا، أُخرجَ من النار، وأُدخل الجنة.

قال: (**الثَّالثُ** ـ يعني: مِن مَراتِبِ اليَقَظةِ ـ: **الانتِباهُ لِمَعْرِفةِ الزِّيادَةِ والنُّقْصانِ مِنَ الأيَّامِ، والتَّنَصُّلُ مِن تَضيِيعِها، والنَّظَرُ إلى الضَّنِّ بها لتَدارُكِ فَائِتِها، وتَعْميرِ باقِيها**).

يعني: أنه يَعرف ما معه من الزيادة والنُّقصان، فيتدارك ما فاته في بقية عمره التي لا ثَمَنَ لها، ويَبخل بساعاته ـ بل بأنفاسه ـ عن ذهابها ضياعًا في غير ما يقرِّبه إلى الله.

حقيقة مشاهدة نعم الله على العبد

قال: (**فأمَّا مَعرِفةُ النِّعْمةِ فإنَّها تَصْفُو بِثَلاثةِ أشياءَ: بِنُورِ العَقْلِ، وشَيْمِ بُروقِ المِنَّةِ**[١]**، والاعتِبارِ بأهْلِ البَلاءِ**)

يعني: أنَّ حقيقة مشاهدة النعمة تصفو بهذه الثلاثة؛ وهي النورُ الذي أوجب اليقظة، فاستنار القلبُ به لرؤية التنبيه، وعلى حسَبه قوةً وضعفًا تصفو له مُشاهدة النِّعمة، فإنَّ مَن لم يرَ نعمة الله عليه إلا في

(١) **شِمْتَ البَرْقَ شَيْمًا:** رَقَبْتَهُ تَنْظُرُ أينَ يَصُوبُ. «المصباح المنير» مادة: (شيم).

مأكله وملبسه، وعافية بدنه، وقيام وجهه بين الناس، فليس له نصيب من هذا النور البَتَّةَ، فنعمة الله بالإسلام والإيمان، وجذْب عبده إلى الإقبال عليه، والتنعُّم بذِكْرِه، والتلذُّذ بطاعته هو أعظم النِّعَم، وهذا إنما يُدرَك بنور العقل، وهداية التوفيق.

وكذلك شَيْمُه بُروقَ مِنَنِ الله عليه، وهو النظر إليها، ومطالعتها من خلال سُحُبِ الطبع، وظلمات النفس، والنظر إلى أهل البلاء، وهُم أهل الغفلة عن الله، والابتداع في دين الله، فإذا رآهم، وعلِم ما هُم عليه، عَظُمَت نعمة الله عليه في قلبه، وصَفَتْ له، وعرف قدرها.

سبل مطالعة العبد لجنايته

قال: (**وأمَّا مُطالَعةُ الجِنايةِ فإنَّها تَصِحُّ بثَلاثةِ أشياءَ؛ بتَعظيمِ الحَقِّ، ومَعرِفةِ النَّفْسِ، وتَصديقِ الوعيدِ**).

يعني: أنَّ مَن كمُلَت عظمةُ الحق تعالى في قلبه عَظُمت عنده مخالفتُه؛ لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة مَن هو دونه.

ومَن عرَف قدْر نفْسِه وحقيقتَها، وفَقْرَها الذاتيَّ إلى مولاها الحقِّ في كل لحظة ونَفَس، وشدة حاجتها إليه، عَظُمتْ عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونَفَس.

وأيضًا فإذا عرف حقارتها مع عِظَم قدر مَن خالفه عَظُمت الجناية عنده، فشمَّر في التخلُّص منها.

وكذلك بحسَب تصديقه بالوعيد ويقينه به يكونُ تشميرُه في التخلُّص من الجناية التي تلحقه به، ومدار السعادة، وقطْبُ رَحاها على التصديق بالوعيد، فإذا تعطَّل من قلبه التصديقُ بالوعيد خرِب خرابًا لا يُرجى معه فلاحٌ البتَّةَ، واللهُ تعالى أخبرَ أنه إنَّما تنفعُ الآياتُ والنُّذر لمن صدَّق بالوعيدِ، وخاف عذابَ الآخرةِ، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذارِ، والمنتفعون بالآيات دون مَن عداهم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥]. وأخبر تعالى أنَّ أهلَ النجاةِ

في الدنيا والآخرةِ هم المصدِّقون بالوعيد، الخائفون منه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤].

قال: (**وأمَّا مَعرِفةُ الزِّيادةِ والنُّقصانِ مِنَ الأيَّام، فإنَّها تَستَقيمُ بثَلاثةِ أشياءَ: سَمَاعِ العِلْم، وإجابةِ دَواعِي الحُرْمةِ، وصُحْبةِ الصَّالِحينَ، ومِلاكُ ذلكَ كلِّهِ خَلْعُ العاداتِ**).

يعني: أن السالك على حسَب علمه بمراتب الأعمال، ونفائس الكَسْب، تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه، وكذلك تَفقُّد إجابة داعي تعظيم حُرُمات الله مِن قلبه، هل هو سريع الإجابة لها، أم هو بطيءٌ عنها؟ فبحسَبِ إجابة الداعي ـ سرعةً وإبطاءً ـ تكون زيادته ونقصانُه، وكذلك صُحْبة أرباب العزائم، والمشمِّرين إلى اللَّحاق بالملأ الأعلى، يعرف به ما معه من الزيادة والنُّقصان.

ضرر ملك العادات للعبد

والذي يملك به ذلك كلَّه خروجُه عن العادات والمألوفات، وتوطينُ النفس على مفارقتها، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض، وما على العبد أضرُّ من ملْك العادات له، وما عارَضَ الكفارُ الرُّسلَ إلا بالعادات المستمرَّة، الموروثة لهم عن الأسلاف الماضِينَ، فمَن لم يُوَطِّنْ نفْسه على مفارقتها والخروج منها، والاستعداد للمطلوب منه، فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦].

❁ ❁ ❁



[منزلة الفِكرة]

فإذا استحكمت يقظتُه أوجبتْ له الفكرة، وهي: تحديقُ القلب إلى جهة المطلوب؛ التماسًا له.

والفكرة فكرتان: فكرة تتعلَّق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلَّق بالطلب والإرادة.

فالتي تتعلِّق بالعلم والمعرفة: فكرةُ التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفيِّ.

والتي تتعلَّق بالطلب والإرادة فهي الفكرة التي تُميِّز بين النافع والضارِّ، ثم يترتَّب عليها فكرةٌ أخرى في الطريق إلى حُصول ما ينفع، فيسلكها، وطريق ما يضرُّ، فيتركها.

فهذه ستَّةُ أقسام لا سابعَ لها، هي مجال أفكار العُقَلاء.



[منزلة المحاسبة]

أساس المنازل

وهذه المنازل الأربعة [وهي: اليقظة، والبصيرة، والفكرة، والعزم] لسائر المنازل كالأساس للبُنيان، وعليها مدار منازل السفر إلى الله تعالى، ولا يُتصوَّر السفرُ إليه بدون نزولها البتَّةَ، وهي على ترتيب السَّير الحِسِّي، فإنَّ المقيم في وطنه لا يتأتَّى منه السفرُ حتى يستيقظ من غفلته عن السفر، ثم يتبصَّر في أمر سفره وخَطَرِه، وما فيه من المنفعة والمصلحة، ثم يفكِّر في أُهبة السفر والتزوُّد وإعداد عُدَّته، ثم يعزم عليه، فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى **منزلة المحاسبة**؛ وهي التمييز بين ما له وعليه، فيَستصحِب ما له، ويؤدِّي ما عليه؛ لأنه مسافرٌ سَفَرَ مَنْ لا يعود.

وقد دلَّ على المحاسبة قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨]، وقال عمر بن الخطاب ﵁: حاسِبُوا أنفُسَكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوها قبل أن تُوزَنُوا، وتَزَيَّنُوا للعَرْضِ الأكْبر؛ ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾ [الحاقة: ١٨]، أو قال: على مَن لا تخفى عليه أعمالُكم.

أركان المحاسبة

قال صاحب «المنازل»: **(المُحاسَبةُ لها ثَلاثةُ أرْكانٍ؛ أحدُهَا: أنْ تُقايِسَ بيْن نِعْمتِهِ وجِنايَتِك)**.

يعني: تُقايسُ بين ما مِنَ الله وما منك، فحينئذ يظهرُ لك التفاوتُ، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعطَبُ.

وفي هذه المُقايَسة تعلم أنَّ الرب ربٌّ والعبدَ عبدٌ، وتتبين لك حقيقةُ النفْس وصفاتُها، وعَظَمةُ جلال الربوبية، وتفرُّد الرب بالكمال

والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وأنت قبل هذه المُقايَسةِ جاهلٌ بحقيقة نفْسك، وبربوبية فاطرها وخالِقِها، فإذا قايَسْتَ ظهَر لك أنها منبع كلِّ شر، وأساس كل نقْص، وأنَّ حدَّها: الجاهلةُ الظالمة، وأنَّه لولا فضلُ الله ورحمته بتزكيته لها ما زكتْ أبدًا، ولولا هُداه ما اهتدت، ولولا إرشاده وتوفيقُه لما كان لها وصولٌ إلى خير البتَّة، وأنَّ حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها، وتَوَقُّفه عليه كتوقُّف وجودها على إيجاده، فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود، فكذلك ليس لها من ذاتها كمالُ الوجود، فليس لها من ذاتها إلا العدم ـ عدم الذات، وعدم الكمال ـ فهناك تقول حقًّا: «أبُوءُ لكَ بنِعمَتِكَ علَيَّ، وأبُوءُ بذَنْبي».

ثم تقايِسُ بين الحسنات والسيِّئات، فتعلم بهذه المُقايَسة أيهما أكثرُ وأرجَحُ قدْرًا وصفةً. وهذه المقايسة الثانية مقايسةٌ بين أفعالك وما منك خاصَّةً.

أمور تشق المحاسبة بفقدها

قال: **(وهَذِهِ المُقايَسةُ تَشُقُّ على مَنْ ليس له ثَلاثةُ أشْياءَ: نُورُ الحِكْمةِ، وسُوءُ الظَّنِّ بالنَّفْسِ، وتَمْييزُ النِّعْمةِ مِنَ الفِتنةِ)**.

يعني: أنَّ هذه المقايَسةَ والمحاسَبةَ تتوقف على نور الحكمة، وهو النور الذي نوَّر اللهُ به قلوبَ أتباع الرسل، وهو نورُ الحكمة، فبقدرِه ترى التفاوُتَ، وتتمكَّن مِن المحاسَبة.

ونور الحِكمة هاهنا: هو العلم الذي يميِّز به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والضارِّ والنافع، والكامل والناقص، والخير والشر، ويُبصِر به مراتب الأعمال، راجحَها ومرجوحَها، ومقبولها ومردودها، وكلما كان حظُّه من هذا النور أقوى كان حظُّه من المحاسَبة أكملَ وأتمَّ.

وأما سوء الظنِّ بالنفس فإنما احتاج إليه؛ لأنَّ حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش ويُلَبِّس عليه، فيرى المَساوئ محاسنَ، والعيوبَ كمالًا؛ فإن المُحِبَّ يرى مساوئ محبوبه وعيوبَه كذلك.

فعَيْنُ الرِّضا عن كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلةٌ   كما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَساوِيَا

ولا يُسيء الظنَّ بنفسه إلا مَن عرفها، ومَن أحسَنَ ظنَّه بها فهو من أجهلِ الناس بنفْسه.

كيف يميز العبد النعمة من الفتنة؟

وأما تمييزه النعمةَ من الفتنة؛ ليُفَرِّق بين النِّعمة التي يراد بها الإحسانُ واللطفُ، ويُعان بها على تحصيل سعادته الأبدية، وبين النعمة التي يُراد بها الاستدراج، فكم مِن مُستدرَج بالنِّعم وهو لا يشعر، مفتونٍ بثناء الجُهَّال عليه، مغرور بقضاءِ الله حوائجَه وسترِه عليه! وأكثر الخلق عندهم أنَّ هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح، ذلك مبلغُهم من العلم.

فإذا كَمَلتْ هذه الثلاثة فيه عرَف حينئذ أن ما كان من نِعَم الله عليه بِجَمْعِه على الله فهو نعمة حقيقية، وما فرَّقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المِنحة، فليَحذر فإنما هو مُستدرَجٌ. ويميِّز بذلك أيضًا بين المِنَّة والحُجَّة، فلم تَلتبس إحداهما عليه بالأخرى.

فكل عِلْم صحبَه عملٌ يُرضيه سبحانه فهو مِنَّة، وإلا فهو حُجَّة.

وكل قوة ظاهرة أو باطنة صَحِبَها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي مِنَّة، وإلا فهي حجة.

وكل حال صَحِبَه تأثير في نصرة دينه والدعوة إليه فهو مِنَّةٌ، وإلا فهو حُجَّة.

وكل قَبول في الناس، وتعظيم ومحبَّة له، اتَّصَل به خضوعٌ للربِّ، وذلٌّ وانكسار، ومعرفة بعيب النفس والعمل، وبذْل النصيحة للخَلق، فهو مِنَّة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة، وتذكيرٍ وتعريفٍ من تعريفات الحق سبحانه

إلى العبد، اتَّصَل به عِبْرَة ومزيدٌ في العقل، ومعرفة في الإيمان، فهي مِنَّة، وإلا فهي حجة.

وكل حال مع الله أو مقام اتَّصَل به السيرُ إلى الله، وإيثارُ مُرادِه على مراد العبد، فهو مِنَّة من الله، وإنْ صَحِبَه الوقوف عنده والرِّضا به، وإيثارُ مقتضاه، من لذَّة النفس به، وطمأنينتها إليه، وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمَّل العبد هذا الموضع العظيمَ الخطر، ويميِّز بين مواقع المِنَّة ومواقع الحجَّة، فما أكثرَ ما يَلتبِس ذلك على خواصِّ الناسِ وأربابِ السلوك! ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

تمييز ما على العبد وما له من الحقوق

الركن الثاني من أركان المحاسبة: أنْ تميِّز بين ما للحق عليك من وجوب العبودية، والتزام الطاعة، واجتناب المعصية، وبين ما لكَ، وهو المباح الشرعي، فعليك حق، ولك حق، فأدِّ ما عليك، يُؤْتِكَ ما لك.

ولا بدَّ من التمييز بين ما لك وما عليك، وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه. وكثيرٌ من الناس يجعل كثيرًا مما عليه من الحق مِن قسْم ما له، فيتخيَّر بين فعله وتركه، وإنْ فَعَله رأى أنه فضلٌ قام به لا حقٌّ أدَّاه، وبإزاء هؤلاء مَن يرى كثيرًا ممَّا له فِعْلُه وتركُه مِن قسم ما عليه فِعلُه أو تركُه، فيتعبَّد بترك ما له فعلُه؛ كتَركِ كثير من المباحات، ويظنُّ ذلك حقًّا عليه، أو يتعبَّد بفِعلِ ما له تركُه، ويظنُّ ذلك حقًّا عليه.

عواقب جهل العبد بنفسه

ومن أركان المحاسبة ما ذكره صاحبُ «المنازل»، فقال: (**الثَّالثُ: أنْ تَعرِفَ أنَّ كُلَّ طاعةٍ رَضِيتَها مِنك فهيَ عليكَ، وكلَّ مَعصيةٍ عَيَّرْتَ بها أخاكَ فهيَ إليكَ**).

رِضا العبد بطاعته دليلٌ على حُسنِ ظنِّه بنفسه، وجَهلِه بحقوق العبوديَّة، وعدمِ عِلمِه بما يَستحقُّه الرب ﷻ ويليق أن يعامَل به.

وحاصل ذلك: أنَّ جهلَه بنفسه وصفاتها وآفاتها، وعيوبِ عمله، وجهلَه بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامَل به، يتولَّد منهما رضاه بطاعته،

وإحسانُ ظنِّه بها، ويتولَّد من ذلك من العُجْب والكِبْر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة؛ من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحف، ونحوها؛ فالرضا بالطاعة من رُعونات النفس وحماقتِها.

وأرباب العزائم والبصائر أشدُّ ما يَكونون استغفارًا عَقِيب الطاعات؛ لشهودهم تقصيرَهم فيها، وتَرْك القيام لله بها كما يَليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لَمَا أقدمَ أحدُهم على مثل هذه العبودية، ولا رَضِيَها لسيده.

وقد أمَرَ الله تعالى وَفْدَه وحجَّاجَ بيته بأن يستغفروه عَقِيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجَلُّ المواقف وأفضلُها، فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ [البقرة: ١٩٨ ـ ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: ١٧]، قال الحسن رضي الله عنه: «مَدُّوا الصلاة إلى السَّحَر، ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل».

خطورةُ الرِّضا عن النفْس

وقال بعض العارفين: «متى رَضِيتَ نفسك وعملَك لله فاعلم أنه غيرُ راضٍ به». ولله درُّ الشيخ أبي يزيدَ حيث يقول: «مَن تحقَّقَ بالعبوديةِ نظر أفعالَه بعينِ الرِّياءِ، وأحوالَه بعين الدَّعوى، وأقوالَه بعين الافتراء».

وكلَّما عَظُم المطلوبُ في قلبِك صغُرَتْ عندك وتضاءلت القيمةُ التي تَبذلها في تحصيله، وكلَّما شهِدْتَ حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرَفْتَ الله، وعرَفْتَ النفس، تبيَّن لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثَّقلَين خشيتَ عاقبته، وإنما يَقبله بكرمه وجوده وتفضُّله، ويُثيبُك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضُّله.

تعيير المذنب أعظم من ذنبه

وقوله: (**وكُلُّ مَعصيةٍ عَيَّرْتَ بها أخاكَ، فهيَ إليكَ**)، يَحتمل أن يريد به: أنَّها صائرةٌ إليكَ ولا بدَّ أن تعملَها، ويَحتمل أن يُريد: أنَّ تَعْييرَك لأخيك بذنبه أعظمُ إثْمًا من ذنبه وأشدُّ من معصيته؛ لِما فيه من صَوْلَة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من

الذنب، وأنَّ أخاك هو الذي باءَ به، ولعل كَسْرَته بذنبه، وما أحدثَ له من الذِّلَّة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلُّص من مرض الدعوى، والكِبْر والعُجْب، ووقوفه بين يدي الله ناكسَ الرأس، خاشعَ الطرف، مُنكسِر القلب أنفعُ له، وخيرٌ له من صَوْلَة طاعتك، وتكثُّرك بها، والاعتداد بها، والمِنَّة على الله تعالى وخَلْقِه بها، فما أقربَ هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا الْمُدِلَّ من مَقْتِ الله!

فذنبٌ تَذِلُّ به لديه، أحبُّ إليه من طاعة تُدِلُّ بها عليه، وإنك أنْ تبيتَ نائمًا وتصبحَ نادمًا، خيرٌ من أن تبيت قائمًا وتصبح مُعجَبًا، فإن المعجَب لا يصعد له عمل، وإنك إن تَضحك وأنت معترِف، خيرٌ من أن تبكي وأنت مُدِلٌّ، وأنينُ المذنبين أحبُّ إليه من زَجَل المُسَبِّحين المُدِلِّينَ، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داء قاتلًا هو فيك ولا تشعر.

لا يأمن القدر إلا أهل الجهل بالله

فلِلَّه في أهل طاعته ومعصيته أسرارٌ لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارفُ البشر، ووراءَ ذلك ما لا يطَّلع عليه الكرام الكاتبون، وقد قال النبي ﷺ: «**إذا زَنَتْ أَمَةُ أحَدِكُمْ فلْيُقِمْ عليها الحَدَّ، ولا يُثَرِّبْ**»[(١)]؛ أي: لا يُعَيِّر، مِن قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [يوسف: ٩٢]؛ فإنَّ الميزان بيد الله، والحكم لله، فالسَّوْط الذي ضُرِبَ به هذا العاصي بيد مُقَلِّب القلوب، والقصد إقامةُ الحَدِّ لا التعيير والتثريب، ولا يأمن كَرَّاتِ القَدَرِ وسطواتَه إلا أهلُ الجهل بالله، وقد قال تعالى لأعلم الخَلقِ، وأقربِهم إليه وسيلة: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: ٧٤].



(١) أخرجه البخاري (٢١٥٢، ٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[منزلة التوبة]

فإذا صحَّ له هذا المقام، ونزَلَ في هذه المنزلةِ، أشرَف منها على مقام التوبة؛ لأنه بالمحاسبة قد تميَّز عنده ما له مما عليه، فليُجمِعْ على التشمير إليه، والنزول فيه إلى الممات.

ومنزلُ التوبةِ أوَّلُ المنازل، وأوسطها، وآخرُها، فلا يُفارقه العبدُ السالكُ، ولا يزال فيه إلى الممات، وإنِ ارتَحل إلى منزلٍ آخَرَ ارتحل به، واستَصحَبه معه، ونزل به.

فالتوبة هي بداية العبد ونهايتُه، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أنَّ حاجتَه إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١]، وهذه الآية في سورة مدنيَّة، خاطَب الله بها أهلَ الإيمان وخيارَ خَلْقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علَّق الفلاحَ بالتوبة تعليقَ المسبَّب بسببِه، وأتى بأداة (لعلَّ) المُشعِرة بالترجِّي؛ إيذانًا بأنكم إذا تُبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاحَ إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١]، فقَسَم العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قِسْمٌ ثالث البتَّةَ، وأوقَع اسمَ الظالم على مَن لم يَتُب، ولا أظلَمَ منه؛ لجهله بِرَبِّه وبحقه، وبعيب نَفْسه وآفات أعماله.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيُّها النَّاسُ، تُوبُوا إلى اللهِ، فواللهِ إنِّي لَأتُوبُ إلَيهِ في اليَومِ أكثَرَ مِن سَبعينَ مَرَّةً**»(١)، وكان أصحابه

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يَعُدُّون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «**رَبِّ اغفِرْ لي وتُبْ عليَّ، إنَّك أنتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ**» مائةَ مرَّة[(١)].

وما صلَّى صلاةً قطُّ بعد إذْ أُنزِلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١] إلى آخرها، إلا قال في صلاته: «**سُبْحانَك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي**»[(٢)].

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**لَنْ يُنْجيَ أحَدًا مِنكُم عَمَلُه**»، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ولا أنا، إلَّا أنْ يَتَغمَّدَني اللهُ برَحمةٍ مِنهُ وفَضْلٍ**»[(٣)].

* * *

انتظام سورة الفاتحة للتوبة أحسن انتظام

ولمَّا كانت التوبةُ هي رُجوعَ العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالِّينَ، وذلك لا يَحصُل إلا بهداية الله تعالى له إلى الصراط المستقيم، ولا تَحصُل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، انتظمتها سورةُ الفاتحة أحسنَ انتظام، وتضمَّنتها أبلغَ تضمُّن، فمَن أعطى الفاتحةَ حقَّها ـ عِلمًا وشهودًا وحالًا ومعرفةً ـ عَلِم أنه لا تَصِحُّ له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النَّصُوح، فإن الهداية التامَّة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها؛ فإن الأول جَهْل يُنافي معرفةَ الهدى، والثاني غَيٌّ ينافي قصدَه وإرادتَه؛ فلذلك لا تَصِحُّ التوبةُ إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطَلبِ التخلُّص من سوء عواقبه.

قال في «المنازل»: (**وهيَ أنْ تَنظُرَ في الذَّنْبِ إلى ثلاثةِ أشياءَ: إلى انْخِلاعِكَ مِنَ العِصْمةِ حينَ إتيانِه، وفَرَحِكَ عِندَ الظَّفَرِ به، وقُعودِكَ على الإصرارِ عنْ تَدارُكِه، مع تَيقُّنِكَ نَظَرَ الحقِّ إليكَ**).

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٢٦)، وأبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يَحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة: انخلاعَه عن اعتصامه بالله، فإنه لو اعتصَم به لَما خرج عن هداية الطاعة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾ [آل عمران: ١٠١]، فلو كَمَلَتْ عصمتُه بالله لم يَخذُلْه أبدًا.

ويَحتمل أنْ يريد الانخلاعَ من عصمة الله له، وأنَّك إنما ارتكبت الذنبَ بعد انخلاعك من ثوب عصمته لك، فمتى عَرَف هذا الانخلاع عَظُم خطرُه عنده، واشتدَّت عليه مُفارقتُه، وعَلِمَ أنَّ الهُلْكَ كلَّ الهُلْكِ بُعْدُه، وهو حقيقة الخِذلان، فما خلَّى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خَذَلَك، وخلَّى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفَّقك لَما وَجَد الذنبُ إليك سبيلًا.

علامات الخذلان وأمارات التوفيق

فقد أجمع العارفون بالله تعالى على أن الخِذلان: أنْ يُخلِّي الله بينك وبين نفسك، والتوفيق: أنْ لا يَكِلَكَ اللهُ إلى نفسك. وله سبحانه في هذه التخلية ـ بينك وبين الذنب وخِذلانك حين واقَعْتَه ـ حِكَمٌ وأسرارٌ.

قبح الفرح بالمعصية

قوله: (**وفَرَحِك عِندَ الظَّفَرِ به**).

الفرح بالمعصية دليلٌ على شدَّة الرغبة فيها، والجهل بقَدر مَن عصاه، والجهلِ بسوء عاقبتها وعِظَم خطرها، ففرحُه بها غطَّى عليه ذلك كلَّه، وفرحه بها أشدُّ ضررًا عليه من مواقعتها، والمؤمن لا تتمُّ له لذَّتُه بمعصيته أبدًا، ولا يَكمُل بها فرحُه، بل لا يُباشِرها إلا والحزن مخالطٌ لقلبه، ولكنَّ سُكْرَ الشهوةِ يَحجُبه عن الشعور به، ومتى خَلَا قلبُه من هذا الحزن، واشتدَّت غِبطتُه وسرورُه فليَتَّهِمْ إيمانه، ولْيَبْكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابُه للذنب، وغاظَه وصَعُب عليه، ولأحَسَّ القلبُ بذلك، فحيث لم يُحِسَّ به فما لجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيلامٌ.

وهذه النُّكتة في الذنْب قلَّ مَن يهتدي إليها، أو ينتبه لها، وهي موضع مَخُوفٌ جدًّا، مُترامٍ إلى الهلاك إن لم يُتدارَك بثلاثة أشياء: خوف من الموافاة عليه قبل التوبة، وندم على ما فاته من الله تعالى بمخالفة أمره، وتشمير للجِدِّ في استدراكه.

مخاطر الإصرار على المعصية

قوله: (**وقُعودِكَ على الإصْرارِ عنْ تَدارُكِه**).

الإصرار: هو الاستقرارُ على المخالفة، والعزمُ على المعاودة، وذلك ذنبٌ آخَرُ، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير، وهذا من عقوبة الذنب أنه يُوجِب ذنبًا أكبرَ منه، ثم الثاني كذلك، ثم الثالث كذلك، حتى يَستحكِمَ الهلاكُ.

فالإصرار على المعصية معصيةٌ أخرى، فالقعود عن تدارُك الفارط من المعصية إصرارٌ ورضًا بها، وطمأنينة إليها، وذلك علامة الهلاك، وأشدُّ من هذا كله المجاهرةُ بالذنب مع تيقُّن نَظَر الربِّ ﷻ من فوق عرشه إليه.

شروط التوبة النصوح

قال: (**وشَرائِطُ التَّوبةِ ثَلاثةٌ: النَّدَمُ، والإقْلاعُ، والاعتِذارُ**).

فحقيقةُ التوبة: هي الندمُ على ما سَلَف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يُعاودَه في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقعُ فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويُقلِع، ويَعزِم.

فحينئذٍ يرجع إلى العبودية التي خُلِق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

ولما كان مُتوقِّفًا على تلك الثلاثة جُعِلت شرائطَ له.

فأما الندم: فإنه لا تتحقَّق التوبة إلا به؛ إذ مَن لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه، وفي المسند: «**النَّدَمُ تَوْبةٌ**»[(١)].

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبةُ مع مُباشَرة الذنب.

وأما الاعتذار: [فـ]الذي يظهر لي صاحب «المنازل» أنه أراد بالاعتذار: إظهارَ الضعف والْمَسْكَنَة، وغلبة العدو، وقوة سلطان النفس،

(١) أخرجه أحمد (٣٥٦٨، ٤٠١٢، ٤٠١٤، ٤١٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٢).

وأنه لم يكن مِنِّي ما كان استهانة بحقك، ولا جهلًا به، ولا إنكارًا لاطِّلَاعك علَيَّ، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان عن غَلباتِ الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك، واتِّكالًا على عفوك، وحسن ظنٍّ بك، ورجاء لكرمك، وطمعًا في سَعة حِلمك ورحمتك، وغَرَّني بك الغَرورُ، والنفس الأَمَّارة بالسوء، وسِتْرُك المُرْخى علَيَّ، وأعانني جهلي، ولا سبيل لي إلى الاعتصام إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك، ونحو هذا من الكلام المُتضمِّن للاستعطاف والتذلُّل والافتقار، والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية.

وفي «الصحيح»: «**لا أحَدَ أحَبُّ إلَيهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ تعالى**»، وإن كان معنى ذلك الإعذار، كما قال في آخره: «**مِنْ أجْلِ ذلك أرسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ**»[1]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات: ٥ ـ ٦]، فإنه من تمام عدله وإحسانه أن أعذَرَ إلى عبيده، ولم يأخذ ظالمَهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحُجَّة، فهو أيضًا يحب من عبده أن يَعتذِر إليه، ويتنصَّل إليه من ذنبه، وفي الحديث: «**مَنِ اعتَذَرَ إلى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَه**»[2]، فهذا هو الاعتذار المحمود النافع.

فالاعتذار اعتذاران: اعتذارٌ يُنافي الاعتراف؛ فذلك مُنافٍ للتوبة. واعتذارٌ يُقرِّر الاعتراف؛ فذلك من تمام التوبة.

* * *

حقائق التوبة وعلامة قبولها

قال صاحب «المنازل»: **(وحَقائِقُ التَّوبةِ ثَلاثةُ أشياءَ: تَعظِيمُ الجِنايةِ، واتِّهامُ التَّوْبةِ، وطَلَبُ أعذارِ الخَليقةِ)**.

يريدون بالحقائق: ما يتحقَّق به الشيءُ، وتتبيَّن به صحَّتُه وثبوتُه،

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٣٣٨)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (١٠٨٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٦٠).

كما قال النبيُّ ﷺ لحارثة: «**إنَّ لكُلِّ حَقٍّ حَقيقةً، فما حَقيقةُ إيمانِكَ؟**»(١).

فأما (تعظيم الجناية) فإنه إذا استهان بها لم يَنْدَم عليها، وعلى قَدْر تعظيمها يكون ندمُه على ارتكابها، فإن مَن استهان بإضاعة فَلْسٍ ـ مثلًا ـ لم يندم على إضاعته، فإذا عَلِمَ أنه دينارٌ اشتدَّ ندمُه، وعَظُمت إضاعتُه عنده.

وتعظيم الجناية يَصدُر عن ثلاثة أشياءَ: تعظيم الأمر، وتعظيم الآمِر، والتصديق بالجزاء.

علل فساد التوبة

وأما (اتِّهام التوبة) فلأنها حقٌّ عليه، لا يتيقَّن أنَّه أدَّى هذا الحقَّ على الوجه المطلوب منه، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفَّاها حقَّها، وأنها لم تُقبَل منه، وأنه لم يَبذُل جهدَه في صحتها، أو أنها توبةُ عِلَّةٍ وهو لا يشعر بها، كتوبةِ أربابِ الجوائح والإفلاس، والمحافِظين على جاههم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظةً على حاله، فتاب للحال لا خوفًا من ذي الجلال، أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكدِّ في تحصيل الذنب، أو إبقاءً على عِرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمودِ نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لِما يطلبه من العِلم والرزق، ونحو ذلك من العِلَل التي تقدح في كون التوبة خوفًا من الله تعالى، وتعظيمًا له ولحرماته، وإجلالًا له، وخشيةً من سقوط المنزلة عندَه، ومِن البُعْد والطرد عنه، والحجابِ عن رؤية وجهِه في الدار الآخرة؛ فهذه التوبةُ لونٌ، وتوبةُ أصحاب العِلَل لونٌ.

ومِن اتهام التوبة أيضًا: ضعف العزيمة، والتفاتُ القلب إلى

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/٣٣٦٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٠٧). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٥٧): «فيه ابن لَهِيعة، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه». ورواه البزار (١٣/٦٩٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: «وهذه الأحاديث لا نعلم رواها عن ثابت عن أنس إلا يوسف بن عطية، وهو ليِّن الحديث».

الذنب الفَيْنَةَ بعد الفَيْنَة، وتَذكُّر حلاوة مواقعته، فربما تنفَّس، وربما هاج هائجه.

ومن اتهام التوبة: طُمأنينتُه ووثوقُه من نفْسِه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد أُعطي منشورًا بالأمان، فهذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمود العين، واستمرارُ الغفلة، وأنه لم يَستحدِث بعدَ التوبة أعمالًا صالحة لم تكن له قبلُ.

علامات صحة التوبة وقبولها

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن طرفةَ عَيْنٍ، فخوفه مستمرٌّ إلى أن يسمع قولَ الرسل لقَبْض رُوحه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]، فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطُّعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عِظَم الجناية وصِغَرها، وهذا تأويل ابن عُيَيْنة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]، قال: تَقطُّعُها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يُوجِب انصداعَ القلب وانخلاعَه، وهذا هو تَقطُّعُه، وهذا حقيقة التوبة؛ لأنه يَنقطِع قلبُه حسرةً على ما فَرَط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يَتقطَّع قلبُه في الدنيا على ما فَرَّط حسرةً وخوفًا تَقطَّع في الآخرة إذا حَقَّتِ الحقائقُ، وعايَن ثوابَ المطيعين، وعقابَ العاصين، فلا بد من تقطُّع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

كسرة القلب

ومن مُوجِبات التوبة الصحيحة أيضًا: كَسْرةٌ خاصَّة تحصل للقلب لا يُشبِهها شيء، ولا تكون لغير المُذْنِب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حبٍّ مُجرَّد، وإنما هي أمر وراء هذا كلِّه، تَكسِر القلبَ بين يدي الرب كسرةً تامَّة، قد أحاطت به من جميع جِهاته، وألقته بين يدي

ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحال عبدٍ جَانٍ آبِقٍ مِن سيده، فأُخِذ فأُحضِر بين يديه، ولم يجد مَن ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بُدًّا ولا عنه غِنًى، ولا منه مهربًا، وعَلِم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاتَه في رضاه عنه، وقد علِم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حُبِّه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه، وقوة سيده، وذُلِّه وعزِّ سيده، فيجتمع من هذه الأحوال كَسْرةٌ وذِلَّةٌ وخضوع، ما أنفعَها للعبد وما أجزلَ عائدَها عليه! وما أعظم جَبْرَه بها، وما أقربَه بها من سيِّده! فليس شيءٌ أحبَّ إلى سيده من هذه الكَسْرة، والخضوع والتذلُّل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له، فلله ما أحلى قولَه في هذه الحال: «أسألُكَ بعِزِّكَ وذُلِّي لكَ إلَّا رَحِمْتَني، أسألُكَ بقُوَّتِكَ وضَعْفي، وبِغِناكَ عَنِّي وفَقْري إلَيكَ، هذهِ ناصِيَتي الكاذِبةُ الخاطِئةُ بيْنَ يَدَيْكَ، عَبيدُكَ سِوايَ كَثيرٌ، وليس لي سَيِّدٌ سِواكَ، لا مَلْجأ ولا مَنْجى مِنكَ إلَّا إلَيكَ، أسألُكَ مَسألةَ المِسكينِ، وأبتهِلُ إلَيكَ ابتِهالَ الخَاضِعِ الذَّليلِ، وأدعُوكَ دُعاءَ الخائِفِ الضَّريرِ، سؤالَ مَن خَضَعَتْ لكَ رَقَبتُه، ورَغِمَ لكَ أنْفُه، وفاضَتْ لكَ عَيْناهُ، وذَلَّ لكَ قَلْبُه».

يا مَنْ ألُوذُ بِهِ فيما أُؤَمِّلُهُ ... ومَنْ أعُوذُ بهِ مِمَّا أُحاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أنتَ كاسِرُهُ ... ولا يَهِيضُونَ عَظْمًا أنتَ جابِرُهُ

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمَن لم يجد ذلك في قلبه فليتَّهِم توبتَه وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعبَ التوبةَ الصحيحةَ بالحقيقة، وما أسهلَها باللسان والدعوى! وما عالَجَ الصادقُ شيئًا أشقَّ عليه من التوبة الصادقة الخالصة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ذم العجب واحتقار العصاة

وأكثر الناس المتبرِّئين عن الكبائر الحِسِّيَّةِ والقاذورات في كبائرَ مِثْلِها أو أعظمَ منها أو دونها، ولا يَخطُر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها، فعندهم ـ من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم، وصولة طاعاتهم عليهم، ومِنَّتهم على الخَلْق بلسان الحال، واقتضاء بَواطِنهم لتعظيم الخَلْق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم،

وتوابع ذلك ـ ما هو أبغضُ إلى الله تعالى، وأبْعدُ لهم عن بابه من كبائرِ أولئك، فإنْ تَدارَك اللهُ أحدَهم بقاذورة أو كبيرة يُوقِعه فيها ليكسِر بها نفْسَه، ويُعَرِّفَه بها قدْره، ويُذِلَّه بها، ويُخرِج بها صولةَ الطاعة من قلبه، فهي رحمة في حقه، كما أنه إذا تَدارَك أصحابَ الكبائر بتوبة نصوح، وإقبال بقلوبهم إليه، فهو رحمة في حقِّهم، وإلا فكلاهما على خطر.

معنيان لتلمس أعذار العصاة

وأما (**طَلَبُ أعذارِ الخَليقةِ**) فهذا له وجهان: وجْهٌ محمود، ووجه مذمومٌ حرام.

فالمذموم: أن تطلب أعذارهم، نظرًا إلى الحكم القَدَري، وجَريانِه عليهم، شاؤوا أم أبَوْا، فتعذرهم بالقدر.

والإنسان كما قال ربه: ظلوم جهول، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

ولو عَلِم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وأنها أوْلَى بكل ذمٍّ وظُلْم، وأنها مأوى كلِّ سوء، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦]، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: «كَفُورٌ جَحُودٌ لنِعَم الله»، قال الحسن ﵁: «هو الذي يَعُدُّ المصائبَ، وينسى النِّعمَ»، وقال أبو عُبَيدة: «هو قليل الخير. والأرض الكَنودُ: التي لا تُنبِت شيئًا».

وقال الفُضَيل بن عِياض ﵀: «الكَنُود: الذي أنْسَتْهُ الخصلةُ الواحدة من الإساءة الخصالَ الكثيرة من الإحسان».

ولو عَلِم هذا الظالم الجاهل أنه هو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه، فهو حَجرٌ في طريق الماء الذي به حياتُه، وهو السِّكْرُ الذي قد سَدَّ مجرى الماء إلى بستان قلبه، ويستغيث مع ذلك: العطشَ، وقد وقف في طريق الماء، ومنَع وصوله إليه، فهو حجاب قلبه عن سرِّ غيبه، وهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب، فما عليه أضر منه، ولا له عدوٌّ أبلغ عداوةً منه.

الجاهل جبري المعاصي قدري الطاعات

فَتَبًّا له ظالِمًا في صورة مظلوم، وشاكيًا والجنايةُ منه، قد جَدَّ في الإعراض وهو ينادي: طردونِي وأبْعَدُوني، ولَّى ظهرَه البابَ، بل أغلقه على نفْسِه وأضاع مفاتيحَه وكسرَها، ويقول:

دَعَاني وسَدَّ البابَ دُونِي فهَلْ إلى دُخُولي سَبِيلٌ؟ بَيِّنُوا لِيَ قِصَّتِي

يأخذ الشفيقُ بِحُجْزَتِه عن النار، وهو يجاذبه ثوبَه ويغلبه ويقتحمها، ويستغيث: ما حيلتي وقد قدَّموني إلى الحفرة وقذفوني فيها؟! كم صاح به الناصح: الحذرَ الحذرَ، إياك إياك، وكم أمسك بثوبه، وكم أراه مَصَارِعَ المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام:

وكَمْ سُقْتُ في آثارِكُمْ مِنْ نَصيحةٍ وقَدْ يَستفيدُ البِغْضةَ المُتَنَصِّحُ

يا ويله ظهيرًا للشيطان على ربه! خَصْمًا لله مع نفسه! جَبْرِيُّ المعاصي، قَدَري الطاعات، عاجز الرأي، مِضْياعٌ لفرصته، قاعد عن مصالحه، مُعاتِبٌ لأقدار ربه.

تواتر إحسان الله تعالى إلى خلقه

هذا مع تواتُر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس؛ أزاح عِلَلَك، ومكَّنَك من التزوُّد إلى جنته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنةَ السفر وما تتزوَّد به، وما تحارِب به قُطَّاع الطريق عليك، فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرَّفك الخيرَ والشرَّ، والنافع والضارَّ، وأرسل إليك رسوله، وأنزل كتابه، ويسَّرَه للذِّكْر والفَهْم والعمل، وأعانك بمَدَد من جُنْدِه الكرام، يثبِّتونك ويَحرسونك، ويحاربون عدوَّك ويطردونه عنك، ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مُؤْنتَه، وأنت تأبى إلا مظاهرتَه عليهم، وموالاته دونهم، بل تظاهره وتواليه دون وَلِيِّكَ الحق الذي هو أوْلى بك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠]. طَرَدَ إبليسَ عن سمائه، وأخرجه مِن جنَّته، وأبعده من قُرْبه؛ إذ لم يسجد لك، وأنت في صلب أبيك آدم، لكرامتك عليه، فعاداه وأبعده، ثم واليتَ عدوَّه، ومِلْتَ إليه وصالحته، وتتظلَّم مع ذلك، وتشتكي الطردَ والبِعادَ، وتقول:

عَوَّدُوني الوِصالَ والوَصْلُ عَذْبٌ ورَمَوْني بِالصَّدِّ والصَّدُّ صَعْبُ

نعَم، كيف لا يُطْرَدُ مَن هذه معاملتُه؟ وكيف لا يُبعَدُ عنه مَن هذا وصْفُه؟ وكيف يُجعل من خاصته وأهل قُربه مَن حالُه معه هكذا؟ قد أفسد ما بينه وبين الله وكَدَّرَه.

أمَرَهُ بِشُكْرِه، لا لحاجته إليه، ولكن لينال به المزيدَ من فضله، فجعل كُفْرَ نِعَمِه والاستعانةَ بها على مساخطه من أكبر أسباب صرفها عنه.

وأمَرَه بذِكْرِه ليذكره بإحسانه، فجعل نسيانه سببًا لنسيان الله له: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. أمره بسؤاله ليعطيه، فلم يسأله، بل أعطاه أجلَّ العطاء بلا سؤال، فلم يقبلْ. يشكو مَن يرحمه إلى مَن لا يرحمُه، ويتظلَّم ممَّن لا يظلمه، ويَدَعُ مَن يعاديه ويظلمه، إنْ أنْعَمَ عليه بالصحة والعافية والمالِ والجاه استعان بنِعمه على معاصيه، وإنْ سلبه ذلك ظلَّ مُتسخِّطًا على ربه وهو شاكيه، لا يصلح له على عافية، ولا على ابتلاء، العافيةُ تُلْقِيه إلى مساخطه، والبلاء يدفعه إلى كُفْرانِه وجحودِ نعمه، وشِكايتِه إلى خلْقه.

دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طَرَقه، ثم فتحه له فما عَرَج عليه ولا وَلَجه، أرسَل إليه رسولَه يدعوه إلى دار كرامته، فعصى الرسولَ، وقال: لا أبيع ناجزًا بغائب، ونقدًا بنَسيئة، ولا أترك ما أراه لشيءٍ سمِعتُ به، ويقول:

خُذْ ما تَراهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ في طَلْعَةِ الشَّمْسِ ما يُغْنِيكَ عنْ زُحَلِ

فإن وافَق حظُّه طاعةَ الرسول أطاعه لنيلِ حَظِّه، لا لرضا مُرسِلِه، لم يَزَلْ يتمقَّت إليه بمعاصيه حتى أعرض عنه، وأغلق الباب في وجهه.

ومع هذا فلم يُؤْيِسْهُ من رحمته، بل قال: متى جئتَني قَبِلْتُك، إنْ أتيتَني ليلًا قَبِلتُك، وإنْ أتَيْتَنِي نهارًا قَبِلتُك، وإنْ تَقرَّبْتَ مِنِّي شِبرًا تَقرَّبْتُ مِنكَ ذِراعًا، وإنْ تَقرَّبْتَ مِنِّي ذِراعًا تَقرَّبْتُ مِنكَ باعًا، وإنْ مَشَيْتَ إلَيَّ

هَرْوَلْتُ إلَيكَ. ولَوْ لَقِيتَني بقُرَابِ الأرضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي أتَيْتُكَ بقُرابِها مَغفِرةً، ولَوْ بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثُمَّ استَغفَرْتَني غَفَرْتُ لكَ، ومَن أعظم منِّي جودًا وكرمًا؟

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكْلَؤُهُم على فُرُشِهم، إنِّي والإنسَ والجِنَّ فِي نَبَأٍ عَظيم؛ أخْلُقُ ويُعْبَدُ غَيْري، وأرزُقُ ويُشكَرُ سِوايَ، خَيْرِي إلى العِبادِ نازِلٌ، وشَرُّهُم إلَيَّ صاعِدٌ، أتَحبَّبُ إليهم بنِعمَتي، وأنا الغَنيُّ عنهم، ويَتبغَّضُونَ إلَيَّ بالمَعاصي، وهُمْ أفْقَرُ شَيْءٍ إلَيَّ.

مَن أقبل إليَّ تلقيتُه من بعيد، ومَن أعرض عنِّي ناديته من قريب، ومَن ترك لأجلي أعطيته فوق المَزيد، ومَن أراد رضاي أردتُ ما يُريد ومن تصرف بحولي ألنت له الحديد.

أهلُ ذِكْري أهلُ مجالستي، وأهلُ شكري أهلُ زيادتي، وأهلُ طاعتي أهلُ كرامتي، وأهلُ معصيتي لا أُقَنِّطُهم من رحمتي؛ إنْ تابوا فأنا حبيبهم؛ فإني أُحِبُّ التوَّابين وأحبُّ المتطهِّرين، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب؛ لأُطهِّرَهم من المعايب.

مَن آثرني على سِوايَ آثرتُه على سِواه، الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعف، إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عندي بواحدة، فإنْ ندِمَ عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكرُ اليسيرَ من العمل، وأغفر الكثير من الزَّلَل، رحمتي سبقت غضبي، وحِلْمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها؛ واللهُ أشَدُّ فَرَحًا بتَوْبةِ عَبدِه مِنْ رَجُلٍ أضَلَّ راحِلَتَه بأرضٍ مَهْلَكةٍ دَوِّيَّةٍ، علَيْها طَعامُه وشَرابُه، فطَلَبَها حتَّى إذا يَئِسَ مِنْ حُصولِها، فنامَ في أصْلِ شَجَرةٍ يَنتظِرُ المَوتَ، فاستَيقَظَ فإذا هِيَ على رَأْسِه، قَدْ تَعَلَّقَ خِطَامُها بالشَّجرةِ، فاللهُ أفرَحُ بتَوبةِ عَبْدِه مِنْ هذا براحِلَتِه.

وهذه فرحة إحسان وبِرٍّ ولُطْف، لا فرحةُ محتاجٍ إلى توبة عبده، منتفِعٍ بها.

فهذا شأن الرب وشأنُ العبيد، وهُم يقيمون أعذار أنفسهم، ويحملون ذنوبهم على أقداره.

وما أحسن قول القائل:

تَطْوِي المَراحِلَ عَنْ حَبِيبِكَ دَائِبًا ... وتَظَلُّ تَبكِيهِ بدَمْعٍ سَاجِمِ
كَذَبَتْكَ نَفْسُكَ لستَ مِن أحْبابِهِ ... تَشْكو البعادَ وأنتَ عَيْنُ الظَّالِمِ

فهذا أحد المعنيين في قولِه: **(طَلَبُ أعذارِ الخَليقةِ)**، وقد ظهَرَ لك بهذا: أنَّ طلب أعذارهم في الجناية عائدٌ على التوبةِ بالنقض والإبطالِ.

المعنى المحمود لتلمس أعذار العصاة

والمعنى الثاني: أن يكون مرادُه: إقامةَ أعذارهم في إساءتهم إليك، وجِنايتهم عليك، والنظر في ذلك إلى الأقدار، وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار، فتعذرهم بالقَدَر في حقك، لا في حق ربك، فهذا حقٌّ، هو من شأن سادات العارفين، وخواصِّ أولياء الله الكُمَّلِ، يَفنى أحدهم عن حقه، ويستوفي حق ربه، ينظر في التفريط في حقه، والجناية عليه إلى القدر، وينظر في حق الله إلى الأمر، فيطلب لهم العذر في حقه، ويمحو عنهم العذر، ويُبطِله في حق الله.

وهذه كانت حال نبينا ﷺ، كما قالت عائشة ﵂: «ما انتَقَم رسولُ اللهِ ﷺ لنفْسِه قطُّ، ولا نِيل منه شيءٌ فانتَقَم لنفْسِه إلَّا أن تُنتَهكَ محارمُ الله، فإذا انتُهِكَتْ محارمُ اللهِ لَمْ يَقُمْ لغضبه شيءٌ، حتى يَنتقِمَ لله»[١].

وقالت عائشة ﵂ أيضًا: «ما ضَرَبَ رسولُ اللهِ ﷺ بيدِه خادمًا، ولا دابَّةً، ولا شيئًا قطُّ، إلَّا أن يُجاهِدَ في سبيل الله»[٢]. وقال أنس ﵁: «خَدَمْتُ النبيَّ ﷺ عَشْرَ سِنينَ، فما قال لي لشيءٍ صَنَعْتُه: لِمَ صَنَعْتَه؟ ولا لشيءٍ لمْ أصنَعْه: لِمَ لَمْ تَصنَعْه؟ وكان إذا عاتَبَني بعضُ أهْلِه يقول: دَعُوه؛ فلو قُضِيَ شيءٌ لكان»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥٣)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٢٨).
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

فهذا المعنى الثاني ـ وإن كان حقًّا ـ لكن ليس من شرائط التوبة، ولا من أركانها، ولا له تَعلُّقٌ بها.

* * *

سرائر حقيقة التوبة

قال صاحب «المنازل»: (**وسَرائِرُ حقيقةِ التَّوبةِ ثلاثةُ أشياءَ: تَمييزُ التَّقيَّةِ مِنَ العِزَّةِ، ونِسْيانُ الجِنايةِ، والتَّوبةُ مِنَ التَّوبةِ؛ لأنَّ التَّائبَ داخِلٌ في الجميعِ مِن قَولِه تعالى:** ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور: ٣١]، **فأمَرَ التَّائبَ بالتَّوبةِ**).

يريد بتمييز **التَّقِيَّة من العِزَّة**: أن يكون المقصودُ من التوبة تقوى الله، وهو خوفه وخشيته، والقيامُ بأمره، واجتنابُ نَهْيِه، فيعملُ بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويتركُ معصية الله على نور من الله تعالى، يخاف عقاب الله، لا يريد بذلك عِزَّ الطاعة، فإن للطاعة وللتوبة عزًّا ظاهرًا وباطنًا، فلا يكون مقصودُه العزةَ، وإنْ عَلِمَ أنها تَحصُل له بالطاعة والتوبة، فمَن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة، وفي بعض الآثار: «**أوحى الله تعالى إلى نبيٍّ مِنَ الأنبياء: قُلْ لفُلانٍ الزاهدِ: أمَّا زُهْدُكَ في الدنيا فقد تعجَّلت به الراحةَ، وأمَّا انقطاعك إليَّ: فقد اكتسبْتَ به العزةَ، ولكن ما عَمِلْتَ فيما لي عليك؟ قال: يا ربِّ، وما لك عليَّ بَعْد هذا؟ قال: هل والَيْتَ فيَّ وَليًّا، أو عادَيْتَ فيَّ عدوًّا؟**»(١).

يعني: أنَّ الراحة والعزَّ حظُّك، وقد نِلتَهما بالزهد والعبادة، ولكن أين القيامُ بحَقِّي، وهو الموالاة فيَّ والمعاداةُ فيَّ؟

فالشأن في التفريق في الأوامر بين حظِّك وحقِّ ربك عِلمًا وحالًا.

وكثير من الصادقينَ يَلتبِس عليهم حالُ نفوسهم في ذلك، ولا يُميِّزه إلا أولو البصائر منهم، وهُم في الصادقينَ كالصادقين في الناس.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣١٦)، والبغدادي في «تاريخه» (٤/٣٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢١١٥).

تذكر الجناية أم نسيانها؟

وأما **نسيانُ الجِنايةِ**: فهذا موضع تفصيل؛ فقد اختلف فيه أرباب الطريق:

فمنهم مَن رأى الاشتغال عن ذِكْر الذنب والإعراض عنه صفحًا بصفاء الوقت مع الله تعالى أوْلَى بالتائب وأنفع له، ولهذا قيل: ذِكْرُ الجَفَاء في وقتِ الصَّفَاء جَفَاء.

ومنهم من رأى أن الأوْلَى أن لا يَنْسى ذنبه، بل لا يزال نُصْب عينيه يُلاحِظه كل وقت، فيُحْدِث له ذلك انكسارًا وذُلًّا وخضوعًا، أنفعُ له من جمعيته وصفاء وقته.

قالوا: ولهذا نَقَشَ داودُ الخطيئةَ في كفِّه، وكان ينظر إليها ويَبكي.

قالوا: ومتى تُهْتَ عن الطريق فارجع إلى ذنبك تَجِدِ الطريق.

ومعنى ذلك: أنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسَرْتَ وذَلِلْتَ، وأطرقتَ بين يدي الله ﷻ، خاشعًا ذليلًا خائفًا، وهذه طريق العبودية.

والصواب: التفصيل في هذه المسألة، وهو أن يقال: إذا أَحَسَّ من نفْسه حالَ الصفاء غَيْمًا من الدعوى، ورقيقة من العُجْب ونِسيان المِنَّة، وخطفته نفسه عن حقيقة فقره ونقصه، فذِكْر الذنب أنفع له، وإن كان في حال مشاهدته مِنَّةَ الله عليه، وكمال افتقاره إليه، وقيامه به، وعدم استغنائه عنه في ذَرَّة من ذَرَّاتِه، وقد خالَط قلبَه حالُ المحبة، والفرح بالله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، وشهود سَعة رحمته وحِلمِه وعَفْوِه، وقد أشرقت على قلبه أنوارُ الأسماء والصِّفات، فنِسيان الجناية والإعراضُ عن الذنْب أوْلى به وأنفعُ، فإنه متى رجع إلى ذِكر الجِناية توارى عنه ذلك، ونزل من عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ، ومن حال إلى حال، بينهما من التفاوت أبعد ما بين السماء والأرض، وهذا من حسد الشيطان له، أراد أن يَحُطَّه عن مقامه، وسَيَّرَ قلبه في ميادين المعرفة والمحبة والشوق إلى وحشة الإساءة، وحصر الجناية.

والأول يكون شهودُه لجنايته مِنَّةً مِنَ الله مَنَّ بها عليه؛ ليؤمنَه بها

من مَقْت الدعوى، وحجاب الكِبر الخفيِّ الذي لا يشعر به، فهذا لون وهذا لون.

وهذا أمرٌ الحُكمُ فيه أمرٌ وراءَ العبارة، وبالله التوفيق، وهو المستعان.

حقيقة التوبة من التوبة

وأما **التوبةُ من التوبة** فهي: أن يتوب من رؤية التوبة؛ فإنها إنما حصلت له بمِنَّة الله ومشيئته، ولو خُلّي ونفسَه لم تسمح بها البتَّة، فإذا رآها ـ وشَهِد صدورها منه ووقوعها به، وغفل عن مِنَّة الله عليه ـ تاب من هذه الرؤية والغفلة.

[و] مَن حصل له مَقامُ أُنسٍ بالله، وصَفَا وقتُه مع الله، بحيث يكون إقبالُه على الله، واشتغاله بذِكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفعَ شيء له، حتى نزل عن هذه الحالة، واشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها، وطالَع الجنايةَ واشتغل بها عن الله تعالى، فهذا نقصٌ ينبغي له أن يتوب إلى الله منه، وهو توبة من هذه التوبة؛ لأنه نزول من الصفاء إلى الجفاء، والله أعلم.

* * *

لطائف أسرار التوبة

قال صاحب «المنازل»: (**ولَطائفُ أسرارِ التَّوبةِ ثَلاثةُ أشياءَ، أوَّلُها: أنْ تَنظُرَ الجِنايةَ والقَضيَّةَ، فتَعْرِفَ مُرادَ اللهِ فيها، إذْ خَلَّاكَ وإتْيانَها، فإنَّ اللهَ ﷻ إنَّما يُخَلِّي العبدَ والذَّنْبَ لأحدِ مَعنَيَيْنِ:**

أحدُهُما: أنْ يَعرِفَ عِزَّتَه في قَضائِه، وبِرَّه في سَتْرِه، وحِلْمَه في إمْهالِ رَاكِبِه، وكَرَمَهُ في قَبُولِ العُذْرِ منه، وفَضْلَه في مَغفِرَتِه.

الثَّاني: أنْ يُقِيمَ على عَبْدِه حُجَّةَ عَدْلِه، فيُعاقِبَه على ذَنْبِه بحُجَّتِه).

تأملات صاحب البصيرة إذا أذنب

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرتْ منه الخطيئةُ فله نظرٌ إلى **خمسة أمور**:

أحدها: أن ينظر إلى الوعد والوعيد، فيُحدِث له ذلك خوفًا وخَشيةً تحمله على التوبة.

الثاني: أن ينظر إلى أمر الله تعالى له ونَهْيِه، فيُحدِث له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئةً، والإقرارَ على نفسه بالذنب.

الثالث: أن ينظر إلى تمكين الله تعالى له منها، وتَخلِيتِه بينه وبينها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاء لعَصَمَه منها، وحالَ بينها وبينه، فيُحدِث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحِلْمِه وكرمه، وتُوجِب له هذه المعرفةُ عبوديةً بهذه الأسماء، ولا تحصل بدون لوازمها البتَّةَ، ويعلم ارتباطَ الخلق والأمر والجزاءِ بالوعدِ، والوعيدِ بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات، وأثرها في الوجود، وأنَّ كل اسم وصفةٍ مُقْتَضٍ لأثره وموجبه، متعلِّقٌ به لا بدَّ منه.

وهذا المشهد يُطلِعه على رياض مُؤنِقة من المعارف والإيمان، وأسرارُ القَدَر والحِكمة يضيقُ عن التعبير عنها نِطاقُ الكَلِم.

أهمية معرفة عزة الله في قضائه

فمن بعضها: ما ذكره الشيخ رحمه الله: **(أنْ يَعرِفَ العَبدُ عِزَّتَه في قَضائِه)**، وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي ما يشاء، وأنَّه لكمال عِزِّه حَكَمَ على العبد وقضى عليه، بأن قلَّب قلبه وصرَّفَ إرادتَه على ما يشاء، وحال بين العبد وقلبه، وجعله مريدًا شائيًا لِما شاء منه العزيز الحكيم، وهذا من كمال العزة؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى، وغاية المخلوق أن يتصرَّف في بدنك وظاهرك، وأما جَعْلُك مريدًا شائيًا لِما يشاؤه منك ويريده فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرَف العبدُ عزَّ سيده ولاحظه بقلبه، وتمكَّن شهودُه منه، كان الاشتغال به عن ذُلِّ المعصية أولى به وأنفعَ له؛ لأنه يصير مع الله تعالى لا مع نفسه.

ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مُدبَّر مقهور، ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلا بعصمته، ولا توفيق له إلا بمعونته، فهو ذليلٌ حقيرٌ، في قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضًا في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد،

والغناءَ التَّامَّ، والعزة كلَّها لله، وأن العبد نفْسَه أولى بالنقص والذم، والعيبِ والظلم والحاجة، وكلما ازداد شهودُه لذُلِّه ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهودُه لعزة الله تعالى وكماله، وحَمْدِه وغناه، وكذلك بالعكس، فنقص الذنب وذِلَّتُه تُطْلِعُه على مشهد العزة.

ومنها: أن يعرف **بِرَّه سبحانه في سَتْره** عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفَضَحه بين خَلْقه فحَذِروه، وهذا من كمال برِّه، ومن أسمائه: (البَرُّ)، وهذا البِرُّ من سيِّده به مع كمال غِنَاه عنه، وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المِنَّة، ومشاهدة هذا البِرِّ والإحسان والكرم، فيذهل عن ذُلِّ الخطيئة، فيبقى مع الله، وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته، وشهود ذُلِّ معصيته؛ فإن الاشتغال بالله والغفلةَ عما سواه هو المطلب الأعلى، والمقصدُ الأسنى.

ومنها: شهوده **حِلْمَ الله** ﷻ **في إمهال راكب الخطيئة**، ولو شاء لعاجله بالعقوبة؛ ولكنه الحليم الذي لا يَعجل، فيُحْدِث له ذلك معرفتَه سبحانه باسمه (الحليم)، ومشاهدةَ صفة (الحِلْم)، والتعبُّدَ بهذا الاسم. والحكمة والمصلحةُ الحاصلة من ذلك بتوسُّط الذنْبِ أحبُّ إلى الله، وأصلح للعبد، وأنفع له من فَوْتِها، ووجودُ الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: معرفة العبد **كرمَ ربه في قَبول العذر منه** إذا اعتذر إليه، فيقبل عذره بكرمه وَجوده، فيُوجِب له ذلك اشتغالًا بذكره وشكره، ومحبَّةً أخرى لم تكن حاصلةً له قبل ذلك، فإنَّ محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخِذْك بها أضعافُ محبتك على شكر الإحسان وحدَه، والواقع شاهد بذلك، فعبودية التوبة بعدَ الذنب لون آخر.

ومنها: أن **يشهد فضله في مغفرته**، فإن المغفرة فضلٌ من الله تعالى، وإلا فلو واخَذَنَا بالذنب لَوَاخَذ بمحض حقِّه، وكان عادلًا محمودًا، وإنما غفره بفضله لا باستحقاقك، فيُوجِب لك ذلك أيضًا شكرًا له ومحبة، وإنابةً إليه، وفرحًا وابتهاجًا به، ومعرفةً له باسمه

الغفَّار، ومشاهدةً لهذه الصفة، وتعبُّدًا بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية والمعرفة والمحبة.

ومنها: أن **يُكَمِّلَ لعبده مراتبَ الذُّلِّ** والخضوع والانكسار بين يديه، والافتقار إليه، فإن النفس فيها مضاهاةٌ للربوبية، ولو قَدرَتْ لقالت كقول فرعونَ، ولكنه قَدَرَ فأظهر، وغيرُه عجز فأضمر، وإنما يُخَلِّصُها من هذه المضاهاة ذلُّ العبودية، وهو **أربع مراتبَ**:

مراتب ذل العبودية

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخَلْق، وهي ذُلُّ الحاجة والفقر إلى الله تعالى، فأهل السموات والأرض محتاجون إليه، فقراءُ إليه، وهو وحْدَه الغني، وكل أهل السموات والأرض يسألونه، وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية: ذُلُّ الطاعة والعبودية، وهو ذلُّ الاختيار، وهذا خاصٌّ بأهل طاعته، وهو سرُّ العبودية.

المرتبة الثالثة: ذُلُّ المحبة؛ فإن المحِبَّ ذليلٌ بالذات لمحبوبه، وعلى قَدْر محبته له يكون ذُلُّه له، فالمحبة أُسِّسَت على الذِّلَّة للمحبوب، كما قيل:

اخْضَعْ وذِلَّ لِمَنْ تُحِبُّ فليس في ... حُكْمِ الهَوى أَنْفٌ يُشالُ ويُعْقَدُ

وقال آخر:

مَساكِينُ أهْلُ الحُبِّ حتَّى قُبورُهُمْ ... عليها تُرابُ الذُّلِّ بيْنَ المَقابِرِ

المرتبة الرابعة: ذُلُّ المعصية والجناية.

فإذا اجتمعتْ هذه المراتبُ الأربع كان الذلُّ لله والخضوعُ له أكملَ وأتمَّ؛ إذ يَذِلُّ له خوفًا وخشية، ومحبَّةً، وإنابة، وطاعة، وفقرًا وفاقة.

اقتضاء أسماء الله الحسنى لآثارها

ومنها: أن أسماءه الحسنى تقتضي آثارَها اقتضاءَ الأسباب التامة لمسبباتها، فاسم (السميع، البصير) يقتضي مسموعًا ومُبصَرًا، واسم (الرزاق) يقتضي مرزوقًا، واسم (الرحيم) يقتضي مرحومًا، وكذلك اسم (الغفور، والعفو، والتواب، والحليم) يقتضي مَن يغفر له، ويتوب عليه،

ويعفو عنه، ويَحلُمُ عنه، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات؛ إذ هي أسماءٌ حسنى، وصفاتُ كمال، ونعوت جلال، وأفعالُ حكمةٍ وإحسانٍ وجُودٍ، فلا بد من ظهور آثارها في العالم، وقد أشار إلى هذا أعلمُ الخلْق بالله «صلوات الله وسلامه عليه» حيث يقول: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبوا، لَذَهَبَ اللهُ بكُمْ، ولَجاءَ بقَومٍ يُذْنِبونَ، ثُمَّ يَستَغفِرونَ، فيَغفِرُ لهُمْ**»[(١)].

وأنت إذا فرضتَ الحيوان بجملته معدومًا فمَن يرزُق الرزاقُ سبحانه؟ وإذا فرضتَ المعصيةَ والخطيئةَ منتفيةً من العالَم، فلمَن يَغفِر؟ وعمَّن يعفو؟ وعلى مَن يتوب ويَحلُمُ؟ وإذا فرضتَ الفاقاتِ كلَّها قد سُدَّت، والعبيدَ أغنياءَ مُعافُون، فأين السؤال والتضرُّعُ والابتهال؟ والإجابةُ وشهود الفضل والمِنَّة، والتخصيصُ بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تَعرَّف إلى خَلْقِه بجميع التعرفات، ودَلَّهُم عليه بأنواع الدَّلالات، وفتح لهم إليه جميعَ الطرقات، ثم نصب إليه الصراط المستقيمَ، وعرَّفهم به ودلَّهم عليه: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال: ٤٢].

فرح الله بتوبة عبده

ومنها: السِّرُّ الأعظم، الذي لا تقتحمُه العِبارة، ولا تجسُرُ عليه الإشارة، ولا يُنادي عليه منادي الإيمان على رُؤوس الأشهاد، بل شَهِدَتْه قلوبُ خواصِّ العباد، فازدادت به معرفةً لربها ومحبةً له، وطمأنينة به، وشوقًا إليه، ولَهَجًا بذِكْرِه، وشهودًا لبِرِّه، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعةً لسر العبودية، وإشرافًا على حقيقة الإلٰهية، وهو ما ثبت في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**للهُ أفرَحُ بتَوبةِ عَبْدِه حينَ يَتوبُ إلَيهِ مِنْ أحَدِكُم كان على راحِلةٍ بأرْضِ فَلَاةٍ، فانفَلَتَتْ مِنهُ، وعليها طَعامُه وشَرابُه، فَأيِسَ منها، فأتَى شَجَرةً فاضطَجَعَ في ظِلِّها، قَدْ أيِسَ مِنْ راحِلَتِه، فبيْنما هو كذلكَ إذا**

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هو بها قائِمةٌ عِندَه، فأخَذَ بخِطَامِها، ثُمَّ قال مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أنتَ عَبدِي وأنا رَبُّك، أخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ»[١]. هذا لفظ مسلم.

والقصد: أن هذا الفرح له شأنٌ لا ينبغي للعبد إهماله والإعراضَ عنه، ولا يَطَّلع عليه إلا مَن له معرفة خاصَّةٌ بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعِزِّ جلالِه.

وقد كان الأوْلَى بنا طَيُّ الكلام فيه إلى ما هو اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم، ونهايةِ أقدامِهم من المعرفة، وضعْفِ عقولهم عن احتماله.

غير أنَّا نَعلَمُ أن الله ﷻ سيسوق هذه البضاعةَ إلى تُجَّارها، ومَن هو عارف بقَدْرِها، وإن وقعت في الطريق بِيَدِ مَن ليس عارفًا بها فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه.

شرف الإنسان على سائر المخلوقات

فاعلم أن الله سبحانه اختصَّ نوعَ الإنسان من بين خلقه بأن كرَّمه وفضَّله، وشرَّفه، وخلَقَه لنفْسه، وخَلَق كلَّ شيء له، وخصَّه من معرفته ومحبَّتِه وقربه وإكرامه بما لم يُعْطِه غيرَه، وسخَّر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته ـ الذين هُم أهل قُرْبِه ـ استخدمهم له، وجعلهم حَفَظَةً له في منامه ويقظته، وظَعْنِه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كُتبَه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطَبَه وكلَّمه منه إليه، واتَّخذ منهم الخليلَ والكليمَ، والأولياءَ والخَواصَّ والأحِبَّاءَ، وجعلهم مَعدِنَ أسراره، ومحلَّ حكمته، وموضعَ حبه، وخَلَق لهم الجنة والنار، فالخلقُ والأمر، والثواب والعقابُ مدارُه على النوع الإنساني، فإنه خلاصة الخَلْق، وهو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأنٌ ليس لسائر المخلوقات، وقد خَلَقَ أباه بيديه، ونَفَخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيء، وأظهر فضلَه على الملائكة فمَن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد إبليس عن

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧).

قُربِه، وأبعده عن بابه؛ إذْ لم يسجد له مع الساجدين، واتَّخذه عدوًّا له.

المؤمنون خير البرية

فالمؤمنون من نوع الإنسان خيرُ البرية على الإطلاق، وخِيرَةُ الله من العالَمين، فإنه خلَقه ليُتِمَّ نعمته عليه، وليتواترَ إحسانه إليه، وليَخُصَّه من كرامته وفضله بما لم تَنله أمنيته، ولم يخطر على باله ولم يشعر به، ليسألَه من المواهب والعطايا الباطنةِ والظاهرة، العاجلةِ والآجلة، التي لا تُنال إلا بمحبَّته، ولا تُنال محبَّته إلا بطاعته، وإيثارِه على ما سواه، فاتَّخذه محبوبًا له، وأعدَّ له أفضلَ ما يَعُدُّه مُحِبٌّ غنيٌّ قادرٌ جوَادٌ لمحبوبه إذا قدم عليه، وعَهِدَ إليه عهدًا تقدَّمَ إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يُقرِّبه إليه، ويزيده محبةً له وكرامة عليه، وما يُبعِده منه ويسخطه عليه، ويُسْقِطه من عينه.

وللمحبوب عدوٌّ هو أبغض خلقِه إليه، قد جاهرَه بالعداوة، وأمر عباده أن يكون دينُهم وطاعتهم وعبادتُهم له، دون وَلِيِّهم ومعبودهم الحق، واستقطع عبادَه، واتخذ منهم حزبًا ظاهَرُوه ووالَوْهُ على ربهم، وكانوا أعداءً له مع هذا العدو، يَدْعون إلى سخطه، ويطعنون في ربوبيته وإلٰهيته ووحدانيته، ويَسُبُّونَه ويُكَذِّبُونَه، ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذى، ويجتهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم، ومَحْوِ كُلِّ ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه، فعرَّفه بهذا العدوِّ وطرائقهم وأعمالهم وما لهم، وحذَّره مُوالاتِهم والدُّخولَ في زُمرتهم والكونَ معهم.

تعلق التوبة بصفات الجود والإحسان

وأخبره في عهده أنه أجودُ الأجودين، وأكرمُ الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبقتْ رحمتُه غضبَه، وحلمُه عقوبتَه، وعفوُه مؤاخذتَه، وأنه قد أفاض على خلْقِه النِّعمةَ، وكتب على نفْسِه الرحمةَ، وأنه يُحِبُّ الإحسان والجود والعطاءَ والبِرَّ، وأن الفضل كلَّه بيده، والخير كلَّه منه، والجود كلَّه له، وأحبُّ ما إليه أن يجود على عباده ويُوسِعَهم فضلًا، ويغمرهم إحسانًا وجودًا، ويُتمَّ عليهم نعمته، ويضاعف لديهم مِنَنَه، ويتعرَّف إليهم بأوصافه وأسمائه، ويتحبَّب إليهم بنِعَمِه وآلائه.

فهو الجوَاد لذاته، وجُودُ كلِّ جوادٍ خَلَقَه الله ويَخلُقه أبدًا أقلُّ من ذَرَّةٍ بالقياس إلى جُودِه، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو، وجُودُ كلِّ جَوادٍ فمِن جُودِه، ومحبتُه للجُودِ والإعطاء والإحسان والبِرِّ والإنعام والإفضال فوق ما يخطر ببال الخلْق، أو يدور في أوهامهم، وفَرَحُه بعطائه وجُودِه وإفضالِه أشدُّ من فرح الآخذ بما يُعطاه ويأخذه أحوجَ ما هو إليه وأعظم ما كان قدرًا، فإذا اجتمع شدةُ الحاجة وعِظَمُ قَدْر العطية والنفع بها فما الظن بفرح المعطَى؟ ففَرَحُ المعطِي سبحانه بعطائه أشدُّ وأعظمُ مِن فَرَحِ هذا بما يأخذه، ولله المثل الأعلى؛ إذ هذا شأن الجوَاد من الخلْق، فإنه يحصل له ـ من الفرحة والسرور والابتهاج واللذةِ بعطائه وجُودِه ـ فوق ما يحصل لمن يعطيه، ولكن الآخِذ غائب بلذة أخْذِه عن لذة المعطِي، وابتهاجه وسروره، هذا مع حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه، وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوفِ الحاجة إليه عند ذَهابه، والتعرُّض لذُلِّ الاستعانة بنظيره ومن هو دونه، ونفسُه قد طُبِعت على الحرص والشُّحِّ.

فما الظن بمن تقدَّس وتَنَزَّه عن ذلك كلِّه؟ ولو أنَّ أهلَ سماواته وأرضه، وأوَّلَ خلْقِه وآخرَهم، وإنسَهم وجِنَّهم، ورَطْبَهم ويابسَهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلًّا منهم ما سأله، ما نقص ذلك مما عنده مثقالَ ذَرَّةٍ.

وهو الجوَاد لِذاته، كما أنه الحيُّ لِذاته، العليم لذاته، السميع البصيرُ لذاته، فجُودُه العالي من لوازم ذاته، والعفو أحبُّ إليه من الانتقام، والرحمة أحب إليه من العقوبة، والفضل أحبُّ إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

المذنب يستدعي خلاف ما يوصف الله به

فإذا تعرَّض عبدُه ومحبوبُه ـ الذي خلَقه لنفْسه، وأعَدَّ له أنواعَ كرامته، وفضَّله على غيره، وجعله محلَّ معرفته، وأنزل إليه كتابه، وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يُهمِلْه، ولم يتركه سُدًى ـ لغضبه، وارتكب مَساخِطَه وما يَكرَهه، وأبَقَ منه، ووالَى عدوَّه وظاهَرَه عليه،

وتحيَّزَ إليه، وقطع طريق نِعَمِه وإحسانه إليه التي هي أحبُّ شيء إليه، وفتح طريقَ العقوبة والانتقام والغضب: فقد استدعى من الجوَادِ الكريم خلافَ ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبِرِّ، وتعرَّض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبُه وسخطُه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبتُه في موضع كرمه وبِرِّه وإعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحبُّ إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المقرَّب المخصوصُ بالكرامة إذِ انقلب آبِقًا شاردًا، رادًّا لكرامته، مائلًا عنه إلى عدوه، مع شدة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

يقظة المذنب وفراره إلى ربه

فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته ـ ناسيًا لسيده، مُنهمِكًا في موافقة عدوِّه، قد استدعى من سيِّده خلافَ ما هو أهله ـ إذ عرضت له فكرة فتذكَّر بِرَّ سيده وعطفَه، وجودَه وكرمَه، وعَلِمَ أنه لا بُدَّ له منه، وأن مصيرَه إليه، وعَرْضَه عليه، وأنه إن لم يَقدَمْ عليه بنفْسه قُدِمَ به عليه على أسوأ الأحوال، ففرَّ إلى سيده من بلد عدوِّه، وجَدَّ في الهرب إليه حتى وصل إلى بابه، فوضع خدَّه على عتبة بابه، وتوسَّد ثَرَى أعتابه، مُتذلِّلًا متضرعًا، خاشعًا باكيًا آسفًا، يتملَّق سيده ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقى بيده إليه، واستسلم له وأعطاه قِيَادَه، وألقى إليه زمامه، فعلم سيدُه ما في قلبه، فعاد مكان الغضب عليه رضًا عنه، ومكانَ الشدة عليه رحمةً به، وأبدله بالعقوبة عفوًا، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلمًا، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيِّده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، فكيف يكون فرَحُ سيِّده به وقد عاد إليه حبيبه ووَلِيُّه طوعًا واختيارًا؟ وراجَع ما يحبه سيِّدُه منه ويرضاه، وفتح طريق البِرِّ والإحسان والجود، التي هي أحبُّ إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة؟

سر فرح الله بتوبة عبده

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين أنه حصل له

شُرُودٌ وإبَاقٌ من سَيِّده، فرأى في بعض السِّكَك بابًا قد فُتِح، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده، حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غيرَ بعيد، ثم وقف مُفكِّرًا، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أُخرِج منه، ولا مَن يُؤويه غيرَ والدته، فرجع مكسور القلب حزينًا، فوجد الباب مُرتَجًا، فتوسَّده ووضع خدَّه على عتبة الباب ونام، فخرجت أمُّه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رَمَتْ نفسها عليه، والتزمته تُقبِّله وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومَن يُؤويك سِواي؟ ألم أقل لك: لا تُخالفني، ولا تَحمِلني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبِلتُ عليه من الرحمة لك، والشفقة عليك، وإرادتي الخيرَ لك؟ ثم أخذَتْه ودخلت.

فتأمَّلْ قول الأم: لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبِلتُ عليه من الرحمة والشفقة.

وتأمَّلْ قوله ﷺ: «**للهُ أرْحَمُ بعِبادِه مِنَ الوالِدَةِ بوَلَدِها**»[(١)]، وأين تقع رحمةُ الوالدة من رحمة الله؟ فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرْفَ تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهْلُه وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تُطْلِعُكَ على سِرِّ فرح الله بتوبة عبده أعظمَ من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها، ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة، وتَدِقُّ عن إدراكه الأذهانُ.

هذا إذا نظرتَ إلى تعلُّق الفرح الإلٰهيِّ بالإحسانِ والجُود والبِرِّ.

تعلق فرح الله بإلٰهيته

وأمَّا إن لاحظت تعلُّقَه بإلٰهيَّته وكونِه معبودًا فذاك مشهدٌ أجَلُّ من هذا وأعظم منه، وإنما يشهده خواصُّ المُحِبِّينَ.

فإنَّ الله سبحانه إنَّما خلَق الخلق لعبادته الجامعة لمحبَّته والخضوع له وطاعته، وهذا هو الحق الذي خُلِقَت به السمواتُ والأرض، وهو

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

غاية الخلق والأمر، ونفيُه ـ كما يقول أعداؤه ـ هو الباطل، والعبث الذي نَزَّهَ نفسه عنه، وهو السُّدَى الذي نزَّه نفسه عنه أن يترك الإنسان عليه، فهو سبحانه يحب أن يُعْبَد ويُطاعَ، ولا يَعْبَأ بخلْقه شيئًا لولا محبَّتُهم وطاعتهم له.

بل فما الظنُّ بمحبوب لك تحبُّه حبًّا شديدًا، وأسَرَهُ عدوُّك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أنَّ العدوَّ سيَسُومُه سوءَ العذاب، ويعرِّضه لأنواع الهلاك، وأنت أوْلَى به منه، وهو غَرسُك وتربيتك، ثم إنَّه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد، فلم يَفْجَأْك إلا وهو على بابك، يتملَّقك ويترضَّاك ويستعتبك، ويُمَرِّغ خدَّيْه على ثرى أعتابك، فكيف يكون فرحُك به وقد اختَصصتَه لنفسك، ورضيتَه لقُرْبك، وآثرتَه على سِواه؟!

هذا ولستَ الذي أوجدتَه وخلقتَه، وأسبغت عليه نِعَمَك، والله ﷻ هو الذي أوجدَ عبده، وخلَقه وكوَّنَه، وأسبغ عليه نِعَمَه، وهو يحبُّ أن يُتِمَّها عليه، فيصير مُظهِرًا لنعمه، قابلًا لها، شاكرًا لها، مُحبًّا لوَليِّها، مُطيعًا له عابدًا له، مُعاديًا لعدوِّه، مُبْغِضًا له عاصيًا له، والله تعالى يحب من عبده معاداةَ عدوِّه، ومعصيتَه ومخالفتَه، كما يحبُّ أن يواليَه سبحانه ويطيعَه ويَعبُده، فتنضاف محبَّته لعبادته وطاعته والإنابة إليه إلى محبَّته لعداوة عدوِّه، ومعصيته ومخالفته، فتشتدُّ المحبَّة منه سبحانه، مع حصول محبوبه، وهذا حقيقة الفرح.

* * *

المعنى الثاني: إقامة الحجة على العبد

قوله: (**الثَّاني: أنْ يُقِيمَ على عَبْدِه حُجَّةَ عَدْلِه، فيُعاقِبَه على ذَنْبِه بحُجَّتِه**).

اعتراف العبد بقيام حُجَّة الله عليه من لوازم الإيمان، أطاع أمْ عصى، فإنَّ حُجَّة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكُّنِه من العلم به، سواء عَلِمَ أو جَهِلَ، فكل مَن تمكَّن من معرفة ما أمر به ونهى عنه، فقصَّرَ عنه ولم يَعْرِفْه، فقد قامت

عليه الحجة، والله سبحانه لا يعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الْحُجَّة عليه، فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بِحُجَّته على ظُلمه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨ ـ ٩].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

وفي الآية قولان؛ أحدهما: ما كان لِيُهْلِكَها بِظُلْمٍ منهم، والثاني: ما كان لِيُهلكَها بظلمٍ منه.

أقسام الناس في الانتفاع بالوحي

[و] قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠].

فأخبر سبحانه أنَّ الناس قِسمان: حَيٌّ قابل للانتفاع، فإنَّه يقبل الإنذار وينتفع به، وميِّتٌ لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غيرُ زاكية ولا قابلة للخير البتَّة، فيَحِقُّ القول عليه بالعذاب، وتكون عقوبته بعد قيام الحُجَّة عليه، لا بمجرَّد كَوْنِه غيرَ قابلٍ للهدى والإيمان، بل لأنَّه غير قابل ولا فاعل.

وحاصل هذا كله أنَّ الله سبحانه أمَرَ العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم، لا مع مراد أنفسهم، فأهلُ طاعته آثَرُوا اللهَ ومرادَه على مرادهم، فاستحقُّوا كرامَته، وأهلُ معصيته آثَرُوا مُرادَهم على مراده، وعَلِمَ سبحانه منهم أنَّهُم لا يُؤْثِرون مرادَه البتَّةَ، وإنما يؤْثِرون أهواءهم ومرادهم، فأمَرَهُم ونهاهم، فظهر بأمرِه ونهيِه من القَدَر الذي قَدَّرَ عليهم من إيثارهم هوى أنفسِهم ومرادَهم على مرضاة ربهم ومرادِه، فقامت عليهم بالمعصية حُجَّةُ عَدْلِهِ، فعاقبهم بظُلمهم.

* * *

قد ذكرنا أنَّ العبد في الذَّنب له نظرٌ إلى [خمسة][١] أمور: نظرٌ إلى الأمر والنهي، [ونظرٌ إلى الوعد والوعيد]، ونظرٌ إلى الْحُكْم والقضاء.

النظر إلى محل الجناية

النظر [الرابع]: النظر إلى محلِّ الجناية ومصدرِها، وهو النَّفس الأمَّارة بالسوء، ويفيده نظرُه إليها **أمورًا**:

منها: أنْ يعرف أنَّها جاهلة ظالمة، وأنَّ الجهل والظلم يصدر عنهما كلُّ قولٍ وعمل قبيح، ومَن صِفَتُه الجهلُ والظلمُ لا مَطْمَعَ في استقامته واعتداله البتَّة، فيوجِب له ذلك بذلَ الجهد في العلم النافع الذي يُخْرِجها به عن وصف الجهل، والعملِ الصالح الذي يُخْرِجها به عن وَصْف الظُّلم، ومع هذا فجهلُها أكثر من عِلْمها، وظُلمها أعظم من عَدْلها.

فحقيقٌ بِمَن هذا شأنُه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يَقِيَه شَرَّها، وأنْ يؤتيها تقواها ويُزَكِّيَها، فهو خيرُ مَن زَكَّاها، فإنه وليُّها ومَولاها، وأن لا يَكِلَه إليها طرفةَ عينٍ، فإنَّه إن وَكَلَه إليها هلك، فما هلك مَن هلك إلا حيث وُكِلَ إلى نفسه، وقال النبي ﷺ لحُصَيْنِ بن [عبيد]: «**قُلِ: اللَّهُمَّ ألهِمْني رُشْدي، وقِنِي شَرَّ نَفْسي**»[٢]، وفي خطبة الحاجة: «**الحَمدُ للهِ، نَحْمَدُه ونَستَعينُه، ونَستَغفِرُه، ونَعوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أنفُسِنا، وسَيِّئاتِ أعمَالِنا**»[٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

---

(١) تقدَّم عند قوله: «اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة، فله نظر إلى خمسة أمور».

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩٩٢)، والترمذي (٣٤٨٣) وقال: «حديث غريب»، وابن حبان (٨٩٩)، والحاكم (١٨٨٠)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٧٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٢٠)، وأبو داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٠٩٧).

فمَن عرَف حقيقة نفسه وما طُبِعَت عليه عَلِمَ أنها منبع كل شرٍّ، ومأوى كلِّ سوء، وأنَّ كل خير فيها ففضلٌ مِن الله مَنَّ به عليها، لم يكن منها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

أجل المعارف وأنفعها للعبد

ومنها: ما ذكره صاحب «المنازل» فقال: **(اللَّطيفةُ الثَّانيةُ: أنْ يَعْلَمَ أنَّ نَظَرَ البَصيرِ الصَّادِقِ في سَيِّئتِه لمْ يُبْقِ له حَسَنةً بحَالٍ؛ لِأنَّه يَسيرُ بيْن مُشاهَدةِ المِنَّةِ، وتَطَلُّبِ عَيْبِ النَّفْسِ والعملِ)**.

يريد: أنَّ مَن له بصيرةٌ بنفسه، وبصيرةٌ بحقوق الله تعالى، وهو صادقٌ في طَلَبِه، لم يُبْقِ له نظرُه في سيئاته حسنةً البتَّة، فلا يَلْقَى الله تعالى إلا بالإفلاس المَحْض، والفقرِ الصِّرْفِ؛ لأنَّه إذا فتَّش عن عيوب نفسه وعيوبِ عمله عَلِم أنَّها لا تصلح لله، وأنَّ تلك البضاعة لا تُشْتَرَى بها النجاةُ مِن عذابه، فضلًا عن الفوز بعظيم ثوابه، فإن خَلَصَ له عملٌ وحالٌ مع الله، وصَفَا له معه وقتٌ شاهَد مِنَّةَ الله عليه به، ومجرَّد فضلِه، وأنَّه ليس من نفسه، ولا هي أهلٌ لذلك، فهو دائمًا مُشاهِدٌ لمِنَّةِ الله عليه، ولعيوب نفْسه وعمله؛ لأنَّه متى تَطَلَّبها رآها.

وهذا من أجَلِّ أنواع المعارف وأنفعِها للعبد، ولذلك كان سيِّد الاستغفار: «**اللَّهُمَّ أنتَ رَبِّي، لا إلٰهَ إلَّا أنتَ، خَلَقْتَني، وأنا عَبْدُكَ، وأنا على عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما استَطَعْتُ، أعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ ما صَنَعْتُ، أبُوءُ لَكَ بنِعمَتِكَ عليَّ، وأبُوءُ بذَنْبي، فاغفِرْ لي، إنَّه لا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنتَ**»[١].

تضمن دعاء سيد الاستغفار لمحض العبودية

فتضمَّن هذا الاستغفارُ الاعترافَ من العبد برُبُوبِيَّتِه، وإلٰهيَّته وتوحيده، والاعترافَ بأنَّه خالقُه، العالِم به؛ إذ أنشأه نشأةً تستلزم عَجْزَه عن أداء حقِّه، وتقصيره فيه، والاعترافَ بأنَّه عبدُه الذي نَاصِيَتُه بيده وفي قبضته، لا مَهْرَبَ له منه، ولا وَلِيَّ له سواه، ثم التزام الدُّخول تحت عهده

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ـ وهو أمْرُه ونَهْيُه ـ الذي عَهِدَه إليه على لسان رسوله، وأنَّ ذلك بحسَب استطاعتي، لا بحسَب أداء حَقِّك؛ فإنَّه غير مقدور للبشر، وإنما هو جُهْد المُقِلِّ، وقَدْر الطاقة، ومع ذلك فأنا مُصدِّق بوعدك الذي وعدتَه لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مُقِيمٌ على عهدك، ومُصَدِّقٌ بوعدك، ثم الاستعاذة والاعتصام بك مِن شرِّ ما فَرَّطْتُ فيه من أمْرِك ونَهْيِك، فإنَّك إن لم تُعِذْني مِن شرِّه، وإلا أحاطت بي الهلَكَةُ، فإنَّ إضاعة حقِّك سببُ الهلاك، وأنا أُقِرُّ لك وألتزم بنِعمتك عليَّ، وأُقِرُّ وألتزم بذَنبي؛ فمنك النِّعمة والإحسانُ والفضل، ومنِّي الذَّنبُ والإساءة، فأسألك أن تغفر لي بِمَحْوِ ذنبي، وأنْ تَقِيَني مِن شَرِّه، إنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدُّعاء سيِّدَ الاستغفار؛ إذْ هو مُتضمِّن لمَحْض العبوديَّة، فأيُّ حسنة تبقى للبصير الصَّادق مع مُشاهَدتِه عيوبَ نفسِه وعملِه ومِنَّةَ الله عليه؟

فهذا الذي يعطيه نظرُه إلى نفْسِه ونقْصِه.

* * *

النظر إلى الآمر له بالمعصية

النظر [الخامس]: نظرُه إلى الآمِر له بالمعصية، المُزَيِّن له فِعلَها، الحاضِّ له عليها، وهو شيطانه المُوَكَّل به.

فيُفِيده النظرُ إليه وملاحظتُه اتخاذَه عدُوًّا، وكمالَ الاحتراز منه، والتحفُّظَ واليقظةَ، والانتباهَ لِمَا يريده منه عدوُّه وهو لا يشعر، فإنَّه يريد أن يظفر به في عَقَبةٍ من سبع عقبات؛ بعضُها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشاقَّة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

عقبات الشيطان السبع

العقبة الأولى: عقبة الكُفر بالله وبدِينه ولقائه، وصفاتِ كماله، وما أخبَرَتْ به رسلُه عنه، فإنَّه إن ظَفِرَ به في هذه العقبة بَرَدَتْ نارُ عداوته واستراح معه، فإن اقتحم هذه العقبةَ ونجا منها ببصيرة الهداية، وسَلِمَ معه نورُ الإيمان طلبَه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البِدْعة، إمَّا باعتقادِ خلافِ الحقِّ الذي أرسل اللهُ به رسولَه، وأنزل به كتابَه، وإمَّا بالتعبُّد بما لم يأْذَنْ به من

الأوضاعِ والرُّسوم المُحْدَثة في الدِّين، التي لا يَقبَلُ الله منها شيئًا.

العقبة الثالثة: وهي عَقَبةُ الكبائر، فإنْ ظَفِر به فيها زَيَّنَها له، وحَسَّنها في عينه، وسَوَّف به، وفتح له باب الإرجاء.

فإنْ قَطَعَ هذه العقبةَ بعِصْمةٍ مِن الله، أو بتوبةٍ نَصُوحٍ تُنْجِيه، طلبَه على:

العقبة الرَّابعة: وهي عقبة الصَّغائر، فكَالَ له منها بالقُفْزَان، قال: ما عليك إذا اجتنبتَ الكبائر ما غَشِيتَ مِنَ اللَّمَم، أوَما عَلِمتَ بأنَّها تُكَفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يُهَوِّن عليه أمرَها حتى يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكِبُ الكبيرة الخائفُ الوَجِلُ النادمُ أحسنَ حالًا منه؛ فإنَّ الإصرار على الذَّنب أقبح منه، ولا كبيرةَ مع التَّوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال ﷺ: «**إيَّاكُمْ ومُحَقَّراتِ الذُّنُوبِ**»، ثُمَّ ضَرَبَ لذلكَ مَثَلًا بقَوْمٍ «**نَزَلُوا بفَلاةٍ مِنَ الأرضِ، فأعْوَزَهُمُ الحَطَبُ، فجَعَلَ يَجِيءُ هذا بِعُودٍ، وهذا بعُودٍ، حتَّى جَمَعُوا حَطَبًا كثيرًا، فأوْقَدُوهُ نارًا، وأنضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، فكذلكَ شَأْنُ مُحَقَّراتِ الذُّنُوبِ؛ تَجتَمِعُ على العَبدِ ويَستَهينُ بشأْنِها حتَّى تُهْلِكَه**»[(١)].

العقبة الخامسة: وهي عقبة المُباحات التي لا حَرَجَ على فاعِلِها، فشَغَلَه بها عن الاستكثار من الطَّاعات، وعن الاجتهاد في التزوُّد لِمَعادِه، ثُمَّ طمِع فيه أنْ يستدرجه منها إلى تَرْكِ السنن، ثم مِن تَرْك السُّنَن إلى تَرْك الواجبات، وأقَلُّ ما يُنال منه تفويتُه الأرباح، والمكاسبَ العظيمة، والمنازلَ العالية، ولو عَرَفَ السِّعْر لَمَا فوَّت على نفسه شيئًا من القُرُبات، ولكنَّه جاهل بالسِّعر.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٠٥٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (٢٢٨٠٨)، والروياني في «مسنده» (٢/ ٢١٦)، والطبراني في «الأوسط» (٧٣٢٣) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٩).

فإنْ نَجَا من هذه العقبة ببصيرة تامَّة ـ ونورٍ هادٍ، ومعرفة بقدرِ الطاعات والاستكثار منها، وقِلَّةِ المقام على الميناء، وخطر التِّجارة، وكرم المُشترِي، وقدر ما يُعَوَّض به التُّجَّار، فبخِل بأوقاته، وضَنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير رِبح ـ طَلَبَه العدوُّ على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المَرجوحة المَفضولة من الطاعات، فأمَرَه بها، وحسَّنها في عينه، وزيَّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والرِّبح؛ ليشغله بها عمَّا هو أفضل منها، وأعظمُ كسبًا وربحًا؛ لأنَّه لَمَّا عجز عن تَخسيره أصلَ الثواب طَمِعَ في تخسيره كمالَه وفضلَه، ودرجاتِه العاليةَ، فشَغَلَه بالمفضول عن الفاضِل، وبالمرجوح عن الرَّاجِح، وبالمحبوبِ لله عن الأحبِّ إليه، وبالمَرْضِيِّ عن الأرْضَى له.

ولكن أين أصحابُ هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالَم، والأكثرون قد ظفِر بهم في العقبات الأُوَل.

فقه مراتب الأعمال الصالحة

فإنْ نجا منها بفِقهٍ في الأعمال ومراتبها عند الله تعالى، ومنازلِها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومَفْضُولها وفاضلها، ورئيسها ومَرْؤُوسها، وسيِّدها ومَسُودِها؛ فإنَّ في الأعمال والأقوال سيِّدًا ومَسُودًا، ورئيسًا ومرؤوسًا، وذِرْوَة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «**سَيِّدُ الِاستِغفارِ أنْ يَقولَ العَبدُ: اللَّهُمَّ أنتَ رَبِّي، لا إلٰهَ إلَّا أنتَ**»[1]، الحديثَ، وفي الحديث الآخر: «**الجِهادُ ذِرْوةُ سَنام الأمْرِ**»[2]، وفي الأثر الآخر: «**إنَّ الأعمالَ تَفاخَرَتْ، فذَكَرَ كُلُّ عَمَلٍ منها مَرتَبَته وفَضْلَه، وكان لِلصَّدَقةِ مَزيَّةٌ في الفَخْرِ علَيْهِنَّ**»[3]، ولا يقطع هذه

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وصححه الألباني في الإرواء (٤١٣).

(٣) أخرجه ابن خزيمة (٢٤٣٣)، والحاكم (١٥١٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفًا: «إن الأعمال تَباهى، فتقول الصدقة: أنا أفضلكم».

العقبةَ إلا أهلُ البصائر والصِّدق من أُولي العِلْم، السائرين على جادَّة التوفيق، قد أنزلوا الأعمالَ منازِلَها، وأعطَوْا كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

مراغمة ولي الله لعدوه

فإذا نجا منها لم يبقَ هناك عقبةٌ يطلبه العدوُّ عليها سوى واحدة لا بدَّ له منها، ولو نجا منها أحدٌ لَنَجَا منها رسلُ الله وأنبياؤه، وأكرم الخلْق عليه، وهي عقبةُ تسليطِ جُنْدِه عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسَب مرتبته في الخير، فكلما عَلَتْ مرتبتُه أجلَب عليه بخيله ورَجِله، وظاهَرَ عليه بِجُنْده، وسلَّط عليه حزبَه وأهلَه بأنواع التَّسليط، وهذه العقبة لا حِيلَة له في التخلُّص منها، فإنَّه كلَّما جدَّ في الاستقامة والدعوة إلى الله تعالى، والقيام بأمْرِه، جَدَّ العدوُّ في إغراء السُّفهاء به، فهو في هذه العَقَبة قد لَبِس لَأْمَةَ الحرب، وأخذ في محاربة العدوِّ لله وبالله، فعُبودِيَّتُه فيها عبوديَّةُ خَوَاصِّ العارفين، وهي تُسمَّى عبوديَّةَ المُراغَمة، ولا ينتبه لها إلا أُولُو البصائر التَّامَّة، ولا شيء أحَبُّ إلى الله من مُراغَمةِ وَلِيِّه لعدوِّه، وإغاظَتِه له، وقد أشارَ ﷻ إلى هذه العبوديَّة في مواضعَ من كتابه:

أحدها: قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، سَمَّى المهاجرَ الذي يُهاجِرُ فيه إلى عبادة الله مُراغَمًا؛ لأنَّه يراغِم به عدوَّ الله وعدوَّه، والله يحبُّ مِن وَلِيِّه مُراغمةَ عدوِّه، وإغاظتَه.

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التَّوْبة: ١٢٠].

وقال تعالى في مَثَلِ رسولِ الله ﷺ وأتباعِه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

فمُغايَظةُ الكفَّار غايةٌ محبوبةٌ للرَّبِّ، مطلوبةٌ له، فموافقتُه فيها من

كمال العبوديَّة، وشَرَعَ النبيُّ ﷺ للمُصَلِّي إذا سَهَا في صَلاته سجدتَيْنِ، وقال: «**إنْ كانتْ صَلاتُه تامَّةً كانَتَا تَرْغِيمًا للشَّيطانِ**»[١]، وسمَّاها المُرغِمتَيْنِ[٢].

التعبد لله بمراغمة عدوه

فمَن تعبَّد الله بِمُراغَمةِ عدوِّه فقد أخذ من الصِّدِّيقيَّة بسهمٍ وافر، وعلى قَدْر محبَّة العبد لرَبِّه وموالاتِه ومعاداةِ عَدُوِّه، يكون نصيبُه من هذه المُراغَمة، ولأجل هذه المُراغمة حُمِد التَّبَخْتُرُ بين الصَّفَّيْنِ، والخُيلاءُ والتَّبَختُرُ عند صدقة السِّرِّ، حيث لا يراه إلَّا الله؛ لِمَا في ذلك من إرغام العدُوِّ، وبَذْلِ محبوبه من نَفْسه ومالِه لله ﷻ.

وهذا بابٌ من العبودية، ولا يعرفه ولا يَسلُكه إلا القليلُ من الناس، ومَنْ ذاقَ لذَّتَه وطَعْمَه بكى على أيَّامه الأُوَل.

وبالله المستعان، وعليه التُّكلانُ، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله.

وصاحِبُ هذا المقام إذا نَظَرَ إلى الشيطان ولاحَظه في الذَّنْب راغَمَه بالتَّوْبة النَّصُوح، فأحْدَثَتْ له هذه المُراغَمةُ عبوديَّةً أُخرى.

فهذه نُبذة من بعض لطائف أسرار التَّوْبة لا تستهين بها؛ فلعلَّك لا تَظفر بها في مُصنَّف البتَّةَ، ولله الحمدُ والمِنَّة، وبه التوفيق.

❊ ❊ ❊

أنواع التوبة
النوع الأول: توبة العوام

قال صاحب «المنازل»: (**فتَوْبةُ العامَّةِ لِاسْتِكثارِ الطَّاعةِ، وهو يَدْعُو إلى جُحُودِ نِعْمةِ السَّتْرِ والإمْهالِ، ورُؤْيةِ الحَقِّ على اللهِ، والاستِغْناءِ الَّذي هو عَيْنُ الجَبَرُوتِ والتَّوَثُّبِ على اللهِ تعالى**).

ومرادُه أنَّ توبتهم مدخولةٌ، عند الخواصِّ منقوصة، فإنَّ توبتهم تكون مِن استكثارهم ما يأتون به من الحسنات والطَّاعات؛ أي: رؤيتهم كثرَتَها، وذلك يتضمَّن ثلاثَ مفاسدَ عند الخاصة:

---

(١) أخرجه مسلم (٥٧١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود (١٠٢٥)، وابن خزيمة (١٠٦٣)، وابن حبان (٢٦٥٥، ٢٦٨٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٠٢٥).

حسنات الأبرار سيئات المقربين

إحداها: أنَّ حسناتِهم التي يأتون بها سيئاتٌ بالنسبة إلى مَقام الخاصَّة؛ فإنَّ حسناتِ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين، فهم محتاجون إلى التَّوبة من هذه الحسنات، ولغفلتهم ـ باستكثارها ـ عن عيوبها ورؤيتها وملاحظتها، هم جاحِدُون نعمةَ الله في سَترها عليهم وإمهالهم، كسَتْرِه على أهلِ الذُّنوب الظاهرة وإمْهالِهم؛ فهم وأهل الذنوب الظاهرة تحت ستره وإمهاله، لكنَّ أهلَ الذُّنوب مُقِرُّون بسَتْرِه وإمهاله، وهؤلاء جاحدون لذلك؛ لأنَّهم قد توفَّرت هِمَمُهم على الاستكثار من الحسنات دون مطالعةِ عيبِ النفس والعمل، والتفتيش على دسائسهما، وأنَّ الحاملَ لهم على استكثارها رؤيتُها والإعجابُ بها، ولو تفرَّغوا لتفتيشها ـ ومحاسبةِ النفْس عليها، والتمييز بين ما فيها من الحظِّ والحقِّ ـ لَشَغَلَهُم ذلك عن استكثارها، ولأجلِ هذا كان مَن عَدِمَ الحضورَ والمراقبةَ والجمعيَّةَ في العمل، خَفَّ عليه واستَكثَرَ منه، فكَثُر في عينه، وصار بمنزلة العادة، فإذا أخذ نفْسَه بتخليصِه من الشوائب ـ وتنقيتِه من الكَدَر، وما في ذلك من شَوْكِ الرِّياء وشبْرَقِ الإعجاب، وجمعيَّةِ القلب والهمِّ على الله بكليَّتِه ـ وَجَدَ له ثِقَلًا كالجبال، وقَلَّ في عينه، ولكن إذا وَجَدَ حلاوتَه سَهُلَ عليه حملُ أثقالِه، والقيام بأعبائه، والتلذُّذ والتنعُّم به مع ثِقَله.

وإذا أردتَ فَهْمَ هذا القَدْرِ كما ينبغي فانظر وقتَ أخْذِكَ في القراءة، إذا أعرضتَ عن واجبها وتدبُّرها وتعقُّلها، وفَهْم ما أريد بكل آية، وحَظِّك من الخطاب بها، وتنزيلها على أدْواءِ قلبك والتعبُّد بها، كيف تُدرِجُ الختمة، أو أكثرها، أو ما قرأت منها، بسهولة وخِفَّة، مُستكثِرًا من القراءة، فإذا ألزمتَ نفْسَك بالتدبُّر ومعرفة المرادِ ـ والنظرِ إلى ما يُخصك منه، والتعبُّدِ به، وتنزيلِ دوائه على أدْواءِ قلبك، والاستشفاءِ به ـ لم تَكَدْ تَجُوزُ السورةَ أو الآية إلى غيرها، وكذلك إذا جَمَعْتَ قلبك كلَّه على ركعتين، وأعطيتهما ما تَقْدِرُ عليه من الحضور، والخشوع والمراقبة، لم تَكَدْ تُصلِّي غيرهما إلا بجهد، فإذا خَلَا القلبُ من ذلك عدَّدت الركعاتِ بلا حساب، فالاستكثارُ من الطَّاعات

دون مُراعاة آفاتِها وعيوبها لِيَتُوبَ منها هي تَوبة العامَّة.

المَفسَدة الثانية: **رؤية فاعلها أنَّ له حقًّا على الله تعالى في مُجازاته** على تلك الحسنات بالجنَّات والنعيم والرِّضوان، ولهذا كَثُرَت في عينه مع غفلَتِه عنْ أنَّ أعماله ـ ولو كانت أعمالَ الثَّقَلَيْنِ ـ لا تَستقِلُّ بدخول الجنة، ولا بالنَّجاة من النار، وأنَّه لن ينجوَ أحد البتَّةَ مِن النَّار بعمله، إلا بعَفْوِ الله ورحمتِه.

الثالثة: استشعارُهم الاستغناءَ عن مغفرة الله وعَفْوِه، بما يشهدون مِن استحقاق المغفرة والثَّواب بحسناتهم وطاعاتهم، فإنَّ ظنَّهم أنَّ حصولَ النَّجاة والثواب بطاعاتهم، واستكثارهم منها لذلك، وكثرتها في عيونهم، إظهارٌ للاستغناءِ عن مغفرة الله وعَفْوِه، وذلك عَيْنُ الجَبَروت والتوثُّب على الله تعالى.

خطورة العمل بلا حضور قلب ولا مراقبة

ولا ريبَ أنَّ مجرَّد القيام بأعمال الجوارح ـ من غير حُضورٍ ولا مراقبة، ولا إقبالٍ على الله ـ قد يتضمَّن تلك المفاسدَ الثلاثَ وغيرَها، مع أنَّه قليل المنفعة، كثير المُؤْنة، فهو كالعمل على غير متابعة للآمر، ولا إخلاصٍ للمعبود، فإنَّه ـ وإنْ كَثُر ـ مُتعِبٌ غيرُ مفيد، فهكذا العمل الخارجي القُشُوريُّ بمنزلة النُّخالة الكثيرةِ المَنظَرِ، القليلة الفائدة، وإنَّ الله لا يكتُبُ للعبد مِن صَلاته إلا ما عَقَلَ منها.

وهكذا ينبغي أنْ يكون سائرُ الأعمالِ الَّتي يؤمَر بالحضور فيها والخُشوع، كالطَّواف، وأعمالِ المَناسك، ونحوها.

فإنِ انضافَ إلى ذلك إحسانُ ظَنِّه بها، واستكثارُها، وعدمُ التفاتِه إلى عيوبها ونقائصِها، والتَّوبة إلى الله، والاستغفار منها ـ جاءت تلك المفاسدُ التي ذَكَرَها، وما هو أكثر منها.

فإنَّ للعبد حَظًّا، وعليه حقًّا، فحقُّ الله عليه تنفيذُ أوامره والقيامُ بها، والاستكثارُ من طاعاته بحسب الإمكانِ، والاشتغالُ بمحاربة أعدائه ومجادلتهم، ولو فرَّق ذلك جمعيَّته وشتَّت حضورَه، فهذا هو العُبوديَّةُ التي هي مرادُ الله وحقُّه.

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ يحكي عن بعض العارفين أنه قال: العامَّة تَعبُدُ الله، وهؤلاء يَعبُدونَ نُفوسَهم.

وصَدَقَ رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنَّ هؤلاء المُستكثِرينَ من الطاعة، الذَّائِقين لرُوح العبادة، الرَّاجِين ثوابَها، قد رُفِع لهم عَلَمُ الثواب، وأنَّه مُسبَّبٌ عن الأعمال، فشمَّروا إليه، راجِينَ أن تُقبَل منهم أعمالُهم ـ على عَيْبِها ونقصها ـ بفضلِ الله، خائفين أنْ تُرَدَّ عليهم؛ إذ لا تَصلُح لله ولا تَليقُ به، فيَرُدُّها بِعَدْلِه وحقِّه، فهم مُستكثِرون بجهدهم من طاعاته بين خوفه ورجائه، والإزراءِ على أنفسهم، والحرص على استعمال جوارحهم في كل وجهٍ من وجوه الطَّاعات، رجاءَ مغفرته ورحمته، وطَمَعًا في النَّجاة، فهم يقاتِلون بكل سلاحٍ لعلَّهم يَنْجُونَ.

فليتأمَّلِ اللَّبيبُ هذا حقَّ التأمل، وليفتح عينَ بصيرته، ويسير بقلبه، فينظر في مقامات العبيد وأحوالهم وهِمَمِهم، ومَن هو الأوْلى بالعُبوديَّة، ومَن هو البعيدُ منها.

بين الاستغناء والاستكثار

ولا ريب أنَّ مَن أظهَرَ الاستغناءَ عن الله ـ وتوثَّبَ عليه، وأورثَتْه الطاعاتُ جبروتًا وحَجْبًا عن رؤْيتِه عيوبَ نفْسِه وعمله، وكثُرت في عينه ـ فهو مِن أبغَضِ الخَلْقِ إلى الله تعالى، وأبعدِهم عن العبودية، وأقربهم إلى الهلاك، لا مَنِ استكثر من الباقيات الصالحات، ومِن قول النبي ﷺ لمَن سأله مُرافَقَتَه في الجنَّة، فقال: «**أعِنِّي على نفْسِك بكَثرةِ السُّجودِ**»[1]، ومن قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨].

قال الحسَن: «مَدُّوا الصلاةَ إلى السَّحَر، ثم جَلَسوا يستغفرون».

وقال النبي ﷺ: «**تابِعُوا بيْنَ الحجِّ والعُمْرةِ؛ فإنَّهُما يَنفِيانِ الفَقرَ والذُّنُوبَ كما يَنْفي الكِيرُ خَبَثَ الحَديدِ**»[2]، وقال لمَن سأله أن يوصيَه

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٨١٠)، والنسائي (٢٦٣١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّحه =

بشيء يَتشبَّثُ به: «**لا يَزالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»[(١)].

والدِّينُ كلُّه استكثارٌ من الطَّاعات، وأحبُّ خَلْقِ الله إليه أعظمُهم استكثارًا منها، وفي الحديث الصحيح الإلٰهي: «**ما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدي بمِثْلِ أداءِ ما افتَرَضْتُ عليهِ، ولا يَزالُ عَبْدي يَتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كُنتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسمَعُ بهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبصِرُ بهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشي بها، فَبِي يَسْمَعُ، وبي يُبصِرُ، وبي يَبطِشُ، وبي يَمْشي، ولَئِنْ سألَني لَأُعْطِيَنَّه، ولَئِنِ استَعاذَني لَأُعِيذَنَّه**»[(٢)].

فهذا جزاؤه وكرامتُه للمُستكثِرينَ من طاعته.

وقال ﷺ لآخَرَ: «**علَيْكَ بكَثرَةِ السُّجُودِ؛ فإنَّكَ لا تَسجُدُ لِلَّهِ سَجدةً إلَّا رَفَعَكَ اللهُ بها دَرَجةً، وحَطَّ عنكَ بها خَطيئةً**»[(٣)].

النوع الثاني: توبة الأوساط

قال: (**وتَوْبةُ الأوْساطِ مِن استِقلالِ المَعْصيةِ، وهو عَيْنُ الجُرْأةِ والمُبارَزةِ، ومَحْضُ التَّزَيُّنِ بالْحَمِيَّةِ، والاستِرْسالُ لِلْقَطيعةِ**).

يريد: أنَّ استقلالَ العبدِ المعصيةَ ذنبٌ، كما أنَّ استكثارَه الطاعةَ ذنبٌ، والعارف مَن صغُرت حسناتُه في عينِه، وعظُمت ذنوبُه عنده، وكلَّما صغُرتِ الحسناتُ في عينِك كبُرَتْ عند الله، وكلَّما كبُرتْ وعظُمتْ في قلبك قلَّتْ عند الله وصغُرتْ، وسيئاتُك بالعكس، ومَن عَرَف الله وحقَّه وما ينبغي لعظمته من العبودية تلاشتْ حسناتُه عنده، وصغُرت جدًّا في عينه، وعَلِمَ أنَّها ليست ممَّا ينجو بها من عذابه، وأنَّ الذي يَليقُ بعزَّتِه، ويصلح له من العبودية أمرٌ آخَرُ، وكلَّما استَكثَر منها استَقَلَّها واستصغَرَها؛ لأنَّه كلَّما استَكثَر منها فُتِحتْ له أبوابُ المعرفةِ بالله

= الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٠).

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٨٠)، والترمذي (٣٣٧٥)، وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه (٣٧٩٣) من حديث عبد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه، وقال ابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/٩٣): «حديث حسن» تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

والقُرْب منه، فشاهَد قلبُه من عظمته وجلاله ما يستصغر معه جميعَ أعماله، ولو كانت أعمالَ الثقلين، وإذا كثُرت في عينه وعظُمتْ دلَّ على أنه محجوبٌ عن الله، غيرُ عارفٍ به وبما ينبغي له، وبحسَب هذه المعرفةِ ومعرفته بنفْسه يستكثرُ ذنوبَه وتَعظُمُ في عينه؛ لمشاهدته الحقَّ ومُستحقَّه، وتقصيرِه في القيام به، وإيقاعه على الوجه اللائق الموافِق لِما يُحِبُّه الربُّ ويرضاه من كل وجه.

إذا عُرِفَ هذا فاستقلالُ العبدِ لمعصيته عينُ الجرأة على الله تعالى، وجَهْلُه بقدرِ مَن عصاه وبقدر حَقِّه، وإنما كان مبارزةً؛ لأنَّه إذا استصغر المعصية واستقلَّها هانَ عليه أمرُها، وخَفَّت على قلبه، وذلك نوعُ مُبارزةٍ.

النوع الثالث: توبة الخواص

قال: (**وتَوْبةُ الخَواصِّ مِن تَضْييعِ الوَقتِ؛ فإنَّه يَدْعُو إلى دَرَكِ النَّقيصةِ، ويُطفِئُ نُورَ المُراقَبةِ، ويُكَدِّرُ عَيْنَ الصُّحْبةِ**).

القصد: أنَّ إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى دَرَك النَّقِيصة؛ إذْ صاحِبُ حِفْظِه مُتَرَقٍّ في درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يَقِفْ موضِعَه، بل ينزل إلى درجاتٍ من النَّقْص، فإنَّ مَن لم يكن في تَقدُّم فهو متأخِّرٌ ولا بد، فالعبدُ سائرٌ لا واقف، فإمَّا إلى فوق، وإما إلى أسفل، إما إلى أمام، وإما إلى وراء، وليس في الطَّبيعة ولا في الشريعة وقوفٌ البتَّة، ما هو إلا مراحلُ تُطْوَى أسرعَ طَيٍّ إلى الجنَّة أو إلى النار، فمُسرِعٌ ومُبطِئ، ومُتقدِّم ومُتأخِّر، وليس في الطريق واقفٌ البتَّة، وإنَّما يَتخالَفون في جِهة المَسِير، وفي السرعة والبُطْء، ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾ [المدثر: ٣٥ ـ ٣٧]، ولم يذكر واقفًا؛ إذ لا مَنزِل بين الجنَّة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارَيْنِ البتَّة، فمن لم يتقدَّم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو مُتأخِّر بالأعمال السيئة.

تعامل السالكين مع الفتور

فإن قلتَ: كلُّ مُجِدٍّ في طَلَبِ شيء لا بد أن يَعرِض له وقفةٌ وفتورٌ، ثم ينهض إلى طلبه.

قلتُ: لا بدَّ من ذلك، ولكنَّ صاحبَ الوقفة له حالان: إما أنْ

يقف ليُجِمَّ نفْسَه، ويَعُدَّها للسير، فهذا وقفتُه سَيْرٌ، ولا تضرُّه الوقفةُ، فإنَّ لكل عاملٍ شِرَّة، ولكل شِرَّةٍ فَتْرة.

وإمَّا أن يقف لداعٍ دعاه من ورائه، وجاذِبٍ جَذَبَه مِن خلْفِه، فإن أجابه أخَّره ولا بدَّ، فإنْ تدارَكه اللهُ برحمته، وأطلَعه على سَبْقِ الرَّكب له وعلى تأخُّره، نهض نهضةَ الغَضْبانِ الآسِفِ على الانقطاع، ووثَب وجَمَزَ واشتدَّ سعيًا ليَلحَق الركبَ، وإن استمرَّ مع داعي التأخُّر، وأصغى إليه لم يَرْضَ بردِّه إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يردَّه إلى أسْوأ منها وأنزَلَ دَرَكًا، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عَقِيبَ الإبلال من المرض، فإنها أخطرُ منه وأصعبُ.

وبالجُملة؛ فإنْ تَدارَكَ اللهُ ﷻ هذا العبد بِجَذْبةٍ منه مِن يد عدوِّه وتخليصه، وإلا فهو في تأخُّرٍ إلى الممات، راجعٌ القَهْقرَى، ناكِصٌ على عَقِبَيْهِ، أو مُوَلٍّ ظهرَه، ولا قوة إلا بالله، والمعصومُ مَن عَصَمَه الله.

وقوله: **(ويُطْفِئُ نُورَ المُراقَبةِ)**:

يعني: أن المراقبة تُعطِي نورًا كاشفًا لحقائق المعرفة والعبودية، وإضاعةُ الوقت تُطفئ ذلك النور، **وتُكدِّر عينَ الصُّحبة مع الله تعالى**، فإنَّ صاحب الوقت مع صُحْبة الله، وله مع الله مَعِيَّةٌ خاصَّةٌ بحسَب حِفْظِه وقتَه مع الله، فإنْ كان مع الله كان الله معه، فإذا أضاع وقتَه كَدَّرَ عينَ هذه المعيَّة الخاصَّة، وتعرَّض لقطع هذه الصُّحبة، فلا شيءَ أضرُّ على العارف بالله من إضاعة وقتِه مع الله، ويُخشى عليه إن لم يَتداركه بالرجوع أن تستمرَّ الإضاعةُ إلى يوم اللِّقاء، فتكون حسرتُه وندامته أعظمَ من حسرة غيرِه وندامته، وحجابُه عن الله أشدَّ من حجاب مَن سواه، ويكون حالُه شبيهًا بحال قَوْمٍ يؤمَر بهم إلى الجنَّة، حتى إذا عايَنُوها وشاهَدوا ما فيها صُرِفَت وجوهُهم عنها إلى النَّار. فإذَنْ توبةُ الخواصِّ من تضييع أوقاتهم مع الله التي تدعو إلى هذه الأمور.

توبة خواص المحبين

وفوقَ هذا مقامٌ آخر من التَّوبة، أرفعُ منه وأخصُّ، لا يعرفُه إلا خواصُّ المحبِّين، الذين يستقِلُّون في حقِّ محبوبِهم جميعَ أعمالِهم

وأحوالهم وأقوالهم، فلا يرونها قطُّ إلا بعين النقص والإزراء عليها، ويَرَوْنَ شأنَ محبوبهم أعظمَ، وقدْرَه أعلى من أن يَرْضَوْا نفوسَهم وأعمالهم له، فهم أشدُّ شيء احتقارًا لها، وإزراءً بها، وإذا غَفَلوا عن مراد محبوبهم منهم ولم يُوَفُّوه حقَّه تابوا إليه من ذلك تَوبةَ أرباب الكبائر منها، فالتَّوبة لا تُفارِقُهم أبدًا، وتوبتُهم لونٌ، وتوبةُ غيرِهم لونٌ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف: ٧٦]، وكلَّما ازدادوا حُبًّا له ازدادوا معرفةً بِحَقِّه، وشهودًا لتقصيرهم، فعَظُمت لذلك تَوبتُهم، ولذلك كان خوفهم أشدَّ، وإزراؤهم على أنفسِهم أعظمَ، وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كِبار حسنات غيرهم.

وبالجملةِ؛ فتوبةُ المُحِبِّين الصادقين؛ العارفين بِرَبِّهِم وبحقِّه هي التَّوبة، وسواهم محجوب عنها.

التوبة مما دون الحق

قال صاحب «المنازل»: **(ولا يَتِمُّ مَقامُ التَّوبةِ إلَّا بالِانتِهاءِ إلى التَّوبةِ مِمَّا دُونَ الحقِّ)**.

التَّوبةُ مما دون الله أن يَخرُج العبد بقلبه عن إرادةِ ما سوى الله تعالى، فيعبُده وحدَه لا شريك له بأمرِه وباستعانته، فيكون كلُّه له وبه.

وهذا أمرٌ لا يَصِحُّ إلا لمن استولى عليه سلطانُ المحبَّة، فامتلأ قلبُه من الله محبَّةً له وإجلالًا وتعظيمًا، وذُلًّا وخضوعًا وانكسارًا بين يديه، وافتقارًا إليه.





[أحكام التَّوبة]

ونذكر نُبَذًا تتعلَّق بأحكام التَّوبة تشتدُّ الحاجة إليها، ولا يَليقُ بالعبد جَهْلُها.

منها: المبادرة إلى التَّوبة من الذَّنب فَرْضٌ على الفَوْرِ، لا يجوز تأخيرُها، فمتى أخَّرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذَّنب بَقِيَ عليه توبةٌ أخرى، وهي توبته من تأخير التَّوبة، وقَلَّ أن تَخطُر هذه ببالِ التائبِ، بل عنده أنَّه إذا تاب من الذَّنب لم يبقَ عليه شيء آخر، وقد بَقِيَ عليه التَّوبةُ من تأخير التَّوبة، ولا يُنجي من هذا إلا توبةٌ عامة مِمَّا يعلم من ذنوبه وممَّا لا يَعْلَم، فإنَّ ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثرُ مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخَذةِ بها جهلُه إذا كان متمكِّنًا من العلم، فإنَّه عاصٍ بترْك العلم والعمل، فالمعصية في حقِّه أشدُّ، وفي «صحيح ابن حِبَّانَ» أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**الشِّرْكُ في هذهِ الأُمَّةِ أخفَى مِن دَبِيبِ النَّمْلِ**»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فكيف الخلاصُ منه يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**أنْ تَقولَ: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أُشرِكَ بكَ وأنا أعْلَمُ، وأستَغفِرُكَ لِمَا لا أعْلَمُ**»[(١)].

فهذا طلبُ الاستغفار مِمَّا يعلم الله أنَّه ذنب، ولا يعلمه العبد.

---

(١) لم نجده في صحيحه لكن أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٣/ ١٣٠)، وأخرجه أيضًا أبو يعلى (٦٠)، وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص١٢١٥)، ضعَّفه ابن حبان والدارقطني.
وله شاهد من حديث أبي موسى أخرجه أحمد (١٩٦٠٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٤): «رجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، ووثقه ابن حبان».

وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنَّه كان يدعو في صلاته: **«اللَّهُمَّ اغفِرْ لي خَطيئَتي وجَهْلي، وإسرافي في أمْري، وما أنتَ أعْلَمُ بهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي جَدِّي وهَزْلي، وخَطَئي وعَمْدي، وكُلُّ ذلكَ عِنْدي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْتُ، وما أنتَ أعْلَمُ بهِ مِنِّي، أنتَ إلَهي، لا إلٰهَ إلَّا أنتَ»**[(١)].

وفي الحديث الآخر: **«اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنْبي كُلَّه، دِقَّهُ وجِلَّه، وسِرَّهُ وعَلانِيَتَه، أوَّلَهُ وآخِرَهُ»**[(٢)].

فهذا التعميم وهذا الشُّمول لتأتيَ التَّوبةُ على ما علِمه العبد من ذنوبه وما لا يعلمه.

توبة العاجز عن المعصية

ومن أحكامها: أنَّ العاصي إذا حِيلَ بينه وبين أسباب المعصية، وعَجَزَ عنها بحيث يتعذَّر وقوعُها منه، هل تَصِحُّ توبته؟

الصواب أنَّ توبته صحيحة مُمْكِنةٌ، بل واقعة؛ فإنَّ أركان التَّوبة مجتمعةٌ فيه، والمقدور له منها النَّدم، وفي المسنَد مرفوعًا: **«النَّدَمُ تَوبةٌ»**[(٣)]، فإذا تحقَّق ندمُه على الذَّنب ولَوْمُه نفْسَه عليه فهذه توبةٌ، وكيف يَصِحُّ أن تُسلَب التَّوبةُ عنه مع شدَّةِ نَدَمِه على الذَّنب، ولَوْمِه نفْسَه عليه؟ ولا سيَّما ما يَتْبَع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمِه الجازم، ونيَّتِه أنَّه لو كان صحيحًا والفعلُ مقدورًا له لَمَا فَعَلَه.

هل يعود التائب لمنزلته؟

ومِن أحكامها: أنَّ العبد إذا تابَ من الذَّنب فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذَّنب من الدَّرجة التي حطَّه عنها الذَّنب أو لا يرجع إليها؟ اختُلِف في ذلك.

فقالت طائفة: يرجع إلى درجته؛ لأن التَّوبة تَجُبُّ الذَّنبَ بالكُليَّة،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٣٥٦٨، ٤٠١٢، ٤٠١٤، ٤١٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٢).

وتُصَيِّرُه كأن لم يكن، والمقتضِي لدرجته ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فعاد إليها بالتَّوبة.

قالوا: ولأنَّ التَّوبةَ حسنةٌ عظيمةٌ وعمل صالح، فإن كان ذنبُه قد حطَّه عن درجته، فحسنتُه بالتَّوْبة تُرَقِّيهِ إليها، وهذا كمَنْ سَقَطَ في بئر وله صاحب شفيق أدلى إليه حبلًا تمسَّك به حتى رَقِيَ منه إلى موضعه، فهكذا التَّوبة والعمل الصالح مِثلُ هذا القَرِين الصالح والأخ الشَّفيق.

وقالت طائفة: لا يعود إلى درجته وحالِه؛ لأنَّه لم يكن في وُقوفٍ، بل كان في تَرَقٍّ وصُعود، فبالذَّنب صار في نُزول وهُبوط، فإذا تاب نَقَصَ عليه ذلك القَدْرُ الذي كان مُستعِدًّا فيه للتَّرَقِّي.

قالوا: ومثل هذا مثل رَجُلَيْنِ سائِرَيْن على طريقٍ سَيْرًا واحدًا، ثم عرَض لأحدهما ما ردَّه على عَقِبه أو أوْقَفه، وصاحِبُه سائرٌ، فإذا استقال هذا رجوعَه ووقفتَه، وسار بإثْرِ صاحبِه لم يلحقْه أبدًا؛ لأنَّه كلَّما سارَ مرحلة تقدَّم ذلك أخرى.

قالوا: والأوَّل سَيْرُه بقوةِ أعمالِه وإيمانِه، وكلَّما ازدادَ سَيْرُه ازدادت قوَّتُه، وذلك الواقف الذي رجع قد ضَعُفت قوةُ سَيْرِه وإيمانه بالوقوف والرجوع.

تفاوت التائبين بعد التوبة

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يحكي هذا الخلافَ، ثم قال: «والصَّحيح أنَّ مِن التائِبِينَ مَن لا يعود إلى درجته، ومنهم مَن يعود إليها، ومنهم مَن يعود إلى أعلى منها، فيصير خيرًا مما كان قبل الذَّنب، فكان داود بعد التَّوبة خيرًا منه قبل الخطيئة.

قال: وهذا بحسَب حال التَّائِبِ بعد تَوبتِه وعزْمِه وحَذَره وجِدِّه وتشميره، فإنْ كان ذلك أعظمَ مِمَّا كان له قبل الذَّنب عاد خيرًا مِمَّا كان وأعلى درجةً، وإن كان مثلَه عاد إلى مثلِ حالِه، وإن كان دونَه لم يَعُد إلى درجته، وكان مُنحطًّا عنها».

وهذا الذي ذَكَرَه هو فصْلُ النِّزاع في هذه المسألة، ويتبيَّن هذا **بمَثَلَيْنِ مضروبَيْنِ:**

أحدهما: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمْنٍ، فهو يَعْدُو مَرَّةً ويمشي أخرى، ويستريح تارةً وينام أخرى، فبَيْنا هو كذلك إذ عرض له في سَيْرِه ظِلٌّ ظَلِيل، وماء باردٌ ومَقِيل، وروضة مُزهِرة، فدعتْه نفسُه إلى النُّزول عليها، فنزل عليها، فوثَب عليه منها عَدُوٌّ، فأخذه وقيَّده وكتَّفه ومنعَه عن السير، فعايَنَ الهلاكَ، وظنَّ أنَّه مُنقطِع به، وأنَّه رِزْقُ الوحوش والسِّباع، وأنَّه قد حِيلَ بينه وبين مَقصِده الذي يَؤمُّه، فبَيْنا هو على ذلك تتقاذفه الظُّنونُ إذ وقف على رأسه والدُه الشفيق القادر، فحلَّ كِتافَه وقُيودَه، وقال: اركب الطريقَ واحْذَرْ هذا العدوَّ؛ فإنه على منازل الطريق بالمِرْصاد، واعلم أنَّك ما دُمْتَ حاذرًا له مُتيقِّظًا لا يَقدِر عليك، فإذا غَفَلْتَ وَثَبَ عليك، وأنا مُتقدِّمُك إلى المنزلة، وفَرَطٌ لك، فاتْبَعْني على الأثر.

فإن كان هذا السائر كيِّسًا فَطِنًا لبيبًا، حاضِرَ الذِّهن والعقل، استَقبَلَ سَيْرَه استقبالًا آخرَ، أقوى من الأول وأتمَّ، واشتدَّ حذرُه، وتأهَّب لهذا العدوِّ، وأعدَّ له عُدَّتَه؛ فكان سَيْرُه الثاني أقوى من الأول، وخيرًا منه، ووصولُه إلى المنزل أسرعَ، وإن غَفَل عن عدُوِّه وعاد إلى مثل حالِه الأوَّل ـ من غير زيادة ولا نُقصان، ولا قوةِ حَذَرٍ ولا استعدادٍ ـ عادَ كما كان، وهو مُعرَّض لِمَا عَرَضَ له أولًا.

وإنْ أورَثه ذلك تَوانيًا في سَيْرِه وفُتُورًا، وتذكُّرًا لِطِيب مَقِيلِه، وحُسْنِ ذلك الرَّوْض وعُذُوبةِ مائه، وتَفَيُّؤِ ظلاله، وسُكونًا بقلبه إليه، لم يَعُدْ إلى مثل سَيْرِه، ونَقَصَ عما كان.

المَثل الثاني: عبدٌ في صحَّة وعافيةِ جسمٍ، عرَض له مرضٌ أوجَب له حِمْيَةً، وشُرْبَ دواءٍ، وتحفُّظًا من التخليطِ، ونقصَ بذلك عنه مادةٌ رَدِيَّةٌ كانت مَنْقَصةً لكمال قوَّته وصِحَّته، فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله، كما قيل:

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحمُودٌ عَواقِبُهُ   ورُبَّما صَحَّتِ الأجسامُ بِالعِلَلِ

وإنْ أوجبَ له ذلك المرضُ ضعفًا في القوة، وتَدارَكه بمِثل ما نقصَ مِن قوَّته، عاد إلى مثل ما كان.

وإنْ تدارَكه بدون ما نَقَصَ من قوَّته، عاد إلى دون ما كان عليه من القُوَّة.

وقد ضُرِبَ لذلك مثَلٌ آخَرُ برَجُلٍ خرج مِن بيته يريد الصلاة في الصفِّ الأول، لا يَلْوِي على شيء في طريقه، فعرَض له رجلٌ مِن خَلْفِه جَبَذَ ثوبَه وأوْقَفه قليلًا، يريد تَعْويقَه عن الصلاة، فله معه **حالان**:

أحدهما: أنْ يشتغل به حتى تفوتَه الصلاةُ، فهذه حالُ غيرِ التَّائب.

الثاني: أن يُجاذِبَه على نفسه، ويتفَلَّت منه؛ لئلَّا تفوتَه الصلاة.

ثم له بعد هذا التفلُّت **ثلاثةُ أحوال**:

أحدها: أن يكون سَيْرُه جَمزًا ووَثْبًا؛ ليستدرك ما فاته بتلك الوَقْفة، فرُبَّما استدركه وزاد عليه.

الثاني: أن يعود إلى مثل سَيْرِه.

الثالث: أنْ تُورِثَه تلك الوقفةُ فُتُورًا وتهاوُنًا، فيفوته فضيلةُ الصف الأول، أو فضيلةُ الجماعة وأوَّل الوقت، فهكذا التائب سواء.

المفاضلة بين المطيع والعاصي التائب

ويتبيَّن هذا بمسألةٍ شريفةٍ، وهي أنَّه: هل المُطيع الذي لم يَعْصِ خيرٌ من العاصي الذي تاب إلى الله تَوْبةً نَصُوحًا، أو هذا التَّائب أفضل منه؟

اختُلِفَ في ذلك؛ فطائفة رجَّحَت مَن لم يَعْصِ على مَن عصى وتاب تَوْبةً نَصُوحًا، واحتَجُّوا **بوجوهٍ**:

أدلة ترجيح المطيع

أحدها: أنَّ أكْمَلَ الخلْقِ وأفضلَهم أطوعُهم لله تعالى، وهذا الذي لم يَعْصِ أطوعُ؛ فيكون أفضل.

الثاني: أنَّ في زمنِ اشتغال العاصي بمعصيته يسبقه المُطيعُ عِدَّةَ مراحلَ إلى فوق، فتكون درجتُه أعلى من درجته، وغايتُه أنَّه إذا تاب

استقبل سَيْرَه ليلحقه، وذاك في سَيْرٍ آخَرَ، فأنَّى له بلَحاقِه؟ فهما بمنزلة رجُلَيْنِ مشترِكَيْنِ في الكَسْب، كلَّما كَسَب أحدُهما شيئًا كسب الآخرُ مثلَه، فعمَد أحدُهما إلى كَسْبِه فأضاعه، وأمسك عن الكَسْب المستأنَف، والآخر مُجِدٌّ في الكسب، فإذا أدركَتْه حميَّةُ المنافَسة وعاد إلى الكسب وجَدَ صاحبَه قد كَسَب في تلك المدَّة شيئًا كثيرًا، فلا يكسِب شيئًا إلا كَسَبَ صاحبُه نظيرَه، فأنَّى له بمساواتِه؟

الثالث: أنَّ غاية التَّوبة أنْ تمحو عن هذا سيِّئاتِه، ويصير بمنزلة مَن لم يعملها، فيكون سعيُه في مدَّة المعصية لا له ولا عليه، فأين هذا السَّعْيُ مِن سَعْيِ مَن هو كاسِبٌ رابح؟

الرابع: أنَّ الله يَمقُت على معاصيه ومخالَفةِ أوامِره، ففي مدَّة اشتغال هذا بالذُّنوب كان حظُّه المَقْتَ، وحظُّ المُطيع الرِّضا، فالله لم يَزَلْ عنه راضيًا، ولا رَيْبَ أن هذا خير مِمَّن كان الله راضيًا عنه ثم مَقَتَه، ثم رَضِيَ عنه، فإنَّ الرِّضا المستمرَّ خيرٌ من الذي تخلَّلَه المَقْتُ.

الخامس: أنَّ الذَّنب بمنزلة شُرْب السُّمِّ، والتَّوبة هي تِرْياقُه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية، وصحَّة وعافيةٌ مستمرَّة خيرٌ من صحَّة تخلَّلَها مرضٌ وشُرْبُ سمٍّ أفاق منه، وربما أدَّيَا به إلى التَّلَف أو المرض أبدًا.

السادس: أنَّ العاصي على خطر شديد، فإنَّه دائرٌ بين ثلاثة أشياءَ؛ أحدها: العَطَب والهلاك بشُرْب السُّمِّ. الثاني: النُّقصان من القوة وضعْفُها إنْ سَلِم من الهلاك. والثالث: عَوْدُ قوَّته إليه كما كانت أو خيرًا منها.

والأكثر إنما هو القِسمان الأوَّلان، ولعلَّ الثالث نادرٌ جدًّا، فهو على يقين مِن ضَرَرِ السُّمِّ، وعلى رجاءٍ مِن حصول العافية، بخلاف مَن لم يتناول ذلك.

السابع: أنَّ المُطيعَ قد أحاطَ على بستان طاعته حائطًا حَصِينًا لا يجد الأعداءُ إليه سبيلًا، فثَمرَتُه وزهرتُه وخُضرتُه وبهجتُه في زيادةٍ ونُمُوٍّ

أبدًا، والعاصي قد فتح فيه ثَغْرًا، وثَلَمَ فيه ثُلْمةً، ومَكَّنَ منه السُّرَّاقَ والأعداءَ، فدخلوا فعَاثُوا فيه يمينًا وشمالًا، وأفسَدوا أغصانَه، وخرَّبوا حِيطانَه، وقطَعوا ثمراتِه، وأحرَقوا في نواحيه، وقطَعُوا ماءه، أو نَقَصُوا سَقْيَه، فمتى يرجع هذا إلى حالِه الأوَّل؟ فإذا تَدارَكَه قَيِّمُه ولَمَّ شَعْثَه، وأصلحَ ما فَسَدَ منه، وفتَحَ طُرُقَ مائِه، وعَمَّر ما خَرِبَ منه، فإنَّه إمَّا أن يعود كما كان، أو أنْقَصَ، أو خيرًا، ولكن لا يلحقُ بستانَ صاحبِه الذي لم يَزَلْ على نَضارَتِه وحُسْنِه، بل في زيادةٍ ونُمُوٍّ، وتضاعُفِ ثمرةٍ، وكثرةِ غَرْسٍ.

والثامن: أنَّ طَمَعَ العدُوِّ في هذا العاصي إنَّما كان لضَعْف عِلمه وضَعفِ عزيمته؛ ولذلك يُسمَّى جاهلًا، قال قتادة رضي الله عنه: أجمعَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ على أنَّ كلَّ ما عُصِي اللهُ به فهو جَهالةٌ؛ فلذلك قال الله تعالى في حقِّ آدمَ عليه السلام: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥]، وقال في حقِّ غيره: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وأمَّا مَن قَوِيتْ عَزيمتُه، وكَمُلَ عِلمُه، وقَوِيَ إيمانُه، لم يَطمَعْ فيه عدُوُّه، فكان أفضل.

التاسع: أنَّ المعصية لا بدَّ أنْ تؤثِّر أثرًا سيِّئًا ولا بُدَّ؛ إمَّا هلاكًا كُليًّا، وإمَّا خُسرانًا وعِقابًا يَعقُبه عَفْوٌ ودخولُ الجنة، وإما نقصُ درجةٍ، وإما خمودُ مصباحِ الإيمان، وعملُ التَّوبةِ في رَفْعِ هذه الآثارِ والتكفيرِ، وعملُ المُطيع في الزيادة، ورِفْعةِ الدرجات.

ولهذا كان قيامُ اللَّيل نافلةً للنَّبِيِّ ﷺ خاصَّةً؛ فإنَّه يعمل في زيادة الدَّرجات، وغيرُه يعملُ في التكفير، وأين هذا مِن هذا؟

العاشر: أنَّ المُقبِل على الله له سَيْرٌ بِجُمْلة أعمالِه، وكلَّما زادت طاعاته وأعمالُه ازدادَ كسْبُه بها وعَظُم، وهو بمنزلة مَن سافر فكَسَبَ عشرةَ أضعافِ رأسِ مالِه، فسافَرَ ثانيًا برأسِ مالِه الأوَّل وكَسْبِه، فكَسَبَ عشرةَ أضعافه أيضًا، فسافَرَ ثالثًا أيضًا بهذا المال كلِّه، وكان رِبْحُه كذلك، وهَلُمَّ جَرًّا، فإذا فَتَرَ عن السفر في آخر أمْرِه مرَّةً واحدةً فاتَه من

الرِّبْح بقَدْرِ جميعِ ما رَبِحَ أو أكثر منه، وهذا معنى قولِ بعض العارفين: «لو أقبل عبدٌ على الله كذا وكذا سَنةً، ثم أعرَضَ عنه لحظةً واحدةً، كان ما فاتَه أكثرَ مما حَصَلَ له»، وهو صحيح بهذا المعنى؛ فإنَّه قد فاتَه في مدَّة الإعراض ربحُ تلك الأعمالِ كلِّها، وهو أزْيَدُ من الرِّبح المُتقدِّم، فإذا كان هذا حالَ مَن أعْرَضَ، فكيف مَن عَصَى وأذنب؟ وفي هذا الوجهِ كفايةٌ.

أدلة ترجيح التائب

وطائفةٌ رجَّحَتِ التَّائبَ، وإنْ لم تُنكِر كَوْنَ الأوَّلِ أكثرَ حسناتٍ منه، واحتجَّت **بوجوهٍ**:

أحدها: أنَّ عبوديَّة التَّوبة مِن أحَبِّ العبوديَّات إلى الله، وأكْرَمِها عليه، فإنَّه سبحانه يحب التوَّابِينَ، ولو لم تكن التَّوبةُ أحبَّ الأشياء إليه لَمَا ابتُلِيَ بالذَّنب أكرمُ الخَلْق عليه، فلِمَحَبَّتِه لتَوْبة عبدِه ابتلاه بالذَّنب الذي يوجِب وقوعَ محبوبِه من التَّوبة، وزيادة محبَّته لعبده، فإنَّ للتَّائِبينَ عنده محبَّةً خاصَّة، يوضِّح ذلك:

الوجه الثاني: أنَّ للتَّوبة عنده سبحانه منزلةً ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتَوْبة عبده حين يتوب إليه أعظمَ فَرَح يُقَدَّر، كما مَثَّله النبيُّ ﷺ بفَرَحِ الواجدِ لراحلتِه التي عليها طعامُه وشرابُه في الأرض الدَّوِّيَّة المُهْلِكة بعدما فقدَها، وأيِسَ من أسباب الحياة، ولم يَجِئْ هذا الفرح في شيء من الطاعات سِوى التَّوبة، ومعلوم أنَّ لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التَّائب وقَلْبِه، ومزيده لا يُعبَّر عنه، وهو من أسرار تقدير الذُّنوب على العِباد، فالعبدُ ينال بالتَّوبة درجةَ المحبوبِيَّة، فيصير حبِيبًا لله، فإنَّ الله يحبُّ التوَّابِينَ، ويحب العبدَ المُفتَّنَ التَّوَّابَ، ويوضِّحه:

الوجه الثالث: أنَّ عبوديَّة التَّوبة فيها من الذُّل، والانكسار، والخضوع، والتملُّقِ لله، والتذلُّل له، ما هو أحبُّ إليه من كثير من الأعمال الظَّاهرة، وإنْ زادت في القَدْر والكَمِّيَّة على عبوديَّة التَّوبة، فإنَّ الذُّلَّ والانكسار رُوحُ العبوديَّة، ومُخُّها ولُبُّها، يوضِّحه:

ثـمـرات ذل التـائـب وانكساره

الوجه الرابع: أنَّ حصولَ مراتِبِ الذُّلِّ والانكسار للتَّائب أكملُ منها لغيره؛ فإنَّه قد شارَكَ مَن لم يُذنِب في ذُلِّ الفقر، والعبوديَّة، والمحبَّة، وامتازَ عنه بانكسارِ قلبِه بالمعصية كما في الأثر الإسرائيلي: يا رَبِّ، أين أجِدُكَ؟ قال: عِندَ المُنكسِرةِ قلوبُهم مِن أجْلي. ولأجْلِ هذا أقربُ ما يكون العبدُ من رَبِّه وهو ساجد؛ لأنَّه مقامُ ذُلٍّ وانكسارٍ بين يدي رَبِّه ﷻ.

وتأمَّلْ قولَ النبيِّ ﷺ فيما يَروي عن ربِّه تبارك وتعالى: «**أنَّه يَقولُ يَومَ القيامةِ: ابنَ آدَمَ، استَطعَمْتُكَ فلَمْ تُطعِمْني، قال: يا رَبِّ، كيف أُطعِمُكَ وأنتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قال: استَطعَمكَ عَبْدي فلَمْ تُطعِمْه، أمَا لو أطعَمْتَه لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدي. ابنَ آدَمَ، استَسقَيْتُكَ فلَمْ تَسْقِني، قال: يا رَبِّ، كيفَ أسقيكَ وأنتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قال: استَسقاكَ عَبْدي فُلانٌ فلَمْ تَسْقِهِ، أمَا لَوْ سَقَيْتَه لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدي. ابنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فلَمْ تَعُدْني، قال: يا رَبِّ، كيف أعُودُكَ وأنتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قال: أمَا إنَّ عَبْدي فُلانًا مَرِضَ فلَمْ تَعُدْه، أمَا لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَني عِندَه**»[(١)]، فقال في عيادة المريض: «**لَوَجَدْتَني عِندَه**»، وقال في الإطْعام والإسْقَاءِ: «**لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدي**»، ففرَّق بينهما، فإنَّ المريضَ مكسورُ القلبِ ولو كان مَن كان، فلا بدَّ أن يَكسِره المرضُ، فإذا كان مؤمنًا قد انكسر قلبُه بالمرض كان الله عنده.

وهذا ـ واللهُ أعلم ـ هو السِّرُّ في استجابةِ دعوةِ الثَّلاثة: المظلوم، والمسافِرِ، والصائم؛ للكَسْرةِ التي في قلب كلٍّ واحد منهم؛ فإنَّ غُرْبةَ المسافر وكَسْرتَه مِمَّا يجدها العبدُ في نفْسِه، وكذلك الصَّوم، فإنَّه يَكسِر سَوْرَةَ النفْسِ السَّبُعِيَّة الحيوانيَّةِ ويُذِلُّها.

والقصد: أنَّ شمعةَ الجَبْرِ والفضلِ والعَطايا إنَّما تَنزِل في شَمْعِدانِ الانكسارِ، وللعاصي التَّائبِ مِن ذلك نصيبٌ وافرٌ، يوضِّحه:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رب ذنب أدخل صاحبه الجنة!

الوجه الخامس: أنَّ الذَّنب قد يكون أنفعَ للعبد إذا اقترنت به التَّوبةُ مِن كثير مِن الطَّاعات، وهذا معنى قولِ بعضِ السَّلَف: قد يعمل العبدُ الذَّنْبَ فيدخل به الجنَّةَ، وقد يعمل الطَّاعةَ فيدخل بها النَّار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذَّنْبَ فلا يزال نُصْبَ عَينَيْهِ؛ إنْ قام وإنْ قَعَدَ وإنْ مشى، كلَّما ذَكَرَه أحدَث له تَوبةً، واستغفارًا، ونَدَمًا، فيكون ذلك سببَ نجاتِه، ويعمل الحسنة، فلا تزال نُصْبَ عينيه؛ إنْ قام وإن قعدَ وإن مشى، كلَّما ذَكَرَها أوْرثَتْه عُجْبًا وكِبْرًا ومِنَّة، فتكون سببَ هلاكِه، فيكون الذَّنبُ مُوجِبًا لتَرَتُّب طاعاتٍ وحسنات، ومعاملاتٍ قلبيَّة؛ مِن خوفٍ مِن الله، وحياءٍ منه، وإطراقٍ بين يديه مُنكِّسًا رأسَه خجلًا، باكيًا نادِمًا، مُستقبِلًا رَبَّه، وكلُّ واحدٍ من هذه الآثارِ أنفعُ للعبدِ مِن طاعةٍ توجِب له صَوْلةً، وكِبْرًا، وازْدِراءً بالنَّاس، ورؤيتَهم بعينِ الاحتقارِ، ولا ريبَ أنَّ هذا المُذْنِب خيرٌ عند الله، وأقربُ إلى النَّجاة والفوزِ من هذا المُعْجَب بطاعتِه، الصَّائِل بها، الْمَانِّ بها، وبِحالِه على الله ﷻ وعبادِه، وإنْ قال بلسانه خلافَ ذلك فاللهُ شهيد على ما في قلبِه، ويكاد يُعادِي الخلائقَ إذا لم يُعظِّموه ويرفعوه، ويخضعُوا له، ويجد في قلبِه بِغْضةً لِمَنْ لم يفعل به كذلك، ولو فتَّشَ نفْسَه حقَّ التفتيشِ لرأى فيها ذلك كامِنًا.

فإذا أراد الله بهذا العبدِ خيرًا ألقاه في ذَنْبٍ كَسَرَه به، وعرَّفه به قَدْرَه، وكفى به عبادَه شَرَّهُ، ونَكَّس به رأسَه، واستخرج به منه داءَ العُجْب والكِبْرِ والمِنَّة عليه وعلى عباده، فيكون هذا الذَّنْبُ أنفعَ لهذا مِن طاعاتٍ كثيرة، ويكون بمنزلة شُرْبِ الدَّواء ليستخرج به الدَّاء العُضَال، كما قيلَ بلسان الحال في قصَّة آدمَ عليه السلام وخروجِه من الجنَّة بذنْبِه:

يا آدمُ، لا تَجْزَع من كأسِ زَلَلٍ كانت سببَ كَيْسِكَ، فقد استُخرِجَ بها منك داءٌ لا يصلُح أنْ تُجاوِرَنا به، وأُلبِسْتَ بها خِلْعَةَ العبوديَّة.

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحمُودٌ عَواقِبُهُ ... ورُبَّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

يا آدمُ، إنَّما ابتليتُك بالذَّنب لأنِّي أحبُّ أنْ أُظهِر فضلي وجُودي

وكَرَمي على مَن عصاني، «لَوْ لَمْ تُذْنِبوا لَذَهَبَ اللهُ بكُمْ، ولَجاءَ بقَومٍ يُذْنِبُونَ فيَستَغفِرُونَ اللهَ فيَغفِرُ لهُم».

يا آدم، كنتَ تدخُلُ عليَّ دخولَ الملوك على الملوك، واليوم تدخل عليَّ دخولَ العَبِيد على الملوك.

يا آدم، إذا عصمتُك وعصمتُ بَنِيكَ من الذُّنوب فعلى مَن أجُود بحِلْمي؟ وعلى مَن أجود بعَفْوي ومَغفرتي وتوبتي، وأنا التَّوَّابُ الرَّحيم؟

يا آدم، لا تجزع مِن قولي لك: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ﴾ [الأعراف: ١٨] فلك خَلَقْتُها، ولكن اهبِطْ إلى دارِ المجاهَدة، وابْذُر بِذَارَ التَّقوى، وأمطِرْ عليه سَحائبَ الجُفُون، فإذا اشتدَّ الحَبُّ واستَغلَظ، واستوى على سُوقِه، فتَعَالَ فاحْصُدْهُ.

يا آدم، ما أهبطتُكَ مِن الجَنَّة إلا لتتوسَّل إليَّ في الصُّعُود، وما أخرجتُك منها نَفْيًا لك عنها، ما أخرجتُك إلا لتعود.

إنْ جَرَى بَيْنَنا وبَيْنَكَ عَتْبٌ   أوْ تَناءَتْ مِنَّا ومِنْكَ الدِّيارُ
فالْوِدادُ الَّذي عَهِدْتَ مُقِيمٌ   والعِثارُ الَّذي أصَبْتَ جُبَارُ

يا آدم، ذنبٌ تَذِلُّ به لدينا، أحَبُّ إلينا من طاعةٍ تُدِلُّ بها علينا.

يا آدم، أنينُ المُذْنِبينَ، أحَبُّ إلينا من تسبيح المُدِلِّينَ.

يا ابنَ آدَمَ، إنَّكَ ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غَفَرْتُ لكَ على ما كان مِنكَ ولا أُبالي. ابنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ، ثُمَّ استَغفَرْتَني غَفَرْتُ لكَ. يا ابنَ آدَمَ، لَوْ لَقِيتَني بِقُرَابِ الأرضِ خَطايَا، ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشرِكُ بي شَيْئًا، أتَيْتُكَ بقُرَابِها مَغفِرةً.

الوجه السادس: وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠]، وهذا مِن أعظم البِشارة للتَّائب إذا اقترَنَ بتوبتِه إيمانٌ وعملٌ صالحٌ، وهو حقيقةُ التَّوبة، قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: «ما رأيتُ النبيَّ ﷺ فَرِحَ بشيءٍ قَطُّ فَرَحه بهذه الآيةِ لمَّا أُنزِلَتْ، وفَرَحه بـ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا

﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]»[١].

وهي أنَّ الذَّنْبَ لا بدَّ له مِن أثَرٍ، وأثرُه يرتفع بالتَّوبة تارةً، وبالحسنات الماحيةِ تارةً، وبالمصائبِ المُكَفِّرة تارةً، وبدخول النَّار ليتخلَّصَ مِن أثَرِه تارةً، وكذلك إذا اشتدَّ أثَرُه، ولم تَقْوَ تلك الأمورُ على مَحْوِه، فلا بدَّ إذًا مِن دُخول النار؛ لأنَّ الجنَّة لا يكونُ فيها ذرَّةٌ من الخبيث، ولا يدخلُها إلَّا مَن طابَ مِن كلِّ وجه، فإذا بَقِيَ عليه شيءٌ مِن خَبَثِ الذُّنوب أُدخِل كِيرَ الامتحان؛ ليَتخلَّصَ ذهبُ إيمانِه مِن خَبَثِه، فيصلح حينئذ لدار الملكِ.

إذا عُلِمَ هذا فزوالُ مُوجَبِ الذَّنبِ وأثرِه تارةً يكون بالتَّوبة النَّصُوح، وهي أقوى الأسبابِ، وتارةً يكون باستيفاء الحقِّ منه وتطهيرِه في النَّار، فإذا تطهَّرَ بالنَّار، وزال أثرُ الوَسَخِ والخَبَثِ عنه أُعطِيَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فإذا تَطَهَّر بالتَّوبة النَّصوح، وزال عنه بها أثَرُ وَسَخِ الذُّنوب وخَبَثِها كان أوْلى بأنْ يُعطى مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً؛ لأنَّ إزالةَ التوبة لهذا الوَسَخِ والخبثِ أعظمُ مِن إزالة النَّار، وأحَبُّ إلى الله تعالى، وإزالةُ النارِ بدلٌ منها، وهي الأصل؛ فهي أوْلَى بالتبديل ممَّا بعد الدخول، يوضِّحُه:

تبديل السيئات حسنات

الوجه [السابع]: وهو أنَّ التَّائب قد بَدَّل كلَّ سيئةٍ حسنةً بِنَدَمِه عليها؛ إذْ هو تَوبةُ تلك السَّيِّئةِ، والندمُ تَوبةٌ، والتَّوبة من كل ذنبٍ حسنةٌ، فصارَ كلُّ ذنبٍ عَمِلَه زائلًا بالتَّوبة التي حَلَّت مَحلَّه وهي حسنة، فصار له مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةٌ بهذا الاعتبار، فتأمَّلْه؛ فإنَّه من ألطفِ الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنةُ مُساويةً في القَدْر لتلك السَّيِّئةِ،

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «معجمه» (١٥٣)، والطبراني في «الأوسط» (٥٥٧٩) و«الكبير» (١٢/ ١٢٩٥٣). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٤): «رواه الطبراني من رواية علي بن زيد عن يوسف بن مهران، وقد وُثِّقا، وفيهما ضعفٌ، وبقية رجاله ثقات». وقال في موضع آخر (١٠/ ١٩٦): «إسناده حسن».

وقد تكونُ دونها، وقد تكون فوقَها، وهذا بحسَب نُصْحِ هذه التَّوبة، وصِدْقِ التائبِ فيها، وما يَقترن بها من عملِ القلبِ الذي تَزيدُ مصلحتُه ونفعُه على مَفسَدةِ تلك السَّيِّئة، وهذا مِن أسرارِ مسائلِ التَّوبة ولطائفها، يوضِّحُه:

الوجه [الثامن]: أنَّ ذنبَ العارفِ بالله تعالى وأمْرِه قد يترتَّبُ عليه حسناتٌ أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعًا، وأحبُّ إلى الله مِن عِصمتِه مِن ذلك الذَّنبِ مِن ذُلٍّ وانكسارٍ وخشية، وإنابةٍ ونَدَم، وتَدارُكٍ بمُراغَمةِ العدوِّ بحسنةٍ أو حسناتٍ أعظَمَ منه، حتى يقولَ الشيطانُ: يا ليتني لم أُوقِعْه فيما أوقعتُه فيه، ويندمُ الشيطان على إيقاعه في الذَّنبِ، كندامةِ فاعِلِه على ارتكابِه، لكنْ شتَّانَ ما بين النَّدمَيْنِ! واللهُ يحبُّ مِن عبدِه مُراغَمةَ عدوِّه وغيظَه، كما تقدَّم أنَّ هذا مِن العبوديَّة، فيحصل من العبدِ مُراغمةُ العدوِّ بالتَّوبةِ والتَّدارُك، وحصولُ محبوبِ الله من التَّوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال يُوجِبُ جَعْلَ مكانَ السيئةِ حسنةً، بل حسناتٍ.

وتأمَّلْ قولَه تعالى في الآية: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠]، ولم يَقُل: مكانَ كلِّ واحدةٍ واحدةً، فهذا يجوز أن يُبدِّل السيئةَ الواحدة بعدةِ حسناتٍ بحسَبِ حال المُبدِّل.

فتبارك اللهُ ربُّ العالَمينَ، وأجودُ الأجودينَ، وأكرمُ الأكرمينَ، البَرُّ اللطيف، المُتَودِّد إلى عبادِه بأنواع الإحسان، وإيصالِه إليهم من كلِّ طريقٍ بكلِّ نوعٍ، لا إلٰه إلا هو الرحمٰنُ الرحيم.

* * *

شمولية معنى التوبة

وكثيرٌ مِن الناس إنَّما يفسِّر التوبةَ بالعَزم على ألا يُعاوِدَ الذَّنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالنَّدَم عليه في الماضي، وإنْ كان في حقِّ آدميٍّ فلا بدَّ مِن أمرٍ رابعٍ، وهو التَّحلُّل منه.

وهذا الذي ذكروه بعضُ مُسمَّى التَّوبة، بل شطرُها، وإلا فالتَّوبة في كلامِ الله ورسولِه ـ كما تتضمَّن ذلك ـ تتضمَّنُ العزمَ على فِعْلِ المأمورِ والتزامِه، فلا يكونُ بِمُجرَّدِ الإقلاعِ والعزمِ والندمِ تائبًا حتى

يوجَد منه العزمُ الجازمُ على فِعْلِ المأمور، والإتيانِ به، هذا حقيقة التَّوبة، وهي اسمٌ لمجموع الأمْرَيْنِ، لكنَّها إذا قُرِنتْ بفِعْلِ المأمور كانت عبارةً عمَّا ذكروه، فإذا أُفْرِدَت تضمَّنت الأمْرينِ، وهي كلفظة التَّقوى التي تقتضي عند إفرادِها فِعْلَ ما أمَرَ الله تعالى به، وتَرْكَ ما نهَى الله عنه، وعند اقترانِها بفعل المأمورِ تقتضي الانتهاءَ عن المحظور.

فإنَّ حقيقة التَّوبة الرُّجوعُ إلى الله تعالى بالتزامِ فِعْلِ ما يحبُّ، وتَرْكِ ما يكره، فهي رجوعٌ من مكروهٍ إلى محبوبٍ، فالرجوعُ إلى المحبوبِ جُزْءُ مُسمَّاها، والرجوعُ عن المكروهِ الجزءُ الآخر؛ ولهذا عَلَّقَ سبحانه الفلاحَ المطْلقَ على فِعْلِ المأمور وتَرْكِ المحظورِ بها، فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١]، فكلُّ تائبٍ مُفلِح، ولا يكون مُفلِحًا إلا مَن فَعَلَ ما أُمِرَ به وتَرَكَ ما نُهِيَ عنه، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١]، وتارِكُ المأمورِ ظالمٌ، كما أنَّ فاعل المحظورِ ظالمٌ، وزوال اسم الظُّلم عنه بالتَّوبة الجامعة للأمْرينِ، فالناسُ قسمانِ: تائبٌ وظالمٌ، ليس إلَّا، فالتَّائبونَ هُمُ ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوْبة: ١١٢]، فحِفْظُ حدودِ الله جُزْءُ التَّوبة، والتَّوبةُ هي مجموع هذه الأمور، وإنَّما سُمِّي التَّائبُ تائبًا لرُجوعه إلى أمرِ الله مِن نَهيِه، وإلى طاعته مِن معصيته، كما تقدَّم.

التوبة حقيقة دين الإسلام

فإذا التَّوبة هي حقيقةُ دِينِ الإسلام، والدِّينُ كلُّه داخلٌ في مُسمَّى التَّوبة، وبهذا استحقَّ التائبُ أن يكون حبيبَ الله، فإنَّ الله يحبُّ التَّوَّابين، وإنَّما يحبُّ الله مَن فَعَلَ ما أمَرَ به، وتَرَكَ ما نهى عنه.

فإذًا التَّوبة هي الرُّجوع ممَّا يَكرهُه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يُحِبُّه ظاهرًا وباطنًا، ويدخل في مُسمَّاها الإسلام، والإيمانُ، والإحسانُ، وتتناول جميعَ المقامات؛ ولهذا كانت غايةَ كلِّ مؤمن، وبدايةَ الأمرِ وخاتِمتَه، كما تقدَّم، وهي الغاية التي وُجِد لأجلها الخَلْقُ، والأمرُ والتوحيدُ جزءٌ منها، بل هو جُزْؤُها الأعظم الذي عليه بناؤُها.

وأكثرُ النَّاسِ لا يعرفون قَدْرَ التَّوبةِ ولا حقيقتَها، فضلًا عن القيام بها عِلْمًا وعملًا وحالًا، ولم يجعل الله محبَّتَه للتَّوَّابِينَ إلَّا وهُم خَواصُّ الخلْق لديه.

ولولا أنَّ التَّوبة اسمٌ جامعٌ لشرائِعِ الإسلامِ وحقائقِ الإيمانِ لم يكن الرَّبُّ تعالى يفرح بتَوبةِ عبدِه ذلك الفرحَ العظيم، فجميعُ ما يَتكلَّم فيه النَّاس مِن المَقامات والأحوالِ هو تفاصيل التَّوبة وآثارُها.

* * *

الاستغفار وأنواعه

وأمَّا الاستغفارُ فهو نوعانِ: مُفرَد، ومَقرون بالتَّوبة، **فالمُفرَد**؛ كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ [نوح: ١٠ ـ ١١]، وكقول صالح لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل: ٤٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ [البقرة: ١٩٩]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]، **والمَقرون**؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]، وقول صالح لقومه: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هود: ٦١]، وقول شعيب: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود: ٩٠]؛ فالاستغفار المُفرَدُ كالتَّوبة، بل هو التَّوبة نفسُها، مع تضمُّنه طلَبَ المغفرةِ مِن الله، وهو مَحْوُ الذَّنبِ، وإزالةُ أثَرِه، ووقايةُ شرِّه، فالاستغفارُ: طَلَبُ وقايةِ شرِّ ما مضى، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ وطلَبُ وقايةِ شرِّ ما يَخافُه في المستقبل مِن سيِّئاتِ أعمالِه.

فهاهنا ذَنْبانِ: ذنبٌ قد مضى، فالاستغفارُ منه: طلَبُ وقايةِ شرِّه، وذنبٌ يُخافُ وقوعُه، فالتَّوبة: العزمُ على أن لا يفعلَه، والرجوعُ إلى الله يتناولُ النَّوعينِ: رجوعٌ إليه لِيَقِيَه شرَّ ما مضى، ورجوعٌ إليه ليقيَه شرَّ ما يَستقبِل مِن شرِّ نفسِه وسيِّئاتِ أعمالِه.

وأيضًا فإنَّ المُذنبَ بمنزلة مَن قد ارتكب طريقًا تؤدِّيه إلى هلاكه،

ولا تُوصلُه إلى المقصود، فهو مأمورٌ أن يولِّيَها ظهره، ويرجعَ إلى الطريق التي توصِلُه إلى مقصوده، وفيها فلاحُه.

فهاهنا أمْرانِ لا بدَّ منهما: مفارقةُ شيءٍ، والرجوعُ إلى غيره، فخُصَّتِ التَّوبةُ بالرجوعِ، والاستغفارُ بالمفارقة، وعند إفرادِ أحدِهما يتناولُ الأمْرينِ، ولهذا ـ والله أعلم ـ جاء الأمرُ بهما مُرتَّبًا بقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]؛ فإنَّه الرُّجوع إلى طريق الحقِّ بعد مفارَقة طريق الباطل.

وأيضًا فالاستغفارُ من بابِ طلَبِ إزالة الضَّرر، والتَّوبةُ طلَبُ جَلْبِ المنفعة، فالمغفرة أنْ يَقِيَه شرَّ الذَّنبِ، والتَّوبة أنْ يحصل له بعد الوِقايةِ ما يُحِبُّه؛ فكلٌّ منهما يَستلزِم الآخرَ عند إفرادِه، والله أعلم.

* * *

التوبة النصوح وحقيقتها

وهذا يتبيَّنُ بِذِكْر التَّوبة النَّصُوح وحقيقتِها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨]، فجعلَ وقايةَ شرِّ السيِّئات ـ وهو تكفيرُها ـ بزوال ما يَكْرَهُ العبدُ، ودخولَ الجنَّات ـ وهو حصولُ ما يحبُّ العبدُ ـ مَنُوطًا بحصول التَّوبة النَّصوح، والنَّصُوح على وزن (فَعُولٍ) المَعْدُول عن (فاعِلٍ) قَصْدًا للمبالغة، كالشَّكور والصَّبور، وأصلُ مادة (ن ص ح)؛ لخلاصِ الشَّيءِ من الغشِّ والشوائب الغريبة، وهو مُلاقٍ في الاشتقاق الأكبر لـ(نَصَحَ) إذا خَلَصَ، فالنُّصحُ في التَّوبة والعبادة والمَشُورة: تخليصُها من كلِّ غِشٍّ ونقصٍ وفسادٍ، وإيقاعُها على أكملِ الوجوه، والنُّصحُ ضدُّ الغِشِّ.

وقد اختلفت عباراتُ السَّلف عنها، ومرجِعُها إلى شيء واحد، فقال عمر بن الخطاب وأُبَيُّ بن كعبٍ رضي الله عنهما: «التَّوبةُ النَّصوحُ: أنْ يتوبَ من الذَّنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبنُ إلى الضَّرْع».

وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبدُ نادمًا على ما مضى، مُجْمِعًا على أن لا يعود فيه».

وقال الكَلْبي: «أن يستغفر باللسان، ويندمَ بالقلب، ويُمسِك بالبدن».

وقال محمد بن كعبٍ القُرَظيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجمعها أربعةُ أشياءَ: الاستغفارُ باللِّسان، والإقلاعُ بالأبدان، وإضمارُ تَرْكِ العَوْدِ بالجَنان، ومهاجَرةُ سَيِّئِ الإخوان».

موجبات النصح في التوبة

قلت: النصحُ في التَّوبة يتضمَّن ثلاثةَ أشياءَ:

[الأول]: تعميمُ جميعِ الذُّنوب واستغراقُها بها بحيثُ لا تَدَعُ ذنبًا إلا تناولَتْه.

والثاني: إجماعُ العَزْم والصِّدق بكُلِّيَّته عليها، بحيث لا يبقى عنده تَردُّد، ولا تلوُّمٌ ولا انتظار، بل يجمع عليها كلَّ إرادتِه وعزيمتِه مبادِرًا بها.

الثالث: تخليصُها من الشَّوائب والعِلَل القادِحة في إخلاصِها، ووقوعُها لِمَحْضِ الخوفِ مِن الله تعالى وخشيتِه، والرغبةِ فيما لديه، والرهبةِ ممَّا عنده، لا كَمَنْ يتوبُ لحِفْظِ جاهِه وحُرمتِه، ومنصبه ورياستِه، أو لحِفْظِ حالِه، أو حفظِ قوَّتِه ومالِه، أو استدعاءِ حَمْدِ الناسِ، أو الهربِ مِن ذَمِّهم، أو لئلَّا يتسلَّط عليه السُّفَهاءُ، أو لقضاء نَهْمَتِه من الذَّنب، أو لإفلاسه وعجْزِه، ونحو ذلك من العِلَل التي تَقدَحُ في صحَّتها وخُلُوصِها لله.

فالأول يتعلَّق بما يتوبُ منه، والثالث يتعلَّق بمَن يتوبُ إليه، والأوسطُ يتعلَّق بذات التَّائب ونفْسِه، فنُصْحُ التَّوبةِ الصِّدقُ فيها، والإخلاصُ، وتعميمُ الذُّنوب بها، ولا ريبَ أنَّ هذه التَّوبةَ تَستلزِم الاستغفارَ وتتضمَّنُه، وتمحو جميعَ الذُّنوب، وهي أكملُ ما يكون مِن التَّوبة، والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوَّةَ إلَّا بالله.

فلأهلِ الذُّنوبِ ثلاثةُ أنهارٍ عِظامٌ يتطهَّرونَ بها في الدُّنيا، فإنْ لم تَفِ بطُهْرِهم طُهِّروا في نهرِ الجحيمِ يومَ القيامة: نهر التَّوبة النَّصوح،

ونهر الحسناتِ المُستغرِقة للأوزارِ المحيطةِ بها، ونهر المصائب العظيمةِ المُكَفِّرة، فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحدَ هذه الأنهارِ الثلاثة، فوَرَدَ القيامةَ طيِّبًا طاهرًا، فلم يحتجْ إلى النهر الرَّابع.

توبة العبد بين توبتين من ربه

وتَوبةُ العبدِ إلى الله تعالى محفوفةٌ بتوبةٍ مِن الله عليه قَبْلَها، وتَوبةٍ منه بعدَها، فتَوبتُه بين تَوبتَيْنِ من الله؛ سابقةٍ ولاحقةٍ، فإنَّه تابَ عليه أوَّلًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتابَ العبدُ، فتابَ الله عليه ثانيًا قَبولًا وإثابةً، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨]، فأخبرَ سبحانه أنَّ تَوبته عليهم سَبَقتْ توبتَهم، وأنَّها هي التي جعلتْهم تائِبينَ، فكانت سببًا مُقتَضيًا لتَوبتِهم؛ فدلَّ على أنَّهم ما تابوا حتى تاب عليهم، والحُكْمُ ينتفي لانتفاء عِلَّتِه.

والعبد تَوَّابٌ، والله تَوَّابٌ، فتَوبةُ العبد رجوعُه إلى سيِّده بعد الإباقِ، وتَوبةُ الرَّبِّ نوعانِ: إذنٌ وتوفيقٌ، وقَبولٌ واعتدادٌ.

مبدأ التوبة ومنتهاها

والتَّوبة لها مبدأٌ ومُنتهى، فمبدؤُها الرجوعُ إلى الله بسلوكِ صراطِه المستقيم الَّذي نَصَبَه لعبادِه، مُوصِلًا إلى رِضوانه، وأمَرَهم بسلوكه بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وبقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]، وبقوله: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٤].

ونهايتُها الرجوعُ إليه في المَعاد، وسلوكُ صراطِه الذي نَصَبَه مُوصِلًا إلى جَنَّته، فمَن رجع إلى الله في هذه الدَّارِ بالتَّوبة رجع إليه في المَعاد بالثَّوابِ، وهذا هو أحد التَّأويلاتِ في قوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٧١]، قال البَغَويُّ وغيرُه:

﴿يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ يعود إليه بعد الموت، مَتابًا حَسَنًا يَفْضُلُ على غيره؛ فالتَّوبة الأُولى وهي قوله: ﴿وَمَن تَابَ﴾ رجوعٌ عن الشِّرْك، والثانية: رجوعٌ إلى الله للجزاء والمُكافأة.

والتأويل الثاني: أنَّ الجزاء مُتضمِّنٌ معنى الأمرِ، والمعنى: ومَن عَزَمَ على التَّوبةِ وأرادَها فليجعلْ تَوبتَه إلى الله، ولِوَجْهِه خالِصًا، لا لغيره.

التأويل الثالث: أنَّ المراد لازِمُ هذا المعنى، وهو إشعارُه وإعلامُه بِمَنْ تاب إليه، ورَجَعَ إليه، والمعنى: فليعلمْ تَوبتَه إلى مَن؟ ورجوعَه إلى مَن؟ فإنَّها إلى الله لا إلى غيرِه.

ونظيرُ هذا ـ على أحد التَّأويلَيْنِ ـ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ أي: اعْلَمْ ما يَترتَّبْ على مَن عصى أمْرَه ولم يُبلِّغْ رسالتَه.

والتأويل الرابع: أنَّ التَّوبة تكونُ أوَّلًا بالقصد والعزم على فِعْلِها، ثم إذا قَوِيَ العزمُ وصار جازمًا، وُجِدَ به فِعْلُ التَّوبةِ، فالتَّوبةُ الأُولى بالعزمِ والقصدِ لفِعْلِها، والثانيةُ بنفسِ إيقاعِ التَّوبة وإيجادِها، والمعنى: مَن تاب إلى الله قَصْدًا ونيَّةً وعزمًا فتوبتُه إلى الله عملًا وفعلًا، وهذا نظيرُ قولِه ﷺ: «**فمَنْ كانتْ هِجْرتُه إلى اللهِ ورَسولِه، فهِجْرتُه إلى اللهِ ورَسولِه، ومَنْ كانتْ هِجْرتُه لِدُنْيا يُصِيبُها، أوِ امْرأةٍ يَتزوَّجُها فهِجْرتُه إلى ما هاجَرَ إلَيهِ**»[1].

* * *

الـذنـوب: صغائر وكبائر

والذُّنوب تنقسم إلى صغائِرَ وكبائِرَ بنصِّ القرآنِ والسُّنَّة، وإجماع السَّلَف والاعتبارِ، قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وفي «الصَّحيح» عن النبي ﷺ أنه

(١) أخرجه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

قال: «**الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رَمَضانَ، مُكَفِّراتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائِرُ**»[١].

وأمَّا ما يُحكَى عن أبِي إسحاقَ الإسْفَرايِينيِّ رَحِمَهُ اللهُ أنَّه قال: «الذُّنوب كلُّها كبائرُ، وليس فيها صغائرُ»، فليس مرادُه أنَّها مستويةٌ في الإثم، وإنَّما المرادُ أنَّها بالنسبة إلى عَظَمةِ مَن عُصِيَ بها كلُّها كبائرُ، وعلى هذا فبعضُها أكبرُ مِن بعض.

وأمَّا حديث: «**لَوْ لَقِيتَني بقُرابِ الأرضِ خَطايا، ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شَيئًا، أتَيْتُكَ بقُرابِها مَغفِرةً**»[٢]، فلا يدلُّ هذا على أنَّ ما عَدَا الشِّركَ كلُّه صغائرُ، بل يدلُّ على أنَّ مَن لم يُشْرِك بالله شيئًا فذنوبُه مغفورةٌ كائنةً ما كانت، ولكن ينبغي أنْ يعلم ارتباط أعمال القلوبِ بأعمال الجوارح، وتعلُّقها بها، وإلَّا لم يفهم مراد الرسول ﷺ، ويقع الخبْط والتَّخْبيط.

فاعلمْ أن هذا النَّفي العامَّ للشِّرْك ـ أنْ لا يُشْرِك بالله شيئًا البتَّةَ ـ لا يصدُر مِن مُصِرٍّ على معصية أبدًا، ولا يمكن مُدمِنُ الكبيرة والمُصِرُّ على الصغيرة أنْ يصفو له التَّوحيدُ، حتى لا يُشرِكَ بالله شيئًا، هذا مِن أعظم المُحال، ولا يلتفتُ إلى جَدَليٍّ لا حَظَّ له في أعمال القلوب، بل قَلْبُه كالحجرِ أو أقسى، يقول: وما المانع؟ وما وجْهُ الإحالة؟ ولو فُرِضَ ذلك واقعًا لم يلزم منه مُحَالٌ لذاتِه!

فَدَعْ هذا القلبَ المَفتونَ بِجَدَلِه وجهلِه، واعلمْ أنَّ الإصرارَ على المعصيةِ يوجِبُ مِن خوفِ القلب مِن غير الله ـ ورجائه لغيرِ الله، وحُبِّه لغير الله، وذُلِّه لغير الله، وتَوَكُّلِه على غير الله ـ ما يصير به مُنغمِسًا في بِحارِ الشِّرْك، والحاكم في هذا ما يعلمُه الإنسان مِن نفسِه، إنْ كان له عقلٌ، فإنَّ ذُلَّ المعصية لا بدَّ أنْ يقومَ بالقلب فيُورِثَه خوفًا من غير الله، وذلك شِرْكٌ، ويُورِثَه محبَّةً لغير الله، واستعانةً بغيره في الأسباب التي

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

تُوصِلُه إلى غَرَضِه، فيكون عملُه لا بالله ولا له، وهذا حقيقةُ الشِّرْك.

والمقصود: أنَّ مَن لم يُشرِكْ بالله شيئًا يستحيلُ أن يلقى الله بِقُرابِ الأرضِ خطايَا مُصِرًّا عليها غيرَ تائبٍ منها، مع كمالِ توحيدِه الذي هو غايةُ الحُبِّ والخضوعِ، والخوفِ والرجاء للرَّبِّ تعالى.

وأمَّا حديثُ الدَّواوين [الذي رُوِيَ مرفوعًا وموقوفًا: «**الظُّلْمُ ثَلاثُ دَواوِينَ: دِيوانٌ لا يَغفِرُ اللهُ مِنهُ شَيْئًا، وهو الشِّرْكُ، ودِيوانٌ لا يَترُكُ اللهُ مِنهُ شَيْئًا، وهو ظُلْمُ العِبادِ بَعضِهِم بَعضًا، ودِيوانٌ لا يَعْبَأُ بِهِ اللهُ شَيْئًا، وهو ظُلْمُ العَبدِ نفْسَه بَيْنهُ وبَيْنَ رَبِّه**»[1]]، فإنَّما فيه أنَّ حقَّ الرَّبِّ تعالى لا يَؤُودُه أنْ يَهَبَه ويُسْقِطَه، ولا يحتفلُ به ويعتَني به كحقوق عبادِه، وليس معناه: أنَّه لا يؤاخِذُ به البتَّةَ، أو أنَّه كلَّه صغائرُ، وإنَّما معناه أنَّه يقع فيه من المسامَحةِ والمساهَلةِ والإسقاطِ والهِبَةِ ما لا يقعُ مثلُه في حقوق الآدَمِيِّينَ.

تحول الكبيرة إلى صغيرة والعكس

وهاهنا أمرٌ ينبغي التَّفطُّنُ له، وهو أنَّ الكبيرة قد يَقتَرِنُ بها - مِن الحياءِ والخوفِ، والاستعظامِ لها - ما يُلحِقُها بالصغائرِ، وقد يقترنُ بالصَّغيرة - مِن قِلَّةِ الحياء، وعدمِ المُبالاة، وتَرْكِ الخوف، والاستهانةِ بها - ما يُلْحِقُها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رُتَبِها.

وهذا أمرٌ مَرْجِعُه إلى ما يقومُ بالقلبِ، وهو قدرٌ زائدٌ على مجرَّد الفعلِ، والإنسانُ يعرف ذلك مِن نفسِه وغيرِه.

وأيضًا فإنَّه يُعْفَى للمُحِبِّ، ولصاحبِ الإحسانِ العظيم، ما لا يُعفَى لغيرِه، ويسامَحُ بما لا يسامَحُ به غيرُه.

وسمِعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ - قدَّس اللهُ رُوحَه - يقول: انظرْ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٠٣١)، والحاكم في المستدرك (٨٧١٧)، وقال: «هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد ولم يُخرجاه»، وتعقَّبه الذهبي بقوله: صَدَقة ضعَّفوه، وابن بابنوس فيه جهالة. وقال مُحققِّو المُسند: «إسناده ضعيف؛ لضعف صدقة بن موسى، وقد انفرَد به».

إلى موسى ـ صلوات الله وسلامُه عليه ـ رَمَى الألواحَ التي فيها كلامُ اللهِ الذي كَتَبَه بيدِه فكسَرَها، وجَرَّ بلِحْيَةِ نبيٍّ مثلِه ورأسِه، وهو هارونُ، ولَطَمَ عينَ ملَكِ الموتِ ففَقَأها، وعاتَبَ ربَّه ليلةَ الإسراءِ في محمدٍ ﷺ ورَفْعِه عليه، ورَبُّه تعالى يحتملُ له ذلك كلَّه، ويُحِبُّه ويكْرِمُه؛ لأنَّه قام لله تلك المَقاماتِ العظيمةَ في مقابلة أعْدى عدُوٍّ له، وصَدَعَ بأمْرِه، وعالَجَ أُمَّةَ القِبطِ وأُمَّةَ بني إسرائيل أشَدَّ المعالجة، فكانت هذه الأمورُ كالشَّعرة في البحر.

وانظرْ إلى يونسَ بنِ مَتَّى عليه السلام حيثُ لم يكن له هذه المَقاماتُ التي لموسى ﷺ، غاضَبَ ربَّه مرَّةً، فأخَذَه وسَجَنَه في بطنِ الحوت، ولم يحتملْ له ما احتمَلَ لموسى، وفَرْقٌ بين مَن إذا أتى بذَنْبٍ ولم يكن له مِن الإحسان والمحاسِن ما يشفعُ له، وبيْن مَن إذا أتى بذَنْبٍ جاءت محاسِنُه بكل شفيعٍ، كما قيل:

وإذا الحَبِيبُ أتَى بذَنْبٍ واحِدٍ ... جَاءَتْ مَحاسِنُهُ بألْفِ شَفيعِ

فالأعمالُ تشفعُ لصاحِبِها عندَ اللهِ، وتُذَكِّرُ به إذا وقع في الشَّدائد، قال تعالى عن ذِي النُّون: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]، وفرعون لَمَّا لم تكنْ له سابقةُ خيرٍ تَشفَعُ له، وقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]؛ قال له جِبريلُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١].

وفي المسنَد عنه ﷺ: «**إنَّ ما تَذْكُرونَ مِن جَلالِ اللهِ ـ مِنَ التَّسبيحِ، والتَّكبيرِ، والتَّحميدِ ـ يَتَعاطَفْنَ حَوْلَ العَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كدَوِيِّ النَّحْلِ، يُذَكِّرْنَ بصاحِبِهِنَّ، أفلا يُحِبُّ أحَدُكُم أنْ يَكونَ لهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟**»[1]،

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٦٢)، وابن ماجه (٣٨٠٩)، والحاكم (١٨٤١)، وقال: «صحيح الإسناد». وتعقَّبه الذهبي بقوله: «فيه موسى بن سالم قال أبو حاتم: منكر الحديث» من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٥٨).

ولهذا مَن رَجَحَتْ حسناتُه على سيئاتِه أفلَحَ ولم يُعذَّبْ، ووُهِبَتْ له سيئاتُه لأجْلِ حسناتِه، ولأجْلِ هذا يُغفَر لصاحبِ التوحيدِ ما لا يُغفَر لصاحبِ الإشراكِ؛ لأنَّه قد قام به ممَّا يُحبُّه الله ما اقتضى أنْ يَغفِرَ له، ويسامحَه ما لا يُسامِح به المُشرِك، وكلَّما كان توحيدُ العبدِ أعظمَ كانت مغفرةُ اللهِ له أتَمَّ، فمَن لَقِيَه لا يُشرِك به شيئًا البتَّةَ غَفَر له ذنوبَه كلَّها، كائنةً ما كانت، ولم يُعذَّب بها.

ولسْنا نقولُ: إنَّه لا يَدخلُ النَّارَ أحدٌ مِن أهل التَّوحيد، بل كثيرٌ منهم يدخُل بذُنوبه، ويُعذَّب على مِقدار جُرْمِه، ثم يخرُج منها، ولا تَنافي بين الأمْرَينِ لمَن أحاطَ عِلْمًا بما قدَّمناه.

* * *

فضل (لا إلٰه إلا الله) وما يقع في القلب منها

ونَزيد هاهنا إيضاحًا؛ لعِظَمِ هذا المَقام وشدَّةِ الحاجة إليه:

اعلمْ أنَّ أشعَّةَ (لا إلٰه إلا الله) تُبدِّدُ مِن ضَبَابِ الذُّنوب وغيومِها بقَدْرِ قوَّةِ ذلك الشُّعاعِ وضعْفِه، فلها نورٌ، وتفاوُتُ أهلِها في ذلك النُّورِ قوةً وضعفًا لا يُحصيه إلا اللهُ تعالى؛ فمِن الناسِ: مَن نُورُ هذه الكلمةِ في قلبِه كالشمس.

ومنهم: مَن نورُها في قلبِه كالكوكبِ الدُّرِّيِّ.

ومنهم: مَن نورُها في قلبه كالمِشْعَل العظيم.

وآخَر: كالسِّراج المُضِيء، وآخر كالسِّراج الضَّعيف.

ولهذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامةِ بأيْمانِهم وبيْن أيديهم على هذا المِقْدار، بحسَبِ ما هو في قلوبِهم مِن نورِ هذه الكلمةِ، عِلْمًا وعملًا، ومعرفةً وحالًا.

وكلَّما عظُمَ نورُ هذه الكلمةِ واشتدَّ أحْرَقَ مِن الشُّبُهاتِ والشهوات بحسبِ قوَّتِه وشِدَّتِه، حتى إنَّه ربَّما وصلَ إلى حالٍ لا يصادِفُ معها شُبهة ولا شهوةً ولا ذنْبًا إلا أحْرَقه، وهذا حالُ الصادق في توحيده، الذي لم يُشْرِك بالله شيئًا، فأيُّ ذنبٍ أو شهوةٍ أو شُبهة دَنَتْ من هذا النُّور أحْرَقها، فسماءُ إيمانِه قد حُرِسَت بالنُّجوم مِن كلِّ سارقٍ لحسناته، فلا

ينالُ منها السَّارقُ إلا على غِرَّةٍ وغفلةٍ لا بدَّ منها للبشر، فإذا استيقظَ وعَلِمَ ما سُرِقَ منه استنقذَه مِن سارِقِه، أو حصَّلَ أضعافَه بكَسْبِه، فهو هكذا أبدًا مع لصوصِ الجِنِّ والإنسِ، ليس كمَن فَتَحَ لهم خِزانتَه، ووَلَّى البابَ ظهرَه.

مفهوم التوحيد المنجي

وليس التوحيدُ مجرَّدَ إقرارِ العبدِ بأنَّه لا خالقَ إلا الله، وأنَّ الله ربُّ كلِّ شيء ومَليكُه، كما كان عُبَّادُ الأصنامِ مُقِرِّينَ بذلك وهُم مُشرِكون، بل التوحيدُ يتضمَّنُ ـ مِن محبَّة الله، والخضوعِ له، والذُّلِّ له، وكمالِ الانقيادِ لطاعتِه، وإخلاصِ العبادةِ له، وإرادةِ وجهِه الأعلى بجميعِ الأقوالِ والأعمال، والمنعِ، والعطاء، والحبِّ، والبُغضِ ـ ما يَحُول بين صاحبِه وبين الأسبابِ الدَّاعية إلى المعاصي، والإصرارِ عليها، ومَن عرَف هذا عرَف قولَ النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله حَرَّمَ على النَّارِ مَن قال: لا إلٰهَ إلَّا اللهُ، يَبتَغي بذلك وَجْهَ اللهِ**»[(١)]، وقولَه: «**لا يَدخُلُ النَّارَ مَن قال: لا إلٰهَ إلَّا اللهُ**»[(٢)].

أهمية تواطؤ القلب مع اللسان

والشارعِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرَّد قولِ اللِّسانِ فقط، فإنَّ هذا خلافُ المعلوم بالاضطرار مِن دِينِ الإسلام، فإنَّ المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحِدِينَ لها في الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّار، فلا بدَّ مِن قولِ القلب، وقولِ اللِّسانِ، وقولُ القلبِ يتضمَّنُ مِن معرفتها، والتصديقِ بها، ومعرفةِ حقيقةِ ما تَضمَّنَتْه ـ مِن النفي والإثبات، ومعرفةِ حقيقةِ الإلٰهيَّة المَنْفِيَّة عن غير الله، المختصَّة به، التي يستحيل ثُبوتُها لغَيْرِه، وقيامِ هذا المعنى بالقلب عِلمًا ومعرفةً، ويقينًا وحالًا ـ ما يوجِبُ تحريمَ قائلها على النار، وكُلُّ قولٍ رَتَّبَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (١/ ٤٥٥) (٣٣/ ٢٦٣) من حديث عِتْبان بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرج البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ما مِن أحدٍ يَشهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، صِدْقًا مِن قلْبِه؛ إلَّا حَرَّمه اللهُ على النَّارِ» لفظ البخاري.

الشارعُ ما رَتَّب عليه من الثَّواب، فإنَّما هو القول التامُّ، كقولِه ﷺ: «**مَن قال في يَوم: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، مائةَ مرَّةٍ، حُطَّتْ عنهُ خَطاياهُ ـ أوْ غُفِرَتْ لهُ ذُنُوبُه ـ ولَوْ كانتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحرِ**»[1]، وليس هذا مُرَتَّبًا على مجرَّد القولِ اللِّساني.

نَعَمْ، مَن قالها بلسانه، غافلًا عن معناها، مُعْرِضًا عن تدبُّرها، ولم يواطِئْ قلبُه لسانَه، ولا عرَف قَدْرَها وحقيقتَها، راجيًا مع ذلك ثوابَها، حَطَّت مِن خطاياه بحسَب ما في قلبه، فإنَّ الأعمالَ لا تتفاضَلُ بصوَرها وعددِها، وإنَّما تتفاضَلُ بتفاضُلِ ما في القلوبِ، فتكونُ صورةُ العملَيْنِ واحدةً، وبينهما في التفاضُل كما بين السماء والأرضِ، والرَّجُلان يكون مقامُهما في الصفِّ واحدًا، وبين صلاتَيْهِما كما بين السماء والأرض.

تفاضل الأعمال

وتأمَّلْ حديثَ البطاقةِ التي توضَع في كِفَّةٍ، ويقابلها تسعةٌ وتسعونَ سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ منها مَدَّ البصرِ، فتثقُلُ البطاقةُ وتَطِيشُ السِّجِلَّات، فلا يُعذَّب.

ومعلومٌ أن كل موَحِّد له مثلُ هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذُنوبه، ولكنَّ السِّرَّ الذي ثَقَّلَ بطاقةَ ذلك الرجلِ، وطاشَتْ لأجْلِه السِّجِلَّاتُ، لَمَّا لمْ يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردتْ بطاقتُه بالثِّقَل والرَّزانة.

وإذا أردتَ زيادةَ الإيضاحِ لهذا المعنى فانظرْ إلى ذِكْرِ مَن قلْبُه ملآن بمحبَّتِك، وذِكرِ مَن هو مُعْرِضٌ عنك، غافلٌ سَاهٍ، مشغولٌ بغيرك، قد انجذبتْ دَواعي قلبِه إلى محبَّةِ غيرك، وإيثارِه عليك، هل يكون ذِكْرُهُما لك واحدًا؟ أم هل يكون ولداكَ اللَّذانِ هُما بهذه المثابة، أو عَبْداك، أو زَوْجَتاك، عندك سواء؟

وتأمَّلْ ما قام بقلبِ قاتلِ المائةِ من حقائقِ الإيمانِ الَّتي لم تشغلْه عند السِّياق عن السَّير إلى القرية، وحَمَلتْه ـ وهو في تلك الحال ـ على

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنْ جعل يَنُوءُ بصدره، وهو يعالِج سَكَراتِ الموت، فهذا أمرٌ آخر، وإيمانٌ آخر، ولا جَرَم أن أُلْحِقَ بالقرية الصالِحة، وجُعِلَ مِن أهلِها.

وقريبٌ من هذا ما قام بقلبِ البَغِيِّ التي رأت ذلك الكلبَ ـ وقد اشتدَّ به العطشُ يأكُلُ الثَّرى ـ فقام بقلبها ذلك الوقتَ ـ مع عدم الآلة، وعدم المُعِينِ، وعدم مَن تُرائِيه بعملها ـ ما حملَها على أنْ غَرَّرَتْ بنفسها في نزول البئرِ، ومَلءِ الماء في خُفِّها، ولم تعبأ بتعَرُّضِها للتَّلَف، وحَملِها له بِفِيها وهو ملآن، حتى أمكنها الرُّقِيُّ في البئر، ثم تواضُعِها لهذا المخلوق الذي جَرَتْ عادةُ الناس بضَرْبِه وطَرْدِه، فأمسكتْ له الخُفَّ بيدها حتى شَرِبَ، مِن غير أنْ ترجو منه جزاءً ولا شُكُورًا، فأحرقتْ أنوارُ هذا القَدْرِ من التوحيد ما تقدَّم منها من البِغاء، فغفر لها.

فهكذا حالُ الأعمال والعُمَّالِ عند الله، والعاملُ في غفلةٍ من هذا الإكْسِير الكيماويِّ، الذي إذا وُضِعَ منه مثقال ذَرَّةٍ على قناطيرَ من نُحاسِ الأعمال قَلَبَها ذَهَبًا، والله المُستعان.

هل يتجاوز للمحبوب أو يشدد عليه؟

فإنْ قيل: قد ذكرْتُم أن المُحِبَّ يُسامَحُ بما لا يُسامَحُ به غيرُه، ويُعفَى للوليِّ عمَّا لا يُعفَى لسِواهُ، وكذلك العالِم أيضًا، يُغفَر له ما لا يُغفَر للجاهل، كما روى الطَّبَراني بإسنادٍ جيِّد ـ مرفوعًا إلى النبيِّ ﷺ ـ: **«إنَّ اللهَ سُبحانَه إذا جَمَعَ النَّاسَ يَومَ القيامةِ في صَعيدٍ واحدٍ، قال لِلعلماءِ: إنِّي كُنْتُ أُعبَدُ بفَتْواكُم، وقد عَلِمْتُ أنَّكُم كنتُم تُخَلِّطُونَ كما يُخَلِّطُ النَّاسُ، وإنِّي لَمْ أضَعْ عِلْمي فيكُم وأنا أُريدُ أنْ أُعَذِّبَكُم، اذْهَبُوا فقد غَفَرْتُ لكُم»**[(١)]، هذا معنى الحديث، وقد رُوِيَ مُسنَدًا ومُرسَلًا.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٩١)، وفي «الأوسط» (٤٢٦٤) من حديث أبي موسى الأشعري، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٦، ١٢٧): «فيه موسى بن عقبة وهو ضعيف جدًّا موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف جدًّا». وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٣٨١) من حديث ثعلبة بن الحكم، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٦): «رجاله موثَّقون»، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٨٦٧).

فهذا الذي ذكرتُم صحيحٌ، وهو مُقْتضَى الحكمةِ والجُود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المُضاعَفةِ الَّتي ورد التَّهديدُ بها في حَقِّ أولئك إنْ وقع منهم ما يَكرَه؟ كقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾ [الإسراء: ٧٤ ـ ٧٥]؛ أي: لولا تَثبيتُنا لك لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم بعضَ الشيء، ولو فعلْتَ لأذَقْناكَ ضِعْفَ عذابِ الحياة وضِعْفَ عذابِ المَمات؛ أي: ضَاعَفْنا لك العذابَ في الدُّنيا والآخرة. وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]؛ أي: لو أتى بشيء مِن عند نفْسه لأخذنا منه بيمينه، وقَطَعْنا نِيَاطَ قلبه وأهْلَكْناه، وقد أعاذَه الله من الرُّكُونِ إلى أعدائه بذَرَّةٍ مِن قلبه، ومن التَّقَوُّلِ عليه سبحانه. وكَم مِن راكِنٍ إلى أعدائه، ومُتقَوِّلٍ عليه مِن قِبَل نفْسِه، قد أمهَلَه ولم يعبأ به، كأرباب البِدَعِ كلِّهم، المُتقَوِّلِينَ على أسمائه وصِفاتِه ودِينه.

وما ذَكرتُم في قصَّة يونُسَ عليه السلام هو مِن هذا البابِ؛ فإنَّه لم يُسامَحْ بِغَضْبةٍ، وسُجِنَ لأجْلِها في بطن الحوت، ويكفي حالُ أبي البَشَرِ حيث لم يُسامَحْ بِلُقْمةٍ، وكانت سببَ إخراجِه من الجنَّة.

فالجوابُ: أنَّ هذا أيضًا حَقٌّ، ولا تَنافِيَ بين الأمْرينِ، فإنَّ مَن كملتْ عليه نعمةُ الله، واختصَّه منها بما لم يَختصَّ به غيرَه، وأعطاه منها ما حرَمه غيرَه، فحُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ بالإكرام، وخُصَّ بمزيدِ التَّقريبِ، وجُعِل في منزلة الوليِّ الحبيب، اقتضت حالُه مِن حِفْظِ مرتبةِ الولاية والقُرْب والاختصاصِ بأن يراعِي مرتبتَه مِن أدنى مُشَوِّش وقاطِعٍ، فلشِدَّةِ الاعتناءِ به، ومَزيد تقريبِه، واتِّخاذِه لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وَلِيِّه وسيِّدِه عليه أتَمَّ، ونِعَمُه عليه أكْملَ، والمطلوبُ منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غَفَلَ وأخَلَّ بمقتضى مرتبته نُبِّهَ بما لم يُنَبَّه

عليه البعيدُ البَرَّانيُّ، مع كَوْنِه يُسامَحُ بما لم يُسامَحْ به ذلك أيضًا، فيجتمِعُ في حَقِّه الأمْرانِ.

وإذا أردتَ معرفةَ اجتماعِهما، وعدمِ تناقُضِهما، فالواقعُ شاهِدٌ به، فإنَّ الملِك يسامِحُ خاصَّتَه وأولياءَه بما لم يُسامِحْ به مَن ليس في منزلتهم، ويؤاخِذُهم ويؤدِّبُهم بما لم يأخُذْ به غيرَهم.

فسُبحانَ مَن بَهَرَتْ حِكمتُه في خَلْقِه وأمرِه وجزائِه عقولَ العالِمينَ، وشَهِدَتْ بأنَّه أحكمُ الحاكِمينَ.

لِلَّهِ سِرٌّ تَحْتَ كُلِّ لَطيفةٍ فأخُو البَصائِرِ غائِصٌ يَتعقَّلُ

* * *

أجناس ما يُتابُ منها ولا يستحقُّ العبدُ اسمَ التائب حتى يتخلَّص منها

وهي اثنا عَشَرَ جِنسًا مذكورة في كتاب الله تعالى، هي أجناسُ المُحَرَّمات: الكفر، والشِّرْك، والنِّفاق، والفُسُوق، والعصيان، والإثم، والعُدْوان، والفَحْشاء، والمُنْكَر، والبَغْي، والقَول على الله بلا عِلْم، واتِّباع سبيلٍ غيرِ سبيلِه.

فهذه الاثنا عشر جِنْسًا عليها مَدارُ كلِّ ما حَرَّمَ الله، وإليها انتهاءُ العالَمِ بأسْرِهِم، إلا أتباع الرُّسُل، صلواتُ الله وسلامُه عليهم. وقد يكون في الرجل أكثرُها وأقَلُّها، أو واحدة منها، وقد يعلم بذلك، وقد لا يعلم.

فالتَّوبة النَّصُوح هي بالتخلُّص منها، والتَّحصُّن والتَّحرُّز مِن مُواقَعتِها، وإنَّما يمكن التخلُّص منها لمَن عرَفها.

وهذا الفصل مِن أنفعِ فصول الكتاب، والعبدُ أحوَجُ شيءٍ إليه.

الأول: الكفر

فأما الكفر فنوعان: كُفْرٌ أكبرُ، وكفرٌ أصغرُ؛ فالكفرُ الأكبر هو المُوجِبُ للخلودِ في النَّار، والأصغر موجِبٌ لاستحقاق الوعيدِ دون الخلود.

الـثـانـي: الشرك

وأما الشرك فهو نوعان: أكبرُ وأصغرُ؛ فالأكبرُ لا يَغفِرُه الله إلا بالتَّوبة منه، وهو أن يَتَّخِذَ من دون الله نِدًّا.

قال الله تعالى حاكيًا عن أسلافِ هؤلاء المشركِينَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ [الزمر: ٣].

فهذه حال مَنِ اتَّخذ مِن دونِ الله وليًّا، يزعم أنه يُقرِّبُه إلى الله، وقد قطع الله سبحانه كلَّ الأسبابِ التي تَعلَّق بها المشرِكون جميعًا، قَطْعًا يعلم مَن تأمَّلَه وعرَفه أنَّ مَن اتَّخذ مِن دون الله وليًّا أو شفيعًا فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

فالمُشرِك إنَّما يتَّخِذ معبودَه لِما يعتقد أنَّه يحصُلُ له به مِن النَّفع، والنَّفع لا يكون إلا مِمَّن فيه خَصلةٌ مِن هذه الأربعِ؛ إمَّا مالكٌ لما يريد عابِدُه منه، فإنْ لم يكن مالِكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان مُعينًا له وظَهيرًا، فإن لم يكن مُعِينًا ولا ظَهِيرًا كان شَفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتبَ الأربع نفيًا مُترتِّبًا، مُتَنقِّلًا من الأعلى إلى ما دونَه، فنفى المِلْك، والشِّركةَ، والمظاهَرة، والشفاعةَ التي يطلُبها المُشرِك، وأثبَت شفاعةً لا نَصيبَ فيها لمشرِك، وهي الشفاعة بإذْنِه.

فكفى بهذه الآيةِ نورًا، وبُرهانًا، ونجاةً، وتجريدًا للتوحيد، وقطْعًا لأصول الشِّرك ومَوادِّه لِمَن عَقَلَها، والقرآنُ مملوءٌ من أمثالها ونظائرِها، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَشْعرون بدخولِ الواقع تحتَه، وتَضَمُّنِه له، ويَظنُّونَه في نوع وفي قوم قد خَلَوْا من قبلُ ولم يُعْقِبُوا وارِثًا، وهذا هو الذي يَحُولُ بين القلبِ وبين فَهْمِ القرآنِ.

ولَعَمْرُ اللهِ إنْ كان أولئك قد خَلَوْا، فقد وَرِثَهم مَن هو مثلُهم،

وشرٌّ منهم، ودونهم، وتناوُلُ القرآنِ لهم كتناوُلِه لأولئك، ولكنَّ الأمرَ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنَّما تُنقَضُ عُرَى الإسلامِ عُرْوةً عُرْوةً إذا نَشَأ في الإسلام مَن لا يَعرِفُ الجاهليَّةَ»[(١)].

وهذا لأنَّه إذا لم يعرِف الجاهليَّةَ والشِّركَ، وما عابَه القرآنُ وذَمَّه وَقَعَ فيه وأقَرَّه، ودعا إليه وصَوَّبَه وحَسَّنَه، وهو لا يعرفُ أنَّه هو الذي كان عليه أهلُ الجاهليَّة، أو نظيرُه، أو شرٌّ منه، أو دونه، فينقضُ بذلك عُرَى الإسلامِ، ويعودُ المعروفُ منكرًا، والمنكرُ معروفًا، والبدعةُ سُنَّة، والسُّنَّةُ بدعةً، ويُكفَّرُ الرجلُ بِمَحْضِ الإيمانِ وتجريدِ التَّوحيدِ، ويُبَدَّع بتجريدِ متابعةِ الرسولِ ﷺ ومفارقةِ الأهواء والبِدَعِ، ومَن له بصيرةٌ وقلبٌ حَيٌّ يرى ذلك عِيانًا، فالله المستعان.

وأما الشِّركُ الأصغرُ فكَيَسِير الرِّياء، والتصنُّع للخَلْق، والحَلِفِ بغير الله.

وما نجا مِن الشِّرْك الأكبرِ إلا مَن جَرَّد توحيدَه لله، وعادَى المشركينَ في الله، وتقرَّب بِمَقْتِهم إلى الله، واتَّخذ اللهَ وحدَه وَلِيَّه وإلهه ومعبودَه، فجرَّد حُبَّه لله، وخوفَه لله، ورجاءه لله، وذُلَّه لله، وتوكُّلَه على الله، واستغاثَتَه بالله، والْتِجاءَه إلى الله، واستعانتَه بالله، وأخْلَصَ قَصْدَه لله، مُتَّبِعًا لأمرِه، متَطَلبًا لمرضاتِه، إذا سألَ سأل اللهَ، وإذا استعانَ استعانَ بالله، وإذا عَمِلَ عَمِلَ لله، فهو لله، وبالله، ومع الله.

والشِّرْك أنواعٌ كثيرة لا يُحصيها إلَّا الله.

الثالث: النفاق

وأما النِّفاق: فالدَّاءُ العُضال الباطن، الذي يكون الرجُل ممتلئًا منه

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٤٧٢)، والحاكم (٨٣١٨)، وقال: «صحيح الإسناد»، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧١١٩)، وفيه: عن المستظلِّ بن حُصين، قال: خطَبَنا عُمرُ بن الخطَّاب، فقال: «قد علمتُ وربِّ الكعبةِ متى تَهلِك العرب»، فقام إليه رجلٌ من المسلمين فقال: متى يَهلِكون يا أميرَ المؤمنين؟ قال: «حين يَسوسُ أمرَهم مَن لم يُعالِجْ أمْرَ الجاهلية، ولم يَصحَبِ الرسولَ ﷺ»، وهذا لفظ ابن أبي شيبة.

وهو لا يَشعُرُ، فإنَّه أمرٌ خَفِيٌّ؛ خَفِيَ على النَّاس، وكثيرًا ما يَخفَى على مَن تَلَبَّس به، فيزعُم أنَّه مُصلِحٌ وهو مُفسِدٌ.

وقد هتَكَ اللهُ سبحانه أستارَ المنافِقينَ، وكَشَفَ أسرارَهم في القرآن، وجَلَّى لعبادِه أمورَهم؛ ليكونوا منها ومِن أهلها على حذر، وذكر طوائفَ العالَمِ الثلاثةَ في أوَّل سورة البقرة: المؤمنين، والكُفَّار، والمنافِقينَ، فذكر في المؤمنين أربعَ آياتٍ، وفي الكُفَّار آيتيْنِ، وفي المنافِقينَ ثلاثَ عشْرةَ آيةً؛ لكثرتِهم، وعمومِ الابتلاءِ بهم، وشدَّةِ فِتْنَتِهم على الإسلامِ وأهلِه، فإنَّ بليَّة الإسلامِ بهم شديدةٌ جدًّا؛ لأنَّهم مُنتسِبونَ إليه، وإلى نُصرتِه ومُوالاته، وهم أعداؤُه في الحقيقة، يُخرِجون عداوتَه في كلِّ قالَبٍ، يظنُّ الجاهلُ أنَّه عِلْمٌ وإصلاحٌ، وهو غايةُ الجهلِ والإفساد.

ضرر المنافقين على الأمة

فلِلَّهِ كم من مَعْقِلٍ للإسلام قد هَدَموه! وكم مِن حِصنٍ له قد قلَعوا أساسَه وخَرَّبوه! وكم مِن عَلَمٍ له قد طَمَسوه! وكم مِن لواءٍ له مرفوعٍ قد وضعوه! وكم ضربوا بِمَعَاوِلِ الشُّبهة في أصولِ غِراسِه ليقلعوها! وكم عَمُّوا عيونَ موارِدِه بآرائِهم ليدفِنوها ويَقطَعوها!

فلا يزال الإسلامُ وأهلُه منهم في مِحنةٍ وبَلِيَّة، ولا يزال يطرُقُه مِن شُبَهِهم سَرِيَّة بعد سَرِيَّة، ويزعمون أنَّهم بذلك مُصلِحون، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

اتَّفَقوا على مُفارَقةِ الوحي، فهُم على تَرْكِ الاهتداءِ به مجتمِعون، ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولأجل ذلك ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠].

دَرَسَتْ معالِمُ الإيمانِ في قلوبِهم فليسوا يعرفونها، ودَثَرَتْ معاهِدُه عندهم فليسوا يَعْمُرونها، وأفَلَتْ كواكبُه من قلوبهم فليسوا يُحِبُّونها، وكَسَفَتْ شمسُه عند اجتماع ظُلَم آرائهم وأفكارهم فليسوا يُبْصِرونها، لم

يقبلوا هُدى الله الذي أرسَل به رسولَه، ولم يرفعوا به رأسًا، ولم يَرَوْا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسًا، خَلَعوا نصوص الوحي عن سَلْطَنةِ الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشَنُّوا عليها غاراتِ التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كَمِينٌ بعد كَمِينٍ، نزلت عليهم نزولَ الضَّيف على أقوامٍ لِئَام، فقابَلوها بغيرِ ما ينبغي لها من القَبول والإكرام، وتَلَقَّوْها مِن بعيد، ولكن بالدَّفْع في الصدور منها والأعجاز، وقالوا: ما لكِ عندنا مِن عُبُور، وإن كان لا بد فعلى سبيل المجاز، أعَدُّوا لدفْعِها أصنافَ العُدَد وضروبَ القوانين، وقالوا لَمَّا حَلَّت بِساحتِهم: ما لنا ولظواهِرَ لَفظيَّةٍ لا تفيدنا شيئًا من اليقين، وعوامُّهم قالوا: حَسْبُنا ما وَجَدْنا عليه خَلَفَنا من المتأخِّرين، فإنَّهم أعلمُ بها من السَّلَف الماضِينَ، وأقْوَمُ بطرائِقِ الحُجَج والبراهين، وأولئك غَلَبَتْ عليهم السَّذاجة وسلامةُ الصدور، ولم يتفرَّغُوا لتمهيد قواعدِ النظر، ولكن صَرَفوا هِمَمَهم إلى فِعْل المأمور، وتَرْكِ المحظور، فطريقةُ المتأخِّرين أعلمُ وأحكمُ، وطريقة السلف الماضِينَ أجهل، لكنَّها أسلمُ!

أنزَلوا نصوص السُّنَّة والقرآن منزلةَ الخليفة في هذا الزمان؛ اسمُه على السِّكَّةِ وفي الخطبةِ فوقَ المنابر مرفوع، والحُكْمُ النافذ لغَيرِه فحُكْمُه غير مقبول ولا مسموع.

لَبِسُوا ثيابَ أهلِ الإيمانِ على قلوبِ أهلِ الزَّيْغ والكُفرانِ، فالظواهرُ ظواهرُ الأنصار، والبواطنُ قد تَحَيَّزَت إلى الكفَّار، فألسنتُهم ألسنةُ المُسالِمِينَ، وقلوبُهم قلوبُ المحارِبينَ، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: ٨].

رأسُ مالِهم الخديعةُ والمكرُ، وبضاعتُهم الكَذِبُ والخَتْرُ[(١)]، وعندهم العقلُ المَعِيشيُّ أنَّ الفريقينِ عنهم راضُون، وهُم بينهم آمِنون، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

(١) **الخَتْرُ**: الغَدْرُ والخَديعَةُ، أو أقبَحُ الغَدْرِ. «القاموس المحيط» (١/ ٣٨٣).

[البقرة: ٩]، قد نَهَكَتْ أمراضُ الشُّبُهات والشَّهوات قلوبَهم فأهلكتْها، وغَلَبَتِ القُصُودُ السيِّئةُ على إراداتهم ونيَّاتِهم فأفسدتْها، ففسادُهم قد ترامَى إلى الهلاك، فعَجَزَ عنه الأطبَّاءُ العارِفونَ، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة: ١٠].

مَن عَلِقَت مخالبُ شُكُوكِهم بأدِيم إيمانِه مَزَّقَتْه كلَّ تمزيق، ومَن تَعَلَّق شَرَرُ فتنتِهم بقلبِه ألْقاهُ في عذابِ الحريق، ومَن دخلتْ شُبُهاتُ تَلبيسِهم في مَسامِعه حالَ بين قلبِه وبين التصديق، ففسادُهم في الأرضِ كثير، وأكثرُ النَّاسِ عنه غافِلون، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة: ١١ ـ ١٢].

المُتمسِّكُ عندهم بالكِتاب والسُّنَّة صاحبُ ظواهر، مَبخُوسٌ حَظُّه من المعقول، والدائرُ مع النُّصوصِ عندَهم كحِمارٍ يحمِلُ أسفارًا، فَهْمُه في حَمْلِ المنقول، وبضاعةُ تاجرِ الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندَهم بمقبول، وأهلُ الاتِّباع عندَهم سُفهاءُ، فهُم في خَلَواتِهم ومجالسِهم بهم يَتَطيَّرون، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [البقرة: ١٣].

خرَجوا في طلَبِ التِّجارةِ البائِرة في بحار الظُّلُمات، فرَكِبوا مراكِبَ الشُّبَه والشُّكوكِ تجري بهم في مَوْج الخيالات، فلَعِبَتْ بسُفُنِهم الريحُ العاصف، فألْقَتْها بين سُفُنِ الهالكين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾ [البقرة: ١٦].

أضاءت لهم نارُ الإيمانِ فأبصَروا في ضَوئها مواضعَ الهدى والضَّلال، ثم طَفِئَ ذلك النورُ، وبَقِيَتْ نارٌ تأجَّجُ ذاتُ لَهَبٍ واشتعال، فهم بتلك النَّارِ مُعذَّبون، وفي تلك الظُّلماتِ يَعْمَهون، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧﴾ [البقرة: ١٧].

أسماعُ قلوبِهم قد أثْقَلها الوَقْرُ، فهي لا تسمع منادي الإيمان،

وعيونٌ بصائرِهم عليها غِشاوةُ العمى، فهي لا تُبصِر حقائق القرآن، وألسنتُهم بها خَرَسٌ عن الحق، فهم به لا ينطقون، ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨].

صابَ عليهم صَيِّبُ الوَحْيِ، وفيه حياةُ القلوبِ والأرواحِ، فلم يسمعوا منه إلا رَعْدَ التهديدِ والوَعيدِ والتكاليفِ التي وُضِعَت عليهم بالمساء والصَّباح، فجعلوا أصابعَهم في آذانهم، واستَغْشَوْا ثيابَهم، وجَدُّوا في الهَرَب، والطَّلَبُ في آثارهم والصِّياحُ، فنُودِي عليهم على رُؤوس الأشْهاد، وكُشِفَت حالُهم للمُسْتبصِرين، وضُرِبَ لهم مَثَلانِ بحسَب حالِ الطائفتَيْن منهم: المناظِرينَ، والمُقلِّدين، فقيلَ: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٩].

ضعُفَتْ أبصارُ بصائرِهم عن احتمالِ ما في الصَّيِّب مِن بُرُوقِ أنوارِه وضياءِ معانِيه، وعجَزَتْ أسماعُهم عن تلقِّي رُعودِ وُعودِه وأوامرِه ونواهِيه، فقاموا عند ذلك حَيارَى في أوديةِ التِّيه، لا ينتفع بسَمعِه السامع، ولا يهتدي ببصرِه البصير، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠].

علامات المنافقين

لهم علاماتٌ يُعرَفون بها مُبيَّنةٌ في السُّنَّة والقرآن، باديةٌ لِمَن تدبَّرها مِن أهلِ بصائرِ الإيمان، قام بهم واللهِ الرِّياءُ، وهو أقبحُ مقام قامه الإنسانُ، وقعد بهم الكسلُ عمَّا أُمِروا به مِن أوامرِ الرحمٰنِ، فأصبح الإخلاصُ لذلك عليهم ثقيلًا، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

أحدُهم كالشَّاةِ العائِرة بين الغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إلى هذه مرَّةً وإلى هذه مرَّةً ولا تستقرُّ مع إحدى الفِئَتَيْن، فهم واقِفونَ بين الجَمْعَيْن، ينظرون أيُّهم أقوى وأعزُّ قِيلًا، ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٣].

يتربَّصون الدَّوائرَ بأهلِ السُّنَّة والقرآن، فإنْ كان لهم فتحٌ من الله قالوا: إنَّا كنَّا في البواطِن معكم، وأقسَموا على ذلك بالله جَهْدَ أيمانِهم، وإنْ كان لأعداءِ الكتاب والسُّنَّة مِن النُّصْرةِ نصيب، قالوا: ألم تَعْلَموا أنَّ عَقْدَ الإخاءِ بيننا مُحْكَم، وأنَّ النَّسب بيننا قريب؟ فيَا مَن يريدُ معرفتَهم خُذْ صفاتِهم من كلام رَبِّ العالَمينَ، فلا تحتاج بعدَه دليلًا، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

يُعجِبُ السَّامِعَ قولُ أحدِهم؛ لحلاوتِه ولِينِه، ويُشهِدُ اللهَ على ما في قلبِه مِن كَذِبِه ومَيْنِه، فتراه عند الحقِّ نائمًا وفي الباطل واقفًا على الأقدام، فخُذْ وَصْفَهم من قول القُدُّوسِ السَّلام: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤].

يأمرون بالمنكر بعد أنْ يفعلوه، ويَنهَوْنَ عن المعروف بعد أنْ يَتركوه، ويَبْخَلون بالمال في سبيلِ اللهِ ومَرْضاتِه أنْ يُنفِقوه، كم ذَكَّرَهُم الله بنِعَمِه فأعرَضوا عن ذِكْرِه ونَسُوه؟ وكم كشف حالَهم لعبادِه المؤمنين ليجتنبوه؟ فاسمعوا أيُّها المؤمنون: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧]؛ إنْ حاكمْتَهُم إلى صريح الوحي وجدتَهم عنه نافِرينَ، وإنْ دعوتَهم إلى حُكم كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ رأيتَهم عنه مُعْرِضين، فلو شهِدتَ حقائقَهم لرأيتَ بينها وبين الهُدى أمَدًا بعيدًا، ورأيتها مُعْرِضةً عن الوحي إعراضًا شديدًا، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١].

فكيف لهم بالفَلاح والهُدى بعدما أُصِيبوا في عقولهم وأديانِهم؟! وأنَّى لهم التخلُّص من الضَّلال والرَّدَى وقد اشتَرَوُا الكفرَ بإيمانِهم؟! فما

أخسَرَ تجارتَهم البائرةَ! وقد استبدَلُوا بالرَّحيقِ المختوم حريقًا، ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢].

نَشَبَ زَقُّومُ الشُّبَهِ والشُّكوكِ في قلوبهم، فلا يجدون له مَسِيغًا، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣].

تبًّا لهم، ما أبْعَدَهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذَبَ دَعْواهم للتحقيق والعِرْفان، فالقومُ في شأنٍ وأتباعُ الرسولِ في شأن، لقد أقسمَ اللهُ ﷻ في كتابِه بنفْسِه المُقدَّسة قَسَمًا عظيمًا، يعرف مَضْمونَه أُولو البصائر، فقلوبُهم منه على وَجَلٍ إجلالًا له وتعظيمًا، فقال تعالى تحذيرًا لأوليائِه وتنبيهًا على حالِ هؤلاءِ وتفهيمًا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

تسبق يمينُ أحدِهم كلامَه من غيرِ أنْ يُعترَض عليه؛ لعِلْمِه بأنَّ قلوبَ أهلِ الإيمان لا تطمئنُّ إليه، فيتبرَّأُ بيمينه مِن سوءِ الظَّنِّ به، وكَشْفِ ما لديه، وكذلك أهل الرِّيبة يَكْذِبون، ويَحلِفون لِيَحسبَ السامعُ أنَّهم صادقون، ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون: ٢].

تبًّا لهم! بَرَزُوا إلى البَيْداء مع رَكْب الإيمان، فلمَّا رَأَوْا طولَ الطريق وبُعْدَ الشُّقَّةِ نَكَصوا على أعقابهم ورجعوا، وظنُّوا أنَّهم يتمتَّعون بطِيبِ العَيشِ ولذَّة المَنام في ديارهم، فما مُتِّعوا به، ولا بتلك النُّجْعةِ انتفعوا، فما هو إلا أنْ صاح بهم الصائح فقاموا عن موائدِ أطعِمَتِهم والقومُ جِياعٌ ما شَبِعوا، فكيف حالُهم عند اللِّقاء وقد عرَفوا ثم أنكَروا، وعَمُوا بعدما عايَنُوا الحقَّ وأبصَروا؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ٣].

أحسنُ الناس أجسامًا، وأحلاهم لِسانًا، وألطفهم بَيانًا، وأخبثهم

قلوبًا، وأضعفهم جَنانًا، فهم كالخُشُب المُسنَّدةِ التي لا تمييز لها، قد قُلِعَت من مَغارِسِها فتساندت إلى حائطٍ يُقِيمُها، لئلَّا يطأها السَّالِكون ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤].

يُؤخِّرون الصَّلاةَ عن وقتِها الأوَّل إلى شَرَقِ الموتَى(١)، فالصُّبح عند طلوع الشمسِ، والعصرُ عند الغُروبِ، ويَنقُرونها نَقْرَ الغُراب؛ إذ هي صلاةُ الأبدان، لا صلاةُ القلوبِ، ويلتفتون فيها التفاتَ الثعلبِ؛ إذ يتيقَّن أنَّه مطرودٌ مطلوب، ولا يشهدون الجماعةَ، بل إنْ صلَّى أحدُهم ففي البيت أو الدُّكَّان، وإذا خاصَمَ فَجَر، وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَدَ أخلَف، وإذا اؤْتُمِنَ خان، هذه معاملتُهم للخَلْق، وتلك معاملتُهم للخالِق، فخُذْ وَصْفَهم مِن أوَّل المُطفِّفِينَ، وآخِرِ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾، فلا يُنبِّئُك عن أوصافهم مثلُ خبير، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم: ٩]. فما أكثرَهم وهُم الأقلُّون! وما أجبَرَهُم وهم الأذَلُّون! وما أجهَلَهم وهم المُتعالِمون! وما أغرَّهُم بالله إذْ هُم بعظمته جاهلون! ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التَّوْبة: ٥٦].

إن أصاب أهلَ الكتاب والسُّنَّةِ عافيةٌ ونَصْرٌ وظهورٌ ساءَهم ذلك وغَمَّهُم، وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يُمحِّصُ به ذنوبَهم، ويُكفِّر به عنهم سيئاتهم أفرَحَهُم ذلك وسَرَّهُم، وهذا يُحقِّق إرثَهم وإرثَ مَن عداهم، ولا يستوي مَن مَورُوثُه الرسولُ، ومَن مَورُوثُهم المنافقون ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا

(١) أراد أنَّهُم يُصَلُّونَها ولم يَبْقَ من النَّهارِ إلَّا بقَدْرِ ما يبْقَى من نفْسِ المُحْتَضَرِ إذا شَرِقَ بِرِيقِه. ينظر: «القاموس المحيط» (ص٨٩٧).

مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التَّوْبة: ٥٠ ـ ٥١].

عواقب خبث المنافقين

كَرِهَ الله طاعاتِهم؛ لِخُبْثِ قلوبِهم وفسادِ نيَّاتِهم، فثَبَّطَهم عنها وأقعَدَهم، وأبغَضَ قُرْبَهم منه وجِوارَهم لِمَيْلِهم إلى أعدائه، فطردَهم عنه وأبعدَهم، وأعرَضوا عن وَحْيِه فأعرَضَ عنهم، وأشقاهم وما أسعدَهم، وحَكَمَ عليهم بحُكْم عَدْلٍ لا مَطمَعَ لهم في الفَلاح بعده، إلَّا أنْ يكونوا مِن التَّائبينَ، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التَّوْبة: ٤٦].

ثم ذَكر حِكمتَه في تَثبيطِهم وإقعادِهم، وطَرْدِهم عن بابه وإبعادِهم، وأنَّ ذلك مِن لُطْفِه بأوليائِه وإسعادِهم، وهو أحكمُ الحاكِمينَ، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التَّوْبة: ٤٧].

ثَقُلَت عليهم النُّصوصُ فكرِهوها، وأعْياهم حَمْلُها فألْقَوْها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلَّتَت منهم السُّنن أنْ يحفظوها فأهملوها، وصالَتْ عليهم نصوصُ الكتابِ والسُّنَّة فوضعوا لها قوانينَ رَدُّوها بها ودَفَعوها، وقد هَتَكَ الله أستارَهم، وكشَف أسرارَهم، وضرَب لعباده أمثالَهم، وعَلِمَ أنَّه كلَّما انقرض منهم طوائفُ خلَفهم أمثالُهم، فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حَذَرٍ وبيَّنها لهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٩].

أسرُّوا سرائر النِّفاق، فأظهرَها الله على صفحات الوُجوه منهم، وفَلَتاتِ اللِّسان، ووَسَمَهم لأجْلها بسِيماء لا يَخْفَوْن بها على أهلِ البصائرِ والإيمان، وظَنُّوا أنَّهم إذْ كتَمُوا كُفْرَهم وأظْهَروا إيمانَهم راجُوا على النُّقَّاد، كيف والناقدُ البصيرُ قد كشَفَها لكم! ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: ٢٩ ـ ٣٠].

فكيف بهم إذا جُمِعوا ليومِ التَّلاق، وتجلَّى الله ﷻ للعِباد وقد

كشف عن ساق؟ ودُعُوا إلى السُّجود فلا يستطيعون، ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم: ٤٣].

أحوال المنافقين في عرصات القيامة

أمْ كيف بهم إذا حُشِروا إلى جِسرِ جهنَّم؟! وهو أدقُّ من الشَّعرة، وأحَدُّ من الحُسام، وهو دَحْضٌ مَزَلَّةٌ، مُظْلِمٌ لا يقطَعُه أحدٌ إلا بنورٍ يُبصِرُ به مواطئ الأقدامِ، فقُسِّمَت بين الناسِ الأنوار، وهُم على قدر تفاوُتِها في المرور والذهاب، وأُعْطُوا نورًا ظاهرًا مع أهلِ الإسلام، كما كانوا بيْنهم في هذه الدَّار يأتون بالصلاة والزَّكاة والحجِّ والصِّيام، فلَمَّا توسَّطوا الجِسْرَ عَصَفَتْ على أنوارهم أهْوِيةُ النِّفاق، فأطفأتْ ما بأَيديهم من المصابيح، فوَقَفوا حَيارَى لا يستطيعون المرور، فضُرِبَ بينهم وبين أهلِ الإيمان بسُورٍ له باب، ولكنْ قد حِيلَ بين القومِ وبين المفاتيحِ، باطنُه ـ الذي يَلِي المؤمنينَ ـ فيه الرَّحمة، وما يَلِيهِم من قِبَلِه العذابُ والنِّقْمة، ينادُونَ مَن تقدَّمَهم مِن وَفْدِ الإيمان، ومشاعلُ الرَّكْبِ تَلُوحُ على بُعْدٍ كالنُّجوم، تبدو لناظرِ الإنسان: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣]، لِنَتمكَّنَ في هذا المَضِيق من العُبور، فقد طُفِئَت أنوارُنا، ولا جوازَ اليوم إلا بمصباحٍ من النُّور، ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ [الحديد: ١٣] حيث قُسِّمَت الأنوارُ، فهيهاتَ الوقوفُ لأحدٍ في مِثْلِ هذا المِضْمار! كيف نلتمسُ الوقوفَ في هذا المَضِيق؟ وهل يَلْوِي اليومَ أحدٌ على أحدٍ في هذا الطريق؟ وهل يلتفتُ اليومَ رفيقٌ إلى رفيق؟ فذَكَّروهم باجتماعهم معهم وصُحْبَتِهم لهم في هذه الدَّار، كما يُذكِّر الغريب صاحبَ الوطن بصُحْبتِه له في الأسفار: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ [الحديد: ١٤]، نصومُ كما تصومون، ونصلِّي كما تُصَلُّون، ونقرأ كما تقرَؤُون، ونتصدَّق كما تتصدَّقون، ونَحُجُّ كما تَحُجُّون؟ فما الذي فرَّق بيننا اليوم حتى انفرَدْتُم دونَنا بالمرور؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الحديد: ١٤]، ولكنَّكم كانت ظواهرُكم معنا وبواطنُكم مع كلِّ مُلْحِد، وكلِّ ظَلُوم كَفُور، ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٥﴾ [الحديد: ١٤ ـ ١٥].

لا تَسْتَطِل أوصافَ القوم، فالمتروكُ ـ واللهِ ـ أكثرُ من المذكور، كادَ القرآنُ أنْ يكونَ كلُّه في شأنهم؛ لكثرتِهم على ظهر الأرضِ وفي أجوافِ القُبور، فلا خَلَتْ بقاعُ الأرضِ منهم؛ لئلَّا يستوحشَ المؤمنون في الطُّرُقات، وتتعطَّل بهم أسبابُ المَعِيشات، وتخطفهم الوحوشُ والسِّباعُ في الفَلَوات. سمِع حذيفةُ رضي الله عنه رجلًا يقول: اللَّهُمَّ أهْلِك المنافقينَ، فقال: «يا ابنَ أخي، أهَلَكَ المنافِقين لاستوحشتم في طرقاتِكم مِن قِلَّةِ السالِك».

خوف الصالحين من النفاق

تاللهِ لقد قطعَ خوفُ النِّفاق قلوبَ السابِقينَ الأوَّلِين، ولعِلمهم بدِقِّهِ وجِلِّه وتفاصيله وجُمَلِه ساءتْ ظُنونُهم بنفوسِهم حتى خَشُوا أنْ يكونوا من جملة المنافقين؛ قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما: «يا حذيفةُ، نشدتُك باللهِ، هل سَمَّاني لكَ رسولُ الله ﷺ منهم؟ فقال: لا، ولا أُزكِّي بعدَك أحدًا»[(١)].

قال ابنُ أبي مُلَيْكةَ: «أدركتُ ثلاثين من أصحابِ محمد ﷺ، كلُّهم يخاف النِّفاق على نفْسِه، ما منهم أحدٌ يقول: إنَّ إيمانه كإيمانِ جبريلَ وميكائيلَ». ذكرَه البخاريُّ[(٢)].

وذُكِرَ عن الحسَن رحمه الله: «ما أمِنَه إلا منافق، ولا خَافَهُ إلا مؤمن».

ولقد ذُكر عن بعضِ الصَّحابةِ أنَّه كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من خُشوع النِّفَاق. قيل: وما خشوعُ النِّفاق؟ قال: أنْ يخشع البدنُ والقلبُ غيرُ خاشعٍ لله تعالى»[(٣)].

ولقد مُلِئَتْ قلوبُ القومِ إيمانًا ويقينًا، وخوفُهم من النِّفاق شديد، فهَمُّهُم لذلك ثقيل، وسواهم كثيرٌ، منهم لا يُجاوِزُ إيمانُهم حناجرَهم، وهم يَدَّعون أنَّه كإيمانِ جبريلَ وميكائيلَ.

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة (٣٧٣٩٠)، والخلال في «السُّنَّة» (١٢٨٨).

(٢) ذكره البخاري تعليقًا قبل حديث (٤٨) في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٧١١)، وأحمد في «الزهد» (٧٦٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٦٧) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

زَرْعُ النِّفاقِ يَنبُتُ على ساقِيَتَيْنِ: ساقية الكَذِب، وساقيةِ الرِّياء، ومَخْرَجُهما مِن عَينَيْنِ: عينِ ضَعْفِ البصيرة، وعين ضَعفِ العزيمة، فإذا تَمَّت هذه الأركانُ الأربع استَحكَمَ بُنيانُ النِّفاق، ولكنَّه بمدارج السيول على شَفَا جُرُفٍ هارٍ، فإذا سال سَيْلُ الحقائق، وعايَنوا يوم تُبْلَى السرائر، وكُشِفَ المستورُ، وبُعْثِرَ ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، تَبَيَّن حينئذ لمن كانت بضاعته النِّفاق؛ أنَّ حواصله التي حصلها كانت كالسراب، ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩].

قلوبُهم عن الخيرات لاهِيَة، وأجسادُهم إليها ساعِية، والفاحشةُ في فِجَاجِهم فاشية، وإذا سَمِعوا الحقَّ كانت قلوبُهم عن سماعِه قاسية، وإذا حَضَروا الباطلَ وشَهِدوا الزُّور انفتحتْ أبصارُ قلوبِهم وكانت آذانُهم واعية، فهذه واللهِ أماراتُ النِّفاق فاحْذَرْها أيُّها الرَّجُلُ قبلَ أنْ تنزلَ بك القاضية.

الرابع والخامس: الفسوق والعصيان

وأمَّا الفُسُوق فهو في كتاب الله نوعان: مُفْرَد مُطْلَق، ومَقرون بالعِصيان.

والمفردُ نَوعانِ أيضًا: فُسوقُ كُفرٍ، يُخرِج عن الإسلام، وفسوقٌ لا يُخرِج عن الإسلام.

فالمَقرون كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات: ٧].

والمفرَدُ ـ الذي هو فُسُوقُ كُفرٍ ـ كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦ ـ ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة: ٩٩]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ٢٠]، فهذا كلُّه فسوقُ كُفرٍ.

وأمَّا الفُسوق الذي لا يُخرِج عن الإسلامِ فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦].

السادس والسابع: الإثم والعدوان

وأمَّا الإثم والعدوانُ فهما قَرينانِ، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] وكلٌّ منهما إذا أُفرِدَ تضمَّن الآخَرَ، فكل إثم عدوانٌ؛ إذ هو فِعلُ ما نهى اللهُ عنه، أو تَرْكُ ما أمرَ الله به، فهو عدوانٌ على أمْرِه ونهيِه، وكل عدوانٍ إثمٌ؛ فإنَّه يأثمُ به صاحبُه، ولكن عند اقترانِهما فهما شيئانِ بحسَب متعلَّقِهما ووصْفِهما.

وهذا العدوان نوعانِ: عدوانٌ في حقِّ الله، وعدوانٌ في حقِّ العبد.

فالعدوانُ في حقِّ الله: كما إذا تعدَّى ما أباحَ له مِن الوَطْء الحلالِ في الأزواج والمملوكاتِ إلى ما حَرَّمَ عليه مِن سواهما، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون ٥ ـ ٧]، وكذلك تعدِّي ما أُبيحَ له مِن زوجتِه وأمَتِه إلى ما حَرَّمَ اللهُ عليه منها لِوَطْئِها في حَيْضها أو نِفاسِها، أو في إحرام أحدِهما، أو صيامِه الواجبِ. وكذلك كل ما أُبيحَ له منه قَدْرٌ مُعَيَّن، فتعدَّاه إلى أكثرَ منه، فهو من العدوانِ، كمَنْ أُبيح له إساغةُ الغُصَّة بجُرعة من خَمر، فتناول الكأس كلَّها، أو أُبيحَ له نظرةُ الخِطْبة، والسَّوْم، والشهادة، والمعاملة، والمُداواة، فأطلَقَ عِنانَ طَرْفِه في ميادينِ محاسِنِ المنظور، وأسامَ طرفَ ناظرِه في تلك الرِّياض والزُّهور، فتعدَّى المُباح إلى القَدْر المحظُور، وحامَ حَوْلَ الحِمَى المَحُوط المحجورِ، فصار ذا بصرٍ حائر، وقلْبٍ عن مكانه طائر، أرسل طرفَه رائدًا يأتيه بالخبرِ، فخامَرَ عليه وأقامَ، فبعثَ القلبَ في آثارِه، فلم يشعُر إلا وهو أسيرٌ يَحْجِل في قيودِه بين تلك الخِيام، فما أقلعتْ لحظاتُ ناظرِه حتى تَشَحَّطَ بينهن قتيلًا، وما بَرِحَتْ تَنُوشُه سُيوفُ تلك الجفونِ حتى جَنْدَلْنَه تَجْديلًا. هذا خطرُ العدوان، وما أمامَه أعظمُ وأخطرُ، وهذا فَوْتُ الحِرْمان، وما حُرِمَه مِن فَواتِ ثوابِ مَن غضَّ طرْفَه لله أجَلُّ وأكبرُ.

سافرَ الطرفُ في مَفاوِزِ محاسنِ المنظورِ إليه، فلم يَرْبَح إلا أذى السَّفَر، وغَرَّر بنفسِه في ركوبِ تلك البِيدِ، وما عَرَف أنَّ راكبها على أعظمِ الخطر؟! يا لها مِن سَفْرةٍ لم يبلغ المسافرُ منها ما نَواه، ولم يَضَعْ

فيها عن عَاتِقِه عصاه، حتى قُطِعَ عليه فيها الطريق، وقَعَدَ له فيها الرَّصَدُ على كل نَقْبٍ ومَضِيق، لا يستطيع الرُّجوعَ إلى وطنِه والإياب، ولا له سبيلٌ إلى المرور والذَّهاب، يرى هَجِير الهاجرةِ مِن بعيد، فيظنُّه بَرْدَ الشَّراب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩]، وتَيَقَّن أنَّه كان مغرورًا بلامِعِ السَّراب. تالله ما استوت هذه الذِّلَّة وتلك اللَّذَّةُ في القِيمة فيشتريها بها العارفُ الخبير، ولا تقارَبَا في المنفعة فيتحيَّر بينهما البصير، ولكن على العيون غشاوةٌ فلا تفرِّق بين مواطنِ السلامةِ ومواطنِ العُثُور، والقلوبُ تحت أغطيةِ الغَفَلات راقدةٌ فوق فُرُشِ الغُرُور، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

الثامن

[و]البغي غالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم، فإذا قرن البغي بالعدوان كان البغي ظلمهم بمحرم الجنس، كالسرقة والكذب، والعدوان تعدي الحق في استيفائه إلى أكبر منه.

فيكون البغي والعدوان في حقهم كالإثم والعدوان في حدود الله.

التاسع والعاشر: الفحشاء والمنكر

وأمَّا الفحشاء والمنكر؛ فالفحشاءُ: ما ظهر قُبْحُها لكل أحد، واستفحشَه كلُّ ذي عقلٍ سليم، ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وأمَّا المنكرُ [فهو] الذي تُنكِرُه العقولُ والفِطَر، فما اشتد إنكار العقولُ والفِطَر له فهو فاحشة.

فالمُنكر لها: ما لم تَعرِفْه ولم تألفْه، والقبيح المُستكرَه لها الذي تشتدُّ نُفرتُها عنه: هو الفاحشة.

الحادي عشر: القول على الله بلا علم

وأمَّا القول على الله بلا عِلْم فهو أشدُّ هذه المُحرَّمات تحريمًا، وأعظمُها إثمًا، وهو أصلُ الشِّرك والكُفْر، وعليه أُسِّست البِدَعُ والضَّلالات، فكلُّ بدعةٍ مُضِلَّة في الدِّين أساسُها القولُ على الله بلا عِلْم[1].

* * *

(١) لم يتكلم ابن القيم بشكل مستقل عن الجنس الثاني عشر وهو (اتباع غير سبيل المؤمنين).

مَشاهِدُ الخَلْق في المعصيَّة

وهي ثلاثةَ عشرَ مشهدًا:

١ ـ مشهد الحيوانيَّة وقضاءِ الشَّهوة.

٢ ـ ومشهد اقتِضاءِ رُسومِ الطبيعةِ ولوازمِ الخِلْقة.

٣ ـ ومشهد الجَبْر.

٤ ـ ومشهد القَدَر.

٥ ـ ومشهد الحِكمة.

٦ ـ ومشهد التوفيق والخِذلان.

٧ ـ ومشهد التوحيد[١].

٨ ـ ومشهد الأسماءِ والصِّفات.

٩ ـ ومشهد الإيمان وتعدُّد شواهدِه.

١٠ ـ ومشهد الرحمة.

١١ ـ ومشهد العجز والضعف.

١٢ ـ ومشهد الذُّلِّ والافتقار.

١٣ ـ ومشهد المحبَّة والعبوديَّة.

فالأربعةُ الأُوَلُ للمنحرِفِينَ، والثمانيةُ البَواقي لأهلِ الاستقامة، وأعلاها المشهَدُ العاشر.

وهذا الفصل من أجَلِّ فُصولِ الكتابِ وأنفعِها لكلِّ أحدٍ، وهو حَقِيقٌ بأن تُثْنَى عليه الخناصِر، ولعلَّك لا تظفَرُ به في كتابٍ سواه إلا ما ذكرناه في كتابِنا المسمَّى (سِفْر الهجرتين وطريق السعادتين).

مشهد الحيوانية

فأمَّا مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة: فمشهد الجُهَّال الذين لا فَرْقَ بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونُطْق اللِّسان، ليس همُّهم

---

(١) وهو الذي أسماه ابن القيم ـ عند شرحه ـ (مشهد انفراد الرَّبِّ تعالى بالخَلْق والحُكْم) وجعله مشهدًا سادسًا فقدمه على مشهد (التوفيق والخِذلان).

إلا مجرَّد نَيْل الشهوة بأي طريق أفْضَتْ إليها، فهؤلاء نفوسُهم نفوسٌ حيوانية لم تَتَرَقَّ عنها إلى درجة الإنسانية، فضلًا عن درجة الملائكة، فهؤلاء حالهم أخَسُّ من أنْ تُذْكر، وهم في أحوالهم مُتَفاوِتون بحسَب تفاوُتِ الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم مَن نفْسُه كَلْبيَّة، لو صادَف جيفةً تُشبعُ ألْفَ كلبٍ لوقع عليها وحماها من سائر الكلاب، ونَبَحَ كلَّ كلبٍ يدنو منها، فلا تقربها الكلاب إلا على كُرْهٍ منه وغلبة، ولا يَسمح لكلب بشيء منها، وهَمُّه شِبَعُ بطنِه من أي طعام اتَّفَق؛ ميتة أو ذَكِيّ، خبيث أو طيِّب، ولا يستحي من قبيح، إن تَحْمِل عليه يَلْهَث أو تَتْرُكْه يلهث، إن أطعمتَه بَصْبَصَ بِذَنَبِه ودار حولك، وإن مَنَعْتَه هَرَّكَ ونَبَحَك.

ومنهم مَن نفْسُه حِماريَّة لم تُخْلَق إلا للكَدِّ والعلَف، كلما زِيدَ في علَفِه زيدَ في كَدِّه، أبكَمُ الحيوانِ وأقلُّه بصيرةً، ولهذا مثَّل الله ﷻ به مَن حمَّله كتابَه فلم يَحْمِلْه معرفةً ولا فِقهًا ولا عملًا، ومَثَّل بالكلب عالِمَ السُّوء الذي آتاه الله آياتِه فانسلخ منها وأخلَدَ إلى الأرض واتَّبَع هواه، وفي هذَينِ المَثَلينِ أسرارٌ عظيمة ليس هذا موضع ذِكرها.

ومنهم مَن نفسُه سَبُعيَّة غضبِيَّة، هَمُّه العدوان على الناس وقَهرُهم بما وصلتْ إليه قدرتُه، طبيعته تتقاضى ذلك كتَقاضي طبيعة السَّبُع لِمَا يصدُر منه.

ومنهم مَن نفسُه فَأْرِيَّةٌ، فاسقٌ بطبْعِه، مُفْسِد لما جاوَرَه، تسبيحُه بلسان الحال: سبحان مَن خَلَقَه للفساد.

ومنهم مَن نفسُه على نفوسِ ذَوات السُّمُوم والحُمَات، كالحيَّة والعقرب وغيرهما، وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه، فيُدخِل الرجلَ القبرَ، والجَمَلَ القِدْرَ، والعَين وحدَها لم تفعل شيئًا، وإنما النفس الخبيثة السُّمِّيَّةُ تكيَّفت بكيفيةٍ غضبيَّة مع شدَّة حسدٍ وإعجاب، وقابَلَت المَعِينَ على غِرَّةٍ منه وغفلة وهو أعْزَل من سلاحِه، فلدغَتْهُ كالحية التي تنظر إلى موضعٍ مكشوفٍ من بدن الإنسان فتَنْهَشُه، فإما عَطَبٌ وإما أذًى.

ومِن النَّاس مَن طَبْعُه طَبعُ خِنزير؛ يَمُرُّ بالطيِّبات فلا يَلْوِي عليها، فإذا قامَ الإنسانُ عن رَجيعِه قَمَّه، وهكذا كثيرٌ من الناسِ، يسمعُ منك ويرَى من المحاسِن أضعافَ أضعافِ المساوِئ، فلا يتحفَّظُها ولا ينقلُها ولا تناسِبُه، فإذا رأى سَقْطةً أو كلمة عَوْراءَ وَجَدَ بُغْيَتَه وما يناسِبُه، فجعَلَها فاكهتَه ونُقْلَه[١].

ومنهم مَن هو على طبيعة الطَّاووسِ؛ ليس له إلا التَّطَوُّس والتَّزَيُّن بالرِّيش، وما وراء ذلك شيءٌ.

ومنهم مَن هو على طبيعة الجَمَل؛ أحْقَدِ الحيوان، وأغلَظِه كَبِدًا.

ومنهم مَن هو على طبيعة الدُّبِّ؛ أبْلَمُ خبيثٌ، وعلى طبيعةِ القِرْد.

وأحمدُ طبائع الحيواناتِ طبائعُ الخيل، التي هي أشرَفُ الحيواناتِ نُفوسًا، وأكرمُها طِباعًا، وكذلك الغَنَم، وكلُّ مَن ألِفَ ضَرْبًا من ضروبِ هذه الحيواناتِ اكتَسب مِن طبعِه وخُلُقِه، فإنْ تغذَّى بلحمِه كان الشَّبَه أقوى؛ فإنَّ الغَاذِي شبيهٌ بالمُغْتَذِي، ولهذا حَرَّم اللهُ أكْلَ لُحومِ السِّباع وجوارحِ الطيرِ؛ لِما تُورِثُ آكِلَها من شَبَهِ نفوسِها بها، والله أعلم.

والمقصودُ: أنَّ أصحابَ هذا المشهدِ ليس لهم شُهُودٌ سِوى مَيْلِ نفوسِهم وشهواتِهم، لا يعرفون ما وراء ذلك البَتَّة.

مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة

المشهدُ الثاني: **مشهدُ رُسُوم الطبيعةِ ولوازِم الخِلْقة**؛ كمشهدِ زنادقةِ الفلاسفةِ والأطبَّاءِ الذين يَشهدون أنَّ ذلك مِن لوازِم الخِلْقةِ والطبيعةِ الإنسانيَّةِ، وأنَّ تركيب الإنسانِ مِن الطبائعِ الأربعِ وامتزاجِها واختلاطِها كما يقتضي بَغْيَ بعضِها على بعض، وخروجَه عن الاعتدالِ ـ بحسَبِ اختلافِ هذه الأخلاطِ ـ فكذلك تركيبُه مِن البدنِ والنفسِ والطَّبيعةِ الحيوانيَّة تتقاضاه أثرُ هذه الخِلْقة، ورُسُوم تلك الطبيعة.

مشهد الجبر

المشهد الثالث: **مشهدُ أصحابِ الجَبْر**؛ وهم الذين يشهدون أنَّهم

---

(١) **النُّقْل**: ما يُتَنقَّلُ به على الشراب. انظر: «الصحاح» مادة: (نقل).

مُجْبَرون على أفعالِهم، وأنَّها واقعةٌ بغيرِ قُدرتِهم، بل لا يشهدون أنَّها أفعالُهم البَتَّة.

وهؤلاء أعداءُ اللهِ حقًّا، وأولياءُ إبليسَ وأحِبَّاؤه وإخوانُه، وإذا ناح منهم نائِحٌ على إبليسَ رأيتَ من البُكاء والخنينِ أمرًا عجبًا، ورأيتَ مِن تظلم الأقدارِ واتِّهامِ الجَبَّارِ ما يبدو على فَلَتاتِ ألسنتهم، وصفحاتِ وجوهِهم، وتسمعُ مِن أحدِهم من التَّظلُّم والتوجُّعِ ما تسمعُه من الخَصْم المغلوبِ العاجزِ عن خَصْمِه.

مشهد القدر

المشهد الرابع: **مشهدُ القَدَرِيَّة النُّفاةِ:** يشهدون أنَّ هذه الجِناياتِ والذنوبَ هم الذين أحْدَثوها، وأنَّها واقعةٌ بمشيئتهم دون مشيئةِ الله تعالى، وأنَّ اللهَ لم يُقَدِّر ذلك عليهم ولم يكتبْه، ولا شاءَه، ولا خَلَقَ أفعالَهم، وأنَّه لا يقدِر أنْ يهديَ أحدًا ولا يُضِلَّه إلا بمجرَّد البيان، لا أنَّه يُلْهِمُه الهُدى والضلال، والفجورَ والتَّقوى، فيجعل ذلك في قلبِه.

مشهد الحكمة

المشهد الخامس، وهو أحدُ مشاهِدِ أهلِ الاستقامةِ: **مشهد الحِكْمة.**

وهو مشهدُ حِكمةِ اللهِ في تقديرِه على عبدِه ما يُبْغِضُه سبحانَه ويكرهُه، ويلومُ ويعاقِب عليه، وأنَّه لو شاء لعَصَمَه منه، ولَحالَ بينه وبينه، وأنَّه سبحانه لا يُعصَى قَسْرًا، وأنَّه لا يكونُ في العالَم شيءٌ إلا بمشيئتِه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهؤلاء يَشهَدون أنَّ الله سبحانه لم يَخْلُق شيئًا عبثًا ولا سُدًى، وأنَّ له الحِكمةَ البالِغةَ في كل ما قَدَّرَه وقضاهُ مِن خير وشَرٍّ، وطاعةٍ ومعصية.

حِكمةٌ باهرة تَعْجِز العقولُ عن الإحاطة بكُنْهِها، وتَكِلُّ الألْسُنُ عن التعبير عنها.

فمصدر قضائه وقَدَرِه لما يُبْغِضُه ويسخطه: اسمُه الحكيم الذي بَهَرَتْ حِكمتُه الألباب، وقد قال تعالى لملائكته لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا

مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠] فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]. فللَّه سبحانه في ظهور المعاصي والذنوب والجرائم، وتَرَتُّب آثارِها من الآيات والحِكَم، وأنواعِ التعرُّفات إلى خَلْقِه، وتَنويع آياته، ودلائل رُبُوبيَّتِه ووحدانيته، وإلهيَّتِه، وحِكمتِه، وعِزَّته، وتمامِ مُلْكِه، وكمالِ قُدرته، وإحاطةِ عِلْمِه ما يشهده أولو البصائر عِيانًا ببصائر قلوبِهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، إنْ هي إلا حِكْمَتُك الباهرة، وآياتك الظاهرة.

وللَّهِ في كُلِّ تَحْريكةٍ وتَسْكينةٍ أبدًا شاهِدُ
وفي كُلِّ شَيْءٍ لهُ آيةٌ تَدُلُّ على أنَّهُ واحِدُ

الحكمة في تقدير معصية آدم

ويكفي من هذا مثالٌ واحدٌ، وهو أنَّه لولا المعصيةُ مِن أبِي البشر ـ بأكْلِه مِن الشجرة ـ لما تَرَتَّب على ذلك ما تَرَتَّب من وجود هذه المحبوبات العِظام للرَّبِّ تعالى، مِن امتحان خَلْقِه وتكليفِهم، وإرسال رُسُلِه، وإنزالِ كُتُبِه، وإظهارِ آياته وعجائِبه، وتنويعها وتصريفها، وإكرام أوليائِه، وإهانةِ أعدائه، وظهورِ عَدْلِه وفضلِه، وعزَّتِه وانتقامِه، وعَفْوِه ومغفرتِه، وصَفْحِه وحِلْمِه، وظهورِ مَن يعبُدُه ويُحِبُّه ويقوم بِمَراضِيه بين أعدائِه في دار الابتلاءِ والامتحان.

فلو قَدَّر أنَّ آدَم لم يأكلْ من الشَّجرة، ولم يخرُج مِن الجنَّة هو ولا أولادُه لم يكن شيء من ذلك، ولا ظَهَرَ مِن القوَّة إلى الفعلِ ما كان كامِنًا في قلبِ إبليس يَعْلَمُه الله ولا تَعْلَمُه الملائكة، ولم يتميَّزْ خبيثُ الخَلْقِ من طَيِّبِه، ولم تَتِمَّ المَمْلَكة، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب، وعقوبةٌ وإهانة، ودارُ سعادةٍ وفضل، ودارُ شقاوةٍ وعدل.

وكم في تَسليطِ أوليائه على أعدائِه، وتسليطِ أعدائِه على أوليائِه، والجمْعِ بينهما في دارٍ واحدةٍ، وابتلاءِ بعضِهم ببعضٍ من حكمةٍ بالغة، ونعمةٍ سابِغة!

وكم في طَيِّها من حصولِ محبوبٍ للرَّبِّ، وحمدٍ له مِن أهلِ

سمَواته وأرضه، وخضوعٍ له وتَذَلُّلٍ، وتعبُّدٍ وخشية، وافتقار إليه، وانكسارٍ بين يديه أنْ لا يجعلهم من أعدائه، إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خِذْلان الله لهم، وإعراضَه عنهم، ومَقْتَه لهم، وما أعدَّ لهم من العذاب، وكلُّ ذلك بمشيئته وإذْنِه، وتَصرُّفِه في مملكته، فأولياؤه من خشية خِذْلانِه خاضعون مُشْفِقون، على أشَدِّ وَجَلٍ، وأعظمِ مخافةٍ، وأتَمِّ انكسارٍ.

وكذلك أولياؤه المُتَّقون، إذا شاهَدوا أحوال أعدائه ومَقْتَه لهم ـ وغضبَه عليهم، وخِذلانَه لهم ـ ازدادوا له خُضوعًا وذُلًّا، وافتقارًا وانكسارًا، وبه استعانةً، وإليه إنابةً، وعليه توكُّلًا، وفيه رغبةً، ومنه رهبةً، وعلِموا أنَّه لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنَّهم لا يُعِيذُهم من بأسه إلا هو، ولا يُنَجِّيهم مِن سخطه إلا مرضاته، فالفضلُ بيَدِه أوَّلًا وآخرًا.

وهذه قَطرةٌ من بحر حِكمتِه المُحيطِ بِخَلْقِه وأمره، والبصيرُ يطالعُ ببصيرته ما وراءه، فيطلعُه على عجائبَ مِن حِكمته، لا تبلغها العبارة، ولا تنالها الصِّفة.

وأمَّا حظُّ العبدِ في نفسه، وما يخصُّه مِن شُهودِ هذه الحِكمة فبحسَب استعدادِه وقوةِ بصيرتِه، وكمالِ عِلْمِه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبودية والرُّبوبيَّة، وكلُّ مؤمنٍ له مِن ذلك شِرْبٌ معلوم، ومقامٌ لا يتعدَّاه ولا يَتخَطَّاه، واللهُ الموفِّق والمُعين.

مشهد التوحيد

المشهد السادس: وهو أنْ يَشهد انفرادَ الرَّبِّ تعالى بالخَلْق والحُكْم، وأنَّه ما شاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكن، وأنَّه لا تتحرَّك ذَرَّةٌ إلا بإذنه، وأنَّ الخَلْق مَقهورون تحت قبضته، وأنَّه ما مِن قلْبٍ إلا وهو بين أصابعه، إن شاء أن يُقِيمَه أقامه، وإن شاء أن يُزيغَه أزاغَه، فالقلوبُ بيده، وهو مُقَلِّبُها ومُصَرِّفُها كيف شاء وكيف أراد، وأنَّه هو الذي آتى نفوسَ المؤمنين تَقْواها، وهو الذي هداها وزَكَّاها، وألهَمَ نفوس الفُجَّار فُجُورها وأشقاها، ومَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِل الله فلا هادي له، يهدي مَن يشاء بفضلِه ورحمتِه، ويُضِلُّ مَن يشاء بعدلِه وحِكمتِه،

وهذا فضلُه وقضاؤه، وما فضلُ الكريم بِمَمْنُون، وهذا عَدْلُه وقضاؤه، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «الإيمانُ بالقَدَر نظامُ التَّوحيد، فمَن كذَّبَ بالقَدَرِ نَقَضَ تكذيبُه توحيدَه، ومَن آمن بالقَدَرِ صَدَّق إيمانُه توحيدَه»[1].

علامة توحيد الإلٰهية في القلب

وفي هذا المشهد يتحقَّق للعبد مَقامُ «إيَّاكَ نَسْتَعِينُ» عِلمًا وحالًا، فيثبت قَدَمُ العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقَى منه صاعدًا إلى توحيد الإلٰهية، فإنَّه إذا تيقَّنَ أنَّ الضُّرَّ والنَّفع، والعطاء والمنع، والهُدى والضَّلال، والسَّعادةَ والشَّقاوة، كُلَّ ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنَّه الذي يُقَلِّب القلوب، ويُصرِّفُها كيف يشاء، وأنَّه لا موفَّقَ إلا مَن وفَّقه وأعانه، ولا مخذولَ إلا مَن خَذَله وأهانَه وتخلَّى عنه، وأنَّ أصحَّ القلوب وأسْلمَها وأقْومَها، وأرَقَّها وأصفاها، وأشدَّها وألْينَها مَن اتَّخذه وحْدَه إلٰهًا ومعبودًا، فكان أحَبَّ إليه مِن كلِّ ما سواه، وأخْوَفَ عنده مِن كُلِّ ما سواه، وأرْجَى له من كل ما سواه، فتتقدَّم مَحَبَّتُه في قلبه جميعَ المَحابِّ، فتنساق المَحابُّ تبعًا لها كما ينساق الجيش تبعًا للسلطان، ويتقدَّم خوفُه في قلبه جميعَ المخاوف، فتنساق المخاوِفُ كلُّها تبعًا لخوفه، ويتقدَّم رجاؤه في قلبه جميعَ الرَّجاء، فينساق كلُّ رجاءٍ له تبعًا لرَجائِه.

فهذا علامة توحيد الإلٰهيَّة في هذا القلب، والبابُ الذي دخل إليه منه توحيد الرُّبوبِيَّة، فإنَّ أوَّل ما يتعلَّق القلبُ يتعلَّق بتوحيدِ الرُّبوبِيَّة، ثم يرتَقي إلى توحيد الإلٰهيَّة، كما يدعو الله سبحانه عبادَه في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخَر، ويحتجُّ عليهم به، ويُقرِّرُهم به، ثم يُخْبِرُ أنَّهم ينقضونه بشِرْكِهم به في الإلٰهيَّة.

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة» (١٢٢٤)، والآجُرِّي في «الشريعة» (٤٥٦)، وضعَّفه الألباني، يُنظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٣٠٥).

وفي هذا المشهد يتحقَّق له مقامُ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزخرف: ٨٧]؛ أي: فمِن أين يُصْرَفون عن شهادة أنْ لا إلٰه إلا الله، وعن عبادته وحْدَه، وهم يشهدون أنَّه لا رَبَّ غيره، ولا خالقَ سواه. وكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥]، فيعلمون أنَّه إذا كان وحْدَه مالكَ الأرض ومَن فيها، وخالِقَهم ورَبَّهُم ومَلِيكَهم، فهو وحدَه إلٰهُهم ومعبودهم، فكما لا رَبَّ لهم غيرُه، فهكذا لا إلٰه لهم سواه.

والمقصود: أنَّ العبدَ يحصُل له هذا المشهدُ مِن مُطالَعةِ الجِنايات والذنوب، وجَرَيانِها عليه وعلى الخَليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنَّه لا عاصم مِن غَضَبِه وأسباب سَخَطِه إلا هو، ولا سبيل إلى طاعته إلا بِمَعُونتِه، ولا وصولَ إلى مَرْضاته إلا بتوفيقه، فموارِدُ الأمور كلُّها منه، ومصادِرُها إليه، وأزِمَّة التوفيق جميعُها بيده، فلا مُستَعان للعِباد إلا به، ولا مُتَّكَل إلا عليه، قال تعالى عن شُعَيْب خطيب الأنبياء: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨].

مشهد التوفيق والخذلان

المشهد السابع: مشهدُ التوفيقِ والخِذلان، وقد أجمعَ العارِفون بالله أنَّ التوفيق هو ألَّا يَكِلَك الله إلى نفسك، والخِذلان أنْ يُخَلِّي بيْنك وبينها؛ فالعبيد مُتقلِّبون بين توفيقه وخِذلانه، بل العبد في السَّاعة الواحدة ينال نصيبَه من هذا وهذا، فيُطيعُه ويُرضيه ويَذكُره ويشكره بتوفيقه له، ثم يَعصيه ويخالفه ويُسْخِطُه ويغفُلُ عنه بخِذلانه له، فهو دائِرٌ بين توفيقه وخِذلانه، فإنْ وَفَّقَه فبفضله ورحمته، وإنْ خَذَله فبِعدلِه وحِكمته، وهو المحمود على هذا وهذا، له أتَمُّ حمدٍ وأكملُه، ولم يَمنع العبدَ شيئًا هو له، وإنَّما منعه ما هو مجرَّدُ فضلِه وعطائه، وهو أعلمُ حيث يضعه وأين يجعله.

فمتى شهِد العبدُ هذا المشهدَ وأعطاه حقَّه عَلِم ضرورتَه وفاقتَه إلى التوفيق في كل نفَس، وكلِّ لحظةٍ وطرْفةِ عين، وأنَّ إيمانه وتوحيده بِيَدِ

غيره، لو تَخلَّى عنه طرفةَ عينٍ لثُلَّ عرشُه، ولَخَرَّت سماءُ إيمانِه على الأرض، وأنَّ المُمْسِك له مَن يُمسِك السماءَ أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فهِجِّيرَى قلبِه ودأبُ لسانه: «يا مُقلِّبَ القُلوبِ، ثَبِّتْ قَلْبي على دِينِكَ»، و«يا مُصَرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ قَلْبي على طاعَتِكَ». ودعواه: «يا حَيُّ يا قَيُّومُ، يا بَديعَ السَّمَواتِ والأرضِ، يا ذا الجَلالِ والإكرام، لا إلٰهَ إلَّا أنتَ، برَحمتِكَ أستَغيثُ، أصْلِحْ لي شأْني كُلَّه، ولا تَكِلْني إلَى نَفْسي طَرْفةَ عَيْنٍ، ولا إلى أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ».

ففي هذا المشهَد يَشهدُ توفيقَ الله وخِذلانَه، كما يشهدُ رُبوبِيَّتَه وخَلْقَه، فيسألُه توفيقَه مسألةَ المُضْطَرِّ، ويعوذ به من خِذلانه عِياذَ الملهوف، ويُلْقي نفْسَه بين يديه، طريحًا ببابه، مُستسلِمًا له، ناكسَ الرأس بين يديه، خاضعًا ذليلًا مُستكينًا، لا يملك لنفسِه ضَرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نُشورًا.

من صور توفيق الله للعبد

والتوفيق إرادة الله من نفسِه أنْ يفعلَ بعبدِه ما يَصْلُح به العبد، بأن يجعله قادرًا على فِعل ما يُرضيه، مُريدًا له، مُحِبًّا له، مؤْثِرًا له على غيره، ويُبَغِّض إليه ما يُسخِطُه، ويُكَرِّهه إليه، وهذا مُجرَّد فعله، والعبد مَحلٌّ له، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨]. فهو سبحانه عليم بِمَن يَصلُح لهذا الفضل ومَن لا يَصلح له، حكيمٌ يَضَعُه في مواضِعه وعندَ أهلِه، لا يمنعه أهلَه، ولا يَضعُه عندَ غيرِ أهلِه، وذَكَرَ هذا عَقِيبَ قولِه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات: ٧].

يقول سبحانه: لم تكن محبَّتُكم للإيمان وإرادته، وتزيينِه في قلوبكم منكم، ولكنَّ الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثَرْتُموه ورَضِيتُموه، فكذلك لا تُقدِّموا بين يَدَيِ الله ورسوله، ولا تقولوا حتى

يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر، فالذي حَبَّبَ إليكم الإيمان أعلَمُ بمصالحِ عباده وما يُصْلِحُهم منكم، وأنتم فلولا توفيقُه لكم لما أذعَنَتْ نفوسُكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بِمَشورتِكم وتوفيقِ أنفسِكم، ولا تقدَّمْتُم به إليها، فنفوسُكم تَقْصُر وتَعجَزُ عن ذلك ولا تبلُغه، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشَقَّ عليكم ذلك، ولَهَلَكْتُم وفسدَتْ مصالحُكم وأنتم لا تشعرون، ولا تَظُنُّوا أنَّ نفوسَكم تريدُ بكم الرُّشْدَ والصَّلاحَ كما أردتُم الإيمانَ، فلولا أنِّي حبَّبْتُه إليكم وزيَّنْتُه في قلوبكم، وكَرَّهتُ إليكم ضِدَّه لَمَا وقع منكم، ولا سمَحتْ به نفوسُكم.

مثل للتوفيق والخذلان

وقد ضُرِب للتوفيق والخِذلانِ مَثَل: مَلِك أرسلَ إلى أهلِ بلدةٍ مِن بلادِه رسولًا، وكتبَ معه كتابًا يُعْلِمُهم أنَّ العدوَّ مُصَبِّحُهم عن قريب ومُجْتاحُهم، ومُخَرِّب البلد، ومُهْلِك مَن فيها، وأرسل إليهم أموالًا ومراكبَ وزادًا وعُدَّةً وأدِلَّةً، وقال: ارتحِلُوا إليَّ مع هؤلاء الأدِلَّة، وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه، ثم قال لجماعة من مماليكه: اذهبوا إلى فلان، فخُذوا بيده واحْمِلوه، ولا تَذَروه يَقعُد، واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان، وذَرُوا مَن عَداهُم؛ فإنَّهم لا يَصلُحون أنْ يُساكِنُوني في بلدي، فذهب خَواصُّ الملِك إلى مَن أُمِروا بِحَمْلِهم، فلم يتركوهم يَقِرُّون، بل حَمَلُوهم حَمْلًا، وساقُوهم سَوْقًا إلى الملك، فاجْتاحَ العدوُّ مَن بَقِي في المدينة وقتَلهم، وأسَرَ مَن أسَرَ.

فهل يُعَدُّ الملكُ ظالمًا لهؤلاء، أم عادلًا فيهم؟ نعم، خَصَّ أولئك بإحسانِه وعنايتِه، وحَرَمها مَن عَداهم؛ إذْ لا تجب عليه التَّسويةُ بينهم في فضله وإكرامه، بل ذلك فضْلُه وإكرامُه يؤْتيه مَن يشاء.

مشهد الأسماء والصفات

المشهد الثامن: **مشهد الأسماء والصِّفات**، وهو مِن أجَلِّ المشاهد، وهو أعلى مما قبْلَه وأوسع.

والمُطْلِع على هذا المشهد: معرفة تَعَلُّق الوجود خَلْقًا وأمرًا بالأسماء الحسنى، والصفات العُلَى، وارتباطِه بها، وأنَّ العالم بما فيه مِن بعض آثارها ومقتضاها.

وهذا من أجَلِّ المعارف وأشرفِها، وكلُّ اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة، فإنَّ أسماءه الحسنى أوصافُ مدحٍ وكمال، وكلُّ صفةٍ لها مقتضًى وفِعلٌ؛ إما لازمٌ، وإما مُتعَدٍّ، ولذلك الفعلِ تعلُّقٌ بمفعول هو مِن لَوازِمه، وهذا في خَلْقِه وأمْرِه، وثوابِه وعِقابِه، كلُّ ذلك آثارُ الأسماء الحسنى ومُوجِباتها.

ومن المُحال تعطيلُ أسمائِه عن أوصافِها ومعانِيها، وتعطيلُ الأوصافِ عما تَقتضيه وتَستدعيه مِن الأفعال، وتعطيلُ الأفعالِ عن المفعولاتِ، كما أنَّه يستحيلُ تعطيلُ مفعولِه عن أفعالِه، وأفعالِه عن صفاتِه، وصفاتِه عن أسمائِه، وتعطيلُ أسمائه وأوصافه عن ذاتِه.

وإذا كانت أوصافُه صفاتِ كمالٍ، وأفعالُه حِكَمًا ومصالحَ، وأسماؤه حُسنى، ففَرْضُ تعطيلِها عن موجَباتها مستحيلٌ في حقِّه، ولهذا ينكِرُ سبحانه على مَن عطَّلَه عن أمْرِه ونَهْيِه، وثوابِه وعقابِه، وأنَّه نَسَبَه إلى ما لا يليقُ به، بل تَنَزَّه عنه، وأنَّ ذلك حُكْمٌ سيِّئ ممن حَكَم به عليه، وأنَّ مَن نَسَبَه إلى ذلك فما قَدَّرَه حقَّ قدرِه، ولا عظَّمَه حقَّ تعظيمِه، كما قال تعالى في حقِّ مُنْكري النُّبوَّات وإرسال الرُّسل، وإنزال الكتب، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال في مُنكري المَعاد والثواب والعقاب: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال في حقِّ مَن جَوَّز عليه التَّسوية بين المختلِفينَ، كالأبرار والفُجَّار، والمؤمنين والكُفَّار: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، فأخبر أنَّ حُكْمَ شيء لا يَليق به تأْباه أسماؤه وصفاتُه، وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦] عن هذا الظن والحُسْبَان الذي تأبَاه أسماؤه وصفاتُه.

ونظائرُ هذا في القرآن كثيرٌ، يَنفي عن نفسِه خلافَ موجَبِ أسمائه وصفاتِه؛ إذ ذلك مُستلزِمٌ تعطيلَها عن كمالها ومُقتَضاها.

اقتضاء أسماء الله لآثارها وموجباتها

فاسمُه «الحميد، المجيد» يمنع تَرْكَ الإنسانِ سُدًى مُهمَلًا مُعطَّلًا، لا يؤْمَر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يُعاقَب، وكذلك اسمه (الحكيم) يأبى ذلك، وكذلك اسمُه (الملِك)، واسمه (الحيُّ) يمنع أن يكون مُعطَّلًا عن الفعلِ، بل حقيقةُ (الحياة) الفعلُ، فكل حَيٍّ فَعَّال، وكوْنُه سبحانه (خالقًا قَيُّومًا) من مُوجبات حياته ومقتضاها، واسمه (السميع البصير) يوجِب مسموعًا ومَرْئيًّا، واسمه (الخالق) يقتضي مخلوقًا، وكذا (الرازق)، واسم (الملك) يقتضي مملكةً وتَصرُّفًا وتدبيرًا، وإعطاءً ومنعًا، وإحسانًا وعدلًا، وثوابًا وعقابًا، واسم (البَرّ المُحسِن، والمعطي المَنَّان) ونحوها تقتضي آثارَها ومُوجِباتِها.

إذا عُرِفَ هذا فمِن أسمائِه سبحانه (الغفَّار، التَّوَّاب، العفُوُّ) فلا بد لهذه الأسماء من مُتَعلَّقات، ولا بد من جِناية تُغفَر، وتوبةٍ تُقبَل، وجرائمَ يُعفَى عنها، ولا بد لاسمه (الحليم) من مُتعلَّق يظهر فيه حِلْمُه؛ إذ اقتضاءُ هذه الأسماء لآثارِها كاقتضاء اسم (الخالق، الرازق، المُعطي، المانع) للمخلوق والمرزوق والمُعطَى والممنوع، وهذه الأسماءُ كلُّها حُسنى.

والرَّبُّ تعالى يحبُّ ذاتَه وأوصافَه وأسماءَه، فهو عَفُوٌّ يحب العفْوَ، ويحبُّ المغفرة، ويحبُّ التَّوبة، ويفرحُ بتوبةِ عبدِه حين يتوب إليه أعظمَ فَرَحٍ يَخْطُرُ بالبالِ.

فكان تقديرُ ما يغفرُه ويعفُو عن فاعله، ويَحْلُمُ عنه، ويتوب عليه ويسامِحُه من موجَبِ أسمائِه وصفاته، وحصولِ ما يُحِبُّه ويرضاه من ذلك، وما يَحمَدُ به نفسَه ويَحمَدُه به أهلُ سمواتِه وأهل أرضِه ما هو من مُوجبات كماله ومقتضى حَمْدِه.

وهو سبحانه الحميدُ المجيد، وحَمْدُه ومَجْدُه يقتضيانِ آثارَهما.

ومِن آثارهما مغفرةُ الزَّلَّات، وإقالةُ العَثَرات، والعَفْو عن

السيئات، والمسامحة على الجِنايات، مع كمال القدرة على استيفاء الحقِّ، والعِلْم منه سبحانه بالجناية ومقدارِ عقوبتها، فحِلْمُه بعد عِلْمِه، وعَفْوُه بعد قدرتِه، ومغفرتُه عن كمال عِزَّتِه وحِكمته، كما قال المسيح صلّى الله على نبيّنا وعليه وسلم: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]؛ أي: فمغفرتُك عن كمالِ قدرتِك وحِكْمتِك، لستَ كمَنْ يغفر عَجْزًا، ويسامحُ جَهْلًا بِقَدْرِ الحق، بل أنت عليمٌ بِحقِّك، قادرٌ على استيفائِه، حكيم في الأخذ به.

أكمل الناس عبودية

فمَن تأمَّل سَرَيانَ آثارِ الأسماءِ والصِّفاتِ في العالَم، وفي الأمر، تَبيَّنَ له أنَّ مصدر قضاءِ هذه الجِناياتِ مِن العبيد وتقديرها هو مِن كمال الأسماء والصِّفات والأفعال، وغاياتُها أيضًا: مقتضى حَمْدِه ومَجْدِه، كما هو مقتضى رُبوبيَّتِه وإلٰهيَّته.

فله في كل ما قضى وقدَّره الحكمةُ البالغة، والآياتُ الباهرة، والتعرُّف إلى عبادِه بأسمائه وصفاته، واستدعاءُ محبَّتِهم له، وذِكْرِهم له، وشكرهم له، وتعبُّدِهم له بأسمائه الحسنى؛ إذ كلُّ اسم فله تعبُّدٌ مُختَصٌّ به، عِلْمًا ومعرفةً وحالًا، وأكملُ الناسِ عبوديَّةً: المتعبِّدُ بجميع الأسماء والصفات التي يطَّلِع عليها البشر، فلا تَحجُبُه عبوديةُ اسمٍ عن عبوديَّة اسمٍ آخَرَ، كمَنْ يحجُبُه التعبُّد باسمه (القدير) عن التعبُّد باسمه (الحليم الرحيم)، أو تحجبه عبوديَّة اسمه (المعطِي) عن عبوديَّة اسمه (المانع)، أو عبوديَّة اسمه (الرحيم والعفُوّ والغفور) عن اسمه (المنتقِم)، أو التعبُّد بأسماء (التودُّد، والبِرِّ، واللُّطف، والإحسان) عن أسماء (العدل، والجبروت، والكبرياء، والعظمة) ونحو ذلك.

وهذه طريقةُ الكُمَّلِ من السَّائرينَ إلى الله تعالى، وهي طريقةٌ مشتقَّةٌ من قلبِ القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدُّعاء بها يتناوَلُ دعاءَ المسألة، ودعاءَ الثَّناء، ودعاءَ التعبُّد، وهو سبحانه يدعو عبادَه إلى أنْ يعرفُوه بأسمائه وصفاتِه، ويُثْنُوا عليه بها، ويأخُذوا بِحَظِّهم من عبوديَّتِها.

وهو سبحانه يحب مُوجَبَ أسمائه وصفاتِه، فهو (عليم) يحبُّ كلَّ عليم، (جَوَاد) يحبُّ كلَّ جَواد، (وِتْرٌ) يحب الوِتْر، (جميل) يحبُّ الجمال، (عَفُوٌّ) يحب العَفْو وأهلَه، (حَيِيٌّ) يحب الحياء وأهلَه، (بَرٌّ) يحب الأبرار، (شَكُور) يحب الشاكرين، (صَبُور) يحبُّ الصابِرينَ، (حليم) يحبُّ أهلَ الحِلْم، فلِمحبَّتِه سبحانه للتَّوبة والمغفرة، والعفوِ والصَّفْحِ: خَلَقَ مَن يغفرُ له، ويتوبُ عليه، ويعفو عنه، وقَدَّر عليه ما يقتضي وقوعَ المكروه والمَبْغُوض له؛ ليترتَّب عليه المحبوبُ له المَرْضِيُّ له، فتوسُّطه كتوسُّط الأسباب المكروهة المُفْضِية إلى المحبوب.

وهذا المشهد أجَلُّ مِن أنْ يحيطَ به كتاب، أو يستوعِبَه خِطاب، وإنَّما أشرنا منه إلى أدنى إشارة، تُطْلِع على ما وراءها، واللهُ الموفِّق المُعِين.

مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده

المشهد التاسع: **مشهد زيادة الإيمان وتعدُّد شواهِده**، وهذا مِن ألطفِ المشاهد، وأخَصِّها بأهلِ المعرفة، ولعلَّ سامعه يبادِر إلى إنكاره، ويقول: كيف تشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصي؟ ولا سيَّما من ذُنُوبِ العبدِ ومعاصيه، وهل ذلك إلا مُنْقِصٌ الإيمانَ، فإنَّه بإجماع السَّلف: يَزِيدُ بالطاعة، ويَنقُصُ بالمعصية.

فاعلمْ أنَّ هذا حاصِلٌ مِن التِفاتِ العارِف إلى الذُّنُوب والمعاصي منه ومِن غيرِه، وإلى تَرَتُّب آثارِها عليها، وتَرَتُّبُ هذه الآثارِ عليها عَلَمٌ مِن أعلام النُّبُوَّة، وبُرهانٌ مِن براهينِ صِدْقِ الرُّسُل، وصِحَّة ما جاؤُوا به؛ فإنَّ الرُّسُل ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ أمَروا العِبادَ بما فيه صلاحُ ظواهِرِهم وبواطِنِهم، في معاشِهم ومَعادِهم، ونَهَوْهُم عما فيه فساد ظواهِرهم وبواطِنِهم في المَعاش والمَعاد، وأخبَروهم عن الله سبحانه أنَّه يُحِبُّ كذا وكذا، ويُثِيب عليه بكذا وكذا، وأنَّه يُبغِض كَيْتَ وكَيْتَ، ويُعاقب عليه بِكَيْتَ وكَيْتَ، وأنَّه إذا أُطِيعَ بما أمر به شَكَرَ عليه بالإمداد والزيادة، والنِّعَم، في القلوب والأبدان والأموال، ووَجَدَ العبد زيادتَه وقُوَّتَه في حاله كلها، وأنَّه إذا خُولِفَ أمْرُه ونهيُه ترتَّبَ عليه من

النقص، والفساد، والضَّعف، والذُّلِّ والمهانة، والحقارَة، وضِيقِ العَيش، وتَنَكُّدِ الحياة ما تَرتَّب، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ [هود: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، وفُسِّرَتِ المعيشةُ الضَّنْكُ بعذاب القبر، والصحيح أنها في الدنيا، وفي البَرْزَخ، فإنَّ مَن أعرَضَ عن ذِكْرِه الذي أنزله فله مِن ضِيق الصَّدر، ونَكَدِ العَيْش ـ وكثرة الخوفِ، وشِدَّة الحرص والتَّعب على الدنيا، والتَّحَسُّر على فَواتِها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك ـ ما لا يشعر به القلب؛ لسَكْرَتِه، وانغماسه في المُسْكِر، فهو لا يَصحو ساعةً إلا شَعر بهذا الألم، فبادَرَ إلى إزالته بِسُكْرٍ ثانٍ، فهو هكذا مُدَّةَ حياتِه، وأيُّ عيشة أضْيَقُ من هذه لو كان للقلب شعور؟!

فقلوب أهل البِدَع، والمُعرِضِينَ عن القرآن، وأهلِ الغفلة عن الله، وأهلِ المعاصي، في جَحيمٍ قبلَ الجحيم الأكبر، وقلوبُ الأبرار في نعيمٍ قبل النَّعيم الأكبر، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤]، هذا في دُورِهم الثلاث، ليس مُختَصًّا بالدَّار الآخِرة، وإن كان تمامُه وكماله وظهورُه لهما إنَّما هو في الدَّار الآخِرة، وفي البَرْزَخ دون ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

وفي هذه الدَّارِ دُونَ ما في البَرْزَخ، ولكن يَمنعُ من الإحساس به الاستِغراقُ في سَكْرة الشَّهَوات، وطَرْحُ ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

والعبدُ قد يصيبه ألمٌ حِسِّيٌّ فيطرحه عن قلبه، ويقطعُ التفاتَه عنه، ويجعل إقبالَه على غيره، لئلَّا يَشعُرَ به جملةً، فلو زال عنه ذلك الالتفاتُ لصاح من شِدَّة الألم، فما الظَّنُّ بعذابِ القلوب وآلامِها؟!

آثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطَّاعاتِ آثارًا محبوبةً لذيذة طَيِّبةً، لَذَّتُها فوق لَذَّة المعصيةِ بأضعافٍ مُضاعَفةٍ، لا نسبةَ لها إليها، وجعل للسَّيِّئات والمعاصي آلامًا وآثارًا مكروهة، وحَزازاتٍ تُرْبِي على لذَّة تناوُلِها بأضعافٍ مضاعَفة، قال ابنُ عباسٍ ﵄: «إنَّ للحسنةِ نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوَّةً في البدن، وزيادةً في الرِّزق، ومَحَبَّةً في قلوب الخَلْق. وإنَّ للسَّيِّئةِ سَوادًا في الوجه، وظُلمةً في القلب، ووهَنًا في البدن، ونَقصًا في الرِّزق، وبِغضةً في قلوب الخَلْقِ»، وهذا يَعرِفُه صاحبُ البصيرة، ويَشهَدُه مِن نفسِه ومِن غيرِه.

فما حصلَ للعبدِ حالٌ مكروهةٌ قطُّ إلا بذنبٍ، وما يعفُو الله عنه أكثرُ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخِيارِ خَلْقِه وأصحابِ نبيِّه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيِّئةِ هنا: النِّعَمُ والمصائبُ التي تصيب العبدَ مِن الله، ولهذا قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَۖ﴾ ولم يقل: (ما أصَبْتَ)!

فكلُّ نَقص وبلاءٍ وشرٍّ في الدُّنيا والآخِرة فبسببِ الذُّنوبِ، ومخالَفةِ أوامِرِ الرَّبِّ تعالى، فليس في العالَم شَرٌّ قَطُّ إلا الذُّنوب وموجباتُها.

وآثار الحسناتِ والسَّيِّئاتِ في القلوبِ والأبدانِ والأموال أمرٌ مشهود في العالَم، لا ينكرُه ذو عقلٍ سليم، بل يَعرِفُه المؤمنُ والكافر، والبَرُّ والفاجر.

وشهودُ العبدِ هذا في نفسِه وفي غيرِه، وتأمُّلُه ومطالعتُه، مما يقوِّي إيمانَه بما جاءت به الرُّسُل، وبالثَّواب والعِقاب، فإنَّ هذا عدلٌ مشهودٌ محسوسٌ في هذا العالَم، ومَثُوباتٌ وعُقوباتٌ عاجلة، دالَّة على ما هو أعظمُ منها لمن كانت له بصيرةٌ، كما قال لي بعضُ النَّاسِ: إذا صَدَرَ مني ذَنبٌ ولم أبادِره، ولم أتدارَكْه بالتَّوْبة انتظرتُ أثرَه السيِّئ، فإذا أصابَني ـ أو فوقَه أو دونَه ـ كما حسبتُ، يكون هِجِّيرايَ: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسولُ الله، ويكون ذلك مِن شواهدِ الإيمان وأدلَّتِه، فإنَّ الصادق متى أخبرك أنَّك إذا فعلتَ كذا وكذا ترتَّب عليه مِن المكروه كذا وكذا، فجعلتَ كلَّما فعلتَ شيئًا من ذلك حصل لك ما قال مِن المكروه، لم تَزْدَدْ إلا عِلْمًا بصدقه وبصيرةً فيه، وليس هذا لكلِّ أحد، بل أكثر الناس تَرِينُ الذنوبُ على قلْبِه، فلا يشهدُ شيئًا مِن ذلك، ولا يشعرُ به البتَّةَ.

وإنَّما يكون هذا القلبُ فيه نورُ الإيمان، وأهْوِيةُ الذُّنوب والمعاصي تَعصِفُ فيه، فهو يشاهِد هذا وهذا، ويرى حال مِصباح إيمانه مع قوَّة تلك الأهْويةِ والرِّياح، فيرى نفسه كراكِبِ البحرِ عند هَيَجانِ الرِّياح، وتقلُّبِ السفينةِ وتَكَفُّئِها، ولا سيَّما إذا انكسرتْ به، وبَقِيَ على لَوحٍ تلعب به الرِّياح، فهكذا المؤمنُ يشاهدُ نفسَه عند ارتكابِ الذُّنوب، إذا أُرِيدَ به الخيرُ، وإنْ أريدَ به غيرُ ذلك فقلبُه في وادٍ آخر.

ومتى انفتَحَ هذا البابُ للعبد انتفع بمطالَعةِ تاريخِ العالَم، وأحوالِ الأُمَم، ومُجْرَيات الخَلْق، بل انتفع بمُجريات أهلِ زمانِه وما يشاهِدُه من أحوال النَّاس.

الذنوب مثل السموم

فالذُّنوب مثل السُّموم مُضِرَّةٌ بالذَّات، فإنْ تدارَكها مِن سَقْيٍ بالأدوية المقاوِمةِ لها، وإلا قَهَرَت القُوَّةَ الإيمانيَّة، وكان الهلاكُ، كما قال بعض السَّلَف: «المعاصي بَرِيدُ الكُفْر، كما أنَّ الحُمَّى بَريدُ الموت».

فشهودُ العبدِ نقْصَ حالِه إذا عصى رَبَّه وتغيُّرَ القلوبِ عليه، وجُفولَها منه، وانسدادَ الأبوابِ في وجهه، وتَوعُّرَ المسالكِ عليه، وهَوانَه على أهلِ بيتِه وأولادِه وزوجتِه وإخوانِه، وتَطَلُّبُه سببَ ذلك حتى يعلَمَ من أين أُتِي، ووقوعُه على السبب الموجِب لذلك ـ مما يقوِّي إيمانَه، فإنْ أقلع وباشَرَ الأسبابَ التي تُفضي به إلى ضدِّ هذه الحال، ورأى العِزَّ بعد الذُّلِّ، والغِنى بعد الفقر، والسُّرورَ بعد الحزن، والأمنَ بعد الخوف، والقوَّةَ في قلبِه بعد ضَعفِه ووَهَنِه؛ ازدادَ إيمانًا مع إيمانه، فتَقْوى شواهدُ الإيمانِ في قلبِه، وبراهينُه وأدلَّتُه في حال معصيتِه وطاعتِه، فهذا مِن الذينَ قال اللهُ فيهم: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾ [الزمر: ٣٥].

وصاحبُ هذا المشهدِ متى تبصَّرَ فيه، وأعطاه حقَّه، صار مِن أطبَّاء القلوبِ العالِمينَ بدائِها ودَوائِها، فنفعه الله في نفْسِه، ونفع به مَن شاء مِن خَلْقِه.

مشهد الرحمة

المشهد العاشر: مشهد الرحمة؛ فإنَّ العبدَ إذا وقع في الذَّنب خرج مِن قلبِه تلك الغِلظةُ والقسوة، والكيفيَّةُ الغَضَبِيَّةُ التي كانت عنده لمن صَدَرَ منه ذَنْبٌ، حتى لو قَدَرَ عليه لأهلكه، وربَّما دعا اللهَ عليه أنْ يُهلِكَه ويأخذَه، غضبًا منه لله، وحِرصًا على أنْ لا يُعْصى، فلا يجدُ في قلبِه رحمةً للمُذنبينَ الخطّائينَ، ولا يراهم إلا بِعَيْنِ الاحتِقارِ والازدِراءِ، ولا يَذْكُرُهم إلا بلسان الطَّعْنِ فيهم، والعَيْبِ لهم والذَّمِّ، فإذا جَرَتْ عليه المقاديرُ وخُلِّي ونفسَه استغاثَ باللهِ والتَجأ إليه، وتَمَلْمَلَ بين يديه تَمَلْمُلَ السَّلِيم، ودعاه دُعاءَ المُضْطَرِّ، فتَبَدَّلَت تلك الغِلظةُ على المذنِبينَ رِقَّةً، وتلك القَساوةُ على الخَطَّائِينَ رحمةً ولِينًا، مع قيامِه بحدودِ الله، وتبدَّلَ دُعاؤُه عليهم دُعاءً لهم، وجَعَل لهم وظيفةً من عُمُره، يسألُ اللهَ فيها أنْ يغفرَ لهم، فما أنفعَه له مِن مشهد! وما أعظمَ جَدْواه عليه!

مشهد العجز والضعف

فيُورِثُه ذلك: المشهد الحادي عشر، **وهو مشهد العجز والضعف**، وأنَّه أعجَزُ شيء عن حِفْظ نفسه وأضعفُ، وأنَّه لا قوَّة له ولا قدرة ولا حولَ إلا بربِّه، فيشهد قلبَه كريشة مُلْقاةٍ بأرضِ فَلاةٍ تُسيِّرُها الرياح يمينًا وشمالًا، ويشهد نفسَه كراكبِ سفينةٍ في البحر تَهِيجُ بها الرياح، وتتلاعب بها الأمواج، ترفعها تارة، وتَخفِضُها أخرى، تجري عليه أحكامُ القَدَر، وهو كالآلة طَرِيحًا بين يديْ وليِّه، مُلْقًى ببابه، واضعًا خدَّه على ثَرى أعتابه، لا يَملكُ لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نُشورًا، ليس له مِن نفسه إلا الجهلُ والظُّلم، وآثارُهما ومقتضياتُهما، فالهلاكُ أدنى إليه مِن شِراك نَعلِه، كشاةٍ مُلْقاةٍ بين الذِّئاب والسِّباع، لا يَرُدُّهم عنها إلا الرَّاعي، فلو تخلَّى عنها طرْفةَ عينٍ لتقاسموها أعضاءً.

وهكذا حالُ العبدِ مُلْقًى بين الله وبين أعدائِه؛ مِن شياطينِ الإنسِ والجنِّ، فإنْ حَماهُ منهم وكفَّهم عنه لم يَجدوا إليه سبيلًا، وإن تخلَّى عنه، ووَكَلَه إلى نفسه طرفةَ عينٍ لم يَنقَسِم عليهم، بل هو نصيبُ مَن ظَفِر به منهم.

وفي هذا المشهدِ يَعرِفُ نفسَه حقًّا، ويعرِف ربَّه، وهذا أحد التَّأويلاتِ للكلامِ المشهور: «مَن عَرَف نفْسَه، عرَف ربَّه»، وفيه **ثلاثُ تأويلات**:

أحدها: أنَّ مَن عرَف نفسَه بالضَّعف عرَف ربَّه بالقوَّة، ومَن عرَفها بالعجزِ عرَف ربَّه بالقُدرة، ومن عرفها بالذُّلِّ عرف ربه بالعِزِّ، ومن عرفها بالجهلِ عرف ربه بالعلم، فإنَّ الله سبحانه استأثَر بالكمال المطلَق، والحمدِ والثَّناء، والمجدِ والغِنى، والعبدُ فقيرٌ ناقصٌ مُحتاج، وكلَّما ازدادتْ معرفةُ العبد بنقصِه وعَيبِه وفَقرِه وذُلِّه وضَعفِه ازدادَتْ معرفتُه لربِّه بأوصاف كمالِه.

التأويل الثاني: أنَّ مَن نظر إلى نفسِه وما فيها ـ من الصِّفات الممدوحة من القوَّة والإرادة والكلامِ والمَشِيئة والحياة ـ عرَف أنَّ مَن

أعطاه ذلك وخلَقه فيه أوْلى به، فمُعطي الكمالِ أحقُّ بالكمال، فكيف يكون العبدُ حيًّا متكلِّمًا سميعًا بصيرًا مُريدًا عالِمًا، يفعلُ باختيارِه، ومَن خلقه وأوجَده لا يكون أوْلى بذلك منه؟! فهذا من أعظم المُحال، بل مَن جَعَل العبدَ متكلِّمًا أوْلى أن يكون هو مُتكلِّمًا، ومَن جعله حَيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا فاعلًا قادرًا أوْلى أن يكونَ كذلك.

فالتأويل الأوَّل من باب الضِّدِّ، وهذا من باب الأوْلَويَّة.

والتأويل الثالث: أنَّ هذا مِن بابِ النَّفي؛ أيْ: كما أنَّك لا تعرِف نفسَك التي هي أقربُ الأشياءِ إليك، فلا تعرِفُ حقيقتَها، ولا ماهِيَّتَها ولا كيفيَّتَها، فكيف تعرفُ حقيقةَ ربِّكَ وكيفيَّةَ صِفاتِه؟!

والمقصود: أنَّ في هذا المشهدِ يَعرِفُ العبدُ أنَّه عاجزٌ ضعيف، فتزولُ عنه رُعوناتُ الدَّعاوَى، والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنَّه ليس له مِن الأمرِ شيء، وليس بيده شيء، إنْ هو إلَّا مَحْضُ الفقرِ والعجزِ والضَّعف.

مشهد الذل والانكسار والافتقار للرب

فحينئذ يطلع منه **على المشهد الثاني عشر، وهو مشهد الذُّلِّ، والانكسار، والخضوع، والافتقارِ للرَّبِّ** ﷻ، فيشهد في كل ذَرَّةٍ من ذرَّاتِه الباطنة والظَّاهرة ضرورةً تامَّةً، وافتقارًا تامًّا إلى ربِّه وَلِيِّه، ومَن بيده صلاحُه وفلاحه، وهُداه وسعادتُه، وهذه الحال التي تحصُل لقلبِه لا تَنالُ العبارةُ حقيقتَها، وإنَّما تدرَك بالحصول، فيحصُل لقلبِه كَسْرةٌ خاصَّة لا يُشْبِهُها شيء، بحيث يرى نفسه كالإناء المَرْضُوض تحت الأرجُل، الذي لا شيء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يُرغَب في مثله، وأنه لا يصلُح للانتفاع إلا بِجَبرٍ جديدٍ مِن صانِعه وقَيِّمِه، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما مَنَّ رَبُّه إليه مِن الخيرِ، ويرى أنه لا يَستحِقُّ منه قليلًا ولا كثيرًا، فأيُّ خيرٍ نالَه من الله تعالى استكثرَه على نفسه، وعلِم أنَّ قَدْرَه دُونَه، وأنَّ رحمةَ ربِّه اقتضت ذِكْرَه به، وسياقتَه إليه، واستَقَلَّ ما مِن نفسه مِن الطاعات لرَبِّه، ورآها ـ ولو ساوَتْ طاعاتِ الثَّقلَيْنِ ـ مِن أقلِّ ما ينبغي لربِّه عليه، واستكثر قليلَ معاصيه وذنوبِه، فإنَّ الكَسْرة التي حصلت لقلبه أوجبَتْ له هذا كلَّه.

فما أقرب الجَبرَ مِن هذا القلبِ المكسورِ! وما أدنى النَّصرَ والرحمة والرِّزقَ منه! وما أنفعَ هذا المشهدَ له وأجْداه عليه! وذَرَّةٌ مِن هذا ونَفَسٌ منه أحبُّ إلى الله من طاعاتٍ أمثال الجبال من المُدِلِّينَ المُعجَبِينَ بأعمالهم وعلومِهم وأحوالهم، وأحبُّ القلوب إلى الله سبحانه قلبٌ قد تمكَّنت منه هذه الكَسْرة، ومَلَكَتْه هذه الذِّلَّة، فهو ناكِسُ الرأس بين يديْ ربِّه، لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلًا من الله تعالى.

قيل لبعضِ العارِفينَ: أيَسجدُ القلبُ؟ قال: نعم، يسجدُ سجدةً لا يرفعُ رأسَه منها إلى يوم اللِّقاء، فهذا سجود القلب.

فقلبٌ لا تباشِرُه هذه الكَسْرةُ فهو غيرُ ساجدٍ السجودَ المراد منه، وإذا سجدَ القلبُ لله هذه السجدةَ العُظْمى سجدَتْ معه جميعُ الجوارح، وعَنَا الوجهُ حينئذ للحَيِّ القَيُّومِ، وخَشَعَ الصَّوتُ والجوارحُ كلُّها، وذَلَّ العبدُ وخَضَعَ واستكان، ووضَعَ خدَّه على عتبة العبوديَّة، ناظرًا بقلْبِه إلى ربِّه ووَلِيِّه نَظَرَ الذَّليلِ إلى العزيز الرَّحيم، فلا يُرى إلَّا مُتَملِّقًا لربِّه، خاضِعًا له، ذليلًا مستكينًا مُستعطِفًا له، يسأله عَطْفَه ورحمتَه، فهو يَترضَّى ربَّه كما يترضَّى المُحِبُّ الكامل المحبَّةِ محبوبَه المالكَ له، الذي لا غِنى له عنه، ولا بد له منه، فليس له همٌّ غير استرضائه واستعطافه؛ لأنَّه لا حياة له ولا فلاح إلا في قُرْبِه ورضاه عنه، ومحبَّتِه له، يقول: كيف أُغضِب مَن حياتي في رضاه؟ وكيف أعْدِلُ عمَّن سعادتي وفلاحي وفَوْزي في قُرْبه وحُبِّه وذِكْرِه؟

وصاحبُ هذا المشهد: يشهد نفسَه كرجُلٍ كان في كَنَفِ أبيه يَغْذُوه بأطيبِ الطَّعام والشَّراب واللِّباس، ويُرَبيه أحسنَ التربية، ويُرَقِّيه في درجاتِ الكمالِ أتَمَّ ترقية، وهو القَيِّمُ بمصالحِه كلِّها، فبعثَه أبوه في حاجة له، فخرَج عليه في طريقه عدُوٌّ، فأسَرَه وكتَّفَه وشَدَّه وَثاقًا، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامَه سُوءَ العذاب، وعامَلَه بِضِدِّ ما كان أبوه يعامله به، فهو يتذكَّر تربيةَ والده وإحسانه إليه الفَيْنَةَ بعد الفَينة، فتَهِيج من قلبه لَواعِجُ الحسرات كلَّما رأى حالَه وتذكَّر ما كان عليه وكلَّ ما

كان فيه، فبيْنا هو في أسْرِ عدوِّه يَسومُه سوءَ العذابِ، ويريد نَحْرَه في آخر الأمر، إذ حانت منه التفاتةٌ إلى نحو دِيارِ أبيه، فرأى أباه منه قريبًا، فسعى إليه، وألقى نفْسَه عليه، وانطَرَحَ بين يديه، يستغيثُ: يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه، ودموعُه تَستَبِقُ على خَدَّيْهِ، قد اعتنقه والتزمه، وعدوُّه في طلبِه، حتى وقف على رأسه، وهو مُلتزِمٌ لوالده مُمسِكٌ له، فهل تقول: إنَّ والدَه يُسْلِمُه مع هذه الحالِ إلى عدُوِّه ويُخلِّي بينه وبينه؟! فما الظَّنُّ بمن هو أرحمُ بعبده مِن الوالد بولده، والوالدةِ بولدِها إذا فَرَّ إليه، وهرَب من عدوِّه إليه، وألقى نفسه طريحًا ببابه، يُمَرِّغ خدَّه في ثرى أعتابه باكيًا بين يديه، يقول: يا ربِّ، يا ربِّ، ارحم مَن لا راحِمَ له سواك، ولا وليَّ له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مُؤْوِي له سواك، ولا مُغِيث له سواك، مِسْكينُك وفقيرك، وسائلك ومؤَمِّلُك ومُرْتَجيك، لا ملجأ له ولا مَنْجَى له منك إلا إليك، أنت ملاذُه، وبك مَعاذُه.

يا مَنْ أَلُوذُ بهِ فيما أُؤَمِّلُهُ ... ومَنْ أعُوذُ بهِ مِمَّا أُحاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أنتَ كاسِرُهُ ... ولا يَهِيضُونَ عَظْمًا أنتَ جابِرُهُ

مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه

فإذا استَبصَر في هذا المشهد، وتَمكَّنَ مِن قلبه، وباشَرَه وذاق طعمَه وحلاوتَه، تَرقَّى منه إلى:

المشهد الثالث عشر: **وهو الغاية التي شمَّر إليها السَّالِكون، وأمَّها القاصِدون، ولَحَظَ إليها العاملون، وهو مشهد العبودية والمحبَّة، والشَّوق إلى لقائه**، والابتهاج به، والفرح والسُّرور به، فتَقَرُّ به عينه، ويسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه جوارحه، ويستولي ذِكرُه على لسان مُحِبِّه وقلبِه، فتصيرُ خَطَراتُ المحبَّة مكانَ خَطَراتِ المعصية، وإرادةُ التقرُّب إليه ومرضاته مكانَ إرادةِ معاصيه ومَساخِطِه، وحركات اللِّسان والجوارح بالطاعات مكانَ حركاتها بالمعاصي، وقد امتلأ قلبُه من مَحَبَّتِه، ولَهِجَ لسانُه بِذِكره، وانقادَت الجوارحُ لطاعته، فإن هذه الكَسرةَ الخاصَّة لها تأثيرٌ عجيب في المحبَّة لا يُعبَّر عنه.

ويُحكى عن بعض العارفينَ أنَّه قال: دخلْتُ على الله من أبوابِ الطَّاعات كلِّها، فما دخلتُ مِن بابٍ إلا رأيتُ عليه الزِّحام، فلم أتمكَّن مِن الدُّخول، حتى جئتُ بابَ الذُّلِّ والافتقار، فإذا هو أقربُ بابٍ إليه وأوسَعُه، ولا مُزاحِم فيه ولا مُعَوِّقَ، فما هو إلا أنْ وضعْتُ قدمي في عَتَبتِه، فإذا هو قد أخذ بيدي وأدخَلَني عليه.

وكان شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «مَن أراد السعادة الأبديَّة، فليلزَمْ عَتَبَةَ العُبوديَّة».

وقال بعضُ العارِفين: «لا طريقَ أقربُ إلى الله من العُبوديَّة، ولا حِجابَ أغلظُ من الدَّعوى، ولا ينفع مع الإعجاب والكِبْر عملٌ واجتهاد، ولا يضرُّ مع الذُّلِّ والافتقار بَطالَةٌ»؛ يعني: بعد فِعْلِ الفرائض.

والقصد: أنَّ هذه الذِّلَّة والكَسرة الخاصَّة تُدخِلُه على الله، وتَرْمِيه على طريق المحبَّة، فيُفتح له منها باب لا يُفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طُرُق سائر الأعمال والطاعات تَفتح للعبد أبوابًا من المحبَّة، ولكن الذي يُفتح منها من طريق الذُّلِّ والانكسار، والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنَّقصِ والذَّم، بحيث يشاهدها ضَيْعةً وعجزًا، وتفريطًا وذنبًا وخطيئةً: نوعٌ آخر وفتح آخر، والسالك بهذا الطريق غريبٌ في الناس، وهم في وادٍ وهو في وادٍ، وهي تسمَّى طريقة الطَّير، يسبق النائمُ فيها على فراشه السُّعاةَ، فيصبح وقد قطع الرَّكْبَ، بيْنا هو يحدِّثُك وإذا به قد سَبَقَ الطرف وفاتَ السُّعاةَ، فالله المستعان، وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له مِن آثار محبَّةِ الله له، وفرحِه بِتوبة عبدِه، فإنَّه سبحانه يُحِبُّ التَّوَّابينَ، ويَفرحُ بتوبتهم أعظمَ فَرَحٍ وأكملَه.

فكلَّما طالَعَ العبدُ مِنَنَه سبحانه عليه قبل الذَّنب، وفي حال مُواقَعةِ الذَّنبِ، وبعد الذَّنبِ، وبِرَّه به، وحِلْمَه عنه، وإحسانَه إليه، هاجت مِن قَلبِه لَواعِجُ محبَّتِه والشَّوقِ إلى لقائه، فإنَّ القلوب مجبولة على حب مَن

أحسَنَ إليها، وأيُّ إحسان أعظم مِن إحسانِ مَن يبارِزُه العبدُ بالمعاصي، وهو يَمُدُّه بنِعَمِه، ويعامله بألطافه، ويُسْبِلُ عليه سَتْرَه، ويحفظه من خَطَفات أعدائه المُترقِّبِينَ له أدنى عَثْرةٍ، ينالون منه بها بُغْيتَهم، ويردُّهم عنه، ويَحولُ بينهم وبينه، وهو في ذلك كله بِعَيْنِه يراه ويَطَّلِعُ عليه.



[منزلة الإنابة]

فإذا استقرَّت قَدَمُه في منزل التَّوبة نزل بَعدَه منزلَ الإنابة، وقد أمَر به تعالى في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: ٧٥]، وأخبر أنَّ آياته إنَّما يَتبصَّر بها ويتذكَّر أهلُ الإنابة، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾ [الروم: ٣٠ ـ ٣١].

وأخبر أنَّ ثوابَه وجنَّتَه لأهل الخشيةِ والإنابة، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٤].

وأخبر سبحانه أنَّ البُشْرى منه إنَّما هي لأهل الإنابة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧].

أقسام الإنابة

والإنابة إنابتان: إنابة لرُبوبيَّتِه، وهي إنابة المخلوقاتِ كلِّها، يَشترِكُ فيها المؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عامٌّ في حقِّ كل داعٍ أصابه ضُرٌّ، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامِعُ الشِّرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا

﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [الروم: ٣٣ ـ ٣٤]، فهذا حالُهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلٰهيَّتِه، إنابة عبودية ومحبَّة.

وهي تتضمَّن أربعةَ أمور: محبَّته، والخضوعَ له، والإقبالَ عليه، والإعراضَ عمَّا سِواه، فلا يستحقُّ اسمَ المُنيب إلَّا مَن اجتمعتْ فيه هذه الأربعة، وتفسيرُ السَّلفِ لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللَّفظة معنى الإسراع والرجوعِ والتقدُّم، فـ(المُنيب) إلى الله: المُسرِع إلى مَرْضاتِه، الراجع إليه كلَّ وقت، المتقدِّم إلى مَحابِّه.

قال صاحب «المنازل»: **(الإنابةُ في اللُّغةِ: الرُّجُوعُ، وهيَ هاهُنا: الرُّجوعُ إلى الحَقِّ.**

وهيَ ثَلاثةُ أشْياءَ: الرُّجوعُ إلى الحَقِّ إصْلاحًا كما رَجَعَ إليهِ اعْتِذارًا، والرُّجوعُ إليهِ وَفاءً كما رَجَعَ إليهِ عَهْدًا، والرُّجوعُ إليهِ حالًا كما رَجَعَ إليهِ إجابةً).

لَمَّا كان التائب قد رَجَعَ إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته كان مِن تَتِمَّةِ ذلك رجوعُه إليه بالاجتهاد، والنُّصح في طاعاته، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ [البقرة: ١٦٠]، فلا تنفع تَوبةٌ وبَطالةٌ، فلا بد مِن تَوبةٍ وعملٍ صالح؛ تَرْكٍ لِما يَكْرَه، وفِعلٍ لما يُحِب، تَخَلٍّ عن معصيته، وتَحَلٍّ بطاعته.

وكذلك الرُّجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعتَ إليه عند أخْذِ العهد عليك، فرجعتَ إليه بالدُّخول تحتَ عهدِه أوَّلًا، فعليك الرُّجوع بالوفاء بما عاهدْتَه عليه ثانيًا، والدِّين كلُّه عهدٌ ووفاء، فإنَّ الله أخَذ عَهْدَه على جميع المكلَّفِينَ بطاعته، فأخذ عهدَه على أنبيائه ورُسُلِه على لسان ملائكته، أو منه إلى الرَّسول بلا واسطةٍ كما كلَّم موسى، وأخذ

عهدَه على الأمم بواسطة الرُّسُل، وأخذ عهده على الجُهَّال بواسطة العلماء، فأخذ عهدَه على هؤلاء بالتَّعليم، وعلى هؤلاء بالتَّعلُّم، ومدَحَ المُوفين بعهده، وأخبرهم بما لهم عِندَه من الأجر، فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]، وقال: [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناوَلُ عهودَهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمانِ والطاعة، وعهودَهم مع الخَلْق.

وأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ مِن علامات النِّفاق: الغَدرَ بعد العهدِ[1].

فما أنابَ إلى الله مَن خانَ عهدَه وغدر به، كما أنَّه لم يُنِب إليه مَن لم يدخُلْ تحت عهدِه، فالإنابةُ لا تَتحقَّق إلا بالتزام العهدِ والوفاءِ به.

الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها

وقوله: **(والرُّجوعُ إليهِ حالًا كما رَجَعْتَ إليهِ إجابةً)**.

أي: هو سبحانه قد دعاك فأجَبْتَه بِلَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ قولًا، فلا بدَّ مِن الإجابة حالًا تُصدِّق به المقالَ؛ فإنَّ الأحوال تُصدِّق الأقوالَ أو تُكذِّبُها، وكلُّ قولٍ فلِصِدْقِه وكَذِبِه شاهدٌ مِن حالِ قائله، فكما رجَعْتَ إليه إجابةً بالمقال، فارجع إليه إجابةً بالحال، قال الحَسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ابنَ آدم، لك قولٌ وعملٌ، وعملُك أوْلى بك مِن قولك، ولك سريرةٌ وعلانية، وسريرَتُكَ أمْلَكُ بك مِن علانيتك».

قال: **(وإنَّما يَستَقيمُ الرُّجُوعُ إليهِ إصْلاحًا بِثَلاثةِ أشْياءَ: بِالخُروجِ مِنَ التَّبِعاتِ، والتَّوَجُّعِ لِلْعَثَراتِ، واستِدْراكِ الفائِتاتِ)**.

والخروجُ من التَّبِعات: هو بالتَّوبة من الذُّنوب التي بين العبد وبين الله تعالى، وأداءِ الحقوقِ الَّتي عليه للخَلْق.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

والتوجُّعُ للعَثَرات يحتمل **شيئين**:

أحدهما: أن يتوجَّع لعَثْرتِه إذا عَثَر، فيتوجَّعُ قلبُه وينصدع، فهذا دليل على إنابته إلى الله، بخلاف مَن لا يتألم قلبُه، ولا ينصدع مِن عَثْرتِه، فإنه دليلُ فسادِ قلبِه وموتِه.

الثاني: أنْ يتوجَّعَ لعَثْرةِ أخيه المؤمن إذا عَثَر، حتى كأنَّه هو الذي عَثَر بها، ولا يَشْمَت به، فهو دليل على رِقَّةِ قلبه وإنابته.

واستدراكُ الفائتاتِ: هو استدراكُ ما فاتَه مِن طاعةٍ وقُرْبةٍ بأمثالها، أو خيرٍ منها، ولا سيَّما في بقية عُمُرِه، وعند قُرْبِ رحيله إلى الله، فبقيَّة عُمرِ المؤمنِ لا قيمةَ لها، يَستدرِكُ بها ما فات، ويحيي به ما أمات.

علامات صدق الإنابة

قال: (**وإنَّما يَستَقِيمُ الرُّجُوعُ إليهِ وَفاءً بِثَلاثةِ أشْياءَ: بالخَلاصِ مِنْ لَذَّةِ الذَّنْبِ، وبِتَرْكِ الاستِهانةِ بأهْلِ الغَفْلةِ؛ تَخَوُّفًا علَيهِمْ، مَعَ الرَّجاءِ لِنَفْسِكَ، وبِالاستِقْصاءِ في رُؤْيةِ عِلَّةِ الخِدْمةِ**).

إذا صَفَتْ له الإنابةُ إلى ربِّه تَخلَّص من الفكرة في لَذَّة الذَّنب، وأعاد مكانَها ألمًا وتوجُّعًا لذِكْرِه، والفكرة فيه، فما دامت لذَّةُ الفِكْر فيه موجودةً في قلبه فإنابتُه غيرُ صافية.

فإن قيل: أيُّ الحالَيْنِ أعلى؟ حالُ مَن يجد لذَّةَ الذَّنبِ في قلبه فهو يجاهدها لله، ويتركها مِن خوفه ومحبَّتِه وإجلالِه، أو حالُ مَن ماتت لذَّة الذَّنب في قلبه، وصار مكانها ألمًا وتوجُّعًا وطمأنينة إلى رَبِّه، وسكونًا إليه، والتِذاذًا بحُبِّه، وتنعُّمًا بذِكره؟

قيل: حالُ هذا أرفعُ وأكمل، وغايةُ صاحبِ المجاهَدة: أنْ يجاهِدَ نفسَه حتى يصلَ إلى مقامِ هذا ومنزلته، ولكنَّه تالِيهِ في المنزلةِ والقُرْب، ومَنُوطٌ به.

فإن قيل: فأين أجْرُ مجاهدةِ صاحبِ اللَّذَّة، وتَرْكِه مَحابَّه لله، وإيثارِه رضا الله على هواه، وبهذا كان النوع الإنساني أفضلَ من النوع المَلَكيِّ عند أهل السُّنَّة، وكانوا خير البَرِيَّة، والمطمئِنُّ قد استراح من

هذه المجاهدة وعُوفيَ منها، فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافَى والمبتلَى؟

أحوال النفس مع الذنب

قيل: النَّفس لها ثلاثةُ أحوال: الأمرُ بالذَّنب، ثم اللَّوْم عليه والنَّدم منه، ثم الطمأنينة إلى ربِّها والإقبالُ بكلِّيَّتِها عليه، وهذه الحالُ أعلى أحوالها، وأرفعها، وهي التي يُشَمِّر إليها المجاهِد، وما يحصل له من ثواب مجاهدتِه وصَبره فهو لتَشْميره إلى درجة الطمأنينةِ إلى الله، فهو بمنزلة راكبِ القِفار والمَهامِهِ[1] والأهوالِ لِيَصِلَ إلى البيت فيطمئن قلبُه برؤيته والطوافِ به، والآخرُ بمنزلةِ مَن هو مشغولٌ به طائفًا وقائمًا، وراكعًا وساجدًا، ليس له التفاتٌ إلى غيره، فهذا مشغولٌ بالغاية، وذاك بالوسيلة، وكلٌّ له أجرٌ، ولكن بيْن أجرِ الغاياتِ وأجْرِ الوسائل بَوْنٌ.

وما يحصل للمطمئِنِّ من الأحوال والعبوديَّة والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهِدِ نفسَه في ذاتِ الله تعالى، وإن كان أكثرَ عملًا، فقَدْرُ عملِ المطمئنِّ المُنيبِ بجملتِه وكيفيَّتِه أعظمُ، وإن كان هذا المجاهِدُ أكثرَ عملًا، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء، فما سَبَق الصِّدِّيقُ الصحابةَ بكثرة عملٍ، وفيهم مَن هو أكثر صيامًا وحَجًّا وقراءةً وصلاةً منه، ولكن بأمرٍ آخَرَ قامَ بقلبه، حتى إنَّ أفضلَ الصحابة كان يسابِقُه ولا يراه إلا أمامه.

ولكن عبوديَّة مجاهِدِ نفسِه على لَذَّة الذَّنب والشهوة قد تكونُ أشقَّ، ولا يلزم من مشقَّتِها تفضيلُها في الدرجة، فأفضلُ الأعمالِ الإيمان بالله، والجهادُ أشقُّ منه وهو تالِيهِ في الدَّرجة، ودرجة الصِّدِّيقِينَ أعلى من درجة المجاهدين والشُّهداء، وفي مسنَد الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ ذَكَر الشُّهَداءَ، فقال: «**إنَّ أكثَرَ شُهَداءِ أُمَّتي لَأَصْحابُ الفُرُشِ، ورُبَّ قَتيلٍ بيْن الصَّفَّيْنِ اللهُ أعلَمُ بنِيَّتِه**»[2].

(١) أي: المفاوز البعيدة. «القاموس المحيط» (١/ ١٢٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٧٢)، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٩٨٨).

علامات الإنابة

ومِن علامات الإنابة: تركُ الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك بابَ الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النِّقمة، ولكن ارجُ لهم الرحمة، واخشَ على نفسك النقمة، فإن كنت لا بد مستهينًا بهم ماقتًا لهم، لانكشاف أحوالهم لك، ورؤيةِ ما هُم عليه، فكن لنفسك أشدَّ مقتًا منك لهم، وكن أرجى لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: «لن تَفقَهَ كلَّ الفِقهِ حتَّى تَمقُتَ الخَلْقَ في ذات الله، ثمَّ تُقْبِل على نفْسِكَ فتكون لها أشَدَّ مَقْتًا»[(١)].

وهذا الكلام لا يعلم معناه إلا الفقيهُ في دين الله تعالى، فإن مَن شهِد حقيقة الخلق، وعجزَهم وضعفَهم وتقصيرهم، بل تفريطَهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالَهم على غيره، وبيعهم حظَّهم من الله بأبخس الثمن ـ من هذا العاجل الفاني ـ لم يجد بُدًّا من مقتهم، ولم يمكنه غيرُ ذلك البتَّةَ، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحالِه وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك، كان لنفسه أشدَّ مقتًا واستهانة، فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية عِلَلِ الخدمة، فهو التفتيش عما يَشوبها من حظوظ النفس، وتمييزُ حقِّ الربِّ منها مِن حظ النفس، ولعل أكثرها ـ أو كلَّها ـ أن تكون حظًّا لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إلٰه إلا اللهُ، كم في النفوس مِن عِلَلٍ وأغراض، وحظوظٍ تمنع الأعمالَ أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه؟ وإن العبد ليَعمَلُ العمل حيث لا يراه بشرٌ البَتَّة، وهو غير خالص لله، ويعمل العملَ والعيون قد استدارت عليه نطاقًا، وهو خالص لوجه الله، ولا يميِّزُ هذا من هذا إلا أهلُ البصائر، وأطبَّاءُ القلوب العالِمون بأدوائها وعِلَلِها.

فبين العمل وبيْن القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثيرَ العمل، وما وصَل منه إلى

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

قلبه محبَّةٌ ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبةٌ في الآخِرة، ولا نور يُفَرِّق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوَّةٌ في أمره؛ فلو وصل أثرُ الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائِه، وأوجب له ذلك المزيدَ من الأحوال.

ثم بين القلب وبيْن الرب مسافة، وعليها قُطَّاع تمنع وصول العمل إليه، مِن كِبْرٍ وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيانِ المِنَّة، وعِلَلٍ خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله تعالى سترُها على أكثر العمَّال؛ إذْ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وتركِ العمل، وخمود العزم، وفُتورِ الهمَّة.

ولهذا لمَّا ظهرتْ «رعاية» أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، واشتغل بها العباد عُطِّلَتْ منهم مساجدُ كانوا يَعْمُرونها بالعبادة، والطبيبُ الحاذق يَعْلم كيف يُطِبُّ النفوس، فلا يُعمِّرُ قَصرًا ويَهدِم مِصرًا.

* * *

ما يستقيم به الرجوع إلى الله حالًا

قال: (**وإنَّما يَستَقيمُ الرُّجوعُ إليهِ حالًا بثَلاثةِ أشْياءَ: بالإياسِ مِن عَمَلِكَ، وبمُعايَنةِ اضْطِرارِكَ، وشَيْمِ بَرْقِ لُطْفِه بكَ**).

الإياس من العمل يفسَّر بشيئين:

أحدهما: أنه إذا نظر بعين الحقيقة إلى الفاعل الحق، والمحرِّكِ الأوَّل، وأنه لولا مشيئتُه لَما كان منك فِعل، فمشيئته أوجبتْ فِعلَك لا مشيئتُك ـ بَقِيَ بلا فِعل ـ فهاهنا تنفع مشاهدةُ القدَر، والفناء عن رؤية الأعمال.

والثاني: أن تَيْئسَ من النجاة بعملك، وترى النَّجاةَ إنما هي برحمته، وعفْوِه وفضله، كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ: «**لن يُنْجيَ أحدًا منكم عَمَلُه**»، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ولا أنا، إلَّا أنْ**

يَتغمَّدَني اللهُ برَحمةٍ مِنهُ وفَضْلٍ»[١]. فالمعنى الأول يتعلَّقُ ببداية الفعل، والثاني بغايته ومآلِه.

وأما معاينةُ الاضطرار: فإنه إذا يَئِسَ من عمله بدايةً، والنَّجاةِ به نهايةً، شَهِد اضطرارَه إلى الله؛ بل شهِد به في كل ذَرَّةٍ منه ضرورةً تامَّةً إليه، وليست ضرورتُه من هذه الجهة وحدَها، بل من جميع الجهات، وجهاتُ ضرورته لا تنحصر بعدد، ولا لها سبب، بل هو مضطرٌّ إليه بالذات، كما أنَّ الله غنيٌّ بالذات، فالغِنى وصفٌ ذاتيٌّ للرب، والفقر والحاجةُ والضرورة وصفٌ ذاتيٌّ للعبد.

قال شيخ الإسلام ابنُ تيميَّةَ:

والفَقْرُ لي وَصْفُ ذاتٍ لازِمٌ أبَدًا ... كما الغِنى أبَدًا وَصْفٌ لهُ ذاتِي

وأما **شَيْمُ بَرْقِ لُطفِه بك**: فإنه إذا تحقَّق له قوَّةٌ ضرورية، وأيِسَ مِن عمله والنجاةِ به، نظر إلى ألطاف الله، وشامَ برْقَها، وعلِم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدَّم له، لُطْفٌ من الله به، ومِنَّةٌ مَنَّ بها عليه، وصدقةٌ تصدَّق بها عليه بلا سبب منه، إذ هو المحْسن بالسبب والمسبب، والأمرُ له مِن قبلُ ومن بعدُ، وهو الأوَّلُ والآخِر، لا إلٰه غيرُه، ولا ربَّ سواه.



(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[منزلةُ التذكُّر]

ثم يَنزِل القلبُ منزلةَ التذكُّر، وهو قرين الإنابة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [غافر: ١٣] وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٨].

وهو مِن خَواصِّ أُولي الألباب؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾ [الرعد: ١٩].

والتذكُّر والتفكُّر منزلان يُثمران أنواعَ المعارف، وحقائقَ الإيمانِ والإحسان، فالعارف لا يزال يعود بتفكُّره على تذكُّره، وبتذكُّره على تفكُّره، حتى يفتحَ قُفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري ﷺ: «ما زال أهلُ العلمِ يعودون بالتذكُّر على التفكُّر، وبالتفكُّر على التذكُّر، ويُناطِقون القلوبَ حتى نطقت».

والتذكر تفعُّل من الذِّكر، وهو ضدُّ النِّسيان، وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب، واختِير له بِناءُ التَّفعُّل؛ لحصوله بعد مُهْلة وتدريج، كالتبصُّر والتفهُّم والتعلُّم.

فمنزلة التذكُّر من التفكُّر منزلةُ حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه، ولهذا كانت آياتُ الله المتلوَّةُ والمشهودةُ ذِكرى؛ كما قال في المتلوَّة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣﴾ [غافر: ٥٣]، وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الحاقة: ٤٨]، وقال في آياته المشهودة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦].

فالتبصرة آلة البصر، والتذكرة آلة الذِّكر، وقُرِن بينهما وجُعِلا لأهل الإنابة؛ لأنه إذا أناب إلى الله أبصَر مواقعَ الآيات والعِبر، فاستدلَّ بها

على ما هي آيات له، فزال عنه الإعراضُ بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلةُ بالتذكرة؛ لأن التبصرة توجِب له حصولَ صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها، فترتَّبتْ المنازلُ الثلاثةُ أحسنَ ترتيب، ثم إن كُلًّا منها يَمُدُّ صاحبَه ويقوِّيه ويُثمِره.

وقال تعالى في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق: ٣٦]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

والناس ثلاثةٌ: رجلٌ قلبُه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآيةُ ذِكرى في حقِّه.

الثاني: رجلٌ له قلب حَيٌّ مستعدٌّ، لكنه غيرُ مستمع للآيات المتلُوَّة، التي يُخبر بها الله عن الآيات المشهودة؛ إمَّا لعدم ورودِها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغولٌ عنها بغيرها، فهو غائب القلب، ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصُلُ له الذِّكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجلٌ حَيُّ القلب مستعدٌّ، تُليَتْ عليه الآياتُ، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضَر قلبه، ولم يَشغَلْه بغير فَهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، مُلقٍ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلُوَّة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامِحِ ببصره إلى غير جهة المنظور إليه. فكِلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حَدَّق إلى جهة المنظور إليه، وأتْبَعه بصرَه، وقابلَه على توسُّط من البُعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان مَن جَعل كلامه شفاءً لِما في الصدور!

أهمية التذكر والاعتبار

فإن قيل: فما موقعُ «أو» من هذا النَّظم على ما قرَّرتَ؟

قيل: فيها سرٌّ لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو، كما يقوله ظاهِريةُ النُّحاة.

فاعلم أنَّ الرجل قد يكون له قلبٌ وقَّاد، مَليءٌ باستخراج العِبر، واستنباط الحِكَم، فهذا قلبه يوقِعه على التذكُّر والاعتبار، فإذا سمِع الآياتِ كانت له نورًا على نور، وهؤلاء أكمل خلْقِ الله تعالى، وأعظمُهم إيمانًا وبصيرة، حتى كأنَّ الذي أخبرهم به الرسول قد كان مشاهَدًا لهم، لكن لم يَشعروا بتفاصيله وأنواعه، حتى قيل: إن مثل حال الصديق مع النبي ﷺ كمَثَل رجُلين دخلَا دارًا، فرأى أحدُهما تفاصيل ما فيها وجزئياتِه، والآخر وقعت يده على ما في الدار ولم يرَ تفاصيله ولا جزئياتِه، لكن علِم أن فيها أمورًا عظيمة، لم يُدرِكْ بصرُه تفاصيلَها، ثم خرَجَا، فسأله عمَّا رأى في الدار، فجعل كلما أخبره بشيء صدَّقه؛ لِما عنده من شواهِده. وهذه أعلى درجات الصِّدِّيقية، ولا يُستبعَد أنْ يَمُنَّ اللهُ المنَّانُ على عبدٍ بمثل هذا الإيمان؛ فإن فضل الله لا يدخل تحت حصْرٍ ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمِع الآياتِ وفي قلبه نورٌ من البصيرة، ازداد بها نورًا إلى نوره، فإن لم يكن للعبد مثلُ هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يَغِبْ، حصَل له التذكُّر أيضًا: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، والوابل والطَّلُّ في جميع الأعمال وآثارها وموجِباتها، وأهل الجنة سابقون مُقرَّبون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما، حتى إن شرابَ أحدِ النوعينِ الصِّرْفَ يطيبُ به شرابُ النوع الآخر ويُمزَج به مزجًا، قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: ٦]؛ فكل مؤمن يرى هذا، ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون.

أبنية التذكر

قال صاحب «المنازل»: **(أبنِيَةُ التَّذَكُّرِ ثَلاثةٌ: الانتِفاعُ بالعِظَةِ، والاستِبصارُ للعِبرةِ، والظَّفَرُ بثَمرةِ الفِكْرةِ)**.

الانتفاع بالعِظَة: هو أن يقدحَ في القلب قادح الخوفِ والرجاء؛ فيتحرَّكَ للعمل؛ طلبًا للخلاص من الخوف، ورغبةً في حصول المَرْجُوِّ.

والعِظَة هي: الأمر والنَّهيُ، المقرونُ بالتَّرغيب والتَّرهيب.

والعظة نوعان: عِظَةٌ بالمسموع، وعظة بالمشهود.

فالعِظَة بالمسموع: الانتفاع بما يَسمَعه من الهُدى والرشد، والنَّصائحِ الَّتي جاءت على يد الرُّسُل، وكذلك الانتفاعُ بالعِظَة من كلِّ ناصح ومرشدٍ في مصالحِ الدِّينِ والدنيا.

والعِظَةُ بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويَشهَدُه في العالَم من مواقعِ العِبَر، وأحكامِ القدَر ومجاريه، وما يُشاهِدُه من آيات الله الدَّالَّةِ على صدْق رُسُلِه.

وأما الاستبصار للعِبرة: فهو زيادة البصيرة عمَّا كانت عليه في منزل التَّفكُّر بقوَّةِ الاستحضار؛ لأنَّ التَّذكُّر يَصقُل المعاني الَّتي حصلتْ بالتَّفكُّر في مواقعِ الآيات والعِبَرِ، فهو يَظفَرُ بها بالتفكُّر، وتنصقل له وتنجلي بالتَّذكُّر، فيَقوى العزمُ على السَّيرِ بحسَب قوَّةِ الاستبصار؛ لأنَّه يوجِبُ تحديدَ النَّظرِ فيما يُحرِّك الطَّلب؛ إذِ الطَّلبُ فرعُ الشُّعور، وكلَّما قَوِيَ الشُّعورُ بالمحبوب اشتدَّ سَفَرُ القلب إليه، وكلَّما اشتغل الفِكر به ازداد الشُّعور، والبصيرةُ به، والذِّكر له.

وأمَّا الظَّفَر بثمرة الفِكرة، فهذا موضعٌ لطيف.

ثمرات التفكر

وللفِكرة ثمرتان: حصول المطلوب تمامًا بحسَب الإمكان، والعملُ بموجبه؛ رعايةً لحَقِّه.

فإنَّ العقل حالَ التَّفكُّرِ كان قد كَلَّ بأعماله في تحصيل المطلوب، فلمَّا حصَلتْ له المعاني وتخمَّرتْ في القلب، واستراح العقلُ عاد فتذكَّر ما كان حصَّله وطالَعه؛ فابتهج به وفرِح به، وصحَّح في هذا المنزلِ ما كان فاته في منزل التَّفكُّر؛ لأنَّه قد أشرَف عليه من مَقامِ التَّذكُّر، الذي هو أعلى منه، فأخذ حينئذٍ في الثَّمرة المقصودة، وهي العمل بموجبه؛

مراعاةً لحَقِّه؛ فإنَّ العمل الصالحَ هو ثمرة العِلمِ النافع، الذي هو ثمرة التَّفكُّر.

وإذا أردتَ فَهْمَ هذا بمثالٍ حِسيٍّ، فطالب المال ما دام جادًّا في طلبه، فهو في كَلال وتعبٍ، حتى إذا ظَفِرَ به استراح من كَدِّ الطلب، وقَدِم من سفر التِّجارة، وطالَع ما حصَّله وأبصرَه، وصحَّح في هذه الحالِ ما عساه غَلَطَ فيه في حال اشتغاله بالطلب، فإذا صحَّ له وبَردتْ غنيمتُه له أخذ في صرفِ المال في وجوه الانتفاع المطلوبة منه.

وسائل الانتفاع بالعظة

قال: (**وإنَّما يُنتفَعُ بالعِظةِ بَعْدَ حُصولِ ثلاثةِ أشياءَ: شِدَّةِ الافتِقارِ إليها، والعَمى عن عَيبِ الواعِظِ، وتَذَكُّرِ الوَعْدِ والوَعيدِ**).

إنَّما يشتدُّ **افتقارُ العبد إلى العِظَة** ـ وهي التَّرغيب والتَّرهيبُ ـ إذا ضَعُفَ تذكُّرُه وإنابتُه، وإلَّا فمتى قَوِيَتْ إنابتُه وتذكُّره لم تشتدَّ حاجتُه إلى التَّذكير والتَّرغيبِ والتَّرهيب، ولكنْ تكون الحاجةُ منه شديدةً إلى معرفة الأمر والنَّهي.

والعِظةُ يُرادُ بها أمران: الأمر والنَّهيُ المقرونان بالرَّغبة والرَّهبة، ونفْسُ الرَّغبة والرَّهبة.

فالمُنيب المتذكِّرُ شديدُ الحاجة إلى الأمر والنَّهي، والمعرِضُ الغافل شديدُ الحاجة إلى التَّرغيب والتَّرهيب، والمعارِضُ المنكِرُ شديدُ الحاجة إلى المجادَلة.

فجاءت هذه الثلاثةُ في حقِّ هؤلاء الثلاثةِ في قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥]، وأطلَق الحكمةَ ولم يُقيِّدها بوصف الحسنة؛ إذ كلُّها حسنة، ووصْف الحُسنِ لها ذاتيٌّ. وأمَّا الموعظة فقيَّدها بوصف الإحسان؛ إذ ليس كُلُّ موعظة حسنة.

وكذلك الجَدَلُ قد يكون بالَّتي هي أحْسنُ، وقد يكون بغير ذلك.

وأمَّا **العمى عن عيبِ الواعظِ**: فإنه إذا اشتَغل به حُرِم الانتفاعَ بموعظته؛ لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام مَن لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة مَن يصف له الطبيبُ دواءً لمرض به مِثْلُه، والطبيب مُعرِض عنه غيرُ ملتفت إليه، بل الطبيب المذكور عندهم أحسن حالًا من هذا الواعظ المخالِفِ لِمَا يَعِظُ به؛ لأنه قد يقوم عنده دواءٌ آخرُ مقام هذا الدواء، وقد يرى أن به قوةً على ترك التداوي، وقد يَقْنَع بعمل الطبيعة وغيرِ ذلك، بخلاف هذا الواعظ؛ فإنَّ ما يعظ به طريقٌ معيَّنٌ للنجاة لا يقوم غيرُها مَقامَها، ولا بد منها.

ولأجْل هذه النُّفرةِ قال شعيب صلى الله على نبينا وعليه وسلم لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ [هود: ٨٨].

وقال بعض السلف: إذا أردتَ أن يُقبَل منك الأمرُ والنَّهي فإذا أمرتَ بشيء فكن أوَّلَ الفاعلين له، المؤتَمِرين به، وإذا نَهيتَ عن شيء، فكن أوَّلَ المنتهين عنه، وقد قيل:

يا أيُّها الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلَّا لنَفْسِكَ كان ذا التَّعليمُ؟
تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ مِنَ الضَّنى ... ومِنَ الضَّنى تُمْسي وأنتَ سَقيمُ
لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مِثْلَهُ ... عارٌ عليكَ إذا فَعلْتَ عَظيمُ
وابْدأْ بنَفْسِكَ فانْهَها عن غَيِّها ... فإذا انْتَهتْ عنهُ فأنتَ حَكيمُ
فهُناكَ يُقبَلُ ما تَقولُ ويُقْتدى ... بالقولِ مِنكَ ويَنفَعُ التَّعليمُ

فالعَمى عن عيب الواعظ مِن شروط تمام الانتِفاعِ بموعظته.

وأمَّا **تذكُّر الوعدِ والوعيد**: فإن ذلك يُوجِبُ خشيته والحذرَ منه، ولا تنفع الموعظة إلَّا لمَن آمَنَ به، وخافه ورجاه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِۚ﴾ [هود: ١٠٣]، وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

فالإيمان بالوعد والوعيد، وذِكرُه: شرْطٌ في الانتفاع بالعظات والآيات والعِبَر، يستحيل حصولُه بدونه.

وسائل استبصار العبرة

قال: (**وإنَّما تُسْتبصَرُ العِبرةُ بثلاثةِ أشياءَ: بحياةِ العقلِ، ومعرفةِ الأيَّامِ، والسَّلامةِ مِنَ الأغراضِ**).

العِبْرة هي الاعتبار، وحقيقتها العبور من حُكْم الشيء إلى حُكم مِثْلِه، فإذا رأى مَن قد أصابته محنةٌ وبلاء لسبب ارتكبه، علِم أن حُكم مَنِ ارتكب ذلك السببَ كحُكمه.

وحياة العقل: هي صحة الإدراك، وقوة الفهم وجودتُه، وتحقيق الانتفاع بالشيء والتضرر به، وهو نور يخصُّ الله به مَن يشاء مِن خلقه، وبحسَب تفاوُتِ الناس في قوة ذلك النور وضَعْفِه، ووجودِه وعدمه، يقع تفاوتُ أذهانهم وأفهامِهم وإدراكاتهم، ونِسْبَتُه إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين.

ومِن تجريبات السالكين التي جرَّبوها فألْفَوْها صحيحةً: أن مَن أدمَنَ قول: «يا حيُّ يا قيُّوم، لا إلٰه إلا أنت» أورَثه ذلك حياةَ القلب والعقل.

عبوديات الأسماء الحسنى والدعاء بها

وكان شيخ الإسلام ابنُ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ شديدَ اللَّهج بها جدًّا، وقال لي يومًا: لهذين الاسمين ـ وهُما «الحَيُّ القيوم» ـ تأثير عظيمٌ في حياة القلب. وكان يشير إلى أنَّهما الاسمُ الأعظم. وسمِعتُه يقول: مَن واظب على أربعينَ مرَّةً كلَّ يوم بيْن سُنَّة الفجر وصلاةِ الفجر: «يا حيُّ يا قيُّومُ، لا إلٰه إلا أنت، برحمتِكَ أستغيثُ» حصَلَتْ له حياةُ القلب، ولم يمُت قلبُه.

ومَن عَلِمَ عبودياتِ الأسماء الحسنى والدَّعاءَ بها، وسِرَّ ارتباطها بالخلْق والأمر، وبمطالب العبد وحاجاتِه، عرَف ذلك وتحقَّقه؛ فإنَّ كلَّ مطلوب يُسأل بالاسم المناسبِ له، فتأمَّلْ أدعية القرآنِ والحديثِ النَّبويِّ تَجِدْها كذلك.

وأمَّا **معرفة الأيام**: فيَحتمِل أن يريد به أيَّامَه التي تَخُصُّه، وما يَلحَقُه فيها من الزِّيادة والنُّقصان، ويعلم قِصرَها، وأنَّها أنفاسٌ معدودة منصرِمة، كلُّ نَفَس منها يقابله آلاف آلاف من السِّنينَ في دار البقاء،

فليس لهذه الأيامِ الخاليةِ نِسبةٌ قطُّ إلى أيَّام البقاء، والعبد يساوق زمنه، وفي مدَّةِ عُمُرِه إلى النَّعيم أو إلى الجحيم، وهي كمدَّة المنام لمَن له عقلٌ حَيٌّ وقلبٌ واعٍ، فما أوْلاه ألَّا يصرفَ منها نَفَسًا إلَّا في أحبِّ الأمور إلى الله! فلو صرَفه فيما يُحبُّه وترَكَ الأحبَّ لكان مُفرِّطًا، فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف فيما يَمقُته عليه ربُّه؟ فالله المستعانُ.

ويُحتمل أن يريد بالأيَّام: أيَّامَ الله التي أمر رُسُلَه بتذكير أُمَمِهم بها، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥]، وقد فُسِّرتْ «أيام الله» بنِعَمِه، وفسِّرت بنِقَمِه من أهل الكفر والمعاصي، فالأول تفسير ابن عباس وأُبَيِّ بن كعب ومجاهد، والثاني تفسير مقاتل، والصَّوابُ أنَّ أيَّامَه تَعُمُّ النوعين. وهي وقائعُه التي أوقعها بأعدائه، ونِعَمُه الَّتي ساقها إلى أوليائه، وسُمِّيتْ هذه النِّعمُ والنِّقمُ الكِبارُ المُتحدَّثُ بها أيَّامًا؛ لأنَّها ظرفٌ لها، تقول العرب: فلان عالِم بأيَّامِ العربِ وأيَّامِ النَّاس؛ أي: بالوقائع الَّتي كانت في تلك الأيام، فمعرفة هذه الأيَّامِ توجِب للعبد الاستبصارَ للعِبرة، وبحسَب معرفته بها تكون عِبْرتُه وعِظتُه؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ﴾ [يوسف: ١١١].

اتباع الهوى يطمس نور العقل

ولا يَتمُّ ذلك إلا **بالسَّلامةِ من الأغراض**، وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمَّارة بالسوء؛ فإن اتِّباع الهوى يَطمِسُ نورَ العقل، ويُعمي بصيرة القلب، ويَصُدُّ عن اتِّباع الحق، ويُضِلُّ عن الطريق المستقيم؛ فلا تحصُل بصيرةُ العِبْرة معه البتَّة، والعبد إذا اتَّبَع هواه فسَدَ رأيُه ونظره، فأرَتْه نفسُه الحَسَنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحسن، فالتَبَسَ عليه الحقُّ بالباطل، فأنَّى له الانتفاعُ بالتذكُّر، أو بالتفكُّر، أو بالعِظة؟

وسائل اجتناء ثمرة التفكر

قال: (**وإنَّما تُجتَنى ثمرةُ الفِكرةِ بثلاثةِ أشياءَ: بقِصَرِ الأمَلِ، والتَّأمُّلِ في القُرآنِ، وقِلَّةِ الخِلْطةِ والتَّمنِّي والتَّعلُّقِ بغَيرِ اللهِ والشِّبَعِ والمَنامِ**).

فأمَّا قِصَرُ الأمل: فهو العِلم بقُرب الرحيل، وسرعةِ انقضاء مدَّة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب؛ فإنه يبعثه على مغافصة الأيام[(١)]، وانتهاز الفرص التي تَمُرُّ مَرَّ السحاب، ومبادرة طَيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويَحثُّه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهِّده في الدنيا، ويرغِّبه في الآخرة؛ فيقوم بقلبه ـ إذا داوم مطالعة قصر الأمل ـ شاهدٌ من شواهد اليقين، يُريه فناءَ الدنيا، وسرعةَ انقضائها، وقلَّة ما بقيَ منها، وأنها قد ترحَّلَتْ مُدْبِرةً، ولم يبقَ منها إلا صُبابةٌ كصبابة الإناء يَتصابُّها صاحبُها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقيَ من يوم صارت شمسُه على رؤوس الجبال، ويُريه بقاءَ الآخرة ودوامَها، وأنها قد ترحَّلت مُقْبِلةً، وقد جاء أشراطها وأعلامُها، وأنه مِن لقائها كمسافر خرج صاحبٌ له يتلَّقاه، فكلٌّ منهما يسير إلى الآخَر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

ويكفي في قِصَر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

وخَطَبَ النبيُّ ﷺ يومًا أصحابه والشمسُ على رؤوس الجبال، فقال: «**إنَّه لمْ يَبقَ مِنَ الدُّنْيا فيما مَضى منها إلَّا كما بَقيَ مِن يَومِكُم هذا فيما مَضى منه**»[(٢)].

---

(١) الأخذ على غرة. «المصباح المنير» مادة: (غفص).

(٢) أخرجه أحمد (٦١٧٣)، والحاكم (٣٦٥٦)، وقال: «صحيح الإسناد». وتعقبه الذهبي بقوله: «كثير بن زيد ضعَّفه النسائي ومشاه غيره» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه أحمد (١١١٤٣)، والترمذي (٢١٩١)، وقال: «حديث حسن» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه».

ومَرَّ رسولُ الله ﷺ ببعض أصحابه، وهُم يُعالِجون خُصًّا لهم قد وَهَى، فهُم يُصْلِحونه، فقال: «**ما هذا؟**»، قالوا: خُصٌّ لنا قد وَهَى فنحن نُعالِجه، فقال: «**ما أرى الأمرَ إلَّا أعجَلَ مِن هذا**»[(١)].

وقِصَرُ الأمل بِناؤه على أمرين: تيقُّن زوالِ الدنيا ومفارقتِها، وتيقُّن لقاءِ الآخرة وبقائِها ودوامها، ثم يُقايِسُ بين الأمرين ويؤْثِر أولاهما بالإيثار.

مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة

وأمَّا التأمُّل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمْعُ الفِكْر على تدبُّره وتعقُّلِه، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرَّد تلاوته بلا تفهُّمٍ ولا تدبُّر.

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقال الحسن: نزَل القرآنُ ليُتدبَّرَ ويُعمَلَ به؛ فاتَّخَذوا تلاوته عملًا.

فليس شيءٌ أنفعَ للعبد في معاشه ومعادِه، وأقربَ إلى نجاته، مِن تدبُّر القرآن، وإطالةِ التأمُّل فيه، وجمْعِ الفِكْر على معاني آياته؛ فإنها تُطلِع العبدَ على معالم الخير والشرِّ بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابِهما، وغاياتِهما وثمراتهما، ومآلِ أهلهما، وتَتُلُّ في يده[(٢)] مفاتيحَ كنوز السِّعادةِ والعلوم النافعة، وتُثبت قواعدَ الإيمان في قلبه، وتُشيد بنيانه، وتُوطِّدُ أركانَه، وتُريه صورة الدُّنيا والآخرة، والجنَّةِ والنار في قلبه، وتُحضِرُه بين الأمم، وتريه أيَّامَ الله فيهم، وتُبصِّره مواقعَ العِبَر، وتُشهِدُه عدلَ الله وفضْلَه، وتُعرِّفُه ذاته وأسماءَه وصفاتِه وأفعالَه، وما يُحبُّه وما يُبغضه، وصراطَه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطعَ

(١) أخرجه أحمد (٦٥٠٢)، وأبو داود (٥٢٣٦)، والترمذي (٢٣٣٥) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤١٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) **تلَّ الشيءَ في يَدِه**: دَفَعَهُ إليه، أو ألقاهُ. «القاموس المحيط» (١/ ٩٧٠).

الطريق وآفاتِها، وتُعرِّفه النَّفْسَ وصفاتِها، ومفسداتِ الأعمال ومصحِّحاتِها، وتعرِّفه طريقَ أهل الجنَّةِ وأهلِ النار وأعمالَهم، وأحوالهم، وسِيماهم، ومراتبَ أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسامَ الخلْق واجتماعَهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقَهم فيما يَفترِقون فيه.

ستة أمور ضرورية للعبد

وبالجملة؛ تُعرِّفه الربَّ المدعوَ إليه، وطريقَ الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قَدِم عليه.

وتُعرِّفه في مقابل ذلك ثلاثةً أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلةَ إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذابِ بعد الوصول إليه.

فهذه ستَّةُ أمور ضروريةٌ للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها. فتُشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتُغيِّبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتُميِّز له بين الحق والباطلِ في كل ما اختَلف فيه العالَم. فتُريه الحق حقًّا، والباطلَ باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرِّق به بين الهدى والضلال، والغَيِّ والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياةً وسَعَةً وانشراحًا، وبهجة وسرورًا؛ فيصير في شأن والناسُ في شأنٍ آخَرَ.

فلا تزالُ معانيه تُنهض العبدَ إلى ربِّه بالوعد الجميل، وتحذِّره وتخوفِّه بوعيده من العذاب الوبيل، وتَحُثُّه على التَّضمُّرِ والتَّخفُّفِ لِلقاء اليوم الثَّقيل، وتَهديه في ظُلَم الآراء والمذاهبِ إلى سواء السَّبيل، وتصُدُّه عن اقتحام طُرُقِ البِدَع والأضاليل، وتَبعثُه على الازدياد مِن النِّعَم بشكر ربِّه الجليل، وتُبصِّره بحدود الحلال والحرام، وتَقِفُه عليها؛ لئلَّا يتعدَّاها فيقعَ في العناء الطَّويل.

وتُثبِّت قلبه عن الزَّيغ والمَيلِ عن الحقِّ والتَّحويل، وتُسهِّل عليه الأمورَ الصِّعابَ والعقباتِ الشَّاقَّةَ غايةَ التَّسهيل، وتناديه كلَّما فترتْ عزَماتُه وونى في سَيرِه: تقدَّمَ الركبُ وفاتَك الدَّليل، فاللَّحاقَ اللَّحاقَ، والرَّحيلَ الرَّحيلَ. وتَحْدو به وتسير أمامه سَيْرَ الدَّليل. وكلَّما خرج عليه كمينٌ من كمائن العدوِّ، أو قاطعٌ من قُطَّاع الطَّريق نادتْه: الحذرَ الحذرَ!

فاعتصِم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل.

وبالجملة؛ فهو أعظم الكنوز، طلسمُه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه.

نَـزِّهْ فُؤادَكَ عـن سِـوى رَوْضـاتِـه فـريـاضُـهُ حِـلٌّ لـكُـلِّ مُـنَـزِّهِ
والـفَـهـمُ طلَّـسْـمٌ لـكَـنـزِ عُـلـومِهِ فاقصِدْ إلى الطِّلَّسْمِ تَحْظَ بكَنزِهِ

* * *

مفسدات القلب الخمسة

وأمَّا مفسداتُ القلب الخمسةُ فهي الَّتي أشار إليها: من كثرة الخلطة، والتَّمنِّي، والتَّعلُّق بغير الله، والشِّبَع، والمنام.

فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

اعلم أنَّ القلب يسيرُ إلى الله والدَّارِ الآخرة، ويكشف عن طريق الحقِّ ونَهْجِه، وآفات النفس والعمل، وقطَّاع الطريق، بنوره وحياته وقوَّتِه، وصِحَّتِه وعزمه، وسلامةِ سمعِه وبصره، وغَيبةِ الشَّواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تُطفئ نورَه، وتغور عين بصيرته، وتُثقل سمعه، إنْ لم تُصِمه وتُبْكِمه وتُضعِف قُواه كلَّها، وتوهن صحَّتَه، وتُفَتِّرُ عزيمته، وتوقف همَّتَه، وتنكسه إلى ورائه، ومَن لا شعور له بهذا فميت القلب:

.... ومـا لِـجُـرحٍ بـمَـيِّـتٍ إيـلامُ

فهي عائقةٌ له عن نَيلِ كماله، قاطعةٌ له عن الوصول إلى ما خُلِق له، وجُعِل نعيمُه وسعادته وابتهاجُه ولذَّتُه في الوصول إليه؛ فإنَّه لا نعيم له ولا لَذَّةَ، ولا ابتهاج، ولا كمالَ، إلا بمعرفة الله ومحبَّتِه، والطمأنينةِ بذِكره، والفرحِ والابتهاج بقُربه، والشَّوقِ إلى لقائه؛ فهذه جنَّتُه العاجلة، كما أنَّه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوزَ إلا بجواره في دار النَّعيم في الجنَّة الآجلة، فله جنَّتان، لا يَدخُلُ الثانيةَ منهما إن لم يدخلِ الأُولى.

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ يقول: «إنَّ في الدنيا جنةً مَن لم يَدخُلْها لم يدخل جنَّةَ الآخرة».

وقال بعض العارفين: «إنه ليَمُرُّ بالقلب أوقات، أقول: إن كان أهلُ الجنَّةِ في مِثل هذا، إنَّهم لفي عيشٍ طيِّب».

وقال بعض المحبِّين: «مساكينُ أهل الدنيا، خرَجوا من الدُّنيا وما ذاقوا أطيبَ ما فيها، قالوا: وما أطيبُ ما فيها؟ قال: مَحبَّةُ الله، والأُنسُ به، والشَّوقُ إلى لقائه، والإقبالُ عليه، والإعراض عمَّا سِواه» أو نحو هذا من الكلام. وكلُّ مَن له قلب حَيٌّ يَشهَد هذا ويَعرِفه ذوقًا.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعةٌ عن هذا، حائلةٌ بين القلب وبيْنه، عائقةٌ له عن سَيره، مُحدِثةٌ له أمراضًا وعللًا إنْ لم يتداركْها المريضُ خِيفَ عليه منها.

مفاسد كثرة الخلطة

فأمَّا ما تؤَثِّره كثرةُ الخلطة: فامتلاء القلب من دُخَان أنفاس بني آدمَ حتى يَسْودَّ، ويوجب له تشتتًا وتفرُّقًا، وهمًّا وغمًّا، وضَعفًا، وحَمْلًا لِما يَعجِز عن حمله من مؤنة قُرناء السُّوء، وإضاعةِ مصالحِه، والاشتغال عنها بِهِم وبأمورهم، وتقسيم فِكره في أودية مطالبهم وإراداتهم؛ فماذا يبقى منه لله والدَّارِ الآخرة؟!

هذا، وكم جلبتْ خلطةُ الناس من نِقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطَّلتْ من مِنحة، وأحلَّت من رَزيَّة، وأوقعت في بلية؟!

وهل آفةُ النَّاسِ إلَّا الناسُ؟ وهل كان علَى أبي طالب عند الوفاة أضرَّ من قُرناء السُّوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدةٍ توجِب له سعادةَ الأبد.

وهذه الخلطة الَّتي تكون على نوع مودَّةٍ في الدنيا، وقضاءِ وَطَرِ بعضِهم من بعض تنقلب ـ إذا حَقَّتِ الحقائق ـ عداوةً، يَعَضُّ المخالِطُ عليها يديه ندمًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]

وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّخرُف: ٦٧].

ضابط نافع في الخلطة

والضَّابط النَّافعُ في أمْر الخلطة: أن يخالط النَّاسَ في الخير ـ كالجمعة والجماعات، والأعيادِ والحجِّ، وتعليم العِلم، والجهادِ، والنَّصيحة ـ ويَعتزلَهم في الشَّرِّ، وفضولِ المباحات، فإذا دعتِ الحاجة إلى خُلطتِهم في الشَّرِّ، ولم يُمكِنْه اعتزالُهم فالحذرَ الحذرَ أن يُوافِقَهم، ولْيَصبِرْ على أذاهم، فإنَّهم لا بدَّ أن يؤذوه إن لم يكن له قوَّةٌ ولا ناصر، ولكن أذًى يَعقُبه عِزٌّ ومحبةٌ له وتعظيم، وثناءٌ عليه منهم ومن المؤمنين، ومن ربِّ العالَمين، وموافقتُهم يعقبها ذُلٌّ وبغضٌ له، ومَقْتٌ، وذمٌّ منهم ومن المؤمنين، ومِن ربِّ العالَمين.

فالصَّبرُ على أذاهُم خيرٌ وأحسَنُ عاقبةً، وأحمدُ مآلًا، وإن دعتِ الحاجةُ إلى خُلطتِهم في فضول المباحات، فليجتهِدْ أن يَقلِب ذلك المجلسَ طاعةً لله إن أمكنه، ويُشجِّع نفْسَه ويقوِّي قلبه، ولا يَلتفِتْ إلى الوارد الشَّيطانيِّ القاطعِ له عن ذلك، بأنَّ هذا رياءٌ ومحبةٌ لإظهار عِلمك وحالك، ونحو ذلك، فليُحارِبه، وليستعنْ بالله، ويؤثِّر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن عجَّزتْه المقاديرُ عن ذلك، فلْيَسُلَّ قلبه من بينهم كسَلِّ الشَّعَرةِ من العجين، وليكنْ فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا؛ يَنظر إليهم ولا يُبصِرهم، ويسمع كلامهم ولا يَعيه؛ لأنَّه قد أخذ قلبَه مِن بيْنهم، ورَقَى به إلى الملإ الأعلى، يسبح حولَ العرش مع الأرواح العُلْويَّةِ الزَّكيَّة. وما أصعبَ هذا وأشقَّه على النُّفوس! وإنَّه لَيسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه؛ فبيْن العبد وبيْنه أنْ يَصدُق اللهَ، ويُديمَ اللجأ إليه، ويُلقي نفْسَه على بابه طريحًا ذليلًا، ولا يعين على هذا إلا المَحبَّةُ الصادقة، والذِّكرُ الدائم بالقلب واللِّسان، وتجنُّبُ المفسدات الأربعِ الباقيةِ الآتي ذِكرُها، ولا ينال هذا إلا بعُدَّةٍ صالحة، ومادَّةِ قوة من الله، وعزيمةٍ صادقة، وفراغٍ من التعلُّق بغير الله.

الأماني رأس مال المفاليس

المفسد الثَّاني من مفسدات القلب: ركوبُه بحرَ التَّمنِّي.

وهو بحرٌ لا ساحل له، وهو البحر الَّذي يركبه مفاليسُ العالَم،

كما قيل: إنَّ المُنى رأسُ أموال المفاليس، وبضاعةُ رُكَّابِه مواعيدُ الشياطين، وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواجُ الأماني الكاذبة، والخيالاتِ الباطلة، تتلاعب براكبِه كما يُتلاعَب بالجيفة، وهي بضاعةُ كلِّ نفْسٍ مَهينةٍ خَسيسة سُفْليَّة، ليست لها هِمَّةٌ تَنال بها الحقائقَ الخارجية، فاعتاضت عنها بالأماني الذِّهنية. فيُمثِّل المُتمنِّي صورةً مطلوبةً في نفْسه وقد فاز بوصولها، والتَذَّ بالظَّفَر بها، فبيْنا هو على هذه الحال إذ اسْتيقظ فإذا يدُه والحصير.

وصاحب الهِمَّةِ العَليَّةِ أمانيه حائمةٌ حول العلم والإيمان، والعملِ الذي يقرِّبه من ربِّه، ويُدنيه مِن جِواره.

فأماني هذا إيمانٌ ونور، وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النَّبيُّ ﷺ متمنِّي الخير، وربَّما جَعَل أجْرَه في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أنَّ لي مالًا لعمِلْتُ بعملِ فُلانٍ ـ الَّذي يتَّقي في مالِه ربَّه، ويَصِلُ فيه رحمَه، ويُخرِجُ منه حقَّه، وقال: «**هُمَا في الأجرِ سَواءٌ**»[(١)].

التعلق بغير الله

المفسد الثالثُ من مفسدات القلب: **التعلُّق بغير الله**، وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضرُّ من ذلك، ولا أقطعُ له عن الله، وأحجب له عن مصالحه وسعادته منه؛ فإنَّه إذا تعلَّق بغير الله وَكَلَه الله إلى مَن تعلَّق به، وخذَله مِن جهة مَن تعلَّق به، وفاتَه تحصيلُ مقصوده من الله بتعلُّقه بغيره، والتفاتِه إلى سواه؛ فلا على نصيبه مِن الله حصَل، ولا إلى ما أمَّله ممَّن تعلَّق به وصل؛ قال تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ۝٨٣﴾ [مريم: ٨٢ ـ ٨٣]؛ فأعظمُ النَّاسِ خِذلانًا مَن تعلَّق بغير الله، فإنَّ ما فاته مِن مصالحه

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٠٢٤)، والترمذي (٢٣٢٥)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٢٢٨) من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه.

وسعادتِه وفَلاحِه أعظمُ ممَّا حصل له ممَّن تعلَّق به، وهو مُعرَّضٌ للزَّوالِ والفوات. ومَثَلُ المتعلِّق بغير الله كمَثَل المستظِلِّ مِن الحرِّ والبردِ ببيت العنكبوت؛ أوْهَنِ البيوت.

الإسراف في الطعام

المفسد الرَّابعُ مِن مفسدات القلب: **الطَّعام**.

والمفسِدُ له من ذلك **نوعان**:

أحدهما: ما يُفسِدُه لعَيْنِه وذاتِه كالمحرَّمات، وهي محرَّماتٌ لحَقِّ الله، ومحرَّماتٌ لحق العِباد.

والثاني: ما يفسده بقَدْرِه، وتَعدِّي حدِّه، كالإسراف في الحلال، والشِّبَعِ المفرط؛ فإنَّه يُثقله عن الطَّاعات، ويَشغله بمزاولة مؤنةِ البِطنة ومحاولتِها، حتى يظفر بها، فإذا ظَفِر بها شغله بمزاولة تصرُّفها ووقايةِ ضررِها، والتَّأذِّي بثقلها، وقوَّى عليه موادَّ الشَّهوة، وطرَق مجاري الشيطان ووسَّعها؛ فإنَّه يجري من ابن آدمَ مجرى الدَّم، فالصَّوم يُضيِّق مجاريه ويَسُدُّ عليه طُرقه، والشِّبَع يطرقها ويوسِّعُها، ومَن أكل كثيرًا شرِب كثيرًا، فنام كثيرًا، فخسِر كثيرًا. وفي الحديث المشهور: «**ما مَلأَ آدَميٌّ وِعاءً شَرًّا مِن بَطْنِه، بِحَسْبِ ابنِ آدَمَ لُقَيْماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه، فإنْ كان لا بُدَّ فاعِلًا فثُلُثٌ لطَعامِه، وثُلُثٌ لشَرابِه، وثُلُثٌ لنَفَسِه**»[(١)].

مضار كثرة النوم

المفسد الخامس: **كثرة النوم**.

فإنَّه يميت القلبَ، ويُثقل البدنَ، ويضيِّعُ الوقت، ويُورث كثرةَ الغفلة والكسل، ومنه المكروه جدًّا، ومنه الضَّارُّ غير النَّافع للبدن، وأنفع النوم ما كان عِندَ شدَّةِ الحاجة إليه، ونومُ أوَّلِ اللَّيلِ أحمَدُ وأنفعُ من آخِره، ونومُ وسَطِ النَّهارِ أنفعُ من طرَفَيْه، وكلَّما قرُب النَّوم من الطَّرفينِ قلَّ نفعُه، وكثُر ضررُه، ولا سيَّما نومُ العصر والنَّومُ أوَّلَ النَّهارِ إلَّا لسهران.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠)، وقال: «حسن صحيح»، وابن حبان (٦٧٤)، والحاكم (٧١٣٩)، وصحَّحه، ووافقه الذهبيُّ، من حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه.

ومِن المكروه عندَهم النَّومُ بين صلاة الصُّبحِ وطلوعِ الشمس؛ فإنَّه وقت غَنيمة، وللسَّير ذلك الوقتَ عِندَ السَّالكينَ مَزيَّةٌ عظيمة، حتى لو ساروا طول ليلهم لم يَسمحوا بالقعود عن السَّير ذلك الوقتَ حتى تطلُع الشَّمسُ؛ فإنَّه أوَّلُ النَّهارِ ومِفتاحه، ووقتُ نزول الأرزاق، وحصول القَسْم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النَّهار، وينسحب حُكْمُ جميعِه على حكم تلك الحِصَّة؛ فينبغي أن يكون نومُها كنوم المضطر.

أعدل النوم وأنفعه

وبالجملة؛ فأعدلُ النوم وأنفعُه نوم نصفِ الليل، وسُدسِه الأخير، وهو مقدار ثمانِ ساعاتٍ، وهذا أعدلُ النومِ عند الأطباء، فما زاد عليه أو نَقَص منه أثَّر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحَسَبه.

ومِن النَّوم الَّذي لا ينفع أيضًا: النَّومُ أوَّلَ اللَّيل، عَقِيبَ غروب الشمس، حتى تذهب فَحمةُ العِشاء، وكان نبيُّ الله ﷺ يَكْرهه، فهو مكروهٌ شرعًا وطَبْعًا.

وكما أنَّ كثرة النَّومِ مُورِثة لهذه الآفات، فمدافعتُه وهَجْرُه مُطلَقًا مُورِثٌ لآفات أخرى عِظام: من سوء المزاج ويُبْسِه، وانحراف النَّفْس، وجَفاف الرُّطوبات المُعينةِ على الفَهْم والعمل، ويُورِث أمراضًا مُتلِفة لا ينتفع صاحبُها بقلبه ولا بدنه معها، وما قام الوجود إلَّا بالعدل، فمَنِ اعتَصم به فقد أخذ بحظِّه من مجامعِ الخير، والله المستعان.





[منزلة الاعتصام]

وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصامٌ بحبل الله، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والاعتصام افتِعال مِن العصمة، وهو التمسُّك بما يَعصِمك، ويَمنعك من المحذور والمَخوف؛ فالعصمة: الحِمْية، والاعتصام: الاحتماء، ومنه سُمِّيتْ القِلاعُ: العَواصمَ؛ لمنعها وحمايتها.

ومدار السَّعادة الدُّنيويةِ والأُخرويَّةِ على الاعتصام بالله، والاعتصامِ بحبله، ولا نجاةَ إلَّا لمَنِ استمسك بهاتين العِصمتين.

ثمرات الاعتصام بحبل الله تعالى

فأما الاعتصامُ بحبله فإنه يَعصِم من الضلالة، والاعتصامُ به يَعصِمُ من الهَلَكة؛ فإنَّ السَّائرَ إلى الله كالسائر على طريقٍ نحوَ مقصدِه؛ فهو محتاج إلى هداية الطَّريق، والسَّلامةِ فيها، فلا يصل إلى مقصده إلَّا بعد حصول هذين الأمْرين له؛ فالدَّليلُ كفيلٌ يَعصمه من الضَّلالة، وأن يهديَه إلى الطريق، والعُدَّةُ والقوَّةُ والسِّلاحُ بها تحصُلُ له السَّلامةُ من قُطَّاع الطَّريق وآفاتِها.

والاعتصام بحبل الله يوجِب له الهدايةَ واتِّباعَ الدَّليل، والاعتصامُ بالله يوجب له القوَّةَ والعُدَّةَ والسِّلاح، والمادَّةَ التي يَسلَم بها في طريقه؛ ولهذا اختَلفتْ عباراتُ السَّلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلِّهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عبَّاس: «تَمسَّكوا بدِينِ الله».

وقال ابن مسعود: «هو الجماعةُ». وقال: «عليكم بالجماعة؛ فإنَّها حَبلُ الله الذي أمَر به، وإنَّ ما تَكرَهون في الجماعة والطَّاعةِ خَيرٌ ممَّا تُحبُّون في الفُرقة».

وقال مجاهد وعطاء: «بعهد الله».

وقال قتادةُ والسُّديُّ وكثير من المفسِّرينَ: «هو القرآن».

وقال مقاتل: «بأمر الله وطاعتِه، ولا تَفرَّقوا كما تَفرَّقتِ اليهودُ والنصارى».

وفي «الموطَّأ» من حديث مالك، عن سُهَيلِ بنِ أبي صالِح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يَرضى لكُم ثَلاثًا، ويَسْخَطُ لكُم ثَلاثًا، يَرضى لكُم أنْ تَعبُدوه ولا تُشرِكوا بهِ شَيْئًا، وأنْ تَعتَصِموا بحَبلِ اللهِ جَميعًا، وأنْ تُناصِحوا مَن وَلَّاهُ اللهُ أمْرَكُم. ويَسخَطُ لكُم: قِيلَ وقالَ، وإضاعةَ المالِ، وكثرةَ السُّؤالِ**»[1].

وأمَّا صاحب «المنازل» فقال: (**الاعتِصامُ بحَبْلِ اللهِ هو المُحافَظةُ على طاعَتِه، مُراقِبًا لأمْرِه**).

ويريد بمراقبة الأمر: القيامَ بالطاعة لأجْل أن الله أمر بها وأحَبَّها، لا لمجرَّدِ العادة، أو لعلةٍ باعثة سِوى امتثال الأمر، كما قال طَلْقُ بنُ حبيب في التقوى: «هي العمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثوابَ الله، وترْكُ معصيَّةِ الله، على نور من الله، تخاف عقابَ الله».

وهذا هو الإيمان والاحتِسابُ المشار إليه في كلام النَّبيِّ ﷺ، كقوله: «**مَن صامَ رَمَضانَ إيمانًا واحتِسابًا**»، و«**مَن قامَ لَيلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتِسابًا، غُفِرَ له**»[2]؛ فالصِّيام والقيامُ: هو الطَّاعة، والإيمانُ: مراقبة الأمر. وإخلاص الباعث: هو أن يكون الإيمانُ الآمِرَ لا شيءَ سِواه. والاحتِساب: رجاءُ ثواب الله؛ فالاعتصامُ بحبل الله يَحمي من البِدعة وآفاتِ العمل.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠) (٢٠)، ومسلم (١٧١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢١٤)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأمَّا الاعتصامُ به فهو التَّوكُّل عليه، والامتناعُ به، والاحتماء به، وسؤالُه أن يَحميَ العبد ويمنعه، ويَعصِمَه ويدفعَ عنه؛ فإنَّ ثمرة الاعتصام به هو الدَّفعُ عن العبد، والله يدفع عن الَّذين آمنوا، فيَدفع عن عبده المؤمنِ به إذا اعتَصم به كلَّ سبب يُفضي إلى العطب، ويحميه منه، فيدفع عنه الشُّبهاتِ والشَّهوات، وكيْدَ عدوِّه الباطن والظَّاهر، وشَرَّ نفْسِه، ويدفع عنه موجبَ أسباب الشَّرِّ بعد انعقادها، بحسَب قوَّةِ الاعتصام به وتمكُّنِه، فينعقد في حقِّه أسبابُ العطب، فيدفع عنه موجباتِها ومسبباتها، ويدفع عنه قدَرَه بقَدَرِه، وإرادتَه بإرادتِه، ويُعيذه به منه.

درجات الاعتصام بالله تعالى

قال: (وهو على دَرَجاتٍ:

[الدَّرجة الأُولى]: اعتِصامٌ بالخَبَرِ، استِسْلامًا وإذْعانًا بتَصديقِ الوَعْدِ والوَعيدِ، وتَعْظيمِ الأمْرِ والنَّهيِ، وتَأسيسِ المُعاملةِ على اليَقينِ والإنْصافِ).

يعني: اعتصَموا بالخبر الواردِ عن الله، استِسلامًا من غير منازعة، بل إيمانًا واستسلامًا، وانقادوا إلى تعظيم الأمر والنَّهيِ والإذعان لهما، والتَّصديقِ بالوعد والوعيد، وأسَّسوا معاملتَهم على اليقين، لا على الشَّكِّ والتردُّد، وسلوكِ طريقة الاحتياط.

وأمَّا الإنصاف الذي أسَّسوا معاملتهم عليه، فهو الإنصاف في معاملتهم لله ولخلْقه؛ فأما الإنصاف في معاملة الله فأنْ يُعطيَ العبوديةَ حقَّها، وألَّا ينازع ربَّه صفاتِ إلٰهيَّتِه التي لا تليق بالعبد ولا تنبغي له؛ من العظمة والكبرياء والجبروت.

ومن إنصافه لربه ألَّا يَشكرَ سواه على نِعَمه وينساه، ولا يستعينَ بها على معاصيه، ولا يَحمَدَ على رِزقه غيرَه، ولا يَعبُدَ سواه، كما في الأثر الإلٰهي: «**إنِّي والجنَّ والإنسَ في نَبأٍ عظيمٍ؛ أخلُقُ ويُعبَدُ غَيْري، وأرزُقُ ويُشكَرُ سِواي**»[١].

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٩٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان =

وفي أثرٍ آخَرَ: «**ابنَ آدمَ، ما أنصَفْتَني، خَيري إليكَ نازِلٌ، وشَرُّكَ إليَّ صاعِدٌ، أتحَبَّبُ إليكَ بالنِّعَمِ وأنا عنكَ غَنيٌّ، وتَتبَغَّضُ إليَّ بالمعاصي وأنتَ فقيرٌ إليَّ، ولا يَزالُ المَلَكُ الكريمُ يَعرُجُ إليَّ منكَ بعملٍ قَبيحٍ**»[(١)].

وفي أثرٍ آخَرَ: «**يا ابنَ آدمَ، ما مِن يَومٍ جديدٍ، إلَّا يَأتيكَ مِن عِندي رِزقٌ جديدٌ، وتَأتي عنكَ المَلائكةُ بعملٍ قَبيحٍ، تَأكُلُ رِزْقي وتَعصيني، وتَدْعوني فأستَجيبُ لكَ، وتَسألُني فأُعطيَكَ، وأنا أدعوكَ إلى جَنَّتي فتَأبى ذلكَ، وما هذا مِنَ الإنصافِ**».

وأما الإنصاف في حق العبيد، فأن يعاملهم مِثلَ ما يُحِبُّ أن يعاملوه به.

[الدرجة الثانية]: قال: (واعتِصامٌ بالانقِطاعِ، وهو صَوْنُ الإرادةِ قَبْضًا، وإسْبالُ الخُلُقِ على الخَلْقِ بَسْطًا، ورَفْضُ العَلائِقِ عَزْمًا، وهو التَّمَسُّكُ بالعُرْوةِ الوُثْقى).

يريد: انقطاعَ النفْسِ عن أغراضها من هذه الوجوه الثَّلاثة، فيَصون إرادته ويَقبِضُها عما سوى الله سبحانه.

الثاني: إسبال الخُلُق على الخَلق بسطًا؛ فإنَّ حسن الخُلق وتزكيةَ النفْس بمكارم الأخلاق يدلُّ على سَعة قلب صاحبه، وكرَم نفْسه وسجيَّته. وفي هذا الوصف يكف الأذى، ويحمل الأذى، ويوجد الراحة، ويُدير خدَّه الأيسر لِمَن لطمه على الأيمن، ويعطي رداءه لِمَن سلَبَه قميصه، ويمشي مِيلَينِ مع مَن سخَّره ميلًا، وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه وأغراضها.

= (٤٢٤٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٧٧) من حديث أبي الدرداء ﵁، وضعَّفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٢٣٧١).

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٤٠) عن مالك بن دينار: «قرأت في بعض الكتب...». وأيضًا في «الحلية» (٤/ ٢٧) عن وَهْب، قال: «قرأتُ في بعض الكتُب...».

وأما رفضُ العلائق عزمًا فهو العزم التامُّ على رفض العلائق، وترْكها في ظاهره وباطنِه.

والأصل هو قطع علائق الباطن؛ فمتى قطعها لم تَضُرَّه علائقُ الظَّاهر، فمتى كان المالُ في يدك وليس في قلبك لم يَضُرَّك ولو كثُر، ومتى كان في قلبك ضرَّ ولو لم يكن في يدك منه شيءٌ.

قيل للإمام أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيكونُ الرجُل زاهدًا ومعه ألْفُ دينار؟ قال: «نعم على شريطة ألَّا يَفرحَ إذا زادت ولا يَحزنَ إذا نقَصتْ». ولهذا كان الصَّحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أزهدَ الأمَّةِ مع ما بأيديهم من الأموال.

وقيل لسفيانَ الثَّوريِّ: أيكون ذو المال زاهدًا؟ قال: «نعم إن كان إذا زِيدَ في ماله شكر، وإنْ نقَص شَكَر وصَبَر».

وإنَّما يُحمَد قطعُ العلائق الظَّاهرةِ في موضعين: حيث يَخاف منها ضررًا في دينه، أو حيث لا يكون فيها مصلحةٌ راجحة، والكمال من ذلك قَطْعُ العلائق الَّتي تصير كلاليبَ على الصِّراط تمنعه من العبور، وهي كلاليبُ الشَّهوات والشُّبهات، ولا يضرُّه ما تعلَّق به بعدها.





منزلة الفرار

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: منزلةُ الفرار.

قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠].

وحقيقة الفرار: الهرَب من شيء إلى شيء، وهو نوعان: فرار السُّعداء، وفرار الأشقياء.

ففرار السُّعداء: الفرار إلى الله تعالى، وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأمَّا الفرار منه إليه ففرارُ أوليائه؛ قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾: فِرُّوا منه إليه، واعمَلوا بطاعته. وقال سهلُ بن عبد الله: «فِرُّوا ممَّا سِوى الله إلى الله». وقال آخَرون: «اهرُبوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة».

درجات الفرار وأنواعه

وقال صاحب «المنازل»: (**وهو على دَرَجاتٍ**:

[الدرجة الأولى]: فرارٌ مِنَ الجَهلِ إلى العِلْم عَقْدًا وسَعْيًا، ومِنَ الكَسلِ إلى التَّشْمير جِدًّا وعَزْمًا، ومِنَ الضِّيقِ إلى السَّعةِ ثِقةً ورَجاءً).

قوله: (**فرارٌ مِنَ الجَهلِ إلى العِلْم عَقْدًا وسَعْيًا**):

الجهل نوعان: عدم العِلم بالحقِّ النَّافع، وعدمُ العمل بموجبه ومُقتضاه؛ فكِلاهما جهلٌ لُغةً وعُرفًا، وشرعًا وحقيقة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النساء: ١٧]، قال قتادة: «أجمَعَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ أنَّ كلَّ ما عُصِيَ اللهُ به فهو جهالة»، وقال غيرُه: «أجمع الصَّحابةُ على أنَّ كل مَن عصَى اللهَ فهو جاهل».

فالفرار المذكورُ الفرارُ من الجَهْلَين: من الجهل بالعلم إلى

تحصيله، اعتقادًا ومعرفةً وبصيرة، والفرار مِن جهل العمل إلى السَّعي النَّافع، والعمل الصالح قصْدًا وسعيًا.

قوله: **(ومِنَ الكَسَلِ إلى التَّشميرِ جِدًّا وعَزْمًا)**:

أي: يفر من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل والتشميرِ بالجِدِّ والاجتهاد.

والجِدُّ هو هاهنا صِدْق العزم، وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون، وهو تَجنُّب السين، وسوف، وعسى، ولعلَّ، فهو أضرُّ شيءٍ على العبد، وهي شجرة ثَمرُها الحَسراتُ والنَّداماتُ.

والفرق بين الجِدِّ والعزم: أنَّ العزم صِدقُ الإرادة واستجماعُها، والجِدَّ صِدقُ العمل وبذلُ الجهد فيه، وقد أَمَر اللهُ سبحانه بتلقِّي أوامره بالعزم والجِدِّ؛ فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وقوله: **(ومِنَ الضِّيقِ إلى السَّعةِ ثِقةً ورَجاءً)**:

يريد: هروبَ العبد من ضِيق صدره بالهموم والغموم والأحزانِ والمخاوف التي تَعتَريه في هذه الدار من جهة نفسه، وما هو خارج عن نفسه مما يتعلَّق بأسباب مصالحه، ومصالح مَن يتعلَق به، وما يتعلَّق بماله وبَدَنِه وأهله وعدوِّه، يهرُب من ضيق صدره بذلك كلِّه إلى سَعة فضاء الثقة بالله، وصِدْقِ التَّوكُّلِ عليه، وحُسن الرجاء لجميل صُنعه به، وتوقُّع المرجوِّ من لُطفه وبِرِّه.

ومِن أحسَنِ كلام العامَّةِ قولُهم: لا هَمَّ مع الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، قال الرَّبيعُ بن خُثَيم: «يَجعل له مخرجًا من كل ما ضاق على الناس». وقال أبو العالية: «مَخرَجًا من كل شِدَّة». وقال الحسن: «مَخرَجًا ممَّا نهاه عنه»، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣]، ومَنْ يَثِقُ به في نوائبه ومهمَّاته، يَكفيه كُلَّ ما أهمَّه، والحسْبُ: الكافي: ﴿حَسۡبُنَا﴾ [آل عمران: ١٧٣]: كافينا الله.

وكلَّما كان العبدُ حسَنَ الظنِّ بالله، حسنَ الرجاء له، صادقَ التوكل عليه؛ فإن الله لا يُخيِّب أمَلَه فيه البتَّةَ، فإنه سبحانه لا يُخيِّب أمَلَ آمِلٍ، ولا يُضيِّع عملَ عامل.

وعبَّر عن الثِّقة وحُسنِ الظنِّ بالسَّعةِ؛ فإنَّه لا أشرحَ للصَّدر، ولا أوسعَ له بعد الإيمان من ثقته بالله، ورجائِه له، وحُسْنِ ظنِّه به.

الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين

[الدرجة الثانية]: قال: (فِرارٌ مِنَ الخَبَرِ إلى الشُّهودِ، ومِنَ الرُّسومِ إلى الأُصولِ، ومِنَ الحُظوظِ إلى التَّجريدِ).

يعني: أنَّهم لا يَرضَوْن أن يكون إيمانُهم عن مجرَّد خبر، حتى يَترَقَّوا منه إلى مشاهدة المُخبَر عنه، فيطلبون الترقِّي من عِلم اليقين بالخبر، إلى عين اليقين بالشُّهود، كما طلب إبراهيم الخليلُ صلوات الله وسلامه على نبيِّنا وعليه ذلك من ربِّه إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فالمراتب ثلاثٌ: عِلم يَقينٍ يحصل عن الخبَر، ثم يتجلَّى حقيقة المخبَر عنه للقلب أو البصر، حتى يصيرَ العلمُ به عينَ يقين، ثم يباشره ويلابسُه فيصير حقَّ يقين؛ فعِلمُنا بالجنة والنار الآن عِلمُ يقين، فإذا أُزلِفَتِ الجنة للمتقين في الموقف، وبُرِّزَت الجحيمُ للغاوين، وشاهَدوهما عِيانًا، كان ذلك عَينَ يقين، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٦ ـ ٧]، فإذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، فذلك حَقُّ اليقين.

وأمَّا قوله: **(ومِنَ الرُّسومِ إلى الأُصولِ)**:

فإنه يريد بالرسوم: ظواهرَ العلم والعمل، وبالأصول: حقائقَ الإيمان ومعاملات القلوب، وأذواقَ الإيمان وارداتِه؛ فإنَّ أرباب العزائم في السَّير لا يَقنعون برسوم الأعمال وظواهرها، ولا يَعتدُّون إلا بأرواحها وحقائقها.

قوله: (ومِنَ الحُظوظِ إلى التَّجريدِ):

يريد: الفرارَ مِن حظوظ النفوس على اختلاف مراتبها؛ فإنه لا يعرفها لا المُعتَنون بمعرفة الله ومُراده، وحقِّه على عبده، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتِهما، ورُبَّ مطالبَ عالية لقوم من العُبَّاد هي حظوظٌ لقوم آخرين، يستغفرون الله منها ويَفِرُّون إليه منها، يَرَوْنها حائلةً بينهم وبين مطلوبهم!

وبالجملة؛ فالحظُّ ما سِوى مرادِ الله الدِّينيِّ منك، كائنًا ما كان، وهو ما بين حظٍّ محرَّمٍ إلى مكروه إلى مباح إلى مستحبٍّ غيرُه أحبُّ إلى الله منه، ولا يتميَّزُ هذا إلا في مقام الرُّسوخ في العِلم بالله وأمرِه، وبالنَّفْسِ وصفاتها وأحوالِها. فهناك تتبيَّنُ له الحظوظُ من الحقوق، ويَفِرُّ من الحظِّ إلى التَّجريد، وأكثرُ النَّاس لا يَصلُح لهم هذا؛ لأنَّهم إنَّما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه.

وبالجملة؛ فصاحب هذا التَّجريد لا يَقنع من الله بأمْر يسكن إليه دون الله، ولا يفرح بما حصَل له دون الله، ولا يأسَى على ما فاته سوى الله، ولا يستغني برُتبة شريفة، وإنْ عظُمت عِندَه أو عند النَّاس؛ فلا يستغني إلَّا بالله، ولا يفتقر إلَّا إلى الله، ولا يفرح إلَّا بموافقته لمرضاة الله، ولا يحزن إلَّا على ما فاته من الله، ولا يخاف إلا مِن سقوطه مِن عين الله، واحتجابِ الله عنه؛ فكلُّه بالله، وكلُّه لله، وكلُّه مع الله، وسَيرُه دائمًا إلى الله، قد رُفِع له عَلَمٌ فشمَّر إليه، وتجرَّد له مطلوبُه فعمِل عليه، تُناديه الحظوظ: إليَّ، وهو يقول: إنما أريد مَن إذا حصَل لي حصَل كلُّ شيء، وإذا فاتني فاتني كلُّ شيء؛ فهو مع الله مجرَّدٌ عن خلْقه، ومع خلقه مجرَّدٌ عن نفسه، ومع الأمر مجرَّد عن حظِّه، وأعني: الحظَّ المُزاحمَ للأمر، وأما الحظُّ المُعينُ على الأمر فإنه لا يَحطُّه تناولُه عن مرتبتِه، ولا يُسقِطه من عَيْنِ ربِّه.

❁ ❁ ❁

منزلة الرِّياضة

هي: تمرينُ النفْس على الصدق والإخلاص.

قال صاحب «المنازل»: **(هي تَمرينُ النَّفْسِ على قَبولِ الصِّدقِ)**.

وهذا يُراد به أمران: تمرينُها على قَبول الصِّدقِ إذا عرَضه عليها في أقواله وأفعاله وإرادتِه؛ فإذا عرَض عليها الصِّدقَ قَبِلَتْه وانقادت له، وأذعنت له. والثاني: قَبولُ الحقِّ ممَّن عرَضه عليه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٣].

قال: **(وهيَ تَهذيبُ الأخلاقِ بالعِلْمِ، وتَصْفيةُ الأعمالِ بالإخلاصِ، وتَوفيرُ الحُقوقِ في المُعامَلةِ)**.

أمَّا تهذيب الأخلاق بالعِلم فالمراد به: إصلاحُها وتصفيتها بموجب العِلم؛ فلا يتحرَّك بحركةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ إلَّا بمقتضى العِلم؛ فتكون حرَكاتُ ظاهرِه وباطنِه موزونةً بميزان الشرع.

وأمَّا تصفيةُ الأعمال بالإخلاص فهو: تجريدُها عن أنْ يشوبَها باعثٌ لغير الله، وهو عبارة عن توحيد المراد، وتجريد الباعث إليه.

وأمَّا توفير الحقوقِ في المعاملة فهو: أن تُعطيَ ما أُمِرتَ به من حقِّ الله وحقوقِ العباد كاملًا مُوفَّرًا، قد نصحتَ فيه صاحبَ الحقِّ غايةَ النُّصح، وأرضيتَه كلَّ الرضا، ففُزتَ بحمده لك وشُكرِه.

ولمَّا كانت هذه الثَّلاثةُ شاقَّةً على النَّفْس جدًّا، كان تكلُّفُها رياضة، فإذا اعتادها صارت خُلُقًا.

❁ ❁ ❁



منزلة السَّماع

وقد أمَر الله به في كتابه، وأثنى على أهْلِه، وأخبر أنَّ البُشرى لهم، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة: ٨٣].

وجعَل الإسماعَ منه والسماعَ منهم دليلًا على عِلم الخير فيهم، وعدمَ ذلك التَّسليم على عدم الخير فيهم، فقال: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأخبَر عن أعدائه أنهم هَجروا السَّماعَ ونَهَوْا عنه، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فُصِّلَت: ٢٦].

فالسَّماع رسولُ الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه، وكمْ في القرآن من قوله: ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ٢٦﴾ [السجدة: ٢٦].

فالسَّماعُ أصلُ العقل، وأساسُ الإيمان الذي انبنى عليه، وهو رائده وجليسُه ووزيره، ولكنَّ الشَّأنَ كلَّ الشَّأنِ في المسموع. وفيه وقَع خَبْطُ الناس واختلافُهم، وغَلِطَ فيه مَن غَلِطَ.

حقيقة السماع وأعلاه

وحقيقة السَّماعِ تنبيهُ القلب على معاني المسموع، وتحريكه عنها طلبًا وهربًا، وحُبًّا وبغضًا، فهو حادٍ يَحدو بكلِّ أحد إلى وطنه ومألفِه.

وأصحاب السَّماع؛ منهم: مَن يسمع بطبعه ونفْسِه وهواه، فهذا حظُّه مِن مسموعه ما وافق طبعَه.

ومنهم مَن يسمع بحاله وإيمانِه ومعرفتِه وعقله، فهذا يُفتح له من المسموع بحسَب استعداده وقوَّتِه ومادته.

ومنهم مَن يسمع بالله، لا يسمع بغيره، كما في الحديث الإلٰهيِّ الصَّحيح: «**فَبِي يَسمَعُ، وبِي يُبصِرُ**»[١]، وهذا أعلى سماعًا، وأصحُّ من كلِّ أحد.

والكلام في السَّماع مدحًا وذمًّا يُحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقتِه وسببه، والباعثِ عليه، وثمرتِه وغايته؛ فبهذه الفصول الثَّلاثةِ يَتحرَّرُ أمرُ السَّماع، ويتميَّزُ النَّافعُ منه والضَّارُّ، والحقُّ والباطل، والممدوحُ والمذموم.

فأمَّا المسموع فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: مسموع يُحبُّه الله ويرضاه، وأمَر به عبادَه، وأثنى على أهله، ورضيَ عنهم به.

الثاني: مسموع يُبغضه ويَكرهه، ونهى عنه، ومدَحَ المُعرِضين عنه.

الثالث: مسموع مباحٌ مأذون فيه، لا يُحبُّه ولا يبغضه، ولا مدَحَ صاحبَه ولا ذمَّه؛ فحُكْمُه حُكم سائر المباحات.

السماع الممدوح في الشريعة

فأمَّا النَّوع الأوَّلُ: فهو السَّماع الَّذي مدحه الله في كتابه، وأمَر به، وأثنى على أصحابه، وذمَّ المُعرِضين عنه ولعَنَهُم، وجعَلَهم أضلَّ من الأنعام، وهُمُ القائلونَ في النَّار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠﴾ [المُلك: ١٠]، وهو سماع آياتِه المتلوَّةِ التي أنزلها على رسوله ﷺ؛ فهذا السَّماع أساسُ الإيمان الَّذي عليه بناؤه، وهو على ثلاثة أنواع: سماع إدراك بحاسَّة الأذن، وسماع فَهم وعقل، وسماع إجابة وقَبول، والثلاثة في القرآن.

فأمَّا سماعُ الإدراك، ففي قوله تعالى حِكايةً عن مؤْمني الجنِّ قولَهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١ ـ ٢]، فهذا سماعُ إدراكٍ اتَّصل به الإيمانُ والإجابة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظه: «**كنتُ سَمْعَه الذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الذي يُبصِرُ به...**».

وأما سماعُ الفَهم فهو المنفيُّ عن أهل الإعراض والغفلةِ بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٢﴾ [الروم: ٥٢]، فالتَّخصيصُ هاهنا لإسماعِ الفَهْم والعقلِ، وإلَّا فالسَّمع العامُّ الذي قامتْ به الحُجَّة لا تخصيصَ فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ أي: لو علِم الله في هؤلاء الكفَّار قَبولًا وانقيادًا لأفهمهم، وإلا فَهُمْ قد سمِعوا سمْعَ الإدراك؛ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ أي: ولو أفهمهم لَما انقادوا ولا انتفعوا بما فهِموه؛ لأنَّ في قلوبهم مِن داعي التولِّي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمِعوه.

وأمَّا سماعُ القَبول والإجابة؛ ففي قوله تعالى حكايةً عن عباده المؤمنين أنَّهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ﴾ [النور: ٥١]؛ فإن هذا سماعُ قَبولٍ وإجابة، مثمِرٌ للطاعة.

والتَّحقيق: أنَّه متضمِّنٌ للأنواع الثلاثة، وأنَّهم أخبَروا بأنَّهم أدركوا المسموع وفهِموه، وأجابوا له.

والمقصود: أنَّ سماع المقرَّبين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفَهمًا وتدبُّرًا، وإجابة، وكلُّ سماع في القرآن مَدَح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمَر به أولياءَه فهو هذا السَّماع، وهو سماع الآيات، لا سماعُ الأبيات، وسماعُ القرآن، لا سماع الشيطان، وسماع كلامِ ربِّ الأرض والسَّماء، لا سماعُ قصائدِ الشُّعراء، وسماع المراشِد، لا سماع القصائِد، وسماع الأنبياء والمرسَلينَ والمؤمنين، لا سماع المغنِّينَ والمطربين.

فهذا السَّماع حادٍ يَحدو القلوبَ إلى جِوار علَّامِ الغيوب، وسائقٌ يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحرِّكٌ يُثير ساكنَ العزَماتِ إلى أعلى المقامات وأرفعِ الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليلٌ يدلُّ الرَّكبَ في طريق الجنان، وداعٍ يدعو القلوب بالمساء والصَّباح، مِن قِبَل فالِق الإصباح: حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح.

فلن تعدم مِن هذا السماع إرشادًا لحُجَّة، وتبصرةً لعِبرة، وتذكرةً لمعرفة، وفِكرةً في آية، ودَلالةً على رشد، وردًّا عن ضلالة، وإرشادًا مِن غَيٍّ، وبصيرةً من عمًى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مَضرَّة ومفسدة، وهدايةً إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًّا على تُقى، وجِلاءً لبصيرة، وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاء، وعِصمةً ونجاة، وكشْفَ شُبْهة، وإيضاح برهان، وتحقيقَ حقٍّ، وإبطال باطل.

السماع البغيض

[النوع الثاني من السماع]: ما يُبغِضُه الله ويَكرَهه، ويَمدح المُعرِضَ عنه، وهو سماع كلِّ ما يَضُرُّ العبدَ في قلبه ودِينه، كسماع الباطل كلِّه، إلا إذا تضمَّن ردَّه وإبطاله والاعتبارَ به، بعِلمه بحُسن ضِدِّه؛ فإنَّ الضدَّ يُظهِر حُسنَه الضدُّ، كما قيل:

وإذا سَمِعْتُ إلى حديثِك زادَني ... حُبًّا لهُ سَمْعي حديثَ سِواكا

وكسماع اللَّغو الَّذي مدَح اللهُ التَّاركينَ لسماعه، والمعرِضينَ عنه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

أقسام السماع عند الهروي

قال صاحب «المنازل»: **(السَّماعُ ثلاثةُ أشْياءَ: إجابةُ زَجْرِ الوَعيدِ رَغْبةً، وإجابةُ دَعْوةِ الوَعْدِ جُهْدًا، وبُلوغُ مُشاهَدةِ المِنَّةِ استِبْصارًا)**.

الوعيد يكون على تركِ المأمور وفِعلِ المحظور، وإجابةُ داعيه هو العمل بالطَّاعة.

وقوله: **(رَغْبةً)**؛ يعني: امتثالًا لكَون الله ﷻ أمَر ونهى وأوعد.

وأما إجابة الوعد جُهدًا: فهو امتثال الأمر طلبًا للوصول إلى الموعود به، باذلًا جُهدَه في ذلك، مستفرِغًا فيه قُواه.

وأمَّا بلوغ مشاهدةِ المِنَّةِ استِبصارًا: فهو تنبُّهُ السَّامع في سماعه إلى أنَّ جميع ما وصله من خير فمِن مِنَّة الله عليه، وتفضُّلِه عليه مِن غير استحقاق منه، ولا بذلِ عِوَض استوجب به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [الحُجُرات: ١٧].

وكذلك يَشهَد أنَّ ما زُوي عنه من الدُّنيا، أو ما لَحِقه منها من ضَررٍ وأذى فهو مِنَّةٌ أيضًا مِن الله عليه مِن وجوه كثيرة، ويستخرجها الفِكرُ الصَّحيح؛ كما قال بعض السلف: «يا ابنَ آدمَ، لا تدري أي النِّعمتَينِ عليك أفضل: نعمته عليك فيما أعطاك، أو نعمته فيما زوَى عنك؟».

وقال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «لا أُبالي على أيِّ حال أصبحتُ أو أمسيت، إن كان الغنى، إنَّ فيه لَلشُّكرَ، وإن كان الفقر، إنَّ فيه لَلصَّبر».

وقال بعض السَّلف: «نِعمته فيما زَوى عنِّي من الدنيا أعظمُ من نعمته فيما بَسَطَ لي منها؛ إني رأيته أعطاها قومًا فاغتَرُّوا».

[و] المسموع كلُّه يُعرِّف به وبصفاته وأسمائه، وأفعالِه وأحكامه، ووعْده ووعيده، وأمْرِه ونهيه، وعدلِه وفضْله، وهذا الشُّهود ينال بالسماع بالله، ولله، وفي الله، ومن الله.

أمَّا **السَّماع به**: فأنْ لا يسمع وفيه بقيةٌ من نفْسه، فإن كانت فيه بقيةٌ قطعها كمالُ تعلُّقه بالمسموع، فيكون سماعُه بقيوميَّته مجرَّدًا مِن التفاته إلى نفْسه.

وأمَّا **السَّماعُ له**: فأنْ يجرِّد النفْس في السَّماع من كلِّ إرادة تُزاحم مرادَ الله منه، ويجمع قوى سمْعه على تحصيل مراد الله من المسموع.

وأمَّا **السَّماع فيه**: فشأنٌ آخَر، وهو تجريدُ ما لا يليق نِسبتُه إلى الحق من وصْف، أو سِمَةٍ أو نعت، أو فِعل، مما هو لائقٌ بكماله، فيُثبت له ما يليق بكماله من المسموع، وينزِّهه عمَّا لا يليق به.

وأمَّا **السَّماعُ منه**: فإنَّما يُتصور بواسطة، فهو سماعٌ مقيَّد، وأمَّا المطْلق فلا مطمعَ فيه إلَّا لمَنِ اختصَّه اللهُ برِسالاته وبكلامِه، ولكنَّ السَّماع لكلامه كالسَّماع منه؛ فإنَّه كلامُه الَّذي تكلَّم به حقًّا؛ فمَن سمِعه فليُقدِّر نفْسَه كأنَّه يسمعه من الله.

وبالجملة؛ فمَن قُرِئ عليه القرآنُ فليُقدِّر نفْسه كأنَّما يسمعه مِن الله

يخاطِبُه به، فإذا حصَل له مع ذلك السَّماعُ به، وله، وفيه، ازدحمت معاني المسموع ولطائفُه وعجائبه على قلبه، وازدلفت إليه بأيِّها يبدأ، فما شِئتَ مِن عِلْمٍ وحِكَمٍ، وتعرُّفٍ وبصيرة، وهدايةٍ وعِبرة.





منزلة الخوف

وهي مِن أجَلِّ منازل الطَّريقِ وأنفعِها للقلب، وفرضٌ على كل أحد، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ومَدَحَ أهلَه في كتابه وأثْنى عليهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧] إلى قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١].

وفي المسند والترمذي، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسولَ الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يَزني، ويَشرَبُ الخَمْرَ، ويَسرِقُ؟ قال: «**لا يا ابنةَ الصِّدِّيقِ، ولكنَّه الرَّجُلُ يَصومُ ويُصَلِّي ويَتصَدَّقُ، ويَخافُ ألَّا يُقبَلَ منه**»[1].

قال الحسَن رضي الله عنه: «عمِلوا واللهِ بالطاعات، واجتهَدوا فيها، وخافوا أن تُردَّ عليهم؛ إنَّ المؤمن جمَع إحسانًا وخشية، والمنافق جمَع إساءةً وأمْنًا».

و«الوَجَل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرَّهبة» ألفاظٌ متقاربة غيرُ مترادفة.

تعريف الخوف

قال أبو القاسم الجُنَيْد: «الخوف توقُّع العقوبة على مجارِي الأنفاس».

(١) أخرجه أحمد (٢٥٢٦٣)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، والحاكم (٣٤٨٦)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢).

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكُّر المَخوف.

وقيل: الخوف قوة العِلم بمجاري الأحكام. وهذا سببُ الخوف، لا أنه نفْسُه.

وقيل: الخوف هرَب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

الفرق بين الخوف وما يقاربه

و«الخشية» أخصُّ من الخوف؛ فإن الخشية للعلماء بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ: «**إنِّي أتْقاكُم لله، وأشَدُّكُم له خَشْيةً**»[(١)].

فالخوفُ حركةٌ، والخَشيةُ انْجِماعٌ، وانقباضٌ وسكونٌ، فإن الذي يرى العدوَّ والسَّيلَ ونحو ذلك له **حالتان**:

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونُه وقرارُه في مكان لا يَصِلُ إليه، وهي الخشية.

وأمَّا الرهبة: فهي الإمعان في الهرَب من المكروه، وهي ضدُّ الرَّغبةِ الَّتي هي سَفرُ القلب في طلبِ المرغوب فيه.

وبين الرَّهَب والهَرَب تناسُبٌ في اللفظ والمعنى، يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عَقْدُ تقاليب الكلمة على معنًى جامع.

وأمَّا الوَجَل: فرجفان القلب، وانصداعُه لذِكر مَن يخاف سُلطانه وعقوبتَه، أو لرؤيته.

وأمَّا الهيبة: فخوف مقارن للتَّعظيم والإجلال، وأكثرُ ما يكون مع المعرفة والمَحبَّة.

والإجلال: تعظيمٌ مقرونٌ بالحبِّ.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبةُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه. وفيه عند البخاري: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له».

للمحبِّين، والإجلال للمُقرَّبين، وعلى قدْر العلم والمعرفة يكون الخوفُ والخشية، كما قال ﷺ: «**إنِّي لأعْلَمُكُم بالله، وأشَدُّكُم له خشية**»[(١)]. وقال: «**لو تَعْلَمونَ ما أعْلَمُ لضَحِكْتُم قَليلًا، ولَبَكَيْتُم كَثيرًا، ولَمَا تَلذَّذْتُم بالنِّساءِ على الفُرُشِ، ولَخَرَجْتُم إلى الصُّعُداتِ تَجْأرُون إلى اللهِ تعالى**»[(٢)].

فصاحب الخوف يَلتجئ إلى الهرب والإمساك، وصاحبُ الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعِلم، ومَثَلُهما مَثَل مَن لا عِلم له بالطب، ومَثَل الطبيب الحاذق؛ فالأول يلتجئ إلى الحِمية والهرب، والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء.

قال أبو حفص: «الخوف سَوط الله، يُقَوِّم به الشاردَ عن بابه». وقال: «الخوف سراج في القلب، به يُبصر ما فيه من الخير والشر. وكلُّ أحد إذا خِفتَه هرَبتَ منه إلا الله تعالى؛ فإنك إذا خِفتَه هربتَ إليه».

فالخائف هاربٌ مِن ربِّه إلى ربِّه.

قال أبو سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما فارق الخوفُ قلبًا إلا خرِب». وقال إبراهيم بن شيبان: «إذا سكَن الخوفُ القلوبَ أحرق مواضع الشهوات منها، وطرَد الدنيا عنها». وقال ذو النُّون رَحِمَهُ اللَّهُ: «الناسُ على الطريق ما لم يَزُلْ عنهم الخوفُ، فإذا زال عنهم الخوفُ ضلُّوا الطريقَ».

وقال حاتمُ الأصمُّ: «لا تَغترَّ بمكانٍ صالح؛ فلا مكانَ أصلحُ من الجنة، ولقِيَ فيها آدمُ ما لقيَ، ولا تَغترَّ بكَثرة العِبادة؛ فإنَّ إبليس بعدَ طول العِبادة لقِيَ ما لقي، ولا تغترَّ بكثرة العِلم؛ فإنَّ بَلعامَ بنَ باعُور لقيَ ما لقي، وكان يَعرِف الاسمَ الأعظم، ولا تغترَّ بلقاء الصالحين

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وفيه: «إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤١٩٠) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرج البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٤٢٦) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «**لو تَعْلَمون ما أعْلَمُ لضَحِكْتُم قليلًا، ولَبَكَيْتُم كَثيرًا**».

ورؤيتِهم؛ فلا شخصَ أصلحُ من النبي ﷺ، ولم ينتفع بلقائه أعداؤُه والمنافقون».

والخوف ليس مقصودًا لذاته، بل مقصودًا لغيره قَصْدَ الوسائل؛ ولهذا يَزول بزوال المَخُوف؛ فإن أهل الجنة لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

والخوفُ يتعلَّق بالأفعال، والمحبةُ تتعلَّق بالذَّات والصِّفات، ولهذا تتضاعفُ مَحبَّة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دارَ النعيم، ولا يلحقهم فيها خوفٌ، ولهذا كانت منزلةُ المحبة ومَقامُها أعلى وأرفعَ مِن منزلة الخوف ومَقامِه.

الخوف المحمود الصادق

والخوف المحمود الصادق: ما حالَ بيْن صاحبِه وبيْن محارِمِ الله، فإذا تجاوزَ ذلك خِيف منه اليأسُ والقنوط.

قال أبو عثمان رضي الله عنه: «صِدق الخوفِ هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا».

وسمِعت شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ يقول: «الخوف المحمودُ ما حجَزَك عن محارمِ الله».

وقال صاحب «المنازل»: **(الخَوفُ هو الانخِلاعُ مِن طُمَأْنينةِ الأمْنِ بمُطالَعةِ الخَبَرِ)**.

يعني: الخروجَ عن سكون الأمن باستحضار ما أخبَر الله به من الوعد والوعيد.

درجات الخوف

قال: **(وهو على دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: الخَوفُ مِنَ العُقوبةِ، وهو الخَوفُ الَّذي يَصِحُّ به الإيمانُ، وهو يَتولَّدُ مِن تَصديقِ الوَعيدِ، وذِكْرِ الجِنايةِ، ومُراقَبةِ العاقِبةِ.

الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: خَوفُ المَكرِ في جَرَيانِ الأنفاسِ المُستَغرِقةِ في اليَقَظةِ، المَشُوبةِ بالحَلاوةِ).

يريد: أنَّ مَن حصلت له اليقظةُ بلا غفلة، واستغرَقت أنفاسُه فيها

واستحلَى ذلك؛ فإنَّه لا أحلى من الحضور في اليقظة؛ فإنَّه ينبغي أن يَخاف المكرَ، وأن يُسلَبَ هذا الحضور، واليقظة والحلاوة؛ فكم مِن مغبوط بحاله انعكس عليه الحال، ورجَع من حُسن المعاملة إلى قبيح الأعمال، فأصبح يُقلِّب كفَّيْهِ ويضرب باليمين على الشمال؟! بينما بَدْرُ أحواله مستنيرًا في ليالي التمام، إذ أصابه الكسوفُ فدَخل في الظلام؛ فبُدِّل بالأُنس وحشةً، وبالحضور غَيبة، وبالإقبال إعراضًا، وبالتقريب إبعادًا، وبالجمع تفرقةً، كما قيل:

أحْسَنْتَ ظَنَّكَ بالأيَّامِ إذْ حَسُنَتْ ... ولمْ تَخَفْ سُوءَ ما يَأتي به القَدَرُ
وسالَمَتْكَ اللَّيالي فاغتَرَرْتَ بها ... وعِندَ صَفْوِ اللَّيالي يَحْدُثُ الكَدَرُ

❊ ❊ ❊

اعتدال الرجاء والخوف مع غلبة الحب

القلب في سَيرِه إلى الله تعالى بمنزلة الطائر؛ فالمَحبَّةُ رأسُه، والخوفُ والرجاء جَناحاه؛ فمتى سَلِمَ الرأس والجناحان فالطَّيرُ جيِّد الطيران، ومتى قُطِع الرأسُ مات الطائر، ومتى عُدم الجَناحان فهو عُرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبُّوا أن يقوى في الصحة جَناحُ الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف؛ هذه طريقةُ أبي سليمانَ وغَيرِه؛ قال: «ينبغي للقلب أن يكون الغالبُ عليه الخوفَ؛ فإنه إذا كان الغالب عليه الرجاء فسَد».

وقال غيرُه: «أكمل الأحوال: اعتدالُ الرجاء والخوف، وغلبةُ الحب؛ فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائقٌ، والله المُوصِل بمَنِّه وكرمه».





منزلة الإشفاق

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور: ٢٥ ـ ٢٧].

الإشفاق: رِقَّة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لِمَن يخاف عليه؛ فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة؛ فإنها ألطف الرحمة وأرقُّها؛ ولهذا قال صاحب «المنازل»: (**الإشفاقُ: دَوامُ الحَذَرِ، مَقْرونًا بالتَّرَحُّم، وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الأُولى: إشفاقٌ على النَّفْسِ أنْ تَجْمَحَ إلى العِنادِ).

أي: تُسرِع وتذهب إلى طريق الهوَى والعِصيان، ومعاندة العبودية.

الخوف من حبوط العمل

(**وإشفاقٌ على العَمَلِ أنْ يَصيرَ إلى الضَّياعِ**).

أي: يخاف على عمَله أن يكون من الأعمال التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمال الَّتي كانت لغير الله، وعلى غير أمْره وسُنَّةِ رسوله. ويخاف أيضًا أن يضيع عملُه في المستقبل؛ إمَّا بتركه، وإمَّا بمعاصٍ تغرقه وتحيط به، فيذهب ضائعًا، ويكون حالُ صاحبه كالحال الَّتي قال الله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يومًا: «فيمَن تَرَوْن هذه الآيَة نزلتْ؟

فقالوا: الله أعلم، فغضِب عُمر، وقال: قولوا: نَعْلَم، أو لا نعلم، فقال ابن عباس ﵄: في نفْسي منها شيءٌ يا أميرَ المؤمنين، قال: يا ابنَ أخي، قُلْ، ولا تَحقِرَنَّ نفسَك، قال ابن عباس ﵄: ضُرِبتْ مَثَلًا لعمَل، قال عمر: أيُّ عمَل؟ قال ابن عباس: لعَمل، قال عمر: لرجُلٍ غنيٍّ يَعمل بطاعة الله، فبعث اللهُ له الشيطان، فعمِل بالمعاصي حتى أغرق أعمالَه»[(١)].

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: إشفاقٌ على الوَقتِ أنْ يَشوبَه تَفرُّقٌ**).

أي: يَحذر على وقته أنْ يخالَطه ما يُفرقه عن الحضور مع الله ﷻ.

قال: (**وعلى القلبِ أنْ يُزاحِمَه عارِضٌ**).

والعارض المزاحِم إما فَترة، وإما شُبهة، وإما شهوة، وكل سبب يعوق السالك.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: إشفاقٌ يَصونُ سَعْيَه عنِ العُجْبِ، ويَكُفُّ صاحِبَه عن مُخاصَمةِ الخَلْقِ، ويَحْمِلُ المُريدَ على حِفْظِ الجِدِّ**).

الأول يتعلق بالعمل، والثاني بالخُلق، والثالث بالإرادة، وكلٌّ منها له ما يُفسده.

فالعُجب: يُفسد العملَ كما يُفسده الرياءُ، فيُشفِق على سَعيه من هذا المفسد شفقةً تصونه عنه.

[والمخاصمة] للخَلق مفسدة للخُلق، فيشفق على خُلقه مِن هذا المفسد شفقةً تصونه عنه.

والإرادة يفسدها عدم الجِدِّ، وهو الهزلُ واللعب، فيشفق على إرادته ممَّا يفسدها.

فإذا صحَّ له عملُه وخُلُقه وإرادته استقام سلوكُه وقلبه وحالُه، والله المستعان.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣٨).



منزلة الخشوع

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بيْن إسلامِنا وبيْن أن عاتبَنا اللهُ بهذه الآية إلا أربعُ سِنينَ»[١]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إنَّ الله استبطأ قلوبَ المؤمنين، فعاتبَهم على رأس ثلاثَ عشرةَ سَنَةً مِن نزول القرآن».

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

مفهوم الخشوع وحقيقته

والخشوع في أصل اللُّغة: الانخفاض، والذُّلُّ، والسُّكون؛ قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]؛ أي: سكنتْ، وذَلَّتْ، وخضَعت، ومنه وصفُ الأرض بالخشوع، وهو يبسها، وانخفاضها، وعدمُ ارتفاعها بالرِّي والنبات. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فُصِّلَت: ٣٩].

والخشوع: قيام القلب بين يدَيِ الرَّبِّ بالخضوع والذِّلَّة، والجمعيَّةِ عليه. وقيل: الخشوع الانقيادُ للحق. وهذا من موجبات الخشوع؛ فمن علاماته: أنَّ العبد إذا خولِف ورُدَّ عليه بالحقِّ استقبَل ذلك بالقَبول والانقياد. وقيل: الخشوع: خمود نيرانِ الشهوة، وسكون دُخَانِ الصَّدر، وإشراقُ نور التَّعظيم في القلب.

وقال الجُنَيد رحمه الله: «الخشوع: تذلُّلُ القلوب لعلام الغيوب».

الخشوع في القلب

وأجمع العارفون على أنَّ الخشوع محلُّه القلب، وثمرته على

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٧).

الجوارح؛ فهي تُظهره، ورأى النبيُّ ﷺ رجُلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لو خَشَعَ قلْبُ هذا، لخشَعَتْ جَوارِحُه**»[(١)]. وقال النبيُّ ﷺ: «**التَّقْوى هاهنا**»، وأشار إلى صدره ثلاثَ مرَّاتٍ[(٢)].

وقال بعض العارفين: «حُسْنُ أدبِ الظاهر، عنوانُ أدبِ الباطن».

ورأى بعضُهم رجُلًا خاشعَ المَنكِبَينِ والبدن، فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا، وأشار إلى صدره، لا هاهنا، وأشار إلى منكبيه.

وكان بعض الصَّحابة رضي الله عنهم، يقول: «إيَّاكم وخشوعَ النِّفاق، فقيل له: وما خشوعُ النفاق؟ قال: أن يُرى البدنُ خاشعًا والقلب غيرُ خاشع»[(٣)].

ورأى عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه رجلًا طأطأ رقبته في الصَّلاة، فقال: «يا صاحبَ الرَّقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوعُ في الرقاب، إنَّما الخشوعُ في القلوب».

ورأت عائشةُ رضي الله عنها شبابًا يمشون ويَتماوَتون في مِشْيَتِهم، فقالت لأصحابها: «مَن هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرَب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو النَّاسِك حقًّا».

وقال الفُضَيل بن عِياض: «كان يُكره أن يُريَ الرجلُ من الخشوع أكثرَ ممَّا في قلبه».

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١٣١٠ و١٤١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (ص١٧٨): «سنده ضعيف». وحكم عليه الألباني بالوضع في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١١٠). وأخرجه المروزي «في تعظيم قدر الصلاة» (١٥٠) من قول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه. وأخرجَه ابن المبارك في «الزهد» (١١٨٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٣٠٩) من قول ابنِ المسيِّب.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٧٦٢)، وابن أبي شيبة (٣٥٧١١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٦٧)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

وقال حذيفة رضي الله عنه: «أوَّل ما تَفقِدون من دينكم الخشوع، وآخِر ما تفقدون من دينكم الصَّلاة، ورُبَّ مُصَلٍّ لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا»[(١)].

وقال سَهْلٌ رحمه الله: «مَن خَشَع قلبُه، لم يَقْرَبْ منه الشيطانُ».

قال صاحب «المنازل»: **(الخُشوعُ: خُمودُ النَّفْسِ، وهُمودُ الطِّباعِ لِمُتَعاظِمٍ، أوْ مُفْزِعٍ)**.

يعني: انقباضَ النفْس والطبع، وهو خمود قُوى النفس عن الانبساط لمَن له في القلوب عظمةٌ ومهابة، أو لِما يَفزَع منه القلب.

والحقُّ: أنَّ الخشوع معنًى يَلتئِم من التعظيم، والمَحبَّةِ، والذُّلِّ والانكسار.

درجات الخشوع

قال: **(وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأولى: التَّذَلُّل للأمْرِ، والاستِسْلامُ للحُكْمِ، والاتِّضاعُ لنَظَرِ الحقِّ).

التَّذلُّل للأمر: تلقِّيه بذِلَّةِ القَبول والانقيادِ والامتثال، ومواطأةُ الظَّاهرِ الباطنَ، مع إظهار الضَّعف، والافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفِعل، والإعانة عليه حالَ الفعل، وقَبوله بعد الفعل.

وأمَّا الاستسلامُ للحُكم فيجوز أن يريد به الحُكمَ الدِّينيَّ الشَّرعيَّ، فيكون معناه عدمَ معارضته برأي أو شهوة. وأن يريد به: الاستِسلامَ للحُكم القَدَريِّ، وهو عدمُ تلَقِّيه بالتَّسخُّط والكراهةِ والاعتراض.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١٠٠٣)، وابن أبي شيبة (٣٤٨٠٨)، والحاكم (٨٤٤٨)، وقال: صحيح الإسناد، بلفظ: «**أوَّلُ ما تَفقِدون مِن دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دِينكم الصَّلاة**». وأخرج الدَّارمي (٢٩٦)، والحاكم (٣٣٨) من حديث عُبادةَ بن الصامت رضي الله عنه: «يوشك أن تدخل مسجدَ الجماعة فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا»، وقال الذهبي: «صحيح».

والحقُّ: أن الخشوع هو الاستِسلامُ للحُكمين، وهو الانقيادُ بالمَسكنة والذُّلِّ لأمْره وقَضائِه.

وأما الاتِّضاعُ لنظر الحقِّ، فهو اتِّضاع القلب والجوارح، وانكسارُها لنظر الربِّ إليها، واطِّلاعِه على تفاصيلِ ما في القلب والجوارح، وهذا أحدُ التَّأويلينِ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: ٤٠]، وهو مَقامُ الربِّ على عبده بالاطلاع والقُدرةِ والرُّبوبيَّة. فخَوفُه من هذا المقام يوجِب له خشوعَ القلب لا محالة، وكلما كان أشدَّ استحضارًا له كان أشدَّ خشوعًا، وإنما يفارِق القلبَ إذا غَفَل عن اطِّلاع اللهِ عليه، ونظرِه إليه.

والتأويل الثاني: أنه مَقامُ العبد بين يديْ ربِّه عند لقائه.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: تَرَقُّبُ آفاتِ النَّفْسِ والعمَلِ، ورُؤيةُ فَضْلِ كلِّ ذي فَضْلٍ عليكَ**).

يريد: انتظارَ ظهورِ نقائصِ نفسِكَ وعملِك وعيوبِهما لك؛ فإنَّه يجعل القلبَ خاشعًا لا محالة، لمطالعة عيوب نفْسِه وأعمالِها ونقائصها: من الكِبر، والعُجب، والرِّياء، وضَعْفِ الصِّدق، وقلَّةِ اليقين، وتشتُّتِ النِّيَّة، وعدم تجرُّد الباعث من هوًى نفْساني، وعدم إيقاع العمل على الوجه الَّذي ترضاه لربِّك، وغير ذلك من عيوب النفس، ومفسدات الأعمال.

وأمَّا رؤيةُ فضْلِ كلِّ ذي فضْلٍ عليك، فهو أن تراعي حقوقَ الناس فتؤدِّيَها، ولا ترَى أنَّ ما فعلوه من حقوقك عليهم، فلا تعاوضهم عليها؛ فإنَّ هذا من رُعونات النَّفْس وحماقاتها، ولا تطالبهم بحقوق نفْسك، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم، وتنسى فضل نفْسك.

وسمِعت شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ يقول: العارف لا يَرى له على أحد حقًّا، ولا يشهد له على غيره فضلًا؛ فلذلك لا يُعاتِب، ولا يُطالِب، ولا يُضارِب.

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: حِفْظُ الحُرمةِ عِندَ المُكاشَفةِ، وتَصفيةُ الوَقتِ مِن مُراءاةِ الخَلْقِ، وتَجريدُ رُؤْيةِ الفضْلِ)**.

أمَّا حِفْظُ الحرمة عند المكاشفةِ فهو ضبْط النَّفْس بالذُّلِّ والانكسار عن البسط والإدلال، الَّذي تقتضيه المكاشفة؛ فإنَّ المكاشفة توجب بَسْطًا، ويُخاف منه شطْح، إنْ لم يَصحبْه خشوعٌ يحفظ الحرمة.

وأمَّا تصفيةُ الوقت من مُراءاة الخلْق، فلا يريد به أن يصفي وقتَه عن الرِّياء؛ فإنَّ أصحاب هذه الدَّرجةِ أجلُّ قدرًا وأعلى من ذلك.

وإنَّما المراد: أن يُخفيَ أحواله عن الخلْق جهْدَه، كخشوعه وذُلِّه وانكساره؛ لئلا يراها النَّاسُ فيُعجبَه اطِّلاعُهم عليها، ورؤيتُهم لها، فيفسد عليه قلبه ووقته وحاله مع الله تعالى. وكم قد اقتُطِع في هذه المَفازة من سالك؟! والمعصوم مَن عصمه الله؛ فلا شيءَ أنفعُ للصادق من التحقُّق بالمسكنة والفاقةِ والذُّل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يصحَّ له بعدُ الإسلامُ حتى يدَّعيَ الشرف.

ولقد شاهدتُ مِن شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ من ذلك أمرًا لم أشاهِدْه من غيره، وكان يقول كثيرًا: «ما لي شيء، ولا منِّي شيء، ولا فيَّ شيء».

وكان كثيرًا ما يتمثَّلُ بهذا البيت:

أنا المُكَدِّي وابنُ المُكَدِّي ... وهكذا كان أبي وَجَدِّي

وكان إذا أُثنيَ عليه في وجْهِه يقول: «والله إنِّي إلى الآن أُجدِّد إسلامي كلَّ وقت، وما أسلمتُ بعدُ إسلامًا جيدًا».

وبَعَث إليَّ في آخر عمره قاعدةً في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبياتٌ بخطه مِن نظْمِه:

أنا الفَقيرُ إلى رَبِّ البَرِّياتِ ... أنا المُسَيْكِينُ في مَجمُوعِ حالاتِي
أنا الظَّلُومُ لنَفْسِي وهيَ ظالِمَتي ... والخيرُ إنْ جاءَنا مِن عِندِه يَاتِي
لا أستَطيعُ لنَفْسي جَلْبَ مَنفَعةٍ ... ولا عنِ النَّفْسِ لي دَفْعُ المَضَرَّاتِ

وليس لِي دُونَه مَوْلًى يُدَبِّرُني ... ولا شَفيعٌ إلى رَبِّ السَّمَواتِ
إلَّا بإذْنٍ مِنَ الرَّحمٰنِ خالِقِنا ... إلى الشَّفيعِ كما قد جَا بآياتِ
ولسْتُ أمْلِكُ شيئًا دُونَهُ أبَدًا ... ولا شَريكٌ أنا في بعضِ ذَرَّاتِ
ولا ظَهيرٌ لهُ كَيْ يَستَعينَ بهِ ... كما يَكونُ لأربابِ الولاياتِ
والفَقْرُ لي وصْفُ ذاتٍ لازِمٌ أبدًا ... كما الغِنى أبدًا وصْفٌ لهُ ذاتِي
وهذه الحالُ حالُ الخَلْقِ أجمَعِهم ... وكلُّهُم عِندَه عَبْدٌ لهُ آتِي
فمَن بَغَى مَطْلَبًا مِن غَيرِ خالِقِهِ ... فهو الجَهولُ الظَّلومُ المُشرِكُ العاتِي
والحَمدُ للَّهِ مِلْءَ الكَونِ أجْمَعِهِ ... ما كان منهُ وما مِن بَعدِه ياتِي

وأمَّا تجريدُ رؤية الفضل، فهو ألَّا يرى الفضل والإحسانَ إلا من الله؛ فهو المانُّ به بلا سبب منك، ولا شفيعٍ لك تقدَّم إليه بالشفاعة، ولا وسيلةٍ سبَقتْ منك توسَّلْتَ بها إلى إحسانه.

مقصود الصلاة ولبها

فإن قيل: ما تقولون في صَلاة مَن عَدِمَ الخشوع؛ هل يُعتَدُّ بها أمْ لا؟

قيل: أمَّا الاعْتِدادُ بِهَا فِي الثَّوَابِ: فلا يُعتدَّ له منها إلا بما عَقَل فيه، وخَشَع فيه لربه.

وأما الاعتدادُ بها في أحكام الدنيا، وسقوط القضاء: فإن غلَب عليها الخشوعُ وتعقُّلها اعتُدَّ بها إجماعًا، وإن غلَب عليه عدمُ الخشوع فيها، وعدم تعقُّلها، فقد اختَلف الفقهاء في وجوب إعادتها، فأوْجَبها [قوم]:

قالوا: لأنَّ الخشوع والعقلَ رُوحُ الصلاة ومقصودُها ولُبُّها، فكيف يُعتدُّ بصلاةٍ فَقَدتْ رُوحَها ولُبَّها، وبقيتْ صورتُها وظاهرُها؟!

قالوا: ولو ترَك العبدُ واجبًا مِن واجباتها عمدًا لأبطلها تَرْكُه، وغايته: أن يكون بعضًا من أبعاضها بمنزلة فوات عضوٍ من أعضاء العبد المُعتَق في الكفَّارة، فكيف إذا عَدِمتْ رُوحَها، ولُبَّها ومَقصودَها؟ وصارتْ بمنزلة العبد الميِّت، فإذا لم يُعتدَّ بالعبد المقطوع اليد، يُعتِقه تَقرُّبًا إلى الله تعالى في كفَّارة واجبة، فكيف يُعتدُّ بالعبد الميِّت؟!

ولهذا قال بعض السَّلَف: الصلاةُ كجارية تُهدى إلى ملِكٍ من الملوك، فما الظنُّ بمَن يُهدي إليه جاريةً شلَّاءَ، أو عوراءَ، أو عمياءَ، أو مقطوعةَ اليد والرجل، أو مريضةً، أو زَمِنةً، أو قبيحةً، حتى يُهدي جاريةً ميتة بلا رُوح أو جارية قبيحة، فهكذا الصلاةُ التي يُهديها العبدُ، ويَتقرَّب بها إلى ربِّه تعالى! والله طيِّبٌ لا يَقبَل إلا طيِّبًا، وليس من العمل الطيب صلاةٌ لا رُوحَ فيها، كما أنه ليس من العِتق الطيِّب عِتْقُ عبدٍ لا رُوحَ فيه.

خطورة تعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع: تعطيلٌ لمَلِكِ الأعضاء عن عبوديته، وعَزْلٌ له عنها، فماذا تُغْني طاعةُ الرَّعية وعبوديَّتُها، وقد عُزِلَ مَلِكُها وتعطَّل؟

قالوا: والأعضاء تابعةٌ للقلب، تَصلُح بصلاحه، وتَفسُد بفساده، فإذا لم يكن قائمًا بعبوديته، فالأعضاء أوْلى ألا يُعتدَّ بعبوديَّتها، وإذا فَسدتْ عبوديتُه بالغفلة والوسواس فأنَّى تَصِحُّ عبوديةُ رعيَّتِه وجُندِه ومادَّتُهم منه، وعن أمره يَصدُرون، وبه يأتمرون؟!

فبالجملة؛ مصلحة الإخلاص والحضور، وجمعيةِ القلب على الله في الصلاة أرجحُ في نظر الشارع من مصلحة سائِر واجباتها؛ فكيف يُظَنُّ به أنه يُبطلها بترك تكبيرة واحدة، أو اعتدال في رُكن، أو ترْكِ حَرْفٍ، أو شَدَّةٍ من القراءة الواجبة، أو ترْكِ تسبيحة أو قول: سمِع الله لِمَن حمِدَه، أو قول: ربَّنا ولك الحمدُ، أو ذِكْرِ رسولِه بالصلاة عليه، ثم يُصحِّحها مع فوات لُبِّها، ومقصودِها الأعظم، ورُوحها وسِرِّها؟!

فهذا ما احتجَّت به هذه الطائفةُ، وهي حُجَجٌ كما تراها قوَّة وظهورًا.

[قال أصحاب القول الآخَر]: شرائعُ الإسلامِ على الأفعال الظاهرة، وأما حقائقُ الإيمان الباطنةُ فتلك عليها شرائعُ الثواب والعقاب، فلله تعالى حُكْمانِ: حُكمٌ في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح، وحُكْمُ الآخرة على الحقائق والبواطن.

نعم؛ لا يَحصُل مقصودُ هذه الصلاة من ثواب الله عاجلًا ولا آجِلًا، فإن للصلاة مزيدًا عاجلًا في القلب من قوة إيمانه، واستنارتِه، وانشراحه وانفساحه ووجْدِ حلاوةِ العبادة، والفرح والسرور، واللَّذَّةِ التي تحصُل لمَن اجتمع قلبه وهمُّه على الله، وحضَرَ قلبُه بين يديه، كما يحصُل لمن قرَّبه السلطان منه، وخصَّه بمناجاته والإقبالِ عليه، والله أعلى وأجلُّ.

وكذلك ما يَحصُل لهذا من الدِّرجات العُلى في الآخرة، ومُرافَقة المقرَّبين؛ كُلُّ هذا يَفوتُه بفواتِ الحضور والخشوع، وإنّ الرجُلَين ليكونُ مَقامُهما في الصفّ واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض! وليس كلامُنا في هذا كلِّه.

فإن أردتُم وجوبَ الإعادة لتَحصُل هذه الثمراتُ والفوائدُ فذاك إليه، إن شاء أن يُحصِّلها وإن شاء أن يُفوِّتها على نفْسِه، وإن أردتم بوجوب الإعادة أنَّا نُلزِمه بها ونُعاقِبه على ترْكِها، ونُرتِّبَ عليه أحكامَ تاركِ الصَّلاةِ فلا.

وهذا القول الثَّاني أرجحُ القَولين، والله أعلم.





منزلة الإخبات

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ [الحج: ٣٤]، ثم كشف عن معناهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحج: ٣٥]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٣﴾ [هود: ٢٣].

مفهوم الإخبات وحقيقته

الخَبْتُ في أصل اللُّغة: المكان المنخفضُ من الأرض، وبه فَسَّر ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما وقَتادةُ رحمه الله لفظ المُخبِتين، وقالا: هُم المتواضعون.

قال مجاهد: «المخبِت: المطمئِنُّ إلى الله عز وجل».

وقال الأخفش: «الخاشِعون».

وقال إبراهيم النَّخَعيُّ: «المخلِصون».

وقال الكَلْبيُّ: «هُمُ الرَّقيقةُ قلوبُهم».

وقال عمرو بن أوْس: «هُمُ الَّذين لا يَظلِمون، وإذا ظُلِموا لم يَنتصِروا».

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التَّواضع، والسكون إلى الله تعالى، ولذلك عُدِّي بإلى تضمينًا لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله.

قال صاحب «المنازل»: **(هو مِن أوَّلِ مَقامات الطُّمَأْنينةِ)**.

كالسكينة، واليقين، والثِّقة بالله ونحوها؛ فالإخبات مقدمتها ومبدؤها.

أهمية الإخبات في حياة السالكين

قال: **(وهو وُرُودُ المُسافِرِ مِنَ الرُّجُوعِ والتَّرَدُّدِ)**.

لـمَّا كان الإخباتُ أوَّلَ مَقامٍ يتخلَّص فيه السالك من التردُّد،

والسالك مسافر إلى ربه، سائر إليه على مدى أنفاسه، لا ينتهي سَيرُه إليه ما دام نفَسُه يصحبه؛ شَبَّه حصول الإخبات له بالماء العذب الذي يَرِدُه المسافر على ظمأٍ وحاجة في أول مَناهِله، فيَرويه مورِدُه، ويُزيل عنه خواطرَ تردُّده في إتمام سفره، أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر، فإذا ورد ذلك الماءَ زال عنه التَّردُّدُ وخاطرُ الرجوع.

كذلك السَّالكُ إذا ورد مورد الإخبات تخلَّص من التردُّد والرُّجوع، ونزَل أوَّلَ منازل الطُّمأنينة لسفره، وجَدَّ في السير.

درجات الإخبات

قال: (وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:

الدَّرَجةُ الأُولَى: أن تَستَغرِقَ العِصْمةُ الشَّهْوةَ، وتَستَدْرِكَ الإرادةُ الغَفْلةَ، ويَستَهْوِيَ الطَّلَبُ السَّلْوةَ).

المريد السَّالك: تَعرِضُ له غفلةٌ عن مراده، تُضعِف إرادتَه. وشهوةٌ تُعارِض إرادتَه فتصُدُّه عن مراده. ورجوعٌ عن مراده، وسلوة عنه.

فهذه الدَّرجةُ من الإخبات تَحميه عن هذه الثَّلاثة، فتستغرق عِصمتُه شهوتَه.

والعصمة: هي الحماية والحفظ، والشَّهوة: المَيل إلى مطالبِ النفْس، والاستِغراق للشيء: الاحتواء عليه والإحاطةُ به.

يقول: تغلب عصمتُه شهوتَه وتَقهَرُها، وتستوفي جميعَ أجزائها. فإذا استوفت العصمةُ جميعَ أجزاء الشَّهوةِ فذلك دليل على إخباته ودخولِه في مقام الطُّمأنينة، ونزوله منازلَها، وخلاصه في هذا المنزل من تردُّد الخواطر بين الإقبال والإدبار، والرُّجوعِ والعزم، إلى الاستقامة والعزم الجازم، والجِدِّ في السير، وذلك علامة السكينة.

وتَستَدرِكُ إرادتُه غفلتَه، والإرادة عند القوم: هي اسمٌ لأوَّل منازل القاصِدينَ إلى الله، والمريد هو الَّذي قد خرج من وطن طبعِه ونفْسِه، وأخذ في السَّير إلى الله والدَّارِ الآخرة، فإذا نزل في منزلة الإخبات

أحاطت إرادتُه بغفلته، فاستدركها، واستدرك بها فارِطَها.

وأمَّا استِهواءُ طلبه لسَلْوَتِه: فهو قهْرُ محبَّتِه لسلوته، وغلبتها له، بحيث تَهوِي السلوة وتسقط، كالذي يهوي في بئر.

وهذا علامة المَحبَّةِ الصَّادقة أن تقهر واردَ السَّلوة، وتدفنها في هُوَّة لا تحيا بعدها أبدًا.

فالحاصل: أنَّ عصمته وحمايتَه تقهر شهوتَه، وإرادتَه تقهر غفلتَه، ومحبَّته تقهر سَلْوَته.

التحذير من مزالق السالكين

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: أن لا يَنقُضَ إرادَتَهُ سَبَبٌ، ولا يُوحِشَ قَلْبَهُ عارِضٌ، ولا يَقْطَعَ عليهِ الطَّريقَ فِتْنةٌ)**.

هذه ثلاثة أمور أخرى، تعرض لصاحب الإرادة: سببٌ يَعرِض له ويَنقُض عزمَه وإرادته، ووحشةٌ تَعرِض له في طريق طلبه، ولا سيما عند تفرُّدِه، وفتنةٌ تخرج عليه، تقصد قطع الطريق عليه.

فإذا تمكَّن من منزل الإخبات اندفعت عنه هذه الآفات؛ لأنَّ إرادته وجِدِّيَّةَ السَّيرِ لم يَنقُضْها سببٌ من أسباب التخلُّف.

والنَّقض: هو الرُّجوع عن إرادته، والعدول عن جهة سفره.

ولا يُوحِش أُنْسَه بالله في طريقه عارضٌ من العوارض الشواغل للقلب، والجواذب له عمَّن هو متوجِّهٌ إليه.

والعارض: هو المخالف؛ كالشَّيء الذي يَعترِضك في طريقك، فيجيء في عرضها.

ومِن أقوى هذه العوارضِ عارضُ وحشة التَّفرُّد، فلا يلتفت إليه، كما قال بعض العارفين: «انفرادك في طريق طلبِك دليلٌ على صِدْق الطلب». وقال آخَرُ: «لا تَستَوحِشْ في طريق الحق من قِلَّة السالكين، ولا يُغتر في الباطل بكثرة الهالكين».

وأمَّا الفتنةُ الَّتي تقطع عليه الطَّريقَ فهي الواردات التي تَرِد على القلوب، تمنعها من مطالعة الحقِّ وقصْدِه، فإذا تمكَّن من منزل

الإخبات وصحَّةِ الإرادة والطَّلبِ لم يَطمَع فيه عارِضُ الفتنة.

وهذه العزائم لا تَصِحُّ إلَّا لمَن أشرقت على قلبه أنوارُ آثار الأسماء والصِّفات، وتجلَّت عليه معانيها، وكافَحَ قلبَه حقيقةُ اليقين بها.

وقد قيل: مَن أخذ العِلم مِن عينِ العِلم ثبت، ومَن أخذه من جريانه أخذَتْه أمواجُ الشُّبَه، ومالت به العبارات، واختلفت عليه الأقوال.

عواقب الوقوف عند مدح الناس وذمهم

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: أنْ يَستَوِيَ عِندَه المَدْحُ والذَّمُّ، وتَدُومُ لائِمَتُه لِنَفْسِه، ويَعْمَى عن نُقْصانِ الخَلْقِ عن دَرَجَتِه**).

اعلم أنَّه متى استقرَّتْ قَدَمُ العبد في منزلة الإخبات وتمكَّن فيها، ارتفعت همَّتُه، وعلَتْ نفسُه عن خطَفات المدح والذَّمِّ، فلا يفرح بمدح النَّاس، ولا يحزن لذمِّهم، هذا وصْفُ مَن خرَج عن حظِّ نفسه، وتأهَّل للفناء في عبودية ربه، وصار قلبه مُطَّرِحًا لأشعة أنوار الأسماء والصفات، وباشَرَ حلاوةَ الإيمان واليقين قلْبُه.

والوقوف عند مدح النَّاس وذمِّهِم: علامة انقطاع القلب، وخُلُوِّه من الله، وأنَّه لم تباشِرْه رُوحُ محبَّتِه ومعرفته، ولم يَذُقْ حلاوة التَّعلُّق به والطُّمأنينة إليه.

سمات النفس اللوامة

قوله: (**وأنْ تَدُومَ لائِمَتُه لِنَفْسِه**) فهو أنَّ صاحب هذا المنزل لا يرضى عن نفسه، وهو مُبغِضٌ لها، مُتَمَنٍّ لمفارقتها.

والمراد بالنَّفْس عند القوم: ما كان معلولًا من أوصاف العبد، مذمومًا من أخلاقه وأفعاله، سواء كان ذلك كَسْبيًّا له أو خَلْقيًّا، فهو شديد اللائمة لها، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ٢]، قال سعيد بن جُبَير وعِكْرِمةُ: «تَلوم على الخير والشر، ولا تصبر على السراء، ولا على الضراء».

وقال قتادة: «اللَّوَّامة: هي الفاجرة».

وقال مجاهد: «تندم على ما فات، وتقول: لو فعلت؟ ولو لم أفعل؟».

وقال الفَرَّاء: «ليس مِن نفْسٍ بَرَّةٍ ولا فاجرةٍ إلَّا وهي تلوم نفْسَها، إن كانت عمِلتْ خيرًا قالت: هلَّا زِدْت؟ وإن عمِلت شرًّا قالت: ليتني لم أفعل».

وقال الحسَن: «هي النَّفْسُ المؤمنة؛ إنَّ المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلَّا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلامي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بكذا؟ وما أردت بكذا؟ وإنَّ الفاجر يمضي قُدُمًا قُدُمًا، ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها».

وقال مقاتل: «هي النَّفْس الكافرة، تلوم نفْسَها في الآخرة على ما فرَّطَتْ في أمر الله في الدنيا».

والقصد: أنَّ مَن بَذَلَ نفسه لله بصِدْقٍ كَرِه بقاءَه معها؛ لأنَّه يريد أن يتقبَّلَها مَن بُذِلت له؛ لأنَّه قد قرَّبها له قُربانًا، ومَن قرَّب قُربانًا فتُقُبِّل منه، ليس كمَن رُدَّ عليه قُربانُه، فبقاء نفسه معه دليلٌ على أنه لم يُتَقبَّل قُربانُه.

وأيضًا فإنَّه من قواعدِ القوم المُجمَعِ عليها بينهم، التي اتفقت كلمة أولِّهِم وآخِرِهم، ومُحِقِّهم ومُبطِلِهم عليها: أنَّ النَّفْسَ حجابٌ بين العبد وبين الله تعالى، وأنه لا يصل إلى الله حتى يقطع هذا الحجاب، كما قال أبو يَزيدَ: «رأيت ربَّ العزة في المنام، فقلت: ربي، كيف الطريق إليك؟ فقال: خَلِّ نفسَك وتَعالَ».

فالنَّفْس جبلٌ عظيم شاقٌّ في طريق السَّير إلى الله، وكلٌّ سائر فلا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلا بد أن ينتهيَ إليه، ولكن منهم مَن هو شاقٌّ عليه، ومنهم من هو سهْلٌ عليه، وإنه لَيَسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه.

وفي ذلك الجبلِ أوديةٌ وشعوب، وعَقَبات ووُهود، وشَوكٌ

وعَوْسَج، وعليق وشِبْرق ولصوصٌ يقتطعون الطريق على السائرين، ولا سيَّما أهلِ الليل المُدلِجين، فإذا لم يكُن معهم عُدَدُ الإيمان، ومصابيحُ اليقين تتَّقِد بزيت الإخبات، وإلا تعلَّقتْ بهم تلك الموانع، وتشبَّثت بهم تلك القواطعُ، وحالتْ بينهم وبين السير.

وأكثر السَّائرينَ منه رجَعوا على أعقابهم لمَّا عجزوا عن قطعه واقتحامِ عقبته، والشَّيطانُ على قُلَّة ذلك الجبل يحذِّر النَّاسَ من صعوده وارتقائه، ويخوِّفُهم منه، فيتَّفِق مشقَّةُ ذلك الجبل، وقعودُ ذلك المخوف على قُلَّتِه، وضعفُ عزيمة السائر ونيته، فيتولد من ذلك الانقطاعُ والرجوع، والمعصوم مَن عصمه الله.

وكلَّما رقيَ السائر في ذلك الجبل اشتدَّ به صياحُ القاطع، وتحذيرُه وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قُلَّته: فإذا المخاوف كلُّهُنَّ أمان، وحينئذ يسهُل السَّير، وتزول عنه عوارض الطَّريق، ومشقةُ عقباتها، ويرى طريقًا واسعًا آمِنًا، به المنازل والمناهلُ، وعليه الأعلام، وفيه الإقامات، قد أُعِدَّتْ لركب الرحمٰن.

فبيْن العبد وبين السَّعادة والفلاح: قوةُ عزيمة، وصبرُ ساعة، وشجاعةُ نفْس، وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

أهمية اشتغال العبد بنفسه

وقوله: **(ويَعْمَى عن نُقْصانِ الخَلْقِ عن دَرَجَتِه)**.

يعني: أنَّه ـ وإن كان أعلى ممَّن دونه مِنَ النَّاقصينَ عن درجته ـ إلَّا أنَّه لاشتغاله بالله، وامتلاءِ قلبه من محبَّتِه ومعرفتِه، والإقبال عليه يَشتغل عن ملاحظة حالِ غيره، وعن شهود النِّسبةِ بين حاله وأحوالِ الناس، ويرى اشتغاله بذلك والتفاتَه إليه نزولًا عن مقامه، وانحطاطًا عن درجته، ورجوعًا على عَقِبه.

فإن هجم عليه ذلك ـ بغير استِدعاء واختيار ـ فليُداوِه بشهود المِنَّة، وخَوفِ المكر، وعدمِ عِلمه بالعاقبة التي يوافي عليها. والله المستعان.

منزلة الزهد

قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]. وقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤] الآية. وقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥] إلى قوله: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧]. وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٧ ـ ٨]، وقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣] (إلى قوله): ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٥].

والقرآن مملوءٌ من التَّزهيد في الدنيا، والإخبارِ بخِسَّتها، وقِلَّتِها وانقطاعها، وسرعةِ فنائها، والتَّرغيبِ في الآخرة، والإخبارِ بشرفها ودوامها وسرعةِ إقبالها، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤْثِر منهما ما هو أولى بالإيثار.

ما قيل في الزهد

وقد أكثر النَّاسُ في الكلام في الزُّهد، وكلٌّ أشار إلى ذَوقه، ونَطَق عن حاله وشاهده، فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم، والكلامُ بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذَّوق، وأقرَبُ إلى الحجَّة والبرهان.

وسمِعت شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ يقول: «الزُّهد: ترْكُ ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترْك ما تَخاف ضررَه في الآخرة».

وهذه العبارة مِن أحسَنِ ما قيل في الزُّهد والورع وأجمعِها.

قال سفيانُ الثَّوريُّ: «الزُّهد في الدُّنيا قِصَرُ الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء».

وقال الجُنَيد: «سمِعتُ سَريًّا يقول: إنَّ الله تعالى سَلَب الدُّنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وِداده؛ لأنَّه لم يَرضَها لهم».

وقال: «الزُّهد في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٣]؛ فالزاهد لا يفرح من الدُّنيا بموجود، ولا يأسَف منها على مفقود».

وقال يحيى بن معاذ: «الزُّهد يورث السَّخاء بالمِلك، والحبُّ يورث السَّخاء بالرُّوح».

وقال ابن الجَلَّاء: «الزُّهد هو النَّظرُ إلى الدُّنيا بعين الزوال، فتصغُر في عينيك، فيسهُل عليك الإعراضُ عنها».

وقال ابنُ خَفِيف: «علامةُ الزُّهدِ وجودُ الرَّاحة في الخروج من الملك».

وقال أيضًا: «الزهد سُلُوُّ القلب عن الأسباب، ونفْضُ الأيدي من الأملاك».

وقيل: هو عزوف القلب عن الدُّنيا بلا تكلُّف.

وقال الجُنَيد: «الزهد خُلُوُّ القلب عمَّا خلتْ منه اليد».

وقال الإمام أحمد: «الزهد في الدنيا قِصَرُ الأمل».

وعنه رواية ثانية: «أنَّه عدمُ فرحِه بإقبالها، ولا حزنه على إدبارها. فإنَّه سُئِل عن الرجُل يكون معه ألفُ دينار، هل يكون زاهدًا؟ فقال: نعم، على شريطة أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت».

وقال عبد الله بن المبارك: «هو الثِّقة بالله مع حبِّ الفقر».

وهذا قول شَقيق ويوسفَ بنِ أسباط.

وقال عبد الواحد بن زيد: «ترْك الدِّينار والدِّرهم».

وقال أبو سليمانَ الدَّارانيُّ: «ترْك ما يشغل عن الله. وهو قول الشِّبْلي».

وسأل رُوَيمٌ الجُنَيدَ عن الزهد؟ فقال: «استِصغار الدُّنيا، ومحْوُ آثارها من القلب».

وقال مرة: «هو خلوُّ اليد عن الملك، والقلبِ عن التتُّبع».

وقال يحيى بن معاذ: «لا يبلغ أحد حقيقةَ الزهد حتى يكون فيه ثلاثُ خِصال: عمَلٌ بلا علاقة، وقولٌ بلا طمَع، وعِزٌّ بلا رياسة».

وقال أيضًا: «الزاهد يُسْعِطُك الخَلَّ والخَرْدل، والعارف يُشِمُّك المِسك والعَنبر».

وقيل: «حقيقة الزهد هو: الزهد في النفْس». وهذا قول ذي النُّون المصري.

وقيل: «الزهد: الإيثار عند الاستغناء، والفُتُوَّة: الإيثار عند الحاجة». قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وقال رجُلٌ ليحيى بن معاذ: «متى أدخُلُ حانوت التوكُّل، وألْبَس رِداء الزاهدين، وأقعد معهم؟ فقال: إذا صِرْتَ من رياضتك لنفْسك إلى حدٍّ لو قطع الله الرِّزق عنك ثلاثةَ أيام لم تَضعُفْ نفسُك، فأمَّا ما لم

تبلغْ إلى هذه الدرجة فجلوسك على بِساط الزاهدين جَهْلٌ، ثم لا آمَنُ عليك أن تَفتضح».

درجات الزهد

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: «الزُّهد على **ثلاثة أوجُه**:

الأوَّل: ترْكُ الحرام، وهو زهد العوامِّ.

والثاني: تركُ الفضول من الحلال، وهو زهد الخواصِّ.

والثالث: تركُ ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين».

وهذا الكلام من الإمام أحمدَ يأتي على جميع ما تقدَّم من كلام المشايخ رضي الله عنهم، مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته. وهو من أجمَعِ الكلام، وهو يدلُّ على أنَّه رضي الله عنه من هذا العِلم بالمحلِّ الأعلى. وقد شهِد الشافعيُّ رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياءَ، أحدُها الزُّهد.

والَّذي أجمَعَ عليه العارفون أنَّ الزُّهد سفَرُ القلب من وطن الدُّنيا، وأخْذُه في منازلِ الآخرة. وعلى هذا صَنَّف المتقدِّمون كُتُبَ الزهد.

كالزُّهد لعبد الله بن المبارك، وللإمامِ أحمدَ، ولوَكِيع، ولهَنَّاد بن السَّري، ولغيرهم.

متعلقات الزهد وضوابطه

ومتعلِّقُه ستَّةُ أشياءَ، لا يستحقُّ العبدُ اسمَ الزهد حتى يزهد فيها، وهي: المال، والصُّوَر، والرِّياسة، والنَّاس، والنَّفْس، وكلُّ ما دون الله.

وليس المراد رفْضَها من الملك، فقد كان سليمانُ وداودُ عليهما السلام مِنْ أَزْهَدِ أَهْلِ زمانهما، ولهما من المال والنِّساءِ والملك ما لهما، وكان نبيُّنا صلى الله عليه وسلم أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة. وكان عليُّ بن أبي طالب، وعبد الرحمٰن بن عوف، والزُّبير، وعثمانُ رضي الله عنهم من الزهَّاد، مع ما لهم من الأموال، وكان الحَسن بن عليٍّ رضي الله عنهما من الزُّهَّاد، مع أنَّه كان من أكثرِ الأُمَّة محبَّةً للنساء ونكاحًا لهن وأغناهم، وكان عبد الله بن المبارك من الأئمَّة الزُّهَّاد، مع مال كثير، وكذلك اللَّيث بن سعد وسفيانُ من أئمَّة الزُّهَّاد، وكان له رأسُ مال يقول: «لولا هو لَتَمَنْدَلَ بنا هؤلاء».

ومِن أحسَنِ ما قيل في الزُّهد، كلامُ الحَسن أو غيرِه: «ليس الزُّهدُ

في الدُّنيا بِتَحريم الحَلالِ، ولا إضاعةِ المالِ؛ ولكنْ أن تكونَ بما في يدِ اللهِ أوثَقَ مِنكَ بما في يدِكَ، وأن تكونَ في ثَوابِ المُصيبةِ ـ إذا أُصِبتَ بها ـ أرغَبَ مِنكَ فيها لو لَمْ تُصِبْكَ»؛ فهذا مِن أجمَعِ كلامٍ في الزهد وأحسَنِه. وقد رُوِيَ مرفوعًا[(١)].

الشبهات برزخ بين الحلال والحرام

قال: (وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:

الدَّرَجةُ الأُولى: الزُّهدُ في الشُّبهةِ، بَعْدَ تَرْكِ الحَرامِ بِالحَذَرِ مِنَ المَعْتَبةِ، والأَنَفةِ مِنَ المَنْقَصةِ، وكَراهةِ مُشارَكةِ الفُسَّاقِ).

أمَّا الزُّهدُ في الشُّبهة: فهو ترْك ما يشتبه على العبد هل هو حلال، أو حرام؟ كما في حديث النُّعمان بن بَشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: «**الحَلالُ بَيِّنٌ، والحَرامُ بَيِّنٌ، وبيْن ذلك أُمورٌ مُشْتَبِهاتٌ، لا يَعلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ، فمَنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ اتَّقى الحَرامَ، ومَن وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعي يَرعَى حَوْلَ الحِمَى، يوشِكُ أن يَرتَعَ فيهِ، ألا وإنَّ لكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمَى اللهِ مَحارِمُه، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ لها سائِرُ الجَسَدِ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ لها سائِرُ الجَسَدِ، ألا وهيَ القَلبُ**»[(٢)].

فالشبهات بَرْزَخٌ بين الحلال والحرام.

وقد جَعَل الله عَزَّ وَجَلَّ بين كل مُتبايِنَينِ بَرْزخًا، كما جعل الموت وما بعده برزخًا بين الدنيا والآخرة، وجعل المعاصيَ برزخًا بين الإيمان والكفر، وجَعَل الأعراف برزخًا بين الجنة والنار.

وكذلك منازل السَّير: بين كل منزلتين منها برزخٌ يعرِفه السائر في تلك المنازل، وكثير من الأحوال والواردات تكون برازِخَ، فيَظنُّها

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٠)، وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وابن ماجه (٤١٠٠) مرفوعًا من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٣١٩٤): «ضعيف جدًّا».

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

صاحبُها غايةً، وهذا لم يتخلص منه إلا فقهاءُ الطريق، والعلماء الأدِلَّةُ فيها.

وقوله: **(بَعْدَ تَرْكِ الحَرامِ)**؛ أي: ترْكُ الشُّبهة لا يكون إلا بعد ترْك الحرام.

وقوله: **(بِالحَذَرِ مِنَ المَعْتَبةِ)**؛ يعني: أن يكون سبب ترْكه للشبهة: الحذر من توجُّه عَتْبِ الله عليه.

وقوله: **(والأنَفةِ مِنَ المَنْقَصةِ)**؛ أي: يأنَف لنفْسه مِن نقْصِه عند ربه، وسقوطِه من عينه، لا أنفَته مِن نقْصِه عند الناس، وسقوطِه من عيونهم، وإن كان ذلك ليس مذمومًا، بل هو محمود أيضًا؛ ولكن المذموم: أن تكون أنفتُه كلُّها من ذلك، ولا يأنف من الله.

وقوله: **(وكَراهةِ مُشارَكةِ الفُسَّاقِ)**؛ يعني: أن الفساق يزدحمون على مواضعِ الرغبة في الدنيا، ولتلك المواقف كَظيظٌ من الزحام، فالزاهد يأنَف مِن مشاركتهم في تلك المواقف، ويرفع نفسه عنها؛ لخِسَّة شركائِه فيها، كما قيل لبعضهم: «ما الذي زهَّدك في الدنيا؟ قال: قِلَّةُ وفائها، وكثرةُ جفائها، وخِسَّةُ شركائها».

إذا لَمْ أتْرُكِ الماءَ اتِّقَاءً ... تَرَكْتُ لِكَثْرَةِ الشُّرَكاءِ فِيهِ
إذا وَقَعَ الذُّبابُ على طَعامٍ ... رَفَعْتُ يَدِي ونَفْسي تَشْتَهِيهِ
وتَجتَنِبُ الأُسُودُ وُرُودَ ماءٍ ... إذا كانَ الكِلابُ يَلَغْنَ فِيهِ

أهمية ترك الفضول

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: الزُّهدُ في الفُضُولِ؛ وهيَ ما زادَ على المُسْكةِ والبَلاغِ مِنَ القُوتِ، باغتِنامِ التَّفرُّغِ إلى عَمارةِ الوَقتِ، وحَسْمِ الجَأْشِ، والتَّحَلِّي بحِلْيةِ الأنبِياءِ والصِّدِّيقِينَ**).

والفضول: ما يفضل عن قدر الحاجة، والمُسكة: ما يُمسِك النفْسَ من القوت والشراب، واللِّباسِ والمسكن، والمنكح إذا احتاج إليه، والبلاغ هو البُلغة من ذلك، الذي يتبلَّغ به المسافر في منازل السفر كزاد المسافر، فيزهد فيما وراء ذلك، اغتنامًا لتفرُّغه لعمارة وقته.

ولمَّا كان الزُّهدُ لأهل الدَّرجة الأولى: خوفًا من المَعتبة، وحَذَرًا من المَنقصة كان الزُّهدُ لأهل هذه الدَّرجةِ أعلى وأرفع، وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله تعالى؛ لأنَّه إذا اشتغل بفضول الدُّنيا، فاته نصيبُه من انتهاز فرصة الوقت، فالوقت سَيْفٌ إن لم تقطعه قطعك.

وعمارة الوقت: الاشتغالُ في جميع آنائه بما يقرِّب إلى الله، أو يُعِين على ذلك من مأكل أو مشرب، أو مَنكَح، أو منام، أو راحة، فإنَّه متى أخذها بنِيَّةِ القوَّةِ على ما يحبُّه الله، وتجنُّبِ ما يسخطه، كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتمُّ لذة، فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللَّذاتِ والطَّيِّبات.

فالمحبُّ الصَّادقُ ربَّما كان سَيْرُه القلبيُّ في حال أكلِه وشُربِه، وجماعِ أهلِه وراحته، أقوى من سَيره البدنيِّ في بعض الأحيان.

وقد حُكيَ عن بعضهم أنه كان يَرِد عليه ـ وهو على بطن امرأته ـ حالٌ لا يعهدها في غيرها.

ولهذا سببٌ صحيح، وهو اجتماع قوى النفس، وعدمُ التفاتها حينئذ إلى شيء، مع ما يحصُل لها من السُّرور والفرحِ واللَّذَّة، والسُّرورُ يُذكِّر بالسُّرور، واللَّذَّةُ تذكِّر باللَّذَّة، فتنهض الرُّوح من تلك الفرحة واللَّذَّةِ إلى ما لا نسبة بينها وبينها بتلك الجمعيَّة، والقوة والنشاط، وقطع أسباب الالتفات، فيورثه ذلك حالًا عجيبة.

ولا تعجل بالإنكار، وانظر إلى قلبك عند هجوم أعظمِ محبوبٍ له عليه في هذه الحال، كيف تراه؟ فهكذا حالُ غيرك.

ولا ريب أنَّ النَّفْسَ إذا نالت حظًّا صالحًا من الدنيا قَوِيت به وسُرَّت، واستجمعت قواها وجمعيتها، وزال تشتُّتُها.

اللَّهُمَّ غَفرًا، فقد طغى القلم، وزاد الكَلِم، فعياذًا بك اللَّهُمَّ من مقتِك.

وأما (**حَسْم الجَأْشِ**): فهو قطع اضطراب القلب، بالتعلُّق بأسباب

الدنيا، رغبةً ورهبة، وحبًّا وبُغضًا، وسعيًا، فلا يصح الزهد للعبد حتى يقطع هذا الاضطرابَ من قلبه؛ بألَّا يلتفت إليها، ولا يتعلَّقَ بها في حالتَيْ مباشرتِه لها وترْكِه، فإن الزهد زهدُ القلب، لا زهد الترك من اليد وسائر الأعضاء، فهو تخلِّي القلب عنها، لا خُلُوُّ اليد منها.

وأما (**التَّحَلِّي بِحِلْيةِ الأنبِياءِ والصِّدِّيقِينَ**) فإنهم أهل الزهد في الدنيا حقًّا؛ إذ هُم مشمِّرون إلى عَلَم قد رُفع لهم غيرها، فهم فيها زاهدون، وإن كانوا لها مباشرين.

الزهد في الزهد

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: الزُّهدُ في الزُّهدِ، وهو بثَلاثةِ أشْياءَ: باستِحْقارِ ما زَهِدْتَ فيهِ، واستِواءِ الحالاتِ فيهِ عِندَكَ، والذَّهابِ عن شُهُودِ الاكتِسابِ، ناظِرًا إلى وادِي الحَقائِقِ**).

وقد فسَّر الشَّيخُ مرادَه بالزُّهد في الزُّهد **بثلاثة أشياء**:

أحدها: احتقارُه ما زَهِد فيه، فإنَّ مَن امتلأ قلبُه بمحبَّةِ الله وتعظيمِه، لا يرى أنَّ ما تركه لأجْلِه من الدُّنيا يَستحِقُّ أن يُجعل قُربانًا؛ لأنَّ الدُّنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جَناحَ بعوضة، فالعارف لا يرى زُهْدَه فيها كبيرَ أمرٍ يعتد به ويحتفل به، فيستحي مَن صَحَّ له الزهدُ أن يجعل لِما تركه لله قدرًا يلاحِظ زهده فيه، بل يفنى عن زهده فيه كما فنى عنه، ويستحي من ذكره بلسانه، وشهودِه بقلبه.

وأمَّا استواءُ الحالات فيه عنده: فهو أن يرى أنَّ ترْك ما زهِد فيه وأخْذَه متساويان عنده، إذْ ليس له عنده قَدْرٌ، وهذا من دقائق فقهِ الزُّهد، فيكون زاهدًا في حال أخْذِه، كما هو زاهد في حال ترْكِه، إذ همَّتُه أعلى من ملاحظته أخذًا وتركًا؛ لصِغَرِه في عينه.

وأمَّا (**الذَّهابُ عن شُهُودِ الاكتِسابِ**) فمعناه: أنَّ مَنِ استصغر الدُّنيا بقلبه، واستوت الحالاتُ في أخْذِها وترْكِها عنده: لم يرَ أنَّه اكتسب بتركها عند الله درجةً البتَّةَ؛ لأنَّها أصغرُ في عينه من أن يرى أنَّه اكتسب بتركها الدرجات.

وفيه معنًى آخَرُ: وهو أن يشاهد تفرُّدَ الله ﷻ بالعطاء والمنع، فلا يرى أنَّه ترك شيئًا ولا أخَذ شيئًا، بلِ اللهُ وحدَه هو المعطي المانع، فما أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه، كمجرى الماء في النَّهر، وما تركه لله، فالله ﷻ هو الذي مَنَعَه مِنه، فيذهب بمشاهدة الفَعَّال وحدَه عن شهود كسْبِه وترْكِه، فإذا نظر إلى الأشياء بعين الجمع، وسلك في وادي الحقيقة، غاب عن شهود اكتسابه.

إذا زَهَّدَتْني فِي الهَوى خَشْيةُ الرَّدَى جَلَتْ لي عن وَجْهٍ يُزَهِّدُ في الزُّهْدِ





منزلة الورع

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر: ٤].

قال مجاهد وقَتادة: «نفْسَك فطهِّر من الذنْب، فكنى عن النَّفْس بالثَّوب».

وهذا قول إبراهيمَ النَّخَعيِّ، والضَّحَّاك، والشَّعْبي، والزُّهْري، والمحقِّقين من أهل التفسير.

قال ابن عبَّاس: «لا تَلْبَسها على معصية ولا غدر.

ثم قال: أمَا سمِعتَ قولَ غَيلانَ بنِ سلَمةَ الثَّقَفي:

وإنِّي ـ بحَمدِ اللهِ ـ لا ثَوبَ غادِرٍ   لَبِسْتُ ولا مِن غَدْرةٍ أتَقَنَّعُ

والعرب تقول في وصف الرَّجُلِ بالصِّدق والوفاء: طاهر الثِّياب، وتقول للغادر والفاجر: دَنِس الثِّياب».

وقال أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: «لا تلبسها على غدر، ولا ظُلْمٍ ولا إثم، البَسْها وأنت بَرٌّ طاهر».

وقال الضَّحَّاك: «عملَك فأصلِح».

قال السُّدِّي: «يقال للرَّجُل إذا كان صالحًا: إنَّه لَطاهرُ الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنَّه لَخبيثُ الثياب».

وقال سعيد بن جُبَير: «وقلبَك ونيَّتَك فطهِّر».

وقال الحسَن والقُرَظي: «وخُلُقَك فحسِّن».

وقال ابنُ سِيرينَ وابنُ زيد: «أمر بتطهير الثِّياب من النَّجاسات التي

لا تجوز الصلاة معها؛ لأنَّ المشركين كانوا لا يتطهَّرون، ولا يُطهِّرون ثيابهم».

وقال طاوس: «وثيابَك فقصِّر؛ لأنَّ تقصير الثِّيابِ طُهرةٌ لها».

والقول الأوَّلُ أصحُّ الأقوال.

ولا ريب أنَّ تطهيرها من النَّجاسات وتقصيرَها من جملة التَّطهير المأمورِ به، إذْ به تمامُ إصلاح الأعمال والأخلاق؛ لأنَّ نجاسة الظَّاهرِ تورِثُ نجاسة الباطن؛ ولذلك أُمر القائمُ بيْن يدي الله بإزالتها والبُعدِ عنها.

الورع يطهر القلوب والنفوس

والمقصود: أنَّ الورع يطهِّر دنَسَ القلبِ ونجاستَه، كما يطهِّر الماءُ دنسَ الثَّوب ونجاستَه، وبيْن الثياب والقلوب مناسبةٌ ظاهرة وباطنة، ولذلك تدلُّ ثيابُ المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثِّر كلٌّ منهما في الآخر.

ولهذا نُهيَ عن لِباسِ الحَريرِ والذَّهَبِ، وجُلُودِ السِّباعِ؛ لِما تؤثِّر في القلب من الهيئة المنافية للعبوديَّةِ والخشوع. وتأثير القلب والنَّفسِ في الثِّياب أمرٌ خفيٌّ يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتى إنَّ ثوب البَرِّ ليُعرَف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

وقد جمَع النبي ﷺ الورعَ كلَّه في كلمة واحدة؛ فقال: «**مِن حُسْنِ إسلامِ المَرءِ تَرْكُه ما لا يَعْنِيه**»[1]، فهذا يَعُمُّ التَّركَ لِما لا يعني من الكلام، والنَّظرِ، والاستماع، والبطش، والمَشي، والفِكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافيةٌ شافية في الورع.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وقال: «حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه». وابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حبان (٢٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٤٨٤٠).

أقوال السلف في الورع

قال إبراهيم بن أدهم: «الورع ترْكُ كلِّ شبهة، وترْكُ ما لا يَعنِيك هو ترْكُ الفضلات».

وفي التِّرمذيِّ مرفوعًا إلى النبي ﷺ: **«يا أبا هُرَيرةَ، كُنْ وَرِعًا، تَكُنْ أعْبَدَ النَّاسِ»**[(١)].

قال الشِّبليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورع أن تتورَّع عن كلِّ ما سوى الله».

وقال إسحاق بن خلَف: «الورع في المنطق أشدُّ منه في الذَّهب والفضَّة، والزُّهدُ في الرِّياسة أشدُّ منه في الذَّهب والفضَّة؛ لأنَّهما يُبذَلان في طلب الرِّياسة».

وقال أبو سليمانَ الدَّارانيُّ: «الورع أول الزهد، كما أنَّ القناعة أوَّلُ الرضا».

وقال يحيى بن معاذ: «الورع الوقوف على حدِّ العِلم من غير تأويل».

وقال: الورع على وجهين؛ ورع في الظاهر: أن لا يتحرَّك إلا لله، وورَع في الباطن: هو أن لا يدخل قلبَك سِواه. وقال: مَن لم ينظر في الدَّقيق من الورع لم يَصِلْ إلى الجليل من العطاء.

وقيل: الورع: الخروج من الشَّهوات، وتركُ السَّيِّئات.

وقيل: مَن دَقَّ في الدنيا ورعُه ـ أو نظره ـ، جلَّ في القيامة خطره.

وقال يونس بن عُبيد: «الورع: الخروج من كلِّ شُبهة، ومحاسبةُ النَّفْس في كلِّ طَرفةِ عين».

وقال سفيان الثَّوريُّ: «ما رأيت أسهلَ من الورع، ما حاكَ في نفسك تركته».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وقال: «حديثٌ غريبٌ، لا نعرِفه إلا من حديث جعفر بن سليمان، والحسن لم يسمعْ من أبي هريرة شيئًا». وابن ماجه (٤٢١٧)، ولفظ الترمذي: «**اتَّقِ المَحارِمَ**»، وما ذَكَره ابنُ القيِّم هنا هو لفظ ابن ماجه، وقد حسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٣٠).

وقال سهْل: «الحلال هو الذي لا يُعصَى الله فيه، والصَّافي منه الذي لا يُنسَى الله فيه».

وسأل الحسَنُ غلامًا، فقال له: «ما مِلاك الدِّين؟ قال: الورع، قال: فما آفتُه؟ قال: الطمع. فعَجِبَ الحسَنُ منه».

وقال الحسنرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مثقال ذرَّةٍ من الورع خيرٌ من ألْف مثقال من الصَّوم والصَّلاة».

وقال أبو هريرة: «جُلساءُ اللهِ غدًا أهلُ الورعِ والزُّهد»[(١)].

وقال بعض السلف: «لا يبلغ العبدُ حقيقةَ التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس».

وقال بعض الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «كنا نَدَعُ سبعين بابًا من الحلال مخافةَ أن نقع في باب من الحرام»[(٢)].

وجوب الحذر من المحرمات والشبهات

قال صاحب «المنازل»: **(الوَرَعُ: تَوَقٍّ مُستَقصًى على حَذَرٍ، وتَحَرُّجٌ على تَعظِيمٍ)**.

يعني: أن يتوقَّى الحرام والشُّبَهَ، وما يخاف أن يَضُرَّه؛ أقصى ما يمكنه من التَّوقِّي. والتَّوقِّي والحذرُ متقاربان؛ إلَّا أن التَّوقِّي فِعْلُ الجوارح، والحذر فِعل القلب.

فقد يتوقَّى العبدُ الشَّيءَ لا على وجه الحذر والخوف، ولكنْ لأمور أخرى: من إظهار نزاهة، وعِزَّةٍ وتَصَوُّن، أو أغراض أُخَر، كتوقِّي الَّذين لا يؤمنون بمعاد، ولا جنَّةٍ ولا نارٍ ما يَتوقَّوْنه من الفواحش والدناءات، تصوُّنًا عنها، ورغبةً بنفوسهم عن مواقعتها، وطلبًا للمحمدة، ونحو ذلك.

وقوله: **(أو تَحَرُّجٌ على تَعظيمٍ)**؛ يعني: أنَّ الباعث على الورع عن

---

(١) أخرجه عبد الرحمٰن بن نصر في فوائده عن مشايخه (٥٥). ورُوِيَ أيضًا مرفوعًا، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣٤٦٤).

(٢) نُسِب إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: «القشيية» (ص١١٠).

المحارم والشُّبَهِ إما حذر حلول الوعيد، وإمَّا تعظيم الرب ﷻ، وإجلالًا له أن يتعرَّض لِما نهى عنه.

فالورع عن المعصية: إمَّا لخوف، أو تعظيم.

واكتفى بذِكر التَّعظيم عن ذِكر الحبِّ الباعثِ على ترك معصيةِ المحبوب؛ لأنَّه لا يكونُ إلا مع تعظيمه؛ وإلَّا فلو خلا القلبُ من تعظيمه لم تستلزم محبَّتُه ترْكَ مخالفتِه.

درجات الورع

قال: **(وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: تَجنُّبُ القَبائِحِ لِصَونِ النَّفْسِ، وتَوْفيرِ الحَسَناتِ، وصِيانةِ الإيمانِ).

هذه ثلاث فوائدِ من فوائدِ تجنُّب القبائح.

إحداها: صَوْنُ النفس؛ وهو حِفْظُها وحمايتها عمَّا يَشينها، ويَعيبها ويُزري بها عند الله وملائكته، وعبادِه المؤمنين، وسائر خلقه. فإن من كرمتْ عليه نفْسُه وكبُرت عنده: صانها وحماها، وزكَّاها وعلاها، ووضعها في أعلى المحالِّ، وزاحم بها أهلَ العزائم والكمالات، ومَن هانت عليه نفْسُه وصغُرتْ عنده ألقاها في الرَّذائل، وأطلق شِناقها، وحلَّ زِمامها وأرخاه، ودَسَّاها ولم يَصُنْها عن قبيح.

فأقلُّ ما في تجنُّب القبائح: صَونُ النَّفْس.

وأمَّا توفيرُ الحسنات فمِن **وجهين:**

أحدهما: توفير زمانِه على اكتِساب الحسنات، فإذا اشتغل بالقبائح نقصتْ عليه الحسناتُ الَّتي كان مستعِدًّا لتحصيلها.

والثاني: توفير الحسنات المفعولةِ عن نقصانها بموازنة السَّيِّئاتِ أو حبوطِها، كما تقدَّمَ في منزلة التَّوبةِ أنَّ السيئاتِ قد تُحبِط الحسناتِ، وقد تَستغرِقُها بالكلِّيَّةِ أو تنقصها، فلا بدَّ أن تُضعِفَها قطعًا، فتجنُّبها يوفر ديوانَ الحسنات، وذلك بمنزلة مَن له مال حاصل، واستدان عليه، فإمَّا أن يستغرِقه الدَّينُ أو أكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسَّيِّئات.

وأمَّا صيانةُ الإيمان فلأنَّ الإيمان عند جميع أهلِ السُّنَّةِ يَزيدُ بالطاعة، وينقص بالمعصية.

وإضعاف المعاصي للإيمان أمرٌ معلوم بالذَّوقِ والوجود، فإنَّ العبد ـ كما جاء في الحديث ـ «**إذا أذنَبَ نُكِتَ في قَلبِه نُكْتةٌ سَوْداءُ، فإنْ تابَ واستَغفَرَ صُقِلَ قَلْبُه، وإن عادَ فأذنَبَ نُكِتَ فيهِ نُكْتةٌ أُخرَى، حتَّى تَعلُوَ قَلْبَه. وذلكَ الرَّانُ الَّذي قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾** [المطففين: ١٤]»[(١)].

فالقبائح تُسَوِّد القلب، وتُطفِئ نورَه، والإيمانُ هو نور في القلب، والقبائح تَذهَب به أو تقلِّله قطعًا.

فالحسنات تَزيد نورَ القلب، والسَّيِّئاتُ تُطفِئ نورَ القلب، وقد أخبر تعالى أنَّ كَسْبَ القلوب سببٌ للرَّان الَّذي يعلوها، وأخبر أنَّه أركَسَ المنافقينَ في نفاقهم بكسْبِهم، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨]

وهذه الأمورُ الثلاثة ـ وهي صَونُ النَّفْس، وتوفيرُ الحسنات، وصيانةُ الإيمان ـ هي أرفعُ من باعث العامَّة على الورع؛ لأنَّ صاحبها أرفعُ همَّةً؛ لأنَّه عاملٌ على تزكية نفْسِه وصونِها، وتأهيلِها للوصول إلى ربِّها، فهو يصونها عمَّا يَشينها عِندَه، ويَحجُبُه عنها، ويصون حسناتِه عمَّا يُسقِطها ويُضعِفها؛ لأنَّه يسير بها إلى ربه، ويتطلَّب بها رضاه، ويصون إيمانَه بربِّه مِن حُبِّه له، وتوحيده، ومعرفتِه به، ومراقبته إياه عمَّا يطفئ نورَه، ويذهب بهجته، ويوهي قوَّتَه.

أهمية ترك بعض المباحات صيانةً للنفس

(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: حِفْظُ الحُدُودِ عِندَ ما لا بَأْسَ بِهِ، إبقاءً على الصِّيانةِ والتَّقوَى، وصُعُودًا عَنِ الدَّناءَةِ، وتَخَلُّصًا عنِ اقتِحامِ الحُدُودِ).

يقول: إن مَن صعِدَ عن الدرجة الأولى إلى هذه الدرجة من الورع

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والحاكم (٣٩٠٨)، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهو يترك كثيرًا مما لا بأس به من المباح، إبقاءً على صيانته، وخوفًا عليها أن يتكدَّر صَفْوُها، ويُطفأ نورها، فإن كثيرًا من المباح يكدِّر صفو الصيانة، ويُذهب بهجتها، ويطفئ نورها، ويُخلِق حُسنَها وبهجتها.

وقال لي يومًا شيخ الإسلام ابنُ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ في شيء من المباح: «هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن ترْكُه شرطًا في النجاة».

فالعارف يترك كثيرًا من المباح إبقاءً على صيانته، ولا سيَّما إذا كان ذلك المباحُ برزخًا بيْن الحلال والحرام.

والفرق بين صاحب الدَّرجةِ الأُولى وصاحبِ هذه: أنَّ ذاك يسعى في تحصيل الصِّيانة، وهذا يسعى في حِفْظ صفْوِها أن يتكدَّر، ونورِها أن يذهب، وهو معنى قوله: **(إبقاءً على الصِّيانةِ)**.

وأمَّا **(الصُّعُودُ عنِ الدَّناءَةِ)**: فهو التَّرفُّع عن طرقاتها وأفعالها.

وأمَّا **(التَّخَلُّصُ عنِ اقتِحامِ الحُدُودِ)** فالحدود: هي النِّهايات، وهي مقاطع الحلالِ والحرام، فحيث ينقطع وينتهي، فذلك حدُّه، فمَنِ اقتحمه وقع في المعصية، وقد نهى الله عن تعدِّي حدوده وعن قربانها، فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فإنَّ الحدود يُراد بها أواخرُ الحلال، وأوَّلُ الحرام، فحيث نهى عن التَّعدِّي فالحدودُ هناك: أواخِرُ الحلال، وحيث نهى عن القُربان فالحدود هناك: أوائل الحرام.

يقول سبحانه: لا تتعدوا ما أبحتُ لكم، ولا تقربوا ما حرمتُ عليكم.

فالورع يخلِّص العبدَ مِن قربان هذه وتعدِّي هذه، وهو اقتحام الحدود.

مَن لم يكن الله مراده أراد ما سواه

وقال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: التَّورُّعُ عن كُلِّ داعيَةٍ تَدْعُو إلى شَتاتِ الوَقتِ، والتَّعَلُّقِ بالتَّفرُّقِ، وعارِضٍ يُعارِضُ حالَ الجَمْعِ**).

الفرق بيْن شتات الوقت، والتعلُّقِ بالتَّفرُّق: كالفرق بين السبب والمسبب، والنفيِ والإثبات.

فإنَّه يتشتَّت وقته، فلا يَجِدُ بدًّا من التعلق بما سوى مطلوبه الحقِّ؛ إذ لا تعطيل في النَّفْس ولا في الإرادة، فمَن لم يكنِ اللهُ مرادَه أراد ما سِواه.

ومن لم يكن هو وحدَه معبودَه عَبَدَ ما سواه، ومن لم يكن عملُه لله فلا بد أن يعمل لغيره.

فالمخلص يصونه الله بعبادته وحدَه، وإرادةِ وجْهِه وخشيتِه وحدَه، ورجائِه وحدَه، والطلب منه، والذُّلِّ له، والافتقار إليه عن عبادة غيره، وإرادتِه وخشيتِه ورجائه، والطلب منه والذُّلِّ له، والافتقار إليه.

وإنَّما كان هذا أعلى من الدرجة الثانية: لأنَّ أربابها مشتغلون بحفظ الصِّيانة من الكدر وملاحظتها، وذلك عند أهل الدَّرجةِ الثالثة: تفرُّقٌ عن الحق، واشتغالٌ عن مراقبته بحال نفوسهم، فأدب أهلِ هذه الدَّرجةِ أدبُ حضور، وأدبُ أولئك أدبُ غَيبة.

وأمَّا (**الوَرَعُ عن كُلِّ حالٍ يُعارِضُ حالَ الجَمْعِ**).

فمعناه: أن يستغرِق العبدُ شهودَ فنائه في التوحيد، وجمعيته على الله تعالى فيه عن كل حال يعارِض هذا الفناء والجمعية.

وعلى هذا فالورع الخاصُّ: الورعُ عن كلِّ حال يعارض حالَ القيام بالأمر، والبقاء به فرقًا وجمعًا. والله المستعان.

* * *

وسائل السائرين في الوصول إلى الله

الخوف يُثمِرُ الورعَ والاستقامةَ وقِصَرَ الأمل، وقوَّةُ الإيمان باللِّقاءِ تثمر الزهد، والمعرفةُ تثمر المحبَّةَ والخوفَ والرجاء، والقناعةُ تثمر الرِّضاء، والذِّكرُ يثمر حياةَ القلب، والإيمانُ بالقدَر يثمر التَّوكُّلَ، ودوامُ

تأمُّلِ الأسماء والصِّفاتِ يثمر المعرفة، والورعُ يثمر الزُّهدَ أيضًا، والتَّوبةُ تثمر المحبَّةَ أيضًا، ودوامُ الذِّكر يثمرها، والرِّضا يثمر الشُّكرَ، والعزيمةُ والصَّبرُ يثمران جميعَ الأحوال والمقامات، والإخلاصُ والصدق كلٌّ منهما يثمر الآخَرَ ويقتضيه، والمعرفةُ تثمر حُسن الخُلُق، والفِكرُ يثمر العزيمة، والمراقبةُ تثمر عمارة الوقت وحِفْظَ الأيام والحياءَ والخشيةَ والإنابة، وإماتةُ النَّفْسِ وإذلالُها وكَسْرُها يوجب حياة القلب وعِزَّه وجبره، ومعرفةُ النَّفْسِ ومقْتُها يثمر الحياءَ من الله تعالى واستكثارَ ما منه، واستقلالَ ما منك من الطاعات، ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان، وصحةُ البصيرة تثمر اليقين، وحُسنُ التأمل لِما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوَّةِ يثمر صحةَ البصيرة.

ومِلاك ذلك كلِّه: **أمْران**:

أحدهما: أن تنقل قلبَك من وطن الدُّنيا فتُسكِنَه في وطن الآخرة.

[الثاني]: ثم تُقبِلُ به كلِّه على معاني القرآن واستجلائها وتدبُّرِها، وفهْمِ ما يراد منه، وما نزل لأجله، وأخْذِ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزيلها على أدواء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبةٌ سهلة، موصلة إلى الرَّفيق الأعلى، آمِنةٌ لا يلحق سالَكها خوفٌ ولا عطب، ولا جوعٌ ولا عطش، ولا فيها آفةٌ من آفات سائر الطُّرُق البتَّةَ، وعليها مِن الله حارسٌ وحافظ يكلأُ السَّالِكينَ فيها ويحميهم، ويَدفَعُ عنهم، ولا يعرِفُ قدْرَ هذه الطَّريقِ إلَّا مَن عرَف طُرُقَ النَّاسِ وغوائلَها وآفاتِها وقُطَّاعَها. والله المستعان.





منزلة التبتُّل

مفهوم التبتل

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزمل: ٨].

والتَّبَتُّلُ: الانقطاع، وهو تَفعُّلٌ من البَتْل، وهو القطع.

وسُمِّيت مريمُ البَتُول؛ لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نُظَراء من نساء زمانها، ففاقت نساءَ الزمان شرفًا وفضلًا، وقطعت منهن.

ومصدر تبتل: تبتلًا، كالتعلُّم والتفهُّم، ولكن جاء على التَّفعيل ـ مصدر تفعل ـ لسِرٍّ لطيف، فإنَّ في هذا الفعل إيذانًا بالتَّدريج والتَّكلُّفِ والتَّعمُّلِ والتَّكثُّر والمبالغة، فأتى بالفعل الدَّالِّ على أحدهما، والمصدرِ الدَّالِّ على الآخر، فكأنَّه قيل: بَتِّلْ نفسك إليه تبتيلًا، وتبتَّل أنت إليه تبتلًا، ففُهِم المعنيان من الفعل ومصدره، وهذا كثير في القرآن، وهو من أحسَنِ الاختصار والإيجاز.

قال صاحب «المنازل»: (**التَّبتُّلُ: الانقِطاعُ إلى اللهِ بالكُلِّيَّةِ. وقَولُه** ﷻ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]؛ **أيْ: التَّجْرِيدُ المَحْضُ**).

ومراده بالتَّجريد المَحضِ: التَّبتُّل عن ملاحظة الأعواض؛ بحيث لا يكون المتبتِّل كالأجير الذي لا يَخدُم إلَّا لأجل الأجرة، فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر، بخلاف العبد، فإنه يخدُم سيده بمقتضى عبوديَّتِه، لا للأجرة، فهو لا ينصرف عن بابه إلَّا إذا كان آبِقًا، والآبِقُ قد خرج مِن شرف العبودية، ولم يحصُل له إطلاقُ الحرِّيَّة، فصار بذلك مركوسًا عند سيِّدِه وعند عبيده، وغاية شرَفِ النَّفْس: دخولُها تحت رِقِّ العبودية طَوعًا واختيارًا ومحبة، لا كرهًا وقهرًا. كما قيل:

شَرَفُ النُّفُوسِ دُخُولُها في رِقِّهِمْ والعَبدُ يَحْوي الفَخْرَ بالمتَّمْلكِ

والَّذي حسَّنَ استشهاده بقوله: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [الرعد: ١٤] في هذا الموضع: إرادةُ هذا المعنى، وأنَّه سبحانه صاحبُ دعوةِ الحقِّ لذاته وصفاته، وإن لم يوجب لداعيه بها ثوابًا، فإنَّه يستحقُّها لذاته، فهو أهلٌ أن يُعبَد وحدَه، ويُدعى وحدَه، ويُقصَد ويُشكر ويُحمد، ويُحَبَّ ويُرجى ويُخاف، ويُتوكَّلَ عليه، ويُستعان به، ويُستجار به، ويُلجأ إليه، ويُصمَد إليه، فتكون الدَّعوةُ الإلٰهيَّةُ الحقُّ له وحدَه، ومَن قام بقلبه هذا ـ معرفةً وذوقًا وحالًا ـ صحَّ له مقام التبتُّل، والتجريد المحض.

وقد فسَّر السلف دعوةَ الحقِّ بالتَّوحيد والإخلاصِ فيه والصِّدق، ومرادهم هذا المعنى.

فقال عليٌّ رضي الله عنه: «دَعوةُ الحقِّ: التَّوحيدُ».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «شَهادةُ أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ».

وقيل: الدُّعاء بالإخلاص، والدُّعاءُ الخالص لا يكون إلَّا لله، ودعوة الحقِّ دعوةُ الإلٰهيَّةِ وحقوقُها وتجريدها وإخلاصها.

درجات التبتل

قال: (**وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولَى: تَجرِيدُ الانقِطاعِ عنِ الحُظُوظِ، واللُّحُوظِ إلى العَالَمِ، خَوفًا، أو رَجاءً، أو مُبالاةً بحالٍ).

قلتُ: التبتُّل يجمع أمْرين اتِّصالًا وانفصالًا، لا يصح إلا بهما.

فالانفصال: انقطاع قلبِه عن حظوظ النَّفْسِ المزاحمةِ لمراد الرَّبِّ منه، وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله، خوفًا منه، أو رغبةً فيه، أو مبالاةً به، أو فِكرًا فيه، بحيث يشغل قلبه عن الله تعالى.

والاتِّصال: لا يصحُّ إلَّا بعد هذا الانفصال، وهو اتِّصال القلب بالله، وإقبالُه عليه، وإقامة وجهه له، حبًّا وخوفًا ورجاء، وإنابةً وتوكُّلًا.

ثمرة رضا العبد بحكم الله

ثم ذكر الشَّيخ ما يُعين على هذا التَّجريد، وبأيِّ شيءٍ يحصُل.

فقال: (**بحَسْمِ الرَّجاءِ بالرِّضا، وقَطْعِ الخَوفِ بالتَّسْليمِ، ورَفْضِ المُبالاةِ بِشُهُودِ الحَقيقَةِ**).

يقول: إنَّ الَّذي يَحسِمُ مادةَ رجاءِ المخلوقينَ من قلبك هو الرِّضا بحُكم الله ﷻ وقَسْمِه لك؛ ومَن رضيَ بحُكم الله وقَسمِه، لم يَبقَ لرجاء الخلْقِ في قلبه موضع.

والَّذي يَحسِم مادَّةَ الخوف: هو التَّسليم لله، فإن مَن سَلَّم لله واستسلم له، وعلِم أنَّ ما أصابه لم يكن ليُخطِئَه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبَه، وعلِم أنَّه لن يصيبه إلَّا ما كَتَب الله له ـ لم يَبقَ لخوف المخلوقين في قلبه موضعٌ أيضًا، فإنَّ نفْسَه الَّتي يَخاف عليها قد سلَّمها إلى وليِّها ومولاها، وعلِم أنَّه لا يصيبها إلَّا ما كُتِب لها، وأنَّ ما كُتب لها لا بد أن يصيبها، فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

وفي التَّسليم أيضًا فائدةٌ لطيفة، وهي أنَّه إذا سَلَّمها لله فقد أودعها عنده، وأحرزها في حِرزه، وجعلها تحت كَنَفِه، حيث لا تنالها يدُ عادٍ، ولا بَغْيُ باغٍ.

والَّذي يَحسِم مادَّةِ المبالاة بالنَّاسِ شهودُ الحقيقة، وهو رؤية الأشياء كلِّها من الله، وبالله، وفي قبضته، وتحت قهرِ سلطانه، لا يتحرَّكُ منها شيءٌ إلَّا بحوله وقوته، ولا ينفع ولا يَضرُّ إلَّا بإذنه ومشيئته، فما وجهُ المبالاة بالخلْق بعد هذا الشُّهودِ؟

أهمية قطع تعلق النفوس بهواها

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: تَجْريدُ الانقِطاعِ عنِ التَّعريجِ على النَّفْسِ بمُجانَبةِ الهَوى، وتَنَسُّمِ رَوحِ الأُنْسِ، وشَيْمِ**[1] **بَرْقِ الكَشْفِ**).

الفرْق بين هذه الدَّرجةِ والَّتي قبلها: أنَّ الأُولى انقطاعٌ عن الخلْق، وهذه انقطاع عن النَّفْس، وجعَله **بثلاثة أشياءَ**:

أولاها: مجانبة الهوى ومخالَفتُه، ونَهْيُ النفْس عنه؛ لأن اتِّباعه يَصُدُّ عن التبتُّل.

وثانيها: ـ وهو بَعد مخالفة الهوى ـ تنسُّم رَوح الأُنس، والرَّوح

---

(١) تقول: **شام البَرق**: أي: نظَر إلى سحابته أين تمطر، **وشام مخايل الشيء**: تطلَّع نحوها ببصره مُنتظرًا له. انظر: «مختار الصحاح»، مادة: (شيم).

للرُّوح كالرُّوح للبدن، فهو رَوحها وراحتها، وإنما حصل له هذا الرَّوح لَمَّا أعرض عن هواه، فحينئذ تنسَّم رَوح الأنس بالله، ووجد رائحته، إذ النفْس لا بد لها من التعلق، فلما انقطع تعلُّقها من هواها، وجدت رَوح الأنس بالله، وهبَّت عليها نسماته، فريَّحَتْها وأحْيَتْها.

منتهى كشف الصادقين أرباب البصائر

وثالثها: شَيْمُ برْقِ الكشف، وهو مطالعته واستشرافُه.

[وهو] الكشف عن **ثلاثة أشياء**، هنَّ منتهى كشف الصَّادقينَ أربابِ البصائر:

أحدها: الكشف عن منازل السَّير.

والثاني: الكشف عن عيوب النَّفْس، وآفاتِ الأعمال ومفسداتها.

والثالث: الكشف عن معاني الأسماء والصِّفات، وحقائقِ التَّوحيد والمعرفة.

وهذه الأبواب الثلاثةُ هي مجامع علوم القوم، وعليها يحومون، وحولها يُدَنْدِنون، وإليها يشمِّرون، فمنهم مَن جُلُّ كلامِه ومعظمُه في السَّير وصِفَةِ المنازل، ومنهم مَن جُلُّ كلامه في الآفات والقواطع، ومنهم مَن جُلُّ كلامِه في التوحيد والمعرفة، وحقائق الأسماء والصفات.

والصَّادق الذَّكيُّ يأخُذ مِن كلٍّ منهم ما عِندَه من الحقِّ، فيستعين به على مطلبه، ولا يردُّ ما يجده عنده من الحقِّ لتقصيره في الحقِّ الآخَر، ويهدره به، فالكمال المطْلَقُ لله ربِّ العالَمين، وما مِن العباد إلَّا مَن له مقامٌ معلوم.

لزوم الإقبال على الله

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: تَجريدُ الانقِطاعِ إلى السَّبقِ بتَصحيحِ الاستِقامةِ، والاستِغراقِ في قَصدِ الوُصُولِ، والنَّظَرِ إلى أوائِلِ الجَمعِ)**.

لَمَّا جَعَل الدرجة الأولى انقطاعًا عن الخلْق، والثانية انقطاعًا عن النفس، جعَل الثالثةَ لطلب السبق، وجعَله بتصحيح الاستقامة، وهي الإعراض عمَّا سوى الحق، ولزوم الإقبال عليه، والاشتغال بمحابِّه، ثم (بالاستغراق في قصد الوصول): وهو أن يشغله طلبُ

الوصول عن كلِّ شيء، بحيث يستغرِقُ هُمومَه وعزائمَه وإرادته وأوقاته.

والذي يَظهر لي من كلامه أنَّ أوائل الجمْع مباديه ولوائحُه وبوارقه.

وبعد هذا درجةٌ رابعةٌ: وهي الانقطاع عن مراده من ربِّه، والفناء عنه إلى مُراد ربِّه منه، والفناء به، فلا يريد منه، بل يريد ما يريده، منقطعًا به عن كلِّ إرادة، فينظر في أوائل الجمع في مراده الدينيِّ الأمْريِّ الَّذي يحِبُّه ويرضاه.

وأكثر أرباب السُّلوكِ عندهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فَرْق، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ جمع.

والحقُّ: أن كُلًّا مِن مشهدَيْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ متضمِّنٌ للفرق والجمع، وكمال العبودية بالقيام بهما في كلِّ مشهد.

ففَرق: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تنوُّع ما يُعبَد به، وكثرة تعلُّقاته وضُروبِه.

وجمْعُه: توحيد المعبود بذلك كلِّه، وإرادةُ وجهِه وحدَه، والفناء عن كل حظٍّ ومراد يزاحم حقَّه ومرادَه.

وأمَّا فرْق: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فشهودُ ما يستعين به عليه، ومرتبته ومنزلته، ومحله من النَّفع والضر، وبدايته وعاقبته.

ويشهد ـ مع ذلك ـ فقرَ المستعينِ وحاجتَه ونقْصَه، وضرورتَه إلى كمالاته التي يستعين ربَّه في تحصيلها، وآفاتِه التي يستعينه في دفْعِها، ويشهد حقيقةَ الاستعانة وكفاية المستعان به، وهذا كلُّه فرْقٌ يُثمر عبوديَّةَ هذا المشهد.

وأمَّا جمْعُه: فشهود تفرُّدِه سبحانه بالأفعال، وصدور الكائنات بأسْرِها عن مشيئته، وتصريفها بإرادته وحُكمِه.

❁ ❁ ❁



منزلة الرجاء

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فابتغاء الوسيلةِ إليه: طلبُ القُرب منه بالعبوديَّة والمحبَّة، فذَكَر مقامات الإيمانِ الثلاثةَ الَّتي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرَّجاء.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ـ قبل موته بثلاث ـ: «**لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُم إلَّا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بربِّه**»[(١)]، وفي «الصحيح» عنه ﷺ «**يَقولُ اللهُ** عز وجل: **أنا عِندَ ظَنِّ عَبْدي بي، فَلْيَظُنَّ بي ما شاءَ**»[(٢)].

مفهوم الرجاء وحقيقته

«**الرجاء**» حادٍ يَحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو اللهُ والدار الآخرة، ويطيِّب لها السَّيرَ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٠١٦)، والدارمي (٢٧٧٣)، وابن حبان (٦٣٣)، والحاكم (٧٦٠٣)، وقال: «صحيح الإسناد»، وقال الذهبي: «صحيح على شرط مسلم». والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢١٠) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣١٦).

وقيل: هو الاستِبشار بوجود فضلِ الرَّبِّ تعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثِّقة بجُود الرَّبِّ.

والفرق بينه وبين التمنِّي أنَّ التَّمنِّي يكون مع الكسل، ولا يسلُك بصاحبه طريقَ الجِدِّ والاجتهاد، و«الرجاء» يكون مع بَذْلِ الجُهدِ وحُسنِ التوكل.

فالأول كحال مَن يتمنَّى أن يكون له أرضٌ يبذرها ويأخذُ زرعَها.

والثاني كحال مَن يَشقُّ أرضه ويفلِحُها ويَبذُرُها، ويرجو طلوعَ الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أنَّ الرَّجاء لا يَصِحُّ إلَّا مع العمل.

قال شاه الكرمانيُّ: «علامة صِحَّةِ الرِّجاءِ حُسنُ الطَّاعة».

أنواع الرجاء

والرَّجاءُ **ثلاثة أنواع**: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأوَّلان: رجاءُ رجُلٍ عمِلَ بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، ورجُلٍ أذنب ذنبًا ثم تاب منه إلى الله تعالى، فهو راجٍ لمغفرته.

والثالث: رجل مُتَمادٍ في التفريط والخطايا، يرجو رحمةَ الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمنِّي والرجاء الكاذب.

وللسالك نظَران: نظرٌ إلى نفسه وعيوبه وآفاتِ عمله، يفتح عليه بابَ الخوف، ونظرٌ إلى سَعة فضل ربِّه وكرمِه وبِرِّه، يفتح عليه باب الرجاء.

ولهذا قيل في حدِّ الرجاء: هو النَّظر إلى سَعة رحمة الله.

وقال أبو عليٍّ الرُّوذباريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف والرجاء كجناحَي الطائر؛ إذا استويا استوى الطَّيرُ وتَمَّ طيرانُه، وإذا نقَص أحدُهما وقَع فيه النَّقصُ، وإذا ذهَبَا صار الطائرُ في حدِّ الموت».

وسُئل أحمدُ بن عاصم: «ما علامةُ الرَّجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسانُ أُلهِم الشكر، راجيًا لتمام النعمة مِن الله

عليه في الدنيا والآخرة، وتمام عفوه عنه في الآخرة».

قال يحيى بن معاذ: «يكاد رجائي لك مع الذُّنوب يغلب على رجائي لك مع الأعمال؛ لأنِّي أجدُني أعتمِدُ في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفات معروف؟ وأجدني في الذُّنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجُود موصوف؟».

وقال أيضًا: «إلٰهي، أحلى العطايا في قلبي رجاؤُك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحَبُّ السَّاعات إليَّ ساعة يكون فيها لقاؤك».

الرجاء من أجل المنازل وأشرفها

الرجاء مِن أجَلِّ منازلهم، وأعلاها وأشرفِها، وعليه وعلى الحب والخوف مدارُ السير إلى الله، وقد مدَح الله أهله، وأثنى عليهم، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلٰهيِّ عن النبي ﷺ ـ فيما يروي عن ربه ﷻ ـ: «**يا ابنَ آدَمَ، إنَّك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غَفَرْتُ لَكَ على ما كانَ مِنكَ ولا أُبالي**»[(١)].

وقد روى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يَقولُ اللهُ ﷻ: أنا عِندَ ظَنِّ عَبْدي بي، وأنا معه إذا ذَكَرَني، فإنْ ذَكَرَني في نَفْسِه ذَكَرْتُه في نَفْسي، وإنْ ذَكَرَني في مَلإٍ ذَكَرْتُه في مَلإٍ خَيرٍ منهُم، وإنِ اقتَرَبَ إلَيَّ شِبرًا، اقتَرَبْتُ إليهِ ذِراعًا، وإنِ اقتَرَبَ إليَّ ذِراعًا، اقتَرَبْتُ إليهِ باعًا، وإنْ أتاني يَمْشي أتَيْتُه هَرْوَلَةً**»[(٢)]. رواه مسلم.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وقال: «حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والبزار (١٣/ ٦٧٦٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٢١٤٧٢)، والدارمي (٢٨٣٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه. وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد أخبر تعالى عن خواصِّ عبادِه الذين كان المشركون يزعمون أنَّهم يَتقرَّبون بهم إلى الله: أنَّهم كانوا راجينَ له، خائفينَ منه، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦ ـ ٥٧].

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدْعونهم مِن دوني: هُم عبادي، يتقربون إليَّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدْعونهم دوني؟ فأثنى عليهم بأفضلِ أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء.

ارتباط قوة الرجاء بقوة معرفة الله وأسمائه وصفاته

فقوَّةُ الرَّجاءِ على حسَب قوَّةِ المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمتِهِ غضبَه، ولولا رَوحُ الرجاء لعُطِّلتْ عبوديةُ القلب والجوارح، وهُدِّمَتْ صوامعُ، وبِيَعٌ، وصلواتٌ، ومساجدُ يُذكَر فيها اسمُ الله كثيرًا؛ بل لولا رَوح الرجاء لَما تحرَّكت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحُه الطيبةُ لَما جرت سُفُن الأعمال في بحر الإرادات، ولي من أبيات:

لولا التَّعلُّقُ بالرَّجاءِ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسُ المُحِبِّ تَحَسُّرًا وتَمَزُّقا
وكَذاكَ لولا بَرْدُهُ لِحَرارةِ ال ... أكبَادِ ذابَتْ بالحِجابِ تَحَرُّقا
أيَكُونُ قَطُّ حَلِيفُ حُبٍّ لا يُرى ... بِرَجائِهِ لِحَبِيبِهِ مُتَعلِّقا؟!
أمْ كُلَّما قَوِيَتْ مَحَبَّتُهُ لهُ ... قَوِيَ الرَّجاءُ فزادَ فيهِ تَشَوُّقا
لولا الرَّجا يَحْدُو المَطِيَّ لَمَا سَرَتْ ... بِحُمُولِها لِدِيارِهِم تَرجُو اللِّقَا

وعلى حسَب المحبَّةِ وقوَّتِها يكون الرجاء، وكلُّ محبٍّ راجٍ خائفٌ بالضَّرورة، فهو أرجى ما يكون لحبيبه، أحَبُّ ما كان إليه، وكذلك خوفه، فإنه يخاف سقوطَه من عينيه، وطرْدَ محبوبه له وإبعادَه، واحتجابه عنه، فخوفه أشدُّ خوف، ورجاؤه لمحبوبه ذاتيٌّ للمحبة، فإنَّه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه، فإذا لقيَه ووصل إليه اشتدَّ الرَّجاءُ له، لِما يحصل به من حياة رُوحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبِرِّه وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيلِه لمحبَّتِه، وغير ذلك ممَّا لا حياة للمحِبِّ

ولا نعيمَ ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء، وأجَلُّه وأتمُّه.

فتأمَّلْ هذا الموضعَ حقَّ التَّأمُّل يُطلِعْك على أسرارٍ عظيمة من أسرار العبوديَّةِ والمحبَّة.

فكلُّ محبَّةٍ فهي مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدْر تمكُّنها من قلب المحبِّ يشتدُّ خوفُه ورجاؤه، لكن خوف المحِبِّ لا يَصحَبُه وحشةٌ، بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحِبِّ لا يصحبه عِلَّة، بخلاف رجاء الأجير، فأين رجاءُ المحِبِّ من رجاء الأجير؟! وبيْنهما كما بيْن حالَيْهِما.

وبالجملة؛ فالرَّجاءُ ضروريٌّ للمريد السالك، والعارف لو فارقه لحظةً لتلف أو كاد، فإنَّه دائر بين ذنب يرجو غفرانَه، وعيبٍ يرجو صلاحه، وعمَلٍ صالحٍ يرجو قَبوله، واستقامةٍ يرجو حصولها أو دوامَها، وقُرْبٍ من الله ومنزلةٍ عنده يرجو وصولَه إليها، ولا ينفكُّ أحد من السالكينَ عن هذه الأمور أو عن بعضها.

والرَّبُّ تعالى ليس له ثأرٌ عند عبده فيدركه بعقوبته، ولا يتشفى بعقابه، ولا يزيد ذلك في مُلْكه مثقال ذرة، ولا ينقص مغفرته ـ لو غفر لأهل الأرض كلِّهم ـ مثقال ذرة من ملكه، كيف، والرَّحمةُ أوسع من العقوبة وأسبَقُ من الغضب وأغلب له وهو قد كتب على نفْسِه الرَّحمةَ.

[فوائد الرجاء]

منها: إظهار العبوديَّةِ والفاقة، والحاجَةِ إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرِفه من إحسانه، وأنَّه لا يستغني عن فضله وإحسانِه طَرفةَ عين.

ومنها: أنَّه سبحانه يحِبُّ من عباده أن يؤمِّلوه ويَرْجوه، ويسألوه من فضْلِه؛ لأنَّه الملِك الحقُّ الجوَاد، أجْوَد مَن سُئل، وأوسعُ مَن أعطى، وأحَبُّ ما إلى الجوَاد أن يُرجَى ويُؤمَّل ويُسأل، وفي الحديث: «**مَنْ لمْ**

يَسألِ اللهَ يَغضَبْ عليهِ»[١]، والسائلُ راجٍ وطالبٌ؛ فمَن لم يرجُ الله يغضبْ عليه.

ومنها: أنَّ الرَّجاء حادٍ يَحْدو به في سَيره إلى الله، ويطيِّب له المَسير، ويَحُثُّه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرَّجاء لَما سَرى أحد، فإنَّ الخوف وحدَه لا يحرِّكُ العبد، وإنَّما يحرِّكه الحبُّ، ويُزعجه الخوف، ويَحدوه الرَّجاء.

ومنها: أنَّ الرَّجاء يطرحه على عتبة المحبَّة، ويلقيه في دِهليزها، فإنَّه كلَّما اشتدَّ رجاؤه وحصَل له ما يرجوه ازداد حبًّا لله تعالى، وشكرًا له، ورضًا عنه.

ومنها: أنَّه يبعثه على أعلى المقامات، وهو مقام الشُّكر، الَّذي هو خلاصة العبوديَّة، فإنَّه إذا حصل له مَرْجوُّه كان ذلك أدعى لشكره.

ومنها: أنَّه يُوجب له المزيدَ من معرفته بأسمائه ومعانيها، والتعلُّق بها، فإنَّ الرجاء تعلُّقٌ بأسماء الإحسان، وتعبُّدٌ بها، ودعاءٌ بها، وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]

ومنها: أنَّ المحبَّة لا تنفكُّ عن الرَّجاء ـ كما تقدَّم ـ فكلُّ واحد منهما يَمُدُّ الآخَرَ ويقوِّيه.

ومنها: أنَّ الخوف مستلزِمٌ للرَّجاء، والرَّجاءُ مستلزِمٌ للخوف، فكلُّ راجٍ خائفٌ، وكلُّ خائفٍ راجٍ، ولأجل هذا حسُن وقوعُ الرَّجاءِ في موضعٍ يحسن فيه وقوع الخوف، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، قال كثير من المفسرين: المعنى: ما لكم لا تخافون لله عَظَمةً؟ قالوا: والرَّجاء بمعنى الخوف. والتَّحقيق أنَّه ملازِم له.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، والحاكم (١٨٠٧) من حديث أبي هريرة ﵁، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤١٨).

ومنها: أنَّ العبد إذا تعلَّق قلبُه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه، كان ذلك ألطفَ موقعًا، وأحلى عند العبد، وأبلغَ من حصول ما لم يَرْجُه.

ومنها: أنَّ الله ﷻ يريد من عباده تكميلَ مراتبِ عبوديَّتِه من الذُّلِّ والانكسار، والتَّوكُّلِ والاستعانة، والخوفِ والرجاء، والصَّبرِ والشكر، والرِّضا والإنابة وغيرِها، ولهذا قَدَّر عليه الذَّنبَ وابتلاه به، لتكميل مراتبِ عبوديَّتِه بالتوبة التي هي من أحبِّ عبودياتِ عبدِه إليه، فكذلك تكميلها بالرَّجاء والخوف.

ومنها: أنَّ في الرَّجاء ـ من الانتظار والتَّرقُّبِ والتَّوقُّعِ لفضل الله ـ ما يوجب تعلُّقَ القلب بذِكره ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقُّل القلب في رياضها الأنيقة، وأخْذه بنصيبه من كلِّ اسم وصفة.

درجات الرجاء عند صاحب «المنازل»

قال صاحب «المنازل»: **(الرَّجاءُ على ثَلاثِ دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولَى: رَجاءٌ يَبعَثُ العامِلَ على الاجتِهادِ، ويُوَلِّدُ التَّلَذُّذَ بالخِدمةِ، ويُوقِظُ الطِّباعَ للسَّماحةِ بتَرْكِ المَناهي).

أي: ينشطه لبَذْل جُهدِه لِما يرجوه من ثواب ربِّه؛ فإنَّ مَن عرَف قدرَ مطلوبه هان عليه ما يَبذُلُ فيه.

وأمَّا توليدُه للتَّلذُّذ بالخدمة: فإنَّه كلَّما طالع قلبُه ثمرها وحُسنَ عاقبتها التَذَّ بها، وهذا كحال مَن يرجو الأرباح العظيمة في سفره، ويقاسي مشاقَّ السَّفر لأجْلها، فكلَّما صوَّرها لقلبه هانتْ عليه تلك المشاقُّ والتَذَّ بها، وكذلك المحِبُّ الصَّادق السَّاعي في مراضي محبوبه الشَّاقَّةِ عليه، كلَّما تأمَّلَ ثمرة رضاه عنه وقَبوله سَعْيَه، وقربه منه؛ تلذَّذ بتلك المساعي.

وكلَّما قويَ عِلمُ العبد بإفضاء ذلك السَّببِ إلى المسبب المطلوب، وقويَ علِمُه بقدْر المسبب وقُرْبِ السبب منه ازداد التذاذًا بتعاطيه.

وأمَّا (إيقاظُ الطِّباعِ للسَّماحة بترْك المناهي): فإنَّ الطِّباع لها معلوم

ورسومٌ تتقاضاها من العبد، ولا تسمح له بتركها إلا بعِوض هو أَحَبُّ إليها من معلومها ورسومِها، وأجَلُّ عنده منه وأنفع لها، فإذا قويَ تعلُّق الرَّجاءِ بهذا العِوض الأفضل والأشرف: سمحتِ الطِّباع بترك تلك الرُّسوم وذلك المعلوم؛ فإنَّ النَّفْس لا تترك محبوبًا إلَّا لمحبوب هو أحَبُّ إليها منه، أو حذَرًا مِن مَخُوف هو أعظم مفسدةً لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب.

وفي الحقيقة ففرارُها من ذلك المَخُوف إيثارٌ لضده المحبوب لها، فما تركت محبوبًا إلا لما هو أحَبُّ إليها منه، فإن مَن قُدِّم إليه طعامٌ يَضُرُّه ويوجب له السقم، فإنما يتركه محبة للعافية، التي هي أحَبُّ إليه من ذلك الطعام.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: رَجاءُ أربابِ الرِّياضاتِ أنْ يَبْلُغُوا مَوقِفًا تَصْفُو فيهِ هِمَمُهُم، برَفْضِ المَلْذُوذاتِ، ولُزُومِ شُرُوطِ العِلْمِ، واستِقصاءِ حُدُودِ الحِمْيَةِ**).

أرباب الرِّياضات: هُمُ المجاهدون لأنفسهم بترْكِ مألوفها، والاستبدال بها مألوفات هي خيرٌ منها وأكمل، فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بصفاء الوقت، والهمة من تعلُّقها بالملذوذات، وتجريد الهمِّ عن الالتفات إليها. وبلزوم شروط العِلم؛ وهو الوقوف عند حدود الأحكامِ الدينيَّة.

و«الحِمْيَة» هي: العصمة والامتناع من تناول ما يُخشى ضررُه آجلًا أو عاجلًا.

والاستقصاء في تلك الحدود بأمرين: بذل الجُهد في معرفتها عِلمًا، وأخْذِ النفس بالوقوف عندها طلبًا وقصدًا.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: رَجاءُ أربابِ القُلُوبِ، وهو رَجاءُ لِقاءِ الحَقِّ، الباعِثُ على الاشتِياقِ، المُنَغِّصُ لِلعَيشِ، المُزَهِّدُ في الخَلْقِ**).

هذا الرَّجاء أفضل أنواع الرَّجاءِ وأعلاها، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ

لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

وهذا الرَّجاءُ هو محْضُ الإيمان وزُبدتُه، وإليه شخَصتْ أبصار المشتاقين، ولذلك سلاهم الله بإتيان أجَلِ لقائه، وضرَب لهم أجلًا يُسَكِّنُ نفوسهم ويطمئنها.

والاشتياق هو: سَفَر القلب في طلب محبوبه.

وقوله: **(المُنَغِّصُ لِلعَيشِ)** فلا ريب أنَّ عيش المشتاق منغَّصٌ حتى يلقى محبوبَه، فهناك تَقَرُّ عينُه، ويزول عن عيشه تنغيصُه.

وكذلك يزهد في الخَلق غايةَ التَّزهيد؛ لأنَّ صاحبه طالبٌ للأُنسِ بالله والقُربِ منه، فهو أزهدُ شيءٍ في الخَلْق، إلَّا مَن أعانه منهم على هذا المطلوب وأوصله إليه، فهو أحَبُّ خَلْقِ الله إليه، ولا يأنس من الخَلق بغيره، ولا يسكن إلى سِواه، فعليك بطلب هذا الرَّفيق جهدَك، فإن لم تظفَرْ به فاتَّخِذ الله صاحبًا، ودَعِ النَّاسَ كلَّهم جانبًا.

مُتْ بِداءِ الهَوَى، وإلَّا فَخاطِر ... واطْرُقِ الحَيَّ والعُيُونُ نَواظِر
لا تَخَفْ وَحْشَةَ الطَّرِيقِ إذا جِئْـ ... ـتَ وكُنْ في خِفارةٍ[1] الحُبِّ سائِر
واصبِرِ النَّفْسَ ساعةً عن سِوَاهُمْ ... فإذا لَمْ تُجَبْ لِصَبْرٍ فصَابِر
وصُمِ اليَومَ واجْعَلِ الفِطْرَ يَومًا ... فيهِ تَلْقَى الحَبِيبَ بالبِشْرِ شاكِر

❁ ❁ ❁

(١) **الخَفارة** ـ بفتح الخاء ـ: الحياءُ والوقارُ، مِن خَفِر الإنسان خفرًا، من باب تَعِب. **والخُفارة** ـ بضمِّ الخاء وكَسرِها ـ: مِن خَفَرْت الرجل حَميْته وأَجرْته من طالبِه. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (١/ ١٧٥).



منزلة الرَّغبة

قال الله ﷻ: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. والفرق بين الرَّجاء والرغبة: أنَّ الرَّجاء طمَعٌ، والرَّغبةَ طلبٌ؛ فهي ثمرةُ الرَّجاء، فإنَّه إذا رجا الشَّيء طلبه، والرَّغبة من الرَّجاء كالهرب من الخوف، فمَن رجا شيئًا طلبه ورغِب فيه، ومَن خاف شيئًا هرَب منه.

والمقصود: أنَّ الراجي طالب، والخائفَ هارب.

درجات الرغبة

قال: **(والرَّغْبةُ على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولَى: رَغْبةُ أهْلِ الخبَرِ، تَتَوَلَّدُ مِنَ العِلمِ، فتَبعَثُ على الاجتِهادِ المَنُوطِ بالشُّهُودِ، وتَصُونُ السَّالِكَ عَن وَهَنِ الفَتْرَةِ، وتَمْنَعُ صاحِبَها مِنَ الرُّجُوعِ إلى غَثاثةِ الرُّخَصِ).

أراد بالخبر هاهنا: الإيمانَ الصَّادرَ عن الأخبار؛ ولهذا جعَل تولُّدَها من العِلم، ولكن هذا الإيمان متَّصِلٌ بمنزل الإحسان منه، يُشرف عليه، ويصل إليه، ولهذا قال: **(المَنُوطِ بالشُّهُودِ)**؛ أي: المقترن بالشُّهود، وذلك الشُّهود: هو مشهد مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنَّك تراه، ولا مشهدَ للعبد في الدُّنيا أعلى من هذا.

قوله: **(وتَصُونُ السَّالِكَ عن وَهَنِ الفَتْرَة)**؛ أي: تحفظه عن ضَعف فُتورِه وكسلِه، الَّذي سببُه عدمُ الرغبة أو قِلَّتُها.

وقوله: **(وتَمْنَعُ صاحِبَها مِنَ الرُّجُوعِ إلى غَثاثةِ الرُّخَصِ)**: أهل العزائم بِناء أمرهم على الجِدِّ والصِّدق، والسُّكونُ منهم إلى الرُّخص رجوعٌ وبطالة.

وهذا موضعٌ يحتاج إلى تفصيل، ليس على إطلاقه.

[فـ] الرُّخصة **نوعان**:

أحدهما: الرُّخصة المستقِرَّةُ المعلومة من الشَّرع نصًّا، كفِطر المريض والمسافر، وقَصْرِ الصلاة في السفر، وصلاة المريض إذا شق عليه القيام قاعدًا، ففعل هذه الرخص أرجح وأفضل مِن ترْكِها.

النوع الثاني: رُخَصُ التَّأويلات، واختلاف المذاهب، فهذه تتبُّعُها حرامٌ ينقص الرَّغبة، ويوهن الطلب، ويرجع بالمترخِّص إلى غثاثة الرُّخَص.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: رَغْبةُ أربابِ الحالِ، وهيَ رَغْبةٌ لا تُبقي مِنَ المَجهُودِ مَبْذُولًا، ولا تَدَعُ لِلهِمَّةِ ذُبُولًا، ولا تَترُكُ غَيْرَ المَقصُودِ مَأْمُولًا**).

يعني: أنَّ الرَّغبة الحاصلةَ لأرباب الحال فوق رغبةِ أصحاب الخبر؛ لأنَّ صاحب الحال كالمضطر إلى رغبته وإرادتِه، فهو كالفَراش الَّذي إذا رأى النور ألقى نفْسَه فيه، ولا يبالي ما أصابه، فرغبته لا تدعُ من مجهوده مقدورًا له إلَّا بذَلَه، ولا تدعُ لهمَّته وعزيمتِه فَترةً ولا خمودًا، فهِمَّتُه وعزيمته في مزيد بعدد الأنفاس، ولا تترك في قلبه نصيبًا لغير مقصوده، وذلك لغلبة سلطان الحال.

وصاحبُ هذه الحالِ لا يقاومه إلَّا حالٌ مِثْلُ حاله أو أقوى منه، ومتى لم يصادِفْه حالٌ تعارضه فله من النُّفوذ والتَّأثيرِ بحسَب حاله.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: رَغْبةُ أهْلِ الشُّهُودِ، وهيَ تَشَرُّفٌ تَصْحَبُهُ تَقِيَّةٌ، وتَحْمِلُهُ عليها هِمَّةٌ نَقِيَّةٌ، لا تُبقي معه مِنَ التَّفرُّقِ بَقِيَّةٌ**).

يُشير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بذلك إلى حال الفناء الَّتي يحمله عليها همَّةٌ نقيَّةٌ من أدناس الالتفات إلى ما سِوى الحقِّ، بحيث لا يبقى معه بقيةٌ مِن تفرُّقِه، بل قد اجتمع شاهدُه كلُّه وانحصر في مشهوده. وأراد بالشُّهود هاهنا: شهودَ الحقيقة.

❁ ❁ ❁



منزلة الرعاية

وهي مراعاة العِلم وحِفْظُه بالعمل، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص وحِفْظه من المفسدات، ومراعاة الحال بالموافقة وحِفظُه بقطع التَّفرق، فالرِّعايةُ صيانةٌ وحفْظ.

مراتب العلم والعمل

ومراتب العلم والعمل ثلاثة: رواية: وهي مجرَّد النَّقل وحمل المَرويِّ، ودراية: وهي فَهْمُه وتعقُّل معناه، ورعاية: وهي العمل بموجب ما علِمه ومقتضاه.

فالنَّقَلَة هِمَّتُهم الرِّواية، والعلماء هِمَّتُهم الدِّراية، والعارفون همتهم الرِّعاية.

قال صاحب «المنازل»: **(الرِّعايةُ: صَوْنٌ بِالعِنايةِ، وهيَ على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولَى: رِعايةُ الأعمالِ، والثَّانيةُ: رِعايةُ الأحوالِ، والثَّالِثةُ: رِعايةُ الأوقاتِ. فأمَّا رِعايةُ الأعمالِ فتَوفِيرُها بِتَحقِيرِها، والقِيامُ بها مِن غَيرِ نَظَرٍ إليها، وإجرَاؤُها على مَجرَى العِلمِ، لا على التَّزَيُّنِ بها).

أمَّا قوله: **(صَونٌ بِالعِنايةِ)**؛ أي: حفظ بالاعتناء، والقيام بحقِّ الشَّيءِ الذي يرعاه، ومنه راعي الغنم.

أمَّا قوله: **(رِعايةُ الأعمالِ فتَوفيرُها بتَحقِيرِها)**، فالتوفير: سلامةٌ من طَرَفَيِ التَّفريط بالنَّقص، والإفراطِ بالزِّيادة على الوجه المشروعِ في حدودها وصفاتها وشروطِها وأوقاتها.

وأمَّا تحقيرُها: فاستصغارها في عينه، واستقلالُها، وأنَّ ما يليق

بعظمة الله وجلاله وحقوقِ عبوديَّتِه أمرٌ آخَرُ، وأنَّه لم يُوفِه حَقَّه، وأنَّه لا يرضى لربِّه بعمله، ولا بشيء منه.

علامة قبول العمل الصالح

وقد قيل: علامة رضا الله عنك: سخطك على نفْسك، وعلامة قَبول عملِك: احتقارُه واستقلاله، وصِغَرُه في قلبك، حتى إنَّ العارف لَيَستغفِرُ اللهَ عَقِيبَ طاعاته، **وقد كان رسولُ اللهِ ﷺ «إذا سَلَّمَ مِنَ الصَّلاةِ استَغفَرَ اللهَ ثَلاثًا»**[1].

وأمر الله عباده بالاستغفار عَقِيبَ الحجِّ، ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل بالأسحار.

وشرَعَ النَّبيُّ ﷺ عَقِيبَ الطُّهورِ **التَّوبَةَ وَالاستِغفَارَ**[2].

فمَن شهِد واجبَ ربِّه ومقدارَ عمله، وعَيْبَ نفسه لم يجِد بُدًّا من استغفار ربه منه، واحتقارِه إياه واستصغاره.

وأمَّا **(القِيامُ بها)** فهو توفية حقِّها، وجعلها قائمةً كالشَّهادة القائمة، والصَّلاة القائمة، والشَّجرة القائمة على ساقها التي ليست ساقطة.

وقوله: **(مِن غَيرِ نَظَرٍ إليها)**؛ أي: من غير أن يلتفت إليها ويعدِّدَها ويَذكرها مخافةَ العُجب والمِنَّةِ بها، فيسقط من عين الله، وتَحبَط أعماله.

وقوله: **(وإجراؤُها على مَجرَى العِلم)** هو أن يكون العملُ على مقتضى العِلم المأخوذ من مشكاة النُّبوَّة، إخلاصًا لله، وإرادةً لوجهه، وطلبًا لمرضاته، لا على وجه التزيُّن بها عند النَّاس.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) لعله يقصد ما أخرجه الترمذي (٥٥) من حديث عمر رضي الله عنه لما يقال بعد الوضوء وفيه: «**اللَّهُمَّ اجعلني من التوابين**»، وقد قال فيه الترمذي: «حديث في إسناده اضطراب، ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء»، والحديث أصله في مسلم (٢٣٤) بلفظ: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيُبْلِغُ - أو فيُسْبِغُ - الوُضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبد الله ورسوله؛ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيِّها شاء**».

قال: (**وأمَّا رِعايةُ الأحوالِ: فهو أنْ يَعُدَّ الاجتِهادَ مُراءاةً، واليَقِينَ تَشَبُّعًا، والحالَ دَعْوَى**).

أي: يتَّهِم نفْسَه في اجتهاده أنَّه رياءٌ للناس، فلا يطغى به، ولا يسكُن إليه، ولا يعتد به.

وأمَّا عدُّه اليقين تشبُّعًا، فالتَّشبُّع: افتخار الإنسان بما لا يَملِكُه، ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «**المُتشَبِّعُ بما لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[(١)].

وعَدُّ اليقين تشبُّعًا: يحتمل **وجهين**:

أحدهما: أنَّ ما حصل له من اليقين لم يكن به، ولا منه، ولا استحقه بعِوض، وإنما هو فضل الله وعطاؤه، ووديعتُه عنده، ومجرَّدُ مِنَّتِه عليه، فهي خلعة خلعها على عبده، والعبد وخلعته كلٌّ ملكُه وله، فما للعبد في اليقين مدخل، وإنَّما هو متشبِّع بما هو ملك لله وفضله منه، ومِنَّتُه على عبده.

والوجه الثاني: أن يتَّهِم يقينَه، وأنَّه لم يحصل له اليقينُ على الوجه الَّذي ينبغي، بل ما حصل له منه هو كالعارية غير الملك المستقر، فهو متشبِّعٌ به تَزعُم نفْسُه أنَّ اليقين ملكة له، وليس كذلك، وهذا لا يختصُّ باليقين، بل بسائر الأحوال، فالصَّادق يَعُدُّ صِدقَه تشبُّعًا، وكذا المخلِص، وكذا العالم، لاتِّهامه لصدقه وإخلاصه وعِلمه، وأنه لم ترسخ قدمه في ذلك، ولم يحصل له فيه ملكة، فهو كالمتشبِّع به.

اليقين روح الأعمال وعمودها

ولمَّا كان اليقينُ رُوحَ الأعمال وعمودَها، وذِرْوَةَ سنامها: خصَّه بالذِّكر؛ تنبيهًا على ما دونه.

والحاصل: أنَّه يتَّهِم نفْسَه في حصول اليقين، فإذا حصل فليس حصوله به ولا منه، ولا له فيه شيء، فهو يذُمُّ نفْسَه في عدم حصوله، ولا يَحمَدُها عند حصوله.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠) من حديث أسماء رضي الله عنها.

وأمَّا عَدُّه الحالَ دَعوَى؛ أي: دعوى كاذبة، اتِّهامًا لنفْسه، وتطهيرًا لها من رعونة الدَّعاوي، وتخليصًا للقلب من نصيب الشيطان.

فإنَّ الدَّعوى مِن أنصباء الشيطان منه، وكذلك القلب الساكنُ إلى الدَّعوى مأوى الشيطان، أعاذنا الله من الدَّعوى ومن الشيطان.

قال: **(وأمَّا رِعايةُ الأوقاتِ: فأنْ يَقِفَ مع كُلِّ خُطوَةٍ، ثُمَّ أنْ يَغيبَ عن خَطْوِهِ بالصَّفاءِ مِن رَسْمِه، ثُمَّ أنْ يَذْهَبَ عن شُهُودِ صَفْوِه)**.

أي: يقف مع كلِّ حركة ظاهرةٍ وباطنة بمقدار ما يصححها نيَّةً وقصدًا وإخلاصًا ومتابعة، فلا يخطو همجًا، بل يَقِفُ قبل الخطوة حتَّى يصحِّحَ الخطوة، ثم ينقل قدمَ عزمِه، فإذا صحَّتْ له ونقل قدمَه انفصل عنها، وقد صحَّتْ بالغَيبة عن شهودها ورؤيتها، فيغيب عن شهود تقدُّمِه بنفْسِه.

وأمَّا ذَهابُه عن شهود صَفوِه؛ أي: لا يستحضر في قلبه ويشهد ذلك الصَّفوَ المطلوب، ويقِف عنده؛ فإنَّ ذلك من بقايا النفْس وأحكامِها، وهو نوعُ كدَر، فإذا تخلَّص من الكدَر لا ينبغي له الالتفاتُ والرُّجوع إليه، فيصفو من الرَّسم، ويغيب عن الصَّفو بمشاهدة المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى.





منزلة المراقبة

قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]

وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩].

وفي حديث جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه «**سَأَلَ النَّبيَّ ﷺ عنِ الإحسانِ؟ فقال له: أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ**»[(١)].

مفهوم المراقبة

المراقبة: دوام عِلم العبد، وتيقُّنِه باطِّلاع الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ظاهره وباطنِه، فاستدامتُه لهذا العلم واليقينِ هي المراقبة، وهي ثمرة عِلمه بأنَّ الله سبحانه رقيب عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله، وهو مطَّلِع على عمله كلَّ وقت وكلَّ لحظة، وكلَّ نفَس وكلَّ طَرفةِ عين، والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟.

قال الجُرَيريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن لم يُحَكِّم بينه وبين الله التقوى والمراقبة، لم يَصِلْ إلى الكشف والمشاهدة».

وقيل: مَن راقبَ اللهَ في خواطره، عصَمَه في حركات جوارحِه.

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقيل لبعضهم: «متى يَهِشُّ الراعي غَنَمَه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علِم أنَّ عليه رقيبًا».

قال الجُنَيد رَحِمَهُ اللهُ: «مَن تحقَّق في المراقبة خاف على فوات حَظِّه من ربِّه لا غير».

وقال ذو النُّون رَحِمَهُ اللهُ: «علامة المراقبة: إيثارُ ما أنزل الله، وتعظيمُ ما عظَّم اللهُ، وتصغيرُ ما صغَّر اللهُ».

وقيل: الرَّجاء يحرِّكُك إلى الطاعة، والخوف يُبعِدُك عن المعاصي، والمراقبة تؤدِّيك إلى طريق الحقائق.

وقيل: المراقبة: مراعاة القلب لملاحظة الحقِّ مع كل خطرة وخطوة.

وقال إبراهيم الخَوَّاص رَحِمَهُ اللهُ: «المراقبةُ خُلوصُ السِّرِّ والعلانيةِ لله عَزَّ وَجَلَّ».

وقال أبو حفص لأبي عثمانَ النَّيْسابوريِّ ـ رحمهما الله ـ: «إذا جلسْتَ للنَّاسِ فكن واعظًا لقلبك ونفْسِك، ولا يَغُرَّنَّك اجتماعُهم عليك، فإنَّهم يراقبون ظاهرَك، والله يراقب باطنك».

وأرباب الطَّريقِ مُجمِعون على أنَّ مراقبة الله في الخواطر: سببٌ لحفظه في حركات الظَّواهر، فمَن راقب الله في سرِّه: حفظه الله في حركاته في سرِّه وعلانيته.

والمراقبة: هي التَّعبُّد باسمه الرَّقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمَن عَقَل هذه الأسماء، وتعبَّدَ بمقتضاها: حصلَتْ له المراقبة.

درجات المراقبة

قال صاحب «المنازل»: (**المُراقَبةُ: دَوامُ مُلاحَظةِ المَقصُودِ، وهيَ على دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولَى: مُراقَبةُ الحَقِّ تعالى في السَّيرِ إليهِ على الدَّوامِ، بيْن تَعظِيمٍ مُذْهِلٍ، ومُداناةٍ حامِلةٍ، وسُرُورٍ باعِثٍ).

فقوله: (**دَوامُ مُلاحَظةِ المَقصُودِ**)؛ أي: دوام حضور القلب معه.

وقوله: **(بَيْنَ تَعظِيم مُذْهِلٍ)** وهو امتلاء القلب من عظمته، بحيث يُذهِلُه ذلك عن تعظيم غيرِه، وعن الالتفات إليه، فلا ينسى هذا التَّعظيم عند حضور قلبِه مع الله؛ بل يستصحبه دائمًا، فإنَّ الحضور مع الله يوجِبُ أُنْسًا ومحبَّة، إنْ لم يقارنهما تعظيمٌ، أوْرثاه خروجًا عن حدود العبوديَّةِ ورعونةً، فكلُّ حبٍّ لا يقارنه تعظيمُ المحبوب: كان سببًا للبعد عنه، والسقوط من عينه.

فقد تضمَّن كلامُه خمسةَ أمور: سَيرٌ إلى الله، واستدامةٌ للسَّير، وحضور القلب معه، وتعظيمه، والذُّهول بعظمته عن غيره.

وأمَّا قوله: **(ومُداناةٍ حامِلَةٍ)** فيريد: دُنُوًّا وقُربًا حاملًا على هذه الأمور الخمسة، وهذا الدُّنوُّ يَحمِلُه على التَّعظيم الذي يُذهِلُه عن نفْسِه، وعن غيره، فإنَّه كلَّما ازداد قُربًا من الحقِّ ازداد تعظيمًا له، وذُهولًا عن سواه، وبُعدًا عن الخلْق.

وأمَّا **(السُّرُورُ الباعِثُ)** فهو الفرحة والتَّعظيم، واللَّذَّةُ التي يَجِدُها في تلك المداناة، فإنَّ سرور القلب من الله وفرحَه، وقُرَّةَ العين به، لا يُشبِهُه شيءٌ من نعيم الدُّنيا البتَّةَ، وليس له نظيرٌ يقاس به، وهو حال من أحوال أهل الجنَّة. حتى قال بعض العارفين: «إنَّه ليَمُرُّ بي أوقاتٌ أقول فيها: إن كان أهلُ الجنَّةِ في مثل هذا، إنَّهم لفي عيشٍ طيِّب».

ولا ريب أنَّ هذا السُّرورَ يبعثه على دوام السَّيرِ إلى الله، وبَذْلِ الجُهد في طلبه، وابتغاءِ مرضاته، ومَن لم يجد هذا السرور، ولا شيئًا منه، فلْيَتَّهِمْ إيمانه وأعمالَه، فإنَّ للإيمان حلاوة، مَن لم يذُقْها فليرجع، وليقتبِسْ نورًا يجد به حلاوةَ الإيمان.

وقد ذَكَر النبيُّ ﷺ ذَوْقَ طعم الإيمان ووجْدَ حلاوته، فذكر الذوق والوجد، وعلَّقه بالإيمان، فقال: «**ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وبالإسلامِ دِينًا، وبمُحمَّدٍ رَسُولًا**»[1]. وقال: «**ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيهِ وَجَدَ**

(١) أخرجه مسلم (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

حَلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسُولُهُ أحَبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، ومَن كانَ يُحِبُّ المَرءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا للَّهِ، ومَن يَكرَهُ أنْ يَعُودَ في الكُفرِ ـ بَعدَ إذْ أنقَذَهُ اللهُ مِنهُ ـ **كما يَكرَهُ أنْ يُلقَى في النَّارِ»**[1].

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ يقول: «إذا لم تَجِدْ للعمل حلاوةً في قلبك وانشراحًا، فاتَّهِمْه، فإنَّ الرَّبَّ تعالى شكور»؛ يعني: أنَّه لا بد أن يُثيب العاملَ على عمله في الدُّنيا من حلاوة يَجِدُها في قلبه، وقوَّةٍ وانشراح وقُرَّةِ عين، فحيث لم يَجِدْ ذلك فعمله مدخولٌ.

حقيقة القلب السليم

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: مُراقَبةُ نَظَرِ الحَقِّ إليكَ برَفْضِ المُعارَضةِ، بالإعراضِ عنِ الاعتِراضِ، ونَقْضِ رُعُونةِ التَّعرُّضِ**).

هذه مراقبة لمراقبة الله لك، فهي مراقبةٌ لصفة خاصَّةٍ معيَّنة، وهي توجب صيانةَ الباطن والظَّاهر، فصيانة الظَّاهر: بحفْظ الحركات الظَّاهرة، وصيانة الباطن: بحفْظ الخواطر والإراداتِ والحرَكاتِ الباطنة، الَّتي منها رفضُ معارضةِ أمْرِه وخبرِه، فيَتجرَّد الباطنُ من كلِّ شهوة وإرادةٍ تعارِضُ أمْرَه، وإرادةٍ تعارِض إرادتَه، ومن كلِّ شبهةٍ تعارِض خبرَه، ومن كلِّ محبَّةٍ تُزاحِمُ محبَّتَه، وهذا حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلَّا مَن أتى الله به، وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقرَّبينَ العارفينَ، وكلُّ تجريدٍ سِوى هذا فناقصٌ، وهذا تجريد أرباب العزائم.

أبرز الاعتراضات السارية بين الناس

والاعتراض **ثلاثة أنواع** سارية في الناس، والمعصوم مَن عصَمَه الله منها.

النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاتِه بالشُّبَه الباطلة.

النوع الثاني: الاعتراض على شرْعه وأمْره، وأهلُ هذا الاعتراض **ثلاثة أنواع**:

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

ـ **أحدها**: المعترِضون عليه بآرائهم وأقيستِهم.

ـ **النوع الثاني**: الاعتراض على حقائقِ الإيمان والشَّرعِ بالأذواق والمواجيد والخيالات، والكشوفاتِ الباطلة الشيطانيَّة.

ـ **النوع الثالث**: الاعتراض على ذلك بالسِّياسات الجائرة، الَّتي لأرباب الولايات التي قدَّمَوها على حُكم الله ورسولِه، وحكَموا بها بين عباده، وعطَّلوا لها وبها شرْعَه وعدلَه وحدودَه.

النوع الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائِه وقدَرِه، وهذا اعتراض الجهَّال.

وهو ما بيْن جَلِيٍّ وخفي، وهو أنواع لا تحصى، وهو سارٍ في النفوس سَرَيانَ الحُمَّى في بدن المحموم، ولو تأمَّلَ العبدُ كلامه وأمنيتَه وإرادتَه وأحواله، لرأى ذلك في قلبه عِيانًا، فكلُّ نفْسٍ معترضةٌ على قدَر الله وقَسمِه وأفعالِه، إلَّا نفْسًا قد اطمأنَّتْ إليه، وعرَفته حقَّ المعرفة التي يمكن وصولُ البشر إليها، فتلك حظُّها التَّسليمُ والانقياد، والرِّضا كلَّ الرِّضاء.

وأمَّا (**نَقْضُ رُعُونةِ التَّعرُّضِ**) فيشير به إلى معنًى آخَرَ، لا تتمُّ المراقبةُ عِندَه إلا بنقضه، وهو إحساس العبد بنفْسِه وخواطره وأفكارِه حال المراقبة، والحضور مع الله، فإنَّ ذلك تعرُّضٌ منه لحجاب الحقِّ له عن كمال الشُّهود؛ لأنَّ بقاء العبدِ مع مداركه وحواسِّه ومشاعره، وأفكارِه وخواطره، عند الحضور والمشاهدة، هو تعرُّضٌ للحجاب، فينبغي أن تتخلَّص مراقبةُ نظرِ الحقِّ إليك من هذه الآفات، وذلك يحصُل بالاستغراق في الذِّكر، فتذهَلُ به عن نفْسِك وعَمَّا منك.

وهذا التَّهيُّؤ والاستعدادُ: لا يكون إلا بنقض تلك الرُّعونة، والذِّكر يوجب الغَيبة عن الحِسِّ.

فمَن كان ذاكرًا لنظر الحقِّ إليه مراقبًا له، ثم أحسَّ بشيء من حديث نفْسه وخواطرِه وأفكارِه: فقد تعرَّض واستدعى عوالِمَ نفْسِه،

واحتجابَ المذكور عنه؛ لأنَّ حضرة الحقِّ سبحانه لا يَكون فيها غيرُه.

وهذه الدَّرجة لا يَقدِرُ عليها العبدُ إلا بملَكة قويَّةٍ من الذِّكر، وجمْعِ القلب فيه بكلِّيَّتِه على الله ﷻ.



منزلة تعظيم حرمات الله

قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]. قال جماعة من المفسرين ـ رحمهم الله ـ: «حُرُمات الله» هاهنا: معاصيه، وما نهى عنه، وتعظيمُها: ترْكُ ملابستها.

قال اللَّيثُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُرُماتُ الله: ما لا يَحِلُّ انتهاكُها». وقال قوم: «الحُرُمات: هي الأمر والنَّهيُ». وقال الزَّجَّاج: «الحُرمة ما وجب القيامُ به، وحَرُم التَّفريطُ فيه». وقال قوم: «الحرمات هاهنا: المناسك، ومشاعرُ الحجِّ زمانًا ومكانًا».

والصواب: أنَّ الحُرُماتِ تَعُمُّ هذا كلَّه؛ وهي جمْع حُرْمة، وهي ما يجب احترامُه، وحِفْظُه من الحقوق، والأشخاصِ، والأزمنة، والأماكن، فتعظيمُها توفيتُها حقَّها، وحِفْظُها من الإضاعة.

قال تعالى عن أنبيائه ورسله: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠]؛ أي: رَغَبًا فيما عندنا، ورَهَبًا من عذابنا. والضَّميرُ في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائدٌ على الأنبياء المذكورينَ في هذه السُّورةِ عند عامَّة المفسِّرين.

والرَّغَب والرَّهَب: رجاءُ الرَّحمةِ والخوفُ من النَّار عِندَهم أجمعين.

وذَكَر سبحانه عباده الَّذين هُم خَواصُّ خلْقه، وأثنى عليهم بأحسَنِ أعمالهم، وجعَل منها: استعاذتَهم به من النار، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ

﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٥ ـ ٦٦]. وأخبر عنهم أنَّهم توسَّلوا إليه بإيمانهم أن ينجيَهم من النار، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٦] فجعلوا أعظمَ وسائلهم إليه: وسيلةَ الإيمان أن ينجيَهم من النار.

ديدن سادات العارفين

وأخبر تعالى عن سادات العارفينَ أُولي الألباب والفِكر: أنَّهم كانوا يسألونه جَنَّته، ويتعوَّذون به من ناره، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآيات إلى آخرها، ولا خلافَ أنَّ الموعود به على ألسنة رُسُلِه الَّذي سألوه: هو الجنَّة.

وقال عن خليله إبراهيمَ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٨٢ ـ ٨٣] [إلى قوله]: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩]، فسأل الله الجنَّة، واستعاذ به مِن خِزْي يوم البعث.

وأخبر سبحانه عن الجنَّة: أنَّها كانت وعْدًا عليه مسؤولًا؛ أي: يسأله إيَّاها عبادُه وأولياؤه.

وأمَر النبيُّ ﷺ أُمَّتَه: أن يسألوا له في وقت الإجابة ـ عَقِيب الأذان ـ أعلى منزلةٍ في الجنَّة، وأخبر: أنَّ مَن سألها له حَلَّتْ عليه شفاعتُه[(١)].

وقال له سُلَيم الأنصاريُّ: أمَا إنِّي أسأل اللهَ الجنَّة، وأستعيذ به من النَّار، لا أُحسِنُ دَنْدَنتَكَ ولا دَنَدَنةَ مُعاذٍ، فقال: «**أنا ومُعاذٌ حَوْلَها نُدَنْدِنُ**»[(٢)].

(١) أخرجه البخاري (٦١٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٩٨)، وأبو داود (٧٩٢)، وابن ماجه (٩١٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٧٩٢).

وفي «الصَّحيح» ـ في حديث الملائكة السَّيَّارةِ الفُضُل عن كتاب الناس ـ: «**إنَّ اللهَ تعالى يَسألُهُم عن عِبادِه ـ وهو أعلَمُ تبارَك وتعالى ـ فيَقولون: أتَيْناكَ مِن عِندِ عِبادٍ لكَ يُهَلِّلونَك، ويُكَبِّرونَك، ويَحْمَدونَك، ويُمَجِّدونَك، فيَقولُ ﷻ: وهلْ رَأوْني؟ فيَقولونَ: لا يا ربِّ، ما رَأوْكَ. فيَقولُ ﷻ: كيف لو رَأوْني؟ فيَقولونَ: لو رَأوْكَ لكانوا لكَ أشَدَّ تَمْجيدًا. قالوا: يا ربِّ، ويَسْألونَكَ جَنَّتَكَ. فيَقولُ: هل رَأوْها؟ فيَقولونَ: لا وعِزَّتِكَ، ما رَأوْها. فيَقولُ: فكيف لو رَأوْها؟ فيَقولونَ: لو رَأوْها لكانوا لها أشَدَّ طَلَبًا. قالوا: ويَستَعيذونَكَ مِنَ النَّارِ، فيَقولُ ﷻ: وهلْ رَأوْها؟ فيَقولونَ: لا وعِزَّتِكَ، ما رَأوْها. فيَقولُ: فكيف لو رَأوْها؟ فيَقولونَ: لو رَأوْها لكانوا أشَدَّ منها هَرَبًا. فيَقولُ: إنِّي أُشهِدُكم أنِّي قد غَفَرْتُ لهُم، وأعطَيْتُهُم ما سَألوا، وأعَذْتُهُم ممَّا استَعاذُوا منه**»[(١)].

والقرآن والسُّنَّةُ مملوءان مِنَ الثَّناء على عباده وأوليائِه بسؤال الجنَّةِ ورجائها، والاستعاذةِ من النار، والخوفِ منها.

العمل للفوز بالجنة والنجاة من النار

قالوا: وقد قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**استَعِيذُوا باللهِ مِنَ النَّارِ**»[(٢)]. وقال لمَن سألَه مُرافَقتَه في الجَنَّةِ: «**أعِنِّي على نفْسِكَ بكَثْرةِ السُّجودِ**»[(٣)].

قالوا: والعمل على طلب الجنَّةِ والنَّجاةِ من النَّار مقصودٌ للشَّارع من أُمَّتِه؛ ليكونوا دائمًا على ذُكْرٍ منهما فلا ينسوهما. ولأنَّ الإيمان بهما شرْطٌ في النَّجاة، والعمل على حصول الجنَّةِ والنَّجاةِ من النار هو محْضُ الإيمان.

والله سبحانه يُحِبُّ مِن عباده أن يسألوه جنَّتَه، ويستعيذوا به من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرج مسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**إذا تَشهَّدَ أحدُكم فلْيَستَعِذْ باللهِ من أربعٍ، يقول: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن عذابِ جَهَنَّمَ...**» الحديثَ.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه.

ناره، فإنَّه يحِبُّ أن يُسأل، ومَن لم يَسألْهُ يَغضبْ عليه. وأعظَمُ ما سُئل الجنة، وأعظَمُ ما استُعيذ به من النار.

فالعمل لطلب الجنَّةِ محبوبٌ للرَّبِّ، مَرْضيٌّ له، وطلبُها عبوديَّةٌ للرَّبِّ، والقيامُ بعبوديَّتِه كلِّها أولى من تعطيل بعضِها.

قالوا: وإذا خلا القلبُ من ملاحظة الجنَّةِ والنَّار، ورجاءِ هذه والهرَبِ من هذه فَتَرَتْ عزائمُه، وضعُفتْ همَّتُه، ووهى باعثُه، وكلَّما كان أشدَّ طلبًا للجنَّة وعملًا لها، كان الباعثُ له أقوى، والهمَّةُ أشدَّ، والسَّعيُ أتمَّ. وهذا أمرٌ معلوم بالذَّوق.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، وهذا حَثٌّ على إجابة هذه الدَّعوة، والمبادرةِ إليها، والمسارعة في الإجابة.

أعظم نعيم لأهل الجنة

والتَّحقيق أن يقال: الجنَّة ليست اسمًا لمجرَّد الأشجارِ والفواكه، والطَّعامِ والشَّراب، والحُور العين، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يَغْلَطون في مسمَّى الجنة؛ فإنَّ الجنَّةَ اسمٌ لدار النَّعيم المطْلَقِ الكامل، ومِن أعظم نعيم الجنَّةِ التَّمتُّعُ بالنَّظر إلى وجه الرَّبِّ الكريم، وسماع كلامه، وقرَّة العين بالقُرْب منه وبرِضوانه، فلا نسبة للَذَّةِ ما فيها من المأكول والمشروبِ والملبوس والصُّور إلى هذه اللَّذَّةِ أبدًا. فأيْسَرُ يسيرٍ من رِضوانه أكبرُ مِن الجِنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: ٧٢]، وأتى به منكَّرًا في سياق الإثبات؛ أي: أيُّ شيءٍ كان مِن رِضاهُ عن عبده فهو أكبر من الجنَّة.

قَليلٌ مِنكَ يُقْنِعُني ولكِنْ   قَليلُكَ لا يُقالُ لهُ قَليلُ

وفي الحديث الصَّحيح ـ حديثِ الرُّؤية ـ: «**فواللهِ ما أعْطاهُمُ اللهُ شَيئًا أحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إلى وجْهِه**»[١]. وفي حديثٍ آخَرَ: «**أنَّه سُبحانَه إذا تَجلَّى لهم، ورَأوْا وجْهَه عِيانًا: نَسُوا ما هُم فيه مِنَ النَّعيمِ، وذُهِلُوا**

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه.

عنه، ولـمْ يَلتَفِتوا إليه»[١]. ولا ريب أنَّ الأمر هكذا. وهو أجَلُّ ممَّا يخطُر بالبال، أو يدور في الخيال. ولا سيَّما عند فوز المحبِّينَ هناك بمَعِيَّةِ المحبِّ، فإنَّ المرء مع مَن أحَبَّ، ولا تخصيصَ في هذا الحُكم، بل هو ثابت شاهدًا وغائبًا.

فأيُّ نعيم، وأيُّ لذَّةٍ، وأيُّ قُرَّةِ عَينٍ، وأي فوزٍ يُداني نعيمَ تلك المَعيَّةِ ولذَّتَها، وقُرَّة العين بها؟!

وهل فوق نعيم قُرَّةِ العين بمعيَّةِ المحبوب، الَّذي لا شيءَ أجَلُّ منه، ولا أكملُ ولا أجمل: قُرَّةٌ البتَّةَ؟!

وهذا ـ والله ـ هو العِلم الَّذي شمَّر إليه المحبُّون، واللِّواءُ الَّذي أمَّه العارفون، وهو رُوح مُسمَّى الجنَّةِ وحياتُها، وبه طابت الجنَّة، وعليه قامت.

وكذلك النَّار ـ أعاذنا الله منها ـ؛ فإنَّ لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانتِه، وغضبِه وسخطه، والبُعدِ عنه: أعظمَ مِنَ التِهابِ النَّارِ في أجسامهم وأرواحهم، بل التهابُ هذه النَّارِ في قلوبهم هو الَّذي أوجب التهابَها في أبدانهم، ومنها سَرَتْ إليها.

فمطلوب الأنبياء والمرسَلينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ هو الجنَّة، ومَهْرَبُهُم من النَّار.



(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، والدارقطني في «الرؤية» (٥١)، والآجُرِّي في «الشريعة» (٦١٥)، واللالكائي في «شرح أصول أهل السُّنَّة» (٨٣٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٦٣).



منزلة الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣]، وقال لنبيّه ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ١٥]، وقال له: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢].

قال الفُضيل بن عِياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هو أخلصُه وأصوبه، قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصُه وأصوبُه؟ فقال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا، ولم يكنْ صوابًا؛ لَمْ يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا: لم يُقبل؛ حتى يكونَ خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصَّواب أن يكون على السُّنَّة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]».

أهمية الإخلاص

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥]. فإسلام الوجهِ لله تعالى: إخلاصُ القصدِ والعمل له. والإحسانُ فيه: متابعةُ رسوله ﷺ وسُنَّتِه.

وقال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣] وهي الأعمال الَّتي كانت على غير السُّنَّة، أو أُريدَ بها غيرُ وجهِ الله.

وقال النبيُّ ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّك لن تُخلَّف فتعملَ**

عَمَلًا تبتَغي بهِ وَجْهَ اللهِ تعالى إلَّا ازدَدْتَ بهِ خَيرًا، ودَرَجةً وَرِفْعةً»[(١)].

وفي «الصَّحيح» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلاثٌ لا يَغِلُّ عَلَيهِنَّ قَلْبُ مُسْلِم: إخلاصُ العَمَلِ للهِ، ومُناصَحةُ وُلاةِ الأمرِ، ولُزُومُ جَماعةِ المُسلِمِينَ، فَإنَّ دَعوَتَهُم تُحِيطُ مِن وَرائِهِم»**[(٢)]؛ أي: لا يبقى فيه غِلٌّ، ولا يَحمل الغِلَّ مع هذه الثلاثة، بل ينفي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه منه، فإنَّ القلب يغِلُّ على الشِّرك أعظَمَ غِلٍّ، وكذلك يغلُّ على الغشِّ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضَّلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غِلًّا ودَغَلًا، ودواء هذا الغِلِّ، واستفراغ أخلاطه بتجريد الإخلاص والنُّصح، ومتابعةِ السُّنَّة.

«وسُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عنِ الرَّجُلِ يُقاتِلُ رِياءً، ويُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً؛ أيُّ ذلكَ في سَبيلِ اللهِ؟ فقال: مَن قاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمةُ اللهِ هيَ العُليَا فهو في سَبيلِ اللهِ»[(٣)].

وأخبَرَ عن أوَّلِ ثلاثةٍ تُسَعَّرُ بهِمُ النَّارُ: قارِئُ القُرآنِ، والمُجاهِدُ، والمُتَصَدِّقُ بمالِه، الَّذينَ فَعَلُوا ذلكَ لِيُقالَ: فُلانٌ قارِئٌ، فُلانٌ شُجاعٌ، فُلانٌ مُتصَدِّقٌ، ولمْ تكنْ أعمالُهُم خالِصةً للهِ[(٤)].

وفي الحديث الصَّحيح الإلٰهيِّ يقول الله تعالى: **«أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشرَكَ فيهِ غَيْرِي فهو لِلَّذي أشرَكَ بهِ، وأنا**

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٣٥٠)، والطبراني في «الأوسط» (٩٤٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وأخرجه ابن ماجه (٢٣٠)، وابن حبان (٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه. والحاكم (٢٩٤)، وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، من حديث جُبَير بن مطعم رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

مِنهُ بَريءٌ»[١].

وفي «الصَّحيح» عنه ﷺ: «**إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى أجسامِكُم، ولا إلى صُوَرِكُم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلُوبِكُم**»[٢]. وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

أقوال السلف في تعريف الإخلاص

وقد تنوَّعت عبارتهم في الإخلاص، والقصدُ واحد.

فقيل: هو إفراد الحقِّ سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقِّي من ملاحظة الخَلْق، والصِّدقُ: التَّنقِّي من مطالعة النَّفْس، فالمخلص لا رياءَ له، والصَّادقُ لا إعجاب له، ولا يتمُّ الإخلاصُ إلَّا بالصِّدق، ولا الصِّدقُ إلَّا بالإخلاص، ولا يَتِمَّانِ إلَّا بالصَّبر.

وقيل: مَن شهِدَ في إخلاصه الإخلاصَ، احتاج إخلاصُه إلى إخلاص، فنُقصانُ كلِّ مخلِصٍ في إخلاصه: بقدر رؤيةِ إخلاصه، فإذا سقط عن نفْسه رؤيةُ الإخلاص، صار مخلِصًا مخلَصًا.

وقيل: الإخلاص: استواء أعمال العبدِ في الظَّاهر والباطن، والرِّياء: أن يكون ظاهرُه خيرًا من باطنه، والصِّدقُ في الإخلاص: أن يكون باطنُه أعْمَرَ من ظاهره.

وقيل: الإخلاص: نِسيانُ رُؤية الخَلْق بدوام النظر إلى الخالق. ومَن تَزيَّنَ للناس بما ليس فيه سقَطَ من عَينِ الله.

ومن كلام الفُضَيل رَحِمَهُ اللهُ: «ترْكُ العمل مِن أجْلِ الناس: رياء، والعمل مِن أجْلِ الناس: شِرْك، والإخلاص: أن يعافيك الله منهما».

قال الجُنَيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الإخلاص سِرٌّ بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملَك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/ ٣٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقيل لسهْل: «أيُّ شيءٍ أشدُّ على النَّفْس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنَّه ليس لها فيه نصيب».

وقال بعضهم: «الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مجازيًا سِواه».

وقال مكحول: «ما أخلص عبد قطُّ أربعين يومًا إلَّا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

وقال يوسف بن الحُسين: «أعزُّ شيء في الدُّنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرِّياء عن قلبي، فكأنَّه ينبُتُ على لونٍ آخَرَ».

وقال أبو سليمانَ الدَّارانيُّ: «إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرةُ الوساوس والرِّياء».

مفهوم الإخلاص ودرجاته عند صاحب «المنازل»

قال صاحب «المنازل»: **(الإخلاصُ: تَصفِيةُ العَمَلِ مِن كُلِّ شَوبٍ)**.

أي: لا يمازج عملَه ما يشوبه من شوائبِ إرادات النفس، إمَّا طلب التَّزيُّنِ في قلوب الخلْق، وإمَّا طلب مدحهم، والهرب من ذمِّهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم أو خدمتِهم وقضائِهم حوائجَه، أو طلب محبَّتِهم له، أو غير ذلك من العِلل والشوائب، الَّتي عَقْدُ متفرقاتها: هو إرادةُ ما سِوى الله بعمله، كائنًا ما كان.

آفات تعرض للعبد في عمله

قال: **(وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولَى: إخراجُ رُؤْيةِ العَمَلِ مِنَ العَمَلِ، والخَلاصُ مِن طَلَبِ العِوَضِ على العَمَلِ، والنُّزُولُ عَنِ الرِّضَا بالعَمَلِ).

يعرض للعامل في عمله ثلاثُ آفات: رؤيته وملاحظتُه، وطلب العِوض عليه، ورضاه به وسكونُه إليه، ففي هذه الدَّرجةِ يتخلَّصُ من هذه الثلاثة.

فالذي يُخلِّصه من رؤية عملِه: مشاهدتُه لِمِنَّة الله عليه، وفضْلِه وتوفيقه له، وأنَّه بالله لا بنفْسه، وأنَّه إنَّما أوجب عملَه مشيئةُ الله لا مشيئتُه هو، كما

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

فهنا ينفعه شهودُ الجبر، وأنَّه آلةٌ مَحضةٌ، وأنَّ فعله كحركات الأشجار، وهبوبِ الرِّياح، وأنَّ المحرِّكَ له غيرُه، والفاعل فيه سِواه، وأنَّه ميت ـ والميت لا يفعل شيئًا ـ وأنَّه لو خُلِّي ونفْسَه لم يكن مِن فعلِه الصَّالحِ شيءٌ البتَّةَ، فإنَّ النَّفْس جاهلةٌ ظالمة، طبعُها الكسل، وإيثارُ الشهواتِ والبطالة، وهي منبع كلِّ شرٍّ، ومأوى كلِّ سوء، وما كان هكذا لم يَصدُرْ منه خير، ولا هو من شأنه.

فالخير الَّذي يَصدُرُ منها إنَّما هو من الله تعالى وبه، لا من العبد، ولا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال أهل الجنَّة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تبارك وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات: ٧].

فكلُّ خير في العبد فهو مجرَّد فضلِ الله ومِنَّتِه، وإحسانِه ونعمته، وهو المحمود عليه.

فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة، كرؤيته لصفاته الخلْقيَّة: مِن سمعِه وبصرِه، وإدراكه وقوَّتِه، بل من صحَّتِه، وسلامةِ أعضائه، ونحوِ ذلك، فالكلُّ مجرَّدُ عطاء الله ونعمتِه وفضله.

فالذي يُخلِّص العبدَ من هذه الآفةِ: معرفةُ ربِّه، ومعرفةُ نفْسِه.

والذي يخلِّصُه مِن طلبِ العِوَض على العمل: عِلْمُه بأنَّه عبدٌ محض، والعبد لا يستحِقُّ على خدمته لسيِّده عِوضًا ولا أجرة؛ إذ هو يخدُمُه بمقتضى عبوديَّتِه، فما يناله من سيِّده من الأجر والثَّوابِ تفضُّلٌ منه، وإحسان إليه، وإنعامٌ عليه، لا معارضة؛ إذِ الأجرة إنما يستحقُّها الحُرُّ، أو عبدُ الغير، فأمَّا عبدُ نفْسِه فلا.

والذي يخلِّصه من رضاه بعمله وسكونِه إليه أمْران:

أحدهما: مطالعة عيوبِه وآفاته، وتقصيرِه فيه، وما فيه من حظِّ النَّفْس، ونصيبِ الشيطان، فقَلَّ عملٌ من الأعمال إلَّا وللشيطان فيه نصيب، وإن قلَّ، وللنفس فيه حظٌّ.

«سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عنِ التِفاتِ الرَّجُلِ في صَلاتِه؟ فقال: هو اختِلاسٌ يَختَلِسُه الشَّيطانُ مِن صَلاةِ العَبدِ»[1].

فإذا كان هذا التفاتُ طَرْفِه أو لَحْظِه؛ فكيف التفاتُ قلبه إلى ما سوى الله؟ هذا أعظم نصيبِ الشيطان من العبودية.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يجعل أحدُكم للشيطان حظًّا من صلاته، يرى أن حقًّا عليه أن لا ينصرف إلا عن يمينه»[2].

فجعل هذا القَدْرَ اليسير النَّزرَ حظًّا ونصيبًا للشيطان من صلاة العبد، فما الظَّنُّ بما فوقه؟

وأما حظُّ النَّفْس من العمل: فلا يعرفه إلا أهلُ البصائر الصادقون.

الثاني: عِلمُه بما يستحقُّه الربُّ جل جلاله من حقوق العبوديَّة، وآدابِها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعفُ وأعجز وأقلُّ من أن يوفِّيَها حقَّها، وأن يرضى بها لربه، فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربِّه، ولا يرضى نفْسَه لله تعالى طرفةَ عين، ويستحيي من مقابلة الله بعمله.

فسوء ظنِّه بنفسه وعملِه، وبُغضُه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله: يحول بينه وبين الرِّضا بعمله، والرِّضا عن نفسه.

وكان بعض السلف يصلِّي في اليوم واللَّيلةِ أربعَمائة ركعةٍ، ثم

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١)، وأبو داود (٩١٠)، والنسائي (١١٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٨٥٢)، ومسلم (٧٠٧).

يقبض على لحيته ويَهُزُّها، ويقول لنفْسه: يا مأوى كلِّ سوء، وهل رضيتُك لله طرفةَ عين؟

وقال بعضهم: آفة العبدِ رضاه عن نفسه، ومَن نظر إلى نفسه باستحسانِ شيءٍ منها فقد أهلكها، ومَن لم يتَّهِم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

المؤمن يجمع إحسانًا في مخافة

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: الخَجَلُ مِنَ العَمَلِ مع بَذْلِ المَجهُودِ، وتَوفِيرِ الجُهدِ بِالاحتِماءِ مِنَ الشُّهُودِ، ورُؤيةِ العَمَلِ في نُورِ التَّوفيقِ مِن عَينِ الجُودِ**).

هذه ثلاثة أمور: خجلُه من عملِه، وهو شدة حيائه من الله؛ إذ لم يَرَ ذلك العملَ صالحًا له، مع بذل مجهوده فيه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال النبي ﷺ: «**هو الرَّجُلُ يَصُومُ، ويُصَلِّي، ويَتصَدَّقُ، ويَخافُ ألَّا يُقبَلَ مِنهُ**»[١].

فالمؤمن: جمَع إحسانًا في مخافة وسوء ظنٍّ بنفسه، والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته.

الثاني: توفير الجهد باحتمائه من الشُّهود؛ أي: يأتي بجهد الطَّاقةِ في تصحيح العمل، محتميًا عن شهوده منك وبك.

الثالث: أن تحتمي بنور التَّوفيقِ الَّذي ينوِّر الله به بصيرةَ العبد، فترى في ضوء ذلك النَّورِ أنَّ عملك من عين جودِه لا بك، ولا منك.

فقد اشتملت هذه الدرجةُ على خمسة أشياءَ: عمَل، واجتهاد فيه، وخجَل، وحياء من الله فيه، وصيانة عن شهوده منك، ورؤيته من عين جودِ الله ومِنَّتِه.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٥) (٢٥٢٦٣)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، والحاكم (٣٤٨٦)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢).

الدخول تحت رِقّ عبودية الحقِّ وحدَه

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: إخلاصُ العَمَلِ بالخَلاصِ مِنَ العَمَلِ، تَدَعُهُ يَسِيرُ سَيْرَ العِلمِ، وتَسِيرُ أنتَ مُشاهِدًا لِلحُكمِ، حُرًّا مِن رِقِّ الرَّسْمِ**).

ومعنى كلامه: أنَّك تجعل عملَك تابعًا للعِلم، موافقًا له، مؤتمًّا به، تَسير بسَيْرِه وتقف بوقوفه، وتتحرَّكُ بحركته، نازلًا منازلَه، مرتويًا من موارده، فتكون ناظرًا إلى الحُكم الدِّينيِّ الأمْريِّ، مُتقيِّدًا به، فِعْلًا وتركًا، وطلبًا وهربًا؛ ناظرًا إلى ترتُّب الثواب والعقابِ عليه سببًا وكسبًا، ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهدًا للحُكم الكَونيِّ القضائيِّ، الذي تنطوي فيه الأسبابُ والمسببات، والحركاتُ والسَّكَنات، ولا يبقى هناك غيرُ محضِ المشيئة، وتفرُّدِ الرَّبِّ وحدَه بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته، فيكون قائمًا بالأمر والنَّهيِ: فِعلًا وتركًا، سائرًا بسيره، وبالقضاء والقدَر، إيمانًا وشهودًا وحقيقة، فهو ناظر إلى الحقيقة، قائم بالشَّريعة.

وهذان الأمران هما عبوديَّةُ هاتين الآيتين: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٩ ـ ٣٠].

فتَرْكُ العمل يسير سَيْرَ العِلم، مشهد: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨]، وسَيْرُ صاحبه مشاهِدًا للحُكم، مشهد: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]

وأمَّا قوله: (**حُرًّا مِن رِقِّ الرَّسم**) الحريَّةُ التي يشيرون إليها: هي عدمُ الدُّخولِ تحت عبوديَّةِ الخلْق والنَّفْس، والدُّخول تحت رِقِّ عبوديَّةِ الحقِّ وحدَه.

ومرادهم بالرسم: ما سِوى الله، فكلُّه رسوم، فإنَّ الرسوم هي الآثار، ورسوم المنازل والدِّيار: هي الآثار التي تبقى بعد سُكَّانها، والمخلوقاتُ بأسرها في منزل الحقيقة رسومٌ وآثارٌ للقدرة؛ أي: فتخلِّص

نفْسَك من عبوديَّةِ كلِّ ما سِوى الله، وتكون بقلبك مع القادر الحقِّ وحدَه؛ لا مع آثار قدرته التي هي رسوم.

فلا تشتغل بغيره انشغالًا بعبوديَّتِه، ولا تطلب بعبوديَّتك له حالًا ولا مقامًا، ولا مكاشفة، ولا شيئًا سواه.

فهذه أربعة أمور: بَذْل الجهد، وتحكيم العِلم، والنَّظرُ إلى الحقيقة، والتَّخلُّص من الالتفات إلى غيره. والله الموفق.

* * *



الإخلاص: عدم انقسام المطلوب، والصِّدق: عدم انقسام الطَّلب.

فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب، وحقيقة الصِّدق: توحيد الطَّلبِ والإرادة، ولا يُثمران إلَّا بالاستسلام المحضِ للمتابعة.

فهذه الأركان الثلاثةُ هي أركان السَّير، وأصول الطريق التي مَن لم يَبْنِ عليها سلوكَه وسَيْرَه فهو مقطوع، وإن ظَنَّ أنَّه سائر، فسَيْرُه إمَّا إلى عكس جهة مقصوده، وإمَّا سير المُقعَد والمُقَيَّد، وإمَّا سَيرُ صاحبِ الدَّابَّةِ الجَمُوح؛ كلَّما مشتْ خطوة إلى قُدَّام رجعت عشرة إلى الخلف.

فإنْ عَدِمَ الإخلاصَ والمتابعة: انعكس سَيْرُه إلى خلف، وإن لم يبذُل جهدَه ويوحِّدْ طلبَه: سار سَيْرَ المُقَيَّد.

وإن اجتمعت له الثلاثةُ: فذلك الذي لا يُجارَى في مِضمار سَيْرِه، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الجمعة: ٤].





منزلة التهذيب والتصفية

وهو سَبْكُ العبودية في كِير الامتحان، طلبًا لإخراج ما فيها من الخبث والغشِّ.

قال صاحب «المنازل»: (**التَّهذِيبُ: مِحْنَةُ أربابِ البِداياتِ، وهو شَرِيعةٌ مِن شَرائِعِ الرِّياضةِ**).

يريد: أنَّه صعبٌ على المبتدي، فهو له كالمحنة، وطريقة للمرتاض الَّذي قد مَرَّن نفْسَه حتى اعتادتْ قَبوله، وانقادتْ إليه.

درجات تخليص العبودية وتصفيتها

قال: (**وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ**:

الأُولَى: تَهذِيبُ الخِدمةِ؛ ألَّا يُخالِجَها جَهالَةٌ، ولا تَشُوبَها عادَةٌ، ولا تَقِفَ عِندَها هِمَّةٌ).

أي: تخليص العبوديَّة، وتصفيتُها من هذه الأنواع الثلاثة. وهي: مخالجة الجهالة، وشَوْب العادة، ووقوف همَّةِ الطالب عندها.

النوع الأول: **مخالطة الجهَّال**: فإن الجهالة متى خالطت العبوديَّة، أوردها العبد غيرَ موردها، ووضعها في غير موضعها، وفعَلها في غير مُستحَقِّها، وفعَل أفعالًا يعتقد أنَّها صلاح، وهي إفساد لخدمته وعبوديَّتِه، بأن يتحرَّك في موضع السُّكون، أو يَسْكُنَ في موضع الحركة، أو يفرِّق في موضع جَمْع، أو يجمع في موضع فرْق، أو يطير في موضع سفون، أو يَسفن في موضع طيران، أو يُقْدِم في موضع إحجام، أو يُحْجِم في موضع إقدام، أو يتقدَّم في موضع وقوف، أو يقف في موضع تقدُّم، ونحو ذلك من الحركات، التي هي في حقِّ الخدمة: كحركات الثقيل البغيضِ في حقوق الناس.

فالخدمة ما لم يَصحَبْها عِلمٌ ثانٍ بآدابها وحقوقِها، غير العِلم بها نفْسِها، كانت في مَظِنَّة أن تُبعدَ صاحبَها، وإن كان مرادُه بها التَّقربَ، ولا يلزم حبوطُ ثوابها وأجْرِها، فهي إن لم تُبعِدْه عن الأجر والثوابِ أبعدته عن المنزلة والقُربة.

ولا تنفصل مسائلُ هذه الجملة إلَّا بمعرفةٍ خاصَّةٍ بالله وأمره، ومحبةٍ تامَّةٍ له، ومعرفة بالنفس وما منها.

النوع الثاني: **شَوْب العادة**: وهو أن يمازج العبوديةَ حُكْمٌ من أحكام عوائدِ النَّفْسِ تكون منفذةً لها، مُعِينة عليها، وصاحبها يعتقدها قُربةً وطاعة، كمنِ اعتاد الصَّومَ ـ مثلًا ـ وتمرَّن عليه، فألِفَته النَّفْسُ، وصار لها عادةً تتقاضاها أتمَّ اقتضاء، فيظنُّ أنَّ هذا التَّقاضي محضُ العبوديَّة، وإنما هو تقاضي العادة.

وعلامة هذا أنَّه إذا عُرِض عليها طاعةٌ دون ذلك، وأيسرُ منه، وأتمُّ مصلحةً لم تؤْثِرْها إيثارَها لِما اعتادَتْه وألِفَته.

كما يُحْكَى عن بعض الصالحين من الصوفية قال: «حَجَجْتُ كذا وكذا حَجَّةً على التَّجريد، فبان لي أنَّ جميع ذلك كان مشوبًا بحظِّي، وذلك أنَّ والدتي سألَتْني أن أستقي لها جرعة ماء، فثقُل ذلك على نفسي، فعلِمتُ أنَّ مطاوعة نفسي في الحَجَّات كان بحظِّ نفْسي وإرادتِها؛ إذْ لو كانت نفسي فانية لم يصعُب عليها ما هو حقٌّ في الشَّرع».

النوع الثالث: **وقوف همَّتِه عند الخدمة**: وذلك علامة ضَعفِها وقُصورِها، فإنَّ العبد المحضَ لا تقف همَّتُه عند خدمته، بل همَّتُه أعلى من ذلك؛ إذْ هي طالبة لرضا مَخدومِه، فهو دائمًا مستصغِرٌ خدمتَه له، ليس واقفًا عندها. والقناعة تُحمَدُ من صاحبها إلَّا في هذا الموضع؛ فإنَّها عين الحرمان، فالمحِبُّ لا يقنع بشيء دون محبوبه، فوقوف همَّةِ العبد مع خدمته وأُجرتها: سقوطٌ فيها وحرمان.

ميزان المعرفة الصحيحة والحال الصحيح

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: تَهذِيبُ الحالِ، وهو أن لا يَجنَحَ الحالُ إلى عِلْمٍ، ولا يَخضَعَ لِرَسمٍ، ولا يَلتَفِتَ إلى حَظٍّ**).

أما جنوح الحال إلى العِلم فهو نوعان: ممدوح، ومذموم.

فالممدوح: التفاتُه إليه، وإصغاؤُه إلى ما يأمر به، وتحكيمه عليه، فمتى لم يجنح إلى هذا الجنوحَ كان حالًا مذمومًا، ناقصًا مُبعِدًا عن الله، فإنَّ كلَّ حال لا يَصحَبُه عِلمٌ يُخاف عليه أن يكون مِن خُدَع الشيطان.

واعلم أنَّ المعرفة الصَّحيحةَ: هي رُوح العِلم، والحال الصَّحيح: هو رُوح العملِ المستقيم، فكلُّ حالٍ لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقًا للعِلم فهو بمنزلة الرُّوح الخبيثة الفاجرة.

فالعِلم الصَّحيح، والعملُ المستقيم: هما ميزانُ المعرفة الصَّحيحة، والحالِ الصَّحيح، وهما كالبدنين لرُوحَيْهِما.

فأحسَنُ ما يُحمل عليه قولُه: (**ألَّا يَجنَحَ الحالُ إلى عِلْم**) أن العِلم يدعو إلى التفرقة دائمًا، والحال يدعو إلى الجمعيَّة، والقلبُ بين هذين الداعيين، فهو بحسَب هذا مرَّةً وهذا مرة.

فتهذيب الحال وتصفيتُه: أن يجيب داعيَ الحال لا داعيَ العِلم، ولا يلزم من هذا إعراضُه عن العلم، وعدمُ تحكيمه والتسليمِ له، بل هو متعبِّدٌ بالعلم، مُحَكِّمٌ له، مستسلم له، غيرُ مجيبٍ لداعيه من التفرقة، بل هو مجيب لداعي الحال والجمعيَّة، آخِذٌ من العِلم ما يصحِّح له حالَه وجمعيَّتَه، غير مستغرق فيه استغراق مَن هو مَطْرح همته وغاية مقصده، لا مطلوب له سواه، ولا مراد له إلا إياه، فالعِلم عنده آلةٌ ووسيلة، وطريقٌ توصِلُه إلى مقصده ومطلوبه.

وأمَّا قوله: (**ولا يَخضَعُ لِرَسم**)؛ أي: لا يستولي على قلبه شيءٌ من الكائنات، بحيث يخضع له قلبُه، فإنَّ صاحب الحال: إنَّما يطلب الحيَّ القيُّوم، لا يقف عند المعاهد والرُّسوم.

ثلاثة أشياء تهذب قصده وتصفيه

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: تَهذِيبُ القَصدِ، وهو تَصفِيَتُه مِن ذُلِّ الإكراهِ، وتَحَفُّظُه مِن مَرَضِ الفُتُورِ، ونُصْرَتُه على مُنازَعاتِ العِلمِ**).

هذه أيضًا **ثلاثةُ أشياءَ** تهذِّب قصْدَه وتُصفِّيه.

أحدها: تَصفيتُه من ذُلِّ الإكراه؛ أي: لا يسوق نفْسَه إلى الله كرهًا، كالأجير المسخَّر المكلف، بل تكون دواعي قلبِه وجواذبه منساقةً إلى الله طوعًا ومحبَّةً وإيثارًا، كجريان الماء في منحدره، وهذه حال المحبِّينَ الصَّادقين، فإنَّ عبادتهم طوعًا ومحبةً ورضًا، ففيها قُرَّةُ عيونهم، وسرورُ قلوبهم، ولذَّةُ أرواحهم. كما قال النبيُّ ﷺ: «**وجُعِلَت قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاةِ**»[1]، وكان يقول: «**يا بِلالُ، أرِحْنا بالصَّلاةِ**»[2].

فَقُرَّةُ عَينِ المُحبِّ ولذَّتُه ونعيم رُوحه: في طاعة محبوبه، بخِلاف المطيع كرهًا، المتحمِّل للخدمة ثقلًا.

وفي قوله: (**ذُلِّ الإكراهِ**) لطيفةٌ، وهي أنَّ المطيع كرهًا يرى أنَّه لولا ذُلُّ قهره، وعقوبةُ سيِّده له لَما أطاعه، فهو يتحمَّلُ طاعته كالمكرَه الَّذي قد أذلَّه مُكرِهُه وقاهرُه، بخلاف المحبِّ الَّذي يَعُدُّ طاعةَ محبوبه قُوتًا ونعيمًا، ولذَّةً وسرورًا، فهذا ليس الحاملُ له ذُلَّ الإكراه.

الثاني: تحفُّظه من مرض الفتور؛ أي: توقِّيه من مرض فتور قصدِه، وخمود نار طلبه، فإنَّ العزم هو رُوح القلب، ونشاطه كالصِّحَّةِ له، وفتوره مرض من أمراضه، فتهذيب قصده وتصفيته بحِمْيَتِه من أسباب هذا المرضِ الذي هو فتوره، وإنَّما يتحفظ منه بالحِمْية من أسبابه، وهي أن يلهوَ عن الفضول من كلِّ شيء، ويحرص على ترك ما

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي (٣٩٣٩)، وأبو يعلى (٣٤٨٢)، والحاكم (٢٦٧٦)، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، من حديث أنس رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٢٤).

(٢) أخرجه أحمدُ (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ٦٢١٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٩٢).

لا يَعنيه، ولا يتكلَّم إلَّا فيما يرجو فيه زيادةَ إيمانه وحالِه مع الله تعالى، ولا يصحب إلا مَن يعينه على ذلك، فإنْ بُلِيَ بِمَن لا يعينه فليَدْرَأْهُ عنه ما استطاع، ويدفعه دفْعَ الصَّائل.

الثالث: نُصرة قصْده على منازعات العِلم، ومعنى ذلك: نصرة خاطر العبودية المحضة، والجمعيَّةِ فيها، والإقبال على الله فيها بكلِّيَّةِ القلب، على جواذب العلم والفكرة في دقائقه، وتفاريع مسائله وفضلاته.

أو أنَّ العلمَ يَطلبُ من العبد العملَ للرَّغبةِ والرَّهبة والثَّواب، وخوف العقاب.

فتهذيب القصد: تصفيتُه من ملاحظة ذلك، وتجريده: أن يكون قصْدُه وعبوديَّتُه محبَّةً لله بلا علَّة، وأن لا يحِبَّ الله لِما يعطيه ويحميه منه.

فتكون محبَّتُه لله محبَّةَ الوسائل، ومحبَّتُه بالقصد الأوَّلِ لِمَا يناله من الثواب المخلوق، فهو المحبوب له بالذَّات، بحيث إذا حصل له محبوبُه تَسَلَّى به عن محبَّةِ مَن أعطاه إيَّاه، فإنَّ مَن أحبَّك لأمْرٍ وَلَّى عند حصوله، ومَلَّكَ عند انقضائه.

فالمحِبُّ الصادق يخاف أن تكون محبَّتُه لغرض من الأغراض؛ فتنقضي محبَّتُه عند انقضاء ذلك الغرض. وإنَّما مراده: أنَّ محبَّتَه تدوم ولا تنقضي أبدًا، وأن لا يجعل محبوبَه وسيلةً له إلى غيره، بل يجعل ما سواه وسيلةً له إلى محبوبه.





منزلة الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣ ـ ١٤].

وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢].

فبيَّن أنَّ الاستقامة بعدم الطُّغيان، وهو مجاوزة الحدود.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ﴾ [فصلت: ٦].

تعريف السلف للاستقامة

سُئِل صِدِّيق الأمَّة وأعظمُها استقامةً أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه عن الاستقامة؟ فقال: «أن لا تشركَ بالله شيئًا». يريد: الاستقامةَ على محض التَّوحيد.

وقال عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنَّهي، ولا تَروغَ رَوَغانَ الثَّعالب».

وقال عثمان بن عفَّانَ رضي الله عنه: «استقاموا: أخلَصوا العمل لله».

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عبَّاس رضي الله عنهما: «استقاموا: أدَّوا الفرائض».

وقال الحسَن: «استقاموا على أمر الله فعمِلوا بطاعته، واجتنَبوا معصيتَه».

وقال مجاهد: «استقاموا على شهادة أن لا إلٰه إلَّا اللهُ حتى لحِقوا بالله».

وسمعتُ شيخ الإسلام ابنَ تَيميَّة يقول: «استقاموا على محبَّته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يَمْنةً ولا يَسْرةً».

وفي «صحيح مسلم» عن سفيانَ بنِ عبد الله قال: قلت: يا رسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحَدًا غَيرَكَ، قال: «**قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، ثُمَّ استَقِمْ**»[1].

وفيه عن ثَوبانَ عن النبي ﷺ قال: «**استَقِيمُوا ولن تُحْصُوا، واعلَمُوا أنَّ خَيرَ أعمالِكُمُ الصَّلاةُ، ولا يُحافِظُ على الوُضُوءِ إلَّا مؤْمِنٌ**»[2].

والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السَّداد، فإن لم يَقْدِر عليها فالمقارَبة، فإنْ نزل عنها: فالتَّفريطُ والإضاعة، كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: «**سَدِّدُوا وقارِبُوا، واعلَمُوا أنَّه لن يَنجُوَ أحَدٌ مِنكُم بعَمَلِه**»، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ولا أنا، إلَّا أن يَتَغَمَّدَني اللهُ برَحمةٍ مِنهُ وفَضْلٍ**»[3].

فجمَع في هذا الحديث مقاماتِ الدِّين كلَّها، فأمر بالاستقامة، وهي السَّداد والإصابة في النِّيَّات والأقوالِ والأعمال.

وأخبر في حديث ثَوبانَ: أنهم لا يُطيقونها، فنقَلَهم إلى المقاربة، وهي: أن يقربوا من الاستقامة بحسَب طاقتهم، كالذي يَرمي إلى الغرض، فإنْ لم يُصِبْه يقارِبه، ومع هذا فأخبرهم: أنَّ الاستقامة

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣٧٨)، وابن ماجه (٢٧٧)، والدارمي (٦٨١)، وابن حبان (١٠٣٧)، والحاكم (٤٤٧ ـ ٤٤٩) وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٥). ووهم المؤلف في نسبته إلى مسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

والمقاربةَ لا تُنجي يوم القيامة، فلا يَركَنْ أحدٌ إلى عمله، ولا يعجب به، ولا يرى أنَّ نجاته به، بل إنَّما نجاتُه برحمة الله وعفوِه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخِذةٌ بمجامعِ الدِّين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصِّدق، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلَّق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنِّيَّات، فالاستقامة فيها: وقوعُها لله، وبالله، وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: «كن صاحبَ الاستقامة، لا طالبَ الكرامة، فإنَّ نفْسَك متحرِّكةٌ في طلب الكرامة، وربُّك يطالِبُك بالاستقامة».

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ ـ قدس الله تعالى روحه ـ يقول: (أعظَمُ الكرامة، لزوم الاستقامة».

الاستقامة للحال بمنزلة الروح للبدن

قال: (**والاستِقامةُ رُوحٌ تَحيَى بها الأحوالُ، كما تَرْبُو لِلعامَّةِ عليها الأعمالُ، وهيَ بَرْزَخٌ بيْن وِهَادِ التَّفرُّقِ، ورَوابي الجَمْعِ**).

شبَّه الاستقامةَ للحال بمنزلة الرُّوح للبدن، فكما أنَّ البدن إذا خلا عن الرُّوح فهو ميت، فكذلك الحالُ إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد، وكما أنَّ حياة الأحوالِ بها، فزيادة أعمالِ الزاهدين أيضًا وربوها وزكاؤها بها، فلا زكاءَ للعمل ولا صحَّةَ للحال بدونها.

وأمَّا كوْنُها (**بَرْزخًا بيْن وِهَادِ التَّفرُّقِ، ورَوابي الجَمْعِ**) فالبرزخ هو الحاجز بين شيئين متغايرين، والوِهاد: الأمكنة المنخفضةُ من الأرض، واستعارها للتَّفرُّق؛ لأنَّها تحجب مَن يكون فيها عن مطالعة ما يراه مَن هو على الرَّوابي، كما أنَّ صاحب التَّفرُّقِ محجوبٌ عن مطالعة ما يراه صاحب الجَمع ويشاهده.

وأيضًا فإنَّ حاله أنزَلُ من حاله، فهو كصاحب الوِهاد، وحالُ صاحب الجَمع أعلى، فهو كصاحب الرَّوابي، وشبَّه حالَ صاحب الجمْعِ بحال مَن على الرَّوابي؛ لعُلُوِّه، ولأنَّ الرَّوابي تكشف لمَن عليها القريبَ والبعيد، وصاحب الجَمع تُكشَف له الحقائقُ المحجوبةُ عن صاحب التَّفرقة.

إذا عُرِف هذا فمعنى كونِها برزخًا: أنَّ السالك يكون في أوَّل سلوكِه في أودية التَّفرِقة، سائرًا إلى رَوابي الجمْع، فيستقيم في طريق سَيرِه غايةَ الاستقامة، لِيَصلَ باستقامته إلى روابي الجمع، فاستقامته برزخٌ بين تلك التَّفرقةِ الَّتي كان فيها، وبيْن الجَمْع الذي يَؤُمُّه ويقصده، وهذا بمنزلة تفرقة المقيم في البلد في أنواع التَّصرُّفات، فإذا عزَم على السَّفر، وخرج وفارق البلد، واستمرَّ على السَّير كان طريقُ سفرِه برزخًا بين البلد الَّذي كان فيه، والبلدِ الذي يقصده ويَؤمُّه.

درجات الاستقامة

قال: (وهيَ على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:

الدَّرَجةُ الأُولَى: الاستِقامةُ على الاجتِهادِ في الاقتِصادِ، لا عادِيًا رَسْمَ العِلمِ، ولا مُتَجاوِزًا حَدَّ الإخلاصِ، ولا مُخالِفًا نَهْجَ السُّنَّةِ).

هذه الدرجة تتضمَّن ستةَ أمور: عملًا واجتهادًا فيه، وهو بذْلُ المجهود، واقتصادًا، وهو السُّلوك بين طرفَي الإفراط، وهو الجَور على النُّفوس، والتَّفريطِ بالإضاعة، ووقوفًا مع ما يرسمه العِلم، لا وقوفًا مع دواعي الحال، وإفراد المعبود بالإرادة، وهو الإخلاص، ووقوع الأعمال على الأمر، وهو متابعة السُّنَّة.

فبهذه الأمور السِّتَّةُ تَتمَّ لأهل هذه الدَّرجةِ استقامتُهم، وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إمَّا خروجًا كليًّا، وإمَّا خروجًا جزئيًّا.

أهمية الاقتصاد في الأعمال والاعتصام بالسُّنَّة

والسَّلف يَذْكرون هذين الأصلين كثيرًا ـ وهما: الاقتصاد في الأعمال، والاعتصامُ بالسُّنَّة، فإنَّ الشيطان يَشُمُّ قلبَ العبد ويختبِرُه، فإن رأى فيه داعيةً للبدعة، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسُّنة: أخرجه عن الاعتصام بها.

وإنْ رأى فيه حِرصًا عليها، وشِدَّةَ طلبٍ لها: لم يظفرْ به من باب اقتِطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد، والجَور على النَّفْس، ومجاوزةِ حدِّ الاقتصاد فيها، قائلًا له: إنَّ هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها

أولى، فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تَنَمْ مع أهل النوم، فلا يزال يَحُثُّه ويُحرِّضه، حتى يُخرِجَه عن الاقتصاد فيها.

قال بعض السلف: «ما أمَر الله بأمر إلَّا وللشيطان فيه نزعتان، إمَّا إلى تفريط، وإمَّا إلى مجاوزة، وهي الإفراط، ولا يبالي بأيِّهما ظفِر».

وقال رسولُ اللهِ ﷺ لعبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما: **«يا عَبْدَ اللهِ بنَ عَمرٍو، إنَّ لكُلِّ عامِلٍ شِرَّةً، ولكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرةً، فمَنْ كانَتْ فَتْرَتُه إلى سُنَّةٍ أفلَحَ، ومَن كانَتْ فَتْرَتُه إلى بِدْعةٍ خابَ وخَسِرَ»**[1]. قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

فكلُّ الخير في اجتهادٍ باقتصاد، وإخلاصٍ مقرون بالاتِّباع.

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: استِقامةُ الأحْوالِ، وهيَ شُهُودُ الحَقِيقةِ لا كَسْبًا، ورَفْضُ الدَّعْوَى لا عِلْمًا، والبَقاءُ مع نُورِ اليَقَظةِ لا تَحَفُّظًا)**.

يعني: أنَّ استقامة الحالِ بهذه الثلاثة.

أمَّا **(شُهُودُ الحَقِيقةِ)** فالحقيقة حقيقتان: حقيقةٌ كونيَّة، وحقيقة دينيَّة، يجمعُهما حقيقةٌ ثالثة، وهي مصدرُهما ومنشؤهما، وغايتُهما.

فشهود هذه الحقيقةِ الجامعة: هو عين الاستقامة.

وأمَّا شهود الحقيقةِ الكونيَّة، أو الأزَلية، والفناء فيها: فأمْرٌ مشترك بين المؤمنين والكفَّار، فإنَّ الكافر مُقِرٌّ بقدَر الله وقضائه، وأزَليَّتِه وأبَديَّتِه، فإذا استغرق في هذا الشهود وفنيَ به عن سواه: فقد شهِد الحقيقة.

وأمَّا قولُه: **(لا كَسْبًا)**؛ أي: تتحقَّقُ عند مشاهدةِ الحقيقةِ أنَّ شهودها لم يكن بالكسب؛ لأنَّ الكسب مِن أعمال النَّفْس، فالحقيقة لا

---

(١) أخرجه أحمد (٦٧٦٤)، وابن خزيمة (٢١٠٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه الترمذي (٢٤٥٣)، وقال: «حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن حبان (٣٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٥٠).

تبدو مع بقاء النَّفْس؛ إذِ الحقيقة فردانيَّةٌ أحَديَّةٌ نُورانيَّة، فلا بد من زوال ظُلْمةِ النَّفْس، ورؤيةِ كسْبها، وإلَّا لم يشهد الحقيقة.

وأمَّا (**رَفْضُ الدَّعْوَى لا عِلْمًا**) فالدَّعوى نسبة الحال وغيرِه إلى نفْسِك وإنِّيَّتِك.

فالاستقامة لا تَصِحُّ إلا بتركها، سواءٌ كانت حقًّا أو باطلًا، فإنَّ الدعوى الصَّادقةَ تُطفِئ نورَ المعرفة، فكيف بالكاذبة؟

وأمَّا قولُه: (**لا عِلْمًا**)؛ أي: لا يكون الحاملُ له على ترك الدَّعوى مجرَّدَ عِلمِه بفساد الدَّعوى، ومنافاتِها للاستقامة، فإذا ترَكها يكون ترَكها لكون العِلم قد نهى عنها، فيكون تاركًا لها ظاهرًا لا حقيقة، أو تاركًا لها لفظًا، قائمًا بها حالًا؛ لأنَّه يرى أنَّه قد قام بحقِّ العِلم في ترْكها، فيتركها تواضعًا؛ بل يتركها حالًا وحقيقة، كما يترك مَن أحبَّ شيئًا تضرُّه محبَّتُه حبَّه حالًا وحقيقة، وإذا تحقَّق أنَّه ليس له من الأمر شيءٌ ـ كما قال الله ﷻ لخير خلْقِه على الإطلاق: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ـ ترَك الدَّعوى شهودًا وحقيقة وحالًا.

وأمَّا (**البَقاءُ مع نُورِ اليَقَظةِ**) فهو الدَّوام في اليقظة، وأن لا يطفِئ نورَها بظلمة الغفلة؛ بل يستديم يقظتَه، ويرى أنَّه في ذلك كالمجذوب المأخوذِ عن نفْسه، حِفْظًا من الله له، لا أن ذلك حصَل بتحفُّظه واحترازه.

فهذه ثلاثة أمور: يقظة، واستدامةٌ لها، وشهودُ أنَّ ذلك بالحقِّ سبحانه لا بك، فليس سببُ بقائِه في نور اليقظة يحفظه، بل بحفظ الله له.

وكأنَّ الشيخ يشير إلى أنَّ الاستقامة في هذه الدَّرجةِ لا تحصُل بكسب، وإنَّما هو مجرَّدُ موهبةٍ من الله، فإنَّه قال في الأُولى: (**الاستِقامةُ على الاجتِهادِ**) وفي الثانية: (**استِقامةُ الأحْوالِ، لا كَسْبًا ولا تَحفُّظًا**).

ومنازعته في ذلك متوجِّهة، وأنَّ ذلك ممَّا يمكن تحصيلُه كسْبًا بتعاطي الأسباب التي تَهجُم بصاحبها على هذا المقام.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: استِقامةٌ بِتَرْكِ رُؤْيةِ الاستِقامةِ، وبالغَيْبةِ عن تَطَلُّبِ الاستِقامةِ بشُهُودِ إقامةِ الحَقِّ وتَقْوِيمِه**).

هذه الاستقامة معناها: الذُّهولُ بمشهوده عن شهوده، فيغيب بالمشهودِ المقصودِ سبحانه عن رؤية استقامته في طلبِه، فإنَّ رؤية الاستقامةِ تحجُبه عن حقيقة الشهود.

وأمَّا (**الغَيْبةُ عن تَطَلُّبِ الاستِقامةِ**) فهو غَيبته عن طلبها بشهود إقامةِ الحقِّ للعبد، وتقويمِه إيَّاه، فإنَّه إذا شهِد أنَّ الله هو المقيمُ له والمُقَوِّم، وأنَّ استقامته وقيامَه بالله، لا بنفْسِه ولا بطلبه: غاب بهذا الشُّهود عن استشعار طلبِه لها.

وهذا القَدْر من موجبات شهود معنى اسمه (القيُّوم)، وهو الذي قام بنفْسه فلم يَحتَجْ إلى أحد، وقام كلُّ شيء به، فكلُّ ما سواه محتاجٌ إليه بالذَّات.



منزلة التوكُّل

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال عن أوليائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال عن أصحاب نبيه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

والقرآن مملوءٌ من ذلك.

وفي «الصَّحيحين» ـ في حديث السَّبعينَ ألْفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ـ «**هُمُ الَّذينَ لا يَسترقُونَ، ولا يَتطيَّرُونَ، ولا يَكْتَوُونَ، وعلى رَبِّهِم يَتوكَّلُونَ**»[(١)].

وفي «صحيح البخاريِّ» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الوَكيلُ، قالَها إبراهيمُ ﷺ، حِينَ أُلقِيَ في النَّارِ، وقالَها مُحمَّدٌ ﷺ حِينَ قالُوا لهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[١].

وفي «الصَّحيحين»: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ لكَ أسلَمْتُ، وبكَ آمَنْتُ، وعليكَ تَوكَّلْتُ، وإليكَ أنَبْتُ، وبكَ خاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بعِزَّتِكَ، لا إلٰهَ إلَّا أنتَ: أن تُضِلَّني، أنتَ الحَيُّ الَّذي لا يَمُوتُ، والجِنُّ والإنسُ يَمُوتُونَ**»[٢].

وفي التِّرمذي عن عُمرَ ﷺ مرفوعًا: «**لو أنَّكُم تَتوكَّلُونَ على اللهِ حَقَّ تَوكُّلِه، لَرَزَقكُم كما يَرزُقُ الطَّيرَ، تَغْدُو خِماصًا وتَرُوحُ بِطانًا**»[٣].

وفي السُّنن عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قال** ـ يعني: إذا خَرَجَ مِن بَيتِه ـ **بِاسمِ اللهِ، تَوكَّلْتُ على اللهِ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، يُقالُ لهُ: هُدِيتَ وكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فيَقولُ الشَّيطانُ لِشَيطانٍ آخَرَ: كيفَ لكَ بِرَجُلٍ قد هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ؟**»[٤].

التوكل نصف الدين

التَّوكُّل نِصفُ الدِّين، ونِصفُه الثاني الإنابة؛ فإنَّ الدِّين استعانةٌ وعبادة، فالتَّوكُّلُ هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعُها، ولا تزال معمورةً بالنازلين، لسَعة متعلَّقِ التَّوكُّل، وكثرةِ حوائج العالَمين، وعموم التَّوكُّلِ، ووقوعِه من المؤمنينَ والكفَّار، والأبرار والفجَّار، والطَّيرِ والوحش والبهائم،

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).
(٢) أخرجه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).
(٣) أخرجه أحمد (٢٠٥)، والترمذي (٢٣٤٤)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤١٦٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٠).
(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، والترمذي (٣٤٢٦)، وقال: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٩)، وابن حبان (٨٢٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٩).

فأهلُ السموات والأرض ـ المكلَّفون وغيرهم ـ في مقام التَّوكُّل، وإنْ تبايَنَ متعلقُ توكُّلِهم، فأولياؤه وخاصَّتُه متوكِّلونَ عليه في حصول ما يرضيه منهم، وفي إقامته في الخلْق، فيتوكَّلون عليه في الإيمان، ونُصرةِ دينه، وإعلاءِ كلماته، وجهاد أعدائه، وفي محابِّه وتنفيذِ أوامره.

ودون هؤلاء مَن يتوكَّل عليه في استقامته في نفْسِه، وحِفْظِ حالِه مع الله، فارغًا من الناس.

ودون هؤلاء مَن يتوكَّلُ عليه في معلومٍ ينالُه منه، مِن رزق أو عافية، أو نصرٍ على عدوٍّ، أو زوجةٍ أو ولد، ونحو ذلك.

ودون هؤلاء مَن يتوكَّل عليه في حصول ما لا يحبُّه ويرضاه من الظُّلم والعُدوانِ وحصولِ الإثم والفواحش، فإنَّ أصحاب هذه المطالبِ لا ينالونها غالبًا إلَّا باستعانتهم بالله، وتوكُّلِهم عليه، بل قد يكون توكُّلُهم أقوى من توكُّل كثيرٍ من أصحاب الطاعات، ولهذا يُلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله أن يسَلِّمهم، ويُظْفِرَهم بمطالبهم.

أفضل التوكل

فأفضل التَّوكُّل: التوكُّل في الواجب ـ أعني: واجبَ الحقِّ، وواجبَ الخلْق، وواجبَ النَّفْس ـ وأوسعه وأنفعُه التَّوكُّلُ في التأثير في الخارج في مصلحةٍ دينيَّة، أو في دفع مفسدةٍ دينيَّة، وهو توكُّل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكُّل ورثتِهم، ثم النَّاسُ بعدُ في التوكُّل على حسَب هِمَمِهم ومقاصدهم، فمِن متوكِّلٍ على الله في حصول الملك، ومِن متوكِّلٍ في حصول رغيف.

ومَن صَدَق توكُّلُه على الله في حصول شيءٍ ناله، فإنْ كان محبوبًا له مَرْضيًّا كانت له فيه العاقبةُ المحمودة، وإن كان مسخوطًا مبغوضًا كان ما حصل له بتوكُّله مضرَّةً عليه، وإن كان مباحًا حصلتْ له مصلحةُ التَّوكُّلِ دون مصلحةِ ما توكَّل فيه، إن لم يَستعِنْ به على طاعاته.

فلنذكرْ معنى التوكُّلِ ودرجاتِه، وما قيل فيه.

أقوال السلف في معنى التوكل

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: «التوكُّل عمَلُ القلب»، ومعنى ذلك أنَّه عملٌ قلبيٌّ، ليس بقول اللِّسان، ولا عملِ الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات. ومِنَ الناس مَن يجعله من باب المعارفِ والعلوم؛ فيقول: هو عِلم القلب بكفاية الرَّبِّ للعبد.

ومنهم مَن يفسِّره بالسُّكون وخمودِ حركة القلب.

ومنهم مَن يفسِّرُه بالرِّضا بالمقدور.

وسُئل يحيى بنُ معاذ: «متى يكون الرَّجلُ متوكِّلًا؟ فقال: إذا رضيَ بالله وكيلًا».

ومنهم مَن يفسِّره بالثِّقة بالله، والطُّمأنينةِ إليه، والسُّكونِ إليه.

قال ابن عطاء: «التوكُّل أن لا يظهر فيك انزعاجٌ إلى الأسباب، مع شدَّةِ فاقَتِكَ إليها، ولا تزول عن حقيقة السُّكونِ إلى الحقِّ مع وقوفك عليها».

قال ذو النُّون: «هو تركُ تدبير النَّفس، والانخلاعُ من الحول والقوَّةِ».

وقال بعضهم: «التوكُّلُ التعلُّقُ بالله في كلِّ حال».

وقيل: التوكُّل أن تَرِد عليك مواردُ الفاقات، فلا تَسْمو إلَّا إلى مَن إليه الكفايات.

وقيل: نفْيُ الشُّكوك، والتفويضُ إلى مالك الملوك.

وقال ذو النُّون: «خَلْعُ الأرباب، وقطعُ الأسباب»؛ يريد: قَطْعَها مِن تعلُّق القلبِ بها، لا من ملابسة الجوارح لها.

ومنهم مَن جعله مُرَكَّبًا من أمْرين أو أمور.

قال أبو تراب النَّخْشَبي: «هو طرحُ البدن في العبوديَّة، وتعلُّق القلبِ بالرُّبوبيَّة، والطُّمأنينة إلى الكفاية، فإن أُعطي شكر، وإن مُنع صبر».

فجعله مركَّبًا من خمسة أمور: القيام بحركات العبوديَّة، وتعلُّق القلبِ بتدبير الرَّبِّ، وسكونه إلى قضائه وقدرِه، وطمأنينته بكفايته، وشكره إذا أُعطي، وصبره إذا مُنع.

وأجمع القوم على أنَّ التوكُّل لا ينافي القيامَ بالأسباب، بل لا يصحُّ إلَّا مع القيام بها، وإلَّا فهو بطالة وتوكُّلٌ فاسد.

حقائق التوكل والتسليم والتفويض

قال أبو عليٍّ الدَّقَّاق: «التوكُّل ثلاثُ درجات: التوكُّلُ، ثم التَّسليمُ، ثم التَّفويض، فالمتوكِّلُ يَسكُنُ إلى وعدِه، وصاحبُ التسليم يكتفي بعِلمه، وصاحبُ التفويض يرضى بحُكمه، فالتوكُّلُ بداية، والتسليمُ واسطة، والتفويضُ نهاية، فالتوكُّلُ صفة المؤمنين، والتَّسليمُ صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحِّدين.

التوكل صفة العوامِّ، والتسليم صفة الخواصِّ، والتفويض صفة خاصَّةِ الخاصَّة.

التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيمَ الخليلِ، والتفويض صفة نبيِّنا محمدٍ ﷺ».

هذا كلُّه كلام الدَّقاق، ومعنى هذا أنَّ التوكُّلَ اعتمادٌ على الوكيل، وقد يعتمد المتوكِّلُ على وكيله مع نوعِ اقتراح عليه، وإرادة وشائبة منازعة، فإذا سلَّم إليه زال عنه ذلك، ورضيَ بما يفعله وكيلُه، وحالُ المفوِّضِ فوق هذا، فإنه طالبٌ مريدٌ ممَّن فوَّض إليه، ملتمِسٌ منه أن يتولى أموره، فهو رضا واختيار، وتسليمٌ واعتماد، فالتوكُّل يندرج في التسليم، وهو والتسليم يندرجان في التفويض.

وحقيقة الأمر: أن التوكُّل حالٌ مركَّبة من مجموع أمور، لا تَتِمُّ حقيقةُ التوكل إلا بها.

درجات التوكل
الدرجة الأولى: معرفة الله وصفاته

فأوَّلُ ذلك: **معرفةٌ بالرَّبِّ وصفاتِه** من قُدرته، وكفايته، وقَيُّوميَّتِه، وانتهاء الأمور إلى عِلمه، وصدورِها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة **أوَّلُ درجة يضع بها العبدُ قدمَه في مقام التوكل**.

إثبات الأسباب مع عدم الركون إليها

الدَّرجةُ الثَّانيةُ: إثبات الأسباب والمسبَّبات:

فإنَّ مَن نفاها فتوكُّله مدخول، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي: أنَّ إثبات الأسبابِ يقدح في التوكُّل، وأنَّ نفيَها تمامُ التوكُّل.

فالتوكل من أعظمِ الأسبابِ التي يحصُلُ بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمَن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكلُ، ولكن من تمام التوكلِ عدمُ الرُّكونِ إلى الأسباب، وقطع عَلاقةِ القلب بها؛ فيكون حالُ قلبِه قيامَه بالله لا بها، وحالُ بدنِه قيامَه بها.

حقيقة التوكل توحيد القلب

الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: رُسُوخُ القَلبِ في مَقامِ تَوحيدِ التَّوكُّلِ:

فإنَّه لا يستقيم توكُّلُ العبدِ حتى يصحَّ له توحيدُه؛ بل حقيقة التوكل: توحيد القلب، فما دامتْ فيه علائقُ الشِّرك، فتوكُّلُه معلولٌ مدخول، وعلى قدر تجريدِ التوحيد: تكون صحَّةُ التوكُّل، فإنَّ العبد متى التفتَ إلى غير الله أخذ ذلك الالتفاتُ شُعبةً مِن شُعَب قلبِه، فنقص مِن توكُّله على الله بقدر ذهابِ تلك الشُّعبة، ومن هاهنا ظَنَّ مَن ظَنَّ أنَّ التوكُّلَ لا يصحُّ إلَّا برفض الأسباب، وهذا حقٌّ، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتوكلُ لا يَتِمُّ إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلُّقِ الجوارح بها، فيكون منقطعًا منها متَّصِلًا بها.

اعتماد القلب على الله وتعلقه به

الدَّرَجةُ الرَّابِعةُ: اعتِمادُ القَلبِ على اللهِ، واستِنادُه إليهِ، وسُكُونُه إليهِ:

بحيث لا يبقى فيه اضطرابٌ من تشويش الأسباب، ولا سكونٌ إليها، بل يخلع السُّكونَ إليها من قلبه، ويُلبِسُه السُّكونَ إلى مسبِّبها.

وعلامة هذا أنَّه لا يبالي بإقبالها وإدبارِها، ولا يضطرِبُ قلبُه ويَخفِق عند إدبار ما يُحبُّ منها، وإقبالِ ما يَكره؛ لأنَّ اعتماده على الله، وسكونَه إليه، واستنادَه إليه، قد حصَّنه مِن خوفها ورجائِها، فحالُه حالُ مَن خرج عليه عدوٌّ عظيم لا طاقةَ له به، فرأى حِصنًا مفتوحًا، فأدخله ربُّه إليه، وأغلق عليه بابَ الحِصن، فهو يشاهد عدوَّه خارجَ الحِصن،

فاضطراب قلبِه وخوفُه منهم في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك مَن أعطاه ملِكٌ درهمًا، فسُرِق منه، فقال له الملِك: عندي أضعافُه، لا تَهتمَّ، متى جئتَ إليَّ أعطيتُك مِن خزائني أضعافَه، فإذا علِم صحَّةَ قولِ الملِك، ووثِق به، واطمأنَّ إليه، وعَلِمَ أنَّ خزائنَه مليئةٌ بذلك ـ لم يحزنه فوتُه.

على قدر حسن الظن بالله يكون التوكل عليه

الدَّرَجةُ الخامِسةُ: حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ تعالى:

فعلى قدْر حُسنِ ظنِّك به ورجائِك له، يكون توكُّلُك عليه؛ ولذلك فسَّر بعضُهم التوكُّلَ بحُسن الظَّنِّ، فقال: التوكل: حُسنُ الظنِّ بالله.

والتَّحقيق: أنَّ حُسنَ الظَّنِّ به يدعوه إلى التَّوكُّل عليه، إذْ لا يُتصوَّرُ التَّوكُّلُ على مَن تُسيء ظنَّك به، ولا التَّوكُّلُ على مَن لا ترجوه.

الدَّرجةُ السَّادسةُ: استِسلامُ القلبِ لهُ، وانجِذابُ دَواعِيهِ كلِّها إليهِ، وقَطْعُ مُنازَعاتِه:

وهذا معنى قولِ بعضهم: التوكلُ إسقاطُ التدبير؛ يعني: الاستسلامَ لتدبير الرَّبِّ لك، وهذا في غير باب الأمرِ والنَّهيِ، بل فيما يفعله بك، لا فيما أمَرَك بفعله.

روح التوكل ولبه وحقيقته

الدَّرجةُ السَّابعةُ: التَّفويضُ:

وهو رُوح التوكُّلِ ولُبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أمورِه كلِّها إلى الله، وإنزالُها به طلبًا واختيارًا، لا كُرهًا واضطرارًا، بل كتفويض الابنِ العاجز الضَّعيفِ المغلوب أمورَه إلى أبيه، العالِم بشفقته عليه ورحمتِه، وتمامِ كفايته، وحُسنِ ولايتِه له، وتدبيره له، فهو يرى أنَّ تدبيرَه له خيرٌ من تدبيره لنفسِه، وقيامَه بمصالحه وتولِّيَه لها خيرٌ من قيامه هو بمصالحِ نفْسِه وتولِّيه لها، فلا يَجِدُ له أصلَحَ ولا أرفقَ من تفويضه أمورَه كلَّها إلى أبيه، وراحتِه من حمل كلفتها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهْلِه بوجوه المصالح فيها، وعِلمه بكمال عِلم مَن فَوَّض إليه، وقدرتِه وشفقته.

المقدور بين التوكل والرضا

فإذا وَضَعَ قَدَمَه في هذهِ الدَّرجةِ، انتَقَلَ منها إلى دَرَجةِ الرِّضا.

وهي ثمرة التَّوكُّل.

وكان شيخُنا رضي الله عنه يقول: «المقدور يَكتنِفُه أمْران: التوكُّلُ قبلَه، والرضا بعده، فمَن توكَّل على الله قبلَ الفعل، ورضيَ بالمَقضِيِّ له بعد الفعل فقد قام بالعبوديَّة». أو معنى هذا.

قلت: وهذا معنى قولِ النَّبيِّ ﷺ في دعاء الاستِخارة: «**اللَّهُمَّ إنِّي أستَخيرُكَ بعِلْمِكَ، وأستَقدِرُكَ بقُدرَتِكَ، وأسألُكَ مِن فَضلِكَ العَظيم**»[(١)]، فهذا توكُّل وتفويض، ثم قال: «فإنَّكَ تَعْلَمُ ولا أعلَمُ، وتَقدِرُ ولا أَقدِرُ، وأنتَ عَلَّامُ الغُيوبِ»، فهذا تبرُّؤٌ إلى الله من العِلم والحَولِ والقوَّة، وتوسُّلٌ إليه سبحانه بصفاته التي هي أحبُّ ما تَوسَّل إليه بها المتوسِّلون، ثم سأل ربَّه أن يقضيَ له ذلك الأمرَ إن كان فيه مصلحتُه، عاجلًا أو آجلًا، وأن يَصرِفَه عنه إن كان فيه مضرَّتُه، عاجلًا أو آجلًا، فهذا هو حاجتُه التي سألها، فلم يبقَ عليه إلَّا الرِّضا بما يقضيه له، فقال: «واقْدُرْ ليَ الخَيرَ حيثُ كان، ثُمَّ رَضِّني بهِ».

فقد اشتمل هذا الدُّعاءُ على هذه المعارفِ الإلٰهيَّة، والحقائقِ الإيمانيَّة، التي مِن جملتها التوكُّلُ والتفويضُ قبل وقوع المقدور، والرِّضا بعدَه، وهو ثمرة التوكُّل، والتفويضِ وعلامةُ صحَّتِه، فإن لم يرضَ بما قُضيَ له، فتفويضُه معلولٌ فاسد.

فباستكمال هذه الدَّرجاتِ الثمانِ يَستكمِلُ العبدُ مقامَ التوكل، وتثبُتُ قَدَمُه فيه.

* * *

اشتباه التوكل المحمود بالمذموم

وكثيرًا ما يَشتبِهُ في هذا البابِ المحمودُ الكاملُ بالمذموم الناقص.

منه: اشتباه الرِّضا عن الله بكلِّ ما يفعل بعبده ـ ممَّا يُحِبُّه ويَكرَهُه ـ

(١) أخرجه البخاري (١١٦٦).

بالعزم على ذلك، وحديثِ النَّفْسِ به، وذلك شيء والحقيقةُ شيءٌ آخر، كما يُحكى عن أبي سليمانَ أنَّه قال: أرجو أن أكون أُعطيتُ طرَفًا من الرضا، لو أدخلني النَّارَ لكنتُ بذلك راضيًا.

فسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «هذا عزمٌ منه على الرِّضا، وحديثُ نفْسٍ به، ولو أدخله النَّارَ لم يكن من ذلك شيءٌ، وفرْقٌ بين العزم على الشَّيءِ وبين حقيقته».

ومنه اشتِباهُ عِلمِ التوكُّلِ بحال التوكل، فكثيرٌ من الناس يَعرِفُ التوكُّلَ وحقيقتَه وتفاصيله، فيظنُّ أنَّه بذلك متوكِّلٌ وليس من أهل التوكُّل، فحال التوكُّلِ أمرٌ وراءَ العِلم به، وهذا كمعرفة المحبَّةِ والعِلمِ بها وأسبابها ودواعيها.

التوكل من أعم المقامات تعلقًا بالأسماء الحسنى

والتوكلُ من أعمِّ المقامات تعلُّقًا بالأسماء الحسنى؛ فإنَّ له تعلُّقًا خاصًّا بعامَّة أسماء الأفعال، وأسماءِ الصفات، فله تعلُّقٌ باسم الغفَّار، والتَّوَّاب، والعفُوِّ، والرَّحيم، وتعلُّقًا باسم الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن، وتعلقًا باسم المعز، المذل، الخافض، الرافع، المانع، من جهة توكُّلِه عليه في إذلال أعداءِ دينه، وخَفْضِهم ومَنْعِهِم أسبابَ النصرة، وتعلُّقًا بأسماء القدرةِ والإرادة، وله تعلُّقٌ عامٌّ بجميع الأسماء الحسنى؛ ولهذا فسَّره مَن فسَّره مِن الأئمَّة بأنَّه المعرفة بالله.

وإنَّما أراد أنَّه بحسَب معرفةِ العبد يصحُّ له مقامُ التوكل، وكلَّما كان بالله أعرفَ، كان توكُّله عليه أقوى.

وكثير من المتوكلينَ يكون مغبونًا في توكُّله، وقد توكَّلَ حقيقةَ التوكُّلِ وهو مغبون، كمَن صرَف توكُّلَه إلى حاجة جزئيَّةٍ استفرغ فيها قوَّةَ توكُّلِه، ويمكنه نَيْلُها بأيسر شيء، وتفريغُ قلبِه للتوكُّل في زيادة الإيمانِ والعِلم، ونصرةِ الدِّين، والتأثيرِ في العالَم خيرًا، فهذا توكلُ العاجز القاصر الهمَّة، كما يصرف بعضُهم همَّتَه وتوكُّلَه ودعاءَه إلى وجع يمكن مداواتُه بأدنى شيء، أو جوعٍ يمكن زوالُه بنصف رغيف، أو نصف

درهم، ويدع صرْفَه إلى نصرةِ الدِّين، وقمعِ المبتدعين، وزيادةِ الإيمان، ومصالحِ المسلمين.

درجات التوكل عند الهروي

قال: (وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ؛ كُلُّها تَسِيرُ مَسِيرَ العامَّةِ:

الدَّرَجةُ الأُولَى: التَّوكُّلُ مع الطَّلَبِ، ومُعاطاةُ السَّبَبِ على نِيَّةِ شُغلِ النَّفْسِ، ونَفْعِ الخَلْقِ، وتَرْكِ الدَّعْوَى).

يقول: إنَّ صاحب هذه الدَّرجةِ متوكِّلٌ على الله، ولا يترك الأسباب، بل يتعاطاها على نيَّةِ شغل النَّفْس بالسبب؛ مخافةَ أن تفرغ فيشتغل بالهوى والحظوظ، فإنَّ مَن لم يَشغل نفْسَه بما ينفعُها شغلَتْه بما يَضرُّه، لا سيَّما إذا كان الفراغُ مع حِدَّة الشباب، ومِلكِ الجِدَة[1]، كما قيل:

إنَّ الشَّبابَ والفَراغَ والجِدَةْ مَفْسَدَةٌ لِلمَرْءِ أيُّ مَفسَدَةْ

ويكون أيضًا قيامُه بالسبب على نيَّةِ نفعِ النَّاسِ بذلك، فيحصُلُ له نفعُ نفسِه ونفعُ غيرِه.

وأما تضمُّن ذلك لترك الدَّعوى: فإنه إذا اشتغل بالسَّبب تخلَّص مِن إشارة الخلْق إليه، الموجِبةِ لحُسن ظنِّه بنفْسِه، الموجبِ لدَعْواه، فالسبب سَترٌ لحاله ومقامِه، وحجابٌ مُسبَلٌ عليه.

ومن وجهٍ آخرَ، وهو أن يشهد به فقرَه وذُلَّه، وامتهانَه امتهانَ العبيد والفَعَلة، فيتخلَّصُ مِن رُعونةِ دعوى النَّفْس، فإنَّه إذا امتهَن نفسَه بمعاطاة الأسباب: سَلِم من هذه الأمراض.

فيقال: إذا كانت الأسبابُ مأمورًا بها ففيها فائدةٌ أجلُّ من هذه الثلاث، وهي المقصودة بالقصد الأول، وهذه مقصودةٌ قصْدَ الوسائل، وهي القيامُ بعبوديَّة الأمر الذي خُلِق له العبدُ، وأُرسِلتْ به الرُّسلُ، وأُنزلتْ لأَجْله الكتبُ، وبه قامت السَّمواتُ والأرض، وله وُجدتِ الجنةُ والنار.

(١) **الجِدَة**: الغنى؛ يقال: وجَدَ في المال وُجْدًا ووِجْدًا وجِدَةً؛ أي: استغنى. يُنظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٥٤٧).

فالقيام بالأسباب المأمورِ بها محضُ العبودية، وحقُّ الله على عبده الذي توجَّهَتْ به نحوَه المطالب، وترتَّبَ عليه الثوابُ والعقاب.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: التَّوكُّلُ مع إسقاطِ الطَّلَبِ، وغَضِّ العَينِ عنِ السَّبَبِ؛ اجتِهادًا لِتَصحِيحِ التَّوكُّلِ، وقَمْعًا لشَرَفِ النَّفْسِ، وتَفرُّغًا إلى حِفْظِ الواجِباتِ**).

قوله: (**مع إسقاطِ الطَّلَبِ**)؛ أي: مِن الخلْق لا من الحق، فلا يطلب من أحد شيئًا، وهذا مِن أحسَنِ الكلام وأنفعِه للمريد، فإنَّ الطلب مِن الخلْق في الأصل محظور، وغايته: أن يباح للضرورة، كإباحة الميتة للمضطر، ونصَّ أحمدُ رضي الله عنه على أنَّه لا يجب، وكذلك كان شيخُنا يشير إلى أنَّه لا يجب الطلب والسؤال.

ذم سؤال المخلوق للمخلوق

وسمِعتُه يقول في السؤال: «ظُلْمٌ في حقِّ الرُّبوبيَّة، وظُلْمٌ في حقِّ الخلْق، وظلمٌ في حقِّ النفْس.

أمَّا في حق الربوبية؛ فلِما فيه من الذُّلِّ لغير الله، وإراقةِ ماء الوجه لغير خالقه، والتعوُّض عن سؤاله بسؤال المخلوقين.

وأما في حقِّ النَّاسِ؛ فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال، واستخراجِه منهم، وأبغض ما إليهم: مَن يسألهم، وأَحَبُّ ما إليهم: مَن لا يسألهم، فإنَّ أموالهم محبوباتُهم، ومَن سألك محبوبك فقد تعرَّض لمَقتك وبُغضِك.

وأمَّا ظُلْمُ السائلِ نفْسه؛ حيث امتهنها، وأقامها في مقام ذُلِّ السؤال، ورضيَ لها بذُلِّ الطلب ممَّن هو مِثْلُه، أو لعلَّ السائلَ خيرٌ منه وأعلى قدرًا.

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤالُ الفقير للفقير»، والرَّبُّ تعالى كلَّما سألْتَه كَرُمْتَ عليه، ورضيَ عنك، وأحبَّك، والمخلوقُ كلما سألتَه هُنْتَ عليه وأبغضك وقَلاك، كما قيل:

اللَّهُ يَغضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسألُ يَغضَبُ

وقبيح بالعبد المريد: أن يتعرَّض لسؤال العبيد، وهو يجد عند مولاه كلَّ ما يريد.

وفي «صحيح مسلم» عن عوف بن مالك الأشجَعيِّ رضي الله عنه قال: كُنَّا عِندَ رسولِ اللهِ ﷺ تِسعةً ـ أو ثَمانيةً، أو سَبعةً ـ فقال: **«ألا تُبايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟»**، وكُنَّا حَدِيثي عَهدٍ بِبَيْعةٍ، فقُلْنا: قد بايَعْناكَ يا رسولَ اللهِ، ثُمَّ قال: **«ألا تُبايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟»** فَبَسَطْنا أيدِينا وقُلْنا: قد بايَعْناكَ يا رسولَ اللهِ، فعَلَامَ نُبايِعُكَ؟ فقال: **«أنْ تَعبُدُوا اللهَ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، والصَّلَواتِ الخَمْسِ** ـ وأسَرَّ كَلِمةً خَفِيَّةً ـ **ولا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا»**. قال: ولقد رأيْتُ بعضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أحدِهِم فما يَسألُ أحَدًا أن يُناوِلَه إيَّاهُ[1].

وفي «الصحيحين» عن ابن عُمرَ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«لا تَزَالُ المَسألةُ بأحَدِكُم حتَّى يَلْقَى اللهَ وليسَ في وَجْهِه مُزْعَةُ لَحْم»**[2].

وفيهما أيضًا عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال ـ وهو على المِنبرِ، وذَكَرَ الصَّدَقةَ والتَّعفُّفَ عنِ المَسألةِ ـ: **«اليَدُ العُلْيا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، واليَدُ العُلْيا هيَ المُنْفِقةُ، والسُّفلَى هيَ السَّائِلةُ»**[3].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«مَن سَأَلَ النَّاسَ أموالَهُم تَكَثُّرًا فإنَّما يَسألُ جَمْرًا، فَلْيَستَقِلَّ أو لِيَستَكْثِرْ»**[4].

وفي التِّرمذي عن سَمُرةَ بن جُندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ المَسألَةَ كَدٌّ يَكُدُّ بها الرَّجُلُ وَجْهَه، إلَّا أنْ يَسألَ الرَّجُلُ سُلطانًا، أو في أمْرٍ لا بُدَّ مِنهُ»**[5]. قال الترمذي: حديث صحيح.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).
(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣).
(٤) أخرجه مسلم (١٠٤١).
(٥) أخرجه أحمد (٢٠١٠٦)، والترمذي (٦٨١)، وقال: «حديث حسن صحيح»، =

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «**مَن أصابَتْهُ فاقَةٌ، فَأنْزَلَها بالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فاقَتُه، ومَن أنزَلَها باللهِ فيُوشِكُ اللهُ لهُ برِزْقٍ عاجِلٍ أو آجِلٍ**»[(١)].

وفي السُّنن والمسند عن ثَوْبانَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَن يكَفَّلَ لي أنْ لا يَسألَ النَّاسَ شَيئًا، أتَكفَّلُ له بِالجَنَّةِ**»، فقُلْتُ: أنا، فكان لا يَسألُ أحَدًا شَيئًا[(٢)].

وفي «صحيح مسلم» عن قَبِيصةَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**أنَّ المَسألةَ لا تَحِلُّ إلَّا لأحَدِ ثَلاثةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالةً فَحَلَّتٍ لهُ المَسألةُ حتَّى يُصِيبَها ثُمَّ يُمسِكُ، ورَجُلٍ أصابَتْهُ جائِحةٌ اجتاحَتْ مالَهُ، فحَلَّتْ له المَسألةُ حتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِن عَيشٍ** ـ أو قال: سِدَادًا مِن عَيشٍ ـ، **ورَجُلٍ أصابَتْهُ فاقَةٌ حتَّى يَقولَ ثَلاثةٌ مِن ذَوِي الحِجَى مِن قَوْمِه: لقد أصابَت فُلانًا فاقةٌ، فحَلَّتْ لَهُ الْمَسألَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِن عَيشٍ** ـ أو قَالَ: سِدَادًا مِن عَيشٍ ـ، **فما سِواهُنَّ مِنَ المَسألةِ يا قَبِيصَةُ فَسُحْتٌ يَأْكُلُها صاحِبُها سُحْتًا**»[(٣)].

فالتوكُّل مع إسقاط هذا الطلبِ والسُّؤالِ هو محضُ العبودية.

ذم التعلق بالأسباب والتطلع إليها وحدها

قوله: **(وغَضُّ العَينِ عَنِ التَّسَبُّبِ، اجتِهادًا في تَصحِيحِ التَّوكُّلِ)**.

معناه: أنَّه يُعرِض عن الاشتغال بالسبب، لتصحيح التوكُّل بامتحان النَّفْس؛ لأنَّ المتعاطي للسبب قد يظنُّ أنَّه حَصَّل التوكُّل، ولم يحصِّله لثقته بمعلومه، فإذا أعرض عن السبب صحَّ له التوكُّلُ.

= والنسائي (٢٥٩٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٤٧).

(١) أخرجه أحمد (٣٦٩٦)، وأبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٣٢٦) وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٤١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣٦٦)، وأبو داود (١٦٤٣)، والحاكم (١٥٠٠) وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم»، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٦٤٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٤٤)، وأبو داود (١٦٤٠)، والنسائي (٢٥٧٩).

وقد تَعرِض للصادق أحيانًا قوةُ ثقة بالله، وحالٌ مع الله تحمله على ترك كلِّ سببٍ غير مفروض عليه، كما تحمله على إلقاء نفْسِه في مواضع الهلَكة، ويكون ذلك الوقت بالله لا به، فيأتيه مددٌ من الله على مقتضى حاله.

لكن لا يدوم له هذا الحال، وليست في مقتضى الطبيعة، فإنَّها كانت هجمةً هجمتْ عليه بلا استدعاء فحمل عليها، فإذا استدعى مثلَها وتكلَّفها لم يُجَب إلى ذلك، وفي تلك الحالِ إذا ترك السبب يكون معذورًا لقوَّةِ الوارد، وعجْزِه عن الاشتغال بالسبب، فيكون في وارِدِه عَونٌ له، ويكون حاملًا له، فإذا أراد تعاطي تلك الحالِ بدون ذلك الوارِدِ وقع في المحال.

وكلُّ تلك الحكاياتِ الصَّحيحةِ التي تُحكى عن القوم فهي جزئيَّةٌ حصلتْ لهم أحيانًا، ليست طريقًا مأمورًا بسلوكها، ولا مقدورة.

قوله: (**وقَمْعًا لِشَرَفِ النَّفْسِ**) يريد: أنَّ المتسبِّب قد يكون متسبباً بالولايات الشريفةِ في العادة، أو التِّجاراتِ الرَّفيعة، والأسباب التي له بها جاهٌ وشرَفٌ في الناس، فإذا تركها يكون ترْكُها قمعًا لشرف نفْسِه، وإيثارًا للتواضع.

وقوله: (**وتَفرُّغًا لِحِفْظِ الواجِباتِ**)؛ أي: يتفرَّغ بتركها لحفظِ واجباته التي تزاحِمُها تلك الأسبابُ.

أهمية الخلاص من علل التوكل

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: التَّوكُّلُ مع مَعرِفةِ التَّوكُّلِ، النَّازِعةُ إلى الخَلاصِ مِن عِلَّةِ التَّوكُّلِ، وهو أنْ يَعْلَمَ أنَّ مَلَكةَ الحَقِّ تعالى لِلأشياءِ هيَ مَلَكةُ عِزَّةٍ، لا يُشارِكُه فيها مُشارِكٌ، فيَكِلَ شِرْكَتَهُ إليهِ، فإنَّ مِن ضَرُورةِ العُبُوديَّةِ: أنْ يَعْلَمَ العَبدُ أنَّ الحَقَّ سُبحانَه هو مالِكُ الأشياءِ وَحْدَهُ**).

يريد: أنَّ صاحب هذه الدرجةِ متى قطع الأسبابَ والطلب، وتعدَّى تلك الدرجتين، فتوكُّله فوق توكُّل مَن قَبله، وهو إنَّما يكون بعدَ معرفتِه بحقيقة التوكُّل، وأنَّه دون مقامه، فتكون معرفتُه به وبحقيقته نازعةً

ـ أي: باعثةً وداعية ـ إلى تخلُّصه من علَّةِ التوكُّل؛ أي: لا يَعرِفُ علةَ التوكل حتى يَعرفَ حقيقته، فحينئذ يَعرِفُ التوكُّلَ المعرفةَ التي تدْعوه إلى التخلُّص من علَّتِه.

ثم بيَّن المعرفةَ التي يعلم بها علَّةَ التوكل، فقال: **(أنْ يَعْلَمَ أنَّ مَلَكةَ الحَقِّ لِلأشياءِ مَلَكةُ عِزَّةٍ)**؛ أي: ملكةُ امتناعٍ وقوَّةٍ وقهر، يمنع أن يُشارِكَه في ملكِه لشيء من الأشياء مشارِك، فهو العزيز في ملكه، الذي لا يشارِكُه غيرُه في ذَرَّةٍ منه، كما هو المنفرد بعِزَّته التي لا يشاركُه فيها مشارِك.

فإذا تحقَّق ذلك عِلمًا ومعرفة، وباشَرَ قلبه حالًا: لم يجِد بُدًّا من اعتماد قلبِه على الحقِّ وحدَه، وثقتِه به، وسكونِه إليه وحدَه، وطمأنينته به وحدَه؛ لعِلمه أن حاجاتِه وفاقاتِه وضروراته، وجميعَ مصالِحه بيديه وحدَه، لا بيد غيره، فأين يجد قلبُه مناصًا من التوكُّل بعد هذا؟

فعِلَّة التوكُّلِ حينئد: التِفاتُ قلبِه إلى مَن ليس له شركةٌ في ملك الحقِّ، ولا يملك مثقالَ ذرَّةٍ في السموات ولا في الأرض، هذه علَّةُ توكُّلِه، فهو يعمل على خلاص توكُّلِه من هذه العلَّة.

نعم؛ ومن علَّةٍ أخرى، وهي رؤية توكُّلِه؛ فإنَّه التفاتٌ إلى عوالمِ نفْسِه.

وعلَّةٌ ثالثة: وهي صرْفُ قوَّةِ توكُّلِه إلى شيء غيرُه أحبُّ إلى الله منه.

فهذه العِللُ الثلاث: هي عِلَلُ التوكيل.





منزلة التفويض

قال صاحب «المنازل»: **(وهو أَلْطَفُ إشارةً، وأوسَعُ معنًى مِن التَّوكُّلِ؛ فإنَّ التَّوكُّلَ بَعدَ وُقُوعِ السَّبَبِ، والتَّفوِيضَ قَبلَ وُقُوعِه وبَعْدَه، وهو عَينُ الاستِسلامِ، والتَّوكُّلُ شُعْبَةٌ مِنه)**.

يعني: أن المفوِّض يتبرَّأُ من الحَول والقوَّة، ويفوِّضُ الأمرَ لصاحبه، من غير أن يُقِيمَه مقامَ نفْسِه في مصالحه، بخلاف التوكُّل، فإنَّ الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقامَ الموكل.

فالتفويض: براءةٌ وخروج من الحوْل والقوَّة، وتسليمُ الأمرِ كلِّه إلى مالكه.

فيقال: وكذلك التوكُّلُ أيضًا.

ولله درُّ سيِّدِ القوم، وشيخ الطائفةِ سَهْل بن عبد الله التُّسْتَرِيِّ؛ إذْ يقول: «العِلم كلُّه بابٌ من التعبُّد، والتعبُّدُ كلُّه باب من الورع، والورع كلُّه بابٌ من الزهد، والزُّهدُ كلُّه بابٌ من التوكُّل».

فالذي نَذهب إليه: أنَّ التوكُّلَ أوسعُ من التفويض، وأعلى وأرفع.

بين التفويض التوكُّل

قوله: **(فإنَّ التَّوكُّلَ بَعدَ وُقُوعِ السَّبَبِ، والتَّفوِيضَ قَبلَ وُقُوعِه وبَعْدَه)**.

يعني بالسبب: الاكتسابَ، فالمفوِّض قد فوَّض أمرَه إلى الله قبل اكتسابه وبعد اكتسابه، والمتوكِّل قد قام بالسبب، وتوكَّل فيه على الله، فصار التفويضُ أوسعَ.

فيقال: والتوكُّلُ قد يكون قبل السببِ ومعه وبعده، فيتوكَّلُ على الله أن يُقِيمه في سببٍ يوصله إلى مطلوبه، فإذا أتمَّه توكَّل على الله في حصول ثمراتِه، فيتوكَّلُ على الله قبلَه، ومعه، وبعده.

فعلى هذا: هو أوسعُ من التَّفويض على ما ذكر.

قوله: **(وهو عَينُ الاستِسلام)**؛ أي: التفويض عين الانقيادِ بالكلِّيَّةِ إلى الحقِّ سبحانه، ولا يبالي أكان ما يقضي له الخير، أمْ خلافه؟ والمتوكِّل يتوكَّل على الله في مصالحه.

درجـــات التفويض

قال: **(وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الأُولَى: أنْ يَعلَمَ أنَّ العَبدَ لا يَملِكُ قَبلَ عَمَلِه استِطاعةً، فلا يَأمَنُ مِن مَكْرٍ، ولا يَيْأسُ مِن مَعُونةٍ، ولا يُعَوِّلُ على نِيَّةٍ).

أي: يتحقَّقُ أن استطاعته بيد الله، لا بيده، فهو مالكُها دونَه، فإنْ لم يُعْطِه الاستطاعةَ فهو عاجز، فهو لا يتحرَّكُ إلَّا بالله، لا بنفْسه، فكيف يأمَنُ المكرَ، وهو ألَّا يحرِّكه مَن حركتُه بيده، بل يُثبِّطُه ويُقعِدُه مع القاعدين.

كما قال فيمَن منعه من هذا التَّوفيق: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التوبة: ٤٦].

فهذا مكرُ الله بالعبد: أن يقطع عنه موادَّ توفيقِه، ويخلِّيَ بينه وبين نفْسِه، ولا يبعث دواعيه، ولا يحرِّكه إلى مرضاته ومحابِّه، وليس هذا حقًّا عليه، يكون ظالِمًا بمنعه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، بل هو مجرَّدُ فضلِه الذي يُحمد على بَذلِه لِمَن بَذَلَه، وعلى مَنْعِه لِمَن مَنَعَه إياه، فله الحمدُ على هذا وهذا.

ومَن فهِم هذا فهِم بابًا عظيمًا من سر القدَر، وانجلتْ له إشكالاتٌ كثيرة، فهو سبحانه لا يريد مِن نفْسه فِعلًا يفعله بعبده يقع منه ما يحبُّه ويرضاه، فيمنعه فِعلَ نفْسِه به، وهو توفيقُه؛ لا أنَّه يَكرَهُه، ويقهره على فعلِ مَساخطِه، بل يَكِلُه إلى نفْسه وحَوْلِه وقوَّتِه، ويتخلى عنه، فهذا هو المكر.

قوله: **(ولا يَيْأسُ مِن مَعُونةٍ)**؛ يعني: إذا كان المحرِّكُ له هو الرَّبَّ ﷻ، وهو أقدرُ القادرين، وهو الذي تفرَّد بخلْقه ورزقِه، وهو أرحمُ الرَّاحمين، فكيف ييأسُ مِن معونته له؟

قوله: **(ولا يُعوِّلُ على نِيَّةٍ)**؛ أي: لا يعتمد على نيَّتِه وعزمِه، ويثق

بها؛ فإنَّ نيَّتَه وعزمَه بيد الله لا بيده، وهي إلى الله لا إليه، فلتكنْ ثقتُه بمَن هي في يده حقًّا، لا بمَن هي جاريةٌ عليه حُكمًا.

اضطرار العبد إلى الله

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: مُعايَنةُ الاضْطِرارِ، فلا يَرَى عَمَلًا مُنجِيًا، ولا ذَنْبًا مُهْلِكًا، ولا سَبَبًا حامِلًا**).

أي: يعاين فقرَه وفاقتَه وضرورته التامَّةَ إلى الله، بحيث يرى في كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِه الباطنة والظَّاهرةِ ضرورةً، وفاقةً تامَّةً إلى الله، فنجاتُه إنَّما هي بالله لا بعمله، وأمَّا قولُه: (**ولا ذَنْبًا مُهلِكًا**) فإن أراد به: أنَّ هلاكه بالله لا بسبب ذنوبه، فباطِل، معاذَ اللهِ من ذلك. وإن أراد به: أنَّ فَضْلَ اللهِ وسَعَتَه ومَغفرتَه ورحمتَه، ومشاهدةَ شدَّةِ ضرورته وفاقته إليه يوجب له أن لا يرى ذنبًا مهلكًا، فإنَّ افتقاره وفاقتَه وضرورته إلى الله تمنعُه من الهلاك بذنوبه، بل تمنعه من اقتحام الذُّنوبِ المُهلِكة؛ إذ صاحبُ هذا المقامِ لا يُصِرُّ على ذنوبٍ تهلِكُه، وهذا حاله ـ فهذا حقٌّ، وهو من مشاهدِ أهلِ المعرفة.

وقوله: (**ولا سَبَبًا حامِلًا**)؛ أي: يَشهد أنَّ الحاملَ له هو الحقُّ تعالى، لا الأسبابُ التي يقوم بها، فإنَّه وإيَّاها محمولان بالله وحدَه.

أثر التفويض في منع تفرق القلب

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: شُهُودُ انفِرادِ الحَقِّ بمِلْكِ الحَرَكةِ والسُّكُونِ، والقَبضِ والبَسطِ، ومَعْرِفَتِه بتَصرِيفِ التَّفرِقةِ والجَمْعِ**).

هذه درجةٌ تتعلَّقُ بشهود وصفِ الله تبارك وتعالى وشأنه، والتي قَبلَها تتعلَّقُ بشهود حالِ العبد ووصفِه؛ أي: يشهد حركاتِ العالَم وسكونَه صادرةً عن الحقِّ تعالى في كلِّ متحرِّكٍ وساكن، فيشهد تعلُّقَ الحركةِ باسمه الباسط، وتعلُّقَ السُّكونِ باسمه القابض، فيشهد تفرُّدَه سبحانه بالبسط والقبض.

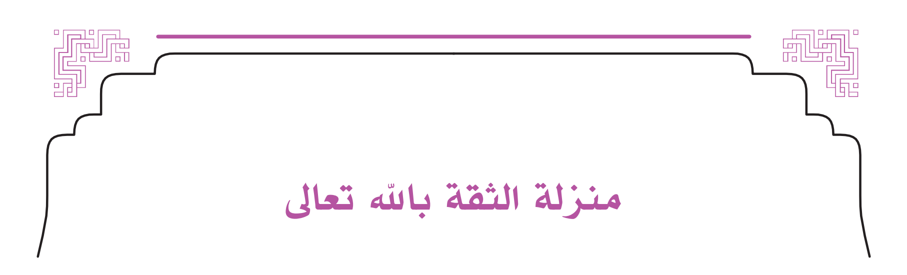
وأمَّا (**مَعرِفَتُه بتَصرِيفِ التَّفرِقةِ والجَمْعِ**) أن يكون المشاهدُ عارفًا بمواضع التفرقة والجَمع، والمراد بالتفرقة: نظرُ الاعتبار، ونسبة الأفعال إلى الخَلْق.

والمراد بالجَمع: شهود الأفعالِ منسوبةً إلى مُوجِدِها الحقِّ تعالى.

وقد يريدون بالتَّفرقةِ والجَمعِ معنًى وراءَ هذا الشُّهودِ، وهو حالُ التَّفرقةِ والجَمع.

فحال التَّفرقةِ: تفرُّق القلبِ في أودية الإرادات وشِعابِها، وحالُ الجمْع: جمعيَّتُه على مرادِّ الحقِّ وحدَه، فالأوَّلُ: عِلم التفرقةِ والجَمع، والثاني: حالُهما.





منزلة الثقة بالله تعالى

قال صاحب «المنازل»: (**الثِّقةُ: سَوادُ عَينِ التَّوكُّلِ، ونُقْطةُ دائِرَةِ التَّفوِيضِ، وسُوَيْداءُ قَلْبِ التَّسلِيمِ**).

وصدَّر البابَ بقوله تعالى لأمِّ موسى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص: ٧]، فإنَّ فِعلها هذا هو عينُ ثقتِها بالله تعالى؛ إذ لولا كمالُ ثقتِها بربِّها لَمَا ألقتْ ولدها وفلذةَ كبدِها في تيَّار الماء، تتلاعب به أمواجُه وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف.

ومراده: أنَّ الثقة خلاصةُ التوكُّلِ ولُبُّه، كما أنَّ سواد العين: أشرفُ ما في العين.

وأشار بأنَّه (**نُقْطةُ دائِرَةِ**) إلى أنَّ مدار التوكُّل التَّفوِيضِ، وهو في وسَطه كحال النُّقطة من الدائرة، فإنَّ النقطة هي المركزُ الذي عليه استدارةُ المحيط.

وكذلك قوله: (**سُوَيْداءُ قَلْبِ التَّسلِيمِ**) فإنَّ القلب أشرفُ ما فيه سُوَيداؤُه، وهي المُهجة التي تكون بها الحياة، وهي في وسَطه، فلو كان التفويضُ قلبًا لكانت الثِّقةُ سويداءَه، ولو كان عَيْنًا لكانت سوادَها، ولو كان دائرةً لكانت نقطتَها.

وقد تقدَّم أنَّ كثيرًا من الناس يفسِّر التوكُّلَ بالثِّقة، ويجعلُه حقيقتَها، ومنهم مَن يفسِّره بالتفويض، ومنهم مَن يفسِّرُه بالتسليم.

فعلمت أنَّ مقام التوكلِ يَجمَعُ ذلك كلَّه.

فكأنَّ الثقةَ عند الشيخ هي رُوح التوكُّل، والتوكل كالبدن الحامل لها، ونسبتها إلى التوكُّلِ كنسبة الإحسان إلى الإيمان.

درجات الثقة بالله

قال: **(وهيَ على دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولَى: دَرَجةُ الإياسِ، وهو إياسُ العَبدِ عن مُقاوَماتِ الأحكامِ، لِيَقْعُدَ عن مُنازَعةِ الأقسامِ، لِيَتَخَلَّصَ مِن قِحَةِ الإقْدامِ).

يعني: أنَّ الواثق بالله لاعتقاده أنَّ الله تعالى إذا حَكَم بحُكم وقضى أمرًا، فلا مردَّ لقضائه، ولا مُعَقِّبَ لحُكمه، فمَن حَكَم الله له بحُكم، وقسَمَ له بنصيبٍ من الرِّزق، أو الطَّاعةِ أو الحال، أو العِلم أو غيره: فلا بُدَّ من حصوله له، ومَن لم يقسم له ذلك: فلا سبيلَ له إليه البتَّةَ، كما لا سبيل له إلى الطيران إلى السماء، وحملِ الجبالِ - فبهذا القدْرِ يقعُدُ عن منازعة الأقسام، فما كان له منها فسوف يأتيه على ضَعفِه، وما لم يكن له منها فلن ينالَه بقوَّتِه.

والفرق بين: **(مُقاوَمة الأحكامِ)** و**(مُنازَعة الأقسامِ)** أنَّ مقاومة الأحكام: أن تتعلَّقَ إرادتُه بغير ما في حُكم الله وقضائِه، فإذا تعلَّقتْ إرادتُه بذلك جاذب الخلْقَ الأقسامَ ونازَعَهم فيها.

وقوله: **(يَتَخَلَّص مِن قِحَةِ الإقدام)**؛ أي: يتخلَّصُ بالثِّقةِ بالله من هذه القِحَة والجرأةِ على إقدامه على ما لَم يُحكَم له به ولا قُسِم له.

الثقة واليقين برب العالمين

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: دَرَجةُ الأمنِ، وهو أمْنُ العَبدِ مِن فَوتِ المَقدُورِ، وانتِقاضِ المَسطُورِ، فيَظفَرُ بروحِ الرِّضَا، وإلَّا فَبِعَيْنِ اليَقِينِ، وإلَّا فبِلُطْفِ الصَّبرِ)**.

يقول: من حصَل له الإياسُ المذكور حصَل له الأمنُ، وذلك: أنَّ مَن تحقَّق بمعرفة الله، وأنَّ ما قضاه الله فلا مردَّ له البتَّةَ: أمِنَ مِن فَوْت نصيبِه الَّذي قسمه الله له، ويأمنُ أيضًا مِن نُقصان ما كتبه الله له، وسطَّره في الكتاب المسطور، فيظفَر برَوح الرِّضا؛ أي: براحته ولذَّتِه ونعيمه؛ لأنَّ صاحب الرضا في راحة ولذَّةٍ وسرور.

فإنْ لم يَقدِرِ العبدُ على رَوح الرِّضا ظفِر بعين اليقين؛ وهو قوَّةُ الإيمان، ومباشرته للقلب، بحيث لا يبقى بينه وبين العِيان إلا كشفُ

الحجاب المانع من مكافحة البصر، فإنْ لم يحصل له هذا المقامُ حصَل على لطف الصبر.





منزلة التسليم

وهي نوعان: تسليمٌ لحُكمه الدِّيني الأمْريِّ، وتسليم لحُكمه الكَونيِّ القَدَريِّ.

فأمَّا الأوَّلُ: فهو تسليم المؤمنين العارفين، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فهذه ثلاث مراتبَ: التحكيم، وسَعة الصدرِ بانتفاء الحرج، والتسليمُ.

وأمَّا التسليمُ للحُكم الكونيِّ: فمزلَّةُ أقدام، ومَضَلَّة أفهام، حَيَّر الأنام، وأوقع الخصام، وهي مسألة الرِّضا بالقضاء، وقد تقدَّم الكلامُ عليها بما فيه الكفاية، وبيَّنَّا أنَّ التسليم للقضاء يُحمد إذا لم يؤمَر العبدُ بمنازعته ودفْعِه، ولم يَقدِرْ على ذلك، كالمصائب التي لا قدرةَ له على دفعِها.

وأمَّا دفعُ الأحكام التي أُمِر بدفعها: فلا يجوز له التسليمُ إليها، بل العبودية: مدافعتُها بأحكام أُخَرَ أحبَّ إلى الله منها.

وليس في التسليم إلَّا علَّةٌ واحدة: وهي أن لا يكون تسليمُه صادرًا عن محض الرِّضا والاختيار، بل يشوبه كُرْهٌ وانقباض، فيسلِّم على نوعِ إغماض، فهذه علَّةُ التسليمِ المؤَثِّرة، فاجتهِدْ على الخلاص منها.

مفهوم التسليم ومعناه

اعلَم أن التسليمَ هو الخلاصُ مِن شبهةٍ تعارِضُ الخبر، أو شهوةٍ تعارض الأمر، أو إرادة تعارِضُ الإخلاص، أو اعتراضٍ يعارض القَدَرَ والشَّرع.

وصاحِبُ هذا التخلُّص: هو صاحب القلب السليمِ الذي لا ينجو يومَ القيامة إلَّا مَن أتى اللهَ به، فإنَّ التَّسليمَ ضدُّ المنازعة.

وبهذا يتبيَّن أنَّه مِن أجَلِّ مقاماتِ الإيمان، وأعلى طُرُقِ الخاصَّة، وأن التسليم هو محضُ الصِّدِّيقيَّة، التي هي بعد درجة النُّبوَّة، وأن أكمل الناسِ تسليمًا: أكملُهم صِدِّيقيَّة.





منزلة الصبر

قال الإمام أحمد: «ذكر اللهُ الصَّبرَ في القرآن في نحو تسعينَ موضعًا».

وهو واجبٌ بإجماع الأمَّة، وهو نصف الإيمان، فإنَّ الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

أنواع الصبر في القرآن الكريم

وهو في القرآن على **ستَّةَ عشَرَ** نوعًا.

الأول: الأمر به، نحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

الثاني: النَّهيُ عن ضدِّه كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥]، فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة، وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣] فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها، وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٩] فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثَّناءُ على أهله، كقوله: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٧]، وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابُه سبحانه محبَّتَه لهم، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجابُ مَعِيَّتَه لهم، وهي معيَّةٌ خاصَّةٌ، تتضمَّنُ حِفْظَهم، ونصْرَهم، وتأييدَهم، ليست معيَّةً عامَّةً، وهي معيَّةُ العِلم والإحاطة، كقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩، الأنفال: ٦٦].

السادس: إخبارُه بأنَّ الصَّبر خيرٌ لأصحابه، كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

السابع: إيجابُ الجزاءِ لهم بأحسَنِ أعمالِهم، كقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابُه الجزاءَ لهم بغير حساب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البُشرى لأهل الصَّبر، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النَّصرِ والمددِ لهم، كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «**واعْلَمْ أنَّ النَّصرَ مع الصَّبرِ**»(١).

الحادي عشر: الإخبار أنَّ أهل الصَّبرِ هم أهلُ العزائم، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنَّه ما يُلَقَّى الأعمالَ الصَّالحةَ وجزاءَها والحظوظَ العظيمةَ إلَّا أهلُ الصَّبرِ، كقوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠]، وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والحاكم (٦٣٠٣)، والطبراني في «الدعاء» (٤١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٨٢).

حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

الثالثَ عشرَ: الإخبار أنَّه إنَّما يَنتفِعُ بالآيات والعِبَرِ أهلُ الصَّبرِ، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥]، وقوله في أهل سبإ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٩]، وقوله في سورة الشورى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: ٣٢ ـ ٣٣].

الرَّابعَ عشرَ: الإخبار بأنَّ الفوزَ بالمطلوب، والنَّجاةَ من المرهوب، ودخولَ الجنَّة، إنَّما نالُوه بالصَّبر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

الخامسَ عشرَ: أنَّه يورِثُ صاحبَه درجة الإمامةَ، سمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ يقول: بالصَّبرِ واليقين، تُنالُ الإمامةُ في الدِّين، ثم تلا قولَه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

السادسَ عشرَ: اقترانُه بمقامات الإسلامِ والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوى والتوكُّل، والشكرِ، والعملِ الصَّالحِ والمَرْحَمة.

ولهذا كان الصَّبرُ من الإيمان بمنزلة الرَّأسِ من الجسد، ولا إيمانَ لمَن لا صبرَ له، كما أنَّه لا جسد لمَن لا رأس له، قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «خيرُ عيشٍ أدركْناه بالصَّبر»[(١)]. وأخبر النَّبيُّ ﷺ في

(١) أخرجه البخاري مُعلَّقًا مجزومًا به قبل (٦٤٧٠)، وأحمد في «الزهد» (٦١٢) =

الحديث الصَّحيحِ: «**أنَّهُ ضِياءٌ**»[(١)]. وقال: «**مَن يَتَصبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ**»[(٢)].

وفي الصَّحيحِ: «**عَجَبًا لِأمرِ المؤْمِنِ! إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ لهُ خيرٌ، وليسَ ذلكَ لِأحَدٍ إلَّا لِلمؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فكانَ خيرًا لهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فكانَ خيرًا لهُ**»[(٣)].

وقال للمرأة السَّوداءِ التي كانت تُصرَعُ فسألَتْه أن يدعوَ لها: «**إنْ شِئْتِ صَبَرْتِ ولكِ الجَنَّةُ، وإنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أنْ يُعافِيَكِ**»، فقالتْ: إنِّي أتَكَشَّفُ، فادْعُ اللهَ أن لا أتَكَشَّفَ، فدعَا لها[(٤)].

وأمَرَ الأنصارَ ـ رضي الله تعالى عنهم ـ بأن يَصبِرُوا على الأثَرَةِ الَّتي يَلْقَوْنَها بَعدَه، حتَّى يَلْقَوْهُ على الحَوضِ[(٥)].

وأمَرَ عِندَ مُلاقاةِ العَدُوِّ بالصَّبرِ[(٦)]، وأمَرَ بالصَّبرِ عِندَ المُصِيبةِ، وأخبَرَ أنَّه إنَّما يَكُونُ عِندَ الصَّدمةِ الأُولَى[(٧)].

وأمَرَ المُصابَ بأنفَعِ الأُمُورِ لهُ، وهو الصَّبرُ والاحتِسابُ[(٨)]؛ فإنَّ ذلك يخفِّف مصيبتَه، ويوفِّر أجرَه، والجزَع والتسخُّط والتشكِّي يَزيدُ في المصيبة، ويُذهِبُ الأجر.

وأخبر ﷺ أنَّ الصَّبرَ خيرٌ كلُّه، فقال: «**ما أُعطِيَ أحَدٌ عَطاءً خَيرًا**

= عن مجاهد عن عمر، ولم يسمع منه.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

(٥) أخرجه البخاري (٣١٦٣)، ومسلم (١٠٥٩).

(٦) أخرجه البخاري (٣٠٢٦)، ومسلم (١٧٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٨) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

لهُ وأوْسَعَ مِنَ الصَّبرِ»[(١)] .

مفهوم الصبر

والصبر في اللُّغة: الحبس والكفُّ، ومنه: قُتِل فلانٌ صبرًا، إذا أُمسِك وحُبس، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]؛ أي: احبِسْ نفْسَك معهم.

فالصبر: حبسُ النَّفسِ عن الجزع والتَّسخُّط، وحبسُ اللِّسان عن الشكوى، وحبسُ الجوارح عن التشويش.

ثلاثة أنواع للصبر

وهو ثلاثة أنواع: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبر على امتحان الله.

فالأوَّلان: صبرٌ على ما يتعلَّقُ بالكسب، **والثالث:** صبرٌ على ما لا كسْبَ للعبد فيه.

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّسَ اللهُ رُوحَه ـ يقول: «كان صبرُ يوسفَ عن مطاوعة امرأةِ العزيز عن شأنها: أكملَ مِن صبرِه على إلقاء إخوتِه له في الجُبِّ، وبيعِه وتفريقِهم بينه وبيْن أبيه؛ فإنَّ هذه أمورٌ جرتْ عليه بغير اختياره، لا كسْبَ له فيها، ليس للعبد فيها حيلةٌ غير الصبر، وأمَّا صبرُه عن المعصية: فصبر واختيار ورضا ومحاربةٌ للنَّفس، ولا سيَّما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي المواقعة، فإنَّه كان شابًّا، وداعيةُ الشباب إليها قويَّة، وعزَبًا ليس له ما يعوِّضه ويبرد شهوتَه، وغريبًا، والغريبُ لا يستحي في بلد غربتِه ممَّا يستحي منه بين أصحابه ومعارفِه وأهله، ومملوكًا، والمملوك أيضًا ليس وازعُه كوازع الحرِّ، والمرأة جميلة، وذاتُ منصب، وهي سيِّدته، وقد غاب الرَّقيبُ، وهي الداعيةُ له إلى نفْسها، والحريصةُ على ذلك أشدَّ الحرص، ومع ذلك توعَّدَتْه إنْ لم يفعلْ بالسجن والصَّغار، ومع هذه الدواعي كلِّها صبرَ اختيارًا، وإيثارًا لِما عند الله، وأين هذا مِن صبره في الجُبِّ على ما ليس من كسبِه؟!».

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وكان يقول: «الصبرُ على أداء الطاعات أكملُ من الصبر على اجتناب المحرَّماتِ وأفضل؛ فإنَّ مصلحة فِعلِ الطاعةِ أحَبُّ إلى الشارع من مصلحةِ تركِ المعصية، ومفسدة عدمِ الطاعة أبغضُ إليه وأكرَهُ مِن مفسدة وجودِ المعصية».

تقسم آخر للصبر

وهو على **ثلاثة أنواع**: صبرٌ بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: صبر الاستعانةِ به، ورؤيته أنَّه هو الْمُصَبِّر، وأن صَبر العبد بربِّه لا بنفْسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧]؛ يعني: إنْ لم يُصبِّرْك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله، وهو أن يكون الباعثُ على الصبر محبَّةَ الله، وإرادةَ وجهِه، والتقرُّبَ إليه، لا لإظهاره قوَّةِ النفْس، والاستحمادِ إلى الخلْق، وغير ذلك من الأغراض.

والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الدِّينيِّ منه، ومع أحكامه الدِّينيَّة، صابرًا نفْسَه معها، سائرًا بسَيرها، مقيمًا بإقامتها، يتوجَّهُ معها أين توجَّهَتْ ركائبُها، وينزل معها أين استقلَّت مضاربُها.

فهذا معنى كونِه صابرًا مع الله؛ أي: قد جعل نفْسَه وَقفًا على أوامره ومحابِّه، وهو أشدُّ أنواع الصبرِ وأصعبُها، وهو صبرُ الصِّدِّيقين.

أقوال في حد الصبر ومقتضياته

قال الجُنَيد: «المسير من الدُّنيا إلى الآخرة سهلٌ هيِّنٌ على المؤمن، وهِجرانُ الخلْق في جنب الله شديد، والمسير من النَّفْس إلى الله صعبٌ شديد، والصَّبرُ مع الله أشدُّ».

وسُئِل عن الصبر؟ فقال: «تجرُّع المرارةِ من غير تعبُّس».

قال ذو النُّون: «الصبر: التباعُد من المخالفات، والسُّكونُ عند تجرُّع غُصَصِ البليَّة، وإظهارُ الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة».

وقيل: الصبر: الوقوف مع البلاء بحُسن الأدب.

وقيل: هو الفناء في البلوى، بلا ظُهورٍ ولا شكوى.

وقيل: تعويد النَّفْسِ الهجومَ على المكاره.

وقيل: المقام مع البلاء بحُسن الصحبة، كالمقام مع العافية.

وقال عمرو بن عثمان: «هو الثَّبات مع الله، وتلقِّي بلائه بالرَّحب والدَّعة».

وقال الخوَّاص: «هو الثبات على أحكام الكِتاب والسُّنَّة».

وقال يحيى بن معاذ: «صبرُ المحبِّينَ أشدُّ من صبر الزَّاهدين، واعجبي؛ كيف يصبرون؟!» وأنشد:

والصَّبرُ يَجْمُلُ في المَواطِنِ كُلِّها إلَّا عَلَيْكَ فإنَّهُ لا يَجْمُلُ

وقيل: الصبر هو الاستعانة بالله.

وقيل: هو ترْكُ الشَّكوى.

وقيل:

الصَّبرُ مِثْلُ اسْمِهِ، مُرٌّ مَذاقَتُهُ لَكِنْ عَواقِبُهُ أحلَى مِنَ العَسَلِ

وقيل: الصبر أن ترضى بتلف نفْسِك في رضا مَن تُحبُّه. كما قيل:

سأصبر كَيْ تَرضَى وأتلَفُ حَسْرَةً وحَسْبِي أنْ تَرضَى ويُتْلِفُني صَبْرِي

مراتب الصابرين

وقيل: مراتب الصابرينَ خمسةٌ: صابر، ومُصطبر، ومُتصبِّر، وصَبور، وصَبَّار، فالصابر: أعمُّها، والمصطبر: المكتسِبُ الصَّبرَ المليءُ به، والمتصبِّر: متكلِّفُ الصبرِ حامل نفسه عليه، والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشدُّ من غيره، والصَّبَّار: الشَّديدُ الصَّبر، فهذا في القدْر والكمِّ، والذي قبله في الوصف والكيف.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصَّبرُ مطيَّةٌ لا تَكْبو».

وقيل في قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، إنَّه انتقالٌ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، فالصَّبرُ دون المصابرة.

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله، ورابطوا بأسراركم على الشَّوق إلى الله.

وقيل: اصبِروا في الله، وصابروا بالله، ورابِطوا مع الله.

وقيل: اصبِروا على النَّعماء، وصابروا على البأساء والضَّرَّاء، ورابِطوا في دار الأعداء، واتَّقوا إلٰهَ الأرضِ والسَّماء، لعلكم تفلحون في دار البقاء.

وكما أنَّ الرِّباطَ لزومُ الثَّغر لئلَّا يَهجُمَ منه العدوُّ، فكذلك المرابطةُ أيضًا لزوم ثغر القلب لئلَّا يهجُمَ عليه الشيطان، فيملكه ويُخربه أو يُشعثه.

وقيل: تَجَرَّع الصبر، فإنْ قتَلَك قتَلَك شهيدًا، وإن أحياك أحياك عزيزًا.

وقيل: الصبر لله غَناء، وبالله بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاء، والصبر على الطلب عنوانُ الظَّفَر، وفي المِحَن عنوانُ الفرَج.

من أجمع الكلام وأعظمه برهانًا

وفي كتاب الأدب للبخاريِّ: «**سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عنِ الإيمانِ؟ فقال: الصَّبرُ، والسَّماحةُ**»[(١)].

وهذا مِن أجمَعِ الكلام وأعظمِه برهانًا، وأوعَبِه لمقامات الإيمان من أوَّلِها إلى آخِرِها.

فإنَّ النَّفْسَ يُراد منها شيئان: بَذْلُ ما أُمرتْ به، وإعطاؤُه، فالحامل عليه: السماحة، وتركُ ما نُهيت عنه، والبُعدُ منه؛ فالحامل عليه: الصبرُ.

وقد أمر الله سبحانه في كتابه بالصَّبر الجميل، والصَّفحِ الجميل، والهجر الجميل.

فسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ يقول: «الصبر الجميلُ: الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفحُ الجميل: الذي لا عتابَ معه، والهجرُ الجميل: الذي لا أذى معه».

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٤٣٥)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٥١).
تنبيه: لم نجده في الأدب المفرد للبخاري، فلعله في نسخة اطلع عليها المؤلف، ولم تصل إلينا.

صبر العابدين وصبر المحبين

وقال ابنُ عُيَيْنةَ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] قال: «أخذوا برأس الأمرِ فجعلهم رؤساءَ».

وقيل: صبرُ العابدينَ أحسَنُه: أن يكون محفوظًا، وصبرُ المحبِّينَ أحسَنُه: أن يكون مرفوضًا، كما قيل:

تَبَيَّنَ يومَ البَيْنِ أنَّ اعتِزامَهُ ... على الصَّبرِ مِن إحْدَى الظُّنُونِ الكَواذِبِ

والشَّكوى إلى الله ﷻ لا تنافي الصبر، فإنَّ يعقوب ﵇ وَعَد بالصَّبر الجميل، والنَّبيُّ إذا وعَد لا يُخلِفُ، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وكذلك أيُّوبُ ﵇ أخبَر اللهُ عنه أنَّه وجَده صابرًا مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وإنَّما ينافي الصَّبرَ شكوى الله، لا الشَّكوى إليه، كما رأى بعضُهم رجلًا يشكو إلى آخَرَ فاقةً وضرورة، فقال: يا هذا، تشكو مَن يرحمك إلى مَن لا يرحمك؟ ثمَّ أنشد:

وإذا عَرَتْكَ بَلِيَّةٌ فاصبِر لها ... صَبْرَ الكَريمِ فإنَّهُ بكَ أعْلَمُ
وإذا شَكَوْتَ إلى ابنِ آدَمَ إنَّما ... تَشْكُو الرَّحيمَ إلى الَّذي لا يَرْحَمُ

الصبر مِن آكَدِ المنازل في طريق المحبَّة، وألزَمِها للمحبِّين، وهم أحوجُ إلى منزلته من كلِّ منزلة، وهو مِن أعرفِ المنازلِ في طريق التَّوحيد وأبيَنِها، وحاجةُ المحِبِّ إليه ضروريَّة.

وقد أمر الله تعالى أحبَّ الخلْقِ إليه بالصبر لحُكمه، وأخبر أنَّ صبره به، وأثنى على الصابرينَ أحسَنَ الثَّناء، وضَمِنَ لهم أعظمَ الجزاء، وجعَل أجرَ غيرِهم محسوبًا، وأجرَهم بغير حساب.

درجات الصبر عند الهروي

قال: (**وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولَى: الصَّبرُ عنِ المَعصِيةِ، بمُطالَعةِ الوَعيدِ إبقاءً عَلَى الإيمانِ، وحَذَرًا مِنَ الحَرامِ، وأحْسَنُ منها الصَّبرُ عَنِ المَعصِيةِ حَياءً).

ذَكَر للصَّبر عن المعصية سببين وفائدتين.

أمَّا السَّببان: فالخوفُ من لحوق الوعيد المترتِّبِ عليها.

والثاني الحَياء من الرَّبِّ تبارك وتعالى أن يُستعان على مَعاصيه بنِعَمه، وأن يُبارَز بالعظائم.

وأما الفائدتان: فالإبقاء على الإيمان، والحذرُ من الحرام.

فأمَّا مطالعة الوعيد، والخوفُ منه: فيبعث عليه قوَّةُ الإيمان بالخبر، والتَّصديقُ بمضمونه.

وأمَّا الحياء: فيبعث عليه قوَّةُ المعرفة، ومشاهدةُ معاني الأسماء والصِّفات.

وأحسَنُ مِن ذلك: أن يكون الباعثُ عليه وازعَ الحبِّ، فيترُكُ معصيتَه محبَّةً له، كحال الصُّهَيْبِيِّينَ.

وأمَّا الفائدتان: فالإبقاءُ على الإيمان: يبعث على تركِ المعصية؛ لأنَّها لا بُدَّ أن تنقصه، أو تَذهبَ به، أو تُذهب رونقَه، وبهجته، أو تطفئ نوره، أو تُضعف قوَّتَه، أو تنقص ثمرته، هذا أمرٌ ضروريٌّ بين المعصية وبين الإيمان يُعلَم بالوجود والخبر والعقل، كما صحَّ عنه ﷺ: **«لا يَزْني الزَّاني حِينَ يَزْني وهو مؤْمِنٌ، ولا يَشْرَبُ الخَمرَ حِينَ يَشرَبُها وهو مؤْمِنٌ، ولا يَسرِقُ حِينَ يَسرِقُ وهو مؤْمِنٌ، ولا يَنتَهِبُ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ** ـ يَرْفَعُ إليهِ النَّاسُ فيها أبصارَهُم حِينَ يَنتَهِبُها ـ **وهو مؤْمِنٌ، فإيَّاكُم إيَّاكُم، والتَّوبةُ مَعرُوضَةٌ بَعْدُ»**[(١)].

وأمَّا الحذرُ عن الحرام: فهو الصبر عن كثير من المباح؛ حذرًا من أن يَسوقَه إلى الحرام.

ولمَّا كان الحياءُ مِن شِيَم الأشراف وأهلِ الكرم والنُّفوسِ الزَّكيَّة، كان صاحبُه أحسَنَ حالًا من أهل الخوف؛ ولأنَّ في الحياء مِن الله ما

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وجمله (فإياكم وإياكم) عند مسلم وحده.

يدُلُّ على مراقبته وحضورِ القلب معه؛ ولأنَّ فيه من تعظيمه وإجلالِه ما ليس في وازع الخوف.

فمَن وازِعُه الخوفُ: قلبُه حاضرٌ مع العقوبة، ومَن وازعُه الحياءُ: قلبُه حاضرٌ مع الله، والخائف مراعٍ جانبَ نفْسِه وحمايتها، والمستحيي مراعٍ جانبَ ربِّه وملاحظٌ عظمتَه.

وكِلا المقامَينِ مِن مقامات أهل الإيمان.

غير أنَّ الحياء أقربُ إلى مقام الإحسان، وألصَقُ به، فإنَّه إذا نَزَّل نفْسَه منزلةَ مَن كأنَّه يرى الله، نبعت ينابيعُ الحياء من عين قلبه وتفجَّرَتْ عيونُها.

أهمية الصبر على الطاعة

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: الصَّبرُ على الطَّاعةِ بالمُحافَظةِ عليها دَوَامًا، وبرَعايَتِها إخلاصًا، وبتَحْسِينِها عِلْمًا**).

هذا يدلُّ على أنَّ عنده: أنَّ فِعلَ الطَّاعةِ آكَدُ مِن تركِ المعصية، فيكون الصبرُ عليها فوق الصَّبرِ عن تركِ المعصية في الدَّرجة.

وهذا هو الصواب ـ كما تقدَّم ـ فإنَّ تركَ المعصية إنَّما كان لتكميل الطاعة، والنَّهيُ مقصودٌ للأمر، فالمنهيُّ عنه لَمَّا كان يُضعِفُ المأمورَ به ويَنقُصه ويهجنه: نهى عنه حمايةً وصيانةً لجانب الأمر، فجانبُ الأمرِ أقوى وآكَدُ، وهو بمنزلة الصِّحَّةِ والحياة، والنَّهيُ بمنزلة الحِمْيةِ التي تُرادُ لحفظ الصِّحَّةِ وأسبابِ الحياة.

آفتان تُفسدان الطاعات

وذكر الشيخ: (**أنَّ الصَّبرَ في هذهِ الدَّرَجةِ بثَلاثةِ أشياءَ: دَوام الطَّاعةِ، والإخلاصِ فيها، ووُقُوعِها على مُقتَضَى العِلمِ، وهو تَحسِينُها عِلْمًا**).

فإنَّ الطاعة تتخلَّفُ مِن فوات واحدٍ من هذه الثلاثة، فإنَّه إنْ لم يحافِظْ عليها دوامًا عطلها، وإن حافظ عليها دوامًا عرَض لها **آفتان**:

إحداهما: تركُ الإخلاص فيها، بأن يكون الباعثُ عليها غيرَ وجه الله، وإرادتِه والتَّقرُّبِ إليه، فحِفظُها من هذه الآفةِ برعاية الإخلاص.

الثانية: ألَّا تكون مطابقةً للعِلم بحيث لا تكونُ على اتِّباع السُّنَّة، فحفْظُها من هذه الآفةِ بتجريد المتابعة، كما أنَّ حِفظَها من تلك الآفةِ بتجريد القصد والإرادة، فلذلك قال: (**بالمُحافَظةِ عليها دَوامًا، ورِعايَتِها إخلاصًا، وتَحْسِينِها عِلْمًا**).

الصبر على البلاء

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: الصَّبرُ في البَلاءِ، بمُلاحَظةِ حُسْنِ الجَزاءِ، وانتِظارِ رَوحِ الفَرَجِ، وتَهوِينِ البَلِيَّةِ بَعْدَ أيادي المِنَنِ، وبِذِكْرِ سَوالِفِ النِّعَمِ**).

هذه **ثلاثة أشياءَ** تَبعَثُ على الصَّبرِ في البلاء.

إحداها: (**مُلاحَظة حُسْنِ الجَزاءِ**) وعلى حسَب ملاحظته والوثوقِ به ومطالعتِه يخفُّ حملُ البلاء؛ لشهود العِوض، وهذا كما يخفُّ على كلِّ متحمِّلٍ مشقَّةً عظيمةً حملُها؛ لِما يُلاحظ من لذَّة عاقبتِها وظفرِه بها، ولولا ذلك لتعطَّلت مصالحُ الدنيا والآخرة، وما أقدَمَ أحدٌ على تحمُّل مشقةٍ عاجلة إلا لثمرةٍ مؤجلة، فالنَّفْسُ موكلةٌ بحبِّ العاجل، وإنَّما خاصَّةُ العقل: تلمُّحُ العواقب، ومطالعةُ الغايات.

وأجمع العقلاء من كلِّ أمَّةٍ على أنَّ النَّعيمَ لا يُدرَكُ بالنَّعيم، وأنَّ مَن رافق الرَّاحةَ فارَقَ الرَّاحة، وأنَّ [على] قدرِ التَّعبِ تكونُ الرَّاحة.

على قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تَأْتي العَزائِمُ وتَأْتي على قَدْرِ الكَرِيمِ الكَرائِمُ
ويَكْبُرُ في عَينِ الصَّغِيرِ صِغارُها وتَصْغُرُ في عَينِ العَظِيمِ العَظائِمُ

والقصد: أن ملاحظة حُسنِ العاقبةِ تُعِين على الصَّبر فيما تتحمَّلُه باختيارك وغيرِ اختيارك.

والثاني: (**انتِظارُ رَوحِ الفَرَجِ**)؛ يعني: راحتَه ونسيمَه ولذَّتَه، فإنَّ انتظاره ومطالعتَه وترقُّبَه يخفِّفُ حملَ المشقَّة، ولا سيَّما عند قوَّةِ الرجاء، أو القطعِ بالفرَج، فإنَّه يَجِدُ في حشو البلاء من رَوحِ الفرَج ونسيمِه وراحتِه: ما هو مِن خَفيِّ الألطاف، وما هو فرَجٌ معجَّل، وبه ـ وبغيره ـ يفهم معنى اسمه اللَّطيف.

والثالث: (تَهْوِينُ البَلِيَّةِ) بأمرين:

أحدهما: أن يَعُدَّ نِعَمَ الله عليه وأياديَه عنده، فإذا عجز عن عدِّها، وأيِسَ مِن حصْرِها، هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه ـ بالنسبة إلى أيادي الله ونِعَمِه ـ كقطرة من بحر.

الثاني: تذكُّرُ سوالفِ النِّعمِ التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلَّقُ بالماضي، وتَعدادُ أيادي المِنَنِ يتعلَّقُ بالحال، وملاحظةُ حُسنِ الجزاءِ وانتظارُ رَوحِ الفرَجِ يتعلَّقُ بالمستقبل، وأحدهما في الدُّنيا، والثاني يومَ الجزاء.

* * *

مراتب الصابرين

المراتب أربع:

إحداها: مرتبة الكمال؛ مرتبة أُولي العزائم، وهي الصَّبرُ لله وبالله، فيكونُ في صبره مبتغِيًا وجهَ الله، صابرًا به، متبرِّئًا مِن حَوْلِه وقوَّتِه، فهذا أقوى المراتبِ وأرفعُها وأفضلُها.

الثاني: أن لا يكونَ فيه لا هذا ولا هذا، فهو أخسُّ المراتب، وأردأُ الخلْق، وهو جديرٌ بكلِّ خِذلان، وبكلِّ حرمان.

الثالث: مَن فيه صبرٌ بالله، وهو مستعينٌ متوكِّلٌ على حَولِ الله وقوَّتِه، متبرِّئٌ مِن حَولِه وقوَّتِه، ولكن صبره ليس لله، إذْ ليس صبره فيما هو مرادُ الله الدِّينيُّ منه، فهذا يَنالُ مطلوبَه، ويَظفَرُ به، ولكن لا عاقبةَ له، وربَّما كانت عاقبتُه شرَّ العواقب.

وفي هذا المقام خفراء الكفَّار وأربابُ الأحوال الشيطانية، فإنَّ صبرهم بالله لا لله، ولا في الله، ولهم من الكشف والتَّأثيرِ بحسَب قوَّةِ أحوالِهم، وهم من جنس الملوك الظَّلَمة، فإنَّ الحال كالمُلكِ يُعطاه البَرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر.

الرابع: مَن فيه صبرٌ لله، لكنَّه ضعيفُ النَّصيبِ مِنَ الصَّبر به، والتوكُّلِ عليه، والثِّقةِ به، والاعتمادِ عليه، فهذا له عاقبةٌ حميدة، ولكنَّه ضعيفٌ عاجز، مخذولٌ في كثير من مطالبه؛ لضعف نصيبه من ﴿إِيَّاكَ

نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] فنصيبه من «لله»: أقوى من نصيبه من بالله، فهذا حال المؤمنِ الضعيف.

وصابرٌ بالله، لا لله: حالُ الفاجرِ القويِّ، وصابر لله وبالله: حالُ المؤمنِ القويِّ، «**والمؤْمِنُ القَوِيُّ خَيرٌ وأحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»[1].

فصابر لله وبالله عزيزٌ حميد، ومَن ليس لله ولا بالله مذمومٌ مخذول، ومَن هو بالله لا لله قادرٌ مذموم، ومَن هو لله لا بالله عاجزٌ محمود.



(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



منزلة الرضا

وقد أجمع العلماءُ على أنَّه مستحبٌّ، مؤكَّدٌ استحبابُه، واختلفوا في وجوبه على قولين.

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ يحكيهما قولينِ لأصحاب أحمدَ، وكان يذهبُ إلى القول باستحبابه.

قال: «ولم يَجِئِ الأمرُ به، كما جاء الأمر بالصبر، وإنَّما جاء الثَّناءُ على أصحابه ومدْحُهم».

هل الرضا كسبي أم موهبة؟

قلت: ولا سيَّما عند مَن يرى أنَّه من جملة الأحوال التي ليست بمكتسَبة، وأنَّه موهبةٌ محضة، فكيف يؤمَرُ به، وليس مقدورًا؟!

والتَّحقيقُ في المسألة: أنَّ الرِّضا كَسْبيٌّ باعتبار سببِه، مَوهبيٌّ باعتبار حقيقتِه، فيمكن أن ينال بالكسب لأسبابه، فإذا تمكَّنَ في أسبابه وغرس شجرتَه: اجتنى منها ثمرةَ الرِّضا، فإنَّ الرِّضا آخرُ التوكُّلِ، فمَن رسخ قدمُه في التوكُّلِ والتسليم والتفويض: حصل له الرِّضا ولا بُدَّ، ولكن لعِزَّته وعدمِ إجابةِ أكثرِ النُّفوس له، وصعوبتِه عليها لم يوجِبْه الله على خلْقه؛ رحمةً بهم، وتخفيفًا عنهم، لكن نَدَبهم إليه، وأثنى على أهله، وأخبر أنَّ ثوابه رِضاهُ عنهم، الذي هو أعظمُ وأكبرُ وأجَلُّ مِن الجَنَّات وما فيها، فمَن رضيَ عن ربِّه رضِيَ اللهُ عنه؛ بل رضا العبدِ عن الله مِن نتائج رضا الله عنه، فهو محفوفٌ بنوعين مِن رِضاهُ عن عبده: رضًا قَبلَه، أوجبَ له أن يرضى عنه، ورضًا بَعدَه، هو ثمرةُ رِضاهُ عنه؛ ولذلك كان الرِّضا بابَ الله الأعظمَ، وجنَّةَ الدُّنيا، ومستراحَ العارفين، وحياة المحبِّين، ونعيمَ العابدين، وقرَّةَ عيونِ المشتاقين.

من أعظم أسباب حصول الرضا

ومِن أعظمِ أسبابِ حصولِ الرِّضا: أن يَلزَمَ ما جعل الله رِضاهُ فيه؛ فإنَّه يوصله إلى مقام الرِّضا ولا بُدَّ.

قيل ليحيى بن مُعاذ: «متى يَبلُغُ العبدُ إلى مقام الرِّضا؟ فقال: إذا أقام نفْسَه على أربعة أصولٍ فيما يعامل به ربَّه، فيقول: إنْ أعطيْتَني قَبِلتُ، وإنْ منعْتَني رَضِيتُ، وإنْ تركْتَني عَبَدْتُ، وإنْ دعوْتَني أجَبْتُ».

وقال الجنيد: «الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا».

وليس الرِّضا والمحبَّةُ كالرجاء والخوف؛ فإنَّ الرضا والمحبَّةَ حالان من أحوال أهل الجنَّة، لا يُفارِقان المتلبِّسَ بهما في الدُّنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة، بخلاف الخوف والرَّجاء، فإنَّهما يفارِقان أهلَ الجنَّةِ بحصول ما كانوا يرجونه، وأمْنِهم ممَّا كانوا يخافونه، وإنْ كان رجاؤهم لِما ينالون مِن كرامته دائمًا، لكنَّه ليس رجاءً مَشوبًا بشكٍّ، بل هو رجاءُ واثقٍ بوعدٍ صادق، مِن حبيب قادر، فهذا لونٌ ورجاؤهم في الدنيا لون.

هل التألم وكراهة النفس له ينافي الرضا؟

وليس من شرط الرِّضا ألَّا يُحِسَّ بالألم والمَكارِه؛ بل ألَّا يَعترِضَ على الحُكم ولا يَتسخَّطه، ولهذا أشكَلَ على بعض الناس الرِّضا بالمكروه، وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممتنعٌ على الطَّبيعة، وإنَّما هو الصَّبرُ، وإلا فكيف يجتمع الرِّضا والكراهيةُ وهما ضِدَّان؟

والصواب: أنَّه لا تناقُضَ بيْنهما، وأنَّ وجود التألُّمِ وكراهةَ النَّفْسِ له لا ينافي الرِّضا، كرضا المريض بشُرب الدَّواءِ الكَريه، ورضا الصائم في اليوم الشديدِ الحرِّ بما ينالُه من ألم الجوع والظَّمأ، ورضا المجاهد بما يحصُلُ له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

كيفية الوصول إلى منزلة الرضا

وطريق الرضا طريقٌ مختصرة، قريبة جدًّا، موصلةٌ إلى أجَلِّ غاية، ولكن فيها مشقة، ومع هذا فليست مشقَّتُها بأصعبَ مِن مشقَّةِ طريق الجهاد، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنَّما عقبتها همَّةٌ عالية، ونفْسٌ زكية، وتوطين النَّفْسِ على كلِّ ما يَرِدُ عليها من الله.

ويُسهِّلُ ذلك على العبد: عِلْمُه بضعفِه وعجزِه ورحمةِ ربِّه، وشفقتِه عليه، وبِرِّه به، فإذا شَهِدَ هذا وهذا، ولم يطرح نفْسَه بين يديه، ويرض به وعنه، وتنجذب دواعي حبِّه ورِضاهُ كلِّها إليه: فنفْسُه نفسٌ مطرودةٌ عن الله، بعيدة عنه، ليست مؤهَّلةً لقُربِه وموالاته، أو نفْسٌ ممتحنةٌ مبتلاة بأصناف البلايا والمِحَن.

فطريق الرضا والمحبَّةِ: تُسيِّر العبدَ وهو مُستلقٍ على فراشه، فيصبح أمامَ الرَّكبِ بمراحلَ.

ثمرات الرضا

وثمرةُ الرِّضا: الفرحُ والسُّرورُ بالرَّبِّ تبارك وتعالى.

ورأيتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ في المنام، وكأنِّي ذكرتُ له شيئًا من أعمال القلب، وأخذتُ في تعظيمه ومنفعتِه ـ لا أذكره الآنَ ـ فقال: «أمَّا أنا فطريقتي: الفرحُ بالله، والسُّرورُ به»، أو نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حالُه في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حالُه.

لكن قد قال الواسِطيُّ: «استعملِ الرِّضا جهدك، ولا تَدَعِ الرِّضا يستعمِلُك، فتكون محجوبًا بلَذَّتِه ورؤيتِه عن حقيقة ما تطالِع».

وهذا الذي أشار إليه الواسطيُّ هو عَقَبةٌ عظيمة عند القوم، ومقطعٌ لهم، فإنَّ مساكنة الأحوال، والسكونَ إليها، والوقوفَ عندها استلذاذًا ومحبَّةً: حجابٌ بينهم وبين ربِّهم بحظوظهم عن مطالعة حقوق محبوبِهم ومعبودِهم، وهي عقبة لا يجوزها إلا أُولو العزائم.

وكان الواسطيُّ كثيرَ التَّحذيرِ من هذه العَقَبة، شديدَ التَّنبيهِ عليها.

ومِن كلامه: «إيَّاكم واستِحلاءَ الطَّاعاتِ؛ فإنَّها سمومٌ قاتلة».

فهذا معنى قولِه: «استعمِلِ الرِّضا جهدَك، ولا تدع الرِّضا يَستعمِلُك»؛ أي: لا يكون عملُك لأجْل حصولِ حلاوةِ الرِّضا، بحيث تكون هي الباعثةَ لك عليه، بل اجعلْه آلةً لك وسببًا موصلًا إلى

مقصودك ومطلوبك، فتكون مستعمِلًا له، لا أنَّه مستعمِلٌ لك.

وهذا لا يختصُّ بالرضا، بل هو عامٌّ في جميع الأحوال والمقاماتِ القلبية التي يَسكُنُ إليها القلب، حتى إنَّه أيضًا لا يكون عاملًا على المحبَّة لأجْلِ المحبَّة، وما فيها من اللَّذَّةِ والسُّرورِ والنعيم، بل يستعمل المحبَّةَ في مراضي المحبوب، لا يقف عندها، فهذا من عِلَلِ المحبَّة.

أقوال في الرضا

وقال ذو النُّون: «ثلاثة من أعلام الرِّضا: ترْكُ الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارةِ بعد القضاء، وهيَجانُ الحبِّ في حَشْوِ البلاء».

وقيل للحُسين بنِ عليٍّ رضي الله عنهما: «إنَّ أبا ذرٍّ يقول: الفقر أحَبُّ إليَّ من الغنى، والسقمُ أحبُّ إليَّ من الصِّحَّة، فقال: رحِمَ اللهُ أبا ذرٍّ، أمَّا أنا فأقول: مَنِ اتَّكَلَ على حُسنِ اختيارِ الله له لم يَتمنَّ غيرَ ما اختار الله له».

وقال الفُضَيل بن عِياضٍ لِبشْرٍ الحافي: «الرِّضا أفضلُ مِنَ الزُّهد في الدُّنيا؛ لأنَّ الراضي لا يتمنَّى فوق منزلته».

وسُئل أبو عثمانَ عن قول النبيِّ ﷺ: «**أسألُكَ الرِّضا بَعْدَ القَضاءِ**»[1] فقال: «لأنَّ الرِّضا قبلَ القضاءِ عزمٌ على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرضا».

وقيل: الرضا ارتفاع الجَزَعِ في أيِّ حُكمٍ كان.

وقيل: رفع الاختيار.

وقيل: استقبال الأحكامِ بالفرح.

وقيل: سكون القلبِ تحت مجاري الأحكام.

وقيل: نظرُ القلب إلى قديم اختيارِ الله تعالى للعبد، وهو تركُ السخط.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٦٦٦)، والحاكم (١٩٠٠)، وقال: صحيح الإسناد، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وكتب عمرُ بن الخطَّابِ إلى أبي موسى رضي الله عنهما: «أمَّا بعدُ، فإنَّ الخير كلَّه في الرضا، فإنِ استطعْتَ أن ترضى وإلَّا فاصبِرْ».

وقال أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ: «الإنسان خزف، وليس للخزف مِن الخطر ما يُعارِض فيه حُكمَ الحقِّ تعالى».

وقال أبو عثمانَ الحِيريُّ: «مُنذ أربعينَ سَنةً ما أقامني الله في حال فكرِهْتُه، وما نقلني إلى غيرِه فسَخِطْتُه».

أقسام الرضا

والرِّضا ثلاثةُ أقسام: رضا العوامِّ بما قسمه الله وأعطاه، ورضا الخواصِّ بما قدَّرَه الله وقضاه، ورضا خواصِّ الخواصِّ به بدلًا مِن كلِّ ما سِواه.

قال صاحب «المنازل»: (**والرِّضَا اسمٌ لِلوُقُوفِ الصَّادِقِ، حَيثُما وَقَفَ العَبدَ، لا يَلتَمِسُ مُتَقدَّمًا ولا مُتَأخَّرًا، ولا يَستَزِيدُ مَزِيدًا، ولا يَستَبْدِلُ حالًا**).

قوله: (**الرِّضَا هو الوُقُوفُ الصَّادِقُ**): يريد به: الوقوفَ مع مراد الرَّبِّ تبارك وتعالى الدِّينيِّ حقيقةً، من غير تردُّد في ذلك ولا معارضة، وهذا مطلوب القوم السَّابقين، وهو الوقوف الصادقُ مع مراد الحقِّ، مِن غير أن يَشوب ذلك تردُّدٌ، ولا يُزاحِمه مرادٌ.

قوله: (**حَيثُما وَقَفَ العَبدَ**) يَصحُّ أنْ يكونَ العبدُ فاعلًا؛ أي: حيث ما وقف بإذن ربِّه لا يلتمس تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، ويصحُّ أنْ يكون مفعولًا، وهو أظهرُ؛ أي: حيثما وقف اللهُ العبدَ ـ فإنَّ (وقف) يستعمل لازِمًا ومتعدِّيًا ـ أي: حيثما وقفه ربُّه، لا يطلب تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، وهذا إنَّما يكون فيما يَقِفُه فيه من مُراده الكونيِّ الذي لا يتعلَّقُ بالأمر والنَّهي، وأمَّا إذا وقفه في مرادٍ دينيٍّ، فكمالُه بطلب التقدُّم فيه دائمًا.

فإنَّه إنْ لم تكن هِمَّتُه التقدُّمَ إلى الله في كلِّ لحظة: رجَع من حيث لا يدري، فلا وقوفَ في الطريق البتةَ، ولكن إذا وقف في مقامٍ ـ من

الغنى والفقر، والرَّاحةِ والتعب، والعافيةِ والسقم، والاستيطانِ ومفارقة الأوطان ـ يقف حيث وقفه، فلا يطلُبُ غيرَ تلك الحالةِ التي أقامه الله فيها، وهذا لتصحيح رِضاهُ باختيار الله له، والفناءِ به عن اختياره لنفْسه.

وكذلك قوله: (**لا يَستَزِيدُ مَزِيدًا، ولا يَستَبدِلُ حالًا**).

هذا الذي ذكره الشيخ فردٌ من أفراد الرِّضا، وهو الرِّضا بالأقسام والأحكامِ الكونيَّةِ التي لم يؤْمَرْ بمدافعتها.

درجات الرضا

قال: (**وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولَى: الرِّضَا باللهِ رَبًّا، وتَسَخُّطُ عِبادةِ ما دُونَه، وهذا قُطْبُ رَحَى الإسلامِ، وهو يُطَهِّرُ مِن الشِّركِ الأكبَرِ).

الرضا بالله ربًّا: أن لا يتَّخِذَ ربًّا غيرَ الله تعالى يسكُنُ إلى تدبيره، ويُنزِلُ به حوائجَه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «سيِّدًا وإلهًا؛ يعني: فكيف أطلُبُ ربًّا غيرَه، وهو ربُّ كلِّ شيء؟! وقال في أوَّلِ السُّورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]؛ يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجًا، وهو من الموالاة التي تتضمَّنُ الحُبَّ والطاعة، وقال في وسَطها: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أي: أفغيرَ اللهِ أبتغي مَن يَحكُمُ بيني وبيْنكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفْنا فيه؟ وهذا كتابُه سيِّدُ الحكَّام، فكيف نتحاكَمُ إلى غير كتابِه؟ وقد أنزله مفصَّلًا مبيَّنًا، كافيًا شافيًا.

وأنت إذا تأمَّلْتَ هذه الآياتِ الثلاثَ حقَّ التأمُّلِ، رأيْتَها هي نفْسُ الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، ورأيتَ الحديثَ مترجمًا عنها، ومشتقًّا منها، فكثير من الناس يرضى به ربًّا، ولا يبغي ربًّا سِواه، لكنه لا يرضى به وحْدَه وليًّا، بل يوالي مَن دونه أولياء، ظنًّا منه أنَّهم يُقرِّبونه إلى الله، وأنَّ موالاتَهم كموالاة خواصِّ الملِك، وهذا

عين الشِّرك؛ بل التوحيدُ: أن لا يتَّخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوءٌ مِن وصفِ المشركين بأنَّهم اتَّخذوا مِن دونه أولياء، وهذا غير موالاةِ أنبيائه ورسلِه، وعبادِه المؤمنينَ فيه، فإنَّ هذا مِن تمام الإيمان وتمام موالاته، فموالاةُ أوليائه لونٌ واتِّخاذُ الوليِّ مِن دونه لون، ومَن **لَمْ** يفهم الفرقانَ بينهما فليطلُبِ التوحيدَ من رأس؛ فإنَّ هذه المسألةَ أصلُ التوحيدِ وأساسُه.

تفسير الرضا بالله ربًّا

وكثير من الناس يبتغي غيرَه حَكَمًا، يحاكم إليه، ويُخاصِم إليه، ويَرضى بحُكمه، وهذه المقامات الثلاثةُ هي أركان التوحيد: أن لا يتَّخِذ سِواه ربًّا، ولا إلٰهًا، ولا غيرَه حَكَمًا.

وتفسيره الرِّضا بالله ربًّا: أن تَسخَطَ عبادةَ ما دونه، هذا هو الرِّضا بالله إلٰهًا، وهو مِن تمام الرِّضا بالله ربًّا، فمَن أعطي الرِّضا به ربًّا حقَّه سَخِطَ عبادةَ ما دونه قطعًا؛ لأنَّ الرضا بتجريد ربوبيَّتِه يستلزِمُ تجريدَ عبادته، كما أنَّ العِلم بتوحيد الرُّبوبيَّةِ يستلزمُ العِلمَ بتوحيد الألوهيَّة.

وقوله: **(وهو قُطْبُ رَحَى الإسلَامِ)**؛ يعني: أن مدار رحى الإسلام على أن يرضى بعبادتِه وحدَه، وأنْ يَسخَطَ عبادةَ غيرِه، وقد تقدَّم أنَّ العبادة هي الحبُّ مع الذُّلِّ، فكلُّ مَن ذَلَلْتَ له وأطعْتَه وأحببْتَه دون الله، فأنت عبدٌ له.

وقوله: **(وهو يُطَهِّرُ مِنَ الشِّركِ الأكبَرِ)**؛ يعني: أنَّ الشِّرك نوعان: أكبر، وأصغر، فهذا الرضا يطهِّر صاحبَه من الأكبر، وأمَّا الأصغرُ: فيطهِّرُه نزولُه منزلةَ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

شروط صحة الرضا

قال: **(وهو يَصِحُّ بثَلاثَةِ شُرُوطٍ: أنْ يَكُونَ اللَّهُ ﷻ أحَبَّ الأشياءِ إلى العَبدِ، وأولَى الأشياءِ بالتَّعظِيمِ، وأحَقَّ الأشياءِ بالطَّاعةِ)**.

يعني: أنَّ هذا النَّوعَ من الرضا إنَّما يَصِحُّ **بثلاثة أشياء** أيضًا:

أحدها: أنْ يكونَ اللهُ ﷻ أحبَّ شيءٍ إلى العبد، وهذه تُعرَف **بثلاثةِ أشياءَ** أيضًا:

ـ **أحدها**: أنْ تسبِقَ مَحبَّتُه إلى القلب كلَّ محبَّة، فتتقدَّم محبَّتُه المَحابَّ كلَّها.

ـ **الثاني**: أنْ تَقهَرَ محبَّتُه كلَّ مَحَبَّة، فتكون محبَّتُه إلى القلب سابقةً قاهرة، ومحبَّةُ غيرِه متخلِّفةً مقهورة مغلوبةً مُنطويةً في محبَّتِه.

ـ **الثالث**: أن تكون محبةُ غيرِه تابعةً لمحبَّتِه، فيكون هو المحبوبَ بالذَّاتِ والقصدِ الأوَّل، وغيرُه محبوبًا تبَعًا لحُبِّه، كما يُطاع تبعًا لطاعته، فهو في الحقيقة المُطاعُ المحبوب.

وهذه الثلاثة في كوْنه أولى الأشياء بالتعظيم والطاعةِ أيضًا.

فالحاصل: أن يكون اللهُ وحدَه المحبوبَ المعظَّمَ المطاع، فمَن لم يُحِبَّه ولم يُطِعْهُ، ولم يُعظِّمْه: فهو متكبِّر عليه، ومتى أحبَّ معه سِواه، وعظَّم معه سِواه، وأطاع معه سِواه: فهو مشرِك، ومتى أفرده بالحبِّ والتعظيمِ والطاعةِ فهو عبدٌ موحِّدٌ.

فضائل الرضا عن الله تعالى

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: الرِّضَا عنِ اللهِ، وبهذا الرِّضَا نَطَقَتْ آياتُ التَّنزيلِ، وهو الرِّضَا عنهُ في كُلِّ ما قَضَى وقَدَّرَ، وهذا مِن أوائِلِ مَسالِك أهلِ الخُصُوصِ)**.

الشيخ جعل هذه الدرجةَ أعلى من الدرجة التي قبلها.

ووجْهُ قولِه: أنَّه لا يدخُلُ في الإسلام إلَّا بالدرجة الأُولى، فإذا استقرَّ قدمُه عليها دخل في مقام الإسلام.

وأمَّا هذه الدرجةُ: فمِن معاملات القلوب، وهي لأهل الخصوص، وهي الرضا عنه في أحكامه وأقضيتِه، وإنَّما كان مِن أوَّلِ مسالكِ أهلِ الخصوص؛ لأنَّه مقدِّمةٌ للخروج عن النَّفْس، والذي هو طريق أهل الخصوص، فمقدِّمتُه بدايةُ سلوكهم؛ لأنَّه يتضمَّنُ خروجَ العبدِ عن حظوظه، ووقوفَه مع مراد الله، لا مع مراد نفْسِه.

هذا تقرير كلامه، وفي جعْلِه هذه الدَّرجةَ أعلى مِن التي قبلها نَظَرٌ لا يخفى، وهو نظير جعْلِه الصَّبرَ بالله أعلى من الصبر لله.

والذي ينبغي: أن يكون الدرجةُ الأُولى أعلى شأنًا وأرفعَ قدرًا؛ فإنَّها مختصَّةٌ، وهذه الدرجةُ مشتركة، فإنَّ الرِّضا بالقضاء يَصِحُّ من المؤمن والكافر، وغايتُه التَّسليمُ لقضاء الله وقدَرِه، فأين هذا من الرضا به ربًّا وإلٰهًا ومعبودًا وحَكَمًا؟ فالرِّضا به ربًّا فرضٌ، بل هو مِن آكَدِ الفروض باتِّفاق الأمَّة، فمَن لم يَرْضَ به ربًّا، لم يَصِحَّ له إسلامٌ ولا عملٌ ولا حال.

وأمَّا الرِّضا بقضائه: فأكثرُ الناس على أنَّه مستحَبٌّ، وليس واجبًا، وقيل: بل هو واجب، وهما قولان في مذهب أحمدَ.

قال: **(وبهذا الرِّضَا نَطَقَ التَّنزِيلُ)**.

يشير إلى قوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨].

فتضمَّنَتْ هذه الآياتُ: جزاءَهم على صِدْقِهم وإيمانهم، وأعمالِهِمُ الصالحة، ومجاهدةِ أعدائه، وعدمِ ولايتِهم، بأنْ رضِيَ اللهُ عنهم فأرضاهم، فرَضُوا عنه. وإنَّما حصل لهم هذا بعد الرِّضا به ربًّا، وبمحمد نبيًّا، وبالإسلام دينًا.

قوله: **(وهو الرِّضَا عنهُ في كُلِّ ما قَضَى)**.

الرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب

هاهنا ثلاثةُ أمور: الرِّضا بالله، والرِّضا عن الله، والرِّضا بقضاء الله.

فالرضا به فرضٌ، والرضا عنه ـ وإنْ كان من أجَلِّ الأمورِ وأشرفِ أنواعِ العبوديَّة ـ فلم يطالَبْ به العموم؛ لعجزهم عنه، ومشقَّتِه عليهم، وأوجَبَتْه طائفةٌ كما أوجبوا الرضا به.

فالرِّضا بالقضاء الدِّينيِّ الشرعيِّ واجب، وهو أساس الإسلامِ وقاعدةُ الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج، ولا منازعةٍ ولا معارضة، ولا اعتراض، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتى يُحكِّموا رسولَه، وحتى يرتفع الحرجُ من نفوسهم مِن حُكمه، وحتى يسلِّموا لحُكمه تسليمًا، وهذا حقيقة الرضا بحُكمه.

فالتحكيم: في مقام الإسلام، وانتفاءُ الحرَج: في مقام الإيمان، والتسليمُ: في مقام الإحسان.

ومتى خالط القلبَ بشاشةُ الإيمان، واكتحلتْ بصيرتُه بحقيقة اليقين، وحَيِيَ برُوح الوحي، وتمهَّدَتْ طبيعتُه، وانقلبت النَّفْسُ الأمَّارةُ مطمئنةً راضيةً وادعة، وتلقى أحكام الرَّبِّ تعالى بصدر واسعٍ منشرحٍ مسلِّم: فقد رضيَ كلَّ الرضا بهذا القضاءِ الدِّينيِّ المحبوب لله ورسوله.

حكم الرضا بالقضاء الكوني القدري

والرضا بالقضاء الكَونيِّ القدَريِّ، الموافقِ لمحبَّةِ العبد وإرادتِه ورضاه ـ من الصحة، والغنى، والعافيةِ، واللذَّةِ ـ أمرٌ لازمٌ بمقتضى الطبيعة؛ لأنَّه ملائمٌ للعبد، محبوبٌ له، فليس في الرضا به عبوديةٌ، بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعترافِ بالمِنَّة، ووضع النِّعمةِ مواضعَها التي يحبُّ الله أن توضع فيها، وألَّا يَعصيَ المنعِمَ بها.

والرضا بالقضاء الكَونيِّ القدَريِّ، الجاري على خلاف مرادِ العبد

ومحبَّتِه ـ ممَّا لا يُلائمُه، ولا يدخُلُ تحت اختياره ـ مستحبٌّ.

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره ـ ممَّا يَكرَهُه الله ويَسخَطُه، وينهى عنه ـ كأنواع الظُّلم والفسوقِ والعصيان: حرامٌ يُعاقب عليه، وهو مخالف لربِّه تعالى؛ فإنَّ الله لا يرضى بذلك ولا يحبُّه.

علامات صحة الرضا عن الله تعالى

قوله: (**ويَصِحُّ بثَلاثةِ شَرائِطَ: باستِواءِ الحَالاتِ عِندَ العَبدِ، وسُقُوطِ الخُصُومةِ مع الخَلْقِ، والخَلاصِ مِنَ المَسألةِ والإلْحاحِ**).

يعني: أن الرضا عن الله إنَّما يتحقَّقُ بهذه الأمور الثلاثةِ، فإنَّ الراضي الموافق تستوي عنده الحالاتُ ـ من النعمة والبلية ـ في رِضاه بحُسن اختيار الله له.

وليس المرادُ استواءَها عنده في ملاءمته ومنافرتِه، فإنَّ هذا خلافُ الطبع البَشَريِّ، بل خلاف الطَّبعِ الحيواني.

وليس المرادُ أيضًا استواءَ الحالات عنده في الطاعة والمعصية، فإنَّ هذا منافٍ للعبودية من كل وجه، وإنَّما تستوي النِّعمةُ والبليَّةُ عنده في الرضا بهما **لوجوه**:

أحدها: أنه مفوِّض، والمفوِّض راضٍ بكلِّ ما اختاره له مَن فوَّض إليه، ولا سيَّما إذا عَلِمَ كمال حكمتِه ورحمتِه، ولُطفِه وحُسنِ اختيارِه له.

الثاني: أنَّه جازمٌ بأنَّه لا تبديل لكلمات الله، ولا رادَّ لحُكمِه، وأنَّه ما شاء الله كان وما لم يشأْ لم يكن، فهو يعلم أنَّ كُلًّا من البلية والنِّعمةِ بقضاءٍ سابق، وقدَرٍ حتْم.

الثالث: أنَّه عبدٌ محضٌ، والعبد المحضُ لا يَسخط جرَيانَ أحكامِ سيِّده المُشفِقِ البارِّ النَّاصحِ المحسن؛ بل يتلقَّاها كلَّها بالرضا به وعنه.

الرابع: أنَّه محِبٌّ، والمحِبُّ الصادقُ: مَن رضيَ بما يعامله به حبيبُه.

الخامس: أنَّه جاهلٌ بعواقب الأمور، وسيِّدُه أعلمُ بمصلحته وما ينفعه.

السادس: أنَّه لا يريد مصلحتَه من كلِّ وجه، ولو عرَف أسبابَها

فهو جاهل ظالم، وربُّه تعالى يريد مصلحتَه، ويسوق إليه أسبابَها، ومِن أعظم أسبابِها: ما يَكرَهُه العبد، فإنَّ مصلحته فيما يَكرَهُ أضعافُ مصلحتِه فيما يحِبُّ، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

السابع: أنه مسْلم، والمسلم من قد سلَّم نفْسَه لله، ولم يعترِضْ عليه في جرَيان أحكامِه عليه، ولم يتسخَّطْ بذلك.

الثامن: أنَّه عارفٌ بربِّه، حَسَنُ الظَّنِّ به، لا يتَّهِمُه فيما يُجريه عليه من أقضيته وأقدارِه.

فحُسْن ظنِّه به يوجب له استواءَ الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيِّدُه.

التاسع: أنَّه يعلم أنَّ حظَّه من المقدور ما يتلقَّاه به من رضًي وسخطٍ، فلا بُدَّ له منه، فإنْ رضيَ فله الرِّضا، وإن سخِطَ فله السخط.

العاشر: عِلمُه بأنَّه إذا رضيَ به انقلب في حقِّه نعمةً ومنحة، وخفَّ عليه حملُه، وأُعِينَ عليه، وإذا سخِطه تضاعف عليه ثقلُه وكَلُّه، ولم يَزدَدْ إلَّا شدَّةً، فلو أنَّ السخط يُجْدي عليه شيئًا لكان له فيه راحةٌ، فلا أنفعَ له من الرضا به.

ونكتة المسألة: إيمانُه بأنَّ قضاء الربِّ تعالى خيرٌ له، كما قال النبيُّ ﷺ: «**والَّذي نَفْسي بيَدِهِ، لا يَقْضي اللهُ لِلمؤْمِنِ قَضاءً إلَّا كان خَيرًا لهُ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فكان خَيرًا لهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فكان خَيرًا لهُ، وليس ذلك إلَّا لِلمؤْمِنِ**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه في منزلة الصبر، ووقع فيه هنا إختلافان عن السابق: زيادة قوله: «**والذي نفسي... إلا كان خيرًا له**» وليست في مسلم بل في أحمد من حديث أنس، الثاني تأخيره جملة «**وليس ذلك إلا للمؤمن**» وهي مقدمة كما سلف في التخريج السابق.

الحادي عشر: أن يعلم أنَّ تمام عبوديَّتِه في جرَيانِ ما يَكرَهُه مِن الأحكام عليه، ولو لم يَجْرِ عليه منها إلَّا ما يحِبُّ لكان أبعدَ شيءٍ عن عبوديته ربَّه، فلا تَتِمُّ له عبوديَّتُه ـ مِن الصبر، والتوكُّلِ، والرضا، والتضرع، والافتقار، والذُّلِّ، والخضوع، وغيرِها ـ إلَّا بجَرَيان القدَرِ له بما يَكرَهُه.

الثاني عشر: أن يعلم أنَّ رِضاه عن ربِّه ﷻ في جميع الحالات يُثمِرُ رضا ربِّه عنه.

الثالثَ عشرَ: أنَّ أعظم راحتِه، وسرورِه ونعيمه: في الرضا عن ربِّه في جميع الحالات؛ فإنَّ الرضا بابُ الله الأعظم، ومستراحُ العارفين، وجنَّةُ الدنيا، فجديرٌ بمَن نصَح نفْسَه أن تشتدَّ رغبتُه فيه، لا يستبدل بغيره منه.

الرابعَ عشرَ: أنَّ السخط بابُ الهمِّ والغمِّ والحَزَن، وشتاتِ القلب، وكَسفِ البال، وسوء الحال والوسواس، والظنِّ بالله خلاف ما هو أهلُه.

والرضا يخلِّصه من ذلك كلِّه، ويَفتحُ له بابَ جنَّةِ الدُّنيا قبل جنَّةِ الآخرة.

الخامسَ عشرَ: أنَّ الرضا يوجب له الطُّمأنينة، وبَردَ القلب، وسكونَه وقرارَه، والسخط يوجب اضطرابَ قلبِه، ورَيْبَه وانزعاجَه، وعدمَ قراره.

السَّادسَ عشرَ: أنَّ الرِّضا يُنزِل عليه السَّكينةَ التي لا أنفعَ له منها.

ومتى نزلت عليه السكينةُ: استقام، وصلحتْ أحوالُه، وصلح بالُه، والسخط يُبعِدُه منها بحسَب قِلَّتِه وكثرتِه، وإذا ترحَّلتْ عنه السكينةُ ترحَّلَ عنه السُّرورُ والأمن والدَّعة، وطِيبُ العيش، فمِن أعظمِ نِعَمِ الله على عبده: تنزُّلُ السكينةِ عليه، ومِن أعظم أسبابِها: الرِّضا عنه في جميع الحالات.

السابعَ عشرَ: أنَّ الرِّضا يَفتحُ له بابَ السَّلامة، فيجعل قلبَه سليمًا نقيًّا من الغشِّ والدَّغَلِ والغِلِّ.

ولا ينجو من عذاب الله إلَّا مَن أتى اللهَ بقلب سليم، كذلك وتستحيل سلامةُ القلب مع السخط وعدمِ الرضا، وكلَّما كان العبدُ أشدَّ رضًا كان قلبُه أسلَمَ، فالخبث والدَّغَلُ والغِشُّ: قرين السخط، وسلامةُ القلبِ وبرُّه ونُصْحُه: قرين الرِّضا، وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط، وسلامةُ القلب منه مِن ثمرات الرضا.

الثامنَ عشرَ: أنَّ السخط يوجب تلوُّنَ العبد، وعدمَ ثباتِه مع الله، فإنَّه لا يرضى إلَّا بما يلائِمُ طبْعَه ونفْسَه، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وبما لا يلائمه، كلَّما جرى عليه منها ما لا يلائمه سخِطَه، فلا تثبُتُ له على العبوديَّةِ قدَمٌ، فإذا رضيَ عن ربِّه في جميع الحالات، استقرَّتْ قدمُه في مقام العبودية، فلا يزيل التَّلَوُّنَ عن العبد شيءٌ مِثْلُ الرضا.

التاسعَ عشرَ: أنَّ السخط يفتحُ عليه بابَ الشكِّ في الله، وقضائه وقدَرِه وحكمته وعِلمِه، فقلَّ أن يَسلَمَ الساخطُ مِن شكٍّ يداخِلُ قلبَه ويتغلغلُ فيه، وإن كان لا يشعر به.

فلو فتَّش نفْسَه غايةَ التفتيش لوجَد يقينَه معلولًا مدخولًا، فإنَّ الرضا واليقينَ أخوَان مصطحبان، والشك والسخط قرينان، وهذا معنى الحديث الذي في التِّرمذيِّ ـ أو غيره: «إنِ استَطَعْتَ أنْ تَعْمَلَ بالرِّضَا مع اليَقِينِ فافْعَلْ، فإنْ لَمْ تَستَطِعْ فإنَّ في الصَّبرِ على ما تَكْرَهُ خَيرًا كَثيرًا»[١].

العشرون: أن الرضا بالمقدور مِن سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته، كما في المسند والتِّرمذيِّ من حديث سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مِن سَعادَةِ ابنِ آدَمَ استِخارَةُ اللهِ عز وجل، ومِن**

(١) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥١٠٧)، ولم نجده في نسخ الترمذي المطبوعة، فلعل المؤلف نقل من نسخة لم تصلنا، سيما وهو قطعة من حديث ابن عباس المشهور الذي أخرجه الترمذي، ويدل على هذا أن العراقي ـ وهو هو ـ عزاه في تخريج الإحياء للترمذي. وينظر: موافقة الخبر لابن حجر (١/ ٣٢٩).

سَعادةِ ابنِ آدَمَ رِضَاهُ بما قَضَى اللهُ، ومِن شِقْوَةِ ابنِ آدَمَ سَخَطُه بما قَضَى اللهُ ﷻ، ومِن شَقاوةِ ابنِ آدَمَ تَرْكُ استِخارةِ اللهِ»[(١)].

فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة، والتَّسخُّطُ على القضاء من أسباب الشقاوة.

الحادي والعشرون: أنَّ الرِّضا يُوجِبُ له أنْ لا يأسى على ما فاته، ولا يفرحَ بما آتاه، وذلك مِن أفضلِ خِصالِ الإيمان؛ أمَّا عدمُ أساهُ على الفائت فظاهر، وأمَّا عدمُ فرحِه بما آتاه؛ فلأنَّه يعلم أنَّ المصيبة فيه مكتوبةٌ مِن قبل حصوله، فكيف يفرح بشيء يعلم أنَّ له فيه مصيبةً منتظرة ولا بُدَّ؟

الثاني والعشرون: أنَّ مَن ملأ قلبَه من الرضا بالقدَر؛ ملأ اللهُ صدره غنًى وأمْنًا وقناعة، وفَرَّغ قلبَه لمحبَّتِه، والإنابةِ إليه، والتوكُّلِ عليه، ومَن فاته حظُّه من الرضا: امتلأ قلبُه بضدِّ ذلك، واشتغل عمَّا فيه سعادتُه وفلاحه.

فالرضا يفرِّغُ القلب لله، والسخط يفرِّغُ القلبَ من الله.

الثالث والعشرون: أن الرضا يُثمِرُ الشكرَ، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يُثمر ضِدَّه، وهو كُفرُ النِّعَم، وربَّما أثمر له كفرَ المنعِم، فإذا رضيَ العبدُ عن ربِّه في جميع الحالات: أوجب له ذلك شكرَه، فيكون من الراضين الشاكرين، وإذا فاته الرضا كان من الساخطين، وسلَكَ سبيلَ الكافرين.

الرابع والعشرون: أن الرضا ينفي عنه آفاتِ الحرص والكَلَب على الدنيا، وذلك رأس كلِّ خطيئة، وأصلُ كلِّ بليَّة، وأساس كل رزيَّة، فرِضاه عن ربِّه في جميع الحالاتِ؛ ينفي عنه هذه الآفاتِ.

(١) أخرجه أحمد (١٤٤٤)، والترمذي (٢١٥١)، وقال: «حديثٌ غريبٌ»، والحاكم (١٩٠٣)، وقال: «حديثٌ صحيح الإسناد»، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٩٠٦).

الخامس والعشرون: أن الشيطان إنَّما يَظفَرُ بالإنسان غالبًا عند السخط والشهوة، فهناك يصطادُه، ولا سيَّما إذا استحكم سخطُه، فإنَّه يقول ما لا يُرضي الرَّبَّ، ويفعل ما لا يرضيه، ويَنوي ما لا يرضيه، ولهذا قال النبيُّ ﷺ عند موت ابنِه إبراهيمَ: «**يَحْزَنُ القَلبُ، وتَدمَعُ العَينُ، ولا نَقُولُ إلَّا ما يُرضِي الرَّبَّ**»[(١)]، فإنَّ موت البنينَ من العوارض التي توجب للعبد التَّسخُّطَ على القدَر.

لمَّا مات ابنُ الفُضَيل بنِ عِياضٍ رُئيَ في الجنازة ضاحكًا، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنُك؟ فقال: «إنَّ الله قضى بقضاء فأحببتُ أن أرضى بقضائه».

فأنكرتْ طائفةٌ هذا على الفُضَيل، وقالوا: رسولُ الله ﷺ بكى يوم مات ابنُه، وأخبر أنَّ «**القَلبَ يَحزَنُ، وَالعَينُ تَدمَعُ**»، وهو في أعلى مقامات الرضا، فكيف يُعَدُّ هذا من مناقب الفُضَيل؟.

والتحقيق: أنَّ قلبَ رسولِ الله ﷺ اتَّسَع لتكميل المراتب، من الرضا عن الله، والبكاء رحمةً للصَّبيِّ، فكان له مقامُ الرضا، ومقامُ الرَّحمةِ ورقَّةِ القلب، والفُضَيلُ لم يتَّسِعْ لذلك، فغيَّبه مقامُ الرضا عن مقام الرضا ومقامِ الرحمة، فلم يجتمع له الأمْران. والناس في ذلك على **أربع مراتبَ**:

أحدها: مَنِ اجتمَع له الرضا بالقضاء ورحمةُ الطفل، فدمعتْ عيناه رحمةً والقلبُ راضٍ.

الثاني: مَن غيَّبه الرضا عن الرحمة، فلم يتَّسِعْ للأمْرين، بل غيَّبَه أحدُهما عن الآخر.

الثالث: مَن غيَّبته الرحمةُ والرِّقة عن الرضا فلم يَشهَدْه، بل فنيَ عن الرضا.

الرابع: مَن لا رضا عنده ولا رحمة، وإنَّما كان حزنُه لفوات حظِّه

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

من الميت، وهذا حالُ أكثرِ الخلْق، فلا إحسان، ولا رضا عن الرحمٰن. والله المستعان.

فالأول في أعلى مراتب الرضا، والثاني دونه، والثالث دون الثاني، والرابع هو الساخط.

السادس والعشرون: أنَّ الرضا هو اختيار ما اختاره الله لعبده.

السابع والعشرون: أنَّ الرضا يُخرِج الهوى من القلب؛ فالراضي هواه تبَعٌ لمراد ربِّه منه، أعني: الذي يحبُّه ربُّه ويرضاه، فلا يجتمع الرضا واتِّباعُ الهوى في قلب أبدًا، وإن كان معه شُعبةٌ من هذا وشُعبةٌ من هذا، فهو للغالب عليه منهما.

الثامن والعشرون: أن الرضا عن الله في جميع الحالات يُثمر للعبد رضا الله عنه.

التاسع والعشرون: أن الرضا بالقضاء أشقُّ شيءٍ على النفْس؛ بل هو ذبْحُها في الحقيقة؛ فإنَّه مخالفةُ هواها وطبْعِها وإرادتها، ولا تصير مطمئنةً قطُّ حتى ترضى بالقضاء، فحينئذ تستحق أن يقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

الثلاثون: أنَّ الراضي مُتَلقٍّ أوامرَ ربِّه ـ الدِّينيَّةَ والقدَريَّةَ ـ بالانشراح والتسليم، وطِيبِ النَّفْسِ، والاستسلام.

الحادي والثلاثون: أنَّ المخالفاتِ كلَّها أصلُها من عدم الرضا، والطاعات كلها أصلها من الرضا.

الثاني والثلاثون: أن عدم الرضا يفتح بابَ البدعة.

الثالث والثلاثون: أن الرضا معقد نظامِ الدِّينِ ظاهره وباطنه، فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع:

فتنقسم قسمين: دينيَّة، وكَونيَّة، وهي مأمورات، ومَنهيَّات، ومباحات، ونِعَمٌ مُلِذَّة، وبلايا مؤلِمة، فإنِ استعمل العبدُ الرضا في ذلك كلِّه فقد أخذ بالحظِّ الوافر من الإسلام، وفاز بالقِدح الْمُعلَّى.

الرابع والثلاثون: أن الرضا يخلِّصُ العبدَ مِن مخاصمة الرَّبِّ تعالى في أحكامه وأقضيته.

الخامس والثلاثون: أنَّ جميع ما في الكون أوجبته مشيئةُ الله، وحكمتُه، وملكُه، فهو موجبُ أسمائه وصفاتِه، فمَن لم يَرْضَ بما قضى به ربُّه، لم يَرْضَ بأسمائه وصفاتِه، فلم يَرضَ به ربًّا.

السادس والثلاثون: أنَّ كلَّ قدَرٍ يَكرَهُه العبدُ ولا يُلائِمُه، لا يخلو: إمَّا أن يكون عقوبةً على الذَّنْب، فهو دواء المرض، لولا تدارُكُ الحكيم إيَّاه بالدَّواء لترامى به المرض إلى الهلاك، أو يكونَ سببًا لنعمة لا تُنالُ إلا بذلك المكروه، فإذا شهِدَ العبدُ هذين الأمْرين انفتح له بابُ الرضا عن ربِّه في كلِّ ما يقضيه له ويُقدِّرُه.

السابع والثلاثون: أنَّ حُكم الرَّبِّ تعالى ماضٍ في عبدِه، وقضاؤه عدلٌ فيه، كما في الحديث: «**ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قَضاؤُكَ**»[1]، ومَن لم يَرضَ بالعدل فهو مِن أهل الظُّلم والجَور.

وقوله: «**عَدْلٌ فيَّ قَضاؤُكَ**» يَعُمُّ قضاء الذنب، وقضاءَ أثره وعقوبتِه، فإنَّ الأمْرين من قضائه ﷻ، وهو أعدل العادلينَ في قضائه بالذنب، وفي قضائه بعقوبته.

الثامن والثلاثون: أنَّ عدم الرضا إمَّا أن يكون لفوات ما أخطأه ممَّا يُحِبُّه ويُريده، وإمَّا لإصابة ما يَكرَهُه ويَسخَطُه، فإذا تيقَّنَ أنَّ ما

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢)، وابن حبان (٩٧٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩).

أخطأه لم يكن ليُصيبَه، وما أصابه لم يكن ليُخْطِئَه: فلا فائدةَ في سخطه بعد ذلك إلَّا فواتُ ما ينفعه وحصولُ ما يضرُّه.

التاسع والثلاثون: أن الرضا من أعمال القلوب، نظيرُ الجهاد من أعمال الجوارح، فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما ذِروةُ سنامِ الإيمان.

قال أبو الدَّرْداء: «ذروة سنام الإيمان: الصبرُ للحُكم، والرِّضا بالقدَر».

الأربعون: أنَّ أوَّل معصيةٍ عُصيَ الله بها في هذا العالَم: إنَّما نشأتْ من عدم الرضا، فإبليسُ لم يرضَ بحُكْم الله الذي حَكَم به كونًا، مِن تفضيل آدمَ وتكريمِه، ولا بحُكمِه الدِّينيِّ، مِن أمرِه بالسجود له، وآدمُ لم يَرضَ بما أُبيح له من الجنَّة، حتى يضمَّ إليه الأكلَ من شجرة الحِمى، ثم ترتبت معاصي الذُّرِّيَّة على عدم الصبر والرضا.

الحادي والأربعون: أنَّ الراضي واقفٌ مع اختيار الله له، معرِضٌ عن اختياره لنفْسه، وهذا من قوَّةِ معرفته بربِّه، ومعرفتِه بنفْسِه.

وقد اجتمع وُهَيْبُ بن الوَرْد، وسفيانُ الثَّوريُّ، ويوسفُ بن أسْباط، فقال الثَّوريُّ: «قد كنت أكرَهُ موتَ الفُجاءة قبل اليوم، فأمَّا اليوم: فودِدْتُ أنِّي ميت، فقال له يوسف بن أسباط: ولِمَ؟ فقال: لِما أتخوَّفُ من الفتنة، فقال يوسف: لكنِّي لا أكرَهُ طولَ البقاء، فقال الثَّوريُّ: ولِمَ تكرَهُ الموتَ؟ قال: لعلِّي أصادفُ يومًا أتوبُ فيه وأعملُ عملًا صالحًا، فقيل لوُهَيب: أيُّ شيءٍ تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا، أحبُّ ذلك إليَّ أحبُّه إلى الله، فقَبَّل الثَّوريُّ بين عينيه، وقال: رُوحانيَّةٌ وربِّ الكعبة».

فهذا حال عبدٍ قد استوتْ عنده حالةُ البقاء والموت، وقف مع اختيار الله له منهما.

الثاني والأربعون: أن يعلم أنَّ منْع الله سبحانه لعبده المؤمنِ المحِبِّ له عطاءٌ، وابتلاءَه إيَّاه عافيةٌ.

فالعاقل الراضي: هو الذي يَعُدُّ نعمة الله عليه فيما يكرهه، أعظمَ مِن نِعَمِه عليه فيما يحبُّه، كما قال بعض العارفين: «يا ابنَ آدمَ، نعمةُ الله عليك فيما تَكرَهُ أعظَمُ مِن نعمته عليك فيما تحبُّ، وقد قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]».

وقد قال بعض العارفين: «ارضَ عن الله في جميع ما يفعله بك؛ فإنَّه ما منعك إلَّا ليعطيَك، ولا ابتلاك إلَّا ليعافيَك، ولا أمرضك إلَّا ليشفيَك، ولا أماتك إلَّا ليُحييَك، فإيَّاك أن تفارقَ الرضا عنه طَرفةَ عين، فتسقطَ من عينه».

الثالث والأربعون: أن يعلم أنه سبحانه هو الأوَّلُ قبلَ كلِّ شيء، والآخِرُ بعدَ كلِّ شيء، والْمُظهِر لكلِّ شيء، والمالك لكلِّ شيء، وهو الذي يَخلُقُ ما يشاءُ ويختار، وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه اختيار، ولا يُشرِكُ في حُكمه أحدًا، والعبد لم يكن شيئًا مذكورًا، فهو سبحانه الذي اختار وجودَه، واختار أن يكون كما قدَّرَه له وقضاه: مِن عافية وبلاء، وغنًى وفقر، وعزٍّ وذل، ونباهةٍ وخمول، فكما تفرَّد سبحانه بالخلْق، تفرَّدَ بالاختيار والتقديرِ والتدبير ـ وليس للعبد شيءٌ من ذلك ـ فإنَّ الأمر كلَّه لله، وقد قال تعالى لنبيِّه: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فإذا تيقَّن العبدُ أنَّ الأمر كلَّه لله، وليس له من الأمر قليلٌ ولا كثير، لم يكنْ له مُعَوَّلٌ ـ بعد ذلك ـ غير الرضا بمواقعِ الأقدار، وما يجري به من ربِّه الاختيار.

الرابع والأربعون: أنَّ رضا الله عن العبد أكبرُ من الجنَّة وما فيها؛ لأنَّه صفتُه والجنَّة خلْقُه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: ٧٢] بعد قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التوبة: ٧٢].

وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، فكما كان هذا الجزاءُ أفضلَ الجزاء، كان سببُه أفضلَ الأعمال.

الخامس والأربعون: أنَّ العبد إذا رضيَ به وعنه في جميع الحالات: لم يتخيَّر عليه المسائل، وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدِّرُه ويفعله به عن ذلك، وجعل ذِكرَه في محلِّ سؤاله، بل يكون مِن سؤالِه له الإعانةُ على ذِكره، وبلوغِ رِضاه، فهذا يُعطى أفضلَ ما يُعطاه سائلٌ، كما جاء في الأثر المعروف: «مَن شَغَلَهُ ذِكْري عن مَسْألَتي، أعطَيْتُه أفْضَلَ ما أُعْطي السَّائِلِينَ»[١]. فإنَّ السائلينَ سألوه، فأعطاهم الفضلَ الذي سألوه، والرَّاضون رضُوا عنه فأعطاهم رِضاه عنهم، ولا يمنع الرِّضا سؤالَه أسبابَ الرضا، بل أصحابه مُلِحُّون في سؤاله ذلك.

السادس والأربعون: أنَّ النَّبيَّ كان يندب إلى أعلى المقامات، فإن عجز العبد عنه حطَّه إلى المقام الوَسط، كما قال: «**اعبُدِ اللهَ كأنَّك تَراهُ**»[٢]، فهذا مقام المراقبةِ الجامعُ لمقامات الإسلام والإيمانِ والإحسان، ثم قال: «**فإنْ لمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ**»، فحطَّه عند العجز عن هذا إلى مقام العِلم باطلاعه ورؤيته، ومشاهدتِه لعبده في الملأ والخلاء، وكذا الحديث الآخَر: «**إنِ استَطَعْتَ أنْ تَعمَلَ للهِ بالرِّضَا مع اليَقِينِ فافْعَلْ، فإنْ لمْ تَستَطِعْ فإنَّ في الصَّبرِ على ما تَكْرَهُ خَيرًا كَثيرًا**»[٣]، فرفَعه إلى أعلى المقامات، ثم ردَّه إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى، فالأول: مقام الإحسان، والذي حطَّه إليه: مقامُ الإيمان، وليس دون ذلك إلا مقامُ الخسران.

السابع والأربعون: أنَّه ﷺ أثنى على الرَّاضينَ بمُرِّ القضاء بالحكم والعِلمِ والفقه، والقرْبِ من درجة النُّبوَّة.

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١١٥)، والطبراني في «الدعاء» (١٨٥٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٦٧) من حديث عمر رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٤٩٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥١٠٧).

الثامن والأربعون: أنَّ الرِّضا آخِذٌ بزمام مقاماتِ الدِّين كلِّها، وهو رُوحُها وحياتها؛ فإنَّه رُوحُ التوكُّل وحقيقته، ورُوح اليقين، ورُوح المحبة، وصِفة المُحِبِّ، ودليلُ صِدق المحبَّة، ورُوح الشُّكر ودليله.

قال الرَّبيع بن أنس: «علامةُ حُبِّ الله كثرةُ ذِكره؛ فإنَّك لا تحبُّ شيئًا إلَّا أكثرتَ مِن ذِكره، وعلامة الدِّين الإخلاصُ لله، وعلامةُ الشكر الرِّضا بقدَر الله والتسليمُ لقَضائه».

وقال أحمد بن أبي الحواري: «ذاكرتُ أبا سليمانَ في الخبر المروي: «أوَّلُ [مَن] يُدْعَى إلى الجَنَّةِ الحَمَّادُونَ»[1]، فقال: ويْحَك! ليس هو أن تَحمَدَه على المصيبة وقلبُك يتعصَّى عليك، إذا كنت كذلك فارجع إلى الصابرين، إنَّما الحمد أن تحمده وقلبُك مسَلِّمٌ راضٍ».

فصار الرضا كالرُّوح لهذه المقامات، والأساسِ الذي تنبني عليه، ولا يصحُّ شيءٌ منها بدونه البتَّةَ.

التاسع والأربعون: أن الرضا يقوم له مقامَ كثير من التعبُّدات التي تشُقُّ على البدن، فيكون رِضاهُ أسهلَ عليه، وألَذَّ له، وأرفعَ في درجته.

وقال بعض العارفين: «مَن يتوكل على الله، ويرضى بقدر الله، فقد أقام الإيمان، وفرَّغ يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التي تُصلِح للعبد أمْرَه».

الخمسون: أن الرضا يفتح بابَ حُسنِ الخُلُق مع الله ومع الناس؛ فإنَّ حسن الخُلقِ من الرضا، وسوء الخلق من السخط، وحسن الخلق يبلُغ بصاحبه درجةَ الصائم القائم، وسوء الخلق يأكل الحسناتِ كما تأكُلُ النارُ الحطب.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٨٨)، و«الأوسط» (٣٠٣٣)، و«الكبير» (١٢/ ١٢٣٤٥)، وأبو نعيم (٥/ ٦٩) من حديث ابن عباس بلفظ: «**أوَّلُ مَن يُدْعَى إلى الجنَّةِ: الحَمَّادون الذين يَحمَدون اللهَ على السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ**»، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٦٣٢).

الحادي والخمسون: أنَّ الرِّضا يُثمِرُ سرورَ القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطِيبَ النفْسِ وسكونَها في كلِّ حال، وطمأنينةَ القلب عند كل مُفزِعٍ مُهلِعٍ من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباطَ العبد بقَسْمِه من ربه، وفرحَه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كلِّ شيء، ورضاه منه بما يُجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حُسنِ تدبيره، وكمالِ حكمته، ويُذهِبُ عنه شكوى ربِّه إلى غيره، وتبرُّمَه بأقضيته.

ولهذا سمَّى بعض العارفين الرِّضا: حُسْنَ الخُلقِ مع الله.

وفي أثر إلٰهيٍّ: «ما لأوليائي والهمِّ بالدنيا؟ إنَّ الهمَّ بالدُّنيا يذهب حلاوةَ مناجاتي من قلوبهم».

وقيل: أكثرُ الناسِ همًّا بالدُّنيا أكثرُهم همًّا في الآخرة، وأقلُّهم همًّا بالدنيا أقلُّهم همًّا في الآخرة.

فالإيمان بالقدَر والرضا به يُذهِبُ عن العبد الهمَّ والغمَّ والحزن.

وفي أثرٍ آخَرَ: «أنا اللهُ، لا إلٰهَ إلَّا أنا، قدَّرتُ المَقاديرَ، ودبَّرْتُ التَّدبيرَ، وأحكمْتُ الصُّنعَ، فمَن رضيَ فله الرِّضا منِّي حتَّى يلقاني، ومَن سَخِطَ فله السخط حتَّى يَلْقاني»(١).

الثاني والخمسون: أن أفضل الأحوال: الرَّغبةُ في الله ولوازمها، وذلك لا يتمُّ إلَّا باليقين، والرضا عن الله.

ولهذا قال سهْلٌ: «حظُّ الخلْق من اليقين على قدْر حظِّهم من الرضا، وحظُّهم من الرضا على قدْرِ رغبتِهم في الله».

الثالث والخمسون: أنَّ الرِّضا يُخلِّصه من عيب ما لم يَعِبْه الله، ومِن ذمِّ ما لم يَذُمُّه، ولو أنَّ رجلًا صنع لك طعامًا وقدَّمه إليك فعِبته وذممْتَه، لكنتَ متعرِّضًا لمَقْتِه وإهانتِه، ومستدعيًا منه أن يقطع ذلك عنك.

---

(١) ينظر: «قوت القلوب» (٢/ ٤٧)، «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٤٥)، «إتحاف السادة المتقين» (١٢/ ٥١٩). وقال العراقي: «لم أجده بهذا اللفظ».

الرابع والخمسون: أنَّ النَّبيَّ ﷺ سأل اللهَ الرضا بالقضاء.

كما في المسند والسُّنن: «**اللَّهُمَّ بعِلْمِكَ الغيبَ، وقُدرَتِكَ على الخَلْقِ، أحْيِني إذا كانَتِ الحَياةُ خَيرًا لي، وتَوَفَّني إذا كانَتِ الوَفاةُ خَيرًا لي، وأسألُكَ خَشيَتَكَ في الغَيبِ والشَّهادةِ، وأسألُكَ كَلِمةَ الحَقِّ في الغَضَبِ والرِّضا، وأسألُكَ القَصدَ في الفَقرِ والغِنَى، وأسألُكَ نَعِيمًا لا يَنفَدُ، وأسألُكَ قُرَّةَ عَينٍ لا تَنقَطِعُ، وأسألُكَ الرِّضا بَعدَ القَضاءِ، وأسألُكَ بَرْدَ العَيشِ بَعْدَ المَوتِ، وأسألُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وجْهِكَ، والشَّوقَ إلى لِقائِكَ، في غَيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتْنةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بزِينةِ الإيمانِ، واجعَلْنَا هُداةً مُهتَدِينَ**»[(١)].

فسمِعت شيخ الإسلام ابنَ تيميَّة يقول: «سأل الرِّضا بعد القضاء؛ لأنَّه حينئذ تَبِينُ حقيقةُ الرضا، وأمَّا الرضا قبله: فإنَّما هو عزمٌ على أنَّه يرضى إذا أصابه، وإنَّما يتحقَّقُ الرضا بعده».

قال البَيْهَقيُّ: وروينا في دعاء النبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ الصِّحَّةَ، والعِفَّةَ، والأمانةَ، وحُسْنَ الخُلُقِ، والرِّضا بالقَدَرِ**»[(٢)].

الخامس والخمسون: أنَّ الرضا بالقدر يخلِّصُ العبدَ مِن أن يُرضي الناسَ بسخط الله، وأن يذُمَّهم على ما لم يؤته الله، وأن يَحمَدَهم على ما هو محضُ فضلِ الله.

السادس والخمسون: أنَّ الرضا يفرِّغ قلبَه، ويقلُّ همَّه وغمَّه، فيتفرَّغُ لعبادة ربِّه بقلب خفيفٍ من أثقال الدنيا وهمومِها وغمومها.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (١٣٠٥)، وأبو يعلى (١٦٢٤)، وابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١٩٢٣)، وقال: «حديث صحيح الإسناد» من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٧)، والطبراني في «الدعاء» (١٤٠٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٨١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٩١).

وقال عُمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد تركتني هؤلاء الدَّعوات، وما لي في شيء من الأمور كلِّها أرَبٌ، إلَّا في مواقع قَدَر الله، وكان كثيرًا ما يدعو: اللَّهُمَّ رضِّني بقضائك، وبارِكْ لي في قدَرِك، حتى لا أُحِبَّ تعجيلَ شيء أخَّرْتَه، ولا تأخيرَ شيءٍ عجَّلْتَه».

وقال: «ما أصبح لي هوًى في شيء سِوى ما قضى الله عَزَّ وَجَلَّ».

وقال شُعبةُ: «قال لي يونسُ بنُ عُبيد: ما تمنَّيْتُ شيئًا قطُّ».

وقال الفُضَيل بن عِياض: «الراضي لا يتمنَّى فوق منزلته».

وقال ذو النُّون: «ثلاثةٌ من أعلام التسليم: مقابلة القضاء بالرضا، والصبرُ عند البلاء، والشُّكرُ عند الرخاء. وثلاثة من أعلام التفويض: تعطيلُ إرادتك لمراده، والنظرُ إلى ما يقع من تدبيره لك، وتركُ الاعتراض على الحُكم، وثلاثة من أعلام التوحيد: رؤيةُ كلِّ شيء من الله، وقَبولُ كلِّ شيء عنه، وإضافةُ كلِّ شيء إليه».

وقال بعض العارفين: «أصل العبادة ثلاثة: لا تَرُدَّ مِن أحكامه شيئًا، ولا تسألْ غيرَه حاجة، ولا تدَّخِر عنه شيئًا».

وسُئِل ابن سمعون عن الرضا؟ فقال: «أن ترضى به مدبِّرًا ومختارًا، وترضى عنه قاسمًا ومُعطيًا ومانعًا، وترضاه إلٰهًا ومعبودًا وربًّا».

وقال بعض العارفين: «الرضا تركُ الاختيار، وسرورُ القلب بمُرِّ القضاء، وإسقاط التَّدبيرِ من النَّفْس، حتى يَحكُمَ اللهُ لها أو عليها».

وقيل: الراضي مَن لم يندم على فائتٍ من الدنيا، ولم يتأسَّفْ عليها.

ولله درُّ القائل:

العَبدُ ذُو ضَجَرٍ والرَّبُّ ذُو قَدَرٍ ... والدَّهرُ ذُو دُوَلٍ والرِّزْقُ مَقْسُومُ

والخَيرُ أجْمَعُ فيما اختارَ خالِقُنا ... وفي اختِيارِ سِواهُ اللَّومُ والشُّومُ

السابع والخمسون: أنَّه إذا لم يَرضَ بالقدَر وقع في لَومِ المقادير،

إمَّا بقالَبه، وإما بقلبه وحالِه، ولَومُ المقادير لَومٌ لمقَدِّرها، وكذلك يقع في لَوم الخلْق، واللهُ والناسُ يَلومونه، فلا يزال لائمًا مَلومًا، وهذا منافٍ للعبودية.

قال أنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**خَدَمْتُ رسولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فما قال لي لِشَيءٍ فَعَلْتُه: لِمَ فَعَلْتَه؟ ولا لِشَيءٍ لَمْ أفعَلْهُ: ألا فَعَلْتَه؟ ولا قال لي لِشَيءٍ كان: لَيْتَهُ لمْ يَكُنْ، ولا لِشَيءٍ لمْ يَكُنْ: لَيْتَهُ كان، وكان بَعضُ أهْلِه إذا لَامَنِي يَقُولُ: دَعُوهُ، فلو قُضِيَ [شَيءٌ] لكانَ**»[1].

وقوله: «لو قُضِيَ شَيءٌ لكانَ» يتناول **أمْرين**:

أحدهما: ما لم يوجَدْ مِن مراد العبد.

والثاني: ما وُجد ممَّا يَكرَهُه، وهو يتناول فواتَ المحبوب، وحصولَ المكروه.

وهذا موجب العبودية ومقتضاها. يوضِّحُه:

الثامن والخمسون: أنَّه إذا استوى الأمْران بالنِّسبة إلى رضا الرَّبِّ تعالى، فهذا رَضِيَه لعبدِه فقدَّرَه، وهذا لم يَرضَه له فلم يقدِّرْه، فكمال الموافقة أنْ يستويا بالنِّسبة إلى العبد، فيرضى ما رضِيَه له ربُّه في الحالين.

التاسع والخمسون: أنَّ الله نهى عن التَّقدُّم بين يديه ويدَيْ رسولِه في حُكمه الدِّينيِّ الشَّرعيِّ، وذلك عبوديَّةُ هذا الأمر.

الستون: أنَّ المحبَّةَ والإخلاص والإنابة: لا تقوم إلا على ساق الرضا.

فالمحِبُّ راضٍ عن حبيبه في كلِّ حالة، وقد كان عِمرانُ بنُ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ استُسقى بطنُه، فبقيَ ملقًى على ظهره مدةً طويلة، لا يقوم ولا يقعد، وقد نُقب له في سريره موضعٌ لحاجته، فدخل عليه مُطَرِّف بن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

عبد الله بنِ الشِّخِّير، فجعل يبكي لِما رأى من حاله، فقال له عِمْران: «لِمَ تبكي؟ فقال: لأنِّي أراك على هذه الحالِ العظيمة، فقال: لا تَبْكِ، فإنَّ أحبَّه إليَّ أحبُّه إليه، وقال: أُخبِرُك بشيء، لعلَّ اللهَ أن ينفعَك به، واكتُمْ عليَّ حتى أموت، إنَّ الملائكة تزورني فآنَسُ بها، وتُسلِّمُ عليَّ فأسمَعُ تسليمَها».

ولما قَدِمَ سعدُ بن أبي وقَّاص إلى مكَّةَ ـ وقد كُفَّ بصرُه ـ جعَل الناسُ يُهرَعون إليه ليدعوَ لهم، فجعل يَدعو لهم، قال عبدُ الله بن السائب: «فأتيْتُه وأنا غُلام، فتعرَّفْتُ إليه، فعرَفني، فقلتُ: يا عمِّ، أنت تدْعو للناس فيُشفون، فلو دعوْتَ لنفْسِك لَرَدَّ اللهُ عليك بصرَك، فتبسَّم، ثم قال: يا بُنيَّ، قضاء اللهِ أحبُّ إليَّ من بَصري».

الحادي والستون: أنَّ أعمال الجوارحِ تُضاعَفُ إلى حدٍّ معلوم محسوب، وأمَّا أعمالُ القلوب فلا ينتهي تضعيفُها؛ وذلك أنَّ أعمال الجوارح لها حدٌّ تنتهي إليه، وتقفُ عنده، فيكون جزاؤُها بحسَب حدِّها، وأمَّا أعمالُ القلوب فهي دائمة متَّصِلة، وإنْ توارى شهودُ العبد لها.

مثاله: أن المحبَّة والرضا حال المحبِّ الراضي، لا تفارِقُه أصلًا، وإنْ توارى حُكمُها، فصاحبُها في مزيدٍ متَّصِل؛ فمزيدُ المحِبِّ الراضي متَّصِلٌ بدوام هذه الحال له، فهو في مزيد، ولو فترتْ جوارحُه، بل قد يكون مزيدُه في حال سكونِه وفتورِه أكثرَ مِن مزيد كثيرٍ من أهل النوافل بما لا نسبة بينهما، ويَبلُغُ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزيدُه في حال نومه أكثرَ من مزيد كثيرٍ من أهل القيام، وأكْله أكثر من مزيد كثير مِن أهل الصيام والجوع.

فإنْ أنكرْتَ هذا فتأمَّلْ مزيدَ نائمٍ بالله، وقيامَ غافلٍ عن الله، فالله سبحانه إنَّما ينظر إلى القلوب، والهِمَمِ والعزائم، لا إلى صوَرِ الأعمال.

وقيمة العبد: هِمَّته وإرادتُه، فمَن لا يرضيه غيرُ الله ـ ولو أُعطيَ الدُّنيا بحذافيرها ـ له شأنٌ، ومَن يرضيه أدنى حظٍّ من حظوظها له شأن، وإن كانت أعمالُهما في الصورة الواحدة، وقد تكون أعمالُ هذا أكثرَ وأشقَّ، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فلنرجِع إلى شرح كلامه.

الخصومة تنافي حال الرضا

قال: (**الثَّاني: سُقُوطُ الخُصُومةِ عنِ الخَلْقِ**).

يعني: أن الرضا إنما يصحُّ بسقوط الخصومة مع الخلْق، فإنَّ الخصومة تنافي حالَ الرضا، وتنافي نسبةَ الأشياءِ كلِّها إلى مَن بيده أزِمَّةُ القضاء والقدَر.

الإلحاح على المخلوقين ينافي حال الرضا

قال: (**الشَّرْطُ الثَّالثُ: الخَلاصُ مِنَ المَسألةِ لَهُمْ والإلحاحِ**).

وذلك: لأن المسألة والإلحاحَ فيها ضربٌ من الخصومة، والمنازعة والمحاربة، والرجوع عن مالك الضرِّ والنفعِ إلى مَن لا يَملِكُ لنفْسِه ضرًّا ولا نفعًا إلا بربِّه، وفيها الغَيبةُ عن المعطي المانع.

والإلحاحُ ينافي حالَ الرضا ووصْفَه، وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناسَ إلحافًا، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

قال ابن عباس: «إذا كان عنده غداءٌ لم يَسألْ عَشاءً، وإذا كان عنده عشاءٌ لم يسألْ غداءً».

فهذا أحد المعنيَينِ في قوله: (**إنَّ مِن شُرُوطِ الرِّضا: تَرْكَ الإلحاحِ في المَسألَةِ**) وهو ألْيَقُ المعنيينِ وأوْلاهما؛ لأنَّه قرنه بتركِ الخصومة مع الخلْق، فلا يخاصمهم في حقِّه، ولا يطلب منهم حقوقَه.

الإلحاح في الدعاء عين العبودية

والمعنى الثاني: أنَّه لا يُلِحُّ في الدُّعاء، ولا يُبالِغ فيه، فإنَّ ذلك يقدح في رِضاه، وهذا يَصِحُّ من وجهٍ دون وجه؛ فيصحُّ إذا كان الدَّاعي يُلِحُّ في الدعاء بأغراضِه وحظوظِه العاجلة، وأمَّا إذا ألحَّ على الله في سؤاله ما فيه رِضاه والقُربُ منه: فإنَّ ذلك لا يَقدَحُ في مقام الرضا أصلًا.

وفي الأثر: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ في الدُّعاءِ»[(١)].

وقال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ـ يومَ بدرٍ ـ للنبيِّ ﷺ: «يا رسولَ اللهِ، قد أَلْحَحْتَ على رَبِّكَ، كَفاكَ بَعضُ مُناشَدَتِكَ لِرَبِّكَ»[(٢)]، فهذا الإلحاحُ عينُ العبودية.

وفي «سنن ابن ماجَهْ» من حديث أبي صالح عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن لَمْ يَسألِ اللهَ يَغضَبْ عليهِ»**[(٣)].

فإذا كان سؤالُه يرضيه لم يكنِ الإلحاحُ فيه منافيًا لرِضاه.

الرضا برضا الله تعالى

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: الرِّضَا برِضَا اللهِ، فلا يَرَى العَبدُ لِنَفْسِه سُخْطًا، ولا رِضًا، فيَبْعَثُه على تَرْكِ التَّحَكُّمِ، وحَسْمِ الاختِيارِ، وإسقاطِ التَّمييزِ، ولو أُدخِلَ النَّارَ)**.

إنَّما كانت هذه الدرجةُ أعلى ممَّا قبلها من الدَّرجات عنده: لأنَّها درجةُ صاحب الجمْع، الفاني بربِّه عن نفْسِه وعمَّا منها، قد غيَّبه شاهدُ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٢٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٦٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٧٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٦٣٧): «باطل».

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣)، والترمذي (٣٠٨١) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، والحاكم (١٨٠٧)، وقال: «حديث صحيح الإسناد» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤١٨).

رضا الله بالأشياء في وقوعها على مقتضى مشيئتِه عن شاهد رِضاهُ هو، فيشهد الرضا لله ومنه حقيقةً، ويرى نفْسَه فانيًا، ذاهبًا مفقودًا، فهو يستوحش من نفْسِه، ومن صفاتها، ومن رضاها، وسخطِها، فهو عاملٌ على التغيُّب عن وجوده وعمَّا منه، هذا تقديرُ كلامِه.



منزلة الشكر

وهي من أعلى المنازل، وهي فوقَ منزلة الرضا وزيادة؛ فالرضا مُندرِجٌ في الشكر؛ إذ يَستحيلُ وجودُ الشكر بدونه، وهو نصفُ الإيمان ـ كما تقدَّم ـ والإيمان نصفان: نصف شُكْر، ونصف صَبْر، وقد أمَر اللهُ به، ونهى عن ضدِّه، وأثْنى على أهله، ووصفَ به خواصَّ خَلْقه، وجعله غايةَ خَلقِه وأمْرِه، ووعَد أهلَه بأحسَنِ جزائه، وجعله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لِنعمته، وأخبَر أنَّ أهله هُمُ المُنتفِعون بآياته، واشتَقَّ لهم اسمًا من أسمائه؛ فإنه سبحانه هو الشَّكور، وهو مُوصِل الشاكر إلى مشكوره، بل يُعيد الشاكرَ مشكورًا، وهو غاية رضا الرَّبِّ من عبده.

قال الله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل: ١١٤].

وقال عن خليله إبراهيمَ ﷺ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢١].

وقال: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾ [إبراهيم: ٥]، وقلَّة أهلِه في العالَمين تدلُّ على أنهم هم خواصُّه؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣].

وفي «الصَّحيحين» عن النبيِّ ﷺ: «**أنَّه قامَ حتَّى تَورَّمَتْ قَدَماه، فقيل له: تَفعَلُ هذا وقد غَفَر اللهُ لَك ما تَقدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تَأخَّرَ؟ قال: أفلا أكُونُ عَبْدًا شَكورًا؟**»[1]. وقال لمُعاذ: «**واللهِ يا مُعاذُ، إنِّي لَأُحِبُّك؛**

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

فلا تَنْسَ أنْ تَقولَ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ: اللَّهُمَّ أعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسْنِ عِبادَتِكَ»[(١)].

* * *

وأصل الشُّكر في وضع اللِّسان: ظهورُ أثرِ الغِذاء في أبدان الحيوان ظُهورًا بَيِّنًا، يقال: شَكِرَتِ الدَّابَّةُ تَشْكَرُ شَكَرًا، على وزن: سَمِنَتْ تَسْمَنُ سَمَنًا: إذا ظَهر عليها أثرُ العَلَف، ودابَّةٌ شَكورٌ: إذا ظَهر عليها مِن السِّمن فوق ما تأكل وتُعطى من العَلَف.

وكذلك حقيقتُه في العبودية، وهو ظهورُ أثرِ نعمةِ الله على لسان عبدِه: ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبَّةً، وعلى جوارحِه انقيادًا وطاعةً.

الشكر مبني على خمس قواعد

والشُّكْر مَبنيٌّ على خمسِ قواعدَ: خضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافُه بنعمته، والثناءُ عليه بها، وألَّا يستعملها فيما يَكْرَه.

فهذه الخمسة: هي أساس الشكر، وبِناؤُه عليها، فمتى عُدِمَ منها واحدة: اختلَّ مِن قواعد الشكر قاعدةٌ.

وكل مَن تكلَّم في الشُّكْر وحدِّه، فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور.

فقيل: حدُّه أنه الاعترافُ بنِعمة المُنعِم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناءُ على المُحسِن بذِكْر إحسانه.

وقيل: هو عُكوفُ القلب على محبَّة المُنعِم، والجوارح على طاعته، وجَريان اللِّسان بذِكْره، والثناء عليه.

وما ألطفَ ما قال حَمدونُ القَصَّارُ: شُكْرُ النعمة أن ترى نفْسَك فيها طُفَيْليًّا!

(١) أبو داود (١٥٢٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٥٢٢).

وقال أبو عثمانَ: «الشُّكر معرفة العَجْز عن الشكر».

وقال الجُنَيد: «الشُّكْرُ أن لا ترى نفْسَك أهلًا للنِّعمة».

هذا معنى قول حَمدون أن يرى نفْسَه فيها طُفيليًّا.

وقال داودُ: يا ربِّ، كيف أشكُرك؟ وشُكْري نِعمةٌ عليَّ من عندك تَستوجِب بها شُكْرًا؟! فقال: الآن شَكَرْتَني يا داودُ.

وقال الجُنَيد ـ وقد سأله سَرِيٌّ عن الشكر، وهو صَبيٌّ بَعدُ ـ: «الشُّكْرُ: أن لا يُستعانَ بشيء من نِعم الله على معاصيه، فقال: مِن أين لك هذا؟ قال: مِن مُجالستِك».

***

الفَرقُ بين الحمد والشكر

وتكلَّم الناسُ في الفَرقِ بين الحمد والشكر أيُّهما أعلى وأفضلُ؟

والفَرقُ بينهما: أن الشُّكرَ أعمُّ من جِهةِ أنواعِه وأسبابِه، وأخصُّ مِن جِهة مُتعلَّقاته، والحمد أعمُّ من جِهة المُتعلَّقات، وأخصُّ من جِهة الأسباب، ومعنى هذا: أن الشُّكْر يكونُ بالقلب خُضوعًا واستِكانةً، وباللسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا، ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتية.

قال صاحب «المنازل»: **(الشُّكْرُ: اسْمٌ لمَعرِفةِ النِّعمةِ؛ لأنَّها السَّبيلُ إلى مَعرِفةِ المُنْعِمِ؛ ولهذا سَمَّى اللهُ تعالى الإسلامَ والإيمانَ في القُرآنِ شُكْرًا)**.

معرفة النعمة ركنٌ من أركان الشكر

معرفة النعمة: ركنٌ من أركان الشكر، لا أنها جُملةُ الشكر، كما تقدَّم: لكن لَمَّا كان معرفتُها ركنَ الشكر الأعظم، الذي يَستحيلُ وجودُ الشُّكْر بدونه: جُعِل أحدُهما اسمًا للآخَر.

قوله: **(لأنَّه السَّبيلُ إلى مَعرِفةِ المُنعِمِ)**؛ يعني: أنه إذا عَرَفَ النعمةَ توصَّل بمعرفتها إلى معرفة المُنعِم بها.

وهذا من جِهة معرفةِ كونها نعمةً، لا من أي جِهة عرَفها بها، ومتى عَرَفَ المُنعِمَ أحبَّه، وجدَّ في طلبِه؛ فإن مَن عرَف اللهَ أحبَّه لا مَحالةَ، ومَن عرَف الدنيا أبغَضها لا محالةَ.

وعلى هذا؛ يكون قوله: (**الشُّكْرُ اسْمٌ لِمَعرِفةِ النِّعمةِ**) مُستلزِمًا لمعرفة المُنعِم، ومعرفته تَستلزِم محبَّتَه، ومحبَّتُه تَستلزِم شُكْرَه.

معاني الشُّكر ثلاثة أشياء

قال: (**ومَعاني الشُّكْرِ ثَلاثةُ أشياءَ: مَعرِفةُ النِّعمةِ، ثمَّ قَبُولُ النِّعمةِ، ثمَّ الثَّناءُ بها**).

فمعرفتُها: تحصيلها ذِهنًا، كما حصلت له خارجًا؛ إذ كثيرٌ من الناس يُحسَن إليه وهو لا يدري؛ فلا يَصِحُّ من هذا الشكر.

قوله: (**ثمَّ قَبُولُ النِّعمةِ**) قَبُولها: هو تلقِّيها من المُنعِم بإظهار الفقرِ والفاقَةِ إليها، وأن وصولَها إليه بغير استحقاق منه، ولا بَذْل ثَمَنٍ.

قوله: (**ثُمَّ الثَّناءُ بها**): الثناء على المُنعِم، المُتعلِّق بالنعمة نوعان: عامٌّ، وخاصٌّ، فالعامُّ: وصْفه بالجود والكرم، والبِرِّ والإحسان، وسَعة العطاء، ونحو ذلك.

والخاصُّ: التحدُّث بنِعمته، والإخبارُ بوصولها إليه من جِهته؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضُّحى: ١١].

وفي هذا التحديث المأمور به **قولان**:

أحدهما: أنه ذِكْر النِّعمة، والإخبارُ بها، وقوله: أنعم الله عليَّ بكذا وكذا.

والقول الثاني: التحدُّث بالنعمة المأمورُ به في هذه الآية: هو الدَّعوةُ إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأُمَّةِ.

والصواب: أنه يَعُمُّ النوعين؛ إذ كلٌّ منهما نِعمةٌ مأمور بشُكْرها والتحدُّث بها، وإظهارُها مِن شُكْرها.

* * *

درجات الشكر

قال: (**وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولَى: الشُّكْرُ على المَحابِّ، وهذا شُكْرٌ تَشارَكَتْ فيه المُسلِمونَ واليَهودُ والنَّصارى والمَجوسُ، ومِن سَعَةِ رحمةِ الباري سبحانَه: أنَّه عَدَّهُ شُكْرًا، ووعَدَ عليهِ الزِّيادةَ، وأوجَبَ فيه المَثوبةَ).

وهذا بلا شكٍّ يُوجِب حِفْظَها عليهم والمزيدَ منها، وقد تكون ثمرتُه في الدنيا بعاجل الثواب، وفي الآخرة: بتخفيف العقاب.

الشُّكر في المكاره

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: الشُّكْرُ في المَكارِهِ، وهذا ممَّن تَستَوي عِندَه الحالاتُ: إظْهارًا للرِّضا، وممَّن يُمَيِّزُ بيْن الأحوالِ: كَظْمِ الغَيظِ، والشَّكوى، ورِعايةِ الأدبِ، وسُلوكِ مَسْلَكِ العِلْمِ**).

ولا يكون إلا من أحد رجلين:

إمَّا رجل لا يُميِّز بين الحالات، بل يستوي عنده المكروهُ والمحبوبُ؛ فشُكْر هذا إظهارٌ منه للرضا بما نزل به، وهذا مَقامُ الرضا.

الرجل الثاني: من يُميِّز بين الأحوال، فهو لا يُحبُّ المكروهَ، ولا يرضى بنزوله به، فإذا نزل به مكروهٌ شَكَرَ اللهَ تعالى عليه، فكان شُكره كَظْمًا للغيظ الذي أصابه، وسَتْرًا للشكوى، ورعايةً منه للأدبِ، وسُلوكًا لمَسلَك العِلم؛ فإنَّ العلمَ والأدبَ يأمرانِ بشُكر الله على السَّراء والضَّراء، فهو يَسلُك بهذا الشكرِ مَسلَكَ العِلم؛ لا أنه شاكرٌ لله شُكْرَ مَن رَضِي بقضائه، كحال الذي قبله، فالذي قبله أرفَعُ منه.

الاستغراق في شهود المُنعِم عن النِّعمة

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: ألَّا يَشهَدَ العَبدُ إلَّا المُنْعِمَ، فإذا شَهِدَ المُنعِمَ عُبوديَّةً: استَعظَمَ منهُ النِّعمةَ. وإذا شَهِدَه حُبًّا: استَحلى منهُ الشِّدَّةَ**).

هذه الدرجة يَستغرِق صاحبُها بشهود المُنعِم عن النِّعمة، فلا يتَّسِع شُهودُه للمُنعِم ولغيره.

وقَسَّم أصحابها إلى: أصحاب شهود العبودية، وأصحاب شهود الحبِّ.

وجعل لكل منهم حُكْمًا، هو أوْلى به.

فأما شهوده عبودية: فهو مُشاهَدة العبد للسيِّد بحقيقة العبودية والمُلْكِ له؛ فإن العبيدَ إذا حضروا بين يدي سيِّدهم؛ فإنهم يَنسَون ما هم فيه من الجاه، والقُرب الذي اختُصُّوا به عن غيرهم باستِغراقهم في أدبِ العبودية وحقِّها، وملاحظتهم لسيِّدهم، خوفًا أن يشير إليهم بأمْر،

فيجدهم غافلين عن ملاحظته، وهذا أمرٌ يعرفه مَن شاهَد أحوالَ الملوك وخواصِّهم.

فهذا هو شهود العبد للمُنعِم بوصف عبوديَّته له، واستغراقه عن الإحساس بما حصل له منه من القرب الذي تَمَّيز به عن غيره.

فصاحب هذا المشهد: إذا أنعم عليه سيَّدُه في هذه الحال ـ مع قيامه في مقام العبودية ـ يُوجِب عليه أن يَستصغِر نَفسَه في حضرة سيِّده غايةَ الاستصغار، مع امتلاء قلبه من محبَّته، فأي إحسانٌ ناله منه في هذه الحالة، رآه عظيمًا.

والواقع شاهِدٌ بهذا في حال المحبِّ الكامل المَحبَّة، المُستغرِق في مشاهدة محبوبه إذا ناوَله شيئًا يسيرًا، فإنه يراه في ذلك المقام عظيمًا جدًّا، ولا يراه غيرُه كذلك.

القسم الثاني: يَشهَد الحقَّ شُهودَ محبَّة غالبة قاهرة له، مُستغرِق في شهوده كذلك؛ فإنه يستحلي في هذه الحال الشدَّةَ منه؛ لأن المُحِبَّ يستحلي فِعْلَ المحبوب به.

وأقل ما في هذا المشهد: أن يخِفَّ عليه حِملُ الشدائد، إنْ لم تسمح نفسُه باستحلائها، وهذه الحال عارضة ليست بلازمة؛ فإن الطبيعة تأبى استحلاء المنافي كاستحلاء الموافق.

نعم؛ قد يقوى سلطانُ المحبَّة حتى يستحلي المحبُّ ما يَستمِرُّه غيرُه، ويَستخِفَّ ما يستثقله غيره؛ لذلك يأنسُ بما يَستوحِش منه الخَلِيُّ، ويَستوحِش مما يأنس به، ويَستلِين ما يَستوعِره، وقوَّة هذا وضَعْفه بحَسَب قَهْرِ سلطان المحبَّة، وغلبتِه على قلب المُحبِّ.





منزلة الحياء

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١] وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩] [وقال تعالى:] ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ [العلق: ١٤].

وفي «الصحيح» من حديث ابن عُمرَ رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مَرَّ برَجُلٍ ـ وهو يَعِظُ أخاهُ في الحَياءِ ـ فقال: «**دَعْهُ؛ فإنَّ الحياءَ مِن الإيمانِ**»(١).

وفيهما عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه: «**كان رَسولُ الله ﷺ أشَدَّ حَياءً مِنَ العَذْراءِ في خِدْرِها، فإذا رأى شَيئًا يَكْرَهُه عَرَفْناهُ في وَجْهِه**»(٢).

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «**إنَّ ممَّا أدرَكَ النَّاسَ مِن كلامِ النُّبوَّةِ الأُولى: إذا لَمْ تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ**»(٣)، وفي هذا **قولان**:

أحدهما: أنه أمرُ تهديدٍ، ومعناه الخبر؛ أي: مَن لم يَستحي صنَع ما شاء.

والثاني: أنه أمْرُ إباحة؛ أي: انْظُر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله؛ فإن كان مما لا يُسْتحيا منه فافعلْه. والأوَّل أصحُّ، وهو قول الأكثرين.

وفي التِّرمذيِّ مرفوعًا: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَياءِ**»، قالوا: إنَّا نَستَحي يا رسولَ اللهِ، قال: «**ليس ذلِكُم، ولكنْ مَنِ استَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَياءِ فلْيَحْفَظِ الرَّأسَ وما وَعى، ولْيَحفَظِ البَطْنَ وما حَوى، ولْيَذْكُرِ**

(١) أخرجه البخاري (٢٤)، ومسلم (٣٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٤) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

المَوتَ والبِلى، ومَن أرادَ الآخِرةَ تَرَكَ زِينةَ الدُّنيا، فمَن فَعَلَ ذلكَ فقدِ استَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَياءِ»(١).

* * *

تعريف الحياء والأقوال المأثورة فيه

والحياء من الحياة، ومنه الحَيا للمطر، لكنه مقصورٌ، وعلى حَسَب حياة القلب يكون فيه قوَّة خُلُقِ الحياء، وقِلَّة الحياء من موت القلب والرُّوح، فكلما كان القلبُ أحيى، كان الحياءُ أتمَّ.

قال الجُنَيد رَحِمَهُ اللهُ: «الحياءُ رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولَّد بينهما حالةٌ تُسمَّى الحياءَ، وحقيقتُه خُلُقٌ يَبعَثُ على تَرْكِ القبائح، ويَمنَع التَّفريطَ في حقِّ صاحب الحقِّ».

ومن كلام بعض الحكماء: «أحْيوا الحَياءَ بمجالَسة مَن يُستحيا منه»، وعمارةُ القلب: بالهَيْبة والحياء، فإذا ذهبا من القلب لم يبقَ فيه خيرٌ.

وقال ذو النُّونِ: «الحياءُ وجودُ الهَيْبةِ في القلب مع وحْشة ما سبَق منك إلى ربِّك، والحبُّ يُنطِق والحياءُ يُسكِتُ، والخوف يُقلِق».

وقال السَّريُّ: «إنَّ الحياءَ والأُنسَ يَطرُقان القلبَ، فإنْ وجَدا فيه الزُّهدَ والورعَ وإلَّا رحَلَا».

وفي أثرٍ إلٰهيٍّ: «**يَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ابنَ آدَمَ، إنَّكَ ما استَحْيَيْتَ مِنِّي أنسَيْتُ النَّاسَ عُيوبَكَ، وأنسَيْتُ بِقاعَ الأرضِ ذُنوبَكَ، ومَحَوْتُ مِن أُمِّ الكِتابِ زَلَّاتِكَ، وإلَّا ناقَشْتُكَ الحِسابَ يومَ القيامةِ**»(٢).

وقال الفُضَيل بن عِياضٍ: «خَمسٌ من علامات الشَّقْوةِ: القسوةُ في

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧١)، والترمذي (٢٤٥٨)، والحاكم (٧٩١٥)، وقال: «حديث صحيح الإسناد» من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسَّنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٦٠٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٦١)، بسنده عن أبي سليمان الداراني يقول: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ...».

القلب، وجُمودُ العين، وقِلَّةُ الحياء، والرغبةُ في الدنيا، وطولُ الأمل».

وفي أثَرٍ إلٰهيٍّ: «**ما أنصَفَني عبدي، يدْعوني فأستحيي أنْ أرُدَّه، ويَعصيني ولا يستحيي منِّي**»[(١)].

وقال يَحيى بنُ مُعاذ: «مَنِ استحيا مِن الله مُطيعًا: استحيا منه وهو مُذنِبٌ».

دوافع الحياء وأسبابه

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح؛ ومعناه: أنَّ مَن غَلَب عليه خُلُقُ الحياء من الله حتى في حال طاعتِه، فقلبه مُطرِقٌ بين يديه إطراق مُستحٍ خَجِلٍ: فإنه إذا واقَع ذنبًا استحيا الله ﷻ مِن نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه، فيستحيي أن يرى مِن وليِّه ومَن يَكرُم عليه ما يَشينُه عنده، وفي الشاهد شاهدٌ بذلك؛ فإنَّ الرجُلَ إذا اطَّلع على أخصِّ الناس به، وأحبِّهم إليه، وأقربِهم منه ـ من صاحب، أو ولد، أو مَن يحبُّه ـ وهو يخونه، فإنه يَلحَقه من ذلك الاطلاعِ عليه حياءٌ عجيبٌ، حتى كأنه هو الجاني، وهذا غايةُ الكرم.

وقد قيل: إنَّ سببَ هذا الحياءِ أنَّه يُمثِّل نَفسَه في حال طاعتِه كأنَّه يعصي اللهَ ﷻ، فيستحيي منه في تلك الحال، ولهذا شُرع الاستغفارُ عَقِيب الأعمالِ الصالحة، والقُرَبِ التي يَتقرَّب بها العبدُ إلى الله ﷻ.

وقيل: إنَّه يمثِّل نفْسَه خائنًا، فيلحقه الحياء، كما إذا شاهَد رجلًا مضروبًا وهو صديق له، أو مَن قد أُحصِر على المنبَر عن الكلام؛ فإنه يَخجُل أيضًا، تمثيلًا لنفسه بتلك الحال، وهذا قد يقع، ولكن حياء مَنِ اطَّلع على محبوب له يخونه ليس من هذا؛ فإنه لو اطَّلع على غيره ممَّن هو فارغ البال منه، لم يَلْحَقْه هذا الحياءُ ولا قريبٌ منه، وإنَّما يلحقه مَقْتُه وسقوطُه من عينه، وإنَّما سببه ـ والله أعلم ـ شدَّة تعلُّق قلبِه ونفْسه به، فينزل الوهمُ فِعلَه بمنزلة فِعلِه هو، ولا سيما إن قُدِّر حصولُ المُكاشَفة بينهما؛ فإنَّ عند حصولها يَهيجُ

(١) ذكره القشيري في «الرسالة» (٢/ ٣٧٠).

خُلُقُ الحياء منه تكرُّمًا، فعند تقديرها يَنبعُث الحياءُ، هذا في حقِّ الشاهد.

وأما حياء الربِّ من عبده: فذاك نوع آخَرُ، لا تُدرِكه الأفهامُ، ولا تُكيِّفه العقولُ؛ فإنه حياءُ كرم وبرٍّ وجود وجلال؛ فإنه حييٌّ كريمٌ يَستحيي من عبده إذا رفَع إليه يديْه أنْ يُردَّهما صِفرًا، ويستحيي أن يُعذِّبَ ذا شَيْبةٍ شابتْ في الإسلام.

وكان يحيى بن مُعاذ يقول: «سبحان مَن يُذنِب عبدُه ويستحيي هو».

أوجه الحياء

وقد قسم الحياءَ على عشرةِ أوْجه: حياء جِناية، وحياء تقصير، وحياء جَلالٍ، وحياء كَرَم، وحياء حِشْمةٍ، وحياء استِصغار للنَّفس واحتِقار لها، وحياء محبَّةٍ، وحياء عبوديَّة، وحياء شرف وعِزَّة، وحياء المُستحيي من نَفْسه.

فأمَّا **حياء الجناية**: فمنه حياء آدم عليه السلام، لَمَّا فرَّ هاربًا في الجنة، قال الله تعالى: «**أفِرارًا مِنِّي يا آدَمُ؟ قال: لا يا ربِّ، بل حَياءً مِنكَ**»(١).

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يُسبِّحون الليل والنهار لا يَفتُرون، فإذا كان يومُ القيامة قالوا: «**سُبْحانَك! ما عبدناك حقَّ عبادتِك**».

وحياء الإجلال: هو حياء معرفة، وعلى حَسَب معرفة العبد بربِّه يكون حياؤه منه.

---

(١) أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٨٥٢)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٣١٠) عن أُبَي بن كعب موقوفًا، وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١١٣) عن مجاهد مقطوعًا. وقال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٢٨٢): «هذا منقطع بين الحسن وأُبي بن كعب، فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضًا».

وحياء الكرم: كحياء النبيِّ ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وَليمةِ زَينبَ، وطَوَّلوا عنده، **فقام واستحيا أن يقول لهم: انصرفوا**(١).

وحياء الحشمة: كحياء عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أن يسأل رسول الله ﷺ عن المَذْي؛ لمكان ابنتِه مِنه(٢).

وحياء الاستِحقار واستِصغار النَّفْس: كحياء العبدِ من ربِّه عز وجل حين يسأله حوائجه، احتِقارًا لشأن نَفْسِه، واستِصغارًا لها، وفي أثر إسرائيليٍّ: «إنَّ موسى قال: يا ربِّ، إنَّه لتَعرِضُ ليَ الحاجةُ مِنَ الدُّنيا، فأستَحيي أنْ أسألَكَ يا ربِّ، فقال اللهُ تعالى: سَلْني حتَّى مِلْحَ عَجينِكَ، وعَلَفَ شاتِكَ»(٣).

وقد يكون لهذا النَّوعِ من الحياء **سببان**:

أحدهما: استحقار السَّائلِ نفْسَه.

الثاني: استعظامُه مسؤولَه.

وأما **حياء المحبَّة**: فهو حياء المحبِّ من محبوبه، حتى إنَّه إذا خَطَر على قلبه في حال غَيْبتِه هاج الحياءُ من قلبه، وأحسَّ به في وجْهه، ولا يدري ما سببه، وكذلك يَعرِض للمحبِّ عند ملاقاتِه محبوبه ومفاجأته له روعةٌ شديدةٌ، ومنه قولهم: جمال رائع، وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثرُ الناس، ولا ريبَ أن للمحبَّة سُلطانًا قاهرًا للقلب أعظمُ من سلطان من يَقهَر البدنَ، فأين مَن يقهر قلبَك ورُوحَك إلى مَن يَقهَر بدنَك؟ ولذلك تعجَّبَتِ الملوكُ والجبابرةُ مِن قَهْرهم للخَلْقِ وقَهْرِ المحبوبِ لهم، وذُلِّهم له، فإذا فاجأ المحبوبُ مُحِبَّه ورآه بَغْتةً، أحسَّ القلبُ بهجوم سلطانه عليه، فاعتراه روعةٌ وخوفٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩)، ومسلم (٣٠٣) من حديث عليٍّ رضي الله عنه.

(٣) ذكره القشيري في «الرسالة» (٢/ ٣٦٩).

وسألنا يومًا شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ عن هذه المسألة؟ فذكرتُ أنا هذا الجواب، فتبسَّم ولم يَقُلْ شيئًا.

وأمَّا الحياءُ الذي يَعتريه منه، وإن كان قادرًا عليه ـ كأمَته وزوجتِه ـ فسببُه ـ والله أعلم ـ أنَّ هذا السُّلطان لَمَّا زال خوفُه عن القلب بقيتْ هَيْبتُه واحتشامُه، فتولَّد منها الحياءُ، وأما حصول ذلك له في غَيبة المحبوب فظاهرٌ، لاستيلائه على قلبه، فوهْمُه يُغالِطه عليه ويُكابِره، حتى كأنه معه.

وأمَّا **حياءُ العبودية**: فهو حياء مُمتزِج بين محبَّةٍ وخوف، ومشاهدةِ عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قَدْرَه أعلى وأجلُّ منها، فعبوديَّته له تُوجِب استحياءَه منه لا محالة.

وأمَّا **حياءُ الشرف والعزَّة**: فحياءُ النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدْرها من بذل عطاء أو إحسان، فإنه يستحيي مع بَذْلِه حياءَ شَرفِ نَفْسٍ وعِزَّة، وهذا له سببان:

أحدهما هذا، والثاني: استحياؤه من الآخِذ، حتى إنَّ بعض أهل الكرم لا تُطاوِعه نَفْسُه بمواجهته لمن يُعطيه حياءً منه، وهذا يَدخُل في حياء التكرُّم؛ لأنه يستحيي من خَجْلةِ الآخِذ.

وأمَّا **حياءُ المرءِ من نفْسِه**: فهو حياء النُّفوسِ الشريفة العزيزة مِن رِضاها لنفْسها بالنقص، وبَيعِها بالدُّونِ، فيجد نفسَه مُستَحْيًا من نفسه، حتى كأنَّ له نَفْسَيْنِ، يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكملُ ما يكون من الحياء؛ فالعبدُ إذا استحيا من نفْسه، فهو بأن يستحيي من غيره أجْدرُ.

* * *

الحياء من أول مدارج أهل الخصوص

قال صاحب «المنازل»: (**الحَياءُ: مِن أوَّلِ مَدارِجِ أهْلِ الخُصوصِ، يَتَولَّدُ مِن تَعظيمٍ مَنوطٍ بِوُدٍّ**).

إنما جُعِل الحياءُ من أوَّل مدارِج أهلِ الخُصوصِ؛ لِما فيه من ملاحظة حضور من يستحيي منه، وأول سلوك أهل الخصوص: أن يروا الحقَّ سبحانه حاضرًا معهم، وعليه بناء سلوكهم.

وقوله: **(إنَّه يَتولَّدُ مِن تَعظيمِ مَنوطٍ بِوُدٍّ)**.

يعني: أن الحياء حالة تحصُل من امتزاج التعظيم بالمودَّة، فإذا اقترنا تولَّد بينهما الحياءُ.

درجات الحياء

قال: **(وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: حَياءٌ يَتولَّدُ مِن عِلْمِ العَبدِ بنَظَرِ الحَقِّ إليهِ، فيَجذِبُه إلى تَحَمُّلِ هذهِ المُجاهَدةِ، ويَحمِلُه على استِقباحِ الجِنايةِ، ويُسكِتُه عنِ الشَّكْوى).

يعني: أن العبد متى عَلِم أن الربَّ تعالى ناظرٌ إليه أورثه هذا العلمُ حياءً منه، يجذِبه إلى احتمال أعباء الطاعة، مثل العبد إذا عَمِل الشغل بين يدي سيِّده، فإنه يكون نشيطًا فيه، مُحتمِلًا لأعبائه، ولا سيَّما مع الإحسان من سيِّده إليه، ومحبَّتِه لسيِّده، بخلاف ما إذا كان غائبًا عن سيِّده، والربُّ تعالى لا يَغيبُ نظرُه عن عبده، ولكن يغيب نظرُ القلب والتفاتُه إلى نظره سبحانه إلى العبد، فإن القلب إذا غاب نَظرُه، وقلَّ التفاتُه إلى نَظرِ الله تبارك وتعالى إليه: تولَّد من ذلك قِلَّةُ الحياء والقحة.

وكذلك يحمله على استقباح جِنايته، وهذا الاستقباح الحاصل بالحياء قَدْرٌ زائدٌ على استقباح ملاحظة الوعيد، وهو فوقه.

وأرفع درجة منه: الاستقباحُ الحاصلُ عن المحبَّة، فاستقباح المحبِّ أتمُّ من استقباح الخائف؛ ولذلك فإن هذا الحياء يَكفُّ العبدَ أن يشتكي لغير الله، فيكون قد شكا الله إلى خلْقه، ولا يَمنَعُ الشكوى إليه سبحانه، فإن الشكوى إليه سبحانه فقرٌ، وذِلَّةٌ، وفاقة، وعبودية، فالحياءُ منه لا يُنافيها.

تحقق القلب بمعية الله تبارك وتعالى

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: حَياءٌ يَتولَّدُ مِنَ النَّظرِ في عِلْمِ القُرْبِ، فيَدْعوه إلى رُكوبِ المَحبَّةِ، ويَربِطُه برُوحِ الأُنْسِ، ويُكَرِّهُ إليه مُلابَسةَ الخَلْقِ)**.

النظر في عِلم القرب: تَحقُّق القلب بالمعيَّة الخاصَّة مع الله، فإن المعيَّة **نوعان**:

عامَّة، وهي: معيَّةُ العِلم والإحاطة؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

وخاصة، وهي: معيَّة القرب؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

فهذه معية قُرْبٍ، تتضمَّن المُوالاةَ، والنَّصرَ، والحِفظَ، وكلا المعنيتين مُصاحَبَةٌ منه للعبد، لكن هذه مصاحَبة اطِّلاع وإحاطة، وهذه مصاحَبة مُوالاةٍ ونصرٍ وإعانةٍ.

والقصد: أن هذا القُربَ يدعو صاحبَه إلى ركوب المحبَّة، وكلما زاد حبًّا ازداد قُربًا؛ فالمحبَّة بين قُرْبين: قُرْب قبلها، وقُرْب بعدها، وبين معرفتين: معرفة قبلها حَمَلتْ عليها، ودَعتْ إليها، ومعرفة بعدها، هي من نتائجها وآثارها.

وأما ربْطه برُوح الأُنس: فهو تعلُّق قلبِه بالأنس بالله تعلُّقًا لازمًا لا يُفارِقه، بل يجعل بين القلب والأنس رابطةً لازمةً، ولا ريبَ أن هذا يُكرِّه إليه مُلابَسةَ الخَلق، بل يجدُ الوحشةَ في ملابستهم بقدر أُنسه بربِّه، وقُرَّة عينه بحُبِّه وقُربِه منه، فإنَّه ليس مع الله غيرُه، فإن لابَسَهم لابَسَهم برَسْمه دون سِرِّه ورُوحه وقلبه، فقلبه وروحه في ملأ، وبدنه ورسْمه في ملأ.

ثمرة انجذاب الروح والقلب إلى الله تعالى

قال: (**الدَّرجةُ الثَّالِثةُ: حَياءٌ يَتولَّدُ مِن شُهودِ الحَضْرةِ، وهيَ الَّتي يَشوبُها هَيْبةٌ، ولا تُقارِنها تَفرِقةٌ، ولا يُوقَفُ لها على غايةٍ**).

شهود الحضرة: انجذاب الرُّوح والقلب من الكائنات، وعكوفه على ربِّ البَريَّات، فهو في حضرة قربه مُشاهِدًا لها، وإذا وصل القلبُ إليها غَشيتْه الهَيبةُ وزالت عنه التَّفرِقةُ؛ إذ ما مع الله سواه، فلا يَخطُر بباله في تلك الحال سوى الله وحدَه، وهذا مَقامُ الجمعيَّة.

وأمَّا قوله: (**ولا يُوقَف لها على غاية**).

والغايات والنِّهاياتُ كلها إليه تنتهي ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]، وليس له سبحانه غاية ولا نهاية، لا في وجوده، ولا في مزيده وجوده؛ إذ هو الأوَّل الذي ليس قبله شيء، والآخِر الذي ليس بعده شيء، ولا نهاية لمجدِه وحمدِه وعطائه، بل كلما ازداد له العبد شكرًا زاده فضلًا، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة، وكلما ازداد منه قربًا لاح له من جلاله وعظمته ما لم يُشاهِده قبل ذلك، وهكذا أبدًا لا يقف على غاية ولا نهاية، ولهذا جاء أن أهلَ الجنَّة في مزيد دائم بلا انتهاء؛ فإن نعيمَهم مُتَّصِلٌ ممن لا نهاية لفضْله ولا لعطائه، ولا لأوصافه، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام! ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤]. «**يا عِبادي، لو أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُم، وإنْسَكُم وجِنَّكُم، قاموا في صَعيدٍ واحدٍ، فسَألُوني، فأعطَيْتُ كلَّ إنسانٍ مَسْألَتَه، ما نَقَصَ ذلكَ ممَّا عِندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البَحرَ**»[1].



(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.



منزلة الصدق

وهي منزل القوم الأعظمُ، الذي منه تنشأ جميعُ منازل السَّالكين، والطريقُ الأقوم الذي مَن لم يَسِرْ عليه فهو من المُنقطِعين الهالكين، وبه تَميَّز أهلُ النفاق من أهل الإيمان، وسُكَّان الجِنانِ من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِع على شيء إلا قَطَعه، ولا واجَه باطلًا إلا أردَاه وصَرَعه، مَن صال به لم تُرَدَّ صولته، ومَن نَطَق به عَلَتْ على الخصوم كَلِمتُه، فهو رُوح الأعمال، ومَحَكُّ الأحوال، والحاملُ على اقتِحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حَضرةِ ذي الجَلال، وهو أساس بِناء الدِّين، وعمود فُسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النُّبوَّة التي هي أرفعُ درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجِنانِ تجري العيونُ والأنهارُ إلى مساكن الصِّدِّيقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مَدَدٌ متَّصل ومُعين.

وقد أمر الله سبحانه أهلَ الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخصَّ المُنعَمَ عليهم بالنَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحين؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩]؛ فهم أهل الرفيق الأعلى ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

وقَسَّم اللهُ سبحانه الناسَ إلى صادقٍ ومنافقٍ؛ فقال: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

والإيمان أساسُه الصدقُ، والنفاقُ أساسُه الكذبُ؛ فلا يجتمع كذِب وإيمان إلا وأحدهما مُحارِبٌ للآخَر.

وقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٣ ـ ٣٤] فالذي جاء بالصدق: هو من شأنه الصدقُ في قوله وعملِه وحاله، فالصدق: في هذه الثلاثة.

مراتب الصدق

فالصِّدق في الأقوال: استِواء اللِّسان على الأقوال، كاستواء السُّنْبلةِ على ساقها، والصِّدق في الأعمال: استواءُ الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد، والصِّدق في الأحوال: استواء القلب والجوارح على الإخلاص، واستِفراغ الوُسع، وبذلُ الطَّاقة، فبذلك يكون العبدُ من الذين جاؤوا بالصِّدق، وبحَسَب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صدِّيقيَّتُه؛ ولذلك كان لأبي بكر الصِّدِّيقِ رضي الله عنه وأرضاه: ذُروةُ سَنام الصِّديقيَّة، حتى سُمِّي «الصديقَ» على الإطلاق، والصدِّيق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقيَّة، وهي كمال الانقيادِ للرَّسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمُرسِل.

وقد أمَر اللهُ سبحانه رسولَه: أن يسأله أن يجعل مُدخَله ومُخرَجه على الصِّدق؛ فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠] وأخبَر عن خليله إبراهيمَ ﷺ، أنَّه سأله أن يَهبَ له لسانَ صِدقٍ في الناس، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤].

وبشَّر عبادَه بأن لهم عنده قَدَمَ صِدقٍ، ومَقْعدَ صِدقٍ؛ فقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مُدخَل الصدق، ومُخرَج الصدق، ولسانُ الصدق، وقَدَمُ الصدق، ومَقْعَدُ الصدق.

وحقيقة الصِّدقِ في هذه الأشياء: هو الحقُّ الثابت، المُتَّصِل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمُدخَل الصدق، ومُخرَج الصدق: أن يكون دخولُه وخروجُه حقًّا ثابتًا بالله، وفي مرضاتِه، مُتَّصلًا بالظَّفَر بالبُغيةِ، وحصول المطلوب، ضد مُخرَج الكذِب ومُدخَله الذي لا غاية له يُوصِل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمُخرَج أعدائه يوم بدر، ومُخرَج الصدق كمُخرَجه هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مُدخَله المدينة: كان مُدخَل صِدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتَّصل به التأييدُ والظَّفَرُ والنَّصرُ، وإدراكُ ما طلَبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مُدخَل الكَذِب الذي رام أعداؤه أن يُدخِلوه به المدينةَ يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل مُحادَّة لله ورسوله، فلم يتَّصِل به إلا الخِذلانُ والبَوارُ.

فكل مُدخَل ومُخرَج كان بالله ولله، فصاحبه ضامن على الله، فهو مُدخَلُ صِدق، ومُخرَجُ صِدق.

وكان بعضُ السلف إذا خرج من داره: رفع رأسَه إلى السماء، وقال: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك أن أُخرَج مُخرَجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك».

وأمَّا لسان الصِّدق: فهو الثناءُ الحسنُ عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناءً بالكَذِب؛ كما قال عن إبراهيم وذريَّته من الأنبياء والرسل: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم: ٥٠] والمرادُ باللِّسان هاهنا: الثناءُ الحَسَنُ.

وأمَّا قَدمُ الصِّدقِ: ففُسِّر بالجنَّة، وفُسِّر بمحمد ﷺ، وفُسِّر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة القدم ما قدَّموه ويُقدِمون عليه يوم القيامة، وهم قدَّموا

الأعمالَ والإيمانَ بمحمد ﷺ، ويُقدِمون على الجنَّة التي هي جزاء ذلك.

وأمَّا مَقعَدُ الصدق: فهو الجنة عند الربِّ تبارك وتعالى.

ووصْف ذلك كلَّه بالصدق مُستلزِمٌ ثبوتُه واستقرارُه، وأنه حقٌّ، ودوامُه ونَفعُه، وكمال عائدته، فإنه مُتَّصِلٌ بالحق سبحانه، كائن به وله.

ومن علامات الصِّدق: طُمأنينةُ القلب إليه، ومن علامات الكذِب حصولُ الرِّيبة؛ وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهدي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَصْدُقُ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ صِدِّيقًا. وإنَّ الكَذِبَ يَهْدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يَهْدي إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَكذِبُ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا**»[1].

* * *

كلمات في حقيقة الصدق

قال عبد الواحد بن زيد: «الصدق: الوفاء لله بالعمل».

وقيل: مُوافَقة السِّرِّ النُّطقَ.

وقيل: استواء السرِّ والعلانية؛ يعني: أن الكاذب علانيتُه خيرٌ من سريرته، كالمنافق الذي ظاهرُه خير من باطنه.

وقيل: الصدق: القول بالحقِّ في مواطن الهَلَكة.

وقيل: كلمة الحقِّ عند من تَخافُه وتَرجُوه.

وقال الجُنيدُ: «الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يَثبُت على حالة واحدة أربعين سنةً».

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح، وقد يَسبِقُ إلى الذِّهنِ خلافُه؛ فإن المعارضات والوارداتُ التي تَرِد على الصادق لا تَرِد على الكاذب

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

المرائي، بل هو فارغ منها؛ فإنه لا يَرِد عليه من قِبَل الحقِّ موارد الصادقين، ولا يُعارِضُ الشَّيطانَ كما يُعارِض الصادقين؛ فإنه لا أرَبَ له في خَرِبةٍ لا شيء فيها، وهذه الوارداتُ تُوجِب تقلُّبَ الصادق بحَسَب اختلافها وتنوُّعها، فلا تراه إلا هاربًا من مكان إلى مكان ومن عمل إلى عمل، ومن حال إلى حال، ومن سبب إلى سبب؛ لأنه يخاف في كلِّ حال يَطمئنُّ إليها، ومكان وسبب: أن يَقطَعه عن مطلوبه.

فهو لا يُساكِن حالة ولا شيئًا دون مطلوبه، فهو كالجوَّال في الآفاق في طَلبِ الغِنى الذي يفوق به الأغنياء، فالأحوالُ والأسباب تتقلَّب به، وتُقيمه وتُقعِده، وتُحرِّكه وتُسكنه، حتى يجدَ فيها ما يُعينُه على مطلوبه، وهذا عزيزٌ فيها، فقلبُه في تقلُّب، وحركة شديدة بحَسَب سَعَة مطلوبه، وعظمته وهمَّته أعلى من أن يقف دون مَطلَبه على رسمٍ أو حال، أو يُساكِن شيئًا غيرَه، فهو كالمحبِّ الصادق، الذي همُّه التفتيشُ على محبوبه، وهكذا حال الصادق في طلب العلم، وحال الصادق في طلب الدنيا، فكل صادق في طلب شيء لا يَستقِرُّ له قرارٌ، ولا يدوم على حالة واحدة.

الصادق مطلوبه رضا ربه

وأيضًا: فإن الصادقَ مطلوبُه رضا ربِّه، وتنفيذُ أوامره، وتتبُّع محابِّه، فهو مُتقلِّب فيها يسير معها أين توجَّهت ركائبُها، ويَستقلُّ معها أين استقلَّت مضاربُها، فبينا هو في صلاة إذ رأْتَه في ذِكر ثم في غزوٍ، ثم في حَجٍّ، ثم في إحسان للخَلق بالتعليم وغيره، من أنواع النفع، ثم في أمرٍ بمعروف، أو نَهي عن مُنكر، أو في قيام بسبب فيه عمارة للدِّين والدنيا، ثم في عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو نصر مظلوم ـ إن أمكن ـ إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع.

فهو في تفرُّق دائم لله، وجمعيَّةٍ على الله، لا يَملِكه رسمٌ ولا عادة ولا وَضْعٌ، ولا يتقيَّد بقيد ولا إشارة، ولا بمكان معيَّن لا يصلِّي إلَّا فيه، وزيٍّ مُعيَّن لا يَلبَس سواه، وعبادة مُعيَّنة لا يَلتفِت إلى غيرها، مع فضلِها عليها في الدرجة، وبُعْدِ ما بينهما كبُعْد ما بين السماء والأرض؛

فإن البلاءَ والآفاتِ والرياءَ والتصنُّع، وعبادةَ النَّفسِ، وإيثارَ مُرادِها، والإشارةَ إليها: كلها في هذه الأوضاع، والرسوم والقيود، التي حَبَستْ أربابَها عن السير إلى قلوبهم، فضلًا عن السير من قلوبهم إلى الله تعالى، فإذا خرج أحدُهم عن رسمِه ووضعِه وزيِّه وقيدِه وإشارته ـ ولو إلى أفضل منه ـ استهجَن ذلك، ورآه نقصًا وسقوطًا من أعين الناس، وانحطاطًا لرُتبته عندهم، وهو قد انحطَّ وسَقَط من عين الله.

فكلام أبي القاسم الجُنيد حقٌّ، كلامُ راسخٍ في الصدق، عالِمٍ بتفاصيله وآفاتِه، ومواضع اشتِباهِه بالكذب.

وأيضًا فحَمل الصدق كحَمل الجبال الرَّواسي، لا يُطيقُه إلَّا أصحابُ العزائم، فهم يتقلَّبون تحته تقلُّب الحمَّال بحمله الثقيل، والرياء والكذب خفيف كالريشة، لا يجد له صاحبه ثِقَلًا البتَّة، فهو حاملٌ له في أي موضع اتَّفَق، بلا تعب ولا مشقَّة ولا كُلْفة، ولا يتقلَّب تحت حِمله ولا يجد ثِقَله.

وقيل: ثلاث لا تُخطئ الصادقَ: الحلاوةُ، والملاحةُ، والهَيْبةُ.

وقال يوسف بن أسباطٍ: «لأنْ أبيتَ ليلةً أُعامِل اللهَ بالصدق أحبُّ إليَّ من أن أضرِب بسيفي في سبيل الله».

وقال بعضُهم: «من لم يُؤدِّ الفرضَ الدائمَ لم يُقبلْ منه الفرضُ المؤقَّتُ».

قيل: وما الفرض الدائم؟ قال: الصدق.

درجات الصدق

قال صاحب «المنازل»: **(وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: صِدْقُ القَصدِ، وبه يَصِحُّ الدُّخولُ في هذا الشَّأنِ، ويُتَلافى به كلُّ تَفريطٍ، ويُتدارَكُ به كلُّ فائتٍ، ويَعمُرُ كلُّ خَرابٍ، وعلامةُ هذا الصَّادقِ: أن لا يَتحمَّلَ داعيةً تَدْعو إلى نَقْضِ عَهدٍ، ولا يَصبِرَ على صُحبةِ ضِدٍّ، ولا يَقعُدَ عنِ الجِدِّ بحالٍ).

يعني بصدق القصد: كمالَ العزم، وقوَّةَ الإرادة، بأن يكون في

القلب داعيةٌ صادقةٌ إلى السلوك، وميلٌ شديدٌ يَقهَر السِّرَّ على صِحَّة التوجُّه، فهو طَلَبٌ لا يُمازِجه رياءٌ ولا فُتورٌ، ولا يكون فيه قِسمة بحال، ولا يصح الدخول في شأن السفر إلى الله، والاستعداد للقائه إلَّا به.

ويُتلافى به كلُّ تفريطٍ، فإنه حاملٌ على كلِّ سببٍ ينال به الوصول، وقطعِ كلِّ سببٍ يحول بينه وبينه، فلا يَتركُ فرصةً تفوتُه، وما فاته من الفرص السابقة تَدارَكها بحَسَب الإمكان، فيُصلِح من قلبه ما مزَّقتْه يدُ الغَفلةِ والشَّهوةِ، ويُعمِّر منه ما خرَّبته يدُ البطالة، ويُوقِد منه ما أطفأتْه أهويةُ النَّفْس، ويَلُمُّ منه ما شعَّثتْه يدُ التفريط والإضاعة، ويَستردُّ منه ما نهبتْه أكُفُّ اللصوص والسُّرَّاقِ، ويَزرع منه ما وجده بورًا من أراضيه، ويقلع ما وجده شوكًا وشِبرقًا في نواحيه ويَستفرِغُ منه ما ملأتْه موادُّ الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعَطَب، ويُداوي منه الجراحاتِ التي أصابتْه عند الغارة عليه، ويَغسِل منه الحَوْباتِ والأوساخَ التي تراكمتْ عليه على تقادُم الأوقات، حتى لو اطَّلع عليه لأحزنه سوادُه ووَسَخُه الذي صار دِباغًا له، فيُطهِّره بالماء البارد من ينابيع الصدق الخالصة من جميع الكدورات، قبل أن يكون طَهُورُه بالحميم، فإنه لا يُجاوِر الرحمٰنَ قلبٌ دَنِسٌ بأوساخ الشهوات والرِّياءِ أبدًا، ولا بد من طَهُورٍ، فاللبيب يؤثِر أسهلَ الطَّهُورين وأنفعَهما، والله المستعان.

وقوله: **(وعَلامةُ هذا الصَّادقِ: أنْ لا يَتحمَّلَ داعيةً تَدْعو إلى نَقْضِ عَهْدٍ)**.

يعني أن الصادق حقيقة: هو الذي قد انجذبتْ قُوى رُوحه كلُّها إلى إرادة الله وطَلبِه، والسيرِ إليه، والاستعداد للقائه.

تنمي الحياة للقيام بالعبودية

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: أن لا يَتمنَّى الحياةَ إلَّا للحقِّ، ولا يَشهَدَ مِن نفْسِه إلَّا أثَرَ النُّقصانِ، ولا يَلتفِتَ إلى تَرفِيهِ الرُّخَصِ)**.

أي: لا يحِبُّ أن يعيش إلا ليَشبَعَ من رضا محبوبِه، ويقومَ بعبوديته، ويَستكثِرَ من الأسباب التي تُقرِّبه منه، لا لعلة من علل الدنيا،

ولا لشهوة من شهواتها، كما قال عُمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه: لولا ثَلاثٌ في الدُّنيا لَما أحْببتُ البقاءَ: لولا أن أُحمَل على جيادِ الخيل في سبيلِ الله، ومُكابَدة الليل، ومُجالَسة أقوامٍ يَنتقون أطايبَ الكلام كما يُنْتقى أطايبُ التَّمر.

يريد رضي الله عنه: الجهادَ، والصلاةَ، والعِلمَ، وهذه درجاتُ الفضائل، وأهلها هم أهل الزُّلفى، والدرجات العالية.

وقال بعضُ الصحابة رضي الله عنهم عند موته: «اللَّهُمَّ إنَّك تَعلَم أني لم أكنْ أُحِبُّ البقاءَ لجري الأنهار، ولا لغرسِ الأشجار، ولا لنكحِ الأزواج، ولكن إنَّما كنتُ أُحبُّها لظمأ الهواجِر، ومُكابَدة الليل، ومُزاحَمة العلماء بالرُّكبِ عند حِلَق الذِّكر»[1].

وقوله: **(ولا يَشهَد مِن نفْسِه إلَّا أثَرَ النُّقصانِ)**.

يعني: لا يرى نَفْسَه إلا مُقصِّرًا، والمُوجِب له هذه الرؤية: استعظام مطلوبِه، واستِصغار نَفْسِه، ومعرفته بعيوبها، وقِلَّة زاده في عينه.

وأما قوله: **(ولا يَلتفِت إلى تَرفِيهِ الرُّخَصِ)**.

وهذا لا بُدَّ فيه من التفصيل، فإن الصادقَ يعمل على رضا الحقِّ تعالى ومَحابِّه، فإذا كانت الرُّخصُ أحبَّ إليه تعالى من العزائم: كان التفاتُه إلى ترفهها، هو عين صِدقه، فإذا أفطَر في السفر، وقَصَر وجَمَع بين الصلاتين عند الحاجة إليه، وخفَّف الصلاةَ عند الشغل، ونحو ذلك من الرُّخْص التي يحبُّ اللهُ تعالى أن يؤخذ بها، فهذا الالتفاتُ إلى تَرفيهِا لا يُنافي الصِّدقَ.

أما الرُّخصُ التأويليَّة، المُستنِدة إلى اختلاف المذاهب، والآراء التي تُصيب وتُخطِئ: فالأخذُ بها عندهم عين البَطالةِ ومُنافٍ للصِّدقِ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٣٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

الصدق في معرفة الصدق

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: الصِّدقُ في مَعرِفةِ الصِّدقِ، فإنَّ الصِّدقَ لا يَستَقيمُ إلَّا على حَرْفٍ واحدٍ، وهو أن يَتَّفِقَ رِضا الحقِّ بعملِ العبدِ، أوْ حالِه، أو وقْتِه، وإيقانَ العبدِ وقَصْدَه، فيَكونُ راضيًا مَرْضيًّا، فأعمالُه وأحوالُه صادقةٌ، وقُصودُه مُستقيمةٌ)**.

فإنَّ العبدَ إذا صدَق اللهَ: رضِي اللهُ بعَملِه، وحالِه ويَقينِه، وقَصْده، لا أنَّ رِضا اللهِ نفْسُ الصِّدق، وإنَّما يُعلم الصِّدقُ بموافقة رِضاه سبحانه، ولكن مَن أين يَعلم العبدُ رِضاه؟

فمِن هاهنا كان الصادقُ مُضطرًّا - أشدَّ الضرورة - إلى متابعةِ الأمرِ، والتسليم للرسولِ ﷺ، في ظاهرِه وباطنِه، والاقتداءِ به، والتعبُّدِ بطاعته في كلِّ حَركةٍ وسكونٍ، مع إخلاص القَصدِ لله ﷻ؛ فإنَّ الله تعالى لا يُرضيه مِن عَبدِه إلَّا ذلك. وما عدَا هذا فقوتُ النَّفْس، ومجرَّد حَظِّها، واتباع أهوائها، وإنْ كان فيه من المجاهدات والرِّياضات والخلوات ما كان؛ فإنَّ الله ﷻ أبَى أن يَقبَلَ من عبدِه عملًا، أو يَرضَى به، حتى يكونَ على متابعةِ رسولِه ﷺ، خالصًا لوجهِه سبحانه.

ومِن هاهنا يُفارِق الصادقُ أكثرَ السالكين، بل يستوحشُ في طريقِه؛ وذلك لقِلَّة سالكِها؛ فإنَّ أكثرَهم سائرون على طُرُق أذواقهم، وتجريدِ أنفاسهم لنُفوسِهم، ومتابعةِ رُسومِ شُيوخهم، والصادقُ في وادٍ، وهؤلاء في وادٍ.

وقوله: **(فيكون العبدُ راضيًا مرضيًّا)**.

لأنَّه قد رضِيَ بالله ربًّا، وبالإسلام دِينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا؛ فرضيَ اللهُ به عبدًا، وأعمالُه إذًا مَرْضيَّةٌ لله، وأحوالُه صادقةٌ مع الله، وقُصودُه مستقيمةٌ على متابعة أوامر الله.





منزلة الإيثار

قال الله تعالى في مدح أهلِه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩]؛ فالإيثار ضدّ الشُّح؛ فإنَّ المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه.

والشَّحيح: حريصٌ على ما ليس بيده، فإذا حصَل بيده شيءٌ شحَّ عليه، وبَخِلَ بإخراجه؛ فالبخل ثمرة الشُّحِّ، والشحُّ يأمُر بالبخل، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إيَّاكُم والشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبْلَكُم، أمَرَهُم بالبُخْلِ فبَخِلُوا، وأمَرَهُم بالقَطِيعةِ فقَطَعُوا**»[1].

فالبخيل: مَن أجاب داعيَ الشُّحِّ، والمؤْثِرُ: مَن أجاب داعيَ الجُود.

مراتب السخاء والجود والإيثار

قال عبد الله بن المبارك رضي الله عنه: «سخاء النَّفْسِ عمَّا في أيدي الناسِ أفضلُ مِن سخاء النَّفْسِ بالبَذل».

وهذا المنزل: هو منزل الجودِ والسخاء والإحسان.

وسمِّي بمنزل «الإيثار»؛ لأنه أعلى مراتبِه؛ فإنَّ المراتب **ثلاثٌ**:

أحدها: أن لا ينقصه البذْل، ولا يصعُبُ عليه، فهو منزلة السخاء.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٣٣٠)، وأبو داود (١٠٦١)، وابن حبان (٥١٧٦)، والحاكم (٢٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٦٩٨). وأخرج مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه: «**واتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبْلَكم، حمَلَهُم على أنْ سَفَكوا دماءَهم، واستَحَلُّوا مَحارِمَهُم**».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويُبقِيَ له شيئًا، أو يبقيَ مثلَ ما أعطى، فهو «الجُود».

الثالثة: أن يؤثر غيرَه بالشيء مع حاجته إليه، فهي مرتبة «الإيثار»، وعكسُها «الأَثَرة» وهو استِئْثارُه عن أخيه بما هو محتاج إليه، وهي المرتبة التي قال فيها رسولُ الله ﷺ للأنصار رضي الله عنهم: «**إنَّكُم ستَلْقَوْنَ بَعْدي أثَرةً، فاصبِرُوا حتَّى تَلْقَوْني على الحَوْضِ**»[1]. **والأنصار:** هُمُ الذين وصفهم اللهُ بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، فوصفهم بأعلى مراتبِ السَّخاء، وكان ذلك فيهم معروفًا.

وكان قَيسُ بن سعد بنِ عُبادةَ رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين، حتى إنَّه مرِض مرَّةً فاستبطأ إخوانَه في العيادة، فسأل عنهم، فقالوا: «إنهم يستحيون ممَّا لك عليهم من الدَّين، فقال: أخزى اللهُ مالًا يَمنع الإخوانَ من الزيارة، ثم أمَرَ مناديًا يُنادي: مَن كان لقَيسٍ عليه مالٌ فهو منه في حِلٍّ، فما أمسى حتى كُسِرَتْ عتبةُ بابه؛ لكَثرة مَن عادَه».

وقالوا له يومًا: «هل رأيتَ أسخى منك؟ قال: نعم، نزلْنا بالبادية على امرأة، فحَضَر زوجُها، فقالت: إنَّه نزل بك ضِيفَان، فجاء بناقة فنَحرَها، وقال: شأنكم. فلمَّا كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، فقلْنا: ما أكَلْنا مِنَ التي نُحرت البارحةَ إلَّا اليسيرَ، فقال: إنِّي لا أُطعم ضيفي البائتَ. فبَقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسَّماءُ تُمطر، وهو يفعل ذلك، فلمَّا أرَدْنا الرحيل وضَعْنا مائة دِينار في بيته، وقلنا لامرأته: اعتذري لنا إليه ومَضَيْنا، فلمَّا طلَع النهارُ إذا نحن برجُل يَصيح خَلْفَنا: قفوا أيها الركبُ اللئام، أعطيتموني ثِمنَ قِرَاي؟! ثم إنه لحَقِنا، وقال: لتَأخُذُنَّه أو لأُطاعننكم برمحي، فأخَذْناه وانصرف».

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث أنس رضي الله عنه.

فتأمَّل سرَّ التقدير، حيث قدَّر الحكيمُ الخبير ـ سبحانه ـ استئثارَ الناس على الأنصار بالدنيا ـ وهم أهل الإيثار ـ ليجازيَهم على إيثارهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنَّات عدْنٍ على الناس، فيظهر حينئذ فضيلةُ إيثارِهم ودرجتُه ويَغبِطُهم مَنِ استأثر عليهم بالدنيا أعظمَ غِبطةٍ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيتَ الناس يستأثرون عليك ـ مع كونك من أهل الإيثار ـ فاعلم أنَّه الخير يراد بك.

مراتب الجود

والجُود عَشرُ مراتبَ:

إحداها: الجود بالنفْس. وهو أعلى مراتبِه، كما قال الشاعر:

يَجُودُ بالنَّفْسِ، إذْ ضَنَّ البَخيلُ بها والجُودُ بالنَّفْسِ أقْصَى غايةِ الجُودِ

الثانية: الجود بالرياسة، وهو ثاني مراتبِ الجود، فيحمل الجوادَ جُودُه على امتهان رياسته، والجُودِ بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمِس.

الثالثة: الجود براحتِه ورَفاهيته، وإجمامِ نفْسِه، فيجود بها تعبًا وكدًّا في مصلحة غيرِه، ومن هذا جودُ الإنسانِ بنَومِه ولذَّتِه لمُسامِره، كما قيل:

مُتَيَّمٌ بالنَّدَى، لو قال سائِلُهُ هَبْ لي جَميعَ كَرَى عَيْنَيْكَ، لمْ يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعِلم وبَذْلِه. وهو مِن أعلى مراتبِ الجود، والجود به أفضلُ من الجود بالمال؛ لأنَّ العلم أشرفُ من المال.

والناس في الجود به على مراتبَ متفاوتةٍ، وقد اقتضت حكمةُ الله وتقديرُه النافذُ: أن لا يَنفَع به بخيلًا أبدًا.

ومن الجود به: أن تَبذُلَه لمَن يسألُك عنه؛ بل تَطرَحَه عليه طرْحًا.

ومن الجود به: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيتَ له جوابَها جوابًا شافيًا، لا يكون جوابُك له بقدْر ما تَدفَعُ به الضَّرورة، كما كان بعضُهم يكتُبُ في جواب الفتيا: نعم، أو: لا. مقتصِرًا عليها.

وقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابنِ تيميَّةَ في ذلك أمرًا عجيبًا:

كان إذا سُئل عن مسألة حُكميَّةٍ، ذكر في جوابها مذاهبَ الأئمَّةِ الأربعة، إذا قَدِرَ عليه، ومأخذَ الخلاف، وترجيحَ القولِ الراجح. وذكرَ متعلقات المسألةِ التي ربما تكون أنفعَ للسائل من مسألته، فيكون فرحُه بتلك المتعلقات واللَّوازمِ أعظمَ من فرحِه بمسألته.

الخامسة: الجود بالنَّفع بالجاه، كالشَّفاعةِ والمشيِ مع الرَّجل إلى ذي سلطان ونحوه. وذلك زكاةُ الجاهِ المطالب به العبد. كما أن التعليم وبَذْلَ العِلم زكاتُه.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعِه. كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**يُصبِحُ على كُلِّ سُلَامى مِن أحَدِكُم صَدَقةٌ، كُلَّ يومٍ تَطلُعُ فيه الشَّمسُ، يَعْدِلُ بيْن اثنَيْنِ صَدَقةٌ، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه، فتَحْمِلُه علَيها، أو يَرفَعُ له علَيها مَتاعَهُ صَدَقةٌ، والكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ، وبكُلِّ خُطْوةٍ يَمْشيها الرَّجُلُ إلى الصَّلاةِ صَدَقةٌ، ويُمِيطُ الأذى عنِ الطَّريقِ صَدَقةٌ**»[(١)]. متفق عليه.

السابعة: الجود بالعِرض، كجُود «أبِي ضَمْضَم من الصَّحابة رضي الله عنهم. كان إذا أصبَحَ قال: اللَّهُمَّ إنَّه لا مالَ لي فأتصدَّقُ بِه على النَّاسِ، وقد تَصدَّقْتُ عليهم بعِرضي، فمَن شتَمَني، أو قذَفَني: فهو في حِلٍّ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَن يَستَطيعُ منكُم أن يَكُونَ كأبي ضَمْضَمٍ؟**»[(٢)].

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحةِ القلب، والتخلُّصِ من معاداة الخلْق ما فيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٦) عن قتادة مقطوعًا، وعن عبد الرحمٰن بنِ عَجْلانَ مرسلًا (٤٨٨٧). وأخرجه البزار (١٣/ ٧٢٦٩)، وابن السُّنِّي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥)، والبيهقي في «شُعَب الإيمان» (٧٧٢٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وضعَّف الألباني الحديث المرفوع في «إرواء الغليل» (٨/ ٣٢)، وقال عن حديث قتادة: «إسناده صحيح إلى قتادة».

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاءِ، وهذه مرتبة شريفةٌ مِن مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعزُّ له وأنصرُ، وأملَكُ لنفْسه، وأشرفُ لها، ولا يَقدِرُ عليها إلَّا النُّفوسُ الكبار.

فمَن صعُبَ عليه الجودُ بماله فعليه بهذا الجودِ؛ فإنَّه يجتني ثمرةَ عواقبِه الحميدةِ في الدُّنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفُتوَّة. قال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥]. وفي هذا الجودِ قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [الشورى: ٤٠].

فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل، وأذِنَ فيه، ومقام الفضل، ونَدَب إليه، ومقام الظُّلْم، وحرَّمَه.

التاسعة: الجود بالخُلق والبِشر والبَسطة. وهو فوقَ الجود بالصبر، والاحتمال والعفو. وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يُوضع في الميزان، قال النبيُّ ﷺ: «**لا تَحْقِرنَّ مِنَ المَعروفِ شَيئًا، ولو أن تَلْقى أخاكَ ووَجْهُكَ مُنبَسِطٌ إليهِ**»(١)، وفي هذا الجود من المنافعِ والمسارِّ، وأنواعِ المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن يسَعَ الناسَ بماله ويمكنُه أن يسَعَهم بخُلُقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناسِ عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يَستشرِف له بقلبه، ولا يتعرَّض له بحاله، ولا لسانِه، وهذا هو الذي قال عبد الله بن المبارك: إنَّه من جود البذْل.

فلسان حال القدَر يقول للفقير الجَواد: وإن لم أُعطِكَ ما تجود به على الناس، فجُد عليهم بزُهدك في أموالهم، وما في أيديهم، تَفْضُل عليهم، وتُزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكلِّ مرتبةٍ من مراتب الجود مزيد وتأثيرٌ خاصٌّ في القلب

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

والحال، والله سبحانه قد ضمِن المزيدَ للجواد، والإتلافَ للمُمْسِك. والله المستعان.

درجات الإيثار عند صاحب «المنازل»

قال صاحب «المنازل»: (**وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولى: أنْ تؤْثِرَ الخَلْقَ على نفْسِكَ فيما لا يَخْرِمُ عليكَ دِينًا، ولا يَقطَعُ عليكَ طَريقًا، ولا يُفسِدُ عليكَ وَقْتًا).

يعني: أن تقدِّمهم على نفْسك في مصالحهم، مثل أن تُطعِمَهم وتَجوع، وتَكسوَهم وتَعْرَى، وتسقيَهم وتظمأ، بحيث لا يؤدِّي ذلك إلى ارتكاب إتلافٍ لا يجوز في الدِّين، مثل أن تؤْثِرَهم بمالك وتقعدَ كَلًّا مضطرًّا، مستشرفًا للناس أو سائلًا. وكذلك إيثارهم بكل ما يخرم على المؤثر دينه؛ فإنَّه سَفَهٌ وعجز، يُذَمُّ المؤْثِرُ به عند الله وعند الناس.

وأمَّا قولُه: (**ولا يَقطَعُ عليكَ طَرِيقًا**)؛ أي: لا يقطع عليك طريقَ الطلب والمسير إلى الله تعالى، مثل أن تؤْثِر جليسَك على ذِكرك، وتوجُّهِك وجمعيَّتِك على الله، فتكون قد آثَرْتَه على الله، وآثَرْتَ بنصيبِك مِن الله مَن لا يستحقُّ الإيثارَ.

وكذلك الإيثار بما يُفسد على المؤْثر وقتَه قبيحٌ أيضًا، مثل أن يؤْثر بوقته ويتفرق قلبُه في طلب خلقه، أو يؤْثر بأمر قد جمع قلبه وهمَّه على الله فيتفرق قلبُه عليه بعد جمعيَّتِه، ويشتِّت خاطره، فهذا أيضًا إيثارٌ غير محمود.

وكلُّ سببٍ يعود عليك بصلاح قلبك ووقتِك وحالِك مع الله: فلا تؤْثِرْ به أحدًا أبدًا، فإنْ آثرتَ به فإنَّما تؤْثرُ الشيطان على الله، وأنت لا تعلم.

وتأمَّلْ أحوالَ أكثرِ الخلْق في إيثارهم على الله مَن يضرُّهم إيثارُهم له ولا يَنفعُهم، وأيُّ جهالةٍ وسَفَهٍ فوقَ هذا؟

الإيثار بالقُرَب

ومِن هذا تكلَّم الفقهاءُ في الإيثار بالقُرَب، وقالوا: إنَّه مكروه أو محرم، كمَن يؤْثر بالصفِّ الأوَّلِ غيرَه ويتأخَّرُ هو، أو يؤْثِرُه بقُرْبه من

الإمام يومَ الجمعة، أو يؤْثر غيره بالأذان والإمامة، أو يؤْثره بعِلم يَحرمه نفْسَه، ويرفعه عليه، فيفوز به دونه.

دوافع الإيثار وبواعثه

قال: (**ولا يُستَطاعُ إلَّا بثَلاثةِ أشياءَ: بتَعظِيمِ الحُقُوقِ، ومَقْتِ الشُّحِّ، والرَّغْبةِ في مَكارِمِ الأخلاقِ**).

ذَكَرَ ما يعين على الإيثار فيبعث عليه. وهو **ثلاثة أشياءَ**:

تعظيم الحقوق؛ فإنَّ مَن عظُمت الحقوقُ عنده قام بواجبها، ورعاها حقَّ رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعَلِمَ أنه إن لم يبلغ درجةَ الإيثار لم يؤدِّها كما ينبغي، فيجعل إيثاره احتياطًا لأدائها.

الثاني: **مقْتُ الشُّحِّ**، فإنَّه إذا مَقَتَه وأبغضه التزمَ الإيثار، فإنَّه يرى أنَّه لا خلاص له من هذا المقْتِ البغيضِ إلَّا بالإيثار.

الثالث: **الرغبة في مكارم الأخلاق**. وبحسَب رغبتِه فيها: يكون إيثارُه؛ لأنَّ الإيثار أفضلُ درجات مكارمِ الأخلاق.

إيثار رضا الله سبحانه على غيره

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: إيثارُ رِضَى اللهِ على رِضَى غَيرِه، وإنْ عَظُمَتْ فيه المِحَنُ، وثَقُلَتْ فيه المُؤَنُ، وضَعُفَ عنه الطَّوْلُ والبَدَنُ**).

إيثار رضا الله ﷻ على غيره: هو أن يريد ويفعلَ ما فيه مرضاتُه، ولو أغضب الخَلْقَ. وهذه هي درجة الأنبياء، وأعلاها الرُّسُل، وأعلاها لأُولي العزم منهم، وأعلاها لنبيِّنا محمد ﷺ؛ فإنَّه قاوَم العالَم كلَّه، وتجرَّد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوةَ البعيد والقريب في الله تعالى، وآثَرَ رضا الله على رضا الخلْق من كلِّ وجه، ولم يأْخُذْه في إيثار رِضاه لَومةُ لائم، بل كان همُّه وعزمه وسَعْيُه كلُّه مقصورًا على إيثار مرضاةِ الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاءِ كلماته، وجهادِ أعدائه، حتى ظهر دينُ الله على كلِّ دين، وقامت حُجَّتُه على العالَمين، وتمَّتْ نعمتُه على المؤمنين، فبلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة، وجاهد في الله حقَّ الجهاد، وعَبَدَ اللهَ حتى أتاه اليقينُ من ربِّه، فلم يَنَلْ أحد من درجة هذا الإيثارِ ما ناله، صلوات الله وسلامه عليه.

وأمَّا قولُه: (**وإنْ عَظُمَتْ فيه المِحَنُ، وثَقُلَتْ فيه المُؤَنُ**).

فإنَّ المحنة تعظُم فيه أولًا، ليتأخَّرَ مَن ليس مِن أهله، فإذا احتملها وتقدَّم انقلبت تلك المِحَنُ منحًا، وصارت تلك المُؤَنُ عَوْنًا، وهذا معروف بالتجرِبة الخاصَّةِ والعامة؛ فإنَّه ما آثَرَ عبدٌ مرضاةَ الله عَزَّ وَجَلَّ على مرضاة الخلْق، وتحمَّلَ ثِقَلَ ذلك ومؤنتَه، وصبر على محنته: إلَّا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنةِ نعمةً ومَسَرَّة، ومعونةً بقدْر ما تحمَّله من مرضاته، فانقلبت مخاوفُه أمانًا، ومظانُّ عَطَبِه نجاةً، وتعبُه راحةً، ومؤنتُه معونةً، وبَلِيَّتُه نعمة، ومحنتُه مِنحة، وسخطُه رضًى، فيا خيبةَ المتخلِّفين، ويا ذِلَّة المتهَيِّبين.

سُنَّة الله تعالى فيمن آثر مرضاة الخلق على مرضاته

هذا وقد جرتْ سُنَّةُ الله ـ التي لا تبديلَ لها ـ أنَّ مَن آثَرَ مرضاة الخلْق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه، ويخذُلَه من جهته، ويجعل محنته على يديه، فيعودَ حامدُه ذامًّا، ومَن آثَرَ مرضاتِه ساخطًا، فلا على مقصوده منهم حصَل، ولا إلى ثواب مرضاة ربِّه وصل، وهذا أعجزُ الخَلْق وأحمقُهم.

هذا مع أنَّ رضا الخلْق: لا مقدورٌ، ولا مأمور، فهو مستحيل؛ بل لا بدَّ من سخطهم عليك، فلأنْ يَسخَطوا عليك وتفوزَ برضا الله عنك أحبُّ إليك وأنفعُ لك من أن يسخطوا عليك واللهُ عنك غيرُ راضٍ، فإذا كان سخطُهم لا بدَّ منه ـ على التَّقديرين ـ فآثِرْ سخطَهم الذي تنالُ به رضا الله، فإنْ هم رضُوا عنك بعدَ هذا، وإلَّا فأهْوَنُ شيءٍ رضا مَن لا ينفعُك رضاه، ولا يضرُّك سخطُه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك، فإنْ ضرَّك في أمرٍ يسير في الدنيا فمضرَّةُ سخطِ الله أعظمُ وأعظم، وخاصة العقل: احتمالُ أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وتفويتُ أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما، فوازِنْ بعقلك ثم انظر أيُّ الأمْرين خيرٌ فآثِرْه، وأيهُّما شرٌّ فابعُد منه، فهذا برهان قطعيٌّ ضروريٌّ في إيثار رضا الله على رضا الخلْق.

من آثر رضا الله كفاه غضب الخلق

هذا مع أنَّه إذا آثَرَ رضا الله كفاه الله مؤنةَ غضبِ الخلْق، وإذا آثر رضاهم لم يَكفوه مؤنةَ غضب الله عليه.

قال بعض السلف: «لَمُصانَعةُ وجهٍ واحد أيسَرُ عليك من مُصانَعة وجوهٍ كثيرة، إنَّك إذا صانعْتَ ذلك الوجهَ الواحد كفاك الوجوهَ كلَّها».

وقال الشافعيُّ رضي الله عنه: «رضا الناسِ غايةٌ لا تدرَك، فعليك بما فيه صلاحُ نفْسِك فالزَمْه».

ومعلوم: أنَّه لا صلاحَ للنَّفْس إلَّا بإيثار رضا ربِّها ومولاها على غيره.

فلَيْتَكَ تَحلُو، والحَياةُ مَريرةٌ وليْتَكَ تَرْضى والأنامُ غِضَابُ
ولَيْتَ الَّذي بَيْني وبيْنَكَ عامِرٌ وبَيْني وبيْن العالَمِينَ خَرابُ
إذا صَحَّ مِنكَ الوُدُّ فالْكُلُّ هَيِّنٌ وكُلُّ الَّذي فَوْقَ التُّرابِ تُرابُ

المؤثر لرضا الله متصد لمعاداة الخلق وأذاهم

(ويُستَطاعُ هذا بثَلاثةِ أشياءَ: بِطِيبِ العَوْدِ، وحُسْنِ الإسلامِ، وقوَّةِ الصَّبرِ).

من المعلوم: أن المؤْثِرَ لرضا الله متصَدٍّ لمعاداة الخلْق وأذاهُم، وسَعيِهم في إتلافِه ولا بُدَّ، هذه سُنَّة الله في خلْقه، وإلَّا فما ذنبُ الأنبياء والرُّسُل، والذين يأمرون بالقِسط من الناس، والقائمينَ بدين الله، الذَّابِّينَ عن كتابه وسُنَّةِ رسوله عندهم؟

فمَن آثرَ رضا الله فلا بدَّ أن يُعاديَه رُذالةُ العالَم وسقَطُهم، وغرثهم وجهَّالُهم، وأهلُ البدع والفجورِ منهم، وأهلُ الرياسات الباطلة، وكلُّ مَن يخالِفُ هَدْيُه هَدْيَه، فما يَقْدُم على معاداة هؤلاء إلَّا طالبٌ للرجوع إلى الله، عاملٌ على سماع خطاب ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨]، ومَن إسلامُهُ صُلْبٌ كامل لا تُزَعْزِعُه الرجال، ولا تُقَلْقِلُه الجبال، ومَن عَقْدُ عزيمةِ صبرِه مُحْكَمٌ لا تَحُلُّه المِحَنُ والشدائدُ والمخاوف.

قلت: ومِلَاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء، فما ضَعُف مَن ضَعُف، وتأخَّرَ مَن تأخَّر إلا بحبِّه للحياة والبقاء، وثناءِ الخلْق عليه،

ونفرته مِن ذمِّهم له، فإذا زَهِد في هذين الشيئين، تأخَّرت عنه العوارضُ كلُّها، وانغمس حينئذ في العساكر.

ومِلَاك هذين الشيئين بشيئين: صحَّة اليقين، وقوَّة المحبة.

ومِلَاك هذين الشيئين أيضًا: بصدق اللجأ والطلب، والتَّصدي للأسباب الموصلة إليهما.

فإلى هاهنا تنتهي معرفةُ الخلق وقدرتُهم، والتوفيقُ بعدُ بِيَدِ مَن أزِمَّةُ الأمورِ كلِّها بيديه ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٣٠ ـ ٣١].

خروج العبد عن دعوى الملك

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: إيثارُ إيثارِ اللهِ؛ فإنَّ الخَوضَ في الإيثارِ دَعْوَى في المِلْكِ، ثُمَّ تَرْكُ شُهودِ رؤْيَتِك إيثارَ اللهِ، ثمَّ غَيْبَتُك عنِ التَّرْكِ**).

معنى (**إيثارُ إيثارِ اللهِ**): أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفْسِك، وأنَّه هو الذي تفرَّد بالإيثار، لا أنت، فكأنَّك سلَّمتَ الإيثار إليه، فإذا آثَرْتَ غيرَك بشيء فإنَّ الذي آثرَه هو الحقُّ، لا أنت، فهو المؤْثِرُ حقيقة؛ إذْ هو المعطي حقيقة.

فإذا خرج العبد عن دعوى الملك فقد آثر إيثارَ الله ـ وهو إعطاؤه ـ على إيثار نفسه، وشهِد أنَّ الله وحدَه هو المؤْثِرُ بملكه، وأمَّا مَن لا ملك له: فأيُّ إيثار له؟!

وقوله: (**ثمَّ تَرْكُ شُهودِ رؤْيَتِك إيثارَ اللهِ**).

فلا يعتقد أنَّه آثرَ الله بهذا الإيثار؛ بل الله هو الذي استأثر به دونك؛ فإنَّ الأَثَرَة واجبةٌ له بإيجابه إيَّاها لنفْسه، لا بإيجاب العبد إيَّاها له.

قوله: (**ثمَّ غَيْبَتُك عنِ التَّرْكِ**).

يريد: أنَّك إذا تركتَ هذا الشُّهودَ، وهذه الرُّؤيةَ: بقيَتْ عليك بقيَّةٌ أخرى، وهي رؤيتك لهذا التَّركِ المتضمِّنةُ لدعوى ملكك للتَّرك، وهي دعوَى كاذبة، إذ ليس للعبد شيءٌ من الأمر، ولا بيده فِعْلٌ ولا ترْك، وإنَّما الأمرُ كلُّه لله.



منزلة الخُلق

قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

قال ابن عبَّاسٍ ومجاهدٌ: «لَعلى دينٍ عظيم، لا دين أحبُّ إليَّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام».

وقال الحسَن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هو آداب القرآن».

وقال قتادة: «هو ما كان يأتمر به مِن أمر الله، وينتهي عنه مِن نهْيِ الله».

والمعنى: إنَّك لَعلى الخُلق الذي آثرَك الله به في القرآن.

وفي «الصَّحيحين»: أن هشام بن حَكيم سأل عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خُلق رسولِ الله ﷺ؟ فقالت: «**كان خُلُقُه القُرآنَ، فقال: لقَدْ هَمَمْتُ أنْ أقُومَ ولا أسألُ شَيئًا**»[1].

أجمع آية في مكارم الأخلاق

وقد جمَع الله له مكارمَ الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفر بن محمد: أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بمكارمِ الأخلاق، وليس في القرآن آيةٌ أجمَعُ لمكارم الأخلاق مِن هذه الآية. وقد ذُكر: أنَّه لمَّا نزلتْ هذه الآيةُ قال رسول الله ﷺ لجبريلَ: «**ما هذا؟ قال: لا أدري حتَّى أسألَ، فسَألَ، ثمَّ رَجعَ إليه، فقال: إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أنْ تَصِلَ مَن قَطَعَكَ، وتُعطِيَ مَن حَرَمَكَ، وتَعفُوَ عمَّن ظَلَمَكَ**»[2].

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦)، وفي الحديث أن السائل سعد بن هشام وكان معه حكيم بن أفلح، فلعله حدث خلط في الاسمين. ولم أقف عليه في البخاري.

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٠/٦٤٣)، ط. التركي.

ولا ريب أنَّ للمُطاع مع الناس **ثلاثةَ أحوال**:

أحدها: أمْرُهم ونَهْيُهم بما فيه مصلحتُهم.

الثاني: أخْذُه منهم ما يَبذُلونه ممَّا عليهم من الطاعة.

الثالث: أنَّ الناس معه قِسمان: موافقٌ له موالٍ، ومعادٍ له مُعارِض. وعليه في كلِّ واحد من هذه الأحوال واجب.

فواجبه في أمْرهم ونَهْيِهم: أن يأمُرَ بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحُهم وصلاح شأنهم، وينهاهم عن ضدِّه.

وواجبُه فيما يَبذُلونه له من الطاعة: أن يأخُذ منهم ما سَهُل عليهم، وطوَّعَتْ له به أنفسُهم، سماحةً واختيارًا، ولا يحمِلهم على العَنَت والمشقَّةِ فيفسدَهم.

وواجبُه عند جهلِ الجاهلينَ عليه: الإعراضُ عنهم وعدمُ مقابلتهِم بالمِثل والانتقام منهم لنفْسِه، فقال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال عبد الله بن الزُّبَير رضي الله عنهما: «أمَر الله نبيَّه أن يأخُذ العفوَ مِن أخلاق الناس». وقال مجاهد: «يعني: خُذِ العفوَ من أخلاق الناس وأعمالِهم من غير تجسيس»، مِثل قَبولِ الاعتذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم.

فضائل حسن الخلق

قال أنسٌ رضي الله عنه: «**ما مَسِسْتُ دِيباجًا ولا حَريرًا ألْيَنَ مِن كَفِّ رَسولِ اللهِ ﷺ، ولا شَمِمْتُ رائِحةً قَطُّ أطْيَبَ مِن رائِحةِ رَسولِ اللهِ ﷺ. ولقَدْ خَدَمْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فما قال لي قَطُّ: أُفٍّ، ولا قال لِشَيْءٍ فَعَلْتُه: لِمَ فَعَلْتَه؟ ولا لشَيءٍ لَمْ أفْعَلْهُ: ألا فَعَلْتَ كذا؟**»[١] متفق عليهما.

وفي «الصَّحيح» عن عائشةَ عنه ﷺ: «**إنَّ المؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه دَرَجَةَ الصَّائمِ القائِمِ**»[٢].

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٣)، ومسلم (٢٣٣٠).

(٢) الحديث ليس في أحد الصحيحين، وأخرجه أحمد (٢٤٣٥٥)، وأبو داود =

وفيه أيضًا عنه ﷺ: «**أنا زَعيمٌ بِبَيتٍ في رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَن تَرَكَ المِراءَ وإنْ كان مُحِقًّا، وببَيتٍ في وسَطِ الجَنَّةِ لِمَن تَرَكَ الكَذِبَ وإنْ كان مازِحًا، وببَيتٍ في أعلى الجَنَّةِ لِمَن حَسَّنَ خُلُقَه**» رواه الطَّبَرانيُّ[(١)] وإسنادُه صحيحٌ.

فجعل البيتَ العلويَّ جزاءً لأعْلى المقاماتِ الثلاثة، وهي: حُسن الخلق. والأوسط لأوسطها، وهو: ترْك الكذب. والأدنى لأدناها، وهو: ترْك المماراة، وإنْ كان معه حق. ولا ريبَ أنَّ حُسن الخُلق مُشتمِلٌ على هذا كلِّه.

وفي الترمذي عنه ﷺ: «**إنَّ مِن أحبِّكُم إليَّ، وأقرَبِكُم منِّي مَجلِسًا يَومَ القِيامةِ: أحاسِنَكُم أخْلاقًا، وإنَّ أبغَضَكُم إليَّ وأبعَدَكُم منِّي يَومَ القِيامةِ: الثَّرْثارُونَ، والمُتَشدِّقُونَ، والمُتفَيْهِقُونَ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، قد عَلِمْنا الثَّرْثارُونَ والمُتَشدِّقُونَ، فما المُتفَيْهِقُونَ؟ قال: المُتَكبِّرُونَ**»[(٢)].

الثَّرثار: هو كثيرُ الكلام بغير فائدةٍ دينية، والمتشدِّق: المتكلِّمُ بمِلْءِ فيه تفاصُحًا وتَطاولًا، وإظهارًا لفضله على غيره.

* * *

الدِّين كله خُلق، فمَن زادَ عليك في الخُلق: زادَ عليك في الدِّين.

= (٤٧٩٨)، وابن حبان (٤٨٠)، والحاكم في المستدرك (١٩٩)، وقال: «حديث على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٩٥).

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٦٩٣)، و«الكبير» (٨/ ٧٤٨٨) من حديث أبي أمامة. وأخرجه الترمذي (١٩٩٣)، وقال: «حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن وردان» عن أنس بن مالك. وابن ماجه (٥١) من حديث أنس بن مالك. وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٣)، تنبيه: قول المؤلف: وفي الصحيح، لعله سبق قلم.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر رضي الله عنه. وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٣٢٠)، وأحمد (١٧٧٣٢)، وابن حبان (٤٨٢) من حديث أبي ثعلبة الخُشَني رضي الله عنه. وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٩١).

وقد قيل: إنَّ حسن الخُلق: بذلُ الندى، وكفُّ الأذى، واحتمالُ الأذى.

وقيل: حسن الخُلق: بذل الجميل، وكفُّ القبيح.

وقيل: التخلِّي من الرذائل، والتحلِّي بالفضائل.

أركان حسن الخلق وأسسه

وحُسن الخُلق يقومُ على أربعة أركان لا يُتصوَّر قيامُ ساقه إلا عليها: الصبر، والعِفَّة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يَحمِلُه على الاحتمال وكظْمِ الغيظ، وكفِّ الأذى، والحِلمِ والأناةِ والرِّفق، وعدمِ الطَّيش والعجلة.

والعفَّة: تحمله على اجتناب الرَّذائلِ والقبائحِ من القول والفعل، وتَحمِله على الحياء، وهو رأس كلِّ خير، وتمنعه من الفحش، والبخلِ والكذب، والغِيبة والنميمة.

والشجاعة: تَحمِلُه على عزَّةِ النَّفْس، وإيثارِ معالي الأخلاق والشِّيَم، وعلى البَذْل والنَّدى، الذي هو شجاعةُ النَّفْس وقوَّتُها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتَحمِلُه على كظمِ الغيظ والحلم؛ فإنَّه بقوَّة نفْسه وشجاعتِها أمسك عِنانها، وكبحها بلجامها عن التسرُّع والبطش، كما قال النبيُّ ﷺ: «**ليس الشَّديدُ بالصُّرَعةِ، إنَّما الشَّديدُ: الَّذي يَملِكُ نَفْسَه عِندَ الغَضَبِ**»[1]، وهذه حقيقة الشجاعةُ، وهي ملَكةٌ يَقتدِرُ بها العبد على قَهْر خَصْمِه.

والعدل: يَحمِلُه على اعتدال أخلاقه، وتوسُّطِه فيها بين طرفَي الإفراطِ والتفريط. فيَحمِلُه على خُلُق الجود والسَّخاء الذي هو توسُّطٌ بيْن الإمساك والإسرافِ والتبذير، وعلى خُلُق الحياء الذي هو توسُّطٌ بين الذُّلِّ والقِحَة، وعلى خُلُق الشجاعةِ الذي هو توسُّطٌ بين الجُبن والتَّهوُّر، وعلى خُلُق الحِلم الذي هو توسُّطٌ بين الغضب والمهانةِ وسقوطِ النفْس.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومنشأ جميعِ الأخلاق الفاضلةِ من هذه الأربعة.

أركان سوء الخلق

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالجهل: يُريه الحسنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحسن، والكمالَ نقصًا، والنَّقصَ كمالًا.

والظُّلْم: يَحمِلُه على وضع الشَّيءِ في غير موضعِه، فيَغضَبُ في موضع الرِّضا، ويَعجَلُ في موضع الأناة، ويَبخَلُ في موضع البذْل،، ويحجم في موضع الإقدام، ويُقدِمُ في موضع الإحجام، ويَلِينُ في موضع الشِّدَّة، ويشتدُّ في موضع اللِّين، ويتواضع في موضع العِزَّة، ويتكبَّرُ في موضع التَّواضع.

والشهوة: تَحمِلُه على الحِرص والشُّحِّ والبخل، وعدمِ العفَّةِ، والنَّهمة والجشع، والذُّلِّ والدَّناءاتِ كلِّها.

والغضب: يَحمِلُه على الكبر والحقدِ والحسد، والعدوانِ والسَّفَه.

ويتركَّبُ مِن بين كلِّ خُلُقين مِن هذه الأخلاق: أخلاقٌ مذمومة.

ومِلاك هذه الأربعةِ أصلان: إفراطُ النَّفْس في الضَّعف، وإفراطُها في القوَّة، يتولَّدُ من إفراطها في **الضعف**: المهانةُ والبخل، والخِسَّةُ واللؤم، والذلُّ والحِرص، والشحُّ وسَفساف الأمور والأخلاق.

ويتولَّدُ من إفراطها في القوَّة: الظلمُ والغضب والحِدَّة، والفُحشُ والبطش.

ويتولَّد مِن تزوُّجِ أحد الخُلُقينِ بالآخَرِ أولادُ غِيَّة كثيرون؛ فإنَّ النفْس قد تجمع قوَّةً وضعفًا، فيكون صاحبُها أجبرَ الناس إذا قدر، وأذلَّهم إذا قُهِر، ظالِم عسوفٌ جبَّار، فإذا قُهر: صار أذلَّ مِن امرأة جبان عن القوي، جريء على الضعيف.

فالأخلاق الذميمة: يولِّد بعضُها بعضًا، كما أن الأخلاق الحميدةَ: يولِّد بعضُها بعضًا.

كل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين

وكلُّ خُلُقٍ محمودٍ مكتَنَفٌ بخُلُقينِ ذَميمَينِ، وهو وسَطٌ بينهما، وطرَفاه خُلُقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خُلُقَا البخل والتَّبذير، والتواضع: الذي يكتنفه خُلُقَا الذلِّ والمهانة، والكبر والعلو.

خطورة الانحراف عن التوسط

فإن النَّفْس متى انحرفتْ عن التوسُّطِ انحرفت إلى أحد الخُلُقين الذميمين ولا بد.

فإذا انحرفت عن خلُق التواضعِ انحرفت: إمَّا إلى كِبْرٍ وعلوٍّ، وإمَّا إلى ذلٍّ ومَهانةٍ وحقارة.

وإذا انحرفتْ عن خلُق الحياء انحرفتْ: إما إلى قِحَةٍ وجراءة، وإما إلى عجز وخَوَرٍ ومهانة، بحيث يُطمِع في نفْسِه عدوَّه، ويَفوته كثيرٌ من مصالحه، ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياءُ، وإنَّما هو المهانةُ والعجز، وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خُلُق الصبر المحمودِ انحرفت: إما إلى جزع وهلَعٍ وجشَع وتسخُّطٍ، وإمَّا إلى غلظة كبد، وقسوةِ قلب، وحجريَّةِ طبع، كما قال بعضُهم:

يَبْكِي علينا ولا نَبْكي على أحَدٍ لَنَحْنُ أغلَظُ أكْبادًا مِنَ الإبِلِ

وإذا انحرفتْ عن خُلُق الحِلم انحرفت: إما إلى الطَّيش والنزق والحِدَّةِ والخفة، وإمَّا إلى الذلِّ والمهانة والحقارة، ففرْقٌ بيْن مَن حِلْمُه حِلْمُ ذلٍّ ومهانةٍ وحقارة وعجز، وبيْن مَن حِلْمُه حِلْمُ اقتدارٍ وعزَّةٍ وشرف، كما قيل:

كُلُّ حِلْمٍ أتَى بغَيرِ اقتِدارٍ حُجَّةٌ لاجِئٌ إليها اللِّئامُ

وإذا انحرفت عن خُلُق الأناةِ والرِّفق انحرفت: إمَّا إلى عجلةٍ وطَيش وعُنف، وإمَّا إلى تفريط وإضاعة، والرِّفقُ والأناة بينهما.

وإذا انحرفتْ عن خلُق العِزَّةِ التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفتْ: إمَّا إلى كبْر، وإمَّا إلى ذلٍّ، والعزةُ المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خُلُق الشجاعة انحرفت: إمَّا إلى تهوُّرٍ وإقدامٍ غيرِ محمود، وإمَّا إلى جبن وتأخُّرٍ مذمومٍ.

وإذا انحرفت عن خلُق المنافسة في المراتب العالية والغِبطة انحرفت: إمَّا إلى حسد، وإما إلى مهانة وعجزٍ وذلٍّ ورضًا بالدُّون.

وإذا انحرفتْ عن القناعة انحرفتْ: إمَّا إلى حرصٍ وكَلَب، وإمَّا إلى خِسَّةٍ ومهانةٍ وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلُق الرحمة انحرفت: إمَّا إلى قسوة، وإما إلى ضَعفِ قلبٍ وجُبن نفْس، كمَن لا يُقدِمُ على ذبح شاة، ولا إقامةِ حدٍّ، ولا تأديبِ ولد، ويزعم أنَّ الرَّحمة تَحمِلُه على ذلك، وقد ذبح أرحمُ الخلْق ﷺ بيده في موقف واحد ثلاثًا وستِّينَ بَدَنةً، وقطع الأيدي من الرِّجال والنساء، وضرب الأعناق، وأقام الحدودَ، ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم، وكان أرحمَ خلقِ اللهِ على الإطلاق وأرأفَهم.

وكذلك طلاقةُ الوجه، والبِشْر المحمود؛ فإنَّه وسَطٌ بين التَّعبيسِ والتقطيبِ وتصعير الخدِّ، وطَيِّ البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال بذلك مع كلِّ أحد، بحيث يُذهب الهيبة، ويُزيل الوقار، ويُطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأوَّلَ يوقِع الوحشةَ والبِغضة، والنُّفرةَ في قلوب الخلْق.

وصاحب الخلُق الوَسَط: مَهيبٌ محبوب، عزيزٌ جانبُه، حبيبٌ لقاؤه، وفي صِفة النبيِّ ﷺ: «**مَن رآهُ بديهةً هابَه، ومن خالَطَه عِشْرةً أحَبَّه**»[1].

* * *

فصل نافعٌ جدًّا

صعوبة تغيير الأخلاق التي طُبِعَتْ عليها النفوسُ

عظيم النفع للسالك، يوصله عن قريب، ويسيِّره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتُها؛ فإنَّ أصعب ما على الطبيعة الإنسانيَّةِ: تغييرُ الأخلاق التي طُبعتْ عليها، وأصحابُ الرِّياضات الصعبةِ والمجاهدات الشاقة

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث ليس إسناده بمتصل». وضعفه الألباني في المشكاة (٥٧٩١). تنبيه: لفظه «من رآه بديهة هابه، ومن خالطة معرفة أحبه».

إنَّما عمِلوا عليها، ولم يَظفَرْ أكثرُهم بتبديلها، لكن النفوس اشتغلت بتلك الرِّياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاء سلطانُ تلك الأخلاق وبرز: كسَر جيوشَ الرياضة وشتَّتها، واستولى على مملكة الطبع.

وهذا فصلٌ يصلُ به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتِها، ويكون سَيْرُه أقوى وأجَلَّ وأسرعَ من سَير العامل على إزالتها.

كيفية التخلص من الأخلاق المذمومة

ونقدِّمُ قبل هذا مثلًا نضرِبُه، مطابقًا لِما نُريده، وهو: نهرٌ جارٍ في صببه ومنحدرِه، ومُنتهٍ إلى تغريق أرضٍ وعمران ودورٍ، وأصحابُها يعلمون أنَّه لا ينتهي حتى يخرِّب دورَهم، ويُتلِفَ أراضيَهم وأموالَهم، فانقسموا **ثلاثَ فِرَقٍ**:

فرقة صرفتْ قواها وقوى أعمالها إلى سِكْره وحبسِه وإيقافه، فلا تصنع هذه الفرقةُ كبيرَ أمر؛ فإنَّه يوشك أن يجتمعَ ثم يحمل على السِّكْر، فيكون إفسادُه وتخريبُه أعظمَ.

وفرقةٌ رأت هذه الحالة، وعلِمتْ أنَّه لا يُغني عنها شيئًا، فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعِه من أصل اليَنبوع، فرامتْ قطعَه من أصله، فتعذَّر عليها ذلك غايةَ التَّعذُّر، وأبَتِ الطبيعةُ النَّهريةُ عليهم ذلك أشدَّ الإباء، فهم دائمًا في قطع اليَنبوع، وكلَّما سدُّوه مِن موضع نَبَعَ مِن موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النَّهر عن الزراعات والعماراتِ وغرسِ الأشجار.

فجاءت **فرقةٌ ثالثة**، خالفتْ رأي الفرقتين، وعلِموا أنَّهم قد ضاعت عليهم كثيرٌ من مصالحهم، فأخذوا في صرفِ ذلك النهرِ عن مَجراه المنتهي إلى خراب العمران، وصرفوه إلى موضعٍ ينتفعون بوصوله إليه، ولا يتضرَّرون به، فصرفوه إلى أرضٍ قابلة للنباتِ، وسقَوها به، فأنبتتْ لهم أنواعَ العُشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقةُ هي أصوبَ الفِرَقِ في شأن هذا النهر.

القوتان الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها

فإذا تبيَّن هذا المثَل، فالله سبحانه اقتضتْ حكمتُه: أن رَكَّب الإنسانَ ـ بل سائرَ الحيوانِ ـ على طبيعة محمولةٍ على قوَّتين: غضبيَّة، وشهوانية وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفْسِ وصفاتِها، وهما مركوزتان في جِبِلَّة كلِّ حيوان، فبقوَّة الشهوةِ والإرادة يَجذبُ المنافعَ إلى نفْسِه، وبقوَّةِ الغضب: يدفع المضارَّ عنها، فإذا استعمل الشهوةَ في طلب ما يَحتاج إليه: تولَّد منها الحرصُ، وإذا استعمل الغضبَ في دفع المضرَّةِ عن نفْسِه: تولَّد منه القوَّةُ والغَيرة، فإذا عجز عن ذلك الضارِّ: أورثه قوَّةَ الحقد، وإن أعجزه وصولُ ما يحتاج إليه، ورأى غيرَه مستبِدًّا به: أورثه الحسدَ، وإن ظفِر به: أورثَتْه شَهوتُه وإرادتُه: خُلُقَ البخل والشُّحِّ، وإن اشتد حرصُه وشهوتُه على الشيء، ولم يُمكِنْه تحصيلُه إلا بالقوَّة الغضبيَّة، فاستعملها فيه: فأورثه ذلك العدوان، والبَغيَ والظُّلْم، ومنه يتولَّدُ: الكبْرُ والخيلاءُ والفخر؛ فإنَّها أخلاقٌ متولِّدة من بين قوَّتَيِ الشهوةِ والغضب، وتزوُّجِ أحدِهما بصاحبه.

فإذا تبيَّن هذا: فالنهر مثالُ هاتين القوَّتين، وهو منصبٌّ في جدول الطبيعة ومَجراها إلى دُور القلب وعمرانه وحواصلِه، يُذهِبُها ويُتلِفُها ولا بد، فالنُّفوسُ الجاهلةُ الظَّالمةُ تركتْه ومجراه، فخرَّب ديارَ الإيمان، وقلَع آثارَه، وهدَم عمرانَه، وأنبتَ موضعَها كلَّ شجرةٍ خبيثة، مِن حنظل وضَريعٍ وشَوك وزَقُّوم، وهو الذي يأكلُه أهلُ النار يومَ المعاد.

سبل التخلص من أدواء النفوس

وأمَّا النُّفوسُ الزَّكيَّةُ الفاضلة: فإنَّها رأتْ ما يؤول إليه أمرُ هذا النهر، فافترقوا **ثلاثَ فِرَق**:

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلواتِ والتمرينات: رامُوا قطْعَه من يَنبوعه، فأبَتْ ذلك حكمةُ الله تعالى، وما طبَع عليه الجِبِلَّةَ البشرية، ولم تَنقَدْ له الطبيعة، فاشتدَّ القتال، ودام الحرب، وحميَ الوَطيسُ، وصارت الحرب دُوَلًا وسِجالًا، وهؤلاء صرفوا قُواهم إلى مجاهدة النَّفْسِ على إزالة تلك الصفات.

وفرقةٌ أعرَضوا عنها، وشَغلوا نفوسَهم بالأعمال، ولم يُجيبوا دواعي تلك الصِّفاتِ مع تخليتهم إيَّاها على مَجراها، لكن لم يمكِّنوا نهرَها من إفساد عمرانهم، بل اشتغلوا بتحصين العمران، وإحكامِ بنائه وأساسِه، ورأوْا أن ذلك النَّهرَ لا بدَّ أن يصل إليه، فإذا وصل وصل إلى بناءٍ مُحكَم لم يَهدِمْه، بل يأخُذُ عنه يمينًا وشمالًا، فهؤلاء صرَفوا قوَّةَ عزيمتهم وإرادتِهم في العمارة، وإحكامِ البناء، وأولئك صرَفوها في قطع المادَّةِ الفاسدةِ من أصلها، خوفًا من هدم البناء.

كيفية توقي آفات النفس

وسألتُ يومًا شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رحمه الله عن هذه المسألة، وقطعِ الآفات، والاشتغالِ بتنقية الطَّريقِ وتنظيفها؟

فقال لي في جملة كلامه: «النَّفْسُ مثل الباطُوس ـ وهو جُبُّ القَذَر ـ كلَّما نبشتَه ظهَر وخرج، ولكن إنْ أمكنك أن تَسقُفَ عليه، وتَعْبُرَه وتَجوزه فافعَلْ، ولا تشتغِلْ بنبشه؛ فإنَّك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشْتَ شيئًا ظهرَ غيرُه».

فقلتُ: سألتُ عن هذه المسألةِ بعضَ الشُّيوخِ؟ فقال لي: «مثالُ آفاتِ النَّفْسِ مثالُ الحيَّاتِ والعقاربِ التي في طريق المسافر، فإنْ أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغالِ بقتْلِها: انقطع، ولم يُمكِنْه السفرُ قطُّ، ولكن لتكُنْ همَّتُك المَسيرَ، والإعراضَ عنها، وعدمَ الالتفات إليها، فإذا عرَض لك فيها ما يَعوقك عن المَسيرِ فاقتُلْه، ثمَّ امضِ على سَيرك». فاستحسَنَ شيخُ الإسلام ذلك جدًّا، وأثنى على قائله.

أهمية الفهم السليم لطبائع النفوس

إذ تبين هذا، فهذه الفرقةُ الثالثة: رأتْ أنَّ هذه الصِّفاتِ ما خُلقَتْ سُدًى ولا عبثًا، وأنَّها بمنزلة ماءٍ يُسقى به الورد، والشوك، والثِّمارُ، والحطب، وأنَّها صوان وأصدافٌ لجواهرَ منطويةٍ عليها، وأنَّ ما خافَ منه أولئك هو نفْسُ سببِ الفلاح والظَّفَر، فرأوْا أنَّ الكِبْرَ نهرٌ يُسقي به العلوَّ والفخر، والبَطَرُ والظُّلْمُ والعدوان، ويُسقي به علوَّ الهمَّة، والأنَفة، والحَمِيَّة، والمراغمةُ لأعداء الله، وقهرُهم والعلوُّ عليهم، وهذه درَّةٌ في صدَفته، فصرَفوا مجراه إلى هذا الغِراس، واستخرجوا هذه الدرَّةَ من

صدفته، وأبقوه على حاله في نفوسهم، لكنِ استعملوه حيث يكون استعمالُه أنفعَ، **وقد رأى النَّبيُّ ﷺ أبا دُجَانةَ يَتبَخْتَرُ بيْن الصَّفَّيْنِ، فقال: إنَّها لَمِشْيةٌ يُبْغِضُها اللهُ، إلَّا في مِثْلِ هذا المَوضِعِ**[(١)].

فانظر كيف خلَّى مجرى هذه الصِّفةِ وهذا الخُلقِ يجري في أحسَنِ مواضعه.

وفي الحديث الآخَرِ ـ وأظنُّه في المسنَد ـ «**إنَّ مِنَ الخُيَلاءِ ما يُحِبُّها اللهُ، ومنها ما يُبْغِضُها اللهُ، فالخُيَلاءُ الَّتي يُحِبُّها اللهُ: اخْتِيالُ الرَّجُلِ في الحَربِ، وعِندَ الصَّدَقةِ**»[(٢)].

فانظر كيف صارتِ الصِّفةُ المذمومةُ عبوديَّةً؟ وكيف استحالَ القاطعُ موصلًا؟

فصاحِبُ الرِّياضات، والعاملُ على قطْع أصولِ هذه الصِّفات مجتهدٌ على قطع مادَّةِ الخيلاء والكِبر، هذا قد أقرَّها في موضعها وأعَدَّها لأقرانها، وهو مصرِّفٌ لها في مَصرف يُعينه على مطلبه ويُوصله إليه، وكذلك خُلق الحسد؛ فإنَّه لا يُذمُّ، وهو كالصدفة لدرة الغِبطة والمنافسة، كما قال النبي ﷺ: «**لا حَسَدَ إلَّا في اثنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتاهُ اللهُ مالًا، فسَلَّطَه على هَلَكَتِه في الحَقِّ، ورَجُلٍ آتاهُ اللهُ القُرآنَ، فهو يَقُومُ به آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ**»[(٣)].

فالحسد يُوصل إلى المنافسة التي يحبُّها الله ويأمر بها في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]؛ فلا تعمل على إعدام هذا الخُلق من نفْسك، بل احرفه إلى الحسد المحمودِ الحامل على

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ١٥٤).
(٢) أخرجه أحمد (٢٣٧٤٧)، وأبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٢٥٥٨) من حديث جابر بن عتيك رضي الله عنه، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٥٩): «حديث حسن».
(٣) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

المنافسة في الرُّتَب العالية، وتزاحم أهلها بالركب، لا تتمنى زوال نعمة الله عن عبده فتزول عنك ويبقيها عليه.

وكذلك خُلق الحِرص؛ فإنَّه من أنفع الأخلاق وأوصلِها إلى كلِّ خير، وشدةُ الطلب بحسَب قوَّة الحرص، فلا تَعملْ على قطْعها ولكن علقها بما ينفع النفسَ في معادها يكملها ويزكِّيها، كما قال ﷺ: «**احْرِصْ على ما يَنفَعُك، واستَعِنْ باللهِ ولا تَعْجِزْ**»[(١)].

فقوة الحرص لا تُذَمُّ، وإنما يُذم صَرفُها إلى ما يضرُّ الحرصُ عليه أو لا ينفع، وغيرُه أنفعُ للعبد منه.

صرف أخلاق النفوس عن مجاريها المذمومة إلى مجارٍ محمودة

وكذلك قوَّة الشهوة مِن أنفع القُوَى للعبد وأوصلِها إلى كماله وسعادتِه؛ فإنها تُثمر المحبَّةَ، وبحسَب شهوة العبد للكمال يكون طلبُه له، وبحسَب قوَّةِ شهوته لِلَذَّةِ العيش ووصالِ الأحبَّةِ وقرَّةِ العين يكون طلبُه لذلك في الجنة، وإنْ كان مؤمنًا بها موقنًا مصدِّقًا؛ فصِدقُ الشهوة وقوَّتُها يَحمِلُه على بيع مشتهى أعلى منه وأجلّ وأرفع.

وكذلك قوَّةُ الشُّحِّ والبخل محمودةٌ جدًّا نافعةٌ للعبد؛ فإنَّها تَحمِلُه على بخلِه وشُحِّه بزمانه ووقتِه وأنفاسِه أن يضيِّعَها ويَسمحَ بها لمَن لا يساوي، ويَشُحُّ أيضًا على حظِّه ونصيبه من الله أن يبيعَه أو يَهَبَه لأحد من الخلْق.

ويشحُّ أيضًا بماله ويَبخَلُ به كلَّ البخل أنْ لا يكون في ميزانه، وأن يتركَه لغيره يتنعَّمُ به ويَفوتُه هو أجرُه وثوابُه، فالشَّحيحُ بماله المُحِبُّ له هو الذي لا يَسمَحُ به لغيره، بل يأخُذُه مِن بين يديه زادًا لمَعاده، ومَن لا يُحِبُّه ولا له قدْرٌ عنده يرى أن يضيِّعَه ويدَعَه للوارث أو الجائحة والتَّلفِ ولا يستصحبه أمامَه.

فهذا هو الزاهدُ في المال، والأوَّلُ هو الراغبُ فيه المُحِبُّ له، وكان عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما إذا أعجبه شيءٌ من ماله قدَّمَه بين يديه.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذه قاعدة مطَّردةٌ في جميع الصِّفات والأخلاق، فالرُّسُل صلوات الله وسلامُه عليهم جاؤوا بصرْفها عن مجاريها المذمومةِ إلى مجارٍ محمودة، وجاؤوا بصرفِ قوَّةِ الشَّهوةِ إلى النِّكاح والتَّسري، حتى كان لسُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مائةُ امرأة، ولداودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تسعٌ وتسعون، وجمَع الرسولُ ﷺ بين تسع، وأباح للأمَّةِ أربعًا ممَّا طاب من النساء، ومِن السراري بلا حصر؛ صرْفًا لقوَّةِ هذه الشَّهوةِ عن مجرى الحرام إلى مجرى الحلال الذي يحبُّه الله، وهو أحبُّ إليه مِن نَفْلِ العبادة عند أكثرِ الفقهاء.

وكذلك جاؤوا بصرف القوة الغضبيَّة إلى جهاد أعداء الله، والغِلظةِ عليهم والانتقام منهم، وكذلك جاؤوا بصرف قوَّةِ اللَّهو والرُّكوبِ ونحوِه إلى اللَّهو بالرَّمي، والمسابقةِ على الخَيل وركوبِها في سبيل الله، واللَّهوِ في العرس.

وكذلك شهوة استماعِ الأصواتِ المطربة اللَّذيذةِ لا تذَمُّ بل تحمَد، وقد وقف النبيُّ ﷺ على أبي موسى الأشعريِّ واستمع إلى قراءته، وقال: «**لقد أُوتيَ مِزْمارًا مِن مَزامِيرِ آلِ داوُدَ**»[(١)]، وكان عُمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأمُرُه إذا حضر عِندَه مع الصحابة أن يُسمِعَهم قراءتَه، فيقرأ وهُم يسمعون، هذا كان سماعَ القوم، فمَن حرَّم هذا السَّماعَ أو من كرِهَه؟ وهل هذا إلَّا سَماعُ خواصِّ الأولياء؟ فأين هذا من سماع المُكاءِ والتَّصديةِ وقرآن الشيطان، وآلاتِ المعازف بنغمات الناشد؟

فلا بدَّ للرُّوح من سماعٍ طيبٍ تتغذَّى به، ولكن لا يستوي مَن غذاؤه العسلُ والحلوى والطيِّبات، ومَن غذاؤه الرجيع والمَيتةُ والدَّمُ ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله، ويا عجبًا! إنْ كان أهْلُ هذا لا يرون آثاره على شفاههم ووجوههم، أفلا يَستَحون من معاينة أربابِ البصائر ذلك عليهم؟!

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

رسوم الطبيعة وقواها لا يمكن تعطيلها في دار الابتلاء

والمقصود: أنَّ رسوم الطبيعة وقُواها لا يمكن تعطيلُها في دار الابتلاء والامتحان، فالبصير العارفُ يَستعمِلُها في مواضعها النافعةِ له، التي لا تحرم عليه دينًا، ولا تقطع عليه طريقًا، ولا تُفسِد عليه حاله مع الله، ولا تُسقِطه من عينه.

وهذا الفصلُ من أنفعِ فصول الكتاب لمَن هو مُعتنٍ بهذا الشأن، وعاملٌ على صلاح قلبِه وتزكيةِ نفْسِه، وإنَّما دخل الداخلُ حيث ظنَّ أن تزكية النفْس، وتهذيبَ الأخلاق يتيسَّرُ بطريقة الرِّياضات والمجاهدات، والخلوات؛ وهيهاتَ هيهات! إنَّما يوقِع ذلك في الآفات، والشُّبهاتِ، والضلالات؛ فإنَّ تزكية النفوس مُسَلَّمٌ إلى الرُّسُل، وإنَّما بعَثَهم الله لهذه التزكيةِ وولَّاهم إيَّاها، وجعَلها على أيديهم، دعوةً وتعليمًا وبيانًا وإرشادًا، لا خلْقًا ولا إلهامًا، فهُمُ المبعوثون لعلاج نفوسِ الأمم. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

تزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشدّ

وتزكية النُّفوس: أصعبُ مِن علاج الأبدان وأشدُّ، فمَن زكَّى نفْسَه بالرياضة والمجاهدةِ والخَلوة، التي لم يجئْ بها الرُّسُل: فهو كالمريض الذي يعالِجُ نفْسَه برأيه، وأين يقع رأيُه دون معرفة الطبيب؟ فالرُّسُل أطبَّاء القلوب، فلا سبيلَ إلى تزكيتها وصلاحِها إلَّا من طريقهم وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليمِ لهم. والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يكون الخُلُقُ كسبيًّا، أو هو أمرٌ خارج عن الكسب؟

قلت: يمكن أن يقع كسبيًّا بالتَّخلُّق والتَّكلُّف؛ حتى يصيرَ له سَجيَّةً وملَكةً، وقد قال النبيُّ ﷺ لأشَجِّ عبدِ القَيس رضي الله عنه: «**إنَّ فيك لَخُلُقَيْن يُحِبُّهما اللهُ: الحِلْمُ، والأناةُ**»، فقال: أخُلُقَيْنِ تَخلَّقْتُ بهما، أمْ جَبَلَني الله عليهِما؟ **فقال**: «**بلْ جَبَلَكَ اللهُ عليهِما**». فقال: الحَمدُ للهِ الَّذي جَبَلَني

على خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُما اللهُ ورَسولُه[(١)].

فدلَّ على أن من الخُلق: ما هو طبيعة وجِبِلَّة، وما هو مكتسَب.

وكان النبيُّ ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**اللَّهُمَّ اهْدِني لأحْسَنِ الأخلاقِ، لا يَهْدي لأحْسَنِها إلَّا أنتَ، واصْرِفْ عنِّي سَيِّئَها، لا يَصْرِفُ عنِّي سَيِّئَها إلَّا أنتَ**»[(٢)]، فذكر الكسب والقَدَر.

درجات الخُلُق

قال صاحب «المنازل»: (**وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولَى: أنْ تَعرِفَ مَقامَ الخَلْقِ، وأنَّهُم بأقْدارِهِم مَربُوطُونَ، وفي طاقاتِهِم مَحبُوسُونَ، وعلى الحُكْمِ مَوْقوفُونَ، فتَسْتَفيدُ بهذهِ المَعرِفةِ ثَلاثةَ أشياءَ: أمْنَ الخَلْقِ مِنكَ، حتَّى الكَلْبِ، ومَحَبَّةَ الخَلْقِ إيَّاكَ، ونَجاةَ الخَلْقِ بكَ).

مشاهد العبد فيما يصيبه من أذى الخلق

وهاهنا للعبد **أحدَ عشَرَ مشهدًا** فيما يُصيبه من أذى الخلْق وجنايتِهم عليه:

أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ، وهو مشهد القدَر، وأنَّ ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائِه وقدَره. يراه كالتَّأذِّي بالحرِّ والبرد، والمرضِ والألم، وهبوبِ الرِّياح، وانقطاع الأمطار. فإنَّ الكلَّ أوجبَتْه مشيئةُ الله. فما شاء الله كان، ووجب وجودُه. وما لم يشأْ لم يكن، وامتنع وجودُه. وإذا شهد هذا: استراح، وعلِمَ أنَّه كائن لا محالة؛ فما للجزع منه وجهٌ، وهو كالجزع من الحرِّ والبرد، والمرض والموت.

المشهد الثاني: مشهد الصَّبرِ، فيَشهَدُه ويشهدُ وجوبَه، وحُسنَ عاقبتِه، وجزاءَ أهله، وما يترتَّبُ عليه من الغِبطة والسرور. ويُخلِّصه مِن ندامة المقابلة والانتقام، فما انتقم أحدٌ لنفْسه قطُّ إلَّا أعقبه ذلك ندامة،

(١) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٥)، إلى قوله: «**الحِلم والأناة**»، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، وأخرجه أحمد (٢٤٠٠٩) من حديث الوزاع.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وعلِم أنَّه إن لم يصبر اختيارًا على هذا وهو محمود، صبَر اضطرارًا على أكثرَ منه وهو مذموم.

المشهد الثالث: مشهد العفو والصفح والحِلم، فإنَّه متى شهِد ذلك وفضْلَه وحلاوته وعِزَّته: لم يَعدِلْ عنه إلا لغبَشٍ في بصيرته، فإنَّه «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلَّا عِزًّا**»[1] كما صحَّ ذلك عن النبيِّ ﷺ، وعُلِم بالتَّجرِبة والوجود، وما انتقم أحدٌ لنفْسه إلَّا ذلَّ.

هذا؛ وفي الصفح والعفوِ والحِلم: من الحلاوة والطُّمأنينةِ والسكينة، وشرف النفسِ، وعِزَّتِها ورِفعتها عن تشفِّيها بالانتقام: ما ليس شيءٌ منه في المقابلة والانتقام.

المشهد الرابع: مشهد الرضا، وهو فوقَ مشهد العفوِ والصَّفحِ، وهذا لا يكون إلَّا للنفوس المطمئنة، سيَّما إن كان ما أُصيبتْ به سببه القيام لله، فإن كان ما أُصيب به في الله، وفي مرضاتِه ومحبَّتِه: رَضِيَتْ بما نالها في الله. وهذا شأنُ كلِّ محِبٍّ صادق، يرضى بما ينالُه في رضا محبوبه من المكاره. ومتى تسخَّطَ به أو تشكَّى منه، كان ذلك دليلًا على كذِبه في محبَّته. والواقع شاهدٌ بذلك، والمحِبُّ الصادقُ كما قيل:

مِنْ أجْلِكَ قد جَعَلْتُ خَدِّيَ أرْضا لِلشَّامِتِ والْحَسُودِ حَتَّى تَرْضَى

ومَن لم يرضَ بما يصيبه في سبيل محبوبِه، فلْينزِلْ عن درجة المحبَّة، وليتأخَّرْ؛ فليس مِن ذا الشأن.

المشهد الخامس: مشهد الإحسان، وهو أرفعُ ممَّا قبله، وهو أن يقابل إساءةَ المسيءِ إليه بالإحسان، فيُحسِنَ إليه كلَّما أساء هو إليه، ويُهوِّنُ هذا عليه عِلمُه بأنه قد ربِح عليه، وأنَّه قد أهدى إليه حسناتِه، ومحاها من صحيفته. وأثبتها في صحيفةِ مَن أساء إليه، فينبغي لك أن تشكره، وتُحسِنَ إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسَنَ به إليك.

وهاهنا ينفع استحضارُ مسألةِ اقتضاء الهِبَةِ الثَّوابَ، وهذا المسكين

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قد وهبك حسناتِه، فإن كنتَ مِن أهل الكرَم فأثِبْه عليها؛ لتثبتَ الهِبةَ، وتأمَنَ رجوعَ الواهب فيها.

وفي هذا حكاياتٌ معروفة عن أرباب المكارم، وأهلِ العزائم.

ويهوِّنُه عليك أيضًا: عِلمُك بأنَّ الجزاء مِن جِنس العمل، فإنْ كان هذا عملَك في إساءة مخلوقٍ إليك عفوتَ عنه، وأحسنتَ إليه، مع حاجتك وضَعفِك وفقرك وذُلِّك، فهكذا يفعل المحسِنُ القادر العزيزُ الغنيُّ بك في إساءتك؛ يقابِلُها بما قابلْتَ به إساءةَ عبدِه إليك، فهذا لا بدَّ منه، وشاهدُه في السُّنَّة من وجوه كثيرةٍ لمَن تأمَّلَها.

المشهد السادس: مشهد السلامة وبردِ القلب، وهذا مشهدٌ شريف جدًّا لمَن عرَفه، وذاق حلاوتَه، وهو أن لا يَشغَل قلبَه وسِرَّه بما ناله من الأذى، وطلبِ الوصول إلى درك ثأرِه، وشفاء نفْسِه، بل يُفرِّغُ قلبه من ذلك، ويرى أنَّ سلامته وبردَه وخلوَّه منه أنفعُ له، وألَذُّ وأطيب، وأعونُ على مصالحه؛ فإنَّ القلب إذا اشتغل بشيءٍ فاته ما هو أهمُّ عِندَه وخيرٌ له منه، فيكون بذلك مَغبونًا، والرَّشيدُ لا يرضى بذلك، ويراه مِن تصرُّفاته السَّيِّئة، فأين سلامةُ القلبِ مِنَ امتلائِه بالغَبن والوِسواس، وإعمالِ الفِكر في إدراك الانتقام؟.

المشهد السابع: مشهدُ الأمن، فإنَّه إذا ترك المقابلةَ والانتقام: أمِنَ ما هو شرٌّ من ذلك، وإذا انتقمَ: واقَعه الخوفُ ولا بدَّ، فإنَّ ذلك يزرعُ العداوةَ، والعاقلُ لا يأمَنُ عدوَّه، ولو كان حقيرًا، فكم مِن حقير أردى عدوَّه الكبير. فإذا غفَر، ولم يَنتقِمْ، ولم يقابِلْ: أمِنَ من تولُّد العداوة، أو زيادتِها. ولا بدَّ أنَّ عفوَه وحِلمَه وصَفحَه يَكسِرُ عنه شَوكةَ عدوِّه، ويَكُفُّ مِن عزمه، بعكس الانتقام، والواقع شاهدٌ بذلك أيضًا.

المشهد الثامن: مشهد الجهاد، وهو أن يشهد تولُّدَ أذى الناسِ له من جهاده في سبيل الله، وأمرِهم بالمعروف، ونَهيِهم عن المنكر، وإقامةِ دين الله، وإعلاء كلماتِه.

وصاحبُ هذا المقام: قد اشترى اللهُ منه نفْسَه وماله وعِرضَه

بأعظَم الثمن، فإنْ أراد أن يُسلِّم إليه الثمنُ فليُسلِّم هو السِّلعةَ ليستحِقَّ ثمنَها، فلا حقَّ له على مَن آذاه، ولا شيءَ له قِبَله، إن كان قد رضيَ بعقد هذا التبايُع؛ فإنَّه قد وجب أجْرُه على الله.

وهذا ثابت بالنَّصِّ وإجماع الصحابة ﷺ؛ ولهذا منَع النبيُّ ﷺ المهاجِرينَ مِن سُكنَى مكَّةَ ـ أعزَّها الله ـ ولم يَرُدَّ على أحدٍ منهم دارَه ولا مالَه الذي أخَذَه الكُفَّار، ولم يُضمِّنْهم دِيةَ مَن قتَلوه في سَبيلِ الله[1].

ولمَّا عزَم الصِّدِّيقُ رضي الله عنه على تضمين أهلِ الرِّدَّةِ ما أتْلَفوه مِن نفوس المسلمينَ وأموالِهم، قال له عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ـ بمشهَدٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم ـ: تِلك دِماءٌ وأموالٌ ذهبتْ في الله، وأجورُها على الله، ولا ديةَ لشهيد، فأصفق الصحابةُ على قول عُمرَ، ووافقه عليه الصِّدِّيقُ.

فمَن قام لله حتى أُوذيَ في الله: حرَّم اللهُ عليه الانتقامَ. كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].

المشهد التاسع: مشهد النِّعمة، وذلك من **وجوه:**

أحدها: أن يشهد نعمةَ الله عليه في أن جعَلَه مظلومًا يترقَّبُ النَّصرَ، ولم يجعلْه ظالِمًا يترقَّبُ المَقْتَ والأخذَ. فلو خُيِّر العاقلُ بين الحالتين ـ ولا بدَّ من إحداهما ـ لاختار أن يكون مظلومًا.

ومنها: أن يشهد نعمةَ الله في التَّكفير بذلك من خطاياه؛ فإنَّه ما أصاب المؤمنَ هَمٌّ ولا غَمٌّ ولا أذًى إلَّا كفَّر اللهُ به من خطاياه، فذلك في الحقيقة دواءٌ يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب، ومَن رضيَ أنْ يلقى اللهَ بأدوائِه كلِّها وأسقامِه، ولم يَداوِه في الدُّنيا بدواءٍ يوجِب له الشِّفاءَ: فهو مغبونٌ سَفيهٌ. فأذى الخلْقِ لك كالدَّواءِ الكَريهِ من الطبيب المشفِقِ عليك، فلا تنظرْ إلى مرارة الدَّواء وكراهتِه ومَن كان على يديه، وانظر إلى شفقة

(١) حديث منْع المهاجرين من سكنى مكة: أخرجه البخاري (٣٩٣٣)، ومسلم (١٣٥٢) من حديث العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه.

الطبيبِ الذي ركَّبه لك، وبعثَه إليك على يدَيْ مَن نفعَك بمضرَّتِه.

ومنها: أن يشهد كَونَ تلك البليَّةِ أهونَ وأسهلَ من غيرها؛ فإنَّه ما مِن محنةٍ إلَّا وفوقَها ما هو أقوى منها وأمَرُّ، فإنْ لم يكن فوقَها محنةٌ في البدن والمالِ فلينظرْ إلى سلامة دينه وإسلامِه وتوحيده، وأنَّ كلَّ مصيبةٍ دون مصيبةِ الدِّينِ جلَلٌ، وأنَّها في الحقيقة نعمةٌ. والمصيبة الحقيقيَّة مصيبةُ الدِّين.

ومنها: توفيةُ أجْرِها وثوابها يومَ الفقر والفاقة، وفي بعض الآثار: أنه يَتمنَّى أُناسٌ يَومَ القيامةِ لو أنَّ جُلودَهُم كانتْ تُقْرَضُ بالمَقارِيضِ، لِمَا يَرَوْنَه مِن ثَوابِ أهْلِ البَلاءِ[1].

هذا؛ وإن العبد لَيَشتَدُّ فرحُه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناس من الحقوق في المال والنفْس والعِرض؛ فالعاقل يَعُدُّ هذا ذُخرًا ليوم الفقر والفاقة، ولا يُبطِلُه بالانتقام الذي لا يُجدي عليه شيئًا.

المشهد العاشر: مشهد الأُسوة، وهو مشهدٌ لطيفٌ شريف جدًّا.

فإنَّ العاقل اللَّبيبَ يرضى أن يكون له أُسوةٌ برُسُلِ الله، وأنبيائه وأوليائِه، وخاصَّتِه مِن خلْقِه؛ فإنَّهم أشدُّ الخلْقِ امتحانًا بالناس، وأذى الناس إليهم أسرعُ من السَّيل في الحدور. ويكفي تدبُّرُ قَصصِ الأنبياء عليهم السلام مع أُمَمِهم، وشأنِ نبيِّنا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يؤْذَ به مَن قَبْلَه. وقد قال له ورَقةُ بنُ نوفَلٍ: لَتُكَذَّبَنَّ ولَتُخرَجَنَّ ولتؤْذَيَنَّ. وقال له: «ما جاء أحدٌ بِمِثْلِ ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ»[2]، وهذا مستمرٌّ في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ.

أفلا يرضى العبدُ أن يكون له أسوةٌ بخيار خلْق الله، وخواصِّ عباده: الأمثل فالأمثل؟!

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢) من حديث جابر رضي الله عنه. وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٨١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومَن أحَبَّ معرفةَ ذلك فليقف على مِحَنِ العلماء، وأذى الجهَّال لهم. وقد صنَّف في ذلك ابنُ عبد البَرِّ كتابًا أسماه: مِحَن العلماء.

المشهد الحادي عشر: وهو أجَلُّ المشاهدِ وأرفعُها: مشهد التوحيد، فإذا امتلأ قلبُه بمحبَّةِ الله والإخلاصِ له ومعاملتِه وإيثار مرضاتِه والتقرُّبِ إليه، وقرَّتْ عينُه بالله، وابتهج قلبه بحبِّه والأُنسِ به والاطمئنان إليه، وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه، واتَّخذه وليًّا دون ما سواه، بحيث فَوَّضَ إليه أمورَه كلَّها، ورضيَ به وبأقضيته، وفَنِيَ بحبِّه وخوفه ورجائه وذِكرِه والتوكُّلِ عليه، عن كل ما سواه ـ فإنه لا يبقى في قلبه متَّسَعٌ لشهود أذى الناس له البتَّةَ، فضلًا عن أن يشتغل قلبه وفِكرُه وسِرُّه بتطلُّب الانتقام والمقابلة، فهذا لا يكونُ إلَّا مِن قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوِّضُه منه، فهو قلب جائعٌ غيرُ شبعان، فإذا رأى أيَّ طعام هَفَتْ إليه نوازِعُه، وانبعثتْ إليه دواعيه. وأمَّا مَنِ امتلأ قلبُه بأعلى الأغذية وأشرفِها، فإنَّه لا يلتفت إلى ما دونها، وذلك فضْل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وجل أولياء الله منه مع إحسانهم

قال: (**الدَّرجةُ الثَّانيةُ: تَحْسِينُ خُلُقِكَ مع الحَقِّ، وتَحسِينُه مِنكَ: أنْ تَعْلَمَ أنَّ كُلَّ ما يأتي مِنكَ يُوجِبُ عُذْرًا، وأنَّ كُلَّ ما يأْتي مِنَ الحَقِّ يُوجِبُ شُكْرًا، وأنْ لا تَرَى له مِنَ الوَفاءِ بُدًّا**).

هذه الدرجة مبنيَّةٌ على **قاعدتين**:

إحداهما: أن تعلم أنَّك ناقص، وكلُّ ما يأتي من الناقص ناقصٌ، فهو يوجب اعتذارَه منه لا محالة، فعلى العبدِ أن يعتذر إلى ربِّه من كلِّ ما يأتي به من خير وشر؛ أما الشرُّ فظاهر، وأمَّا الخيرُ فيعتذر من نُقصانه، ولا يراه صالحًا لربِّه.

فهو ـ مع إحسانه ـ معتذرٌ في إحسانه؛ ولذلك مدَح الله أولياءَه بالوَجَل منه مع إحسانهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقال النبيُّ ﷺ: «**هو الرَّجُلُ يَصُومُ، ويَتَصدَّقُ، ويَخافُ أنْ لا يُقْبَلَ مِنهُ**»[(١)]، فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى.

والحامل له على هذا الاعتذارِ **أمْران**:

- **أحدهما**: شهود تقصيرِه ونقصانه.

- **والثاني**: صِدقُ محبَّتِه؛ فإنَّ المحبَّ الصادق يتقرَّبُ إلى محبوبه بغاية إمكانه، وهو معتذرٌ إليه غايةَ الاعتذار، مستحي منه: أن يواجهه بما واجهه به، يرى أنَّ قدْرَه فوقَه وأجَلُّ منه، وهذا مشاهَدٌ في محبَّةِ المخلوقين.

القاعدة الثانية: استِعظام كلِّ ما يَصدُرُ منه سبحانه إليك، والاعترافُ بأنه يوجب الشكرَ عليك، وأنك عاجزٌ عن شكره، ولا يتبيَّنُ هذا إلَّا في المحبَّةِ الصادقة؛ فإنَّ المحِبَّ يستكثر من محبوبه كلَّ ما يناله منه. فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه: كان سرورُه بذِكره له، وتأهيله لعطائه: أعظمَ عنده من سروره بذلك العطاءِ، بل يغيب بسروره بذِكره له عن سروره بالعطيَّة. وإذا كان المحِبُّ يَسرُّه ذِكرُ محبوبِه له، وإن ناله بمساءة، كما قال القائل:

لَئِنْ ساءَني أنْ نِلْتَني بمَسَاءَةٍ لقَدْ سَرَّني أنِّي خَطَرْتُ بِبالِكَا

فكيف إذا ناله محبوبُه بمَسرَّة ـ وإن دقَّت ـ فإنَّه لا يراها إلا جليلةً خطيرة، فكيف هذا مع أن الرَّبَّ ﷻ لا يأتي منه أبدًا إلَّا الخيرُ؟ ويستحيل خلافُ ذلك في حقِّه، كما يستحيل عليه خلافُ كماله.

وقد أفصح أعرفُ الخلْق بربِّه عن هذا بقوله: «**والشَّرُّ ليس إليكَ**»[(٢)]؛ أي: لا يُضاف إليك، ولا يُنسَب إليك، ولا يَصدُر منك؛

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٢٦٣)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، والحاكم (٣٤٨٦)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فإنَّ أسماءه كلَّها حسنى، وصفاتِه كلَّها كمال، وأفعاله كلها فضل وعدل، وحكمةٌ ورحمة ومصلحة، فبأي وجهٍ يُنسَب الشرُّ إليه ﷻ؟ فكلُّ ما يأتي منه فله الحمد والشكر، وله فيه النعمة والفضل.

قوله: (**وأنْ لا تَرَى له مِنَ الوَفاءِ بُدًّا**).

يعني: أن معاملتك للحقِّ سبحانه بمقتضى الاعتذار مِن كلِّ ما منك، والشكرِ على ما منه: عقدٌ مع الله تعالى لازمٌ لك أبدًا، لا ترى من الوفاء به بُدًّا. فليس ذلك بأمر عارض، وحالٍ يَحول، بل عقدٌ لازمٌ عليك الوفاءُ به إلى يوم القيامة.

أهمية تصفية الخلق من كل سوء

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: التَّخَلُقُ بتَصْفيةِ الخُلُقِ، ثُمَّ الصُّعودُ عن تَفرِقةِ التَّخلُّقِ، ثُمَّ التَّخلُّقُ بمُجاوَزةِ الأخلاقِ**).

هذه الدرجة تتضمن ثلاثة **أشياءَ**:

أحدها: تصفية الخُلُق بتكميل ما ذكر في الدرجتين قبله، فيصفِّيه من كلِّ شائبةٍ وقذًى ومشوِّش. فإذا فعلتَ ذلك صعِدْتَ من تفرقته إلى جمعيَّتِك على الله؛ فإنَّ التخلُّق والتَّصوُّفَ تهذيبٌ واستعداد للجمعيَّة. وإنَّما سماه تفرقةً: لأنَّه اشتغال بالغير، والسلوك يقتضي الإقبالَ بالكلية، والاشتغالَ بالرَّبِّ وحدَه عمَّا سِواه.

ومدار حسن الخُلق مع الحق، ومع الْخَلْق: على حرفين. ذكرهما الشيخ عبد القادر الكِيلانيُّ رَحِمَهُ اللهُ فقال: «كُن مع الحقِّ بلا خَلْق، ومع الخَلْق بلا نفْس».

فتأمَّلْ، ما أجَلَّ هاتين الكلمتين مع اختصارهما!، وما أجمعَهما لقواعد السلوك ولكل خُلُق جميل! وفساد الخُلق إنما ينشأ من توسُّط الخَلْق بينك وبين الله، وتوسُّطِ النفْسِ بينك وبين خَلْقه. فمتى عزلت الخَلْق ـ حال كونك مع الله ـ وعزلت النفْس ـ حال كونك مع الخلق ـ فقد فُزْتَ بكلِّ ما أشار إليه القوم، وشمَّروا إليه، وحامُوا حَوْلَه. والله المستعان.



منزلة التواضع

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

أي: سكينة ووقارًا متواضعين، غير أشِرين، ولا مَرِحين ولا متكبِّرين، قال الحسَن: «علماء حُلماء». وقال محمد ابنُ الحنفيَّة: «أصحاب وقار وعفة لا يسفهون، وإن سُفِه عليهم حلُموا».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لمَّا كان الذُّلُّ منهم ذُلَّ رحمة وعطفٍ وشفقة وإخبات عدّاه بأداة على تضمينًا لمعاني هذه الأفعال؛ فإنَّه لم يُرِد به ذلَّ الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذَلول، فالمؤمن ذَلول، كما في الحديث: «المؤْمِنُ كالجَمَلِ الذَّلُولِ، والمُنافِقُ والفاسِقُ ذَلِيلٌ».

أربعة يعشقهم الذل أشد العشق

وأربعة يعشقهم الذُّلُّ أشدَّ العشق: الكذاب، والنَّمَّام، والبخيل، والجبَّار.

وقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال عطاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «للمؤمنين كالولد لوالده، وعلى الكافرين كالسَّبُع على فريسته».

وفي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةُ مَن كان في قَلْبِه مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ**»(١).

وفي حديث احتجاج الجنة والنارِ: **أنَّ النَّارَ قالتْ**: «**ما لي لا يَدخُلُني إلَّا الجَبَّارُونَ، والمُتَكبِّرُونَ؟ وقالتِ الجَنَّةُ: ما لي لا يَدخُلُني إلَّا**

(١) أخرجه مسلم (٩١).

ضُعَفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهُم»[(١)]. وهو في «الصحيح».

صور من تواضع النبي ﷺ

«وكان النَّبيُّ ﷺ يَمُرُّ على الصِّبْيانِ فيُسَلِّمُ عليهِم»[(٢)].

«وكانتِ الأمَةُ تَأخُذُ بيَدِه ﷺ فتَنطَلِقُ به حَيثُ شاءَتْ»[(٣)].

«وكان ﷺ يَكُونُ في بَيتِه في خِدْمةِ أهْلِه[(٤)]، ولمْ يَكُنْ يَنتَقِمُ لنَفْسِه قَطُّ»[(٥)].

وكان ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَه، ويُرَقِّعُ ثَوْبَه، ويَحلُبُ الشَّاةَ لأهْلِه، ويَعلِفُ البَعِيرَ، ويَأكُلُ مع الخادِمِ، ويُجالِسُ المَساكِينَ، ويَمْشي مع الأرْمَلةِ واليَتيمِ في حاجَتِهِما، ويَبدَأُ مَن لَقِيَه بالسَّلامِ، ويُجِيبُ دَعْوةَ مَن دَعاهُ، ولوْ إلى أيسَرِ شَيءٍ.

وكان ﷺ هَيِّنَ المُؤْنةِ، لَيِّنَ الخُلُقِ، كريمَ الطَّبعِ، جَميلَ المُعاشَرةِ، طَلْقَ الوَجْهِ بَسَّامًا، مُتَواضِعًا مِن غَيرِ ذِلَّةٍ، جَوادًا مِن غَيرِ سَرَفٍ، رَقِيقَ القَلبِ رَحيمًا بكُلِّ مُسْلِمٍ، خافِضَ الجَناحِ لِلمؤْمِنينَ، لَيِّنَ الجانِبِ لهُم.

وقال ﷺ: «ألَا أُخبِرُكُم بمَن يَحْرُمُ على النَّارِ ـ أو: تَحرُمُ عليهِ النَّارُ ـ تَحْرُمُ على كُلِّ قَريبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ»[(٦)] رواه الترمذي. وقال: حديث حسن.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري معلقا (٦٠٧٢)، ووصله أحمد (١١٩٤١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٦) أخرجه أحمد (٣٩٣٨)، والترمذي (٢٤٨٨)، وقال: «حديثٌ حسن غريب» من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٣٨).

وقال: «**لوْ دُعِيتُ إلى ذِراع** - أو كُرَاعٍ - **لَأَجَبْتُ، ولوْ أُهدِيَ إليَّ ذراعٌ** - أو كُرَاعٌ - **لَقَبِلْتُ**»(١) رواه البخاري.

أقوال السلف في التواضع

سُئل الفُضيلُ بنُ عِياض عن التواضُع؟ فقال: «يخضع للحقِّ، وينقاد له، ويَقبلُه ممَّن قاله».

وقيل: التواضع أن لا ترى لنفْسِك قيمة، فمَن رأى لنفْسِه قيمةً فليس له في التواضع نصيب.

وهذا مذهب الفُضَيل وغيرِه.

وقال الجُنَيد: «هو خفْض الجَناح، ولِينُ الجانب».

وقال إبراهيمَ بن شَيبان: «الشرف في التواضع، والعِزُّ في التقوى، والحرية في القناعة».

وقال عُروة بن الزُّبَير رضي الله عنهما: «رأيتُ عُمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه على عاتقه قِربةُ ماء، قلت: يا أميرَ المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: لمَّا أتاني الوفودُ سامعين مطيعين، دخلَتْ نفْسي نخوة، فأحببتُ أن أكسِرها».

ويُذكر أنَّ أبا ذر رضي الله عنه عيَّر بلالًا رضي الله عنه بسواده، ثم إنَّه ندِم، فألقى نفْسَه وحلف: لا رفعتُ رأسي حتى يطأ بلالٌ خدِّي بقدمه، فلم يرفع رأسَه حتى فعل بلال(٢).

وبلغ عُمرَ بنَ عبد العزيز رضي الله عنه: أنَّ ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم، فكتب إليه عُمر: «بلغني أنَّك اشتريتَ فَصًّا بألْف درهم، فإذا أتاك كتابي فبِعِ الخاتَمَ، وأشبعْ به ألْفَ بطن، واتَّخِذْ خاتمًا بدرهمين، واجعل فَصَّه حديدًا صينيًّا، واكتُب عليه: رحِم الله امرأً عرَف قدْرَ نفْسِه».

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١)، وليس عندهما تِلك القِصة أو التصريح بأنَّه بلالٌ رضي الله عنه.

أول ذنب عصى الله به أبَوَا الثقلين

أوَّلُ ذنب عَصى اللهَ به أبَوَا الثقلين: الكِبْرُ والحرص، فكان الكبْرُ ذنبَ إبليسَ اللعين؛ فآل أمرُه إلى ما آل إليه، وذنب آدمَ على نبيِّنا وعليه السَّلامُ: كان من الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبةَ والهداية، وذنب إبليسَ حمله على الاحتجاج بالقدَر والإصرار، وذنب آدم أوجب له إضافتَه إلى نفْسِه، والاعترافَ به والاستغفار.

فأهل الكبْرِ والإصرار، والاحتِجاجِ بالأقدار: مع شيخهم وقائدِهم إلى النار إبليس، وأهل الشهوة: المستغفرون التائِبون المعترِفون بالذنوب، الذين لا يحتجون عليها بالقدَر: مع أبيهم آدمَ في الجنة.

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيمية رَحِمَهُ اللهُ يقول: «المتكبِّرُ شرٌّ من المشرك؛ فإنَّ المتكبِّر يَتكبَّرُ عن عبادة الله تعالى، والمشرِك يَعبُدُ اللهَ وغيرَه».

مفهوم التواضع عند صاحب «المنازل»

قال صاحب «المنازل»: (**التَّواضُعُ: أنْ يَتَواضَعَ العبدُ لِصَوْلةِ الحَقِّ**).

يعني: أن يتلقى سلطان الحقِّ بالخضوع له، والذُّلِّ، والانقياد، والدخولِ تحت رِقِّه، بحيث يكون الحقُّ متصرفًا فيه تصرُّفَ المالك في مملوكه، فبهذا يحصُل للعبد خلُقُ التواضع، ولهذا فَسَّر النبيُّ ﷺ الكبْرَ بضدِّه، فقال: «**الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْصُ النَّاسِ**»[(١)]، **فبَطَرُ الحق**: ردُّه وجحده، والدفع في صدره، كدفع الصائل، **وغمْصُ الناس**: احتقارهم وازدراؤهم، ومتى احتقرهم وازدراهم: دفَعَ حقوقهم، وجحَدَها، واستهان بها.

ولمَّا كان لصاحب الحقِّ مقالٌ وصوْلة: كانت النفوسُ المتكبرة لا

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

تُقِرُّ له بالصولة على تلك الصولةِ التي فيها، ولا سيما النفوس المبطلة، فتصول على صولة الحق بكِبْرها وباطلِها.

درجات التواضع

قال: **(وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: التَّواضُعُ للدِّينِ، وهو أنْ لا يُعارِضَ بمَعقولٍ مَنْقولًا، ولا يَتَّهِمَ للدِّينِ دَليلًا، ولا يَرى إلى الخِلافِ سَبيلًا).

(التَّواضُعُ للدِّينِ) هو الانقياد لِما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلامُ له، والإذعان. وذلك **بثلاثة أشياءَ**:

الأول: أن لا يعارض شيئًا ممَّا جاء به بشيء من المعارضات الأربعةِ السارية في العالَم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذَّوق، والسياسة.

الثاني: أن لا يتَّهِم دليلًا من أدلَّةِ الدِّين، بحيث يظنُّه فاسدَ الدلالة، أو ناقصَ الدلالة، أو قاصرَها، أو أنَّ غيره كان أولى منه، ومتى عرَض له شيءٌ من ذلك فليتَّهِم فَهْمَه، وليعلمْ أن الآفة منه، والبليَّة فيه، وإذا رأيتَ مِن أدلَّةِ الدِّينِ ما يُشكِل عليك، ويَنبو فهمُك عنه، فاعلم أنه لعظمته وشرفِه استعصى عليك، وأنَّ تحته كَنزًا من كنوز العلم، ولم تؤتَ مِفتاحَه بعد هذا في حقِّ نفسك.

وأمَّا بالنسبة إلى غيرك: فاتَّهِم آراء الرجال على نصوص الوحي، وليكنْ ردُّها أيسرَ شيءٍ عليك للنُّصوص، فما لم تفعلْ ذلك فلستَ على شيء. ولو.. ولو.. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء.

الثالث: أنْ لا يجد إلى خلاف النصِّ سبيلًا البتَّةَ، لا بباطنه، ولا بلسانه، ولا بفِعله، ولا بحاله، بل إذا أحسَّ بشيء من الخلاف: فهو كخلاف المُقدِم على الزِّنا، وشُرْبِ الخمر، وقَتْلِ النفْس؛ بل هذا الخلاف أعظمُ عند الله من ذلك، وهو داعٍ إلى النفاق، وهو الذي خافه الكِبارُ والأئمَّة على نفوسهم.

مفهوم التواضع للدين وحقيقته

قال: (**ولا يَصِحُّ ذلك إلَّا بأنْ يَعْلَمَ: أنَّ النَّجاةَ في البَصيرةِ، والاستِقامةَ بَعْدَ الثِّقةِ، وأنَّ البَيِّنةَ وراءَ الحُجَّةِ**).

يقول: إنَّ ما ذكرْناه من التواضع للدِّين بهذه الأمور **الثلاثة**:

الأولى: عِلمُه أن النجاة من الشقاء والضلال: إنَّما هي في البصيرة، فمَن لا بصيرة له: فهو من أهل الضلال في الدنيا والشقاءِ في الأخرى.

والبصيرة نور الله يجعله في عين القلب، يفرِّقُ به العبدُ بين الحق والباطل، ونسبته إلى القلب: كنسبة ضوءِ العين إلى العين.

وهذه البصيرة وهْبيَّةٌ وكَسْبيَّة. فمَن أدام النظر في أعلام الحقِّ وأدلَّتِه، وتجرَّد لله عن هواه: استنارتْ بصيرته، ورُزِق فرقانًا يفرِّق به بين الحقِّ والباطل.

الثاني: أن يعلم أن الاستقامة إنما تكون بعد الثقة؛ أي: لا يتصور حصول الاستقامة في القول والعملِ والحال، إلَّا بعد الثقة بصحَّةِ ما معه من العِلم، وأنَّه مقتبَسٌ مِن مشكاة النبوة، ومن لم يكن كذلك فلا ثقةَ له ولا استقامة.

الثالث: أن يعلم أنَّ البَيِّنةَ وراءَ الحُجَّة، والبيِّنةُ مراده بها: استبانةُ الحقِّ وظهورُه، وفيه معنًى آخَرُ، وهو: أن العبد إذا قَبِل حجَّةَ الله لمحض الإيمان والتسليمِ والانقياد: كان هذا القَبولُ هو سببَ تبيُّنها له وظهورِها، وانكشافِها لقلبه.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: أنْ تَرْضى بمَن رَضِيَ الحَقُّ به لنفْسِه عَبْدًا مِنَ المُسلِمينَ أخًا، وأنْ لا تَرُدَّ على عَدوِّك حَقًّا، وتَقْبَلَ مِنَ المُعتذِرِ مَعاذِيرَه**).

يقول: إذا كان الله قد رضيَ أخاك المسلم لنفسه عبدًا، أفلا ترضى انتسابه أخًا؟ فعدَمُ رضاك به أخًا ـ وقد رضِيَه سيدُك الذي أنت

عبدُه عبدًا لنفسه ـ عينُ الكِبْر، وأيُّ قبيحٍ أقبَحُ من تكبُّر العبد على عبد مثله، لا يرضى بأُخوَّتِه، وسيدُه راضٍ بعبوديَّتِه؟

قوله: **(وأنْ لا تَرُدَّ على عَدوِّكَ حَقًّا)**.

أي: لا تصح لك درجة «التواضع» حتى تَقبَل الحقَّ ممَّن تحِبُّ وممَّن تُبغِض، فتَقبله من عدوِّك كما تقبله من وليِّك.

وأما **قَبولُك مِنَ المُعتذِرِ مَعاذِيرَه**.

فمعناه: أنَّ مَن أساء إليك ثم جاء يعتذِرُ مِن إساءته؛ فإنَّ التواضع يوجِب عليك قَبولَ معذرته، حقًّا كانت أو باطلًا، وتكِلُ سريرته إلى الله تعالى، كما فعَل رسولُ الله ﷺ في المنافقينَ الذين تخلَّفوا عنه في الغزو، فلمَّا قَدِم جاؤوا يعتذِرون إليه، فقَبِل أعذارَهم، ووَكَل سرائرَهم إلى الله تعالى.

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: أنْ تَتَّضِعَ للحَقِّ، فتَنزِلَ عن رأيِك وعَوائِدِكَ في الخِدمةِ ورؤْيةِ حَقِّكَ في الصُّحبةِ، وعن رَسْمِكَ في المُشاهَدةِ)**.

يقول: «التواضع» بأن تخدم الحقَّ سبحانه، وتعبُدَه بما أمرك به، على مقتضى أمرِه.

وحاصله: أنَّه لا يكون باعثُه على العبودية مجرَّدَ رأي، وموافقة هوى ومحبة، ولا عادة؛ بل الباعث مجرد الأمر، والرأيُ والمحبَّةُ والهوى والعوائد: منفذة تابعة، لا أنها مُطاعةٌ باعثة، وهذه نكتة لا يتنبَّهُ لها إلَّا أهلُ البصائر.

وأما **نُزولُه عن رؤيةِ حقِّه في الصُّحبة**.

أي: ألَّا يرى لنفْسِه حقًّا على الله لأجْل عملِه؛ فإنَّ صُحبتَه مع الله بالعبودية والفقر المحض، والذُّلِّ والانكسار؛ فمتى رأى لنفْسِه عليه حقًّا فسدتِ الصُّحبة، وصارت معلولةً وخِيفَ منها المقتُ، ولا ينافي هذا ما أحقَّه الله سبحانه على نفْسِه من إثابة عابديه وإكرامِهم؛ فإنَّ ذلك حقٌّ

أحقَّه على نفْسِه بمحض كرمِه وبرِّه وجُودِه وإحسانِه، لا باستحقاق العبيد، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم.





منزلة الفُتُوَّة

هذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس، وكفِّ الأذى عنهم، واحتمالِ أذاهم، فهي استعمال حُسنِ الخُلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجةُ حُسن الخُلُق واستعمالِه.

الفرق بين الفتوة والمروءة

والفرق بينها وبين المروءةِ أن المروءة أعمُّ منها، فالفتوة نوعٌ من أنواع المروءة؛ فإنَّ المروءة استعمالُ ما يجمِّل ويَزيْن ممَّا هو مختصٌّ بالعبد، أو متعدٍّ إلى غيره، وتركُ ما يدنِّسُ ويَشين ممَّا هو مختصٌّ أيضًا به، أو متعلِّقٌ بغيره.

والفُتوَّة إنما هي استعمالُ الأخلاقِ الكريمة مع الخَلْق.

وهذه منزلةٌ شريفة، لم تُعبِّر عنها الشريعةُ باسم «الفتوة»، بل عبَّرت عنها باسم «مكارم الأخلاق».

وأصلُ «الفتوة» من «الفتى» وهو الشابُّ الحديثُ السنِّ، قال الله تعالى عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ١٣﴾ [الكهف: ١٣]

فاسمُ «الفتى» لا يُشعِر بمدحٍ ولا ذمٍّ، كاسم الشاب والحَدَث، ولذلك لم يَجِئ اسم «الفتوة» في القرآن ولا في السُّنَّة، ولا في لسان السَّلف، وإنَّما استعمَلَه مَن بعدهم في «مكارم الأخلاق».

وأصلُها عندهم: أنْ يكون العبد أبدًا في أمْرِ غيره.

وأقدمُ مَن عَلِمتُه تكلَّم في «الفتوة» جَعفرُ بن محمد، ثم الفُضيل بن عِياض، والإمام أحمد، وسَهْل بن عبد الله، والجُنيد، ثم الطائفة.

فيُذكر أنَّ جعفر بن محمد سُئل عن الفتوَّة؟ فقال للسائل: «ما تقولُ

أنت؟ فقال: إنْ أُعطيت شكرتُ، وإنْ مُنعت صبرتُ، فقال: الكلابُ عندنا كذلك! فقال السائل: يا ابنَ رَسولِ الله؛ فما الفتوَّةُ عندكم؟ فقال: إن أُعطينا آثَرْنا، وإن مُنِعْنا شكرْنا».

وقال الفُضَيل بن عِياض: «الفتوَّةُ الصفحُ عن عثرات الإخوان».

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه ـ في رواية ابنه عبد الله ـ عنه، وقد سُئِل ما الفُتوَّة؟ فقال: «ترْكُ ما تهوى لِما تَخشى».

وقال الدقَّاق: «هذا الخُلُق لا يكون كمالُه إلَّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإن كلَّ أحد يقول يوم القيامة: نفْسي نفْسي، وهو يقول: «**أُمَّتي أُمَّتي**»[1]».

وقيل: الفتوة: كسر الصنم الذي بينك وبين الله تعالى، وهو نفْسُك.

وقال الجُنَيد: «الفتوة كفُّ الأذى، وبَذْلُ النَّدى».

وقيل: فضيلة تأتيها، ولا ترى نفْسَك فيها.

وقيل: أنْ لا تَهرُبَ إذا أقبل العافي؛ يعني: طالبَ المعروف.

ومِن الفتوَّة التي لا تُلْحَق: ما يُذكر أنَّ رجلًا نام من الحاج في المدينة، ففَقَد هِمْيانًا[2] فيه ألْفُ دينار، فقام فزِعًا، فوجد جعفرَ بن محمد فعَلِقَ به، وقال: أخذت هِمْياني، فقال: أيُّ شيء كان فيه؟ قال: ألْفُ دينار، فأدخله دارَه ووزن له ألف دينار، ثم إنَّ الرجل وجد هميانه، فجاء إلى جعفر معتذرًا بالمال، فأبى أن يقبله منه، وقال: شيءٌ أخرجته من يدي لا أستردُّه أبدًا، فقال الرجُل للناس: مَن هذا؟ فقالوا: هذا جعفر بن محمد رضي الله عنهما.

حقيقة الفُتُوَّة ودرجاتها

قال صاحب «المنازل»: (**نُكْتةُ الفُتُوَّةِ: أنْ لا تَشهَدَ لَك فَضْلًا، ولا تَرى لَك حَقًّا**).

(١) حديث الشفاعة أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة، والبخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) **الهِمْيان**: وِعاءٌ للدِّراهم، وكِيسٌ للنَّفقة يُشدُّ في الوَسَط. ينظر: «تاج العروس» للزَّبيدي (٤٠/ ٣١٢)، «المعجم الوسيط» مجموعة مُؤلِّفين (٢/ ٩٩٦).

يقول: قلبُ الفتوة، وإنسانُ عينِها: أن تفنى بشهادة نقصك، وعيبك عن فضلك، وتغيب بشهادة حقوق الخلْق عليك عن شهادة حقوقِك عليهم.

قال: (**وَهِيَ عَلَى دَرَجَاتٍ:**

الأُولَى: تَرْكُ الْخُصُومَةِ، وَالتَّغَافُلُ عَنِ الزَّلَّةِ، وَنِسْيَانُ الْأَذِيَّةِ).

هذه الدرجة من باب التَّرك والتخلِّي، وهي أن لا يخاصم أحدًا، فلا ينصب نفسه خصمًا لأحد غيرها، فهي خصمه.

وهذا المنزل أيضًا ثلاثُ درجات، لا يخاصم بلسانه، ولا ينوي الخصومةَ بقلبه ولا يُخطرها على باله، هذا في حقِّ نفْسِه.

وأما في حقِّ ربِّه: فالفُتوَّة أن يخاصم بالله، وفي الله، ويحاكِمَ إلى الله، كما كان النبيُّ ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**وبكَ خاصَمْتُ، وإليكَ حاكَمْتُ**»[1]، وهذه درجة فُتوَّةِ العلماء الدُّعاةِ إلى الله تعالى.

فضل التغافل عن الزلة

وأما (**التَّغافُلُ عنِ الزَّلَّةِ**) فهو أنَّه إذا رأى من أحد زلَّةً لم يوجب عليه الشرعُ أخْذَه بها: أظهَر أنَّه لم يرها، لئلَّا يعرِّضَ صاحبها للوحشة، ويريحَه من تحمُّل العذر.

وفتوة التغافل: أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية.

قال أبو عليٍّ الدَّقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جاءت امرأةٌ فسألت حاتمًا عن مسألة؟ فاتَّفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة، فخجِلَتْ، فقال حاتم: ارفعي صوتَك، فأوهمها أنَّه أصمُّ، فَسُرَّت المرأة بذلك، وقالت: إنه لم يسمع الصوت، فلُقِّب بحاتمٍ الأصمِّ، وهذا التغافل هو نصف الفُتوَّة».

وأما (**نِسْيانُ الأذيَّةِ**) فهو بأن تنسى أذيَّة مَن نالَك بأذى، ليصفوَ قلبُك له، ولا تستوحش منه.

قلت: وهنا نِسيانٌ آخَرُ أيضًا، وهو من الفُتوَّة، وهو نِسيانُ

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، مسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

إحسانِك إلى مَن أحسنتَ إليه، حتى كأنه لم يَصدُرْ منك، وهذا النِّسيان أكملُ من الأول، وفيه قيل:

يَنْسَى صَنائِعَهُ واللَّهُ يُظهِرُها ... إنَّ الجَميلَ إذا أخفَيْتَهُ ظَهَرَا

الإحسان إلى من أساء إليك

قال: (**الدَّرجةُ الثَّانيةُ: أنْ تُقرِّبَ مَن يُقْصِيك، وتُكرِّمَ مَن يؤْذيكَ، وتعتَذِرَ إلى مَن يَجْني عليكَ، سَماحةً لا كَظْمًا، ومَوَدَّةً لا مُصابَرَةً**).

هذه الدرجة أعلى ممَّا قبلها وأصعب؛ فإنَّ الأُولى: تتضمَّن ترْكَ المقابلةِ والتغافل، وهذه تتضمن الإحسانَ إلى مَن أساء إليك، ومعاملتَه بضدِّ ما عاملك به، فيكون الإحسانُ والإساءة بينك وبينه خطتين، فخطتك: الإحسان، وخطته: الإساءة. وفي مثلها قال القائل:

إذا مَرِضْنا أتَيْناكُم نَعُودُكُمُ ... وتُذْنِبونَ فنَأْتيكُم ونَعْتَذِرُ

ومَن أراد فَهْمَ هذه الدرجةِ كما ينبغي، فلينظرْ إلى سيرة النبيِّ ﷺ مع الناس يجدها هذه بعينها، ولم يكن كمالُ هذه الدرجة لأحد سواه، ثم للورثة منها بحسَب سهامِهم مِنَ التَّركة.

وما رأيتُ أحدًا قطُّ أجمعَ لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابنِ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ وكان بعضُ أصحابه الأكابر يقول: ودِدْتُ أنِّي لأصحابي مِثْلُه لأعدائه وخصومه.

وما رأيتُه يدعو على أحد منهم قطُّ، وكان يدعو لهم.

وجئتُ يومًا مبشِّرًا له بموت أكبرِ أعدائه، وأشدِّهم عداوةً وأذى له، فنَهَرَني وتنكَّر لي واسترجَعَ، ثم قام مِن فوره إلى بيت أهله فعزَّاهم، وقال: أنا لكم مكانَه، ولا يكون لكم أمْرٌ تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدْتُكم فيه، ونحو هذا من الكلام، فسُرُّوا به، ودعَوْا له، وعظَّموا هذه الحالَ منه.

إلا الاعتذار إلى مَن يجني عليك فإنه غيرُ مفهوم في بادي الرأي، إذْ لم يصدُر منك جنايةٌ توجب اعتذارًا، وغايتك: أنَّك لا تؤاخِذه، فهل تعتذر إليه مِن ترْكِ المؤاخَذة؟!

ومعنى هذا: أنك تُنزِل نفسك منزلةَ الجاني لا المجنيِّ عليه، والجاني خليقٌ بالعذر.

والذي يُشهِدك هذا المشهد: أن تعلم أنه إنما سُلِّط عليك بذنْب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].

فإذا علِمتَ أنَّك بدأتَ بالجناية فانتقَمَ اللهُ منك على يَدِه، كُنتَ في الحقيقة أولى بالاعتذار.

والذي يُهوِّن عليك هذا كلَّه: مشاهدةُ تلك المشاهد العَشرة المتقدِّمة؛ فعليك بها؛ فإنَّ فيها كنوزَ المعرفة والبر.

جسر المصابرة والكظم

وقوله: **(سَماحةً لا كَظْمًا، وتَوَادًّا لا مُصابَرَةً)**.

يعني: اجعَلْ هذه المعاملةَ منك صادرةً عن سماحة، وطيبة نفْس، وانشراحِ صدر، لا عن كظم، وضيقٍ ومصابرة؛ فإنَّ ذلك دليلٌ على أنَّ هذا ليس في خُلقك، وإنما هو تكلُّفٌ يوشك أن يزول ويظهر حُكم الخلق فتفتضح، وليس المقصودُ إلَّا إصلاح الباطن والسِّرِّ والقلب.

وهذا الذي قاله الشيخ لا يمكِنُ إلَّا بعد العبور على جسر المصابرة والكظمِ، فحينئذ إذا تمكَّن فيه أفضى به إلى هذه المنزلة بعون الله.

۞ ۞ ۞



منزلة المروءة

حقيقتها: اتِّصافُ النفْسِ بصفات الإنسانِ التي فارَق بها الحيوانَ البهيم، والشيطانَ الرَّجيم؛ فإنَّ في النفس ثلاثةَ دواعٍ متجاذبة: داعٍ يدعوها إلى الاتِّصاف بأخلاق الشيطان: من الكِبْر، والحسد، والعلو، والبغي، والشر، والأذى، والفساد، والغش.

وداعٍ يدعوها إلى أخلاق الحيوان، وهو داعي الشهوة.

وداعٍ يدعوها إلى أخلاق المَلَك: مِن الإحسان، والنُّصح، والبِرِّ، والعلم، والطاعة.

فحقيقة المروءة: بُغض ذينك الدَّاعيَين، وإجابةُ الداعي الثالث.

وقلة المروءة وعدمُها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتوجُّهُ لدعوتِهما أين كانت.

قال بعض السلف: «خلَق الله الملائكةَ عقولًا بلا شهوة، وخلَق البهائم شهوةً بلا عقول، وخلق ابنَ آدمَ، وركَّب فيه العقلَ والشهوة؛ فمَن غلب عقلُه شهوتَه: الْتَحق بالملائكة، ومَن غَلَبت شهوتُه عقلَه: الْتَحق بالبهائم».

حد المروءة

ولهذا قيل في حدِّ المروءة: إنها غلبةُ العقل للشهوة.

وقال الفقهاء في حدِّها: هي استعمال ما يجمِّل العبدَ ويزيْنه، وترْكُ ما يدنِّسه ويَشينه.

وحقيقة (المروءة) تجنُّب الدنايا والرَّذائل، من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.

فمروءة اللسان: حلاوته وطيبته ولِينُه، واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر.

ومروءة الخُلُق: سَعَتُه وبَسْطُه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعَه المحمودةَ عقلًا وعُرفًا وشرعًا.

ومروءة الجاه: بَذْلُه للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيلُه وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حالَ وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه، فهذه مروءة البَذْل.

وأما مروءة التَّرْك: فكترك الخصام، والمعاتبةِ، والمطالبة والممارَاة، والإغضاءِ عن عيب ما يأخذه من حقِّك، وتركِ الاستقصاء في طلبه، والتغافلِ عن عثَرات الناس، وإشعارهم أنَّك لا تعلم لأحد منهم عثرة، والتوقير للكبير، وحِفظ حرمة النظير، ورعاية أدب الصغير.

درجات المروءة

وهي ثلاثُ دَرجات:

الدَّرجة الأولى: **مروءة المَرءِ مع نفْسه**، وهي أن يحملها قَسْرًا على مراعاة ما يجمِّل ويزين، وترك ما يدنس ويشين، ليصير لها ملكة في العلانية. فمن اعتاد شيئًا في سره وخلوته: ملكه في علانيته وجهره.

فلا يفعل خاليًا ما يستحي مِن فعلِه في الملأ، إلَّا ما لا يحظرُه الشرعُ والعقل، ولا يكون إلَّا في الخلوة، كالجماع والتخلِّي ونحو ذلك.

المروءة مع الخلق

الدرجة الثانية: **المروءة مع الخلْق**، بأن يستعمل معهم شروطَ الأدب والحياء، والخُلُق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو مِن غيره لنفسه، وليتخذ الناسَ مرآةً لنفسه، فكلُّ ما كَرِهَه ونفرَ عنه، مِن قول أو فعلٍ أو خلُق، فليتجنَّبْه، وما أَحَبَّه من ذلك واستحسنه فليفعَلْه.

وصاحبُ هذه البصيرةِ ينتفع بكلِّ مَن خالطه وصاحبه مِن كاملٍ وناقص، وسيِّءِ الخُلُقِ وحسَنِه، وعديم المروءة وغزيرِها.

وكثير من الخلْق: يتعلم المروءة، ومكارمَ الأخلاق من الموصوفينَ بأضدادها، كما رُوِيَ عن بعض الأكابر: أنه كان له مملوكٌ

سيِّئُ الخلُق، فظٌّ غليظ، لا يناسِبه، فسُئل عن ذلك؟ فقال: أدرس عليه مكارمَ الأخلاق.

وهذا يكون بمعرفة مكارمِ الأخلاق في ضدِّ أخلاقه، ويكون بتمرين النفْس على مصاحبته ومعاشرتِه، والصبرِ عليه.

المروءة مع الحق سبحانه

الدرجة الثالثة: **المروءة مع الحقِّ سبحانه، بالاستحياء من نظره إليك**، واطِّلاعه عليك في كلِّ لحظة ونَفَس، وبإصلاح عيوب نفْسِك جهد الإمكان؛ فإنَّه قد اشتراها منك وأنت ساعٍ في تسليم المبيع، وتقاضي الثمن، وليس من المروءة: تسليمُه على ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن كاملًا، أو رؤية شهود مننه في هذا الإصلاح، وأنَّه هو المتولِّي له، لا أنت، فيفنيك الحياءُ منه عن رسوم الطبيعة، والاشتغال بإصلاح عيوب نفْسِك عن التفاتك إلى عيب غيرك، وشهود الحقيقة عن رؤية فعلِك وصلاحِك.





منزلة الإرادة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقد تنوَّعتْ عباراتُ القوم عنها، وغالبهم يُخبِرُ عنها بأنها تركُ العادة.

ومعنى هذا: أن عادة الناس غالبًا التعريجُ على أوطان الغفلة، وإجابةُ داعي الشهوة، والإخلاد إلى أرض الطبيعة، والمريدُ منسلخ عن ذلك، فصار خروجُه عنه: أمارةً ودلالةً على صحة الإرادة، فسُمِّيَ انسلاخُه وتركُه إرادةً.

وقيل: نهوض القلب في طلب الحقِّ.

ويقال: لوعةٌ تهوِّن كلَّ روْعة.

قال الدَّقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإرادة لَوعة في الفؤاد، لَذعة في القلب، غَرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيرانٌ تأَجَّجُ في القلوب».

من صفات المريد الصادق

وقيل: من صفات المريد: التحبُّبُ إلى الله بالنوافل، والإخلاصُ في نصيحة الأمَّة، والأنسُ بالخَلوة، والصبرُ على مقاساة الأحكام، والإيثارُ لأمره، والحياءُ من نظره، وبذلُ المجهود في محبوبه، والتعرُّض لكلِّ سبب يُوصل إليه، والقناعةُ بالخمول، وعدمُ قرار القلب حتى يَصِلَ إلى وليِّه ومعبوده.

وقيل: مِن حُكم المريد: أنْ يكون نومُه غلَبةً، وأكْلُه فاقة، وكلامُه ضرورة.

وقال أبو عُثمان الحِيَرِيُّ: «مَن لم تَصِحَّ إرادتُه ابتداءً، فإنه لا يَزيده مرورُ الأيام عليه إلا إدبارًا».

قلت: إذا صدَق المريد، وصحَّ عقْدُ صِدقِه مع الله؛ فتَح الله على قلبه ببركة الصِّدق، وحُسْنِ المعاملة مع الله ما يُغنيه عن العلوم التي هي نتائجُ أفكارِ الناس وآرائهم، وعن العلوم التي هي فضلةٌ ليستْ من زاد القبر، وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم، التي أفنوا فيها أعمارهم: من معرفة النفس وآفاتِها وعيوبها، ومعرفةِ مفسدات الأعمال، وأحكامِ السلوك. فإن حال صدقه، وصحَّةِ طلبه: يريه ذلك كلَّه بالفعل.

والمريد الصادق: هو الذي قرأ القرآنَ وحفِظ السُّنَّة، والله يرزُقُه ببركة صدقِه ونورِ قلبِه فَهمًا في كتابه وسُنَّةِ رسولِه يغنيه عن تقليد فَهمِ غيرِه.

والبصير الصادق: يضرب في كل غنيمةٍ بسهم، ويُعاشرُ كلَّ طائفة على أحسنِ ما معها، ولا يتحيَّزُ إلى طائفة، ويَنْأى عن الأخرى بالكلية إلَّا أن لا يكون معها شيءٌ من الحقِّ، فهذه طريقة الصادقين، ودعوى الجاهلية كامنةٌ في النفوس.

ولا أعْنِي بذلكَ أصْغَرَيْهِم ... ولَكِنِّي أُرِيدُ به الدُّوَيْنَا

وسمِع النبيُّ ﷺ في بعض غزواته قائلًا يقول: يا لَلْمُهاجِرِينَ، وآخر يقول: يا لَلْأنصارِ! فقال: «**ما بالُ دَعْوى الجاهِلِيَّةِ، وأنا بيْن أظْهُرِكُم؟**»[١].

ولا يذوق العبدُ حلاوةَ الإيمان، وطعْمَ الصِّدقِ واليقين، حتى تخرج الجاهليَّةُ كلُّها من قلبه، وواللهِ لو تحقَّقَ الناسُ في هذا الزمان ذلك في قلبِ رجُلٍ واحد لرَمَوْه عن قوس واحدة، وقالوا: هذا مبتدِع، ومِن دعاة البدع! فإلى الله المشتكى، وهو المسئول الصبرَ، والثباتَ، فلا بد من لقائه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾ [طه: ٦١]. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

مفهوم الإرادة عند صاحب «المنازل»

قال صاحب «المنازل»: (**قال اللهُ تعالى**: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]).

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

في تصديره البابَ بهذه الآية دلالةٌ على عِظَمِ قدْرِه، وجلالةِ مَحلِّه من هذا العِلم؛ فإنَّ معنى الآية: كلٌّ يعمل على ما يُشاكِلُه، ويُناسِبه، ويليق به، فالفاجرُ يعمل على ما يليق به، وكذلك الكافرُ والمنافق، ومريدُ الدنيا وجيفتِها: عاملٌ على ما يناسبه، ولا يليق به سواه، ومُحِبُّ الصُّوَر: عاملٌ على ما يناسبه ويليق به.

فكُلُّ امْرِئٍ يَهْفُو إلى ما يُحِبُّهْ وكُلُّ امْرِئٍ يَصْبُو إلى ما يُناسِبُهْ

فالمريدُ الصادق المحِبُّ لله: يعمل ما هو اللائقُ به والمناسبُ له؛ فهو يعمل على شاكلة إرادته، وما هو الأليقُ به، والأنسبُ لها.

قال: (**الإرادةُ: مِن قَوانِينِ هذا العِلْمِ، وجَوامِعِ أبنِيَتِه، وهيَ الإجابةُ لِدَواعي الحَقيقةِ، طَوْعًا أوْ كَرْهًا**).

يريد: أن هذا العِلمَ مَبنيٌّ على الإرادة، فهي أساسُه، ومجمعُ بنائه، وهو مشتمل على تفاصيلِ أحكامِ الإرادة، وهي حركة القلب.

مشاهدة الربوبية والتزام العبودية

وأمَّا قولُه: (**وهيَ الإجابةُ لداعي الحَقيقيةِ**):

فالإجابة هي الانقياد، والإذعان. والحقيقة عندَهم: مشاهدةُ الرُّبوبية، والشريعةُ: التزامُ العبودية. فالشريعة: أن تعبده، والحقيقة: أن تشهده. فالشريعة: قيامُك بأمْره، والحقيقة: شهودُك لوصْفه. وداعي الحقيقة: هو صحةُ المعرفة؛ فإن مَن عرَف الله أحبَّه ولا بُدَّ.

ولا بُدَّ في هذه الإجابة من ثلاثة أشياء: نفْس مُستعِدَّة قابلة، لا تعوز إلا الداعي، ودعوة مسمعة، وتخلية الطريق من المانع.

فما انقطع مَنِ انقطع إلَّا من جهة من هذه الجهات الثلاث.

درجات الإرادة

قال: (**وهيَ على دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولَى: ذَهابٌ عنِ العاداتِ بصُحْبةِ العِلْمِ، والتَّعلُّقُ بأنْفاسِ السَّالِكِينَ، مع صِدْقِ القَصْدِ، وخَلْعُ كُلِّ شاغِلٍ مِنَ الإخْوانِ، ومُشَتِّتٍ مِنَ الأوْطانِ).

هذا يوافق مَن حدَّ الإرادة بأنَّها: مخالفة العادة، وهي تركُ عوائدِ

النفس وشهواتِها، ورعوناتها وبطالاتِها، ولا يمكن ذلك إلَّا بهذه الأشياءِ التي أشار إليها، وهي: صحبة العِلم ومعانقتُه؛ فإنَّه النور الذي يُعرِّف العبدَ مواقعَ ما ينبغي إيثار طلبه، وما ينبغي إيثارُ تركه. فمَن لم يَصحَبْه العِلم: لم تَصِحَّ له إرادةٌ باتفاق كلمة الصادقين، ولا عبرة بقطَّاع الطريق.

ومنها: التعلُّقُ بأنفاس السالكين، ولا ريب أن كلَّ مَن تعلَّق بأنفاس قومٍ انخرط في سلكهم، ودخل في جملتهم.

وقال: **(أنْفاس السَّالِكِينَ)** ولم يقل: أنفاس العابدين؛ فإنَّ العابدين شأنهم القيام بالأعمال، وشأن السالكين مراعاةُ الأحوال.

وقوله: **(مع صِدْقِ القَصْدِ)**.

صدق القصد يكون بأمْرين، أحدهما: توحيدُه، والثاني: توحيدُ المقصود، فلا يقع في قصدك قسمة، ولا في مقصودك.

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: تُقْطَعُ بصُحبةِ الحالِ، وتَرويحِ الأُنسِ، والسَّيرِ بيْن القَبْضِ والبَسطِ)**.

أي: ينقطع إلى **صحبة الحال**، وهو الوارد الذي يَرِدُ على القلب من تأثُّره بالمعاملة، السالبُ لوصف الكسل والفتور، الجالبُ له إلى مرافقة الرَّفيق الأعلى، الذين أنعم الله عليهم، فينتقل مِن مقام العِلم إلى مقام الكشف، ومن مقام رسوم الأعمال إلى مقام حقائقها وأذواقِها، ومَواجيدِها، وأحوالها، فيترقَّى من الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإحسان.

وأمَّا **ترويحُ الأُنس** الذي أشار إليه: فإن السالك في أوَّل الأمرِ يجدُ تعبَ التكليف ومشقَّةَ العمل؛ لعدم أُنسِ قلبِه بمعبوده، فإذا حصَلَ للقلب روحُ الأُنسِ به، زالت عنه تلك التكاليف والمشاقُّ، وصارت قُرَّةَ عين له، وقوةً ولذةً، فتصير الصَّلاةُ قرَّةَ عينِه، بعد أن كانت حملًا عليه، ويستريح بها، بعد أن كان يطلب الراحة منها، فله ميراثٌ من قوله ﷺ:

«أرِحْنا بالصَّلاةِ يا بِلالُ»[(١)] . «وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاةِ»[(٢)]، بحسَب إرادته، ومحبَّتِه، وأُنْسِه بالله، ووحشته مما سِواه.

السير بين القبض والبسط

وأمَّا **السَّيرُ بين القبض والبسط**:

فـ«القبض والبسط» حالتان تَعرِضان لكلِّ سالك، يتولَّدان من الخوف تارة، والرَّجاءِ تارة، فيَقبِضُه الخوف، ويَبسُطُه الرجاء.

ويتولَّدان من الوفاء تارة، والجفاءِ تارة، فوفاؤه: يورثه البسطَ، ورجاؤه يورثه القبض.

ويتولَّدان من التفرقة تارة، والجمعيَّةِ تارة، فتفرقته تورثه القبض، وجمعيته تورثه البسط.

ويتولَّدان مِن أحكام الوارد تارة، فوارِدٌ يورث قبضًا، ووارد يورث بَسْطًا.

وقد يهجُمُ على قلب السالكِ قبضٌ لا يدري ما سببُه، وبَسْطٌ لا يدري ما سببه، وحُكم صاحبِ هذا القبض، **أمران**:

الأول: التوبة والاستغفار؛ لأنَّ ذلك القبض نتيجةُ جناية أو جفوة لا يشعر بها.

الثاني: الاستسلام حتى يمضيَ عنه ذلك الوقت، ولا يتكلَّف دفْعَه، ولا يستقبل وقتَه مغالبةً وقهرًا، ولا يطلب طلوع الفجر في وسَط الليل، وليرقد حتى يمضي عامَّةُ الليل، ويحين طلوعُ الفجر، وانقشاع ظلمة الليل، بل يصبر حتى يهجم عليه الوقت ويزول القبض؛ فالله يَقبِض ويَبسُطُ.

وكذلك إذا هجم عليه واردُ البسط: فليحذرْ كلَّ الحذر من الحركة

---

(١) أخرجه أحمدُ (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي (٣٩٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٢٤).

والاهتزاز، وليُحْرِزْه بالسكون والانكماش والاستقرار، ويلقيه بالثبات؛ فإنَّه في هذا الوقت عليه خطر عظيم، فليحذر مكرًا خفيًّا، فالعاقل يقف على البساط، ويحذر من الانبساط، وهذا شأن عقلاءِ أهل الدنيا ورؤسائهم: إذا ما ورد عليهم ما يَسرُّهم ويبسطهم ويهيِّج أفراحَهم، قابلوه بالسكون والثباتِ والاستقرار، حتى كأنه لم يهجُم عليهم. وقال كعب بن زُهَير في مدح المهاجرين:

ليسوا مَفارِيحَ إنْ نالَتْ رِماحُهُمُ ... قَومًا، وليسوا مَجازيعًا إذا نِيلُوا





منزلة الأدب

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]

قال ابن عباس وغيرُه: علِّموهم وأدِّبوهم.

وهذه اللفظة مؤذِنةٌ بالاجتماع، فالأدب اجتماع خصالِ الخير في العبد، ومنه المأدبة، وهو الطعام الذي يجمع عليه الناس.

وعِلم الأدب: هو عِلمُ إصلاح اللِّسان والخِطاب، وإصابةِ مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصِيانته عن الخطأ والخَلَل، وهو شُعبةٌ من الأدب العامِّ.

والأدب ثلاثة أنواع: أدبٌ مع الله، وأدب مع رسوله ﷺ وشرعه، وأدب مع خَلْقِه.

أنواع الأدب مع الله

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانةُ معاملته: أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبك: أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادتك أن تتعلَّق بما يَمقُتُك عليه.

وقال أبو عليٍّ رحمه الله: «ترْكُ الأدب يوجب الطَّردَ؛ فمَن أساء الأدب على البساط رُدَّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رُدَ إلى سياسة الدَّواب».

وقال ابنُ المبارك: «نحن إلى قليل من الأدب أحوجُ منَّا إلى كثير من العِلم».

طبقات الناس في الأدب

وقال أبو نصرٍ السَّرَّاجُ رَحِمَهُ اللهُ: «الناس في الأدب على ثلاثِ طبقاتٍ:

أمَّا أهلُ الدنيا: فأكبر آدابهم: في الفصاحة والبلاغة، وحِفظِ العلوم، وأسمار الملوك، وأشعارِ العرب.

وأمَّا أهلُ الدِّين: فأكبر آدابهم في رياضة النفوس وتأديبِ الجوارح، وحِفظِ الحدود وتركِ الشهوات.

وأمَّا أهل الخصوصية: فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاةِ الأسرار، والوفاء بالعهود، وحِفظِ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحُسنِ الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور، ومقامات القرب».

وقال ابن المبارك: «قد أكثر الناسُ القولَ في «الأدب»، ونحن نقول: إنَّه معرفة النفس. أراد: أن أصله معرفةُ النفس ورعوناتِها، وتجنُّبُ تلك الرعونات».

وقال الثَّوريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَن لم يتأدَّبْ للوقت، فوقْتُه مَقْت».

عظم أدب الرسل مع الله

وتأمَّلْ أحوالَ الرُّسُلِ صلواتُ الله وسلامُه عليهم مع الله، وخطابَهم وسؤالهم، كيف تَجِدُها كلَّها مشحونةً بالأدب، قائمةً به.

قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦] ولم يقل: «لم أقُلْه»، وفرْقٌ بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثمَّ أحال الأمر على عِلمه سبحانه بالحال وسِرِّه، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ ثم برَّأ نفْسَه عن عِلمه بغيب ربِّه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ ثم أثنى على ربه، ووصَفه بتفرُّده بعِلم الغيوب كلِّها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١١٦﴾، ثم نفى أن يكون قال لهم غيرَ ما أمره ربُّه به - وهو محضُ التَّوحيد - فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، ثم أخبر عن شَهادته عليهم مدَّةَ مقامه فيهم، وأنَّه بعد وفاتِه لا اطِّلاعَ له عليهم، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ وحدَه المنفردُ بعد الوفاةِ بالاطِّلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ

﴿ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٨]، ثم وصَفه بأن شهادته سبحانه فوقَ كلِّ شهادة وأعمُّ، فقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: ١١٧]، ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ [المائدة: ١١٨] وهذا مِن أبلغ الأدبِ مع الله في مثل هذا المقام؛ أي: شأنُ السيد رحمةُ عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدُك ليسوا عبيدًا لغيرك، فإذا عذَّبْتَهم - مع كونِهم عبيدَك - فلولا أنهم عبيدُ سوءٍ مِن أبخسِ العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له لم تعذِّبْهم؛ لأنَّ مرتبة العبودية تستدعي إحسانَ السيد إلى عبدِه ورحمته، فلماذا يعذِّبُ أرحمُ الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظمُ المحسنينَ إحسانًا عبيدَه؟ لولا فرْطُ عُتُوِّهم، وإباؤُهم عن طاعته، وكمالُ استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدَّم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾؛ أي: هم عبادك، وأنت أعلم بسِرِّهم وعلانيتهم، فإذا عذَّبْتَهم: عذَّبْتَهم على عِلمٍ منك بما تعذِّبُهم عليه، فهُم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه، فليس في هذا استعطافٌ لهم، كما يظنُّه الجهَّال، ولا تفويضٌ إلى محض المشيئة والملك المجرَّد عن الحكمة، كما تظنُّه القدَريَّة، وإنما هو إقرار واعترافٌ وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدلِه، وكمال عِلمِه بحالهم، واستحقاقِهم للعذاب.

من أبلغ الأدب مع الله

ثم قال: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ١١٨]، ولم يقل: «الغفور الرحيم»، وهذا مِن أبلغِ الأدب مع الله تعالى؛ فإنه قاله في وقت غضبِ الرَّبِّ عليهم، والأمرِ بهم إلى النار، فليس هو مقامَ استعطافٍ ولا شفاعة؛ بل مقام براءةٍ منهم، فلو قال: «فإنَّك أنت الغفور الرحيم»، لأشعَرَ باستعطافه على أعدائه الذين قد اشتد غضبُه عليهم، فالمقام مقامُ موافقةٍ للرَّبِّ في غضبه على مَن غضِب عليهم، فعدَل عن ذِكر الصِّفتَينِ اللَّتينِ يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمِّنتَينِ لكمال القدرة وكمالِ العِلم.

والمعنى: إنْ غفرتَ لهم فمغفرتُك تكون عن كمال القدرة والعِلم، ليست عن عجزٍ عن الانتقام منهم، ولا عن خَفاءٍ عليك بمقدار جرائمهم؛ وهذا لأنَّ العبد قد يَغفِرُ لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهلِه بمقدار إساءته إليه، والكمال: هو مغفرة القادرِ العالِم، وهو العزيز الحكيم. وكان ذِكرُ هاتين الصِّفتَينِ في هذا المقام عينَ الأدبِ في الخطاب.

وكذلك قولُ إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠].

ولم يقُل: «وإذا أمرضني»؛ حِفظًا للأدب مع الله.

وكذلك قولُ الخَضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولم يقُل: «فأراد ربُّك أن أعيبها». وقال في الغُلامَينِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يقولوا: «أراده ربهم»، ثم قالوا: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠].

وألطفُ من هذا قولُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَىَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقُل: «أطعمني».

وقول آدمَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣] ولم يقُلْ: ربِّ قدَّرْتَ عليَّ وقضيت عليَّ.

وقول أيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]. ولم يقل: «فعافني واشفني».

وقول يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه وإخوته: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰىَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّى حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِىٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل: «من الجب»؛ حفظًا للأدب مع إخوته، وتفتِّيًا عليهم: أن لا يُخجِلَهم بما جرى في الجُبِّ. وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل: «رفع

عنكم جهد الجوع والحاجة»؛ أدبًا معهم، وأضاف ما جرى إلى السبب ولم يُضِفْه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه، فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠].

من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن

وقال بعضهم: «الْزَمِ الأدب ظاهرًا وباطنًا، فما أساء أحدٌ الأدب في الظاهر إلا عُوقِبَ ظاهرًا، وما أساء الأدب باطنًا إلا عوقب باطنًا».

وقال عبدُ الله بنُ المُبارك رَحِمَهُ اللهُ: «مَن تهاوَنَ بالأدب عُوقب بحرمان السُّنن، ومَن تهاوَنَ بالسُّنن عوقِب بحرمان الفرائض، ومَن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة».

وقيل: الأدب في العمل، علامةُ قَبولِ العمل.

وحقيقة «الأدب» استعمال الخُلُق الجميل؛ ولهذا كان الأدب: استخراجَ ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل.

من لطيف أدبه ﷺ

وجرَتْ عادة القوم: أنْ يذكروا في هذا المقام قولَه تعالى عن نبيّه ﷺ، حين أراه ما أراه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النجم: ١٧]، وكأنَّهم نظروا إلى قول مَن قال من أهل التفسير: إن هذا وصفٌ لأدبه ﷺ في ذلك المقام؛ إذْ لم يلتفِتْ جانبًا، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمالُ الأدب، والإخلال به: أن يلتفت الناظرُ عن يمينه وعن شماله، أو يتطلَّع إلى ما أمام المنظور. فالالتفات زيغٌ، والتطلع إلى ما أمام المنظور: طُغيان ومجاوزة. فكمال الأدب إقبالُ الناظر على المنظور: لا يصرف بصرَه عنه يَمنةً ولا يَسرة، ولا يتجاوزه.

هذا معنى ما حصَّلْتُه عن شيخ الإسلام ابنِ تيميَّة قدَّس اللهُ رُوحَه.

وفي هذه الآية أسرارٌ عجيبة، وهي مِن غوامض الآداب اللائقةِ بأكمل البشر ﷺ: تواطأ هناك بصرُه وبصيرته، وتوافَقَا وتصادَقَا فيما شاهده بصرُه، فالبصيرة مواطِئةٌ له، وما شاهدَتْه بصيرتُه فهو أيضًا حقٌّ مشهود بالبصر، فتواطأ في حقِّه مشهدُ البصر والبصيرة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾ [النجم: ١١ ـ ١٢]؛ أي: ما كذَب الفؤادُ ما رآه ببصره.

فلم يزَلْ ﷺ في خفارةِ[(١)] كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مرتبة عبوديته له، حتى خرق حُجُبَ السمٰوات، وجاوزَ السَّبْعَ الطِّباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محلٍّ من القرب سبَق به الأوَّلينَ والآخِرين، فانصبت إليه هناك أقسامُ القُرَب انصبابًا، وانقشعت عنه سحائبُ الحُجُبِ ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا، وأقيم مقامًا غَبَطَه به الأنبياءُ والمرسَلون، فإذا كان في المعاد أقيم مقامًا من القرب ثانيًا، يَغبِطُه به الأوَّلونَ والآخِرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبِه مع الله، ما زاغ البصرُ عنه وما طغى، فأقامه في هذا العالَم على أقومِ صراطٍ من الحقِّ والهدى، وأقسَم بكلامه على ذلك في الذِّكر الحكيم، فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾ [يس: ١ ـ ٤]، فإذا كان يومُ المعاد أقامه على الصراط يسأله السَّلامةَ لأتْباعِه وأهلِ سُنَّتِه، حتى يجوزه إلى جنَّات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

من كمال أدب الصلاة

والأدب هو الدِّين كلُّه، فإنَّ سَتْرَ العورةِ من الأدب، والوُضوءَ وغسلَ الجنابة والتطهُّرَ من الخبث مِن الأدب، حتى يقف بين يدَيِ الله طاهرًا؛ ولهذا كانوا يستحِبُّون أن يتجمَّل الرجُلُ في صلاته للوقوف بين يدي ربِّه.

وكان لبعض السلف حُلَّةٌ بمبلغ عظيم من المال، وكان يَلبَسُها وقتَ الصلاة، ويقول: «ربِّي أحقُّ مَن تجمَّلْتُ له في صَلاتي».

ومِن الأدب: نهى النبيُّ ﷺ المُصلِّيَ: **أنْ يَرْفَعَ بَصَرَه إلى السَّماءِ**[(٢)].

---

(١) **الخَفارة** ـ بفتح الخاء ـ: الحياءُ والوقارُ، مِن خَفِر الإنسان خفرًا، من باب تَعِب. **والخُفارة** ـ بضمِّ الخاء وكَسرِها ـ: مِن خَفَرْت الرجل حَميْته وأَجرْته من طالبِه. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (١/ ١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٤٢٨) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، و(٤٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ يقول: «هذا من كمال أدبِ الصَّلاة: أن يقف العبدُ بين يدي ربه مُطْرِقًا، خافضًا طرْفَه إلى الأرض، ولا يرفع بصرَه إلى فوقَ».

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه، والتأدُّبُ بآدابه ظاهرًا وباطنًا.

ولا يستقيم لأحدٍ قطُّ الأدبُ مع الله إلا بثلاثة أشياءَ: معرفةً به بأسمائه وصفاته، ومعرفةً بدينه وشرعه وما يحِبُّ وما يَكرَه، ونفْسٌ مستعدة قابلة ليِّنَةٌ، متهيئة لقَبول الحق عِلمًا وعملًا وحالًا. والله المستعان.

الأدب مع الرسول ﷺ

وأمَّا الأدبُ مع الرسول ﷺ: فالقرآن مملوءٌ به.

فرأسُ الأدب معه: كمالُ التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقِّي خبرِه بالقَبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسمِّيه معقولًا، أو يحمله شبهة أو شك، أو يقدِّم عليه آراءَ الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحِّدُه بالتحكيم والتَّسليم، والانقيادِ والإذعان، كما وحَّد المرسِلَ بالعبادة والخضوعِ والذُّلِّ، والإنابةِ والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلَّا بهما: توحيد المُرسِل، وتوحيد متابعةِ الرسول، فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحُكم غيرِه، ولا يقف تنفيذ أمره، وتصديق خبره على عَرضه على قول شيخِه وإمامِه، وذوي مذهبِه وطائفته، ومَن يعظِّمُه.

ومِن الأدب مع الرسول ﷺ: أن لا يتقدَّم بيْن يديه بأمر ولا نهيٍ، ولا إذنٍ ولا تصرُّف، حتى يأمر هو، وينهى ويأذَن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] وهذا باقٍ إلى يوم القيامة لم يُنسَخ، فالتقدُّمُ بيْن يدي سُنَّتِه بعد وفاته، كالتقدُّم بين يديه في حياته، ولا فرْقَ بينهما عند ذي عقل سليم.

ومِن الأدب معه: أن لا تُرفعَ الأصواتُ فوقَ صوته؛ فإنَّه سببٌ

لحبوط الأعمال، فما الظنُّ برفع الآراء، ونتائجِ الأفكار على سُنَّتِه وما جاء به؟ أترى ذلك موجبًا لقَبول الأعمال، ورفع الأصواتِ فوقَ صوته موجبٌ لحبوطها؟!

ومن الأدب معه: أن لا يُجعلَ دعاؤه كدعاء غيرِه، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: ٦٣].

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمْرٍ جامع ـ من خطبة، أو جهادٍ، أو رباط ـ لم يَذهَبْ أحدٌ منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنَه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ﴾ [النور: ٦٢]، فإذا كان هذا مذهبًا مقيَّدًا لحاجة عارضة، لم يُوسَّع لهم فيه إلا بإذنه؛ فكيف بمذهب مُطلَق في تفاصيل الدِّين: أصولِه، وفروعه، دقيقِه، وجليله؟! هل يشرع الذَّهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه: أن لا يَستشكِل قولَه؛ بل يَستشكل الآراء لقوله، ولا يُعارض نصَّه بقياس؛ بل تُهدَرُ الأقيسةُ وتلغى لنصوصه، ولا يحرَّف كلامُه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابُه معقولًا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول، ولا يوقف قَبولُ ما جاء به ﷺ على موافقة أحد، فكلُّ هذا من قلَّة الأدب معه ﷺ. وهو عينُ الجراءة.

الأدب مع الخلق

وأمَّا الأدبُ مع الخَلْق: فهو معاملتُهم ـ على اختلاف مراتبهم ـ بما يليق بهم، ولكلِّ مرتبة أدبٌ، والمراتب فيها أدبٌ خاصٌّ، فمع الوالدَينِ: أدبٌ خاصٌّ، وللأبِ منهما: أدبٌ هو أخصُّ به، ومع العالِم: أدبٌ آخَرُ، ومع السلطان: أدبٌ يليق به، وله مع الأقران أدبٌ يليق بهم، ومع الأجانب: أدب غيرُ أدبِه مع أصحابه وذَوي أنسه، ومع الضيف: أدبٌ غير أدبه مع أهل بيته، ولكلِّ حالٍ أدبٌ: فللأكل آداب، وللشرب آداب، وللركوب والدخولِ والخروج والسفرِ والإقامة والنومِ آدابٌ، وللبول آداب، وللكلام آداب، وللسُّكوت والاستماعِ آدابٌ.

وأدبُ المَرءِ: عنوان سعادتِه وفلاحِه، وقلَّةُ أدبِه: عنوان شقاوتِه وبَوارِه.

فما استُجْلِب خيرُ الدنيا والآخرة بمِثل الأدب، ولا استُجلِب حِرمانُهما بمِثل قلَّةِ الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نَجَّى صاحبَه من حبْس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة؟ والإخلال به مع الأمِّ ـ تأويلًا وإقبالًا على الصلاة ـ كيف امتُحن صاحبُه بهدم صومعته وضرْبِ الناس له، ورَمْيِه بالفاحشة؟

مفهوم الأدب عند صاحب «المنازل»

قال صاحب «المنازل»: (**الأدَبُ: حِفْظُ الحَدِّ، بيْن الغُلُوِّ والجَفاءِ، بمَعْرِفةِ ضَرَرِ العُدْوانِ**).

هذا مِن أحسَنِ الحدود؛ فإنَّ الانحراف إلى أحد طرفَي الغلوِّ والجفاء: هو قلَّةُ الأدب، والأدب: الوقوف في الوسَط بيْن الطَّرفَينِ، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها، ولا يتجاوز بها ما جُعلت حدودًا له، فكِلاهما عدوان، والله لا يحِبُّ المُعتدين، والعدوان: هو سوءُ الأدب.

وقال بعض السلف: «دِينُ اللهِ بين الغالي فيه والجافي عنه».

فإضاعة الأدب بالجفاء: كمَن لم يكمل أعضاءَ الوُضوء، ولم يوفِ الصلاةَ آدابَها التي سنَّها رسولُ الله ﷺ وفعَلَها، وهي قريبٌ من مائة أدب: ما بين واجبٍ ومستحبٍّ.

وإضاعته بالغلوِّ: كالوسوسة في عقْد النِّيَّة، ورفعِ الصوت بها، والجهرِ بالأذكار والدعوات التي شُرعتْ سرًّا، وتطويلِ ما السُّنَّةُ تخفيفُه وحذْفُه، كالتشهُّدِ الأوَّلِ والسَّلام الذي حذْفُه سُنَّة، وزيادةِ التطويل على ما فعله رسولُ الله ﷺ لا على ما يظُنُّه سرَّاق الصلاةِ والنَّقَّارون لها ويَشتَهونه.

[وأوَّلُ درجاتِه ما قاله صاحب «المنازل»]: (**مَنْعُ الخَوْفِ: أنْ لا يَتَعدَّى إلى اليَأْسِ، وحَبْسُ الرَّجاءِ: أنْ يَخرُجَ إلى الأمنِ، وضَبْطُ السُّرُورِ: أنْ يُضاهِئَ الجَراءَة**).

حد الخوف الشرعي الصحيح

يريد: أنه لا يدع الخوفَ يُفضي به إلى حدٍّ يوقعه في القُنوط، واليأسِ من رحمة الله؛ فإنَّ هذا الخوفَ مذموم.

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «حدُّ الخوفِ ما حجزَك عن معاصي الله، فما زاد على ذلك فهو غيرُ مُحتاجٍ إليه».

وهذا الخوف المُوقِع في الإياس: إساءةُ أدبٍ على رحمة الله تعالى، التي سَبَقتْ غضبَه، وجهْلٌ بها.

حد الرجاء الشرعي

وأمَّا (**حَبْسُ الرَّجاءِ: أنْ يَخرُجَ إلى الأمنِ**)

فهو أن لا يبلُغَ به الرَّجاءُ إلى حدٍ يأمَنُ معه العقوبة؛ فإنَّه لا يأمَنُ مكْرَ الله إلَّا القومُ الخاسرون، وهذا انحرافٌ في الطرف الآخر.

بل حدُّ الرجاء: ما طيَّب لك العبادة، وحمَلَك على السَّير، فهو بمنزلة الرِّياح التي تُسَيِّرُ السفينة، فإذا انقطعتْ وقفتِ السفينة، وإذا زادت ألْقَتْها إلى المهالك، وإذا كانت بقدَر: أوصلتْها إلى البُغية.

أهمية ملازمة الثغر بين القلب وبين النفس

وأما (**ضَبْطُ السُّرُورِ: أنْ يُضاهِئَ الجَراءَةَ**).

فلا يَقدِرُ عليه إلَّا الأقوياءُ أربابُ العزائم، الذين لا تستفزُّهم السَّرَّاء، فتغلب شُكرَهم، ولا تُضعِفُهم الضَّرَّاء، فتغلب صبْرَهم، كما قيل:

لا تَغلِبُ السَّرَّاءُ منهُم شُكرَهُم كلَّا ولا الضَّرَّاءُ صَبْرَ الصَّابرِ

والنفس قرينةُ الشيطان ومصاحِبَتُه، وتُشبِهه في صفاته، ومواهبُ الرَّبِّ تبارك وتعالى تنزِل على القلب والرُّوح، فالنفْسُ تَستَرِقُ السمع، فإذا نزلتْ على القلب تلك المواهبُ: وثَبَتْ لتأخذ قسطَها منها، وتصيِّره من عدتها وحواصلها، فالمسترسل معها، الجاهلُ بها يدعها تستوفي ذلك، فبينا هو موهبة للقلب والرُّوح وعدَّةٍ وقوَّةٍ له، إذ صار ذلك كلُّه من حاصل النفْس وآلتها، وعددها، فصالت به وطغَتْ؛ لأنَّها رأت غِناها به، والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال، فكيف بما هو أعظم خطرًا، وأجلُّ قدرًا من المال، بما لا نسبة بينهما: مِن عِلم، أو حالٍ،

أو معرفة، أو كشْفٍ؟ فإذا صار ذلك من حاصلها: انحرَف العبدُ به ولا بدَّ إلى طرَفٍ مذموم من جراءة، أو شطحٍ، أو إدلال، ونحو ذلك.

ولله كمْ هاهنا من قتيلٍ وسليبٍ وجريحٍ يقول: مِن أين أُتيت؟ ومن أين دُهِيت؟ ومِن أين أُصبت؟ وأقلُّ ما يعاقب به من الحرمان بذلك: أن يغلق عنه باب المزيد، ولهذا كان العارفون وأرباب البصائر: إذا نالوا شيئًا من ذلك انحرفوا إلى طرَف الذُّلِّ والانكسار، ومطالعة عيوب النُّفوس، واستدعوا حارسَ الخوف، وحافَظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النَّفْس، ونظروا إلى أقربِ الخلْق من الله، وأكرمِهم عليه، وأدناهم منه وسيلةً، وأعظمِهم عِندَه جاهًا، وقد دخَل مكَّةَ يوم الفتح، وذقْنُه تَمَسُّ قَرَبُوسَ سَرْجِه انخفاضًا وانكسارًا، وتواضُعًا لربِّه تعالى في مثل تلك الحال، التي عادةُ النفوسِ البشرية فيها: أن يملكها سرورُها، وفرحُها بالنصر، والظفَّر، والتأييد، ويرفعها إلى عَنان السماء.

فالرجُل: مَن صان فتْحَه ونصيبَه من الله، ووارِدَه عن استراق نفْسِه، وبَخِلَ عليها به، والعاجز: مَن جادَ لها به، فيا له مِن جُودٍ ما أقبَحَه، وسماحةٍ ما أسْفَهَ صاحبَها، والله المستعان.





منزلة اليقين

وهو من الإيمان بمنزلة الرُّوح من الجسد، وفيه تَفاضَلَ العارفون، وفيه تنافَسَ المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون، وعمَلُ القوم إنَّما كان عليه، وإشاراتُهم كلُّها إليه، وإذا تزوَّج الصبرُ باليقين: ولد بينهما حصولُ الإمامةِ في الدِّين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

فـ«اليقين» رُوح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمالِ الجوارح، وهو حقيقة الصدِّيقيَّة، وهو قُطب رَحَى هذا الشأن الذي عليه مدارُه.

عن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا تُرْضِيَنَّ أحَدًا بسَخَطِ اللهِ، ولا تَحْمدَنَّ أحَدًا على فَضْلِ اللهِ، ولا تَذُمَّنَّ أحَدًا على ما لمْ يؤْتِكَ اللهُ؛ فإنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَسُوقُه إليكَ حِرْصُ حَرِيصٍ، ولا يَرُدُّه عنكَ كَراهِيةُ كارِهٍ، وإنَّ اللهَ بعَدْلِه وقِسْطِه جَعَلَ الرَّوحَ والفَرَحَ في الرِّضا واليَقينِ، وجَعَلَ الهَمَّ والحَزَنَ في الشَّكِّ والسُّخْطِ**»(١).

صِلة اليقين بالتوكل

واليقين قرين التوكل؛ ولهذا فُسِّر التوكُّلُ بقوَّة اليقين.

والصواب: أنَّ التوكل ثمرتُه ونتيجته؛ ولهذا حَسُن اقترانُ الهدى به، قال الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩]

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢١) و(٧/ ١٣٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٠٥١٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧١): «فيه خالد بن يزيد العمري واتُّهِم بالوضع». وله شاهد ضعيف من حديث أبي سعيد مرفوعاً، أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤١)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٣/ ٦٧٣).

فالحقُّ: هو اليقين، وقالت رُسُلُ الله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومتى وصل اليقينُ إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كلُّ ريب وشكٍّ وسخط، وهمٍّ وغمٍّ، فامتلأ محبَّةً لله، وخوفًا منه ورضًا به، وشكرًا له، وتوكُّلًا عليه، وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

واخْتُلِف فيه: هل هو كَسْبي، أو مَوْهبي؟

فقيل: هو العلم المستودع في القلوب، يشير إلى أنه غير كسْبيٍّ.

وقال سَهْلٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اليقين مِن زيادة الإيمان، ولا ريبَ أنَّ الإيمان كسْبيٌّ».

والتحقيق: أنه كسْبيٌّ باعتبار أسبابه، مَوهبيٌّ باعتبار نفْسِه وذاته.

أقوال السلف في اليقين

وقال ذو النُّون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اليقين يدْعو إلى قِصَر الأمل، وقِصَر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يُورث الحِكمة، وهي تورث النظر في العواقب».

وقال الجُنَيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اليقين هو استقرار العِلم الذي لا يَنقلب ولا يُحوَّل، ولا يتغيَّر في القلب».

وقال أبو بكر الورَّاقُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اليقين مِلاك القلب، وبه كمالُ الإيمان، وباليقين عُرِف الله، بالعقل عُقِل عن الله».

وقال النَّهْرَجُوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا استكمل العبدُ حقائقَ اليقين صار البلاءُ عنده نعمةً، والرَّخاءُ عنده مصيبة».

وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اليقين على ثلاثة أوجُه: يقين خبر، ويقين دلالة، ويقين مشاهدة».

يريد بيقين الخبر: سكونَ القلب إلى خبر المخبرِ ووثوقَه به، وبيقين الدلالة: ما هو فوقَه، وهو أن يقيم له ـ مع وثوقه بصدقه ـ الدلالةَ على ما أخبره به.

وقال بعضُهم: «رأيتُ الجنةَ والنارَ حقيقةً، قيل له: وكيف؟ قال: رأيْتُهما بعينَيْ رسولِ الله ﷺ، ورؤيتي لهما بعينيه أوثقُ عندي من رؤيتي لهما بعيني؛ فإنَّ بصري قد يخطئ ويَزيغ، بخلاف بصرِه ﷺ».

واليقينُ يَحمل على الأهوال، وركوبِ الأخطار، وهو يأمُر بالتقدُّم دائمًا، فإنْ لم يقارنه العلم: حمل على المعاطب.

والعِلم يأمرُ بالتأخُّرِ والإحجام، فإنْ لم يَصحَبْه اليقينُ قعَد بصاحبه عن المكاسب والغنائم.

درجات اليقين عند صاحب «المنازل»

قال صاحب «المنازل»: (**وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولَى: عِلْمُ اليَقينِ، وهو قَبُولُ ما ظَهَرَ مِنَ الحَقِّ، وقَبولُ ما غابَ لِلْحَقِّ، والوُقُوفُ على ما قامَ بالْحَقِّ).

ذكر الشيخ في هذه الدرجة **ثلاثةَ أشياءَ**، هي متعلق اليقينِ وأركانُه:

الأول: (**قَبُولُ ما ظَهَرَ مِنَ الحَقِّ**) تعالى، والذي ظهر منه سبحانه: أوامرُه ونواهيه وشرعُه، ودينُه الذي ظهر لنا منه على ألسنة رُسُلِه، فنتلَّقاه بالقَبول والانقياد، والإذعانِ والتسليم للربوبيَّة، والدُّخولِ تحتَ رقِّ العبودية.

الثاني: (**قَبولُ ما غابَ لِلْحَقِّ**) وهو الإيمان بالغيب الذي أخبر به الحقُّ سبحانه على لسان رُسُلِه من أمور المعاد وتفصيله، والجنةِ والنار، وما قبل ذلك: مِنَ الصراط والميزانِ والحساب، وما قبل ذلك: مِن تشقُّقِ السماء وانفطارِها، وانتثار الكواكب، ونسْفِ الجبال، وطيِّ العالم، وما قبل ذلك: من أمور البَرزخ، ونعيمِه وعذابه.

فقَبول هذا كلِّه ـ إيمانًا وتصديقًا وإيقانًا ـ هو اليقين بحيث لا يُخالِج القلبَ فيه شبهةٌ، ولا شكٌّ ولا ريب، ولا تَناسٍ وغفلة عنه؛ فإنَّه إن لم يستهلك بيقينه أفسده وأضعفه.

الثالث: (**الوُقُوفُ على ما قامَ بالْحَقِّ**) سبحانه من أسمائه وصفاتِه وأفعاله.

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحقِّ من أسمائه وصفاته، ونُعوتِ كمالِه، وتوحيده، وهذه الثلاثة أشرفُ علومِ الخلائق: عِلم الأمر والنهي، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد، وعلم المعاد واليوم الآخر.

الفرق بين علم اليقين وعينِ اليقين

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: عَيْنُ اليَقينِ، وهو المُغْنِي بِالاستِدْلالِ عنِ الاستِدْلالِ، وعنِ الخَبَرِ بالعِيانِ، وخَرْقِ الشُّهُودِ حِجابَ العِلْمِ**).

الفرق بيْن عِلم اليقين وعينِ اليقين: كالفرْق بين الخبر الصادق والعِيان، وحقُّ اليقين: فوقَ هذا.

وقد مثلت المراتب الثلاث بمَن أخبرك: أن عندَه عسلًا، وأنت لا تشُكُّ في صِدْقه، ثم أراك إياه فازددْتَ يقينًا، ثم ذُقْتَ منه.

فالأول: عِلم اليقين.

والثاني: عين اليقين.

والثالث: حقُّ اليقين.

فعِلْمُنا الآنَ بالجنة والنار: عِلمُ يقين، فإذا أُزلِفَتِ الجنةُ في الموقف وشاهَدَها الخلائق، وبُرِّزَتِ الجحيمُ وعايَنها الخلائق، فذلك: عين اليقين، فإذا أُدخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النارِ النارَ: فذلك حينئذ حقُّ اليقين.

قوله: (**هو المُغْنِي بالاستِدْراكِ عنِ الاستِدلالِ**).

يريد بالاستدراك: الإدراكَ والشهود؛ يعني: أن صاحبه قد استغنى به عن طلب الدَّليل؛ فإنَّه إنما يطلب الدليلَ ليحصلَ له العِلمُ بالمدلول، فإذا كان المدلولُ مشاهَدًا له ـ وقد أدركه بكشفه ـ فأيُّ حاجة به إلى الاستدلال؟

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: حَقُّ اليَقينِ**).

اعلم أن هذه الدرجةَ لا تُنال في هذا العالَم إلَّا للرُّسل صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين؛ فإنَّ نبيَّنا ﷺ رأى بعينه الجنةَ والنَّارَ، وموسى

سمِع كلامَ الله منه إليه بلا واسطة، وكلَّمه تكليمًا، وتجلَّى للجبل وموسى ينظُر، فجعله دكًّا هشيمًا.

نعمْ؛ يَحُصل لنا حقُّ اليقين في مرتبةٍ، وهي ذوْقُ ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان، المتعلِّقة بالقلوب وأعمالها؛ فإنَّ القلبَ إذا باشَرَها وذاقها صارتْ في حقِّه حقَّ يَقينٍ، وأمَّا في أمور الآخِرة والمَعاد، ورؤية الله جَهرةً عِيانًا، وسماع كلامه حقيقةً بلا واسطة؛ فحظُّ المؤمن منه في هذه الدار: الإيمانُ وعِلم اليقين، وحقُّ اليقين يتأخَّرُ إلى وقت اللِّقاء.

[و] اليقينُ له حقوقٌ يجب على صاحبه أن يُؤدِّيها، ويقومَ بها، ويَتحمَّل كُلَفها ومشاقَّها؛ فإذا فَنِي في التوحيد حصَل له أمورٌ أخرى رفيعةٌ عالية جدًّا، يصير فيها محمولًا، بعد أنْ كان حاملًا، وطائرًا بعد أنْ كان سائرًا؛ فتزولُ عنه كُلفةُ حمْل تلك الحقوق، بل يبقى له كالنَّفَس، وكالماء للسَّمك؛ وهذا أمرٌ التحاكمُ فيه إلى الذوق والإحساس؛ فلا تُسرِعْ إلى إنكاره.

وتأمَّلْ حالَ ذلك الصحابي الذي أخذ تمَراته، وقعَد يأكلُها على حاجة وفاقةٍ إليها، فلما عايَنَ سوقَ الشَّهادةِ قد قامت، ألقى قُوتَه من يده، وقال: «إنَّها لَحَياةٌ طَويلةٌ، إنْ بَقِيتُ حتَّى آكُلَ هذهِ التَّمَراتِ»[(١)]، وألْقاها من يده، وقاتَل حتى قُتِل.



(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٦)، ومسلم (١٨٩٩) من حديث جابر رضي الله عنه.



منزلة الأُنْس

قال صاحب «المنازل»: **(وهو رُوحُ القُرْبِ)**؛ ولهذا صدَّر منزلته بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فاستحضارُ القلب هذا البِرَّ واللُّطفَ والإحسان: يوجب قُرْبَه من الرَّبِّ تعالى، وقربُه منه يوجب الأُنس، والأنسُ ثمرة الطاعة والمحبَّة، فكلُّ مطيعٍ مستأنِسٌ، وكل عاصٍ مستوحِشٌ، كما قيل:

فإنْ كُنتَ قدْ أوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ ... فدَعْها إذا شِئْتَ واسْتَأْنِسِ

والقرب يوجب الأنس والهَيبَةَ والمحبة.

مفهوم الأنس

قال صاحب «المنازل»: **(الأُنْسُ بالشَّواهِدِ: هو استِحْلاءُ الذِّكْرِ، والتَّغَذِّي بالسَّماعِ)**.

هذه اللفظة يجرونها في كلامهم ـ أعني لفظة الشواهد ـ ومرادهم بها **أمران**:

أحدهما: شواهد الحقيقةَ؛ وهي ما يقوم بقلب العبد، حتى كأنَّه يشاهِدُه ويُبصِرُه لغلبته عليه، فكلُّ ما يستولي على قلب صاحبه ذكره: فإنَّه شاهِده، فمنهم من يكون شاهِدُه العِلمَ، ومنهم من يكون شاهده الذِّكر، ومنهم من يكون شاهده المحبة، ومنهم من يكون شاهِدُه الخوفَ.

فالمريد: يأنس بشاهده، ويستوحش لفقْدِه.

والثاني: شاهد الحال؛ وهو الأثر الذي يقوم به، ويظهر عليه من عمله، وسلوكه وحاله، فإن شاهِده لا بدَّ أن يَظْهَرَ عليه.

ومراد صاحب «المنازل»: الشاهد الأوَّل الذي يأنسُ به المريد، وهو الحامل له على استحلاء الذِّكر؛ طلبًا لظفَره بحصول المذكور، فهو يستأنس بالذِّكر طلبًا لاستِئناسِه بالمذكور، ويتغذَّى بالسماع كما يتغذى الجسم بالطعام والشراب.

فإنْ كان محبًّا صادقًا، طالبًا لله، عاملًا على مرضاته: كان غذاؤه بالسماع القرآني، الذي كان غذاءَ سادات العارفينَ من هذه الأمَّة، وأبَرِّها قلوبًا، وأصحِّها أحوالًا، وهُمُ الصحابة.

وهذا السماع القرآنيُّ سماعُ أهلِ المعرفة بالله والاستقامة، ويحصل للأذهان الصافيةِ منه معانٍ وإشارات، ومعارفُ وعلوم، تتغذَّى بها القلوبُ المشرقة بنور الأُنس، فيجد بها ولها لذَّةً رُوحانيَّة، يصل نعيمُها إلى القلوب والأرواح، وربما فاض حتى وصل إلى الأجسام، فتجد من اللَّذَّةِ ما لم يَعهَدْ مِثْلَه من اللذات الحسية.

وللتغذي بالسماع سِرٌّ لطيف، نذكره للطف موقعه.

وهو الذي أوقع كثيرًا من السالكين في إيثار سماع الأبيات، لِما رأى فيه من غذاء القلب وقوته ونعيمِه، فلو جِئتَه بألْف آيةٍ وألْفِ خبرٍ لَما أعارك شطرًا من إصغائه، وكان ذلك عنده أعظمَ من الظواهر التي يعارض بها الفلاسفة وأرباب الكلام.

* * *

أقسام غذاء القلوب

اعلم أن الله ﷻ جعَل للقلوب نوعين من الغذاء:

نوعًا من الطعام والشَّرابِ الحِسِّيِّ، وللقلب منه خلاصتُه وصفْوُه، ولكلِّ عضو منه بحسَب استعدادِه وقَبوله.

والثاني: غذاءٌ رُوحانيٌّ معنوي، خارجٌ عن الطعام والشراب: من السرور والفرح، والابتهاج واللَّذَّة، والعلوم والمعارف، وبهذا الغذاءِ كان سَمَاوِيًّا عُلْوِيًّا، وبالغذاء المشتركِ كان أرضيًّا سفليًّا. وقِوامُه بهذين الغذاءين، وله ارتباطٌ بكل واحدة من الحواسِّ الخمْس، وغذاء يصل إليه منها.

فله ارتباطٌ بحاسة اللَّمس، ويَصِلُ إليه منها غذاء، وكذلك حاسة الشَّمِّ، وكذلك حاسة الذَّوْق، وكذلك ارتباطُه بحاستَي السمع والبصر: أشدُّ من ارتباطه بغيرهما، ووصول الغذاء منهما إليه أكملُ وأقوى من سائر الحواسِّ، وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما؛ ولهذا تَجِدُ في القرآن اقترانَه بهما أكثرَ من اقترانه بغيرهما، بل لا يكاد يُقرَن إلا بهما، أو بإحداهما.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]. وهذا كثيرٌ في القرآن جدًّا.

لأنَّ تأثره بما يراه ويسمعه: أعظمُ من تأثُّره بما يَلمَسُه ويَذوقُه ويَشُمُّه؛ ولأنَّ هذه الثلاثة هي طُرُقُ العِلم، وهي: السمع، والبصر، والعقل.

شدة تعلق القلب بالسمع

وتعلُّقُ القلب بالسمع وارتباطُه به: أشدُّ مِن تعلُّقه بالبصر وارتباطِه به، ولهذا يتأثَّرُ بما يسمعه من الملذوذات أعظمَ ممَّا يتأثر بما يراه من المستحسَنات، وكذلك في المكروهات سماعًا ورؤية، ولهذا كان الصحيحُ من القولين: أنَّ حاسَّةَ السمعِ أفضلُ من حاسَّةِ البصر؛ لشدة تعلُّقها بالقلب، وعِظَمِ حاجتِه إليها، وتوقُّفِ كمالِه عليها، ووصول العلوم إليه بها، وتوقُّفِ الهدى على سلامتها.

ورجَّحتْ طائفةٌ حاسَّةَ البصر؛ لكمال مدركها، وامتناعِ الكذب فيه، وزوال الريب والشكِّ به، ولأنَّه عين اليقين، وغاية مدرك حاسَّةِ السمع عِلمُ اليقين، وعينُ اليقين أفضلُ وأكملُ من عِلم اليقين، ولأنَّ متعلقها رؤيةَ وجهِ الربِّ ﷻ في دار النعيم، ولا شيءَ أعلى وأجلُّ من هذا التعلُّق.

وحكَم شيخ الإسلام ابنُ تيميَّةَ ـ قدَّس اللهُ رُوحَه ـ بين الطائفتين حُكمًا حسنًا، فقال: «المُدرَك بحاسة السمع أعمُّ وأشمل، والمُدرك

بحاسة البصر أتمُّ وأكمل؛ فللسَّمع العمومُ والشمول، والإحاطةُ بالموجود والمعدوم، والحاضرِ والغائب، والحِسِّيِّ والمعنوي، وللبصر: التَّمامُ والكمال».

وإذا عُرف هذا، فهذه الحواسُّ الخمس لها أشباح وأرواح، وأرواحها حظُّ القلب ونصيبُه منها.

سماع كسماع البهائم

فمِن الناس: مَن ليس لقلبه منها نصيبٌ إلَّا كنصيب الحيوانات البهيميَّةِ منها، فهو بمنزلتها، وبينه وبيْنها أوَّلُ درجة الإنسانيَّة، ولهذا شبَّهَ اللهُ أولئك بالأنعام. بل جعَلَهم أضلَّ، فقال تعالى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، ولهذا نفى الله عن الكفار السمعَ والبصرَ والعقول؛ إمَّا لعدم انتفاعهم بها، فَنُزِّلت منزلةَ المعدوم؛ وإمَّا لأنَّ النَّفيَ توجَّه إلى أسماع قلوبِهم وأبصارِها، وإدراكِها، ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائقِ الأمور، كقول أصحاب السعير ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، ومنه في أحد التأويلَين قولُه تعالى ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٩٨] فإنَّهم كانوا ينظرون إلى صورة النبيِّ ﷺ بالحواسِّ الظاهرة، ولا يُبصِرون صورةَ نبوَّتِه، ومعناها بالحاسة الباطنة، التي هي بصرُ القلب.

وكذلك السمع ثابتٌ لهم، وبه قامتِ الحُجَّةُ عليهم، ومنْتَفٍ عنهم، وهو سمعُ القلب؛ فإنَّهم كانوا يسمعون القرآنَ من حيث السمعُ الحِسِّيُّ المشترك، كالغنم التي لا تسمع إلَّا نعيقَ الرَّاعي بها دعاءً ونداءً، ولم يَسمَعوه بالرُّوح الحقيقيِّ، الذي هو رُوحُ حاسَّةِ السمع، التي هي حظُّ القلب، فلو سمِعوه من هذه الجهة: لحصلتْ لهم الحياةُ الطيبة، التي منشؤها من السماع المتَّصِلِ أثرُه بالقلب، ولزال عنهم الصَّمَمُ والبَكَم، ولأنقَذوا نفوسَهم من السَّعير بمفارقة مَن عَدِمَ السَّمعَ والعقل.

فحصول السمع الحقيقي: مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم؛ فإنَّ بها يصلح هذا القلب ويعتدل،

فتتمُّ قوتُه وحياته، وسرورُه ونعيمه، وبهجته، وإذا فقَد غِذاءَه الصالح: احتاج إلى أنْ يعتاضَ عنه بغذاء قبيح خبيث. وإذا فسَد غذاؤه: خبُث، ونقَص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسَب ما فسَد مِن غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه نقَص.

تعلُّق السمع بالقلب أسرعُ من آثار البصر

فلمَّا كان تعلُّقُ السمع الظاهر الحسي بالقلب أشدَّ، والمسافة بينهما أقربَ مِن المسافة بين البصر وبينه؛ ولذلك يؤدِّي آثار ما يتعلق بالسمع الظاهر إلى القلب أسرعَ ممَّا يؤدي إليه آثار البصر الظاهر؛ ولهذا ربما غُشِي على الإنسان إذا سمِع كلامًا يسره أو يسوءه، أو صوتًا لذيذًا طيبًا مطربًا مناسبًا، ولا يكاد يحصل له ذلك من رؤية الأشياء المستحسنة بالبصر الظاهر.

وقد يكون هذا المسموعُ شديدَ التأثير في القلب، ولا يشعرُ به صاحبه؛ لاشتغالِه بغيره، ولمباينةِ ظاهره لباطنه ذلك الوقت؛ فإذا حصَل له نوع تجرُّد ورياضة: ظهرتْ قوة ذلك التأثير والتأثُّر.

فكلمَّا تجرَّدتِ الرُّوح والقلب، وانقطعت عن علائقِ البدن، كان حظُّهُما من ذلك السماعِ أوفى، وتأثُّرُهُما به أقوى.

فإنْ كان المسموعُ معنىً شريفًا بصوت لذيذ: حصل للقلب حظُّه ونصيبُه من إدراك المعنى، وابتهج به أتمَّ ابتهاج على حسَب إدراكه له، وللرُّوح حظُّها ونصيبها من لذة الصوت ونغمته وحُسنِه، فابتهجت به، فتتضاعف اللذة، ويَتِمُّ الابتهاجُ، ويحصُلُ الارتياح، حتى ربما فاض على البدن والجوارح، وعلى الجليس.

وهذا لا يَحصُل على الكمال في هذا العالَم، ولا يحصل إلا عند سماع كلامِ الله، فإذا تجردت الرُّوح وكانتْ مستعدَّةً، وباشر القلب روح المعنى، وأقبل بكلِّيته على المسموع، فألقى السمع وهو شهيد، وساعده طِيبُ صوتِ القارئ، كاد القلبُ يفارِقُ هذا العالَم، ويَلِجُ عالَمًا آخر، ويجد له لذَّةً وحالًا لا يعهدها في شيء البتَّةَ. وذلك دقيقة من حالة أهل الجنة في الجنة.

فيا له مِن غذاء ما أصلَحَه وما أنفَعَه!

مضارُّ غِذاء السماع الشيطاني

وحرامٌ على قلبٍ قد تربَّى على غذاء السَّماع الشَّيطانيِّ: أن يَجِدَ شيئًا من ذلك في سماع القرآن؛ بل إنْ حصل له نوعُ لذَّة، فهو مِن قِبَل الصوتِ المشترك، لا مِن قِبَل المعنى الخاصِّ.

وليس في نعيم أهلِ الجنة أعلى من رؤيتهم وجهَ محبوبهم عِيانًا، وسماعِ كلامه منه.

وذكر عبد الله ابن الإمام أحمدَ في كتاب السُّنَّة أثرًا ـ لا يحضرني الآن هل هو موقوف أو مرفوع ـ: «إذا سَمِعَ النَّاسُ القُرآنَ يَومَ القِيامةِ مِنَ الرَّحمٰنِ ﷻ، فكَأنَّهُم لمْ يَسْمَعُوهُ قَبلَ ذلكَ»[(١)].

أكمل السماع

وأكملُ السَّماع: سماعُ مَن يسمع بالله ما هو مسموعٌ من الله وهو كلامُه، وهو سماع المحبِّينَ المحبوبين، كما في الحديث الذي في «صحيح البخاريِّ» عن رسول الله ﷺ ـ فيما يَروي عن ربِّه تبارك وتعالى ـ أنه قال: **«ما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدي بمِثْلِ أداءِ ما افتَرَضْتُ عليهِ، ولا يَزالُ عَبْدي يَتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحْبَبْتُه كُنتُ سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ بهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبصِرُ بهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه الَّتي يَمْشي بها، فبِي يَسمَعُ، وبي يُبصِرُ، وبي يَبطِشُ، وبي يَمْشي»**[(٢)].

والقلب يتأثَّرُ بالسماع بحسَب ما فيه من المحبَّة، فإذا امتلأ مِن محبَّة الله وسمِعَ كلامَ محبوبِه ـ أي: بمُصاحبته وحضورِه في قلبه ـ فله مِن سماعه هذا الشأن، ولغيره شأن آخر.

أقسام الناس في السماع

والثاني[(٣)] الناس على **ثلاثة أقسام**:

أحدها: مَنِ اتَّصَف قلبُه بصفات نفْسِه، بحيث صار قلبُه نفْسًا

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» عن محمد بن كعب القرظي مقطوعًا (١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هكذا في كل النسخ التي بين أيدينا، والذي يظهر أنها: (والناس)؛ لأنه لا يوجد قسم أول.

محضة، فغلبتْ عليه آفاتُ الشهوات، ودواعي الهوى، فهذا حظُّه من السماع: كحظِّ البهائم، لا يسمع إلَّا دعاءً ونداء، والفرق الذي بينها وبينه: غيرُ طائل.

القسم الثاني: مَنِ اتَّصفتْ نفْسُه بصفات قلبه، فصارت نفْسُه قلبًا محضًا، فغلبت عليه المعرفةُ والمحبة، والعقل واللُّبُّ، وعِشقُ صفات الكمال، فاستنارتْ نفْسُه بنور القلب، واطمأنت إلى ربها، وقرَّتْ عيْنُها بعبوديته، وصار نعيمُها في حبِّه وقُربِه، فهذا حظُّه مِنَ السماع مِثلُ ـ أو قريبٌ ـ من حظِّ الملائكة، وسماعه غذاء قلبه ورُوحه، وقرة عينه ونعيمه من الدنيا، ورياضه التي يسرح فيها، وحياته التي بها قِوامه، وإلى هذا المعنى قصد أرباب سماع القصائد والأبيات، ولكن أخطؤوا الطريق وأخذوا عن الدَّرب شِمالًا ووراء.

القسم الثالث: مَن له منزلةٌ بين منزلتين، وقلبُه باقٍ على فِطرته الأولى، ولكن ما تصرَّف في نفْسِه تصرُّفًا أحالها إليه، وأزال به رسومَها، وجَلَا عنه ظلمتها، ولا قَوِيَتِ النَّفْسُ على القلب بإحالته إليها، وتصرفت فيه تصرفًا أزالت عنه نورَه وصحَّتَه وفِطرتَه.

فبيْن القلب والنَّفْسِ منازلاتٌ ووقائعُ، والحرب بينهما دُوَلٌ وسِجال، تُدَالُ النَّفسُ عليها تارة، ويُدالُ عليها تارة.

فهذا حظُّه من السماع: حظ بين الحظّين، ونصيبه منه بين النصيبين، فإنْ صادفه وقتُ دولة القلب: كان حظُّه منه قويًا. وإنْ صادفه وقتُ دولة النفْس: كان ضعيفًا، ومِن ههنا يقع التفاوتُ بين الناس في الفقه عن الله، والفهم عنه، والابتهاج والنعيم بسماع كلامه.

وصاحبُ هذه الحالِ ـ في حال سماعه ـ يشتغل القلب بالحرب بينه وبيْن النفْس، فيَفُوته مِن روح المسموع ونعيمِه ولذَّتِه بحسَب اشتغاله عنه بالمحاربة، ولا سبيل له إلى حصول ذلك بتمامه، حتى تَضَعَ الحربُ أوزارَها، وربما صادفه في حال السماع واردُ حقٍّ، أو الظفر بمعنًى بديعٍ لا يَقدِرُ فِكرُه على صيده كلَّ وقت، فغاب به واستغرق فيه عمَّا يأتي

بعده، فيعجز عن صيد تلك المعاني، ويدهشه ازدحامها، فيبقى قلبُه باهتًا، كما يُحكى أن بعض العرب: أرسل صائدًا له على صيد، فخرج الصيدُ عليه من أمامِه وخلفه، وعن يمينه وعن يساره، فوقف باهتًا ينظر يمينًا وشمالًا، ولم يصطَدْ شيئًا! فقال:

تَكاثَرَتِ الظِّباءُ على خِرَاشٍ فما يَدْري خِرَاشٌ ما يَصِيدُ

فوظيفتُه في مثل هذا الحال: أن يفنى عن وارده، ويعلق قلبَه بالمتكلِّم، وكأنه يسمع كلامَه منه، ويجعل قلبه نهرًا لجريان معانيه، ويفرغه مِن سِوى فَهمِ المراد، وينصبُّ إليه انصبابًا يتلقَّى فيه معانيَه، كتلقِّي المحبِّ للأحباب القادمينَ عليه، لا يشغله حبيبٌ منهم عن حبيب، بل يعطي كلَّ قادم حقَّه، وكتلقِّي الضيوفِ والزوَّار، وهذا إنما يكون مع سَعة القلب، وقوَّةِ الاستعداد، وكمال الحضور.

فإذا سمِع خطابَ الترغيبِ والتشويق، واللُّطفِ والإحسان: لا يفنى به عمَّا يجيء بعده من خطاب التخويفِ والترهيبِ والعدل، بل يتلقى الخِطابَ الثاني مستصحِبًا لحُكم الخِطاب الأوَّل، ويمزج هذا بهذا، ويسير بهما جميعًا، عاكفًا بقلبه على المتكلم وصفاته سبحانه.

وهذا سيرٌ في الله، وهو نوعٌ آخَرُ أرفع وأعلى من مجرَّد المسير إليه، ولا ينقطع بذلك سَيرُه إليه؛ بل يدرج سيره؛ فإنَّ سيْر القلب في معاني أسمائه وصفاتِه وتوحيده ومعرفته.

ومتى بَقِيَتْ للقلب في ذلك مَلَكة، واشتدَّ تعلُّقُه به: لم تحجبه معاني المسموع وصفاتُ المتكلِّم بعضها عن بعض، ولكن في الابتداء يعسُر عليه ذلك، وفي التوسُّط يَهون عليه، ولا انتهاءَ هاهنا البتَّةَ، والله المستعان.

فهذه كلماتٌ تُشير إلى معاني سماع أهلِ المعرفة والإيمان، والأحوالِ المستقيمة.





منزلة الذِّكر

وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزوَّدون، وفيها يتَّجرون، وإليها دائمًا يتردَّدون.

والذِّكر منشورُ الولاية الذي من أُعْطِيه اتصل، ومن مُنِعَه عُزِلَ، وهو قُوتُ قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجسادُ لها قبورًا، وعمارةُ ديارهم فمتى تعطَّلتْ عنه صارت بورًا، وهو سلاحُهُمُ الذي يقاتِلون به قطَّاعَ الطريق، وماؤُهم الذي يطفئون به التِهابَ الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي بينهم وبين علام الغيوب.

به يَستدفِعون الآفات، ويستكشفون الكُرُبات، وتَهون عليهم به المصيبات، إذا أظلَّهُمُ البلاءُ فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازلُ فإليه مفزعهم. فهو رياض جنَّتِهم التي فيها يتقلَّبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتَّجِرون. يدع القلبَ الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذاكر إلى المذكور، بل يَدَعُ الذاكر مذكورًا.

وعلى كل جارحة من الجوارح عبوديةٌ مؤقَّتة، والذِّكر عبوديةُ القلب واللسان، وهي غيرُ مؤقَّتة، بل هم مأمورون بذِكر معبودِهم ومحبوبهم في كلِّ حال: قيامًا، وقعودًا، وعلى جنوبهم. فكما أنَّ الجنة قيعانٌ وهو غِراسها، فكذلك القلوب بور وخراب وهو عمارتها وأساسُها.

فضائل ذكر الله تعالى

وهو جِلاء القلوب وصِقالُها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلَّما ازداد الذَّاكرُ في ذِكره استغراقًا، ازداد لمذكوره مَحبَّةً وإلى لقائه اشتياقًا، وإذا واطأ في ذِكره قلبُه للسانه، نسيَ في جنب ذِكرِه كلَّ شيء، وحفِظَ اللهُ عليه كلَّ شيء، وكان له عِوضًا من كل شيء.

به يزول الوَقْرُ عن الأسماع، والبَكَم عن الألسُن، وتنقشِعُ الظُّلْمةُ عن الأبصار. زيَّن الله به ألسنةَ الذَّاكرين، كما زيَّن بالنور أبصارَ الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظمُ المفتوحُ بينه وبين عبدِه، ما لم يغلقه العبد بغفلتِه.

قال الحسَن البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تفقَّدوا الحلاوةَ في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والذِّكرِ، وقراءةِ القرآن، فإن وجدْتُم، وإلَّا فاعلموا أنَّ البابَ مغلَقٌ».

وبالذكر: يَصرع العبدُ الشيطان، كما يصرع الشيطانُ أهلَ الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: «إذا تمكَّن الذِّكر من القلب، فإن دنا منه الشيطانُ صُرِعَ كما يُصْرَع الإنسانُ إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مَسَّه الإنسيُّ».

وهو رُوح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العملُ عن الذِّكر، كان كالجسد الذي لا رُوح فيه.

* * *

أوجه الذكر في القرآن الكريم

وهو في القرآن على **عشَرة أوجُهٍ**:

الأول: الأمر به مطْلَقًا ومقيدًا.

الثاني: النهي عن ضدِّه من الغفلة والنِّسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرتِه.

الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خُسران مَن لَهَا عنه بغيره.

السادس: أنه جعل ذِكرَه سبحانه لهم جزاءً لذِكرِهم له.

السابع: الإخبار أنَّه أكبَرُ من كلِّ شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمةَ الأعمال الصالحة كما كان مِفتاحَها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هُم أهلُ الانتفاع بآياته، وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرينَ جميعِ الأعمال الصالحة ورُوحَها، فمتى عَدِمَتْه كانت كالجسد بلا رُوح.

تفصيل ذلك:

تأملات في آيات الذِّكر في القرآن

١ ـ أمَّا الأول: فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣]، وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وفيه قولان؛ أحدهما: في سرِّك وقلبِك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك.

٢ ـ وأما النهي عن ضِدِّه: فكقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

٣ ـ وأما تعليقُ الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

٤ ـ وأما الثناءُ على أهله وحُسن جزائهم، فكقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٥ ـ وأما خسران مَن لَهَا عنه، فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

٦ ـ وأما جعْلُ ذِكرِه لهم جزاءً لذِكرهم له، فكقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

٧ ـ وأما الإخبار عنه بأنه أكبرُ من كلِّ شيء، فكقوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وفيها **أربعة أقوال**:

أحدها: أنَّ ذِكر الله أكبرُ من كل شيء؛ فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلِّها إقامةُ ذكره، فهو سرُّ الطاعات ورُوحُها.

الثاني: أنَّ المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكرُه لكم أكبرَ مِن ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضافٌ إلى الفاعل، وعلى الأوَّل: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أنَّ المعنى: ولذكر الله أكبرُ من أن تبقى معه فاحشةٌ ومنكَر، بل إذا تمَّ الذكر مَحَقَ كلَّ خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسِّرون.

[الرابع:] وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «معنى الآية: أنَّ في الصلاة فائدتينِ عظيمتَينِ: إحداهما: نَهْيُها عن المنكَر. والثانية: اشتمالها على ذِكر الله وتضمُّنُها له، ولَما تَضمَّنَتْه من ذِكر الله أعظمُ مِن نَهْيِها عن الفحشاء والمنكَر».

٨ ـ وأما ختْم الأعمال الصالحة به، فكما ختَم به عملَ الصيام بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥]. وختم به الحجَّ بقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٠٣]. وختم به الجمعة كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

ولهذا كان خاتمةَ الحياة الدنيا، وإذا كان آخرَ كلام العبد أدخله الله الجنة.

٩ ـ وأما اختصاص الذَّاكرينَ بالانتفاع بآياته، وهم أولو الألباب والعقول، فكقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

١٠ ـ وأما مصاحبته لجميع الأعمال واقترانُه بها وأنه رُوحُها، فإنه سبحانه قرنه بالصلاة، كقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]، وقرنه بالصيام وبالحجِّ ومناسِكه، بل هو رُوح الحج ولُبُّه ومقصوده، كما قال النبي ﷺ: «**إنَّما جُعِلَ الطَّوافُ بالبَيتِ والسَّعْيُ بيْن الصَّفا والمَرْوةِ ورَمْيُ الجِمارِ: لإقامةِ ذِكْرِ اللهِ**»[1].

وقرنه بالجهاد، وأمَرَ بذِكره عند ملاقاة الأقران ومكافحةِ الأعداء، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

سمِعت شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ يقول: «المُحِبُّون يفتخرون بذِكر مَن يُحبونه في هذه الحال»، كما قال عَنترةُ:

ولقدْ ذَكَرْتُك والرِّماحُ كأنَّها أشْطانُ بِئرٍ في لِبانِ الأدهَمِ

وذكر المحب محبوبه في تلك الحال التي لا يُهِمُّ المرءَ فيها غيرُ نفْسه، يدلُّ على أنَّه عنده بمنزلة نفْسه أو أعز منها، وهذا دليل على صِدق المحبَّة، والله أعلم.

علو منازل الذاكرين عند ربِّ العالمين

والذَّاكرون: هم أهل السبق، كما روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يَسيرُ في طريق مكَّةَ، فمَرَّ على جبلٍ يقال له: جُمْدانُ، فقال: «**سِيروا هذا جُمْدانُ، سَبَقَ المُفَرِّدونَ**». قالوا: وما المُفَرِّدونَ يا رسولَ اللهِ؟ قال:

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤٦٨)، وأبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢)، وقال: «حسن صحيح»، والدارمي (١٨٩٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وضعَّفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (١٨٨٨).

«**الذَّاكِرونَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِراتُ**»[(١)]. والمُفَرِّدون: إما الموحِّدون، وإما الآحاد الفُرادى.

وفي المسند مرفوعًا من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه: «**ألا أُنَبِّئُكم بخَيرِ أعمالِكُم، وأزْكاها عِندَ مَليكِكُم، وأرْفَعِها في دَرَجاتِكُم، وخَيرٍ لكُم مِن إعطاءِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، وأنْ تَلْقَوْا عَدوَّكُم، فتَضرِبوا أعناقَهُم ويَضرِبوا أعناقَكُم؟**» قالوا: وما ذاكَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ذِكْرُ اللهِ** عز وجل»[(٢)].

وروى شُعبةُ، عن أبي إسحاقَ قال: سمِعتُ الأغَرَّ قال: أشهَدُ على أبي هريرةَ وأبي سعيد رضي الله عنهما أنَّهما شَهِدَا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يَقعُدُ قومٌ يَذْكُرون اللهَ إلَّا حَفَّتْهُمُ المَلائكةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحمةُ، ونَزَلَتْ عليهِمُ السَّكينةُ، وذَكَرَهُمُ اللهُ فيمَن عِندَه**»[(٣)]، وهو في «صحيح مسلم».

ويكفي في شرف الذِّكر: أن الله يباهي ملائكتَه بأهله، كما في «صحيح مسلم» عن معاويةَ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم: خَرَج على حَلْقةٍ مِن أصحابِه، فقال: «**ما أجْلَسَكُم؟**»، قالوا: جَلَسْنا نَذْكُرُ اللهَ ونَحمَدُه على ما هَدانا للإسلامِ ومَنَّ به علينا. قال: «**آللهِ ما أجلَسَكُم إلَّا ذلكَ؟**» قالوا: آللهِ ما أجلَسَنا إلَّا ذلكَ. قال: «**أمَا إنِّي لمْ أستَحْلِفْكُم تُهْمةً لكُم، ولكنْ أتاني جِبريلُ** عليه السلام **فأخبَرَني: أنَّ اللهَ يُباهي بكُمُ المَلائِكةَ**»[(٤)].

وسَأل أعرابيٌّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أيُّ الأعمالِ أفضَلُ؟ فقال: «**أنْ تُفارِقَ الدُّنيا ولِسانُكَ رَطْبٌ مِن ذِكْرِ اللهِ**»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٠٢)، والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وصحَّحه الألباني في «تخريج الكلم الطيب» (ص٦٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠١).

(٥) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٧٢)، وابن حبان (٨١٨)، والطبراني في «الدعاء» (١٨٥٢) من حديث معاذ رضي الله عنه، وأخرجه أبو نعيم في«حلية الأولياء» (٦/ ١١١) من حديث عبد الله بن بسر المازني، قال: «جاء أعرابيان...»، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٣٦).

أسرار الذِّكر وعَظيم نفْعه

وقال له رجُلٌ: إنَّ شَرائِعَ الإسلامِ قد كثُرَتْ عليَّ، فمُرْني بأمْرٍ أتَشَبَّثُ به. فقال: «**لا يَزالُ لِسانُكَ رَطْبًا مِن ذِكْرِ اللهِ**»(١).

وفي المسند وغيرِه من حديث جابر قال: خَرَجَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ، فقال: «**أيُّها النَّاسُ، ارْتَعُوا في رياضِ الجَنَّةِ**». قُلْنا: يا رسولَ اللهِ، وما رياضُ الجَنَّةِ؟ فقال: «**مَجالِسُ الذِّكْرِ**»(٢).

وقال: «**اغْدُوا ورُوحُوا واذْكُروا، مَن كان يُحِبُّ أنْ يَعْلَمَ مَنزِلتَه عِندَ اللهِ، فلْيَنظُرْ كيف مَنزِلةُ اللهِ عِندَه؛ فإنَّ اللهَ يُنزِلُ العبدَ منهُ حيث أنزَلَه مِن نفْسِه**»(٣).

وروى النبي، عن أبيه إبراهيمَ ﷺ ليلةَ الإسراء أنه قال له: «**أقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلامَ، وأخبِرْهُم أنَّ الجَنَّةَ طَيِّبةُ التُّربةِ، عَذْبةُ الماءِ، وأنَّها قِيعانٌ، وأنَّ غِراسَها: سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلٰهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ**»(٤). رواه الترمذي وأحمدُ وغيرُهما.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَثَلُ الَّذي يَذْكُرُ ربَّهُ والَّذي لا يَذْكُرُه: مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ**»(٥)، ولفظ مسلم: «**مَثَلُ البَيتِ الَّذي يُذْكَرُ اللهُ فيه والبَيتِ الَّذي لا يُذْكَرُ اللهُ فيه: مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ**».

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٨٠)، والترمذي (٣٣٧٥)، وقال: «حديثٌ حسنٌ غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه (٣٧٩٣) من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» (١١٠٧)، وأبو يعلى (١٨٦٥)، والحاكم (١٨٢٠)، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»، وتعقَّبه الذهبي بأن عمر بن عبد الله ضعيف، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥٤٢٧).

(٣) جزء من الحديث السابق.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٦٢)، وقال: «حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود»، والبزار (٥/ ١٩٩٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٥).

والذي عند أحمد (٢٣٥٥٢) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه: «**مُرْ أُمَّتَك فليكثروا من غِراس الجنة، فإن تربتها طيِّبة، وأرضها واسعة**»، قال: وما غِراسُ الجنة؟ قال: «**لا حول ولا قوَّةَ إلَّا بالله**».

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

فجعل بيتَ الذاكر بمنزلة بيتِ الحي، وبيتَ الغافل بمنزلة بيتِ الميت وهو القبر.

وفي اللفظ الأول: جعَلَ الذَّاكرَ بمنزلة الحي، والغافلَ بمنزلة الميت، فتضمَّنَ اللفظان: أنَّ القلب الذاكرَ كالحيِّ في بيوت الأحياء، والغافلَ كالميت في بيوت الأموات.

ولا ريب أن أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل:

فنِسْيانُ ذِكْرِ اللَّهِ مَوْتُ قُلوبِهِم وأجسامُهُم قَبْلَ القُبورِ قُبورُ
وأرواحُهُم في وَحْشةٍ مِن جُسُومِهِم وليس لهُم حتَّى النُّشورِ نُشورُ

وفي «الصَّحيح» في الأثر الذي يَرويه رسولُ الله ﷺ عن ربه تبارك وتعالى: «**مَن ذَكَرَني في نفْسِه ذَكَرْتُه في نفْسي، ومَن ذَكَرَني في مَلأٍ ذَكَرْتُه في مَلأٍ خَيرٍ منهُم**»[(١)].

أنواع الذِّكر

وقد ذَكَرْنا في الذِّكر نحوَ مائة فائدة في كِتابنا: «الوابل الصَّيِّب ورافِع الكَلِم الطيِّب»، وذَكَرْنا هناك أسرارَ الذِّكر وعَظيمَ نفْعه، وطَيِّب ثمرتِه، وذَكرنا فيه: أنَّ الذكر ثلاثة أنواع:

ذِكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها، وتوحيد الله بها.

وذِكر الأمر والنهي، والحلال والحرام.

وذِكر الآلاء والنَّعماء، والإحسان والأيادي.

وأنه ثلاثة أنواع أيضًا: ذِكرٌ يتواطأ عليه القلبُ واللسان، وهو أعلاها. وذِكرٌ بالقلب وحدَه، وهو في الدرجة الثانية. وذِكرٌ باللسان المجرَّد، وهو في الدرجة الثالثة.

وذِكر العبد لربِّه محفوفٌ بذِكرين من ربِّه له: ذِكر قبله به صار العبد

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذاكرًا له، وذِكر بعده به صار العبد مذكورًا، كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال فيما يَروي عنه نبيُّه ﷺ: **«مَن ذَكَرَني في نفْسِه ذَكَرْتُه في نفْسي، ومَن ذَكَرَني في ملأٍ ذَكَرْتُه في مَلأٍ خَيرٍ منهُم»**(١).

والذِّكر الذي ذَكره الله به بعد ذِكرِه له: نوعٌ غيرُ الذِّكر الذي ذَكَره به قَبل ذِكره له، ومَن كَثُفَ فهْمُه عن هذا فليُجاوِزْهُ إلى غيره؛ فقد قيل:

إذا لَمْ تَستَطِعْ شَيئًا فدَعْهُ ... وجاوِزْهُ إلى ما تَستَطيعُ

وسألت شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يومًا فقلتُ له: إذا كان الربُّ سبحانه يرضى بطاعة العبد ويفرح بتوبته، ويغضب من مخالفته؛ فهل يجوز أن يؤثِّر المحدث في القديم حُبًّا وبغضًا وفرحًا وغير ذلك؟ فقال لي: «الرَّبُّ سبحانه هو الذي خلَق أسبابَ الرِّضا والغضب والفرح، وإنَّما كانت بمشيئته وخَلْقِه؛ فلم يكن ذلك التأثر من غيره، بل من نفْسه بنفسه، والممتنع أن يُؤثِّر غيرُه فيه؛ فهذا محالٌ، وأمَّا أن يخلق هو أسبابًا ويشاؤها ويقدِّرها تقتضي رضاه ومحبته وفرحه وغضبه: فهذا ليس بمحال؛ فإنَّ ذلك منه بدأ، وإليه يعود».

قال صاحب «المنازل»: **(الذِّكْرُ: هو التَّخلُّصُ مِنَ الغَفلةِ والنِّسيانِ)**.

والفرق بين الغفلة والنسيان: أن الغفلة تركٌ باختيار الغافل، والنسيان تركٌ بغير اختياره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ولم يقل: ولا تكن من الناسين؛ فإن النِّسيانَ لا يدخل تحت التكليف، فلا ينهى عنه.

درجات الذِّكر

قال: **(وهو على دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: الذِّكْرُ الظَّاهِرُ مِن ثَناءٍ، أو دُعاءٍ، أو رِعايةٍ).

يريد بالظاهر: الجاريَ على اللسان المطابق للقلب، لا مجرَّد الذِّكر اللِّسانيِّ، فإن القوم لا يَعْتَدُّون به.

(١) متَّفق عليه، وقد تقدم تخريجه.

فأمَّا ذكر الثناء فنحو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، ونظائر ذلك.

وأما ذكر الدُّعاءِ فنحو: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، و: يا حيُّ يا قَيُّومُ، برحمتك أستغيثُ. ونحو ذلك.

وأما ذكر الرِّعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي، الله ناظرٌ إلي، الله شاهدي. ونحو ذلك مما يُسْتَعمل لتقوية الحضور مع الله، وفيه رعايةٌ لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثةَ؛ فإنها متضمِّنةٌ للثناء على الله، والتعرُّض للدعاء والسؤال أو التصريح به، كما في الحديث: «**أفضَلُ الدُّعاءِ: الحَمدُ للهِ**»[1].

قيل لسفيانَ بن عُيَيْنَةَ: «كيف جعلَها دعاءً؟ قال: أمَا سمِعتَ قولَ أُميَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ لعبد الله بن جُدْعان يَرْجو نائلة:

أأذْكُرُ حاجَتي أمْ قد كَفاني ... حَياؤُكَ إنَّ شِيمَتَكَ الحَياءُ

إذا أثْنى عليكَ المَرءُ يَومًا ... كَفاهُ مِن تَعرُّضِهِ الثَّناءُ

فهذا مخلوقٌ واكتفى من مخلوق بالثناء عليه مِن سؤاله؛ فكيف بربِّ العالَمين؟!».

ومُتضمِّنةٌ أيضًا لكمال الرِّعاية، ومصلحة القلب والتحرز من الغفلات، والاعتصام من الوساوس والشيطان، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وقال: «حديثٌ حسن غريب لا نعرِفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم»، وابن ماجه (٣٨٠٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٣١)، وابن حبان (٨٤٦)، والحاكم (١٨٣٤)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٠٤).

الذِّكر الخفيُّ

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: الذِّكْرُ الخَفيُّ، وهو الخَلاصُ مِنَ القُيودِ، والبَقاءُ مع الشُّهودِ، ولُزومُ المُسامَرةِ**).

يريد بالخفي هاهنا: الذِّكرَ بمجرَّد القلب بما يَعرِضُ له من الواردات، وهذا ثمرة الذكر الأول.

ويريد بالخلاص من القيود: التخلُّصَ من الغفلة والنسيان، والحُجُبِ الحائلة بين القلب وبين الربِّ سبحانه.

والبقاء مع الشهود: ملازمة الحضور مع المذكور ومشاهدة القلب له حتى كأنَّه يراه.

ولزوم المسامرة: لزوم مناجاةِ القلب لربِّه؛ تَملُّقًا تارةً، وتضرُّعًا تارة، وثناءً تارة، واستعظامًا تارة، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسِّرِّ والقلب، وهذا شأن كلِّ محِبٍّ وحبيبِه، كما قيل:

إذا ما خَلَوْنا والرَّقيبُ بمَجلِسٍ فنحنُ سُكوتٌ والهَوى يَتكلَّمُ





منزلة الفقر

هذه المنزلة أشرفُ منازل الطريق عند القوم، وأعلاها وأرفعُها. بل هي رُوح كلِّ منزلة، وسِرُّها ولبُّها وغايتها.

دلالات لفظ الفقر في القرآن

وهذا إنما يُعْرَف بمعرفة حقيقة الفقر، والذي تريد به هذه الطائفةُ أخصُّ من معناه الأصلي؛ فإن لفظ الفقر وقع في القرآن في **ثلاثة مواضعَ**:

أحدها: قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]؛ أي: الصدقات لهؤلاء. وكان فقراء المهاجرين نحو أربع مائة، لم يكن لهم مساكنُ في المدينة ولا عشائرُ، وكانوا قد حَبَسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فكانوا وقفًا على كل سرية يبعثها رسولُ الله ﷺ، وهم أهل الصُّفَّة. هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

والصحيح: أنهم ـ لفقرهم وعجزهم وضعفهم ـ لا يستطيعون ضربًا في الأرض، ولكمال عِفَّتِهم وصيانتِهم يَحسَبُهم مَن لم يعرف حالَهم أغنياءَ.

والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠].

والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

فالصنف الأول: خواصُّ الفقراء. **والثاني**: فقراء المسلمين خاصُّهم وعامُّهم. **والثالث**: الفقر العام لأهل الأرض كلِّهم؛ غَنِيِّهم وفقيرِهم، مؤمنِهم وكافرِهم.

فالفقراء الموصوفونَ في الآية الأولى: يقابلهم أصحابُ الجِدَة، ومَن ليس مُحصرًا في سبيل الله، ولا يكتم فقره تعففًا، فمقابلهم أكثرُ من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهلُ الجِدَة، ويدخل فيهم المتعفِّفُ وغيرُه، والمُحصَرُ في سبيل الله وغيرُه.

والصنف الثالث: لا مقابلَ لهم، بل اللهُ وحدَه الغني، وكلُّ ما سِواه فقيرٌ إليه.

الافتقار إلى الله تعالى لب العبودية

ومراد القوم بالفقر: شيءٌ أخصُّ من هذا كلِّه، وهو تحقيق العبودية والافتقار إلى الله تعالى في كل حالة.

وهذا المعنى أجلُّ من أن يُسمَّى فقرًا، بل هو حقيقة العبودية ولبُّها، وعزل النفْس عن مزاحمة الربوبية.

وسُئِل عنه يحيى بنُ مُعاذ ﷺ، فقال: «حقيقته أن لا يُستغني إلَّا بالله، ورسمُه: عدم الأسباب كلِّها».

يقول: عدم الوثوق بها والوقوفِ معها، وهو كما قال بعض المشايخ: شيءٌ لا يضعه الله إلَّا عند مَن يحبُّه، ويسوقه إلى مَن يريده.

وسُئِل أبو حفص: «بِمَ يَقدَمُ الفَقيرُ على ربِّه؟ فقال: وما للفقير شيءٌ يَقدَم به على ربه سِوى فقرِه».

حقيقة الفقر وكماله

وحقيقة الفقر وكمالُه كما قال بعضهم، وقد سُئل: متى يستحق الفقيرُ اسمَ الفقر؟ فقال: «إذا لم يبقَ عليه بقيَّةٌ منه. فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: إذا كان له فليس له، وإذا لم يكن له فهو له».

وهذه مِن أحسَنِ العبارات عن معنى الفقر الذي يشير إليه القوم، وهو أن يصير كلُّه لله، ولا يبقى عليه بقيةٌ مِن نفْسِه وحظِّه وهواه. فمتى بقيَ عليه شيءٌ مِن أحكام نفْسِه ففقرُه مدخول.

ثم فسَّر ذلك بقوله: «إذا كان له فليس له»؛ أي: إذا كان لنفسِه فليس لله، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

فحقيقة الفقر إذنْ: أنَّ لا تكونَ لنفْسِك، ولا يكون لها منك شيءٌ، بحيث يكون كلُّك لله، وإذا كنتَ لنفسِك فثَمَّ مِلْك واستغناءٌ منافٍ للفقر.

وهذا الفقرُ الذي يشيرون إليه: لا تنافيه الجِدَةُ ولا الأملاك؛ فقد كان رسُلُ الله وأنبياؤه في ذروته مع جِدَتِهم ومِلكهم، كإبراهيمَ الخليلِ عليه السلام كان أبا الضِّيفان، وكانت له الأموالُ والمواشي، وكذلك كان سليمانُ وداودُ عليهما السلام، وكذلك كان نبيُّنا صلى الله عليه وسلم، كان كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ٨]، فكانوا أغنياءَ في فقرهم، فقراءَ في غِناهم.

فالفقر الحقيقي: دوام الافتقارِ إلى الله في كلِّ حال، وأن يشهد العبدُ ـ في كل ذرَّةٍ من ذراته الظاهرة والباطنة ـ فاقةً تامَّةً إلى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتي للعبد، وإنما يتجدد له بشهوده ووجودِه حالًا، وإلَّا فهو حقيقة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ قدَّس اللهُ رُوحَه:

والفَقْرُ لي وَصْفُ ذاتٍ لازِمٌ أبدًا ... كما الغِنى أبدًا وَصْفٌ لهُ ذاتي

* * *

آثار الفقر النافع وعلاماته

وله آثار وعلاماتٌ وموجباتٌ وأسباب أكثر إشارات القوم إليها، كقول بعضهم: الفقير لا تسبق هِمَّته خطوته. يريد: أنه ابنُ حاله ووقتِه، فهِمَّته مقصورةٌ على وقته لا تتعدَّاه.

وقيل: أركان الفقر أربعة: عِلم يَسوسه، وورَعٌ يَحجُزُه، ويقينٌ يَحمِلُه، وذكر يؤْنِسه.

وقال الشِّبليُّ رحمه الله: «حقيقةُ الفقر أنْ لا يَستغنيَ بشيء دون الله».

وسُئل سَهلُ بنُ عبد الله رحمه الله: «متى يستريح الفقيرُ؟ فقال: إذا لم يرَ لنفْسِه غيرَ الوقت الذي هو فيه».

وقال أبو حفص رضي الله عنه: «أحسَنُ ما يَتوسُّل به العبدُ إلى الله: دوامُ الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمةُ السُّنَّةِ في جميع الأفعال، وطلبُ القُوت من وجهٍ حلال».

وقيل: مِن حُكم الفقير: أن لا تكون له رغبةٌ، فإن كان ولا بد، فلا تجاوز رغبتُه كفايتَه.

واتَّفقت كلمةُ القوم على أنَّ دوام الافتقار إلى اللهِ مع التخليط: خيرٌ من دوام الصَّفاء مع رُؤية النَّفْسِ والعُجبِ، مع أنه لا صفاءَ معهما.

وإذا عَرفتَ معنى الفقر عرفتَ أنه عينُ الغنى بالله، فلا معنى لسؤال مَن سأل: أي الحالين أكمل: الافتقار إلى الله، أم الاستغناءُ به؟ فهذه مسألة غيرُ صحيحة؛ فإن الاستغناء به هو عين الافتقار إليه.

وسُئل عن ذلك محمدُ بنُ عبد الله الفَرْغانيُّ رَحِمَهُ اللهُ، فقال: «إذا صحَّ الافتقارُ إلى الله، فقد صحَّ الاستِغناءُ بالله، وإذا صحَّ الاستغناءُ بالله، كَمُلَ الغِنى به».

فلا يقال: أيُّهما أتمُّ: الافتقار أمِ الاستغناء؟ لأنَّهما حالتان لا تَتِمُّ إحداهما إلَّا بالأخرى.

الفقير الصابر والغني الشاكر

وأما كلامهم في مسألة الفقير الصابر والغنيِّ الشاكر، وترجيح أحدهما على صاحبه: فعند أهل التحقيق والمعرفة: أنَّ التفضيل لا يرجِعُ إلى ذات الفقرِ والغِنى، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوالِ والحقائق.

فالمسألة أيضًا فاسدةٌ في نفْسِها؛ فإن التفضيل عند الله بالتقوى، وحقائقِ الإيمان، لا بفقرٍ ولا غنى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولم يقل: أفقركم، ولا: أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «الفقرُ والغِنى ابتلاءٌ من الله لعبده، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧]؛ أي: ليس كلُّ مَن أعطيْتُه ووسَّعتُ عليه أكون قد أكرمته، ولا كلُّ مَن ضيَّقْتُ عليه وقتَّرْتُ أكون قد أهنته؛ فالإكرام: أن يكرم اللهُ العبدَ بطاعته، والإيمانِ به، ومحبَّتِه ومعرفته. والإهانةُ: أن يَسلُبُه ذلك».

قال: «ولا يقع التفاضلُ بالغنى والفقر، بل بالتقوى، فإذا استويَا في التقوى استويا في الدرجة». سمِعتُه يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألةَ عند يحيى بن مُعاذ رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: «لا يُوزَن غدًا الفقرُ ولا الغنى، وإنما يُوزَن الصبرُ والشكرُ».

الفقر الذي يمدح فيه صاحبه

قال صاحب «المنازل»: (**الفَقرُ اسمٌ للبَراءةِ مِنَ المَلكةِ**).

عدَل الشيخ عن لفظ (**عدَم الملكة**) إلى قوله: (**البراءة من الملكة**)؛ لأنَّ عدم الملكة ثابتٌ في نفْسِ الأمر لكلِّ أحد سِوى الله تعالى؛ فالله هو المالك حقيقةً، فعدم الملكة: أمرٌ ثابت لكل ما سِواه لذاته، والكلام في الفقر الذي يمدح فيه صاحبه، وهو فقر الاختيار، وهو أخصُّ مِن مطْلَقِ الفقر، وهو براءة العبدِ من دعوى المِلك بحيث لا ينازِعُ مالِكَه الحقَّ.

ولما كانت نفْسُ الإنسان ليست له، وإنما هي ملك لله، فما لم يخرُجْ عنها ويُسلِمْها لمالكها ومولاها الحقِّ: لم يثبت له في الفقر قدمٌ، فلذلك كان أوَّلَ قدم الفقر: الخروجُ عن النفس، وتسليمُها لمالكها ومولاها، فلا يخاصِمُ لها، ولا يتوكل لها، ولا يحاجِج عنها، ولا ينتصر لها، بل يفوِّض ذلك لمالكها وسيِّدِها.

قال بُندارُ بن الحُسَين رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تُخاصِم لنفسك؛ فإنها ليست لك، دعْها لمالكها يفعل بها ما يريد».

وقد أجمعت هذه الطائفةُ على أنَّه لا وصول إلى الله إلَّا من طريق الفقر، ولا دخولَ عليه إلَّا مِن بابه. والله أعلم.

درجات الفقر عند صاحب «المنازل»

قال: (**وهو على دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولى: فَقْرُ الزُّهَّادِ، وهو قَبْضُ اليَدِ عنِ الدُّنيا ضَبْطًا أو طَلَبًا، وإسكاتُ اللِّسانِ عنها مَدْحًا أو ذَمًّا، والسَّلامةُ منها طَلَبًا أو تَرْكًا. وهذا هو الفَقْرُ الَّذي تَكلَّموا في شَرَفِه).

الدنيا عند القوم: ما سِوى الله من المال، والجاه، والصُّوَرِ والمراتب.

ولمَّا كان لها تعلُّقٌ بالجوارح والقلبِ واللسان، كان حقيقة الفقر: تعطيل هذه الثلاثة عن تعلُّقها بها وسلبها منها، فلهذا قال: **قبض اليدِ عن الدنيا ضبطًا أو طلبًا**؛ يعني: يقبض يدَه عن إمساكها إذا حصلتْ له، فإذا قبض يده عن الإمساك جادَ بها، وإن كانت غيرَ حاصلة له كفَّ يده عن طلبها، فلا يطلب معدومَها، ولا يبخل بموجودها.

وأمَّا تعطيلُها عن اللِّسان: فهو أنْ لا يمدحَها ولا يَذُمَّها؛ فإن اشتغاله بمدحِها أو ذمِّها دليلٌ على محبتها ورغبتِه فيها؛ فإنَّ مَن أحبَّ شيئًا أكثرَ مِن ذكره، وإنما اشتغل بذمِّها حيث فاتَتْه، كمَن طلب العنقود فلم يصِل إليه، فقال: هو حامض! ولا يتصدَّى لذمِّ الدنيا إلَّا راغبٌ محب مفارقٌ؛ فالواصل مادح، والمفارِقُ ذامٌّ.

وأما تعطيلُ القلب منها فبالسَّلامة من آفات طلبِها وتركِها؛ فإن لطلبها آفاتٍ ولتركها آفاتٍ. والفقر سلامةُ القلب من آفات الطلب والتَّرك، بحيث لا تحجبه عن ربِّه بوجه من الوجوه الظاهرةِ والباطنة؛ لا في طلبها وأخْذِها، ولا في تركها والرغبةِ عنها.

وجه الآفة في ترك الدنيا والرغبة عنها

فإن قلتَ: عرفت الآفة في أخذها وطلبها، فما وجهُ الآفة في تركها والرغبةِ عنها؟

قلتُ: من وجوهٍ شتَّى:

أحدها: أنه إذا ترَكَها ـ وهو بَشَرٌ لا ملَك ـ تعلَّق قلبُه بما يقيمه ويقيته ويُعيشه، وما هو محتاج إليه، فيبقى في مجاهدة شديدةٍ مع نفسه لتركِ معلومها وحظِّها من الدنيا. وهذه قلَّةُ فقهٍ في الطريق، بل الفقيه العارف: يردُّها عنه بلقمة، كما يرد الكلب إذا نبح عليه بكسرة، ولا يقطع زمانَه بمجاهدته ومدافعتِه، بل أعطِها حظَّها، وطالِبْها بما عليها من الحقِّ.

هذه طريقة الرسلِ صلى الله عليهم وسلم، وهي طريقة العارفينَ من أرباب السلوك، كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ لنفْسِك عليك حَقًّا، ولرَبِّك عليكَ حَقًّا، ولزَوْجِك عليكَ حَقًّا، ولضَيْفِكَ عليك حَقًّا، فأعْطِ كلَّ ذي**

حَقٍّ حَقَّهُ»[١].

والعارف البصير يجعل عِوَضَ مجاهدته لنفْسِه في ترك شهوةٍ مباحة مجاهدتَه لأعداء الله من شياطينِ الإنسِ والجن، وقطَّاع الطريق على القلوب كأهل البدع من بني العِلم، وبني الإرادة، ويستفرغ قواه في حربهم ومجاهدتهم، ويتقوَّى على حربهم بإعطاء النَّفسِ حقَّها من المباح، ولا يشتغل بها.

ومن آفات التَّرك: تطلُّعه إلى ما في أيدي الناس إذا مسَّتْه الحاجةُ إلى ما تركه؛ فاستدامتها كان أنفعَ له من هذا الترك.

ومن آفات ترْكِها وعدمِ أخذها: ما يداخِلُه من الكِبر والعُجب والزَّهو، وهذا يقابل الزهدَ فيها وترْكَها، كما أن كسرة الآخذِ وذلَّته وتواضعَه: يقابل الأخذَ. ففي الأخذ آفاتٌ، وفي التَّرك آفاتٌ.

فالفقر الصحيح: السلامةُ من آفات الأخذِ والتَّرك، وهذا لا يحصُلُ إلا بفقه في الفقر.

قوله: (**فهذا هو الفَقْرُ الَّذي تَكَلَّموا في شَرَفِه**)؛ يعني: تكلَّم فيه أرباب السلوك، وفضَّلوه ومدحوه.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: الرُّجوعُ إلى السَّبقِ بمُطالَعةِ الفَضلِ. وهو يُورِثُ الخَلاصَ مِن رؤْيةِ الأعمالِ، ويَقْطَعُ شُهودَ الأحْوالِ**).

يريد بالرجوع إلى السَّبق: الالتفاتَ إلى ما سبقتْ به السابقةُ من الله، بمطالعة فضله ومِنَّته وَجُودِه، وأن العبد وكلَّ ما فيه من خير فهو محضُ جُودِ الله وإحسانِه، وليس للعبد مِن ذاته سِوى العدم. وذاته وصفاتُه وإيمانه وأعمالُه كلُّها من فضل الله عليه، فإذا شَهِد هذا وأحضره قلبَه وتحقَّق به: خلَّصَه من رؤية أعماله؛ فإنه لا يراها إلَّا مِن الله وبالله، وليست منه هو، ولا به.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨) من حديث سلمان رضي الله عنه، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

واتَّفقت كلمةُ الطائفةِ على أنَّ رُؤيةَ الأعمال حِجابٌ بين العبد وبين الله، ويخلِّصُه منها: شهودُ السَّبق، ومطالعةُ الفضل.

وقوله: (**ويَقْطَعُ شُهودَ الأحْوالِ**)؛ لأنه إذا طالع سبق فضلِ الله: عَلِمَ أنَّ كلَّ ما حصل له من حال أو غيره، فهو محضُ جودِه، فلا يشهد له حالًا مع الله ولا مقامًا، كما لم يَشهَدْ له عملًا، فقد جعل عدته للقاء ربِّه: فقرَه من أعماله وأحواله، فهو لا يقدم عليه إلَّا بالفقر المحض، وهو العَلاقة التي بينه وبين ربِّه، والنسبة التي ينتسب بها إليه، والباب الذي يدخُلُ منه عليه.





منزلة الغنى

وهو نوعان: غِنًى بالله، وغِنًى عن غير الله، وهُمَا حقيقة الفقر، ولكن أرباب الطريق أفردوا للغنى منزلة.

قال صاحب «المنازل»: **(قال اللهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾** [الضحى: ٨]).

مفهوم الغنى ومعناه

وفي الآية **ثلاثةُ أقوال:**

أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقرِه. وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين؛ لأنَّه قابله بقوله: ﴿عَآئِلًا﴾، والعائل: هو المحتاج ليس ذا العيلة، فأغناه.

والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه، وأغناه به عن سواه، فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال، وهو حقيقة الغنى.

والثالث ـ وهو الصحيح ـ: أنه يَعُمُّ النوعين: نوعَيِ الغنى؛ فأغنى قلبَه به، وأغناه من المال.

ثم قال: **(الغِنى اسمٌ للمِلْكِ التَّامِّ)**؛ يعني: أنَّه مَن كان مالكًا من وجهٍ دون وجه فليس بغني. وعلى هذا: فلا يستحقُّ اسمَ الغنى بالحقيقة إلَّا الله، وكلُّ ما سِواه فقيرٌ إليه بالذات.

درجات الغنى عند صاحب «المنازل»

قال: **(وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: غِنى القَلبِ. وهو: سَلامَتُه مِنَ السَّببِ، ومُسالَمَتُه للحُكْمِ، وخَلاصُه مِنَ الخُصومةِ).

حقيقة غنى القلب: تعلُّقه بالله وحدَه. وحقيقة فقرِه المذموم: تعلُّقه بغيره. فإذا تعلَّق بالله حصلتْ له هذه الثلاثُ التي ذكرها.

(سَلامَتُه مِنَ السَّببِ)؛ أي: من التعلُّق به، لا من القيام به. والغنى عند أهل الغفلة بالسبب؛ ولذلك قلوبهم مُعلَّقة به. وعند العارفين بالمسبِّب، وكذلك الصناعة والقوة. فهذه الثلاثة: هي جهات الغنى عند الناس، وهي التي أشار إليها النبي ﷺ في قوله: «**إنَّ الصَّدقةَ لا تَحِلُّ لغَنِيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**»، وفي رواية: «**ولا لِقَوِيٍّ مُكتَسِبٍ**»[1].

وهو غِنًى بالشيء؛ فصاحبها غنيٌّ بها إذا سكنت نفسُه إليها، وإن كان سكونه إلى ربه: فهو غنيٌّ به، وكل ما سكنت النفْسُ إليه فهي فقيرة إليه.

الاستسلام للأحكام القَدَرية والشرعية والرضا بهما

وأما **(مُسالَمةُ الحُكْمِ)** فعلى **نوعين**:

أحدهما: مسالمة الحكم الديني الأمري، وهي معانقته وموافقته، ضد محاربته.

والثاني: مسالمة الحُكمِ الكَونيِّ القدَري، الذي يجري عليه بغير اختياره، ولا قدرة له على دفعه، وهو غير مأمور بدفعه.

وفي مسالمة الحُكم نُكتةٌ لا بدَّ منها، وهي تجريدُ إضافته ونِسبتُه إلى مَن صدَر عنه، بحيث لا يَنسِبُه إلى غيره.

وهذا يتضمَّنُ توحيد الربوبيةِ في مسالمة الحُكم الكَونيِّ، وتوحيدَ الإلٰهية في مسالمة الحكم الدِّينيِّ، وهما حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

وأما **(الخَلاصُ مِنَ الخُصومةِ)** فإنما يُحْمَد منه: الخلاصُ من الخصومة بنفسه لنفسه. وأما إذا خاصم بالله ولله: فهذا من كمال العبودية، وكان النبي ﷺ يقول في استفتاحه: «**اللَّهُمَّ لكَ أسلَمْتُ، وبكَ آمَنْتُ، وعليكَ توكَّلْتُ، وإليكَ أنَبْتُ، وبكَ خاصَمْتُ، وإليكَ حاكَمْتُ**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٣٠)، وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: غِنَى النَّفْسِ. وهو: استِقامَتُها على المَرْغوبِ، وسَلامتُها مِنَ الحُظوظِ، وبَراءتُها مِنَ المُراءاةِ**).

جعَل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ غِنى النفس فوق غنى القلب.

ومعلومٌ أنَّ أمور القلب أكملُ وأقوى من أمور النَّفْس، لكنْ في هذا الترتيب نُكتةٌ لطيفة؛ وهي أنَّ النفْسَ مِن جُند القلب ورَعيَّتِه، وهي من أشدِّ جندِه خلافًا عليه، وشِقاقًا له. ومِن قِبَلِها تتشوَّشُ عليه المملكة، ويدخُل عليه الداخل، فإذا حصَل له كمالٌ بالغنى: لم يتمَّ له إلَّا بغناها أيضًا؛ فإنها متى كانت فَقيرةً عاد حُكمُ فقرِها عليه، وتشوَّشَ عليه غِناه، وكان غناها تمامًا لغناه وكمالًا له، وغناه أصلًا بغناها؛ فمنه يَصِلُ الغنى إليها، ومنها يصل الفقرُ والضرر والعنَتُ إليه.

الوسائل المعينة على تحقيق غنى النفس

إذا عُرف هذا، فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جَعَل غِناها **بثلاثة أشياءَ**:

استقامتها على المرغوب، وهو الحقُّ تعالى. واستقامتها عليه: استدامةُ طلبِه، وقطعُ المنازل بالسير إليه.

الثاني: **سلامتها من الحظوظ**، وهي تعلُّقاتُها الظاهرةُ والباطنة بما سِوى الله.

الثالث: **براءتها من المُراءاة**، وهي إرادة غيرِ الله بشيء من أعمالها وأقوالها.

فمراءاتها دليلٌ على شدة فقْرِها، وتعلُّقُها بالحظوظ من فقرها أيضًا.

وعدم استقامتها على مطلوبها الحقِّ: أيضًا من فقرها. وذلك يدلُّ على أنها غيرُ واجدة لله؛ إذ لو وجدَتْه لاستقامت على السَّير إليه، ولقطعت تعلُّقاتِها وحظوظَها، ولَما أرادت بعملها غيرَه.

فلا تستقيم هذه الثلاثة إلَّا لمن قد ظفِر بنفْسِه، ووجد مطلوبَه، ومن لم يَجِدْ ربَّه تعالى فلا استقامة له، ولا سلامة لها من الحظوظ، ولا براءة لها من الرياء.

مراتب الاغتناء بالله

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: الغِنَى بالحَقِّ. وهو على ثَلاثِ مَراتِبَ: المَرتبةُ الأُولى: شُهودُ ذِكْرِهِ إيَّاكَ. والثَّانيةُ: دَوامُ مُطالَعةِ أوَّلِيَّتِه. والثَّالثةُ: الفَوزُ بوُجودِه**).

أما **شهود ذِكره إياك** فقد تقدم قريبًا.

وأما **مطالعة أوَّليَّتِه** فهو سبقه للأشياء جميعًا؛ فهو الأول الذي ليس قبله شيء. قال بعضهم. ما رأيت شيئًا إلا وقد رأيت الله قبله.

فإن قلتَ: وأيُّ غِنًى يحصُل للقلب من مطالعة أوَّليَّة الربِّ، وسبقه لكل شيء؟ ومعلوم أن هذا حاصل لكل أحد، مِن غني وفقير، فما وجه الغنى الحاصل به؟

قلتُ: إذا شهِد القلبُ سبقَه للأسباب، وأنها كانت في حَيِّز العدم، وهو الذي كساها حُلة الوجود، فهي معدومة بالذات، فقيرةٌ إليه بالذات، وهو الموجود بذاته، والغنيُّ بذاته لا بغيره، فليس الغِنى في الحقيقة إلَّا به، كما أنَّه ليس في الحقيقة إلَّا له، فالغنى بغيره عينُ الفقر؛ فإنه غنًى بمعدوم فقير، والفقير كيف يستغني بفقير مثله؟!

وأما **الفوز بوجوده** فإشارة القوم كلِّهم إلى هذا المعنى، وهو نهاية سفرِهم. وفي الأثر الإلٰهي: «**ابنَ آدَمَ، اطلُبْني تَجِدْني، فإنْ وَجَدْتَني وَجَدْتَ كلَّ شَيءٍ، وإنْ فُتُّكَ فاتَكَ كلُّ شَيءٍ، وأنا أحَبُّ إليكَ مِن كلِّ شَيءٍ**».

ومَن لم يَعلم معنى وجودِه لله، والفوزِ به: فلْيَحْثُ على رأسه الرَّمادَ، ولْيَبْكِ على نفْسِه. والله أعلم.





منزلة المراد

أفردها القوم بالذِّكر، وفي الحقيقة: فكلُّ مريدٍ مُرادٌ، بل لم يَصِرْ مريدًا إلا بعد أن كان مرادًا، لكن القوم خصُّوا المريد بالمبتدئ، والمراد بالمنتهي.

قال أبو عليٍّ الدَّقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المريد مُتحمِّل، والمرادُ مَحمول. وقد كان موسى مريدًا؛ إذ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥﴾ [طه: ٢٥]، ونبيُّنا ﷺ مرادًا؛ إذ قيل له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١]».

مفهوم كلٍّ من المريد والمراد

وسُئل الجُنَيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن المريد والمراد؟ فقال: «المريد يتولَّاه سياسة العِلم، والمراد: يَتولَّاه رِعاية الحق؛ لأنَّ المريد يسير، والمراد يَطير؛ فمتى يَلحَقُ السائرُ الطائر؟!».

وقد مُثِّل المريدُ والمراد بقوم بعَثَ إليهم سلطانُهم يستدعيهم إلى حضرته من بلاد نائية، وأرسل إليهم بالأدلَّةِ والأموال، والمراكبِ وأنواعِ الزاد، وأمرهم بأن يتجشَّموا إليه قطْعَ السُّبُلِ والمفاوز، ويجتهدوا في المسير حتى يلحَقوا به، وبعث خيلًا له ومماليكَ إلى طائفة منهم، فقال: احمِلوهم على هذه الخيل التي تَسبِقُ الرِّكاب، واخدموهم في طريقهم، ولا تَدَعوهم يعانون مؤنةَ الشَّدِّ والربط، بل إذا نزلوا فأريحوهم، ثم احملوهم حتى تقدموهم عليَّ. فلم يَجِدْ هؤلاء من مجاهدة السَّير، ومكابدتِه، ووعْثاءِ السفر ما وجده غيرُهم.

ومِن الناس مَن يقول: المريد ينتقل من منزلة الإرادة إلى أن يصير مرادًا، فكان محِبًّا، فصار محبوبًا، فكلُّ مريد صادقٍ نهايةُ أمرِه أن يكون مرادًا. وأكثرُهم على هذا.

درجات المراد عند صاحب «المنازل»

قال صاحب «المنازل»: (**وللمُرادِ ثَلاثُ دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولى: أنْ يُعصِمَ العَبدُ وهو يَستَشرِفُ للجَفاءِ اضْطِرارًا بتَنغيصِ الشَّهواتِ، وتَعويقِ المَلاذِّ، وسَدِّ مَسالِكِ المَعاطِبِ عليه إكراهًا).

يعني: أنَّ العبد إذا استشرفت نفْسُه للجفاء بينه وبين سيِّده بموافقة شهواته: عصَمَه سيدُه اضطرارًا؛ بأن ينغِّص عليه الشهواتِ، فلا تصفو له البتَّةَ، بل لا ينال ما ينال منها إلَّا مشوبًا بأنواع التنغيص، الذي ربما أربى على لذَّتِها واستهلكها، بحيث تكون اللذةُ في جنب التنغيص كالخُلسة والغفوة، وكذلك يعوق الملاذ عليه بأن يَحولَ بينه وبينها، حتى لا يركنَ إليها، ويطمئنَّ إليها ويساكنها، فيحول بينه وبين أسبابها.

فإن هُيِّئت له قُيِّض له مدافعٌ يَحول بينه وبين استيفائها، فيقول: من أين دُهِيت؟ وإنما هي عين العناية والحمية والصيانة.

وكذلك يسُدُّ عنه طُرُق المعاصي؛ فإنها طرق المعاطب، وإنْ كان كارهًا، عنايةً به، وصيانة له.

الحبيب يُسامَح بما لا يُسامَح به سواه

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: أنْ يَضَعَ عنِ العَبدِ عَوارِضَ النَّقصِ، ويُعافِيَه مِن سِمَةِ اللَّائِمةِ، ويُملِّكَه عَواقِبَ الهَفَواتِ، كما فَعَلَ بسُليمانَ عليه السلام حين قَتَلَ الخَيلَ، فحَمَلَه على الرِّيحِ الرُّخاءِ، فأغْناهُ عنِ الخَيلِ، وفَعَلَ بموسى عليه السلام حين ألْقى الألْواحَ وأخَذَ برأسِ أخيهِ، ولَمْ يَعتِبْ عليه كما عَتَبَ على آدَمَ عليه السلام، ونوحٍ، وداودَ، ويُونُسَ عليهم السلام**).

الفرق بين هذه الدرجةِ والتي قبلها: أنَّ في التي قبلها منعًا من مواقعة أسبابِ الجفاء اضطرارًا. وفي هذه: إذا عرَضت له أسبابُ النقيصة، التي يستحقُّ عليها اللائمةَ: لم يعتبه عليها ولم يَلُمْه.

وهذا نوع من الدَّلال، وصاحبه من ضنائن اللهِ وأحبابه؛ فإن الحبيب يسامِح بما لا يسامح به سِواه؛ لأن المحبَّةَ أكبرُ شفعائه، وإذا هفَا هفوةً ملَّكه عاقبتها، بأن جعلها سببًا لرفعته، وعلوِّ درجته، فيجعل تلك الهفوةَ سببًا لتوبة نصوح، وذُلٍّ خاص، وانكسارٍ بين يديه، وأعمالٍ

صالحة تَزيدُ في قُربه منه أضعافَ ما كان عليه قبل الهَفوة، فتكون تلك الهفوةُ أنفعَ له من حسنات كثيرة، وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد، وكونِه من أحبابه وحزبه.

وقد استَشهد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بقصة سُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ألْهَتْه الخيل عن صلاة العصر، فأخذته الغضبةُ لله والحَمِية، فحملته على أن مسح عراقيبها وأعناقَها بالسيف، وأتلف مالًا شغله عن الله في الله، فعوَّضه الله منه: أنْ حمَلَه على متن الرِّيح، فملَّكه الله تعالى عاقبة هذه الهفوة، وجعلها سببًا لنيل تلك المنزلة الرفيعة.

واستشهد بقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين ألقى الألواح ـ وفيها كلام الله ـ عن رأسه، وكسرها، وجرَّ بلحية أخيه، وهو نبيٌّ مِثلُه، ولم يعاتِبْه الله على ذلك، كما عتب على آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في أكل لقمةٍ من الشجرة، وعلى نوح حين سأل ربَّه في ابنه أن ينجيَه، وعلى داودَ في شأن امرأة أوريا، وعلى يونسَ في شأن المغاضبة.

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «وكذلك لطمُ موسى عينَ ملَكِ الموت ففقأها، ولم يعتب عليه ربه، وفي ليلة الإسراء عاتب عليه الصلاةُ والسلامُ ربَّه في النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ رُفِعَ فوقه، ورفع صوتَه بذلك، ولم يعتبه الله على ذلك، قال: لأن موسى ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ قام تلك المقاماتِ العظيمةَ التي أوجبت له هذا الدَّلالَ؛ فإنه قاوم فرعونَ أكبرَ أعداءِ الله تعالى، وتصدَّى له ولقومه، وعالج بني إسرائيلَ أشدَّ المعالجة، وجاهد في الله أعداء الله أشدَّ الجهاد، وكان شديدَ الغضب لربه، فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره.

وذو النُّون لما لم يكن في هذا المقام: سجنه في بطن الحوتِ من غضبه، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا».

اجتباء الله لبعض خلقه واصطفاؤه لهم

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: اجتِباءُ الحَقِّ عَبْدَه، واستِخْلاصُه إيَّاهُ بخالِصَتِه، كما ابتَدَأ موسى، وقد خَرَجَ يَقتَبِسُ نارًا، فاصْطَنَعَه لنَفْسِه، وأبقى منه رَسْمًا مُعارًا**).

قلت: الاجتباء: الاصطفاء والإيثارُ والتخصيص. وهو افتعالٌ من جبيت الشيء: إذا حُزته إليك، كجباية المال وغيره.

والاصطناع أيضًا: الاصطفاءُ والاختيار؛ يعني: أنه اصطفى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واستخلصه لنفْسه، وجعله له خالصًا من غير سبب كان من موسى، ولا وسيلة؛ فإنه خرج ليقتبسَ النار، فرجع وهو كليمُ الواحد القهار، وأكرمُ الخلْقِ عليه، ابتداءً منه سبحانه من غير سابقة استحقاق، ولا تقدُّمِ وسيلة. وفي مثل هذا قيل:

أيُّها العَبدُ كُنْ لِمَا لسْتَ تَرْجُو ... مِن صَلاحٍ أرْجى لِمَا أنتَ راجي

إنَّ موسى أتَى ليَقْبِسَ نارًا ... مِن ضِياءٍ رآهُ واللَّيلُ داجي

فانْثَنى راجِعًا، وقد كَلَّمَهُ اللـ ... ـهُ، وناجاهُ وهوَ خَيرُ مُناجي

تأملات في مظهري الجلال والجمال

وقوله: **(وأبْقى مِنهُ رَسْمًا مُعارًا)**.

يريد بالرسم: أنه أخذه من نفْسه، واصطنعه لنفْسه، واختاره من بين العالَمين، وخصَّه بكلامه، ولم يُبقِ له من نفْسه إلَّا رسمًا مجرَّدًا يصحب به الخلْق، وتجري عليه فيه أحكامُ البشرية؛ إتمامًا لحكمته، وإظهارًا لقدرته، فهو عارية معه، فإذا قضى ما عليه: استرد منه ذلك الرَّسم، وجعله من ماله، فتكملتْ إذ ذاك مرتبة الاجتباء؛ ظاهرًا وباطنًا، حقيقةً ورسمًا، ورجعت العاريةُ إلى مالكها الحقِّ، الذي يرجع إليه الأمرُ كلُّه، فكما ابتدأت منه عادت إليه.

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعتُه شريعةَ جلال وقهر، أُمِروا بقتل نفوسهم، وحُرِّمت عليهم الشحومُ، وذواتُ الظفر وغيرها من الطيبات، وحُرِّمت عليهم الغنائم، وعُجِّلت لهم من العقوبات ما عُجِّل، وحَمَلوا من الآصار والأغلال ما لم يَحْمِله غيرهم.

وكان موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أعظمِ خلْقِ الله هيبةً ووقارًا، وأشدِّهم بأسًا وغضبًا لله، وبطشًا بأعداء الله، وكان لا يُستطاع النظر إليه.

وعيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في مظهر الجمال، وكانت شريعتُه شريعةَ فضلٍ

وإحسان، وكان لا يقاتل، ولا يحارِب، وليس في شريعته قتالٌ البتَّةَ، والنَّصارى يُحرِّم عليهم دينُهم القتالَ، وهم به عصاةٌ لشرعه؛ فإنَّ الإنجيل يأمرهم فيه: أنَّ مَن لطمك على خدِّك الأيمن، فأدِرْ له خدَّك الأيسر، ومن نازعك ثوبك، فأعطه رداءَك، ومن سخرك ميلًا، فامش معه ميلين. ونحو هذا. وليس في شريعتهم مشقة، ولا آصارٌ، ولا أغلال، وإنما النصارى ابتدعوا تلك الرَّهبانيةَ من قِبَلِ أنفسهم، ولم تُكْتَب عليهم.

تفضيل الرسالة المحمدية والشريعة الخاتمة

وأمَّا نبيُّنا ﷺ فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله، وهذا اللِّينِ والرأفةِ والرحمة، وشريعتُه أكملُ الشرائع؛ فهو نبيُّ الكمال، وشريعتُه شريعة الكمال، وأمَّتُه أكملُ الأمم، وأحوالهم ومقاماتُهم أكملُ الأحوال والمقامات، ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجابًا له وفرْضًا، وبالفضل ندبًا إليه واستحبابًا، وبالشدة في موضع الشدة، وباللِّين في موضع اللين، ووضع السيف موضعَه، ووضع النَّدى موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويوجبه، والفضل ويندب إليه في بعض آيات، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ فهذا عدل، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فهذا فضل، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا تحريم للظلم.

وقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ فهذا إيجابٌ للعدل وتحريمٌ للظلم، ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦] ندْبٌ إلى الفضل.

وقوله: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧٩] هذا عدل، ﴿لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ تحريم للظلم، ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ﴾ عدل، ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠﴾ [البقرة: ٢٨٠] فضل.

وكذلك تحريم ما حُرِّم على الأمَّة صيانةً وحِمية، وحرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من قِبَلِهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم،

ووهب لهم مِن علمه وحلمه، وجعلهم خيرَ أمَّةٍ أُخرجتْ للناس، وكمَّل لهم من المحاسن ما فرَّقه في الأمم قبلَهم، كما كمَّل لنبيهم ﷺ من المحاسن ما فرَّقه في الأنبياء قبلَه، وكمَّل في كتابه من المحاسن ما فرَّقها في الكتب قبلَه، وكذلك في شريعته.

فهؤلاء هم الضنائن، وهم المجتبَون الأخيار، كما قال لهم إلٰـهُـهـم: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨]. وجعلَهم شهداءَ على الناس، فأقامهم في ذلك مقامَ الأنبياءِ الشاهدينَ على أُمَمِهم.

وتفصيل تفضيلِ هذه الأمَّةِ وخصائصها يستدعي سِفرًا، بل أسفارًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.





منزلة الإحسان

وهي لُبُّ الإيمان، ورُوحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميعَ المنازل؛ فجميعها منطوية فيها، وكل ما قيل من أول الكتاب إلى هاهنا فهو من الإحسان.

قال صاحب «المنازل»: **(وقد استُشهِدَ على هذه المنزلةِ بقولِه تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمٰن: ٦٠]؛ فالإحسانُ: جامع لجميع أبوابِ الحقَائقِ، وهو أن تعبدَ الله كأنك تراه).**

أمَّا الآية: فقال ابن عباس رضي الله عنهما والمفسِّرون: «هل جزاءُ مَن قال: لا إلٰه إلا الله، وعمِل بما جاء به محمد ﷺ إلَّا الجنة؟».

وقد رُويَ عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمٰن: ٦٠] ثمَّ قال: «**هل تَدْرُونَ ما قال ربُّكم؟**» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: «**يَقولُ: هل جَزاءُ مَن أنعَمْتُ عليهِ بالتَّوحيدِ إلَّا الجَنَّةُ؟**»[1].

وأما الحديث: فإشارةٌ إلى كمال الحضور مع الله عز وجل، ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبَّتِه ومعرفته، والإنابةِ إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

درجات الإحسان

قال: **(وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: الإحسانُ في القَصدِ بتَهذِيبِه عِلْمًا، وإبرامِه عَزْمًا، وتَصفِيَتِه حالًا).

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال البيهقي: «تفرد به إبراهيم بن محمد الكوفي هذا»، وهو منكر، والله أعلم. وينظر: الضعيفة (٤٩٨٤).

يعني: إحسانَ القصدِ يكونُ **بثلاثة أشياءَ**:

أحدها: تهذيبه عِلمًا، بأن يجعله تابعًا للعِلم على مقتضاه، مهذَّبًا به، منقًّى من شوائب الحظوظ، فلا يقصد إلا ما يجوز في العلم. والعلم هو اتِّباعُ الأمر والشَّرع.

والثاني: إبرامه عزمًا. والإبرام: الإحكام والقوَّة؛ أي: يقارنه عزمٌ يمضيه، ولا يصحبه فتور وتوانٍ يضعفه ويوهنه.

الثالث: تصفيته حالًا؛ أي: يكون حالُ صاحبه صافيًا من الأكدار والشوائب، التي تدلُّ على كدر قصدِه؛ فإن الحال مظهر القصد وثمرتُه، وهو أيضًا مادَّتُه وباعثه، فكلٌّ منهما ينفعل عن الآخر، فصفاؤه وتخليصه من تمام صفاء الآخَرِ وتخليصه.

لزوم العبد للإحسان في سائر أحواله

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: الإحسانُ في الأحوال. وهو أنْ يُراعِيَها غَيرةً، ويَستُرَها تَظَرُّفًا، ويُصَحِّحَها تَحقيقًا**).

يريد بمراعاتها: حِفْظَها وصَونَها، غَيرةً عليها أن تحول؛ فإنها تَمُرُّ مَرَّ السحاب، فإن لم يَرْعَ حقوقها حالت. ومراعاتها: بدوام الوفاء، وتجنب الجفاء.

ويراعيها أيضًا بإكرام نُزُلِها؛ فإنها ضيف، والضيف إن لم يُكرم نزلَه ارتحل.

ويراعيها أيضًا بضبطها ملكة، وشدِّ يده عليها، وأن لا يسمح بها لقاطع طريق ولا ناهب.

ويراعيها أيضًا: بالانقياد إلى حُكمها، والإذعانِ لسلطانها إذا وافق الأمر.

ويراعيها أيضًا: بسترها تظرُّفًا، وهو أن يسترها عن الناس ما أمكنه؛ لئلَّا يعلَموا بها، ولا يظهرها إلا لحجة أو حاجة، أو مصلحةٍ راجحة؛ فإن في إظهارها بدون ذلك آفاتٍ عديدة، مع تعريضها للصوص والسُّرَّاق والمغيرين.

وإظهار الحال للناس عند الصادقين: حمقٌ وعجز، وهو من حظوظ النفسِ والشيطان، وأهلُ الصدق والعزم لها أستَرُ، وأكتمُ من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم، حتى إن منهم من يظهر أضدادَها نفيًا وجحدًا، وهم أصحاب الملامة، ولهم طريقة معروفة، وكان شيخ هذه الطائفة عبد الله بن منازل.

واتَّفقت الطائفةُ على أنَّ مَنِ اطَّلع الناس على حاله مع الله: فقد دَنَّس طريقتَه، إلَّا لحُجة أو حاجة أو ضرورة.

تمييز الوارد الرحماني عند أولي البصائر والعلم

وقوله: (**وتَصحيحُها تَحقيقًا**)؛ أي: يجتهد في تحقيق أحواله، وتصحيحِها وتخليصها؛ فإن الحال قد يمتزج بحق وباطل، ولا يميزه إلا أولو البصائر والعلم.

[فـ] من الفرقان: أن كلَّ وارد يبقى الإنسانُ بعد انفصاله نشيطًا مسرورًا نشوانًا: فإنه وارد ملَكي، وكل وارد يبقى الإنسان بعد انفصاله خبيثَ النفسِ كسلانَ، ثقيلَ الأعضاء والرُّوح، يجنح إلى فتور: فهو وارد شيطاني.

ومِن الفرقان أيضًا: أن كل وارد أعقب صاحبَه تقدُّمًا إلى الله والدارِ الآخرة، وحضورًا فيها، حتى كأنه يشاهد الجنَّةَ قد أُزلِفَتْ، والجحيمَ قد سُعِّرت: فهو إلٰهيٌّ ملَكيٌّ، وخلافه شيطانيٌّ نفْساني.

ومِن الفرقان أيضًا: أن كل وارد كان سببُه النَّصيحةَ في امتثال الأمر، والإخلاص والصدق فيه: فهو إلٰهيٌّ ملَكيٌّ، وإلا فهو شيطانيٌّ.

ومن الفرقان أيضًا: أن كل وارد استنار به القلب، وانشرح له الصدر، وقوِيَ به القلب: فهو إلٰهي ملَكي، وإلا فهو شيطاني.

ومن الفرقان أيضًا: أن كل وارد جمعك على الله فهو منه، وكل وارد فرقك عنه، وأخذك عنه فمِنَ الشيطان.

ومن الفرقان أيضًا: أن الوارد الإلٰهي لا يُصرَف إلا في قربة وطاعة، ولا يكون سببه إلا قربة وطاعة، فمُستخرِجه الأمر، ومُصرِّفه الأمر، والشيطاني بخلافه.

ومن الفرقان أيضًا: أن الوارد الرَّحمانيَّ لا يتناقض، ولا يتفاوَتُ ولا يختلف، بل يصدِّق بعضُه بعضًا، والشيطاني بخلافه يكذِّب بعضُه بعضًا. والله سبحانه أعلم.

قطع المسافات بين القلب وبين الله

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: الإحسانُ في الوَقتِ. وهو أنْ لا تُزايِلَ المُشاهَدةَ أبدًا، ولا تَخْلِطَ بهِمَّتِكَ أحدًا، وتَجعَلَ هِجرَتَكَ إلى الحَقِّ سَرْمدًا**).

أي: لا تفارق حالَ الشُّهود، وهذا إنما يقدِر عليه أهلُ التمكين الذين ظفِروا بنفوسهم، وقطعوا المسافات التي بين النفس وبين القلب، والمسافاتِ التي بين القلب وبين الله، بمجاهدة القطَّاع التي على تلك المسافات.

وقوله: (**ولا تَخلِط بهِمَّتِكَ أحدًا**).

يعني: أن تُعلِّق همَّتَك بالحقِّ وحدَه، ولا تعلق همتَك بأحد غيره؛ فإن ذلك شركٌ في طريق الصادقين.

وقوله: (**وأنْ تَجعَلَ هِجرَتَكَ إلى الحَقِّ سَرْمدًا**).

يعني: أن كل متوجه إلى الله بالصدق والإخلاص، فإنه من المهاجرين إليه، فلا ينبغي أن يتخلَّف عن هذه الهجرة، بل ينبغي أن يصحبها سرمدًا، حتى يلحق بالله عز وجل.

فما هيَ إلَّا ساعةٌ ثمَّ تَنقَضي ... ويَحمَدُ غِبَّ السَّيرِ مَن هو سائِرُ

ولله على كل قلب هِجرتان، وهُمَا فرضٌ لازمٌ له على الأنفاس:

لله على كل قلبٍ هِجرتان

هجرة إلى الله بالتوحيد والإخلاص، والإنابةِ والحب، والخوفِ والرجاء والعبودية.

وهِجرة إلى رسوله ﷺ: بالتحكيم له والتسليمِ والتفويض، والانقيادِ لحُكمه، وتلقِّي أحكام الظاهر والباطنِ من مِشكاته، فيكون تقيُّده به أعظمَ من تقيد الرَّكبِ بالدليل الماهر في ظُلَم الليل، ومتاهاتِ الطريق.

فما لم يكُنْ لقلبه هاتان الهِجرتان، فليحْثُ على رأسه الرمادَ، وليراجِعِ الإيمانَ من أصله، فيرجع وراءَه ليقتبسَ نورًا، قبل أن يُحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السُّور. والله المستعان.





منزلة العِلْم

وهذه المنزلة إن لم تصحبِ السالكَ مِن أوَّل قدَمٍ يضعه في الطريق إلى آخِرِ قدم ينتهي إليه: فسلوكُه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريقُ الوصول، مسدودٌ عليه سُبُلُ الهدى والفلاح، مغلَّقةٌ عنه أبوابها. وهذا إجماع من الشيوخ العارفين، ولم يَنْهَ عن العلم إلا قطَّاعُ الطريق منهم، ونوَّابُ إبليس وشُرَطُه.

أهمية العلم المقيد بالكتاب والسُّنَّة

قال سيدُ الطائفة وشيخُهم الجُنَيد بن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الطُّرُقُ كلُّها مسدودةٌ على الخلْق إلَّا على من اقتفى آثارَ الرسول ﷺ».

وقال: «مَن لم يحفظ القرآن، ويكتُبِ الحديث، لا يُقتَدى به في هذا الأمر؛ لأن عِلمنا مقيَّد بالكتاب والسُّنَّة».

وقال: «مذهبنا هذا مُقيَّد بأصول الكتابِ والسُّنَّة».

وقال أبو حفص رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم يَزِنْ أفعاله وأحوالَه في كلِّ وقت بالكتاب والسُّنَّة، ولم يتَّهِم خواطرَه: فلا يُعَدُّ في ديوان الرجال».

وقال أبو سليمانَ الدَّارانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ربما يقع في قلبي النكتةُ من نكت القوم أيامًا، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسُّنَّة».

وقال سهْل بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ فعل يفعله العبد بغير اقتداء ـ طاعةً كان أو معصية ـ فهو عيش النفس، وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء: فهو عذاب على النفْس».

وقال السَّرِيُّ: «التصوف اسمٌ لثلاثة معانٍ: لا يطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلَّم بباطن في عِلم ينقضه عليه ظاهرُ الكِتاب، ولا تحمله الكراماتُ على هتك أستار محارم الله».

وجوب الانضواء تحت لواء الشريعة

وقال أبو يَزيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عمِلتُ في المجاهدة ثلاثين سَنةً، فما وجدت شيئًا أشدَّ عليَّ من العِلم ومتابعته، ولولا اختلافُ العلماء لبقيت، واختلاف العلماء رحمة، إلَّا في تجريد التوحيد».

وخرج مرةً لزيارة بعض الزهاد، فرآه قد دخل المسجدَ ورمى ببُصاقِه نحوَ القِبلة، فرجع ولم يُسلِّم عليه، وقال: «هذا غيرُ مأمون على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه؟!».

وقال: «لقد هممتُ أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤونةَ النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا ولم يسألْه رسولُ الله ﷺ؟! ولم أسأله. ثم إنَّ الله كفاني مؤونةَ النساء، حتى لا أبالي استقبلتنْي امرأةٌ أو حائط».

وقال: «لو نظرتُم إلى رجل أُعْطِيَ من الكرامات إلى أن يُرفَع في الهواء، فلا تغترُّوا به، حتى تَنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهيِّ، وحِفظِ الحدود، وأداءِ الشريعة».

وقال أحمد بن أبي الحواري: «مَن عمِل عملًا بلا اتِّباع سُنَّة، فباطلٌ عملُه».

وقال أبو عثمانَ النَّيسابوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصحبة مع الله: بحُسن الأدب، ودوامِ الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ: باتِّباع سنَّته، ولزومِ ظاهر العلم. ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة. ومع الأهل: بحُسنِ الخلُق. ومع الإخوان: بدوام البِشر، ما لم يكن إثمًا. ومع الجهَّال: بالدعاء لهم والرحمة».

زاد غيرُه: «ومع الحافظَين: بإكرامهما واحترامِهما، وإملائهما ما يَحمَدانِك عليه. ومع النفْس: بالمخالفة. ومع الشيطان: بالعداوة».

وقال أبو عثمانَ أيضًا: «مَن أمَّر السُّنَّةَ على نفْسه قولًا وفعلًا: نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفْسه قولًا وفعلًا: نطق بالبدعة؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]».

وقال أبو الحسين النُّوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من رأيتموه يدَّعي مع الله حالة تُخرِجه عن حدِّ العِلم الشرعي، فلا تَقربوا منه».

وقال محمد بن الفضل البلْخي من مشايخ القوم الكِبار: «ذهابُ الإسلام من أربعة: لا يعملون بما يعلمون، ويعملون بما لا يعلمون، ولا يتعلَّمون ما لا يعملون، ويمنعون الناس من التعلُّم والتعليم».

وقال عَمرو بنُ عثمانَ المكِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلم قائد، والخوف سائق، والنفْسُ حَرُونٌ بين ذلك، جَموح خدَّاعةٌ رواغة، فاحذرها وراعِها بسياسة العلم، وسُقْها بتهديد الخوف: يتم لك ما تريد».

وقال أبو سعيد الخَرَّاز رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل باطنٍ يخالفه الظاهرُ فهو باطل».

وجوب متابعة الرسول

وقال ابنُ عَطاء رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن ألزمَ نفْسَه آدابَ السُّنَّة نوَّر الله قلبَه بنور المعرفة، ولا مقام أشرفُ من مقام متابعةِ الحبيب في أوامره وأفعالِه وأخلاقه».

وقال: «كلُّ ما سألتَ عنه فاطلبه في مفازة العلم، فإن لم تَجِدْه ففي ميدان الحكمة، فإن لم تجده فزِنْه بالتَّوحيد، فإنْ لم تَجِدْه في هذه المواضع الثلاثةِ فاضرب به وجهَ الشيطان».

وأُلْقِيَ بُنانٌ الحمَّالُ بيْن يدَيِ السَّبُع، فجعل السبُعُ يشمُّه ولا يضرُّه، فلما أُخْرِجَ قيل له: ما الذي كان في قلبك حين شمَّك السَّبُع؟ قال: «كنت أتفكَّرُ في اختلاف العلماءِ في سؤْر السِّباع».

وقال أبو حمزةَ البغداديُّ ـ من أكابر الشيوخ، وكان أحمدُ بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول له في المسائل: «ما تقول يا صوفيُّ؟ ـ: مَن عَلِمَ طريقَ الحقِّ سهُل عليه سلوكُه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلَّا متابعةُ الرسول ﷺ في أحواله وأفعالِه وأقواله».

ومرَّ الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الواسِطيُّ يومَ الجمعة إلى الجامع، فانقطع شِسْعُ نعلِه، فأصلحه له رجُلٌ صَيدلانيٌّ، فقال: «تدري

لِمَ انقطع شِسْعُ نعلي؟ فقلتُ: لا، فقال: لأنِّي ما اغتسلتُ للجمعة، فقال: هاهنا حمَّامٌ، تدخُلُه؟ فقال: نعَم، فدخل واغتسل».

وقال أبو إسحاق الرَّقِّيُّ، مِن أقران الجُنَيْدِ رحمهما الله: «علامة محبَّةِ الله: إيثارُ طاعته، ومتابعة نبيِّه ﷺ».

وقال أبو يعقوبَ النَّهرجُوري: «أفضل الأحوالِ ما قارنَ العِلم».

أصل التصوف الصحيح ملازمة الكتاب والسُّنَّة

وقال أبو القاسم النَّصراباذي شيخُ خراسانَ في وقته: «أصل التصوفِ ملازمةُ الكتاب والسُّنَّة، وتركُ الأهواء والبِدَع، وتعظيمُ كرامات المشايخ، ورؤيةُ أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وتركُ ارتكاب الرُّخَصِ والتأويلات».

وقال أبو بكر الطمستاني ـ من كبار شيوخ الطائفة ـ: «الطريق واضح، والكتابُ والسُّنَّةُ قائمٌ بين أظهرنا، وفضلُ الصحابةِ معلوم؛ لسبقِهم إلى الهجرة ولصحبتِهم، فمَن صَحِبَ الكتابَ والسُّنَّة، وتغرَّب عن نفْسه وعن الخلْق، وهاجر بقلبه إلى الله: فهو الصادق المصيب».

وقال أبو عَمرو بن نُجَيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ حال لا يكون عن نتيجةِ عِلمٍ فإنَّ ضررَه على صاحبه أكثرُ من نفعه».

وقال: «التصوف: الصبرُ تحتَ الأوامرِ والنواهي».

مفاسد التزهيد في العلم

وأما الكلمات التي تُرْوى عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناءِ عنه، كقول مَن قال: نحن نأخُذُ عِلمَنا من الحيِّ الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه عن حيٍّ يموت!

وقولِ الآخَرِ ـ وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع مِن عبد الرزَّاق؟ ـ فقال: ما يَصنع بالسَّماع من عبد الرزَّاق، مَن يَسمَعُ من الخلَّاق؟!

وقول الآخر: العلم حِجابٌ بين القلب وبين الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقول الآخر: لنا عِلم الخِرَق، ولكم عِلمُ الورق.

ونحو هذا من الكلمات التي أحسَنُ أحوالِ قائلها: أن يكون جاهلًا يُعذَرُ بجهله، أو شاطحًا معترفًا بشطحه، وإلَّا فلولا عبدُ الرزَّاق

وأمثالُه، ولولا أخبرَنا وحدَّثَنا لَما وصل إلى هذا وأمثالِه شيءٌ من الإسلام.

ومَن أحالك على غير أخبرَنا وحدَّثَنا فقد أحالك: إمَّا على خيالٍ صوفي، أو قياسٍ فلسفيٍّ، أو رأيٍ نفسي، فليس بعد القرآن وأخبرَنا وحدثَنا إلَّا شبهاتُ المتكلِّمين، وآراءُ المتخرِّصين، وخيالاتُ المتصوِّفين، وقياساتُ المتفلسِفين. ومَن فارَق الدَّليل، ضلَّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سِوى الكتابِ والسُّنَّة، وكلُّ طريق لم يَصحَبْها دليلُ القرآن والسُّنَّةِ فهي من طُرُق الجحيم، والشيطانِ الرجيم.

سمات العلم النافع

والعِلمُ ما قام عليه الدليل، والنافعُ منه: ما جاء به الرسول. والعلم خيرٌ من الحال؛ العِلمُ حاكم، والحالُ محكومٌ عليه. والعِلمُ هادٍ، والحال تابعٌ. والعلم آمِرٌ ناهٍ، والحال منفِّذٌ قابل، والحال سَيف، إن لم يَصحَبْه العِلمُ فهو مِخراقٌ في يد لاعب. الحال مَرْكَبٌ لا يجارى، فإن لم يصحبه عِلمٌ ألقى صاحبَه في المهالك والمتالف. الحال بلا علم كالسلطان الذي لا يزعه عن سطوته وازع. الحال بلا علم كالنار التي لا سائسَ لها. الحال كالمال يُؤتاهُ البَرُّ والفاجر، فإنْ لم يصحبه نورُ العِلم كان وبالًا على صاحبه.

نفعُ الحال لا يتعدَّى صاحبه، ونفعُ العلم كالغيث يقع على الظِّراب والآكام وبطون الأودية ومنابتِ الشجر.

دائرة العلم تَسَعُ الدنيا والآخرة، ودائرة الحال تَضيقُ عن غير صاحبه، وربما ضاقت عنه.

فضائل العلم

العلم هادٍ، والحال الصحيح مهتدٍ به، وهو تركةُ الأنبياء وتراثُهم، وأهلُه عصَبتهم وورَّاثُهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذَّةُ الأرواح، وأُنسُ المستوحشين، ودليلُ المتحيِّرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوالُ والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرِّق بين الشكِّ واليقين، والغَيِّ والرشاد، والهدى والضلال.

به يُعْرَف الله ويُعْبَد، ويُذْكَر ويُوحَّد، ويُحمد ويُمجَّد. وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومِن بابه دخل عليه القاصدون.

به تُعرَف الشرائعُ والأحكام، ويتميَّزُ الحلال من الحرام، وبه تُوصَل الأرحام، وبه تُعرَف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمامٌ، والعمل مأموم، وهو قائدٌ، والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدِّثُ في الخَلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشُّبهة، والغنى الذي لا فقر على مَن ظفِر بكَنزه، والكَنَفُ الذي لا ضيعةَ على مَن آوى إلى حِرزه.

مذكراته تسبيح، والبحثُ عنه جهاد، وطلبُه قُربة، وبَذْلُه صدقة، ومدارسته تُعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظمُ منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: «الناس إلى العِلم أحوجُ منهم إلى الطعام والشَّراب؛ لأنَّ الرجُل يحتاج إلى الطعام والشرابِ في اليوم مرَّةً أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه».

وروِّينا عن الشافعيِّ رضي الله عنه أنه قال: «طلبُ العِلمِ أفضلُ من صلاة النافلة».

ونصَّ على ذلك أبو حنيفة رحمه الله.

وقال ابنُ وَهْب رحمه الله: «كنت بين يدَيْ مالك رضي الله عنه، فوضعتُ ألواحي وقمتُ أصلِّي، فقال: ما الذي قمتَ إليه بأفضلَ ممَّا قمتَ عنه. ذكره ابن عبد البَرِّ وغيرُه».

عظم مكانة العلماء وفضائلهم

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجَلِّ مشهود به، وهو التوحيد، وقرَن شهادتَهم بشهادته وشهادةِ ملائكته، وفي ضِمْنِ ذلك تعديلُهم؛ فإنَّه سبحانه وتعالى لا يَستشهِد بمجروح.

ومِن هاهنا ـ والله أعلم ـ يؤخَذُ الحديثُ المعروف: «**يَحمِلُ هذا العِلْمَ مِن كلِّ خَلَفٍ عُدولُه، يَنْفُونَ عنه تَحريفَ الغالِينَ، وتأويلَ المُبطِلِينَ**»[1].

وهو حجَّةُ الله في أرضه، ونورُه بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنَّته، ومُدْنِيهم من كرامته.

ويَكفي في شرفه: أنَّ فضْلَ أهلِه على العباد كفضل القمرِ ليلةَ البدر على سائر الكواكب، وأنَّ الملائكة لَتَضَعُ لهم أجنحتها، وتُظِلُّهم بها، وأنَّ العالِم يستغفر له مَن في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتانُ في البحر، وحتى النملُ في جحرها، وأن الله وملائكته يصلُّون على معلِّمي الناسِ الخيرَ.

ولقد رحل كليمُ الرحمٰن موسى بنُ عِمرانَ عليه السلام في طلب العلم هو وفتاه، حتى مسَّهما النصَبُ في سفرهما في طلب العلم، حتى ظفِر بثلاث مسائلَ، وهو مِن أكرمِ الخلْقِ على الله وأعلمِهم به.

وأمرَ اللهُ رسولَه أن يسأله المزيدَ منه، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

وحرَّم اللهُ صيْدَ الجوارحِ الجاهلة، وإنما أباح للأمة صيدَ الجوارح العالِمة؛ فهكذا جوارحُ الإنسان الجاهل؛ لا يُجدي عليه صيْدُها مِن الأعمال شيئًا. والله سبحانه وتعالى أعلم.

علامة العلم النافع ودرجاته

قال صاحب «المنازل»: (**العِلْمُ: ما قامَ بدَليلٍ، ورَفَعَ الجَهلَ**).

يريد: أن العِلم له علامةٌ قَبله، وعلامةٌ بَعدَه؛ فعلامته قبله: ما قام به الدليل، وعلامته بعده: رفعُ الجهل.

قال: (**وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ**:

---

(١) أخرجه البزار (١٦/ ٩٤٢٣) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما، وابن عَدِي في «الكامل» (٣/ ٤٥٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال ابن حجر: «أورد ابن عدي هذا الحديث من طرق كثيرة كلها ضعيفة». انظر: «الإصابة» (١/ ٣٦٣).

الدَّرَجةُ الأُولى: عِلْمٌ جَلِيٌّ، وبه يَقَعُ العَيانُ، أوِ استِفاضةٌ صَحيحةٌ، أو صِحَّةُ تَجرِبةٍ قَديمةٍ).

يريد بالجَليِّ: الظاهرَ، الذي لا خفاءَ به. وجعَله **ثلاثة أنواع**:

أحدها: ما وقع عن عِيان. وهو البصر.

والثاني: ما استَند إلى السَّمع. وهو عِلم الاستفاضة.

والثالث: ما استند إلى العقل. وهو عِلم التَّجرِبة.

فهذه الطُّرُق الثلاثةُ ـ وهي السمع، والبصر، والعقل ـ هي طُرُقُ العِلمِ وأبوابُه، ولا تنحصر طرُقُ العِلم فيما ذكره؛ فإنَّ سائر الحواس تُوجِب العلم.

وكذا ما يُدرَك بالباطن، وهي الوجدانيات.

وكذا ما يدرَك بخبر المخبِرِ الصادق، وإن كان واحدًا.

وكذا ما يحصُلُ بالفِكر والاستنباط، وإن لم يكن عن تجرِبة.

فالعِلم لا يتوقَّفُ على هذه الثلاثةِ التي ذكرها فقط.

العلم الخفي

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: عِلْمٌ خَفِيٌّ، يَنبُتُ في الأسرارِ الطَّاهِرةِ، مِنَ الأبدانِ الزَّاكيةِ، بماءِ الرِّياضةِ الخالِصةِ. ويَظهَرُ في الأنفاسِ الصَّادِقةِ، لأهْلِ الهِمَّةِ العاليةِ، في الأحايينِ الخاليةِ، في الأسماعِ الصاحية**).

يعني: أن هذا العلم خفيَ على أهل الدرجة الأُولى، وهو المسمَّى بالمعرفة عند هذه الطائفة.

قوله: (**يَنبُتُ في الأسرارِ الطَّاهرةِ**).

لفظ (السر) يُطلق في لسانهم ويُراد به **أمور**:

أحدها: اللطيفةُ المودَعةُ في هذا القالَب، التي بها حصَل له الإدراكُ والمحبَّة، والإرادةُ والعِلم. وذلك هو الرُّوح.

الثاني: معنى قائم بالرُّوح، نِسبتُه إلى الرُّوح كنِسبة الرُّوح إلى البدن. وغالبًا ما يريدون به هذا المعنى.

وعندهم: أن القلب أشرفُ ما في البدن، والرُّوح أشرفُ من القلب، والسِّرُّ ألطفُ من الرُّوح.

والمقصود: قوله: **(يَنبُتُ في الأسرارِ الطَّاهرةِ)**.

يعني: الطاهرةَ من كدَر الدنيا والاشتغالِ بها، وعلائقها التي تَعوقُ الأرواحَ عن ديار الأفراح؛ فإنَّ هذه أكدارٌ وتنفُّساتٌ في وجهِ مِرآةِ القلب والرُّوح، فلا تنجلي فيها صوَرُ الحقائق كما ينبغي. والنفْسُ تتنفس فيها دائمًا بالرغبة في الدنيا والرَّهبةِ من فوتها، فإذا جُليت المِرآةُ بإذهاب هذه الأكدارِ صفَتْ، فظهرت فيها الحقائقُ والمعارف.

العلاقة بين صحة الأبدان وصحة الأديان

وأما **(الأبدان الزكيَّة)** فهي التي زكتْ بطاعة الله، ونبتتْ على أكل الحلال. فمتى خلصتِ الأبدان من الحرام، وأدناسِ البشرية، التي يَنهى عنها العقلُ والدِّينُ والمروءة، وطهرت الأنفُسُ من علائق الدنيا: زكَتْ أرض القلب، فقبِلتْ بذر العلوم والمعارف. فإنْ سُقيت بعد ذلك بماء الرياضةِ الشرعيَّةِ النَّبويةِ المحمدية ـ وهي التي لا تخرج عن عِلم، ولا تبعُد عن واجب، ولا تُعطِّل سُنَّة ـ أنبتتْ مِن كلِّ زوج كريم، من عِلم وحكمة وفائدة وتعرف، فاجتنى منها صاحبُها ومَن جالسه أنواعَ الطرف والفوائد، والثمار المختلفة الألوان والأذواق، كما قال بعض السلف: إذا عقدت القلوب على ترك المعاصي: جالت في الملكوت، ثم رجعت إلى أصحابها بأنواع التُّحفِ والفوائد.

قوله: **(وتَظهَرُ في الأنفاسِ الصَّادِقةِ)**، يريد بالأنفاس **أمْرين**:

أحدهما: أنفاس الذِّكر والمعرفة.

والثاني: أنفاس المحَبَّةِ والإرادة. وهي ما يتعلَّقُ بالمعروف المذكور، وبالمحبوب المرادِ مِنَ الذاكر والمحِبِّ.

وصِدْقُها: خلوصُها من شوائبِ الأغيارِ والحظوظ.

وقوله: **(لأهْلِ الهِمَم العاليةِ)** فهي التي لا تَقِفُ دون الله ﷻ، ولا تُعرِّج في سفَرِها على شيء سِواه، وأعلى الهِمَم: ما تعلَّق بالعليِّ

الأعلى، وأوسعُها: ما تعلَّق بصلاح العِباد، وهي هِمَمُ الرسُلِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ وورثتِهم.

وقوله: (**في الأحايينِ الخاليةِ**).

يريد بها: ساعاتِ الصَّفاءِ مع الله تعالى، وأوقاتَ النَّفحاتِ الإلٰهيَّة، الَّتي مَن تعرَّضَ لها يوشك أن لا يُحرَمَها، ومَن أعرض عنها فهي عنه أشدُّ إعراضًا.

وقوله: (**في الأسماعِ الصَّاحيةِ**)، وهي التي صحَتْ مِن تعلُّقها بالباطل واللَّغو، وأصاختْ لدَعوةِ الحق، ومنادي الإيمان.

العلم اللدني

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: عِلْمٌ لَدُنِّيٌّ. إسنادُه وُجودُه، وإدراكُه عيانُه، ونَعْتُه حُكْمُه**).

يشير القوم بالعِلم اللَّدُنِّيِّ إلى ما يحصُل للعبد من غير واسطة، بل بإلهامٍ من الله، وتعريفٍ منه لعبده، كما حصل للخَضِر عليه السلام بغير واسطةِ موسى، قال الله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف: ٦٥].

وفرْقٌ بين الرحمةِ والعِلم، وجعَلهما مِن عِندَه ومِن لَدُنْهُ؛ إذْ لم يَنَلْهُما على يدِ بشَر، وكان (مِن لَدُنْه) أخصَّ وأقربَ ممَّا (عِندَه)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾ [الإسراء: ٨٠]، فالسلطان النصيرُ الذي مِن لَدُنْهُ سبحانه: أخصُّ من الَّذي عنده وأقربُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾ [الإسراء: ٨٠]، وهو نصْرُه الذي أيَّده به. والذي مِن عِندَه: نصْرُه بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾ [الأنفال: ٦٢].

والعِلم اللَّدُنيُّ ثمرةُ العبودية والمتابعة، والصِّدقِ مع الله، والإخلاص له، وبَذْلِ الجهد في تلقِّي العِلم من مشكاة رسوله من كتابه وسُنَّةِ رسوله، وكمال الانقياد له، فيفتح له مِن فَهم الكتاب والسُّنَّة بأمر

يخصه به، كما قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سُئِل: «هل خَصَّكُم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بشَيءٍ دُونَ النَّاسِ؟ فقال: لا، والَّذي فَلَقَ الحَبَّةَ، وبَرَأَ النَّسَمةَ، إلَّا فَهْمًا يؤْتِيه اللهُ عَبْدًا في كِتابِه»[(١)].

فهذا هو العِلم اللَّدُنِّيُّ الحقيقي، وأما عِلم مَن أعرض عن الكتاب والسُّنَّة، ولم يتقيَّدْ بهما: فهو مِن لَدُنِ النَّفْسِ والهوى، والشيطان، فهو لدُنِّيٌّ، لكن مِن لَدُنْ مَن؟ وإنما يُعرَف كوْنُ العِلمِ لدنيًّا رحمانيًّا: بموافقته لِما جاء به الرسول عن ربه عز وجل.

قوله: (**إسنادُه وُجودُه**)؛ يعني: أن طريق هذا العِلم: هو وِجْدانُه، كما أن طريق غيرِه: هو الإسناد.

(**وإدراكُه عِيانُه**)؛ أي: إنَّ هذا العلم لا يُؤخَذ بالفِكر والاستنباط، وإنما يؤخذ عِيانًا وشُهودًا.

(**ونَعْتُه حُكْمُه**)؛ يعني: أن نعوتَه لا يُوصَل إليها إلَّا به، فهي قاصرة عنه؛ يعني: أن شاهدَه منه، ودليلَه وجودُه.



---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٧).



منزلة الحِكمة

قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨].

أنواع الحكمة في كتاب الله

الحكمة في كتاب الله نوعان: مفرَدة، ومقرونةٌ بالكتاب. فالمفردة: فُسِّرتْ بالنبوة، وفُسِّرت بعِلم القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي علم القرآن: ناسِخُه ومنسوخه، ومُحْكَمُه ومتشابِهُه، ومقدَّمُه ومؤخَّرُه، وحلاله وحرامه، وأمثاله».

وقال الضَّحَّاك: «هي القرآن والفَهمُ فيه». وقال مجاهد: «هي القرآن والعلم والفقه». وفي رواية أخرى عنه: «هي الإصابة في القول والفعل».

وقال النَّخَعي: «هي معرفة معاني الأشياء وفهمها».

وقال الحسَن: «الورع في دِين الله». كأنَّه فسَّرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما الحكمة المقرونة بالكتاب: فهي السُّنَّة. كذلك قال الشافعي وغيرُه من الأئمَّة.

وقيل: هي القضاء بالوحي. وتفسيرُها بالسُّنَّةِ أعمُّ وأشهر.

وأحسَنُ ما قيل في الحكمة قولُ مجاهدٍ، ومالكٍ: «إنها معرفة الحقِّ، والعملُ به، والإصابةُ في القول والعمل».

وهذا لا يكون إلا بفَهم القرآنِ والفقهِ في شرائع الإسلام وحقائقِ الإيمان.

والحِكمة حكمتان: عِلْمية، وعَمَلية. فالعِلمية: الاطِّلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها؛ خلْقًا وأمرًا، قدَرًا وشرعًا.

والعملية كما قال صاحب «المنازل»: **(وهيَ وَضْعُ الشَّيءِ في مَوضِعِه)**.

درجات الحِكمة

قال: **(وهيَ على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: أنْ تُعطِيَ كلَّ شَيءٍ حقَّه، ولا تُعدِّيَهُ حَدَّه، ولا تُعجِّلَه عن وقْتِه، ولا تُؤَخِّرَه عنهُ).

لمَّا كانت الأشياءُ لها مراتبُ وحقوقٌ، تقتضيها شرعًا وقدَرًا، ولها حدودٌ ونهايات تصل إليها ولا تتعدَّاها، ولها أوقاتٌ لا تتقدم عنها ولا تتأخَّر: كانت الحكمة مراعاةَ هذه الجهات الثلاث، بأن يعطِي كل مرتبة حقَّها الذي أحقَّه الله لها بشرعه وقدَره، ولا يتعدى بها حدَّها، فيكون متعديًا مخالفًا للحكمة، ولا يطلب تعجيلها عن وقتها، فيخالف الحكمة، ولا يؤخرها عنه فيفوتها.

وهذا حكمٌ عامٌّ لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعًا وقدَرًا، فإضاعتها تعطيلٌ للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقْيِ الأرض.

وتعدِّي الحقِّ كسَقْيِها فوقَ حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد.

وتعجيلها عن وقتها كحصادِه قبلَ إدراكه وكمالِه.

وكذلك ترْكُ الغذاء والشرابِ واللِّباسِ إخلالٌ بالحكمة. وتعدِّي الحدِّ المحتاج إليه خروجٌ عنها أيضًا. وتعجيل ذلك قبلَ وقتِه إخلالٌ بها. وتأخيرُه عن وقتِه: إخلالٌ بها.

فالحكمةُ إذنْ: فِعْلُ ما ينبغي، على الوجهِ الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

والله تعالى أورثَ الحكمةَ آدمَ وبنيه؛ فالرجُلُ الكامل: مَن له إرثٌ كامل من أبيه، ونِصفُ الرجُلِ ـ كالمرأة ـ له نصفُ ميراث، والتفاوُتُ في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى.

وأكمَلُ الخلْقِ في هذا: هم الرُّسلُ، وأكمَلُهم أولو العَزم، وأكملُهم محمد ﷺ، ولهذا امتنَّ الله ﷻ عليه، وعلى أمَّتِه بما آتاهم مِنَ الحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ۝١٥١﴾ [البقرة: ١٥١].

فكلُّ نظام الوجود مرتبطٌ بهذه الصِّفة، وكلُّ خلَلٍ في الوجود وفي العبد فسببُه: الإخلال بها؛ فأكمَلُ الناس: أوفرُهم منها نصيبًا، وأنقصهم وأبعدُهم عن الكمال: أقلُّهم منها ميراثًا.

ولها ثلاثةُ أركان: العِلم، والحلم، والأناة.

وآفاتها وأضدادُها: الجهل، والطَّيش، والعجَلة.

فلا حكمةَ لجاهل، ولا طائشٍ، ولا عَجول.

أهمية معرفة الحكمة في الوعد والوعيد

قال: (**الدَّرجةُ الثَّانيةُ: أنْ تَشهَدَ نَظَرَ اللهِ في وَعيدِه، وتَعرِفَ عَدْلَه في حُكْمِه، وتَلحَظَ بِرَّه في مَنْعِه**).

أي: تعرف الحكمةَ في الوعد والوعيد، وتشهد حكمه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠]. فتشهد عدله في وعيده، وإحسانَه في وعْده، وكلٌّ قائم بحكمته.

وكذلك تعرِفُ عدْلَه في أحكامه الشرعية، والكونيَّةِ الجاريةِ على الخلائق، فإنَّه لا ظُلْمَ فيها، ولا حَيْفَ ولا جَور، وإنْ أجراها على أيدي الظَّلَمة، فهو أعدلُ العادلين، ومَن جرتْ على يديه هو الظَّالم.

وكذلك تعرف بِرَّه في منعه، فإنَّه سبحانه هو الجوَاد الذي لا

يُنقِص خزائنَه الإنفاقُ، ولا يغيض ما في يمينه سَعةُ عطائه. فما منع مَن منَعَه فضْلَه إلا لحكمة كاملةٍ في ذلك؛ فإنه الجوَادُ الحكيم.

وحكمته لا تناقِضُ جودَه؛ فهو لا يضع بِرَّه وفضْلَه إلا في موضعه ووقته، بقدْر ما تقتضيه حكمتُه، ولو بَسَطَ اللهُ الرزقَ لعباده لفسدوا وهلكوا، ولو عَلِمَ في الكفار خيرًا وقَبولًا لنعمة الإيمان، وشكرًا له عليها، ومحبَّةً له واعترافًا بها: لهداهم إلى الإيمان، ولهذا لمَّا قالوا للمؤمنين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ أجابهم بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣].

سمِعت شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «هُمُ الذين يَعرِفون قدْرَ نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها».

فهو سبحانه ما أعطى إلَّا بحكمته، ولا منع إلَّا بحكمته، ولا أضلَّ إلَّا بحكمته.

وإذا تأمَّل البصيرُ أحوالَ العالَم وما فيه من النقص: رآه عينَ الحكمة، وما عُمِّرت الدُّنيا والآخرةُ والجنةُ والنار إلا بحكمته.

و[تعريف الحكمة]: أنَّها الغايات المحمودةُ المطلوبة له سبحانه بخلْقِه وأمْرِه، التي أمرَ لأجْلها، وقدَّر وخلَق لأجْلِها، وهي صفته القائمةُ به كسائر صفاته؛ مِن سمعِه وبصره، وقُدرته وإرادتِه، وعِلمِه وحياته وكلامه.

البصيرة أعلى درجات العلم

قال: (الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: أنْ تبلُغَ في استِدلالِكَ البَصيرةَ).

يريد: أن تَصِلَ باستدلالك إلى أعلى درجات العِلم، وهي البصيرة التي تَكون نِسبةُ العلوم فيها إلى القلب كنسبة المَرئيِّ إلى البصر. وهذه هي الخَصيصة التي اختُصَّ بها الصحابةُ عن سائر الأمَّة، وهي أعلى درجاتِ العلماء؛ قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ أي: أنا وأتباعي على بصيرة.

وقيل: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ عطف على المرفوع بـ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾؛ أي: أنا

أدعو إلى الله على بصيرة، ومَنِ اتَّبَعني كذلك يدعو إلى الله على بصيرة.

وعلى القولين فالآيةُ تدلُّ على أنَّ أتباعَه هم أهلُ البصائر الدَّاعون إلى الله على بصيرة، فمَن ليس منهم فليس مِن أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان مِن أتباعه على الانتساب والدَّعوى.



منزلة الفِراسة

مفهوم الفراسة ومعناها

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥]. قال مجاهد رحمه الله: المتفرِّسين. وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «للناظرين». وقال قتادة: «للمعتبرين». وقال مقاتل: «للمتفكِّرين».

ولا تنافيَ بين هذه الأقوال؛ فإنَّ الناظر متى نظر في آثار ديارِ المكذِّبينَ ومنازلِهم، وما آلَ إليه أمْرُهم: أورثه فِراسةً وعِبرةً وفكرة. وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمِعت شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رحمه الله يقول: «علَّق معرفته إيَّاهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلِّقْ تعريفَهم بلحْنِ خطابِهم على شرط، بل أخبَر به خبرًا مؤكَّدًا بالقسم، فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلامِ ومَغْزاه».

واللَّحن ضَربان: صوابٌ، وخطأ. فلحنُ الصوابِ **نوعان**:

أحدهما: الفِطنة. ومنه الحديثُ: «**ولعَلَّ بعضَكُم أنْ يَكونَ ألْحَنَ بحُجَّتِه مِن بَعضٍ**»[(١)].

والثاني: التعريضُ والإشارة، وهو قريبٌ من الكناية. ومنه قولُ الشاعر:

وحَديثٌ ألَذُّه وهو مِمَّا ... يَشتَهي السَّامِعون يُوزَنُ وَزْنا

مَنطِقٌ صائِبٌ وتَلْحَنُ أحيا ... نًا وخَيرُ الحديثِ ما كان لَحْنا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

[الضرب الثاني:] فساد في الإعراب. وحقيقتُه: تغييرُ الكلامِ عن وجهه: إمَّا إلى خطأ به، وإما إلى معنًى خفيٍّ لم يُوضَع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسَم على معرفتهم مِن لحْنِ خطابهم؛ فإن معرفة المتكلِّم وما في ضميره من كلامه: أقربُ من معرفته بسِيماهُ وما في وجهِه؛ فإنَّ دلالة الكلام على قصد قائلِه وضميرِه أظهرُ من دلالة السِّيما المَرئيَّة. والفراسة تتعلَّقُ بالنوعين؛ بالنَّظر، والسَّماع.

وفي التِّرمذيِّ من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**اتَّقُوا فِراسةَ المؤْمِنِ؛ فإنَّه يَنظُرُ بنورِ اللهِ**»، **ثمَّ قرَأ قولَه تعالى:** ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: ٧٥]»[(١)].

أنواع الفراسة

والفراسة ثلاثة أنواع: إيمانية؛ وهي المتكلَّم فيها في هذه المنزلة.

وسببها: نورٌ يقذفه الله في قلب عبده، يُفرِّق به بين الحق والباطل، والحالي والعاطل، والصادق والكاذب.

وحقيقتها: أنَّها خاطر يهجُم على القلب ينفي ما يضادُّه، يَثِبُ على القلب كوثوب الأسدِ على الفريسة، لكن الفريسة فعيلةٌ بمعنى مفعولة. وبناءُ الفراسة كبناءِ الولاية والإمارة والسياسة.

أحَدُ الفراسة وأقواها

وهذه الفراسة على حسَب قوَّةِ الإيمان؛ فمَن كان أقوى إيمانًا فهو أحدُّ فراسةً.

وقال أبو عَمرو بنُ نُجَيد: كان شاه الكرماني حادَّ الفراسةِ لا يخطئ. ويقول: مَن غضَّ بصرَه عن المحارم، وأمسَك نفْسَه عن الشهوات، وعمَّر باطنَه بدوام المراقبة، وظاهرَه باتِّباع السُّنَّة، وتَعوَّد أكلَ الحلال: لم تخطِئ فراستُه.

وقال أبو جعفر الحدَّاد: «الفراسة أوَّلُ خاطرٍ بلا معارِض، فإنْ عارضه معارضٌ مِن جنسه، فهو خاطرٌ وحديثُ نفْس».

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧)، وقال: «هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه». وضعفه الألباني في الضعيفة (١٨٢١).

وقال أبو حفص النَّيسابوريُّ: «ليس لأحد أن يدَّعيَ الفراسة، ولكن يتَّقي الفراسةَ مِنَ الغيْر؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**اتَّقوا فِراسةَ المؤْمِنِ؛ فإنَّه يَنظُرُ بنُورِ اللهِ**». ولم يقُل: تفرَّسوا. وكيف يَصِحُّ دعوى الفراسةِ لمَن هو في محلِّ اتِّقاء الفراسة؟!».

وكان الجُنَيد رَحِمَهُ اللهُ يومًا يتكلم على الناس، فوقف عليه شابٌّ نصرانيٌّ متنكِّرًا، فقال: «أيها الشيخ، ما معنى قولِ الرسول ﷺ: «**اتَّقُوا فِراسةَ المؤْمِنِ؛ فإنَّه يَنظُرُ بنُورِ اللهِ**»؟ فأطرَق الجُنَيد، ثم رفع رأسه إليه، وقال: أسلِمْ؛ فقد حان وقتُ إسلامك. فأسلَمَ الغلام».

ويقال في بعض الكتب القديمة: «إن الصِّدِّيق لا تخطئُ فراستُه».

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أفرسُ الناس ثلاثة: العزيزُ في يوسفَ؛ حيث قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]. وابنةُ شُعيبٍ حين قالت لأبيها في موسى: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر في عُمرَ، حيث استخلفه». وفي رواية أخرى: «وامرأةُ فرعونَ حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]».

وكان الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أعظمَ الأمَّةِ فراسةً، وبعدَه عُمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ووقائع فراستِه مشهورةٌ؛ فإنَّه ما قال لشيء: أظنُّه كذا، إلَّا كان كما قال. ويكفي في فراسته: موافقتُه ربَّه في المواضع المعروفة.

ومرَّ به سَواد بن قارب، ولم يكن يَعرِفُه، فقال: «لقد أخطأ ظنِّي، أو أنَّ هذا كاهن، أو كان يَعرِفُ الكِهانةَ في الجاهليَّة. فلمَّا جلس بين يديه قال له ذلك عُمرُ، فقال: سبحانَ الله! يا أميرَ المؤمنين، ما استقبلتَ أحدًا من جلسائك بمِثل ما استقبلْتَني به، فقال له عُمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما كنَّا عليه في الجاهلية أعظمُ من ذلك، ولكن أخبرني عمَّا سألْتُك عنه، فقال: صدقتَ يا أميرَ المؤمنين، كنتُ كاهنًا في الجاهليَّة... ثم ذكر القصة»[(١)].

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «معجمه» (٣٢٩)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٦٤٧٥)، =

وكذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه كان صادق الفراسة.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «دخلتُ على عثمانَ بنِ عفَّان رضي الله عنه، وكنتُ رأيتُ في الطريق امرأةً تأمَّلتُ محاسنَها، فقال عثمان رضي الله عنه: يدخُلُ عليَّ أحدُكم وأثر الزِّنا ظاهرٌ في عينيه، فقلت: أوَحْيٌ بعد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم؟! فقال: لا، ولكن تبصرةٌ، وبرهان، وفراسةٌ صادقة».

وفراسة الصحابة رضي الله عنهم أصدقُ فراسةٍ.

وأصل هذا النوعِ من الفراسة: من الحياة والنور اللَّذين يَهَبُهما اللهُ لمَن يشاء مِن عباده، فيحيا القلبُ بذلك ويستنير، فلا تكاد فراستُه تُخطِئُ، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]: كان ميتًا بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعِلم، وجعَل له بالقرآن والإيمانِ نورًا يستضيءُ به في الناس على قصدِ السبيل، ويمشي به في الظُّلَم. والله أعلم.

فراسة الرياضة والجوع

الفراسة الثانية: فراسة الرِّياضة والجوع، والسَّهر والتخلِّي.

فإن النَّفْس إذا تجرَّدَتْ عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسَب تجرُّدها. وهذه فراسةٌ مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا تدلُّ على إيمان ولا على ولاية.

الفراسة الخَلقية

الفراسة الثالثة: الفراسة الخَلْقية.

وهي التي صنَّف فيها الأطباءُ وغيرُهم، واستدلُّوا بالخَلْق على الخُلق؛ لِما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمةُ الله؛ كالاستدلال بصِغَرِ الرأسِ الخارج عن العادة على صِغَر العقل، وبكِبَره على كِبَره، وبسَعة الصَّدر، وبُعْدِ ما بين جانبيه: على سَعة خُلُق صاحبه، واحتمالِه وبسْطته، وبضيقه على ضيقه.

= والحاكم (٦٥٥٨)، وقال الذهبي: «إسناده منقطع»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/١٩٦ ـ ٢٥٠): «إسناده ضعيف».

ومعظم تعلُّق الفراسة بالعين؛ فإنَّها مرآة القلب وعنوانُ ما فيه، ثم باللسان؛ فإنَّه رسولُه وترجمانه.

وأصل هذه الفراسة: أنَّ اعتدال الخِلقةِ والصورة: هو من اعتدال المِزاج والرُّوح، وعن اعتدالها يكون اعتدالُ الأخلاق والأفعال. وبحسَب انحرافِ الخِلقةِ والصورة عن الاعتدال: يقع الانحرافُ في الأخلاق والأعمال. هذا إذا خُلِّيت النَّفْسُ وطبيعتها.

ولكن صاحب الصورة والخِلقةِ المعتدلةِ يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاقَ مَن يقارِنُه ويعاشره، ولو أنه مِن الحيوان البهيم، فيصير مِن أخبثِ الناس أخلاقًا وأفعالًا، وتعود له تلك طباعًا، ويتعذَّرُ ـ أو يتعسَّرُ ـ عليه الانتقالُ عنها.

وكذلك صاحب الخِلقةِ والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصُحبةِ الكاملينَ وخُلطتِهم أخلاقًا وأفعالًا شريفة، تصير له كالطبيعة؛ فإنَّ العوائدَ والمزاولاتِ تعطي الملَكاتِ والأخلاقَ.

فليتأمل هذا الموضع، ولا يعجل بالقضاء بالفراسة دونه؛ فإن القاضي حينئذٍ يكون خطؤه كثيرًا؛ فإن هذه العلاماتِ أسبابٌ لا موجبة، وقد تتخلَّف عنها أحكامُها لفوات شرط، أو وجود مانع.

فراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء

وفراسة المتفرِّسِ تتعلَّق بثلاثة أشياءَ: بعينه، وأذنه، وقلبه.

فعينُه: للسِّيماء والعلامات. وأُذُنه: للكلام وتصريحه وتعريضِه، ومنطوقِه ومفهومه، وفَحْواهُ وإشارتِه، ولحنِه وإيمائه، ونحو ذلك. وقلبُه: للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيه.

فيعبر إلى ما وراءَ ظاهره، كعبور النَّقَّاد من ظاهر النقش والسِّكَّةِ إلى باطن النقد والاطلاع عليه: هل هو صحيح، أو زغَلٌ؟ وكذلك عبور المتفرِّسِ من ظاهر الهيئة والدَّلِّ إلى باطن الرُّوح والقلب، فنسبة نقدِه للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصَّيرفيِّ ينظر للجوهر مِن ظاهر السكة والنقد.

وكذلك نقْدُ أهلِ الحديث؛ فإنه يُمَرُّ بهم بإسناد ظاهر كالشمس على متن مكذوب، فيُخرِجه ناقدُهم كما يخرج الصيرفيَّ الزغلَ من تحت الظاهر من الفضة.

وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذبِ في أقواله وأفعالِه وأحواله.

أسباب الفراسة

وللفراسة سببان:

أحدهما: جودة ذهنِ المتفرِّس، وحِدَّة قلبه، وحُسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والأدلَّةِ على المتفرَّس فيه. فإذا اجتمع السببان لم تَكَدْ تخطئُ للعبد فراسةٌ، وإذا انتفيا لم تكد تَصِحُّ له فراسة، وإذا قويَ أحدهما وضعف الآخر كانت فراسته بيْنَ بينَ.

وكان إياسُ بن معاويةَ مِن أعظمِ الناسِ فراسةً، وله الوقائعُ المشهودة. وكذلك الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقيل: إنَّ له فيها تآليفَ.

ولقد شاهدتُ من فراسة شيخ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمورًا عجيبة، وما لم أشاهِدْه منها أعظمُ وأعظم، ووقائع فراستِه تستدعي سِفْرًا ضخمًا.

وأَخبر أصحابَه بدخول التتار الشامَ سنةَ تسعٍ وتسعين وستِّمائة، وأنَّ جيوش المسلمين تُكْسَر، وأنَّ دِمشق لا يكون بها قتلٌ عامٌّ ولا سَبْيٌ عام، وأنَّ كَلَبَ الجيش وحدَّته في الأموال. هذا قبل أن يُهِمَّ التتارُ بالحركة.

ثم أَخبر الناسَ والأمراء سَنة اثنتين وسبعمائة لمَّا تحرك التتار وقصدوا الشام: أن الدائرة والهزيمةَ عليهم، وأنَّ الظَّفَرَ والنصر للمسلمين، وأقسم على ذلك أكثرَ من سبعين يمينًا، فيقال له: قل: إن شاء الله، فيقول: «إنْ شاء اللهُ تحقيقًا لا تعليقًا». سمِعتُه يقول ذلك. قال: «فلمَّا أكثروا عليَّ، قلتُ: لا تُكْثِروا؛ كتبَ الله تعالى في اللَّوح المحفوظِ أنَّهم مهزومون في هذه الكَرَّة، وأنَّ النصر لجيوش الإسلام.

قال: وأطْعَمتُ بعضَ الأمراء والعسكرِ حلاوةَ النصرِ قبل خروجهم إلى لقاء العدوِّ».

وكانت فراسته الجزئيَّةُ في خلال هاتين الواقعتين مثلَ المطر.

ولما طُلِبَ إلى الديار المصرية، وأُرِيدَ قتْلُه ـ بعد أن أُنْضِجَت له القدور، وقُلِّبت له الأمور ـ اجتمع أصحابُه لوداعه، وقالوا: قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك، فقال: «والله لا يَصِلُون إلى ذلك أبدًا. قالوا: أفتُحْبَس؟ قال: نعم، ويطول حبْسي، ثم أخرج وأتكلَّم بالسُّنَّة على رؤوس الناس». سمِعتُه يقول ذلك.

ولما تولَّى عدوُّه الملقب بالمظفر الجاشنكير المُلكَ أخبروه بذلك، وقالوا: الآنَ بلغ مراده منك، فسجد لله شكرًا وأطال، فقيل له: ما سببُ هذه السجدة؟ فقال: «هذا بداية ذُلِّه ومفارقة عزِّه من الآن، وقُرب زوالِ أمْرِه». فقيل له: متى هذا؟ فقال: «لا تُرْبَط خيولُ الجند على القرط حتى تُغْلَب دولتُه»؛ فوقع الأمرُ مثلَ ما أخبَر به. سمِعتُ ذلك منه وعنه.

وقال مرة: «يدخُلُ عليَّ أصحابي وغيرُهم، فأرى في وجوههم وأعينِهم أمورًا لا أذكرها لهم. فقلتُ له ـ أو غيري ـ: لو أخبرتَهم؟ فقال: أتريدون أن أكون معرِّفًا كمُعرِّف الولاة؟!».

وقلت له يومًا: لو عاملْتَنا بذلك لكان أدعى إلى الاستقامة والصلاح، فقال: «لا تصبرون معي على ذلك جُمُعةً، أو قال: شهرًا».

وأخبرني غيرَ مرَّةٍ بأمور باطنةٍ تختصُّ بي ممَّا عزمتُ عليه، ولم ينطقْ به لساني!

وأخبرني ببعض حوادثَ كبارٍ تجري في المستقبل، ولم يعيِّن أوقاتَها، وقد رأيتُ بعضَها، وأنا أنتظر بقيَّتَها. وما شاهَدَه كِبارُ أصحابه من ذلك أضعافُ أضعافِ ما شاهدْتُه. والله أعلم.

❁ ❁ ❁



منزلة التعظيم

وهذه المنزلة تابعةٌ للمعرفة، فعلى قدْر المعرفة يكون تعظيمُ الرَّبِّ تعالى في القلب. وأعرَفُ الناس به: أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالًا. وقد ذمَّ الله مَن لم يعظِّمْه حقَّ عظمته، ولا عرَفه حقَّ معرفته، ولا وصفه حقَّ صِفَتِه. وأقوالهم تدور على هذا.

وقال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، قال ابن عباس ومجاهد: «لا ترجون لله عَظمةً». وقال سعيد بن جُبَير: «ما لكم لا تعظِّمون الله حقَّ عظمته؟!»، وقال الكَلْبيُّ: «لا تخافون لله عظمة».

قال البَغَويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «والرجاء بمعنى المخوف. والوقار: العظمة، اسمٌ من التوقير، وهو التعظيم». وقال الحسن: «لا تعرفون لله حقًّا، ولا تشكرون له نِعمة».

وقال ابن كَيْسان رَحِمَهُ اللهُ: «لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إيَّاه خيرًا».

ورُوح العبادة: هو الإجلال والمحبة؛ فإذا خلا أحدُهما عن الآخر فسدتِ العبوديةُ، فإذا اقترن بهذين الثناءُ على المحبوب المعظَّم، فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم.

درجات التعظيم وأمور تنافي تعظيم الأمر والنهي

قال صاحب «المنازل»: **(التَّعظيمُ: مَعرِفةُ العَظَمَةِ مع التَّذَلُّلِ لها. وهو على ثلاثِ دَرَجاتٍ:**

الأُولى: تَعظيمُ الأمرِ والنَّهيِ، وهو أنْ لا يُعارَضَا بتَرخُّصِ جافٍ، ولا يُعرَّضَا لتَشدُّدِ غالٍ، ولا يُحْمَلَا على عِلَّةٍ تُوهِنُ الانقيادَ).

هذه **ثلاثةَ أشياء**، تُنافي تعظيمَ الأمر والنهي:

أحدها: الترخُّص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني: الغلوُّ الذي يتجاوز به صاحبُه حدودَ الأمر والنهي.

فالأول: تفريط. والثاني: إفراط.

وما أمَرَ الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إمَّا إلى تفريط وإضاعة، وإمَّا إلى إفراط وغلوٍّ. ودِينُ الله وسَطٌ بين الجافي عنه، والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسَط بين طرفين ذميمين. وكما أن الجافي عن الأمر مُضيِّعٌ له، فالغالي فيه مُضيِّع له. هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهى الله عن الغلوِّ بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

أنواع الغلو

والغلو نوعان: نوعٌ يُخرِجه عن كونه مطيعًا؛ كمَن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النَّهي، أو رمى الجمرات بالصخرات الكِبارِ التي يُرْمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشرًا، ونحو ذلك عمدًا.

وغلوٌّ يُخافُ منه الانقطاع والاستحسار؛ كقيام الليل كلِّه، وسَرْدِ الصيامِ الدَّهرَ أجمعَ بدون صوم أيام النَّهي، والجَورِ على النفوس في العباداتِ والأوراد، الذي قال فيه النبي ﷺ: «**إنَّ هذا الدِّينَ يُسْرٌ، ولن يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلَّا غلَبَه. فسَدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا، واستَعينوا بالغَدْوةِ والرَّوْحةِ، وشَيءٍ مِنَ الدُّلْجةِ**»[1]؛ يعني: استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة؛ فإنَّ المسافر يستعين على قطْعِ مسافةِ السَّفرِ بالسَّير فيها.

وقال ﷺ: «**لِيُصَلِّ أحدُكم نَشاطَه، فإذا فَتَرَ فلْيَرْقُدْ**»[2]. رواهما البخاري.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وفي «صحيح مسلم» عنه: «**هَلَكَ المُتَنطِّعونَ**» قالها ثلاثًا[1]. وهم المتعمِّقون المتشدِّدون.

وفي «صحيح البخاري» عنه: «**عليكُم مِنَ الأعمالِ ما تُطيقونَ؛ فواللهِ لا يَمَلُّ اللهُ حتَّى تَمَلُّوا**»[2].

وفي السنن عنه: «**إنَّ هذا الدِّينَ مَتِينٌ، فأوْغِلْ فيه برِفْقٍ، ولا تُبَغِّضَنَّ إلى نفْسِك عِبادةَ اللهِ**»[3]. أو كما قال.

وأما قوله: (**ولا يُحْمَلَا على عِلَّةٍ توهِنُ الانقيادَ**).

يريد: أنْ لا يتأوَّلَ في الأمر والنَّهي علة تعود عليهما بالإبطال، كما تأوَّلَ بعضُهم تحريمَ الخمر بأنه معلَّل بإيقاع العداوة والبغضاء، والتعرُّضِ للفساد.

بعض العلل التي توهن الانقياد

ومِن العِلَل التي توهِنُ الانقيادَ: أن يعلِّل الحُكمَ بعلَّةٍ ضعيفة، لم تكن هي الباعثةَ عليه في نفْس الأمر، فيضعف انقيادُ العبد إذا قام عنده أن هذه هي علَّةُ الحُكم، ولهذا كانت طريقةُ القوم: عدمَ التعرُّضِ لعلل التكاليف؛ خشيةَ هذا المحذور.

وفي بعض الآثار القديمة: «يا بني إسرائيلَ، لا تقولوا: لِمَ أمَرَ ربُّنا؟ ولكنْ قولوا: بِمَ أمَرَ ربُّنا؟».

وأيضًا فإنه إذا لم يَمتثِلِ الأمرَ حتى تظهر علَّتُه، لم يكن منقادًا للأمر، وأقلُّ درجاتِه: أن يضعف انقيادُه له.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد (١٣٠٥٢) إلى قوله: «برفق»، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٦٢): «رجاله موثوقون إلا أن خلف بن مهران لم يدرك أنسًا». وأخرجه ابن الأعرابي في «معجمه» (١٨٨٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٤٧)، والبيهقي في السنن (٤٧٤٣) من حديث جابر رضي الله عنه، وأورده الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٤٨٠)، وقال: «حسنٌ دون قوله: «ولا تبغض...» إلخ.

وأيضًا فإنَّه إذا نظر إلى حكمة العبادات والتكاليفِ مثلًا، وجعَل العلة فيها هي جمعيَّة القلب، والإقبال به على الله، فقال: أنا أشتغل بالمقصود عن الوسيلة، فاشتغل بجمعيَّتِه وخَلوتِه عن أوراد العبارات فعطَّلها، وترَكَ الانقيادَ بحَمْلِه الأمرَ على العلة التي أوهنتِ انقيادَه.

وكلُّ هذا مِن ترْكِ تعظيم الأمر والنَّهيِ، وقد دخل من هذا الفساد على كثير من الطوائف ما لا يعلمه إلَّا الله. فما يدري ما أوهنَتِ العِلَلُ الفاسدةُ من الانقياد إلَّا اللهُ، فكم عطَّلت لله من أمر، وأباحتْ مِن نَهيٍ، وحرَّمت من مباح! وهي التي اتفقت كلمةُ السلف على ذمِّها.

تعظيم الحكم الديني الشرعي

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: تَعظيمُ الحُكْمِ: أنْ يُبغَى له عِوَجٌ**).

الدرجة الأولى: تتضمَّنُ تعظيمَ الحُكم الدِّينيِّ الشَّرعيِّ، وهذه الدرجة تتضمَّنُ تعظيمَ الحُكمِ الكَونيِّ القدَريِّ، وهو الذي يخصُّه المصنِّفُ باسم الحُكم، وكما يجب على العبد أن يرعى حكمَ اللهِ الدينيَّ بالتعظيم، فكذلك يرعى حُكمَه الكونيَّ به.

فذكر من تعظيمه: **أنْ لا يُبْغى له عِوَجٌ**؛ أي: يُطْلَب له عِوجٌ، أو يُرَى فيه عوجٌ، بل يراه كلَّه مستقيمًا؛ لأنه صادر عن عين الحكمة، فلا عِوجَ فيه. وهذا موضع أشكَلَ على الناس جدًّا.

وقول سلف الأمَّةِ وجمهورِها: إنَّ القضاء غيرُ المَقْضيِّ؛ فالقضاء فِعْلُه ومشيئتُه وما قام به، والمَقْضيُّ: مفعولُه المباينُ له المنفصِلُ عنه، وهو المشتمل على الخير والشر، والعِوَجِ والاستقامة.

فقضاؤه كلُّه حق، والمَقضيُّ: منه حقٌّ، ومنه باطل. وقضاؤُه كلُّه عدلٌ، والمَقضيُّ: منه عدلٌ، ومنه جَوْر. وقضاؤه كلُّه مَرْضيٌّ، والمَقضيُّ: منه مَرضيٌّ، ومنه مَسخوطٌ. وقضاؤه كلُّه مسالم، والمقضيُّ: منه ما يُسالَم، ومنه ما يُحارَب.

وهذا أصلٌ عظيم تجب مراعاتُه، وهو موضع مزلَّةِ أقدام كما رأيت، والمنحرف عنه: إمَّا جاهل للحكمة، أو القدرةِ، أو للأمر

والشَّرعِ ولا بدَّ. وعلى هذا يُحمَل كلامُ صاحب «المنازل»: **(أنْ لا يُبْتَغى للحُكْمِ عِوَجٌ)**.

تعظيم العبد لربِّه جل وعلا

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: تَعظيمُ الحقِّ سُبحانَه. وهو أنْ لا تَجعَلَ دُونَه سَببًا، ولا تَرى عليهِ حَقًّا، أو تُنازِعَ له اختِيارًا)**.

ذكر من تعظيمه **ثلاثةَ أشياءَ**:

أحدها: أن لا تجعل دونه سببًا؛ أي: لا تجعل للوصلة إليه سببًا غيرَه، بل هو الذي يُوصِل عبده إليه، فلا يُوصِل إلى الله إلَّا اللهُ، ولا يُقرِّب إليه سِواه، ولا يُدني إليه غيرُه، ولا يُتوصَّل إلى رضاه إلَّا به، فما دلَّ على الله إلَّا اللهُ، ولا هدى إليه سِواه. ولا أدْنى إليه غيرُه؛ فإنه سبحانه هو الذي جعَل السببَ سببًا، فالسبب وسببيَّتُه وإيصالُه: كلُّه خَلْقُه وفِعْلُه.

الثاني: أن لا تَرى عليه حقًّا؛ أي: أن لا ترى لأحد من الخلْق ـ لا لك ولا لغيرك ـ حقًّا على الله، بل الحقُّ له على خلْقه. وفي أثر إسرائيليٍّ: أنَّ داود عليه السلام قال: يا ربِّ، بحقِّ آبائي عليك. فأوحى الله إليه: يا داودُ، وأيُّ حقٍّ لآبائِك عليَّ؟ ألستُ أنا الذي هديْتُهم ومَنَنْتُ عليهم واصطفيْتُهم، ولي الحقُّ عليهم؟

[الثالث]: وأما قوله: (ولا يُنازِعَ له اختِيارًا)؛ أي: إذا رأيتَ الله عز وجل قد اختار لك أو لغيرك شيئًا ـ إمَّا بأمرِه ودينه، وإما بقضائه وقدَرِه ـ فلا تنازعِ اختيارَه، بل ارضَ باختيار ما اختاره لك؛ فإنَّ ذلك من تعظيمه سبحانه.

ولا يَرِدُ عليه ما قدَّره من المعاصي؛ فإنَّه سبحانه ـ وإن قدَّرها ـ لكنَّه لم يَختَرْها له، فمنازعتُها غيرُ اختيارِه مِن عبده، وذلك من تمام تعظيمِ العبد له. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

منزلة السَّكينة

هذه المنزلةُ من منازل المواهب، لا من منازل المكاسِب، وقد ذَكَر الله سبحانه السَّكينةَ في كتابه في **ستَّة مواضعَ**.

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

الثالث: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]. الآية.

سرُّ قراءة شيخ الإسلام لآيات السَّكينة

وكان شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ إذا اشتدَّت عليه الأمورُ؛ قرأ آياتِ السَّكينة. وسمِعتُه يقول في واقعة عظيمةٍ جرتْ له في مرضه، تعجِزُ القُوى عن حمْلها ـ من محاربة أرواحٍ شيطانية، ظهرتْ له إذْ ذاك في

حال ضَعْف القوَّة ـ قال: «فلمَّا اشتدَّ عليَّ الأمرُ، قلتُ لأقاربي ومَن حولي: اقرؤوا آياتِ السَّكينة، قال: ثم أقلَع عنِّي ذلك الحالُ، وجلستُ وما بي قَلَبَةٌ»(١).

وقد جرَّبتُ أنا أيضًا قراءةَ هذه الآيات عند اضطرابِ القلب ممَّا يَرِدُ عليه؛ فرأيتُ لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطُمأنينتِه.

أصل السكينة ومفهومها

وأصل «**السكينة**» هي الطُّمأنينةُ والوقار، والسكون الذي يُنزِلُه الله في قلب عبدِه، عند اضطرابِه من شدةِ المخاوف؛ فلا يَنزعِجُ بعد ذلك لِما يَرِدُ عليه، ويوجب له زيادةَ الإيمان، وقوَّةَ اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضعِ القلق والاضطراب؛ كيومِ الهجرة، إذْ هو وصاحبُه في الغار، والعدوُّ فوقَ رؤوسهم، لو نظرَ أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما، وكيومِ حُنَيْنٍ، حين وَلَّوْا مدبِرينَ من شدة بأس الكفَّار، لا يَلْوي أحدٌ منهم على أحد، وكيومِ الحُدَيبية حين اضطربت قلوبُهم من تحكُّم الكفار عليهم، ودخولِهم تحت شروطِهِمُ التي لا تحملها النفوس، وحسْبُك بضَعف عُمَرَ عن حمْلها ـ وهو عُمرُ ـ حتى ثَبَّتَه الله بالصِّدِّيق. قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «كلُّ سكينة في القرآن فهي طُمأنينة، إلَّا التي في سورة البقرة».

أقسام السكينة عند صاحب «المنازل»

قال صاحب «المنازل»: (**السَّكِينةُ: اسْمٌ لِثَلاثةِ أشْياءَ: أوَّلُها: سَكِينةُ بَني إسرائيلَ الَّتي أُعْطُوها في التَّابُوتِ**).

(**السَّكِينةُ الثَّانيةُ: هيَ الَّتي تَنطِقُ على لِسانِ المُحَدَّثِينَ**).

والسكينة إذا نزلت في القلب اطمأنَّ بها، وسكنتْ إليها الجوارحُ وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللِّسانَ بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قولِ الخنا والفُحش، واللَّغوِ والهُجْرِ، وكلِّ باطل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنا نتحدَّث أنَّ السَّكينةَ تنطِقُ على لسان

(١) قولُه: «**وما بي قَلَبَةٌ**»: أي: ليست بي عِلَّةٌ.

عُمَرَ وقلبِه»[١].

وكثيرًا ما ينطق صاحبُ السكينة بكلام لم يكن عن فِكرة منه، ولا رَوِيَّةٍ ولا هيئة، ويستغربه هو من نفْسِه، كما يستغرب السامعُ له، وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه.

وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة، وصِدْقِ الرَّغبةِ من السائل والْمُجالس، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه، وحضرته، مع تجرُّده من الهوى، وتجريدِه النصيحةَ لله ولرسوله، وعبادِه المؤمنين، وإزالة نفْسِه من البَيْن.

ومن جرَّب هذا عرَف قدْرَ منفعتِه وعِظَمِها، وساء ظنُّه بما يُحسن به الغافلون ظنونَهم من كثير من كلام الناس.

من عيون كلام الإمام الهروي وغرره

(السَّكِينةُ الثَّالِثةُ: هيَ الَّتي أُنزِلَتْ على قَلْبِ النَّبيِّ ﷺ، وقُلُوبِ المؤْمِنِينَ، وهيَ شَيءٌ يَجمَعُ نُورًا وقُوَّةً ورُوحًا، يَسْكُنُ إليهِ الخائِفُ، ويَتَسلَّى بهِ الحَزينُ والضَّجِرُ، ويَسْتَكينُ إليهِ العَصِيُّ والجَرِيءُ والأبِيُّ).

هذا من عيون كلامه وغُرَرِه الذي تُثنى عليه الخناصرُ، وتُعقد عليه القلوب، ونطقه به عن ذوق تام، لا عن عِلم مجرد.

فذكر: أن هذا الشيءَ أنزله الله في قلب رسوله، وقلوبِ عباده المؤمنين يشتمل على ثلاثة معانٍ: النور، والقوة، والروح.

ثمرات السكينة

وذكر له ثلاثَ ثمَرات: سكون الخائف إليه، وتسلِّي الحزينِ والضَّجِرِ به، واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه.

فبالرُّوح الَّذي فيها: حياةُ القلب. وبالنُّور الَّذي فيها: استنارتُه، وضياؤه وإشراقُه. وبالقوة: ثباته وعزمه ونشاطه.

(١) أنه من قول علي بن أبي طالب.

فالنور: يكشف له عن دلائلِ الإيمان، وحقائقِ اليقين، ويميِّز له بين الحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والغيِّ والرشاد، والشكِّ واليقين.

والحياة: توجب كمالَ يقظته وفِطنَتِه، وحضوره وانتباهه من سِنَةِ الغفلة، وتأهُّبه للَّقاء.

والقوة: توجب له الصدق، وصحَّةَ المعرفة، وقهْرَ داعي الغَيِّ والعنَت، وضبْطَ النفْس عن جزَعها وهلَعِها، واسترسالها في النقائص والعيوب، ولذلك ازداد بالسكينة إيمانًا مع إيمانه.

والإيمان: يُثمر له النُّورَ والحياةَ والقوة. وهذه الثلاثة تُثمره أيضًا، وتوجب زيادتَه؛ فهو محفوفٌ بها قبلها وبعدها.

فبالنور: يكشف دلائلَ الإيمان. وبالحياة: يتنبَّهُ مِن سِنَةِ الغفلة، ويصير يَقظانَ. وبالقوَّة: يقهر الهوى والنفْسَ والشيطان. كما قيل:

وتِلْكَ مَواهِبُ الرَّحمٰنِ ليسَتْ ... تُحَصَّلُ باجْتِهادٍ أوْ بكَسْبِ
ولَكِنْ لا غِنًى عَنْ بَذْلِ جُهْدٍ ... بإخْلاصٍ وجِدٍّ لا بلَعِبِ
وفَضْلُ اللَّهِ مَبذُولٌ ولكِنْ ... بحِكْمتِهِ وعَن ذا النَّصُّ يُنْبِي
فما مِن حِكْمةِ الرَّحمٰنِ وَضْعُ ال ... كَواكِبِ بيْنَ أحْجارٍ وتُرْبِ
فشُكْرًا لِلَّذي أعطاكَ مِنهُ ... فلَوْ قَبِلَ المَحَلُّ لَزادَ رَبِّي

* * *

آثار سكينة النفوس واطمئنان القلوب

فإذا حصلتْ هذه الثلاثةُ بالسكينة ـ وهي النور، والحياةُ، والروح ـ سكن إليها العصيُّ؛ وهو الذي سكونه إلى المعصية والمخالفة، لعدم سكينة الإيمانِ في قلبه، فلمَّا سكنت سكينةُ الإيمان في قلبه صار سكونُه إليها عِوَضَ سكونِه إلى الشهوات والمخالفات؛ فإنه قد وجَد فيها مطلوبَه، وهو اللَّذَّةُ التي كان يَطلُبُها من المعصية، ولم يكن له ما يعيضه عنها.

فمنذ أنزلت عليه السكينةُ اعتاض بلذَّتِها ورَوحها ونعيمِها عن لذة المعصية؛ فاستراحت بها نفْسُه، وهاج إليها قلبُه، ووجد فيها من الرَّوح

والراحة واللذةِ ما لا نسبة بينه وبين اللَّذَّةِ الجسمانيَّةِ النَّفسانية، فصارت لذتُه روحانيةً قلبيَّةً، بعد أن كانت جسمانية، فأسْلَتْهُ عنها وخلَّصَتْه، فإذا تألَّقَتْ بُروقُها قال:

تَألَّقَ البَرْقُ نَجْدِيًّا فقُلْتُ لهُ: يا أيُّها البَرْقُ، إنِّي عَنكَ مَشغُولُ

وإذا طرقَتْه طيوفُها الخياليةُ في ظلام ليلِ الشَّهوات، نادى لسانُ حاله، وتمثَّل بمِثلِ قوله:

طَرَقَتْكَ صائِدةُ القُلُوبِ وليس ذا وَقْتُ الزِّيارةِ فارْجِعي بسَلامِ

فإذا ودَّعَتْه وعزَمتْ على الرَّحيل، ووعدَتْه بالمُوافاة؛ تمثَّل بقول الآخَر:

قالتْ وقدْ عَزَمَتْ على تَرْحالِها ماذا تُريدُ؟ فقُلْتُ: أنْ لا تَرْجِعي

فإذا باشرتْ هذه السكينةُ قلبَه سَكَّنَت خوفه؛ وهو قوله: **(يَسْكُنُ إليْها الخائِفُ)**، وسلَّت حزنه؛ فإنَّها لا حزنَ معها؛ فهي سَلوةُ المحزون، ومُذْهِبةُ الهمومِ والغموم، وكذلك تُذهِبُ عنه وخَم ضَجَرِه، وتَبعَثُ نَشوةَ العزم، وحالَتْ بينه وبين الجُرأةِ على مخالفته الأمرَ، وبين إباء النَّفْسِ للانقياد إليه. والله أعلم.

* * *

درجات السكينة وأقسامها

قال: **(وأمَّا سَكِينةُ الوَقارِ، الَّتي نَزَّلَها نَعْتًا لِأرْبابِها: فإنَّها ضِياءُ تِلكَ السَّكينةِ الثَّالِثةِ الَّتي ذَكَرْناها. وهيَ على دَرَجاتٍ:**

الأُولَى: سَكينةُ الخُشُوعِ عِندَ القِيامِ لِلخِدْمةِ: رِعايةً، وتَعْظيمًا، وحُضُورًا).

فـ**(سَكينةُ الوَقارِ)**: هي نوع من السكينة، ولكن لمَّا كانت موجبةً للوقار سمَّاها الشيخ: سكينةَ الوقار.

وقوله: **(نَزَّلَها نَعْتًا)**؛ يعني: نزلَّها الله في قلوبِ أهلها، ونعتَهُم بها.

وقوله: **(فإنَّها ضِياءُ تِلكَ السَّكينةِ الثَّالِثةِ الَّتي ذَكَرْناها)**؛ أي:

نتيجتها وثمرتها، وعنها نشأتْ، كما أن الضياء عن الشمس حصَل.

ولمَّا كان النورُ والحياة والقوّةُ ـ الذي ذكرْنا ـ ممَّا تُثمر الوقار: جعل سكينةَ الوقار كالضِّياء لتلك السكينة؛ إذ هو علامةُ حصولها، ودليلٌ عليها، كدلالة الضِّياءِ على حامله.

قوله: **(الدَّرَجةُ الأُولَى: سَكينةُ الخُشُوعِ عِندَ القِيامِ لِلخِدْمةِ)**؛ يريد به: الوقارَ والخشوعَ الذي يحصُل لصاحب مقام الإحسان.

ولمَّا كان الإيمانُ موجبًا للخشوع، وداعيًا إليه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان؛ يعني: أمَا آنَ لهم أن يَصِلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيقِ ذلك بخشوعهم لذِكْرِ الذي أنزلَه إليهم؟

قوله: **(رِعايةً، وتَعْظيمًا، وحُضُورًا)**، هذه ثلاثة أمور:

تحقُّق الخشوع في الخدمة؛ وهي رعاية حقوقِها الظاهرةِ والباطنة، فليس يضيعها خشوعٌ ولا وقار.

الثاني: تعظيم الخدمة وإجلالها؛ وذلك تبَعٌ لتعظيم المعبود وإجلالِه ووقاره، فعلى قدْرِ تعظيمِه في قلب العبد وإجلالِه ووقاره، يكون تعظيمُه لخدمته، وإجلالُه لها، ورعايتُه لها.

والثالث: الحضور؛ وهو إحضار القلبِ فيها مشاهدةً للمعبود كأنَّه يراه.

فهذه الثلاثة تُثمِرُ له سكينةَ الوقار، والله سبحانه أعلم.

السكينة الموجبة لكل صلاح وخير

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: السَّكِينةُ عِندَ المُعامَلةِ بمُحاسَبةِ النَّفْسِ، ومُلاطَفةِ الخَلْقِ، ومُراقَبةِ الحَقِّ)**.

هذه الدرجة هي التي يَحومُ عليها أهلُ التصوُّفِ، والعَلَمُ الذي يُشمِّرون إليه، وهي سكينةُ المعاملة التي بينهم وبين الله، وبينهم وبين خلْقه، وتحصل **بثلاثة أشياءَ**:

أحدها: محاسبة النفس، حتى تَعرِفَ ما لها وما عليها، ولا يدعها تسترسل في الحقوق استرسالًا، فيضيِّعها ويُهمِلها.

وأيضًا: فإن زكاها وطهارتَها موقوفٌ على محاسبتها، فلا تزْكو ولا تَطهُرُ ولا تصلُحُ البتَّةَ إلا بمحاسبتها.

قال الحسَن رضي الله عنه: «إنَّ المؤمن ـ واللهِ ـ لا تراه إلا قائمًا على نفْسه: ما أردتُ بكلمة كذا؟ ما أردتُ بأكلة كذا؟ ما أردتُ بمدخل كذا، ومخرجِ كذا؟ ما أردتُ بهذا؟ ما لي ولهذا؟ واللهِ لا أعودُ إلى هذا». ونحو هذا من الكلام.

فبمحاسبتها يطَّلع على عيوبها ونقائصها، فيمكنه السعيُ في إصلاحها.

الثاني: ملاطفة الخلْق؛ وهي معاملتهم بما يحِبُّ أن يعامِلوه به من اللُّطف، ولا يعاملهم بالعنف والشدةِ والغِلظة؛ فإن ذلك ينفِّرُهم عنه، ويُغريهم به، ويُفسِدُ عليه قلبَه وحاله مع الله ووقته، فليس للقلب أنفعُ من معاملة الناس باللُّطف؛ فإنَّ معاملة الناس بذلك: إما أجنبيٌّ، فيكسب مودته ومحبَّتَه، وإما صاحبٌ وحبيب فيستديم صحبتَه ومحبَّتَه، وإما عدوٌّ ومبغِضٌ، فتُطفِئُ بلُطفِك جَمْرتَه، وتستكفي شرَّه، ويكون احتمالُك لمضضِ لطفك به دون احتمالِك لضرر ما ينالُك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث: مراقبة الحقِّ سبحانه، وهي الموجبة لكلِّ صلاح وخيرٍ عاجلٍ وآجل، ولا تَصِحُّ الدرجتان الأوليان إلَّا بهذه، وهي المقصود لذاته، وما قَبلَه وسيلةٌ إليه، وعَونٌ عليه، فمراقبة الحقِّ سبحانه وتعالى: توجب إصلاحَ النَّفْس، واللُّطفَ بالخلْق.





مَنْزِلَةُ الطُّمَأْنِينَةِ

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

(الطُّمَأْنِينةُ): سكون القلب إلى الشيء، وعدمُ اضطرابه وقلقِه، ومنه قولُه ﷺ: «**البِرُّ ما اطْمأنَّ إليهِ القَلْبُ**»[(١)]؛ أي: سكن إليه وزالَ عنه اضطرابُه وقلقه.

وفي ذكر الله هاهنا **قولان**:

أحدهما: أنه ذِكر العبدِ ربَّه؛ فإنَّه يطمئنُّ إليه قلبُه ويسكُن، فإذا اضطرب القلبُ وقلق فليس له ما يَطمئِنُّ به سِوى ذكرِ الله.

والقول الثاني: أنَّ ذكر الله هاهنا القرآنُ؛ وهو ذكرُه الذي أنزله على رسوله، به طمأنينةُ قلوبِ المؤمنين؛ فإنَّ القلب لا يطمئنُّ إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلَّا من القرآن؛ فإنَّ سكون القلب وطمأنينتَه من يقينه، واضطرابَه وقلقه من شكِّه، والقرآن هو المحصِّلُ لليقين، الدافعُ للشكوك والظُّنونِ والأوهام، فلا تطمئنُّ قلوب المؤمنين إلَّا به، وهذا القول هو المختار.

وجعَل الله سبحانه الطمأنينةَ في قلوب المؤمنين ونفوسِهم، وجعَل الغِبطةَ والمِدْحةَ والبِشارةَ بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطُوبى لهم وحُسْنُ مآبٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٠)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٧٨٢). بلفظ: «**البِرُّ ما سكَنَتْ إليه النفْسُ، واطمأنَّ إليه القلب**»، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٧٧٤).

وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، دليلٌ على أنها لا ترجع إليه إلَّا إذا كانت مطمئنةً؛ فهناك تَرجِعُ إليه، وتدخُلُ في عباده، وتدخل جنتَه. وكان مِن دعاء بعضِ السلف: «اللَّهُمَّ هَبْ لي نفْسًا مطمئنة إليك».

قال صاحب «المنازل»: (**الطُّمَأنِينةُ: سُكُونٌ يُقوِّيهِ أمْنٌ صَحيحٌ، شَبِيهٌ بالعِيانِ**).

قوله: (**سُكُونٌ يُقوِّيهِ أمْنٌ**)؛ أي: سكون القلب مع قوَّته بالأمن الصحيحِ الذي لا يكون أمْنَ غرور؛ فإنَّ القلب قد يسكُن إلى أمن الغرور، ولكن لا يطمئنُّ به؛ لمفارقة ذلك السكونِ له، والطمأنينة لا تفارِقه؛ فإنَّها مأخوذة من الإقامة، يقال: اطمأنَّ بالمكان والمنزلِ: إذا أقام به.

وسبب صحَّةِ هذا الأمنِ المقوِّي للسكون: شَبَهُه بالعِيان؛ بحيث لا يبقى معه شيءٌ من مجوزات الظنُّون والأوهام، بل كأن صاحبه يعايِنُ ما يطمئنُّ به، فيأمن به اضطرابُ قلبِه وقلقُه وارتيابه.

الفرق بين السكينة والطمأنينة

والذي يظهر لي في الفرق [بين السكينة والطمأنينة] أمران:

أحدهما: أن ظفره وفوزَه بمطلوبه الذي حصَّل له السكينة، فالسكينة بمنزلة مَن واجهَه عدوٌّ يريد هلاكَه، فهرَب منه عدوُّه، فسكن رَوعُه، والطمأنينة بمنزلة حِصنٍ رآه مفتوحًا فدخله وأمِنَ فيه، وتقوَّى بصاحبه وعدته. فللقلب **ثلاثةُ أحوال**:

- **أحدها:** الخوف والاضطرابُ والقلق من الوارد الذي يُزعِجُه ويُقْلِقُه.

- **الثاني:** زوال ذلك الواردِ عنه وعدَمُه.

- **الثالث:** ظَفَرُه وفوزُه بمطلوبه الذي كان ذلك الواردُ حائلًا بينه وبينه.

وكلٌّ منهما يستلزم الآخَرَ ويقارنه؛ فالطمأنينة تستلزم السكينةَ ولا

تفارِقُها، وكذلك بالعكس، لكن استلزام الطُّمأنينةِ للسكينة أقوى من استلزام السكينةِ للطُّمأنينة.

الثاني: أنَّ الطُّمأنينة أقوى وأعمُّ؛ فإنها تكونُ في العِلم والخبرِ به، واليقين والظفر بالمعلوم؛ ولهذا اطمأنَّت القلوبُ بالقرآن لَمَّا حصَل لها الإيمانُ به، ومعرفته والهدايةُ به في ظُلَم الآراء والمذاهب، واكتفتْ به منها، وحكَّمَتْه عليها وعزلتها، وجعلتْ له الولايةَ بأسْرها كما جعلها الله؛ فبه خاصمتْ، وإليه حاكمت، وبه صالتْ، وبه دفعَتِ الشُّبَهَ.

وأمَّا السكينة: فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوفِ عليه، وسكونُه وزوالُ قلقِه واضطرابه، كما يحصُلُ لحزب الله عند مقاتلة العدوِّ وصولتِه، والله سبحانه أعلم.

أقسام الطمأنينة عند صاحب «المنازل»

قال: (**طُمَأْنِينةُ القَلْبِ بذِكْرِ اللهِ؛ وهيَ طُمَأْنِينةُ الخَائِفِ إلى الرَّجاءِ، والضَّجِرِ إلى الحُكْمِ، والمُبْتَلَى إلى المَثُوبةِ**).

فذكر (**طُمأْنِينة الخائِفِ إلى الرَّجاءِ**)؛ فإنَّ الخائف إذا طال عليه الخوفُ واشتدَّ به، وأراد الله ﷻ أن يريحَه، ويحمِلَ عنه: أنزل عليه السكينةَ؛ فاستراح قلبُه إلى الرجاء واطمأنَّ به، وسكن لهيبُ خَوفِه.

طُمَأْنِينةُ الضَّجِرِ إلى الحُكْمِ

وأمَّا (**طُمَأْنِينةُ الضَّجِرِ إلى الحُكْمِ**)؛ فالمراد بها: أنَّ مَن أدركه الضجرُ من قوة التكاليف، وأعباءِ الأمر وأثقاله ـ ولا سيما فيمَن أُقيم مقامَ التبليغِ عن الله، ومجاهدةِ أعداء الله، وقطَّاعِ الطريق إليه ـ فإنَّ ما يحمله ويتحمله فوقَ ما يحمله الناسُ ويتحملونه، فلا بد أن يُدرِكَه الضَّجَر، ويضعف صبره.

فإذا أراد الله أن يريحه ويحمِلَ عنه: أنزل عليه سكينتَه؛ فاطمأنَّ إلى حُكمه الدِّينيِّ، وحُكمِه القدَريِّ، ولا طمأنينةَ له بدون مشاهدة الحُكمين، وبحسَب مشاهدته لهما تكونُ طمأنينتُه؛ فإنه إذا اطمأنَّ إلى حُكمه الدِّينيِّ عَلِمَ أنه دينُه الحقُّ، وهو صراطه المستقيم، وهو ناصره وناصرُ أهلِه وكافيهم ووليُّهم.

وإذا اطمأنَّ إلى حُكمه الكونيِّ: عَلِمَ أنه لن يصيبه إلَّا ما كتب اللهُ له، وأنه ما شاء كان وما لم يَشَأْ لم يكن، فلا وجهَ للجزع والقلقِ إلَّا ضَعفُ اليقين والإيمان؛ فإنَّ المحذور والمَخُوفَ إن لم يُقدَّرْ فلا سبيل إلى وقوعه، وإن قُدِّرَ فلا سبيل إلى صَرْفِه بعد أن أُبرِم تقديرُه، فلا جزَعَ حينئذ، لا مما قُدِّر، ولا مما لم يُقَدَّر.

نعَم؛ إنْ كان في هذا النازلِ حِيلةٌ، فلا ينبغي أن يعجز عنه، وإن لم يكن فيه حيلةٌ، فلا ينبغي أن يجزعَ منه.

فهذه طمأنينةُ الضَّجِرِ إلى الحُكم.

طُمأْنِينةُ المُبتلَى إلى المَثُوبةِ

وأما (**طُمأْنِينةُ المُبتلَى إلى المَثُوبةِ**)؛ فلا ريب أن المبتلى إذا قَوِيَتْ مشاهدتُه للمَثوبة سكن قلبُه واطمأنَّ بمشاهدة العِوَض، وإنما يشتدُّ به البلاءُ إذا غاب عنه ملاحظةُ الثواب، وقد تقوى ملاحظةُ العِوَض حتى يستلذَّ بالبلاء ويراه نعمةً، ولا تستبعِدْ هذا؛ فكثيرٌ من العقلاء إذا تحقَّق نفعَ الدَّواءِ الكَريهِ فإنَّه يكاد يلتذُّ به، وملاحظتُه لنفعِه تُغنيه عن تألُّمِه بمذاقه أو تخفُّفِه عنه، والعمل المُعَوَّلُ عليه إنَّما هو على البصائر. والله أعلم.

❁ ❁ ❁



منزلة الهِمَّة

وقد صدَّرها صاحبُ «المنازل» بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧].

وأما وجه تصدير **(الهِمَّة)** بها: فهو الإشارة إلى أن همَّته ﷺ ما تعلَّقتْ بسِوى مشهودِه، وما أُقيم فيه، ولو تجاوزَتْه همَّتُه لتَبِعها بصرُه.

وسمعتُ شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «في بعض الآثار الإلٰهيَّةِ، يقول الله تعالى: «**إنِّي لا أنظُرُ إلى كَلامِ الحَكيمِ، وإنَّما أنظُرُ إلى هِمَّتِه**».

قال: والعامة تقول: قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسِنُ. والخاصة تقول: قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يَطلُب؛ يريد: أن قيمة المرء هِمَّتُه ومطلبُه.

قال صاحب «المنازل»: **(الهِمَّةُ: ما يَملِكُ الانبعاثَ للمقصودِ صِرفًا، لا يَتمالكُ صاحبُها، ولا يلتفتُ عنها)**.

قوله: **(يَملِك الانبعاثَ للمقصودِ)**؛ أي: يستولي عليه كاستيلاءِ المالكِ على المملوك، وصِرفًا؛ أي: خالصًا صِرفًا.

والمراد: أنَّ هِمَّة العبد إذا تعلَّقتْ بالحقِّ تعالى طلبًا خالصًا صادقًا محضًا؛ فتلك هي الهِمَّةُ العالية، التي «لا يتمالك صاحبُها»؛ أي: لا يقدر على المهلة، ولا يتمالك صبرَه؛ لغَلَبة سُلطان الهِمَّة عليه وشدةِ إلزامِها إيَّاهُ بطلب المقصود، **(ولا يَلْتَفِتُ عَنها)** إلى ما سِوى أحكامِها، وصاحبُ هذه الهِمَّةِ: سريعٌ وصولُه وظفَرُه بمطلوبه، ما لم تَعُقْهُ العوائق، وتَقْطَعْهُ العلائق. والله أعلم.

* * *

درجات الهمة وأقسامها

قال: (وهيَ على ثَلاثِ دَرَجاتٍ:

الدَّرَجةُ الأُولَى: هِمَّةٌ تَصُونُ القَلْبَ عَن وَحْشةِ الرَّغْبةِ في الفاني، وتَحْمِلُه على الرَّغْبةِ في الباقي، وتُصفِّيهِ مِن كَدَرِ التَّواني).

(**الفَانِي**): الدنيا وما عليها؛ أي: يزهد القلب فيها وفي أهلها، وسمَّى الرغبةَ فيها (**وَحْشَة**)؛ لأنها وأهلَها توحش قلوبَ الرَّاغبينَ فيها، وقلوبَ الزاهدين فيها.

أما الراغبون فيها: فأرواحهم وقلوبُهم في وحشة من أجسامهم، إذْ فاتها ما خُلِقَتْ له، فهي في وحشة لفواته.

وأما الزاهدون فيها: فإنهم يروْنها موحشةً لهم؛ لأنها تَحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم، ولا شيءَ أوحشُ عند القلب ممَّن يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبِه؛ ولذلك كان مَن نازع الناسَ أموالَهم، وطلبَها منهم أوحشَ شيءٍ إليهم وأبغضَه.

وأيضًا: فالزاهدون فيها إنما ينظرون إليها بالبصائر، والراغبون ينظرون إليها بالأبصار؛ فيستوحش الزاهدُ ممَّا يأنس به الراغبُ. كما قيل:

وإذا أفاقَ القَلْبُ وانْدَمَلَ الهَوَى رَأتِ القُلُوبُ ولمْ تَرَ الأبْصارُ

وكذلك هذه الهمة تَحمِلُه على الرغبة في الباقي لِذاتِه؛ وهو الحقُّ سبحانه، والباقي بإبقائه: وهو الدارُ الآخرة.

(**وتُصفِّيهِ مِن كَدَرِ التَّواني**)؛ أي: تُخلِّصه وتُمحِّصُه من أوساخ الفُتور والتواني، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط. والله أعلم.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: هِمَّةٌ تُورِثُ أنَفةً مِنَ المُبالاةِ بالعِلَلِ، والنُّزُولِ على العَمَلِ، والثِّقةِ بالأمَلِ**).

فصاحب هذه الهمَّة: يأنَفُ على همَّتِه وقلبِه من أن يبالي بالعلل؛ فإنَّ همَّتَه فوقَ ذلك، فمبالاته بها، وفكرته فيها: نزولٌ من الهمة.

وعدم هذه المبالاة: إمَّا لأن العلل لم تحصُلْ له؛ لأنَّ علوَّ همَّتِه حالَ بينه وبينها، فلا يبالي بما لم يحصُلْ له، وإما لأنَّ همتَه وسَعةَ

مَطلبِه، وعلوَّه يأتي على تلك العِلل، ويستأصِلُها؛ فإنَّه إذا علَّق همتَه بما هو أعلى منها تضمَّنتها الهمةُ العالية، فاندرج حُكمُها في حُكم الهمَّةِ العالية، وهذا موضع غريبٌ عزيز جدًّا، وما أدري قصَدَه الشيخ أو لا؟

عالي الهمة مَطلبُه فوق مطلب العُمَّال والعُبَّاد

وأما أنفته من النزول على العمل: فكلام يحتاج إلى تقييد وتبيين، وهو أن العالي الهمة مَطلبُه العالي فوقَ مطلب العمَّال والعبَّاد، وأعلى منه؛ فهو يأنفُ أن يَنزِلَ من سماء مطلبِه العالي، إلى مجرَّدِ العمل والعبادة، دون السفر بالقلب إلى الله، ليحصُلَ له ويَفوزَ به. فإنَّه طالِبٌ لربِّه تعالى طلبًا تامًّا بكل معنى واعتبارٍ في عمله، وعبادتِه ومناجاته، ونَومِه ويقظته، وحركتِه وسكونه، وعُزلتِه وخلطته، وسائر أحواله، فقد انصبغ قلبُه بالتوجُّه إلى الله تعالى أيَّما صِبغة.

وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبَّةِ الصادقة؛ فهم لا يَقنَعون بمجرَّدِ رسوم الأعمال، ولا بالاقتصار على الطلب حالَ العمل فقط.

وأمَّا أَنفَتُه من الثقة بالأمل: فإنَّ الثقة تُوجِبُ الفتورَ والتواني، وصاحب هذه الهِمَّة ليس من أهل ذلك؛ كيف وهو طائرٌ لا سائر؟!

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: هِمَّةٌ تَتَصاعَدُ عنِ الأحْوالِ والمُعامَلاتِ، وتُزْرِي بالأعْواضِ والدَّرَجاتِ**).

أي: هذه الهِمةُ أعلى من أن يتعلَّق صاحبُها بالأحوال التي هي آثار الأعمال والواردات، أو يتعلَّقَ بالمعاملات، وليس المرادُ تعطيلَها؛ بل القيامُ بها مع عدمِ الالتفات إليها، والتعلُّقِ بها.

ووجه صعود هذه الهمة عن هذا ما ذكره من قوله: (**وتُزْرِي بالأعْواضِ والدَّرَجاتِ**)؛ أي: صاحبها لا يَقِفُ عند عِوضٍ ولا درجة؛ فإنَّ ذلك نزولٌ مِن همته، ومطلبُه أعلى من ذلك؛ فإنَّ صاحبَ هذه الهمَّةِ قد قصَرَ همَّتَه على المَطلبِ الأعلى، الذي لا شيءَ أعلى منه، والأعواض والدرجاتُ دُونه، وهو يعلم أنَّه إذا حصَل له فهناك كلُّ عِوَضٍ ودرجةٍ عالية.

مَنْزِلَةُ المَحَبَّةِ

وهي المنزلة التي فيها تنافَسَ المتنافِسون، وإليها شخَص العامِلون، وإلى عَلَمِها شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحِبُّون، وبرَوح نسيمِها تروَّحَ العابدون؛ فهي قُوتُ القلوب، وغذاءُ الأرواح، وقرَّةُ العيون، وهي الحياة التي من حُرِمَها فهو مِن جملة الأموات، والنورُ الذي مَن فقَدَه ففي بحار الظُّلُمات، والشفاءُ الذي مَن عُدِمه حلَّت بقلبه جميعُ الأسقام، واللذةُ التي مَن لم يَظفَرْ بها فعَيْشُه كلُّه همومٌ وآلام.

فضائل محبة الله

وهي رُوح الإيمانِ والأعمال، والمقاماتِ والأحوال التي متى خلتْ منها فهي كالجسد الذي لا رُوحَ فيه. تَحمِلُ أثقالَ السائرينَ إلى بلاد لم يكونوا إلا بشِقِّ الأنفُسِ بالغيها، وتوصِلُهم إلى منازلَ لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتُبَوِّئُهم من مقاعد الصِّدْقِ مقاماتٍ لم يكونوا لولا هي داخليها، وهي مطايا القوم التي مَسراهم على ظهورِها دائمًا إلى الحبيب، وطريقُهُمُ الأقْومُ الذي يُبَلِّغُهم إلى منازلهم الأُولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلُها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من مَعيَّةِ محبوبِهم أوفرُ نصيب، وقد قضى الله ـ يومَ قدَّر مقاديرَ الخلائق بمشيئته وحكمتِه البالغة ـ: أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمةٍ على المحبِّينَ سابِغة.

تالله لقد سبق القومُ السُّعاةُ وهُم على ظُهور الفُرُشِ نائمون، وقد تقدَّموا الرَّكْبَ بمراحلَ وهُم في سيرهم واقفون.

مَنْ لي بمِثْلِ سَيْرِكَ المُدَلَّلِ ... تَمشِي رُوَيْدًا وتَجِي في الأوَّلِ

أجابوا مؤذِّنَ الشَّوق إذْ نادى بهم: حيَّ على الفلاح، وبَذَلوا أنفسَهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بَذْلُهم بالرِّضا والسماح،

وواصلوا إليه المسيرَ بالإدلاج والغُدُوِّ والرَّواح، تالله لقد حمِدوا عند الوصول مَسْراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يَحمَدُ القومُ السُّرَى عند الصباح.

فحَيْهَلَا إنْ كُنتَ ذا هِمَّةٍ فقَدْ ... حَدَا بكَ حَادي الشَّوْقِ فاطْوِ [المَراحِلَا]
وقُلْ لِمُنادِي حُبِّهِم ورِضاهُمُ ... إذا ما دَعَا لَبَّيْكَ أَلْفًا كَوامِلَا
ولا تَنْظُرِ الأطْلالَ مِن دُونِهِم فإنْ ... نَظَرْتَ إلى الأطْلالِ عُدْنَ حَوائِلَا
ولا تَنْتظِرْ بالسَّيْرِ رِفْقةَ قاعِدٍ ... وَدَعْهُ فإنَّ الشَّوْقَ يَكفِيكَ حامِلَا
وخُذْ مِنْهُمُ زادًا إلَيهِمْ وسِرْ على ... طَرِيقِ الهُدَى والفَقْرِ تُصبِحُ واصِلَا
وأحْيِ بذِكْراهُمْ سُراكَ إذا وَنَتْ ... رِكابُكَ فالذِّكْرَى تُعيدُكَ عامِلَا
وإمَّا تَخافَنَّ الكَلالَ فقُلْ لها ... أمامَكِ وِرْدُ الوَصْلِ فابْغِ المَناهِلَا
وخُذْ قَبَسًا مِن نُورِهِمْ ثُمَّ سِرْ بِهِ ... فنُورُهُم يَهدِيكَ ليس المَشاعِلَا
وحَيَّ على وادِ الأراكِ فَقِلْ بِهِ ... عَساكَ تَراهُمْ فيهِ إنْ كُنتَ قائِلَا
وإلَّا ففي نُعْمَانَ عِندَ مُعرِّفِ الـ ... أحَبَّةِ فاطلُبْهُم إذا كُنتَ سائِلَا
وإلَّا ففي جَمْعٍ بلَيْلَتِهِ فإنْ ... تَفُتْ، فمتى؟ يا وَيْحَ مَن كان غافِلَا
وحَيَّ على جَنَّاتِ عَدْنٍ بقُرْبِهِمُ ... مَنازِلُكَ الأُولَى بها كُنتَ نازِلَا
ولكنْ سَبَاكَ الكاشِحُونَ لأجْلِ ذَا ... وَقَفْتَ على الأطْلَالِ تَبْكي المَنازِلَا
فدَعْها رُسُومًا دارِساتٍ فما بها ... مَقِيلٌ فجَاوِزْها فَلَيْستْ مَنازِلَا
رُسُومٌ عَفَتْ يَفْنَى بها الخَلْقُ كَمْ بها ... قَتِيلٌ؟ وكَمْ فيها لذا الخَلْقِ قَاتِلَا
وخُذْ يَمْنةً عنها على المَنْهَجِ الَّذي ... عليهِ سَرَى وَفْدُ المَحَبَّةِ آهِلَا
وقُلْ ساعِدِي يا نَفْسُ بالصَّبْرِ ساعةً ... فعِنْدَ اللِّقَا ذا الكَدُّ يُصبِحُ زائِلَا
فما هيَ إلَّا ساعةٌ ثُمَّ تَنقَضِي ... ويُصبِحُ ذُو الأحْزانِ فَرْحانَ جاذِلَا

أوَّلُ نقده مِن أثمان المحبَّة: بَذْلُ الرُّوح؛ فما للمُفلِسِ الجَبانِ البَخيلِ وسَوْمِها؟

تالله ما هزلتْ فيَستامُها المُفلِسون، ولا كسَدَتْ فيُنفقَها بالنَّسيئةِ المُعسِرون، لقد أُقيمَتْ للعَرض في سوقِ مَنْ يزيد، فلم يُرضَ لها بثمن دُون بَذْلِ النُّفوس، فتأخَّر البطَّالون، وقام المحِبُّون ينظرون، أيُّهم يَصلُحُ

أن يكون ثمنًا؟ فدارتِ السِّلعةُ بينهم، ووقعت في يد: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

البيِّنة على صحة دعوى المحبة

لما كثُر المدَّعون للمحبة طُولبوا بإقامة البيِّنةِ على صحَّةِ الدعوى؛ فلو يُعطى الناس بدعواهم لادَّعى الخَلِيُّ حُرقةَ الشَّجيِّ، فتنوَّع المدَّعون في الشهود، فقيل: لا تُقبَلُ هذه الدعوى إلا ببيِّنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخَّرَ الخلْقُ كلُّهم، وثبَتَ أتباعُ الحبيبِ في أفعاله وأقواله وأخلاقِه؛ فطُولِبوا بعدالة البيِّنة بتزكية:

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتأخَّر أكثرُ المحبِّينَ وقام المجاهِدون، فقيل لهم: إنَّ نفوس المحبِّينَ وأموالَهم ليست لهم، فهَلُمُّوا إلى بيعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فلمَّا عرَفوا عَظَمةَ المُشتري، وفضْلَ الثمن، وجلالةَ مَن جرى على يديه عقدُ التبايع؛ عرَفوا قدْرَ السِّلعة، وأن لها شأنًا، فرأوا من أعظم الغَبنِ أن يبيعوها لغيره بثمن بَخْسٍ، فعقَدوا معه بيعة الرِّضوانِ بالتراضي، من غير ثبوت خِيار، وقالوا: واللهِ لا نُقِيلُك ولا نَستَقِيلُك.

فلمَّا تمَّ العقدُ وسلَّموا المَبيع، قيل لهم: مُذْ صارتْ نفوسُكم وأموالُكم لنا رَدَدْناها عليكم أوْفرَ ما كانت، وأضعافَها معًا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

إذا غُرِستْ شجرةُ المحبَّةِ في القلب، وسُقِيَتْ بماء الإخلاص، ومتابعةِ الحبيب؛ أثمرَتْ أنواعَ الثِّمار، وآتتْ أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربِّها، أصْلُها ثابتٌ في قرار القلب، وفرْعُها متَّصِلٌ بسِدرة المنتهى.

لا يزالُ سَعْيُ المحِبِّ صاعِدًا إلى حبيبه، لا يحجُبُه دُونَه شيءٌ:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

* * *

حدود المحبة ومفهومها

لا تُحَدُّ المحبةُ بحدٍّ أوضحَ منها؛ فالحدود لا تَزيدُها إلَّا خفاءً وجفاء، فحدُّها وجودُها، ولا توصف المحبةُ بوصفٍ أظهَرَ من المحبة.

وإنَّما يتكلَّمُ الناس في أسبابها وواجباتِها، وعلاماتِها وشواهدها، وثمراتِها وأحكامها، فحدودُهم ورسومُهم دارتْ على هذه السِّتَّة، وتنوَّعتْ بهِمُ العِبارات، وكثُرتِ الإشارات، بحسَب إدراكِ الشَّخصِ ومقامِه وحاله، وملكِه للعبارة.

وهذه المادة تدور في اللُّغة على **خمسة أشياءَ**:

أحدها: الصفاء والبياض، ومنه قولُهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَبَ الأسنان.

الثاني: العلوُّ والظُّهور، ومنه: حَبَبُ الماء وحَبابه، وهو ما يَعلُوه عند المطر الشديد، وحَبَبُ الكأس منه.

الثالث: اللُّزوم والثبات، ومنه: حَبَّ البعيرُ وأحَبَّ، إذا برَك ولم يَقُمْ. قال الشاعر:

حَلَّتْ عليهِ بالفَلَاةِ ضَرْبَا ... ضَرْبَ بَعِيرِ السّوءِ إذْ أحَبَّا

الرابع: اللُّبُّ، ومنه: حبَّةُ القلب، للُبِّه وداخله. ومنه: الحبةُ لواحدة الحبوب؛ إذْ هي أصلُ الشيءِ ومادَّتُه وقِوامُه.

الخامس: الحفظ والإمساك، ومنه: حُبُّ الماءِ، للوعاء الذي يُحفَظ فيه ويُمسِكُه، وفيه معنى الثبوتِ أيضًا.

ولا ريب أن هذه الخمسةَ من لوازم المحبَّة؛ فإنها صفاءُ المودة، وهَيَجانُ إرادات القلب للمحبوب، وعُلُوُّها وظهورها منه لتعلُّقها بالمحبوب المراد، وثبوتُ إرادة القلب للمحبوب، ولزومُها لزومًا لا يفارِق، ولإعطاء المحبِّ محبوبَه لبَّه، وأشرفَ ما عنده، وهو قلبُه، ولاجتماع عزَماتِه وإراداتِه وهمومَه على محبوبه.

فاجتمعت فيها المعاني الخمسةُ، ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمى غايةَ المناسبة: «الحاء» التي هي من أقصى الحلق، و«الباء» الشفهية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبَّةِ وتعلُّقِها بالمحبوب؛ فإن ابتداءها منه وانتهاءَها إليه.

وقالوا في فعلها: حَبَّه وأحَبَّه، وأعطوا «**الحُب**» حركة الضم التي هي أشدُّ الحركات وأقواها؛ مطابقةً لشدة حركة مسمَّاه وقوَّتِها، وأعطوا الحِبَّ ـ وهو المحبوب ـ حركةَ الكسر؛ لخِفَّتِها عن الضمة، وخفَّةِ المحبوب، وذكره على قلوبهم وألسنتهم.

فتأمَّلْ هذا اللطفَ والمطابقة والمناسبةَ العجيبة بين الألفاظ والمعاني، تُطلعك على قدْر هذه اللُّغة، وأنَّ لها شأنًا ليس لسائر اللُّغات.

* * *

ذِكر رسوم وحدود قيلت في المحبة

تعريفات المحبَّة

قيل: المحبة: المَيلُ الدائم، بالقلب الهائم.

[وقيل]: إيثار المحبوب، على جميع المصحوب.

[وقيل]: مواطأة القلب لمرادات المحبوب.

[وقيل]: استكثار القليل من جنايتك، واستقلالُ الكثير من طاعتك.

[وقيل]: معانقة الطاعة، ومباينةُ المخالفة.

[وقيل]: أن تَهَبَ كلَّك لمَن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء.

[وقيل]: إرادة غُرست أغصانُها في القلب، فأثمرَتِ الموافقةَ والطاعة.

[وقيل]: المحبة سَفر القلب في طلب المحبوب، ولَهَجُ اللسان بذِكره على الدوام.

تعريف المحبة الجامع

[بعدما ساق ابنُ القيِّم تِسعةً وعشرين تعريفًا للمحبَّةِ قال]:

الثلاثون: وهو مِن أجمع ما قيل فيها، قال أبو بكر الكَتَّانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «جرَتْ مسألة في المحبَّةِ بمكَّةَ - أعزَّها الله - أيامَ المَوسم، فتكلَّم الشيوخ فيها، وكان الجُنَيدُ أصغرَهم سِنًّا، فقالوا: هاتِ ما عندك يا عراقيُّ، فأطرق رأسه، ودمعتْ عيناه، ثم قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسِه، متَّصِلٌ بذكر ربِّه، قائم بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرق قلبَه أنوارُ هَيبتِه، وصفَا شُربُه من كأس وُدِّه، وانكشف له الجبار مِن أستار غيبه، فإنْ تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرَّك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله.

فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مَزيدٌ، جبَرَك اللهُ يا تاجَ العارفين».

* * *

الأسباب العشرة الجالبة للمحبة

الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبةِ لها عشَرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبُّر والتفهُّم لمعانيه وما أُريد به، كتدبُّر الكتابِ الذي يحفظه العبد [ويشرحه]، ليتفهَّمَ مرادَ صاحبِه منه.

الثاني: التقرُّب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض؛ فإنَّها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكرِه على كلِّ حال؛ باللسان والقلب، والعملِ والحال، فنصيبه من المحبة على قدْرِ نصيبِه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابِّه على محابِّك عند غلبات الهوى، والتَّسَنُّم إلى محابِّه، وإن صعُب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاتِه، ومشاهدتُها ومعرفتها، وتقلُّبُه في رياض هذه المعرفة وميادينها، فمَن عرَف الله بأسمائه وصفاتِه وأفعالِه: أحبَّه لا محالة؛ ولهذا كانت المعطِّلةُ والفِرعونيةُ والجَهميَّةُ قطَّاعَ الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بِرِّه وإحسانه وآلائه، ونِعَمِه الباطنة والظاهرة؛ فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها: انكسارُ القلب بكلِّيَّتِه بين يديه، وليس في التعبير عن هذا المعنى غيرُ الأسماء والعبارات.

الثامن: الخَلوةُ به وقتَ النزول الإلٰهيِّ؛ لمناجاته وتلاوةِ كلامه، والوقوف بالقلب والتأدُّب بأدب العبودية بين يديه، ثم خَتْمُ ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبِّينَ الصادقين، والتِقاطُ أطايبِ ثمراتِ كلامِهم كما يُنتقي أطايبُ الثمر، ولا تتكلم إلَّا إذا ترجَّحتْ مصلحةُ الكلام، وعلِمتَ أنَّ فيه مَزيدًا لحالك، ومنفعةً لغيرك.

العاشر: مباعدة كلِّ سببٍ يَحول بين القلب وبين الله ﷻ.

فمِن هذه الأسباب العشَرةِ: وصَلَ المحبُّون إلى منازلِ المحبة، ودخلوا على الحبيب، ومِلاكُ ذلك كلِّه أمْران: استعدادُ الرُّوح لهذا الشأن، وانفتاحُ عينِ البصيرة. والله المستعان.

* * *

منهج أهل السُّنَّة والجماعة في إثبات صفة المحبة

والكلام في هذه المنزلة يتعلَّق بطرَفين: طرَف محبَّةِ العبد لربِّه، وطرَفِ محبَّةِ الربِّ لعبده. والناسُ في إثبات ذلك ونَفْيِه أربعة أقسام: فأهل السُّنَّةِ والجماعة يُحبُّهم ويُحبُّونه على إثبات الطرَفين، وأن محبة العبد لربِّه فوقَ كلِّ محبة تُقدَّر، ولا نسبة لسائر المَحابِّ إليها؛ وهي حقيقة لا إلٰه إلا الله، وكذلك عندهم محبةُ الرَّبِّ لأوليائه وأنبيائِه ورُسُلِه: صفةٌ زائدة على رحمته، وإحسانِه وعطائه؛ فإنَّ ذلك أثرُ المحبة وموجبُها؛ فإنَّه لمَّا أحبَّهم كان نصيبُهم من رحمته وإحسانِه وبِرِّه أتمَّ نصيبٍ.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فأخبر أنَّ مَن أحبَّ مِن دون الله شيئًا، كما يُحبُّ الله تعالى: فهو

ممَّن اتَّخذ مِن دون الله نِدًّا، فهذا نِدٌّ في المحبة، لا في الخلْق والربوبية؛ فإنَّ أحدًا من أهل الأرض لم يُثبِتْ هذا النِّدَّ في الربوبية، بخلاف نِدِّ المحبة؛ فإن أكثر أهلِ الأرض قد اتَّخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وفي تقدير الآية **قولان**:

أحدهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، من محبة المشركين بالأنداد لله؛ فإنَّ محبة المؤمنينَ خالصة، ومحبة أصحابِ الأنداد قد ذهبت أندادُهم بقِسط منها، والمحبة الخالصة: أشدُّ من المشتركة. والقولان مرتَّبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فإنَّ فيها **قولَينِ** أيضًا:

أحدهما: يُحبُّونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبةَ الله، ولكنها محبةٌ شَرِكوا فيها مع الله أندادًا.

والثاني: أن المعنى يحبُّون أندادَهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بيَّن أن محبة المؤمنينَ لله أشدُّ من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرجِّح القول الأوَّل، ويقول: «إنما ذُمُّوا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يُخلِصوها لله كمحبة المؤمنينَ له».

دليل المحبة وثمرتها

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذه تسمَّى آيةَ المحبة. قال أبو سليمانَ الدَّارانيُّ: «لمَّا ادَّعتِ القلوبُ محبةَ الله: أنزل الله لها محنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]».

قال بعض السلف: «ادعى قومٌ محبَّةَ الله، فأنزل الله آيةَ المحبة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]».

وقال: (﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]) إشارة إلى دليل المحبة وثمرتِها وفائدتها. فدليلُها وعلامتها: اتِّباع الرسولِ ﷺ، وفائدتها وثمرتُها: محبَّة المرسَلِ لكم، فما لم تحصُلِ المتابعة، فلا محبَّتُكم له حاصلة، ومحبَّتُه لكم منتفية.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ [المائدة: ٥٤]، ذكر لهم **أربع علامات**:

أحدها: أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، قيل: معناه: أرِقَّاءَ، رُحماءَ، مُشفِقين عليهم، عاطِفين؛ فلمَّا ضمَّن ﴿أَذِلَّةٍ﴾ هذا المعنى عدَّاه بأداة ﴿عَلَى﴾. قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيِّده.

[العلامة الثانية]: وعلى الكافرين كالأسد على فريسته: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفْس واليد، واللسانِ والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنَّهم لا تأخُذُهم في الله لَومةُ لائم؛ وهذا علامة صحَّةِ المحبَّة، فكلُّ محبٍّ أخَذه اللَّومُ عن محبوبه فليس بمحِبٍّ على الحقيقة.

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فذكر المقاماتِ الثلاثَ: الحب؛ وهو ابتغاء القُرب إليه، والتوسُّل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء والخوف: يدلُّ على أنَّ ابتغاءَ الوسيلة أمرٌ زائد على رجاء الرحمة وخوفِ العذاب.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ [الإنسان: ٩].

غاية أعمال الأبرار والمقرَّبين والمحبِّين

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾ [الليل: ١٩، ٢٠]، فجعل غاية أعمال الأبرار والمقرَّبينَ والمحبِّينَ: إرادةَ وجهِه.

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾ [الأحزاب: ٢٩]، فجعل إرادتَه غيرَ إرادةِ الآخرة.

وهذه الإرادةُ لوجهِه موجِبةٌ للذَّةِ النَّظر إليه في الآخرة، كما في صحيحَي الحاكم وابن حِبَّانَ، في الحديث المرفوع عن النبيِّ ﷺ: أنَّه كان يدْعو: **«اللَّهُمَّ بعِلمِكَ الغَيْبَ، وقُدْرَتِك على الخَلْقِ؛ أحْيِني إذا كانتِ الحَياةُ خَيْرًا لي، وتَوفَّني إذا كانَتِ الوَفاةُ خَيْرًا لي، وأسْألُكَ خَشْيَتَكَ في الغَيْبِ والشَّهادةِ، وأسألُكَ كَلِمةَ الحَقِّ في الغَضَبِ والرِّضا، وأسألُكَ القَصْدَ في الفَقْرِ والغِنَى، وأسألُكَ نَعِيمًا لا يَنفَدُ، وأسألُكَ قُرَّةَ عَينٍ لا تَنقَطِعُ، وأسألُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضاءِ، وأسألُكَ بَرْدَ العَيشِ بَعْدَ المَوتِ، وأسألُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ، وأسألُكَ الشَّوقَ إلى لِقائِكَ، في غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتْنةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بزِينةِ الإيمانِ، واجْعَلْنا هُداةً مُهْتَدِينَ»**[١].

فقد اشتمل هذا الحديث الشريفُ على ثبوت لذَّةِ النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه.

وفي «الصحيحين»، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيهِ وَجَدَ بهِنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: أنْ يَكُونَ اللهُ ورَسُولُه أحَبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّه إلَّا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في**

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (١٣٠٥)، وأبو يعلى (١٦٢٤)، وابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١٩٢٣) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٩٧).

الكُفْرِ ـ بَعْدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنهُ ـ كما يَكرَهُ أنْ يُلْقَى في النَّارِ»[١].

وفي «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقولُ اللهُ تعالى: مَن عادَى لي وَلِيًّا فقدْ آذَنْتُه بالحَرْبِ، وما تَقرَّبَ إليَّ عَبدِي بشَيءٍ أحَبَّ إليَّ مِن أداءِ ما افْتَرَضْتُه عليهِ، ولا يَزالُ عَبدِي يَتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه؛ فإذا أحبَبْتُه كُنتُ سَمْعَه الَّذي يَسْمَعُ بِه، وبَصَرَه الَّذي يُبصِرُ بِه، ويَدَهُ الَّتي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه الَّتي يَمشِي بها، ولَئِنْ سألَني لَأُعْطِيَنَّه، ولَئِنْ استَعاذَني لَأُعِيذَنَّه**»[٢].

وفي «الصحيحين» عنه أيضًا، عن النبيِّ ﷺ: «**إذا أحَبَّ اللهُ العَبدَ دَعَا جِبْرِيلَ، فقال: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا، فأحِبَّه؛ فيُحِبُّه جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادي في السَّماءِ، فيَقُولُ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّه أهْلُ السَّماءِ، ثمَّ يُوضَعُ لهُ القَبُولُ في الأرضِ**»[٣]. وذَكَر في البغض عكسَ ذلك.

وفي «الصحيحين» عن عائشةَ ﵂ في حديث أمير السَّريةِ الذي كان يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ لأصحابه في كل صَلاة، وقال: لأنَّها صِفةُ الرَّحمٰنِ، فأنا أُحِبُّ أن أقرأ بها، فقال النبيُّ ﷺ: «**أخْبِروهُ أنَّ اللهَ يُحِبُّه**»[٤].

وفي «جامع الترمذي»، من حديث أبي إدريسَ الخَوْلانيِّ، عن أبي الدَّرداء ﵁، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**كان مِن دُعاءِ داودَ** ﷺ: **اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ حُبَّكَ، وحُبَّ مَن يُحِبُّكَ، والعَمَلَ الَّذي يُبلِّغُني حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أحَبَّ إليَّ مِن نَفْسي وأهْلي، ومِنَ الماءِ البارِدِ**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٤٩٠)، والبزار (١٠/ ٤٠٨٩)، والحاكم (٣٦٢١)، وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بقوله: بل عبد الله بن يزيد الدمشقي هذا قال أحمد: «أحاديثه موضوعة»، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١١٢٥).

وفيه أيضًا، من حديث عبد الله بن يزيدَ الخَطْميِّ: «أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ ارْزُقْني حُبَّكَ، وحُبَّ مَن يَنفَعُني حُبُّه عِندَكَ، اللَّهُمَّ ما رَزَقْتَني ممَّا أُحِبُّ فاجعَلْهُ قوَّةً لي فيما تُحِبُّ، وما زَوَيْتَ عَنِّي ممَّا أُحِبُّ فاجعَلْهُ فَراغًا فيما تُحِبُّ**»[1].

القرآن والسُّنَّة مملوآن بذِكر ما يحبه الله

والقرآن والسُّنَّةُ مَملوآن بذكرِ مَن يحِبُّه اللهُ سبحانه من عِبادِه، وذِكرِ ما يحبُّه مِن أعمالِهم وأقوالِهم وأخلاقهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]، [وقوله تبارك وتعالى]: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله في ضدِّ ذلك: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٣]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٥٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

وكَمْ في السُّنَّة: «أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ كذا وكذا»، و«إنَّ اللهَ يُحِبُّ كذا وكذا»؛ كقوله: «**أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ: الصَّلاةُ على وَقْتِها، ثُمَّ بِرُّ الوالِدَيْنِ، ثمَّ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ**»[2]، و«**أحَبُّ الأعْمالِ إلى اللهِ: الإيمانُ باللهِ، ثمَّ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ، ثمَّ حَجٌّ مَبْرُورٌ**»[3]، و«**أحَبُّ العَمَلِ إلى اللهِ: ما داوَمَ عليهِ صاحِبُه**»[4]، وقوله: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِه**»[5].

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٩١)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٧٢).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٧، ٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣).
(٤) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).
(٥) أخرجه أحمد (٥٨٦٦). وصحَّحه الألباني في «إرواء الغليل» (٣/ ٩).

وأضعاف أضعاف ذلك، وفرَحُه العظيم بتوبة عبدِه الذي هو أشدُّ فرَحٍ يَعلَمُه العِباد، وهو مِن محبَّتِه للتوبة وللتائب.

اشتمال منزلة المحبة على جميع مقامات الإيمان والإحسان

فلو بَطَلَتْ مسألةُ المحبة لبطلَتْ جميعُ مقامات الإيمانِ والإحسان، ولتعطَّلتْ منازلُ السَّير إلى الله.

فإنها رُوح كلِّ مقام ومنزلةٍ وعملٍ؛ فإذا خلا منها فهو ميت لا رُوح فيه، ونِسبتُها إلى الأعمال كنسبة الإخلاصِ إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفْسُ الإسلام؛ فإنَّه الاستسلام بالذُّلِّ والحبِّ والطاعة لله، فمَن لا محبَّةَ له لا إسلامَ له البْتَّةَ؛ بل هي حقيقة شهادة أن لا إلٰه إلا الله؛ فإنَّ «الإلٰه» هو الذي يَألَهُه العِبادُ حبًّا وذُلًّا، وخوفًا، ورجاءً، وتعظيمًا، وطاعةً.

أله: بمعنى «مألوه»، وهو الذي تألَهُه القلوب؛ أي: تُحبُّه وتَذَلُّ له.

التألُّه والتعبُّد أعلى مراتب محبة الله تعالى

وأصل «التَّألُّه» التعبُّد، و«التعبُّد» آخِرُ مراتبِ الحبِّ. يقال: عبَّده الحبُّ وتيَّمَه: إذا ملَكه وذلَّله لمَحبوبِه.

فـ«المحبة» حقيقةُ العبودية، وهل يُمكِنُ الإنابةُ بدون المحبَّةِ والرضا، والحمدِ والشكر، والخوفِ والرجاء؟ وهل الصبرُ في الحقيقة إلَّا صبرُ المحبِّينَ؟ فإنَّهم إنَّما يتوكَّلون على المحبوب في حصول محابِّه ومراضيه.

وكذلك «الزهد» في الحقيقة: هو زهدُ المحبِّينَ؛ فإنَّهم يَزهَدون في محبَّةِ ما سِواه لمحبته.

وكذلك «الحياء» في الحقيقة: إنَّما هو حياءُ المحبِّين؛ فإنه يتولَّدُ مِن بين الحبِّ والتعظيم، وأمَّا ما لا يكون عن محبة: فذلك خوفٌ مَحضٌ.

فقر الأرواح إلى محبوبها هو أعلى أنواع الفقر

وكذلك مقامُ الفقر؛ فإنَّه في الحقيقة فقرُ الأرواح إلى محبوبها، وهو أعلى أنواعِ الفقر؛ فإنَّه لا فقرَ أتمُّ من فقر القلب إلى مَن يحبُّه، لا سيما إذا وجده في الحب، ولم يَجِدْ منه عِوضًا سواه، وهذه حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك «الغنى» هو غنى القلبِ بحصول محبوبه، وكذلك الشوق إلى الله تعالى ولقائِه؛ فإنَّه لُبُّ المحبَّةِ وسِرُّها كما سيأتي.

ذمُّ مُنكِر المحبة ومُعطِّلِها من القلوب

فمنكِرُ المَحبَّة ومعطِّلُها من القلوب: معطِّلٌ لذلك كلِّه، وحجابُه أكثَفُ الحُجُب، وقلبه أقسى القلوب، وأبعدها عن الله، وهو منكِرٌ لخُلَّةِ إبراهيمَ ﵇؛ فإنَّ الخُلَّةَ كمالُ المَحبَّة، وهو يتأوَّل الخليلَ بالمحتاج؛ فخليلُ الله عنده: هو المحتاج! فكم ـ على قوله ـ لله من خليل مِن بَرٍّ وفاجر، بل مؤمنٍ وكافر؛ إذْ كثير مِن الكفار مَن ينزل حوائجَه كلَّها بالله صغيرَها وكبيرها، ويرى نفسَه أحوجَ شيء إلى ربه في كلِّ حالة.

فلا بالخُلَّةِ أقَرَّ المنكِرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلٰهية، ولا بحقائق الإسلامِ والإيمان والإحسان.

* * *

مراتب المحبة

أولها: العَلاقة، وسُمِّيتْ عَلاقة؛ لتعلُّق القلبِ بالمحبوب.

قال الشاعر:

أعَلاَقةً أُمَّ الوُلَيِّدِ بُعَيدَ ما ... أفْنَانُ رَأْسِكِ كالثُّغَامِ المُخْلِسِ

الثانية: الإرادة، وهي مَيْلُ القلب إلى محبوبه وطلَبُه له.

[الثالثة]: الوداد، وهو صفْو المحبة، والوَدود من أسماء الرَّبِّ تعالى، وفيه **قولان**:

ـ **أحدهما**: أنه المودود. قال البخاريُّ ﵀ في «صحيحه»: «الودود: الحبيب».

ـ **والثاني**: أنه الوادُّ لعبادِه؛ أي: المُحِبُّ لهم، وقَرَنه باسمه «الغفور»؛ إعلامًا بأنه يغفر الذنبَ، ويُحِبُّ التائبَ منه، ويَوَدُّه، فحظُّ التائب: نَيْلُ المغفرةِ منه.

[الرابعة]: التعبد، وهو فوق التتيُّم؛ فإنَّ العبد الذي قد ملك المحبوب رِقَّه فلم يبقَ له شيء من نفسه البتَّةَ، بل هو كله عبد لمحبوبه

ظاهرًا وباطنًا، وهذه هي حقيقة العبودية، ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولمَّا كَمَّل سيدُ ولدِ آدمَ هذه المرتبةَ؛ وصفه الله بها في أشرفِ مقاماته؛ مقام الإسراء، كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

فسمِعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «فحَصَلتْ له تلك المرتبةُ بتكميل عُبوديته لله تعالى، وكمالِ مغفرة الله له».

وحقيقة العبودية: الحبُّ التامُّ مع الذُّلِّ التامِّ والخضوعِ للمحبوب؛ تقول العرب: طريقٌ معبَّدٌ؛ أي: قد ذلَّلَتْه الأقدامُ وسهَّلَتْه.

[الخامسة]: مرتبة الخُلَّة التي انفرد بها الخليلان ـ إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ـ كما صحَّ عنه أنه قال: «**إنَّ اللهَ اتَّخَذَني خَليلًا، كما اتَّخَذَ إبراهيمَ خَليلًا**»[(١)].

وقال: «**لو كُنتُ مُتَّخِذًا مِن أهلِ الأرضِ خَليلًا، لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خَليلًا، ولكنَّ صاحِبَكُم خَليلُ الرَّحمٰنِ**»[(٢)]. والحديثان في «الصحيح».

وهُما يُبطِلان قولَ مَن قال: «الخُلَّة» لإبراهيمَ، و«المحبةُ» لمحمد، فإبراهيمُ خليلُه ومحمد حبيبه.

سر أمر الخليل بذبح ولده

و«الخُلَّة»: هي المَحبَّةُ التي قد تخلَّلَتْ رُوحَ المحِبِّ وقلْبَه، حتى لم يَبقَ فيه موضعٌ لغير المحبوب، كما قيل:

قدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... ولذا سُمِّيَ الخَليلُ خَليلا

وهذا هو السِّرُّ الذي لأجله ـ والله أعلم ـ أمر الخليل بذبْح ولده، وثمرة فؤاده وفلذة كبده؛ لأنه لما سَأل الولد فأُعطيَه، تعلقتْ به شُعبةٌ من قلبه، والخلة مَنصِبٌ لا يقبل الشركة والقسمة، فغارَ الخليل على خليله: أنْ يكون في قلبه موضعٌ لغيره؛ فأمره بذبح الولد ليخرجَ المزاحم من قلبه.

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٦/٢٣٨٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بلفظ: «**خليل الله**».

فلمَّا وطَّنَ نفْسَه على ذلك، وعزَم عليه عزمًا جازمًا؛ حصَل مقصودُ الأمر، فلم يَبقَ في إزهاق نفْس الولد مصلحةٌ، فحال بينه وبينه، وفداه بالذِّبح العظيم، وقيل له: ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]؛ أي: عملت عمل المصدق: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠﴾ [الصافات: ٨٠]، نَجزي مَن بادَر إلى طاعتنا، فنقر عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرِنا، وإبقاء الولد وسلامته: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَـٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات: ١٠٦]، وهو اختبار المحبوب لمُحبِّه، وامتحانه إياه ليؤْثرَ مرضاته، فيتم نعمتَه عليه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معًا.

وهذه الدعوة إنما دعا الله بها خواصَّ خلْقِه، وأهلَ الألباب والبصائر منهم، فما كلُّ أحد يجيب داعيَها، ولا كل عينٍ قَريرةٌ بها، وأهلها هُمُ الذين حصَلوا في وسط قبضة اليمين يوم القبضتين، وسائر أهل اليمين في أطرافها.

فما كُلُّ عَيْنٍ بالحَبيبِ قَرِيرةٌ ... ولا كُلُّ مَن نُودِي يُجِيبُ المُنادِيَا
ومَن لمْ يُجِبْ دَاعيْ هُداكَ فخَلِّهِ ... يُجِبْ كُلَّ مَن أضحَى إلى الغَيِّ دَاعِيَا
وقُلْ لِلعُيُونِ الرُّمْدِ: إيَّاكِ أنْ تَرَيْ ... سَنَا الشَّمسِ فاسْتَغْشي ظَلامَ اللَّيالِيَا
وسامِحْ نُفُوسًا لمْ تَهَيَّأ لِحُبِّهِمْ ... ودَعْهَا وما اخْتارَتْ ولا تَكُ جافِيَا
فكُنْ أبدًا حيثُ استَقَلَّتْ رَكائِبُ الـ ... مَحَبَّةِ في ظَهْرِ العَزائِمِ سارِيَا
وأدْلِجْ ولا تَخْشَ الظَّلامَ فإنَّهُ ... سيَكْفِيكَ وَجْهُ الحُبِّ في اللَّيْلِ هادِيَا
وسُقْهَا بذِكْراهُ مَطاياكَ إنَّهُ ... سيَكْفِي المَطايا طِيبُ ذِكْراهُ حادِيَا
وعِدْها بروحِ الوَصْلِ تُعطِيكَ سَيْرَها ... فما شِئْتَ واسْتَبْقِ العِظامَ البَوالِيَا
وأقْدِمْ فإمَّا مُنْيَةٌ أو مَنِيَّةٌ ... تُرِيحُكَ مِن عَيشٍ بهِ لستَ راضِيَا

قال [صاحب «المنازل»]: **(ما دُونَها: أغْراضٌ لِأعْواضٍ)**.

يعني: ما دون المحبَّةِ من المقامات: فهي أغراض من المخلوقينَ لأجلِ أعواض ينالونها، وأمَّا المحبون: فإنَّهم عبيد له، والعبد ونفْسه وعمَله ومنافعه ملك لسيِّده؛ فكيف يُعاوضه على مُلكه؟ والأجير عند

أخذِ أجره ينصرف، والعبدُ في الباب لا ينصرف، فلا عُبودية إلا عبودية أهل المَحبَّة الخالصة، أولئك هم الفائزون بشَرَف الدنيا والآخِرة، وأولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

المحبة سِمَة المسافرين إلى ربهم

قال: (**والمَحَبَّةُ هيَ سِمَةُ الطَّائِفةِ، وعُنْوانُ الطَّريقةِ، ومَعْقِدُ النِّسْبةِ**).

يعني: سِمَةَ هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم، الذين ركِبوا جَناح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق، وقعد من سواهم على الرسوم.

و(**عُنْوانُ طَريقَتِهِم**)؛ أي: دليلها؛ فإن العنوان يدلُّ على الكتاب، والمحبة تدل على صدق الطالب، وأنه من أهل الطريق.

(**ومَعْقِدُ النِّسْبةِ**)؛ أي: النسبة التي بين الرب وبين العبد؛ فإنَّه لا نِسبةَ بين الله وبين العبد إلا محض العبوديَّة من العبد والربوبيَّة من الربِّ، وليس في العبد شيءٌ من الألوهية، ولا في الربِّ شيء من العبودية؛ فالعبدُ عبدٌ من كلِّ وجه، والربُّ تعالى هو الإله الحق من كل وجه، ومعقد نِسبة العبودية هو المحبة؛ فالعبوديَّة معقودة بها؛ بحيث متى انحلَّت المحبة انحلَّت العبودية. والله أعلم.

درجات المحبة

قال: (**وهيَ على دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولَى: مَحَبَّةٌ تَقْطَعُ الوَساوِسَ، وتَلَذُّ الخِدْمَةَ، وتُسَلِّي عنِ المَصائِبِ).

قوله: (**تَقطَعُ الوَساوِسَ**)، فإنَّ الوساوس والمحبةَ متناقضتان؛ فإنَّ المحبة توجب استيلاءَ ذِكرِ المحبوب على القلب، والوساوس تقتضي غيبتَه عنه.

قوله: (**وتَلَذُّ الخِدْمَةَ**)؛ أي: المحبُّ يَلتَذُّ بخدمة محبوبِه، فيرتفع عن رؤية التعب الذي يراه الخلي في أثناء الخدمة، وهذا معلوم بالمشاهدة.

قوله: (**وتُسَلِّي عنِ المَصائِبِ**)، فإنَّ المحبَّ يجد في لذَّة المَحبَّة ما

ينسيه المصائب، ولا يجِد مَن مَسَّها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعةً ثانية ليستْ بطبيعة الخلق، بل يَقوَى سلطان المحبة، حتى يلتذَّ المحبُّ بكثير من المصائب التي يُصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخلي بحُظوظه وشهواته، والذوق والوجود شاهد بذلك، والله أعلم.

أهمية مطالعة العبد مِنَّة الله عليه

قال: (**وهيَ مَحَبَّةٌ تَنبُتُ مِن مُطالَعةِ المِنَّةِ، وتَثْبُتُ باتِّباعِ السُّنَّةِ، وتَنْمُو على الإجابةِ بالفاقةِ**).

قوله: (**تَنبُتُ مِن مُطالعةِ المِنَّةِ**)؛ أي: تنشأ من مطالعة العبد مِنَّة الله عليه، ونِعمه الباطنة والظاهرة، فبَقَدْر مطالعته ذلك تكون قوَّة محبته؛ فإنَّ القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبُغض مَن أساء إليها: وليس للعبد قط إحسان إلا مِن الله: ولا إساءة إلا من الشيطان.

ومِن أعظم مطالعة مِنَّة الله على عبده منَّة تأهيله لمحبَّته ومعرفته، وإرادة وجهه، ومتابعة حبيبه. وأصلُ هذا: نور يقذفه الله في قلب العبد؛ فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته؛ أشرقتْ له ذاته، فرأى فيه نفسه، وما أهلت له من الكمالات والمحاسن، فعلت به همته، وقويت عزيمته، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرد أحدهما صاحبه، فرقيت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

نَقِّلْ فُؤادَكَ حيثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى ... ما الحُبُّ إلَّا لِلحَبيبِ الأوَّلِ
كَمْ مَنزِلٍ في الأرضِ يَألَفُهُ الفَتَى ... وحَنِينُهُ أبدًا لأوَّلِ مَنزِلِ

وهذا النور كالشمس في قلوب المقربين السابقين، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين، وكالنجم في قلوب عامة المؤمنين، وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسهى.

قوله: (**وَتَثبُتُ باتِّباعِ السُّنَّةِ**)؛ أي: ثباتها إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ في أعماله، وأقواله وأخلاقه؛ فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها، وبحسب نقصانه يكون نقصانها، كما تقدم: أن هذا الاتِّباع يوجب المحبةَ والمحبوبية معًا، ولا يتم الأمر إلا

بهما، فليس الشأنُ في أن تحب الله، بل الشأن في أن يُحبَّكَ الله، ولا يحبك الله إلا إذا اتَّبَعْتَ حبيبه ظاهرًا وباطنًا، وصدَّقْتَه خبرًا، وأطَعْتَه أمْرًا، [وأجبته] دعوةً، وآثَرْتَه طَوعًا، وفنيْتَ عن حُكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تتعب، وارجع من حيث شِئتَ فالتمس نورًا، فلست على شيء.

وتأمَّل قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ أي: الشأن في أنَّ الله يُحبُّكم، لا في أنَّكم تُحبُّونه، وهذا لا تنالونه إلا باتِّباع الحبيب ﷺ.

أعلى مشاهد العبد وأنفعه له

قوله: **(وتَنْمُو على الإجابةِ بالفاقةِ)**؛ الإجابة بالفاقة: أن يجيب الداعي بوفور الأعمال، وهو خال منها، كأنه لم يعملها، بل يجيب دعوته بمجرد الإفلاس والفقر التام؛ فإنَّ طريقةَ الفقر والفاقة: تأبى أن يكون لصاحبها عمل، أو حال أو مقام، وإنما يدخل على ربه بالإفلاس المحض، والفاقة المجرَّدة، ولا ريبَ أنَّ المحبة تنمو على هذا المشهد، وهذه الإجابة، وما أعزَّه مِن مقام، وأعلاه من مشهد، وما أنفَعَه للعبد، وما أجلبَه للمحبة! والله المستعان.

أهمية مطالعة صفات الله وكماله وجلاله

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: مَحَبَّةٌ تَبْعَثُ على إيثارِ الحَقِّ على غَيرِه، وتُلْهِجُ اللِّسانَ بذِكْرِه، وتُعلِّقُ القَلْبَ بشُهُودِه، وهيَ مَحَبَّةٌ تَظهَرُ مِن مُطالَعةِ الصِّفاتِ، والنَّظَرِ إلى الآياتِ، والارْتِياضِ بالمَقاماتِ)**.

هذه الدرجة الثانية أعلى ممَّا قبلها، باعتبار سببها وغايتها؛ فإنَّ سببَ الأولى: مطالعةُ الإحسان والمِنَّة، وسببَ هذه: مطالعةُ الصفات، وشهودُ معاني آياته المسموعة، والنظرُ إلى آياته المشهودة، وحصولُ المَلَكة في مقامات السلوك، وهو الارتياض بالمقامات. وكذلك كانت غايتها أعلى من غاية ما قبلها.

فقوله: **(تَبعَثُ على إيثارِ الحَقِّ على غَيرِه)**؛ أي: لكمالها وقوَّتها

تقتضي من المحبَّ أن يترك لأجْل الحقِّ ما سواه، فيؤْثره على غيره، ولا يؤْثر غيره عليه، وتجعل اللسان لهجًا بذكره؛ فإنَّ مَن أحبَّ شيئًا أكثرَ من ذِكره.

(وتُعَلِّقُ القَلْبَ بشُهُودِه)، لفرط استيلائه على القلب وتعلقه به، حتى كأنه لا يشاهد غيره.

وقوله: **(وهيَ مَحَبَّةٌ تَظهَرُ مِن مُطالَعةِ الصِّفاتِ)**؛ يعني: إثباتها أولًا، ومعرفتها ثانيًا، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثًا، ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها رابعًا، فلا يصحُّ له مطالعة الصِّفات الباعثة على المحبَّة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة، وكلَّما أكثَرَ قلبُه من مطالعتها، ومعرفة معانيها: ازدادت محبَّتُه للموصوف بها، ولذلك كان الجهمية ـ قُطَّاعَ طريق المحبة ـ بين المحبين وبينهم السيف الأحمر.

وقوله: **(والنَّظَرِ إلى الآياتِ)**؛ أي: نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة، وفي آياته المسموعة، وكلٌّ منهما داعٍ قويٌّ إلى محبته سبحانه؛ لأنها أدلَّةٌ على صفات كماله، ونُعوتِ جلالِه، وتوحيد ربوبيته وإلٰهيته، وعلى حِكمته وبِرِّه، وإحسانه ولُطفه، وجُودِه وكرمه، وسَعةِ رحمته، وسُبوغِ نِعَمِه، فإدامة النظر فيها داعٍ ـ لا محالة ـ إلى محبته.

وكذلك الارتياض بالمقامات؛ فإنَّ مَن كانت له رياضةٌ وملَكةٌ في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان، كانت محبَّتُه أقوى؛ لأن محبة الله له أتمُّ، وإذا أحب الله عبدًا أنشأ في قلبه محبَّتَه.





منزلة الغَيرة

قال الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفي «الصحيح» عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما أحَدٌ أغْيَرُ مِنَ اللهِ، ومِن غَيْرَتِه حَرَّمَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وما بَطَنَ، وما أحَدٌ أحَبَّ إليهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ، ومِنْ أجْلِ ذلك أثْنَى على نَفْسِه، وما أحَدٌ أحَبَّ إليهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِن أجْلِ ذلكَ أرْسَلَ الرُّسُلَ مُبشِّرِينَ ومُنذِرِينَ**»(١).

وفي «الصحيح» أيضًا، من حديث أبي سلَمةَ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إنَّ اللهَ يَغارُ، وإنَّ المؤمِنَ يَغارُ، وغَيْرةُ اللهِ أنْ يأْتِيَ العَبْدُ ما حَرَّمَ عليهِ**»(٢).

وفي «الصحيح» أيضًا: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أتَعْجَبُونَ مِن غَيْرةِ سَعدٍ؟! لَأنا أغْيَرُ مِنهُ، واللهُ أغْيَرُ مِنِّي**»(٣).

ومما يدخل في الغيرة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: ٤٥].

قال السَّرِيُّ لأصحابه: «أتدرون ما هذا الحِجابُ؟ حجاب الغيرة، ولا أحدَ أغْيَرُ من الله؛ إنَّ الله تعالى لم يجعل الكفَّار أهلًا لفهم كلامه، ولا أهلًا لمعرفته وتوحيده ومحبته، فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ مقارب (٢٧٦٠/ ٣٥)، وروى بعضه البخاري (٤٦٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٢)، ومسلم (٢٧٦١).
(٣) أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وتوحيده حِجابًا مستورًا عن العيون؛ غَيرةً عليه أن يناله من ليس أهلًا به».

و(**الغَيْرةُ**) منزلةٌ شريفةٌ عظيمة جدًّا، جليلة المقدار.

أنواع الغيرة وأقسامها

و(**الغَيْرةُ**) نوعان: غَيرةٌ من الشيء، وغيرةٌ على الشيء.

والغَيرة من الشيء: هي كراهةُ مُزاحمته ومشاركته لك في محبوبك.

والغَيرة على الشيء: هي شِدَّة حِرصك على المحبوب أن يفوزَ به غيرك دونك أو يُشاركك في الفوز به.

والغَيرة أيضًا نوعان: غَيرة العبد من نفْسه على نفْسه «لنفسه»، كغَيرته من نفسه على قلبه، ومِن تَفرقتِه على جمعيته، ومِن إعراضه على إقباله، ومن صِيانته على ابتذاله، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة.

وهذه الغَيرة خاصيةُ النَّفس الشريفة الزَّكية العُلوية، وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب، وعلى قدْر شَرَف النفس وعُلوِّ هِمَّتها تكون هذه الغَيرة.

ثم (**الغَيْرةُ**) أيضًا نوعان: غيرة الحق تعالى على عبده، وغيرة العبد لربه لا عليه؛ فأما غيرة الرب على عبده: فهي أن لا يجعله للخَلْق عبدًا، بل يتَّخِذُه لنفسه عبدًا، فلا يجعل له فيه شركاءَ مُتشاكِسينَ، بل يُفرِدُه لنفْسه، ويَضِنُّ به على غيره، وهذه أعلى الغَيرتين.

وغَيرة العبد لربه نوعان أيضًا: غيرة من نفسه، وغيرة من غيره؛ فالتي من نفسه: أنْ لا يجعل شيئًا من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه، والتي مِن غيره: أنْ يغضبَ لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون، ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

وأمَّا الغَيرة على الله: فأعظمُ الجهل وأبطلُ الباطل، وصاحبها من أعظم الناس جهلًا، وربما أدَّتْ بصاحبها إلى معاداته وهو لا يشعر، وإلى انسلاخه من أصل الدِّين والإسلام.

وربما كان صاحبُها شرًّا على السالكين إلى الله من قُطَّاع الطريق، بل هو من قطاع طريق السالكين حقيقة، وأخرج قطع الطريق في قالب الغَيرة، وأين هذا من الغَيرة لله؟ التي تُوجِبُ تعظيمَ حقوقه، وتصفيةَ أعماله وأحواله لله؟ فالعارفُ يغار لله، والجاهلُ يغار على الله، فلا يُقال: أنا أغارُ على الله، ولكن أنا أغار لله.

وغَيرة العبد من نفْسه: أهمُّ من غَيرته من غيره؛ فإنك إذا غِرت من نفْسك صحَّتْ لك غَيرتُك لله من غيرك، وإذا غرت له من غيرك، ولم تغرْ من نفسك: فالغَيرة مدخولةٌ معلولة ولا بدَّ، فتأمَّلها وحقق النظر فيها.

فليتأمَّل السالكُ اللبيب هذه الكلمات في هذا المقام، الذي زَلَّت فيه أقدامُ كثيرٍ من السالكين، والله الهادي والموفَّق المثبت.

قال صاحب «المنازل»: **(قال اللهُ تعالى ـ حاكِيًا عن نَبِيِّه سُلَيْمانَ** عليه السلام **ـ:** ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۝٣٣﴾ [ص: ٣٣]).

ووجْهُ استشهاده بالآية: أنَّ سليمان عليه السلام كان يُحِبُّ الخَيل، فشغَلَه استحسانُها، والنظرُ إليها ـ لما عُرِضتْ عليه ـ عن صلاة النهار، حتى توارت الشمس بالحجاب، فلَحِقَتْه الغَيرةُ لله من الخيل، إذِ استغرقه استحسانُها، والنظرُ إليها عن خدمة مولاه وحقِّه، فقال: ردُّوها عليَّ، فطفِق يضرب أعناقها وعراقيبَها بالسيف غَيْرةً لله.

[قال صاحب «المنازل» في إحدى دَرَجاتِ الغَيْرةِ]: **(غَيْرةُ العابِدِ على ضائِعٍ يَستَرِدُّ ضَياعَه، ويَستَدْرِكُ فَواتَه، ويَتَدارَكُ قُوَاهُ)**.

(العَابِدُ): هو العامل ـ بمقتضى العلم النافع ـ للعمل الصالح، فغَيرتُه على ما ضاع عليه مِن عملٍ صالح؛ فهو يستردُّ ضياعَه بأمثاله، ويَجبُر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القُرَب بفِعل أمثالها، من جنسها وغير جنسها، فيقضي ما ينفع فيه القضاء، ويُعوِّض ما يَقبل العِوض، ويَجبُر ما يمكن جَبرُه.

وقوله: **(ويَستَدْرِكُ فَواتَه)**، الفرق بين استرداد ضائعه، واستدراك فائته، أن الأول: يمكن أن يسترد بعينه، كما إذا فاته الحجُّ في عام تمكَّنَ منه، فأضاعه في ذلك العام؛ استدركه في العام المقبل. وكذلك إذا أخَّرَ الزكاةَ عن وقت وجوبها؛ استدركها بعد تأخيرها، ونحو ذلك.

وأما الفائت: فإنما يُستدرَك بنظيره، كقضاء الواجب المؤقَّتِ إذا فات وقتُه.

أو كون مرادِه باسترداد الضائع واستدراك الفائت: نَوعَي التفريط في الأمر والنَّهي، فيستردُّ ضائع هذا بقضائه وفِعْلِ أمثاله، ويَستدرِكُ فائتَ هذا ـ أي: سالفه ـ بالتوبة والندم.

وأما **(تَدارُكُ قُوَاهُ)**؛ فهو أن يتدارك قوته ببَذْلِها في الطاعة قبل أن تتبدَّل بالضَّعف، فهو يَغارُ عليها أن تذهب في غير طاعة الله، أو يتدارك قوى العمل الذي لحِقَه الفتورُ عنه بأن يكسوه قوةً ونشاطًا، غَيرةً له وعليه.

۞ ۞ ۞



منزلة الشَّوق

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ﴾ [العنكبوت: ٥].

قيل: هذا تعزية للمشتاقين، وتسليةٌ لهم؛ أي: أنا أعلم أن مَن كان يرجو لِقائي فهو مشتاق إليَّ، فقد أجلت له أجلًا يكون عن قريب؛ فإنَّه آتٍ لا محالة، وكلُّ آتٍ قريبٌ.

وفيه لطيفة أخرى، وهي تعليلُ المشتاقين برجاء اللقاء.

لَولا التَّعلُّلُ بالرَّجاءِ لَقُطِّعَتْ   نَفْسُ المُحِبِّ صَبابةً وتَشَوُّقَا
ولقدْ يَكادُ يَذُوبُ مِنهُ قَلْبُه   مِمَّا يُقاسِي حَسْرةً وتَحرُّقَا
حتَّى إذا رَوْحُ الرَّجاءِ أصابَهُ   سَكَنَ الحَريقُ إذا تَعَلَّلَ باللُّقَا

وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**أسألُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ، والشَّوْقَ إلى لِقائِكَ**».

قال بعضهم: كان النبي ﷺ دائمَ الشوق إلى لقاء الله، لم يسكن شوقُه إلى لقائه قَطُّ، ولكن الشوق مائة جزء؛ تسعة وتسعون له، وجزءٌ مقسوم على الأمة، فأراد ﷺ أن يكون ذلك الجزء مضافًا إلى ما له من الشوق الذي يختص به، والله أعلم.

* * *

مفهوم الشوق ومعناه

و(**الشَّوقُ**) أثر من آثار المحبَّة، وحُكْمٌ من أحكامها؛ فإنَّه سفَرُ القلب إلى المحبوب في كل حال.

وقيل: هو اهتياجُ القلوب إلى لِقاء المحبوب.

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علامة الشوق فِطامُ الجوارح عن الشهوات».

وقال أبو عثمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علامتُه حبُّ الموت مع الراحة والعافية، كحال يوسفَ لمَّا أُلقيَ في الجُبِّ لم يَقُلْ: ﴿تَوَفَّنِي﴾، ولما أُدخِل السجنَ لم يقل: ﴿تَوَفَّنِي﴾، ولمَّا تمَّ له الأمر والأمنُ والنعمة، قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١].

قال ابنُ خَفِيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشوقُ ارتياحُ القلوب بالوَجدِ، ومَحبَّةُ اللقاء بالقرب».

* * *

درجات الشوق

قال صاحب «المنازل»: **(وهو على دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: شَوقُ العابِدِ إلى الجَنَّةِ؛ لِيَأْمَنَ الخائفُ، ويَفرَحَ الحَزينُ، ويَظفَرَ الآمِلُ).

يعني: شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحِكَمُ الثلاث:

أحدها: حصول الأمن الباعث على العمل؛ فإنَّ الخوف المجرد عن الأمن من كل وجه لا ينبعث صاحبُه لعمَلٍ البتَّةَ إن لم يقارنه أمن، فإنْ تجرَّدَ عنه قُطع وصار قَنوطًا.

الثاني: فرَح الحزين؛ فإنَّ الحزن المجرد أيضًا إن لم يقترن به الفرح قتل صاحبه، فلولا روح الفرح لتعطلت قوى الحزين وقعد حزنه به، ولكن إذا قعد به الحزن قام به روح الفرح.

الثالث: رَوح الظَّفَر؛ فإنَّ الآمل إن لم يصحبه رَوحُ الظَّفر مات أمَلُه. والله أعلم.

الشوق إلى الله لا ينافي الشوق إلى الجنة

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: شَوقٌ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، زَرَعَهُ الحُبُّ الَّذي يَنبُتُ على حافاتِ المِنَنِ، فعَلَّقَ قلْبَه بصِفاتِه المُقدَّسةِ، فاشتاقَ إلى مُعايَنةِ لَطائِفِ كَرَمِه، وآياتِ بِرِّه، وأعلامِ فضْلِه)**.

الشوقُ إلى الله لا يُنافي الشوقَ إلى الجنة؛ فإنَّ أطيب ما في

الجنة: قُربُه تعالى، ورُؤيتُه، وسماعُ كلامه ورضاه، نعم.. الشوق إلى مجرَّد الأكل والشرب والحور العين في الجنة ناقصٌ جدًّا، بالنسبة إلى شوق المحبين إلى الله تعالى، بل لا نِسبةَ له إليه البتة، وهذا الشوق **درجتان**.

إحداهما: شوقٌ زرَعه الحبُّ الذي سببُه الإحسانُ والمنة، وهو الذي قال فيه: **(يَنبُت على حافاتِ المِنن)**، فسببه مطالعة منة الله، وإحسانه ونعمه.

وفي قوله: **(تَنبُتُ على حافاتِ المِنَنِ)**؛ أي: جوانبه، إشارة إلى عدم تمكنها وقوتها، وأنها من نبات الحافات التي هي جوانب المنن، لا من نبات الأسماء والصفات.

وقوله: **(فعَلَّقَ قلْبَه بصِفاتِه المُقدَّسةِ)**؛ يعني: الصفاتِ المختصَّةَ بالمِنَنِ والإحسان، كالبَرِّ والمَنَّان، والمحسن، والجوَاد، والمُعطِي، والغفور، ونحوها.

وقوله: **(المُقَدَّسة)**؛ يعني: المطهَّرة المنزَّهة عن تأويل المحرِّفين، وتشبيهِ الممثِّلين، وتعطيل المعطِّلين.





[منزلة القلق]

وقد يَقْوَى هذا الشوق، ويتجرَّدُ عن الصبر، فيسمى «**قلقًا**»، وبذلك سمَّاه صاحب «المنازل»، واستَشهَد عليه بقوله تعالى ـ حاكيًا عن كليمه موسى ﷺ ـ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: ٨٤]، فكأنه فَهِمَ أن عجلته إنما حمله عليها القلق، وهو تجريد الشوق للقائه وميعادِه.

وظاهر الآية: أنَّ الحامل لموسى على العجلة هو طلبُ رضا ربه، وأنَّ رضاه في المبادرة إلى أوامره، والعجلةِ إليها؛ ولهذا احتَجَّ السلفُ بهذه الآية على أنَّ الصلاة في أول الوقت أفضلُ.

رضا الرب في العَجَلة إلى أوامره

سمعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَذكُر ذلك. قال: «إنَّ رِضا الربِّ في العَجلةِ إلى أوامره».

وحدَّثني بعضُ أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قال: كان في بداية أمره يخرج أحيانًا إلى الصحراء يخلو عن الناس؛ لقُوَّة ما يَرِدُ عليه، فتَبعتْه يومًا فلمَّا أصحر تنفَّس الصُّعَداء، ثم جعَل يتمثَّل بقول الشاعر ـ وهو لمجنون ليلى مِن قصيدته الطويلة ـ:

وأخرُجُ مِن بيْنِ البُيوتِ لعَلَّني ... أُحدِّثُ عنكَ النَّفْسَ بالسِّرِّ خاليًا

وصاحبُ هذه الحال: إنْ لم يَرُدَّه الله سبحانه إلى الخَلْق بتثبيت وقوَّة، وإلا فإنه لا صبرَ له على مخالطتهم.





[منزلة العطش]

ثم يَقوَى هذا «**القلق**» ويتزايدُ حتى يُورِثَ القلبَ حالةً شبيهة بشدَّة ظمأ الصادي الحرَّان إلى الماء، وهذه الحالةُ هي التي يُسمِّيها صاحب «المنازل» «**العطش**»، قال: **(وهو على دَرَجاتٍ:**

الأُولَى: عَطَشُ المريد إلى شاهِدٍ يُرْوِيه، أو إشارةٍ تَشْفيه، أو عَطْفةٍ تُؤْوِيه).

شـواهـد الصـادقيـن يـزداد بـهـا القلب تثبيتًا وقوة بصيرة

وقوله: **(شاهِدٍ يُرْوِيه)** يَحتمل: أنه من الرواية؛ أي: يَرويه عمَّن أقامه له، فيكون ذلك إشارةً إلى شواهد العِلم؛ فهو شديدُ العطش إلى شواهدَ يَرويها عن الصادقين من أهل السلوك، يزداد بها تثبيتًا وقُوَّةَ بصيرةٍ؛ فإنَّ المريد إذا تجدَّدت له حالةٌ، أو حصَل له وارد؛ استوحش مِن تفرُّدِه بها.

فإذا قام عنده بمثلها شاهد حال لمريد آخر صادق، قد سبقه إليها: استأنس بها أعظم استئناس.

واستدلَّ بشاهد ذلك المريد على صحَّة شاهِدِه؛ فلذلك يشتدُّ عَطشُه إلى شاهد يرويه عن الصادقين.

ويَحتمل: أنه من الرِّيِّ ـ فيكون مضموم الياء ـ يعني: إذا حصَل له الرِّيُّ بذلك الشاهد، ونزَل على قلبه منزلةَ الماء البارد من الظمآن، فقرَّت عنده صِحَّتُه، وأنه شاهدُ حَقٍّ.

أروى شـيء لقلب المُحِبّ المشتاق

قوله: **(أو إشارةٍ تَشْفيه)**؛ أي: تشفي قلبَه من عِلَّةٍ عارضة، فإذا وردتْ عليه الإشارةُ ـ إما من صادق مثله، أو من عالم، أو من شيخ مسلك، أو من آية فَهِمَها، أو عِبْرةٍ ظَفِر بها ـ: اشتفى بها قلبُه، وهذا معلوم عند من له ذَوقٌ.

فلا شيءَ أروى لقلب المحبِّ من عطف مَحبوبِه عليه، ولا شيءَ أشدُّ للهيبه وحريقه من إعراض محبوبه عنه،؛ ولهذا كان عذابُ أهل النار باحتجاب ربهم عنهم، أشدَّ عليهم ممَّا هُم فيه من العذاب الجُسماني. كما أنَّ نَعيم أهل الجنة ـ برُؤيته تعالى وسماع خِطابه ورضاه وإقباله ـ أعظمُ من نعيمهم الجسماني.

شوق السالك إلى الوصول إلى محبوبه وقرّة عينه

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: عَطَشُ السَّالِك إلى أجَلٍ يَطْوِيه، ويَوم يُرِيهِ ما يُغْنِيه، ومَنزِلٍ يَستَرِيحُ فيه**).

إمَّا أنْ يريد بالأجل الذي يَطويه: انقضاءَ مدة سجْن القلب والرُّوح في البدن، حتى تصل إلى ربها وتلقاه، وهذا هو الظاهرُ من كلامه.

وإمَّا أن يريد به: عطشَه إلى مقصود السلوك من وصوله إلى محبوبه وقُرَّة عينه وجمعيته عليه؛ فهو يَطوي مراحل سيره حثيثًا، ليصل إلى هذا المقصود، وحينئذ يعود إليه سير آخر وراء هذا السير، مع عدم مفارقته له؛ فإنَّه إنما وصل به إليه، فلو فارقه لانقطع انقطاعًا كليًّا، ولكن يبقى له سَيرٌ، وهو مُستلقٍ على ظهره، يسبق به السُّعاة.

ويُرجِّح هذا المعنى الثانيَ: أنَّ المريد الصادق لا يحب الخروج من الدنيا، حتى يقضي نَحْبَه؛ لعِلمه أنه لا سبيل إلى انقضائه في غير هذه الدار، فإذا عَلِم أنه قد قضى نَحْبَه؛ أَحَبَّ حينئذ الخروجَ منها، ولكن لا يقضي العبد نحْبَه حتى يُوفِّيَ ما عليه.

والناس ثلاثة: موفٍ قد قضَى نَحْبه، ومنتظرٌ للوفاء ساع فيه حريص عليه، ومفرِّطٌ في وفاء ما عليه من الحقوق. والله المستعان.

قوله: (**ويَوم يُريهِ ما يُغْنِيه**)؛ أي: يوم يرى فيه ما يغني قلبَه، ويَسُدُّ فاقتَه مِن قرَّةِ عينه بمطلوبه ومُرادِه.

وقوله: (**ومَنزِل يَستَرِيحُ فيه**)؛ أي: منزل من منازل السير، ومقام من مقامات الصادقين، يستريح فيه قلبُه، ويَسكُنُ فيه.

مَنْزِلَةُ الوَجْدِ

ثبَت في «الصَّحيحين»، من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: أنْ يَكُونَ اللهُ ورَسُولُه أحَبُّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّه إلَّا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ** ـ بَعْدَ إذْ أنْقَذَهُ اللهُ مِنهُ ـ **كما يَكْرَهُ أنْ يُلْقَى في النَّارِ**»[(١)].

وقد استَشهد صاحبُ «المنازل» بقولِه تعالى في أهل الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: ١٤]، وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد؛ فإنَّ هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر، فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوحيد، وذاقوا حلاوته، وباشر قلوبهم، فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] الآية.

والربط على قلوبهم: يتضمَّنُ الشدَّ عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتَها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هِجرانِ دار قومهم، ومفارقةِ ما كانوا فيه مِن خفْضِ العيش، وفَرُّوا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب: عكس الخِذلان، فالخذلان حلُّه من رباط التوفيق، فيغفل عن ذِكر ربه، ويتَّبع هواه، ويصير أمْرُه فُرُطًا.

والربط على القلب: شده برباط التوفيق، فيتَّصِلُ بذِكر ربه، ويَتَّبع مرْضاتِه، ويجتمع عليه شمْلُه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣) تقدم تخريجه.

مفهوم الوجد ومراتبه

و«الوجد»: هو ما يُصادِف القلبَ، ويَرِدُ عليه مِن واردات المحبة والشوق، والإجلالِ والتعظيم، وتوابع ذلك.

[**ومراتبه أربع**]: **أضعَفُها**: «التَّواجد»: وهو نوعٌ مِن تكلُّفٍ وتعمُّلٍ واستدعاء.

المرتبة الثانية: «المواجيد»: وهي نتائجُ الأوراد وثمراتُها.

المرتبة الثالثة: «الوجد»: هو ثمرة أعمال القلوب، من الحب في الله والبُغضِ فيه، كما جعله النبي ﷺ ثمرةَ كون الله ورسولِه أحَبَّ إلى العبد مما سِواهما، وثمرة الحب فيه، وكراهة عوده في الكفر كما يكره أن يقذف في النار، فهذا الوجد ثمرةُ هذه الأعمال القلبية، التي هي الحب في الله والبغض في الله.

المرتبة الرابعة: «الوجود»: وهي أعلى ذروةِ مقام الإحسان، فمِن مقام الإحسان يرقى إليه؛ فإنَّه إذا غلَب على قلبه مشاهدةُ معبوده، حتى كأنه يراه ـ وتمكَّن في ذلك ـ صار له مَلَكةً خَمِدَتْ أحكام نفْسِه، وتبدَّلَ بها أحكامًا أُخَرَ، وطبيعة ثانية، حتى كأنه أُنشِئ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، ووُلِد ولادًا جديدًا.

ومما يُذكر عن المسيح عليه السلام أنه قال: «**يا بَني إسْرائيلَ، لنْ تَلِجُوا مَلَكُوتَ السَّماءِ حتَّى تُولَدُوا مَرَّتَيْنِ**».

سمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رحمه الله يذكر ذلك، ويفسِّره بأنَّ الولادة **نوعان**:

أحدهما: هذه المعروفة.

والثانية: ولادة القلب والرُّوح وخروجهما من مشيمة النفْس، وظلمة الطبع.

قال: وهذه الولادة لـمَّا كانت بسبب الرسول ﷺ كان كالأب للمؤمنين، وقد قرأ أُبَيُّ بن كعبٍ رضي الله عنه: «النبيُّ أَوْلَى بالمُؤمنين مِن أنفُسِهم وهو أبٌ لهم». قال: ومعنى هذه الآيةِ والقراءةِ في قوله تعالى:

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]؛ إذ ثُبوتُ أمومة أزواجه لهم: فرعٌ عن ثبوت أُبوَّته.

قال: فالشيخ والمعلِّم والمؤدِّب أبُو الرُّوح، والوالدُ أبُو الجسم.

* * *

في تحقيق العبودية

تحقيق العبودية ـ التي هي معنى العبد ـ لا يكون إلا بفقْدِ النفْسِ الحاملة للحظوظ، فمتى فقدتْ حظوظَها تمحَّصتْ عبوديتُها، وكلما مات منها حظٌّ حَيِيَ منها عبوديةٌ ومعنى، وكلما حَيِيَ فيها حظٌّ ماتت منها عبودية، حتى يعود الأمرُ على نفْسينِ ورُوحين وقلبين: قلب حَيّ، ورُوح حية بموت نفْسِه وحظوظِها، وقلب ميت، ورُوح ميتة بحياة نفْسِه وحظوظه. وبيْن ذلك مراتبُ متفاوتةٌ في الصحة والمرض، وبيْنَ بيْنَ، لا يُحصيها إلا اللهُ.

والناس في هذا المقام ثلاثةٌ: عبْدٌ مَحْضٌ، وحُرٌّ محض، ومكاتب قد أدَّى بعض كتابته، وهو يسعى في بقية الأداء.

فالعبد المحض: عبدُ الماء والطِّين الذي قد استعبدتْه نفْسُه وشهوته، ومَلكتْه وقَهرتْه. فانقاد لها انقيادَ العبد إلى سيِّده الحاكم عليه.

والحُرُّ المَحض: هو الذي قهر شهوته ونفْسَه وملَكَها؛ فانقادتْ معه، وذلَّتْ له، ودخلت تحت رِقِّه وحُكمِه.

والمكاتَب: مَن قد عقد له سبب الحرية، وهو يَسعى في كمالها؛ فهو عبْدٌ مِن وجْهٍ حُرٌّ من وجه، وبالبقيَّة التي بقيَتْ عليه من الأداء يكون عبْدًا ما بَقِيَ عليه درهمٌ، فهو عبْدٌ ما بَقِيَ عليه حظٌّ من حظوظ نفْسِه.

فالحُرُّ مَن تخلَّصَ مِن رِقِّ الماء والطين، وفاز بعبودية ربِّ العالَمين؛ فاجتمعتْ له العبوديةُ والحرية؛ فعُبوديتُه مِن كمال حُريَّته، وحريتُه مِن كمال عُبوديته.



[منزلة البَـرْق]

(وَمِـنْ أَنْـوَارِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]: «نُورُ البَرْقِ» **الَّذي يَبْدُو للعَبدِ عِندَ دُخُولِه في طَرِيقِ الصَّادِقِينَ، وهو لامِعٌ يَلْمَعُ لقَلْبِه، يُشْبِهُ لامِعَ البَرْقِ)**.

(**البَرْقُ**): نورٌ يَقذِفه الله في قلب العبد، ويُبديه له؛ فيَدعوه به إلى الدُّخول في الطريق.

درجات منزلة البرق وأقسامها

قال [صاحب «المنازل»]: (**وهو ثَلَاثُ دَرَجاتٍ**:

الأُولَى: بَرْقٌ يَلْمَعُ مِن جانِبِ العِدَةِ في عَيْنِ الرَّجاءِ، فيَستَكْثِرُ فيه العَبدُ القَليلَ مِنَ العَطاءِ، ويَستَقِلُّ فيه الكَثيرَ مِنَ الإعْياءِ، ويَستَحْلي فيه مَرارةَ القَضاءِ).

يعني بالعِدَة: ما وعد الله به أولياءَه من أنواع الكرامة في هذه الدارِ وعند اللِّقاء.

وقوله: (**يَلْمَعُ في عَينِ الرَّجاءِ**)؛ أي: يبدو في حقيقة (**الرَّجاءِ**) مِن أُفُقِه وناحيته، فيوجِبُ له ذلك استكثارَ القليلِ ـ ولا قليل من الله ـ مِن عطائه، والحاملُ له على هذا الاستكثارِ **أربعةُ أمورٍ**:

أحدها: نظرُه إلى جلالةِ مُعطيهِ وعظَمَتِه.

الثاني: احتِقارُه لنفْسِه وازدراؤه لها، يُوجِبُ استكثارَ ما ينالُه من سيِّده.

الثالث: محبَّتُه له؛ فإنَّ المحبة إذا تمكَّنتْ من العبد استكثَرَ قليلَ ما ينالُه مِن محبوبه.

الرابع: أنَّ هذا ـ قبل العطاء ـ لم يكن له إلْفٌ به، ولا اتِّصالٌ بالعطيَّة، فلمَّا فاجأتَه: استكثَرها.

وأما **(استِقْلالُه للكَثيرِ مِنَ الإعْياءِ)** ـ وهو التعب والنصَب ـ؛ فلأنَّه لمَّا بدَا له برقُ الوعود مِن أُفُقِ الرجاء: حمَله ذلك على الجِدِّ والطلب، وحمَل عنه مشقة السير؛ فلم يجد لذلك مِن مَسِّ الإعياء والنصَب ما يجده من لم يَشَمَّ ذلك.

وكذلك **(استِحْلَاؤه ـ في هذا البَرقِ ـ مَرارةِ القَضاءِ)**، وهو البلاء الذي يَختبِرُ به اللهُ ﷻ عبادَه؛ ليَبلوَهم أيُّهم أَصبَرُ وأصدَقُ، وأعظمُ إيمانًا، ومحبَّةً وتوكلًا وإنابةً؟ وإذا لاح للسالك هذا البرق: استحلى فيه مرارةَ القضاء.

قِصَر الأمل والزهد في الخلق

قال: **(الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: بَرْقٌ يَلْمَعُ مِن جانِبِ الوَعيدِ في عَيْنِ الحَذَرِ، فيَستَقْصِرُ فيه العَبدُ الطَّويلَ مِنَ الأمَلِ، ويَزهَدُ في الخَلْقِ على القُرْبِ، ويَرغَبُ في تَطْهِيرِ السِّرِّ)**.

هذا البرق أُفُقُه وعَيْنُه: غَيرُ أُفُقِ البرقِ الأوَّلِ؛ فإن هذا يَلمَعُ مِن أُفَقِ الحذر، وذاك من أُفقِ الرجاء، فإذا شام هذا البرقَ؛ استقصَر فيه الطَّويلَ من الأمل، وتخيَّل في كل وقتٍ أن المَنِيَّةَ تُعافِصُه وتُفاجئُه، فاشتدَّ حذرُه مِن هجومها، مخافةَ أن تحل به عقوبة الله، ويحال بينه وبين الاستعتاب والتأهُّبِ للِّقاء؛ فيلقى ربه قبل الطُّهرِ التامِّ، فلا يؤْذن له بالدخول عليه بغير طهارة، كما أنه لم يؤْذَنْ له في دار التكليف بالدُّخول عليه للصلاة بغير طهارة.

وهذا يُذَكِّر العباد بالتطهر للموافاة والقدوم عليه، والدخول وقت اللقاء لمَن عَقَل عن الله، وفَهِمَ أسرارَ العبادات، فإذا كان العبد لا يدخل عليه حتى يستقبل بيته المحرَّمَ بوجهه، ويستر عورته، ويطهِّر بدنه وثيابَه، وموضع مقامه بين يديه، ثم يخلص له النية؛ فهكذا الدخولُ عليه وقتَ اللقاء، لا يحصُل إلا بأن يستقبل ربَّه بقلبه كلِّه، ويستر عوراتِه

الباطنةَ بلباس التقوى، ويطهِّرَ قلبه ورُوحَه وجوارحه من أدناسها الظاهرةِ والباطنة، ويتطهَّر لله طُهرًا كاملًا، ويتأهَّبَ للدُّخول أكملَ تأهُّبٍ، وأوقات الصلاة نظير وقت الموافاة.

فإذا تأهَّبَ العبدُ قبل الوقت؛ جاءه الوقتُ وهو متأهِّبٌ، فيَدخُلُ على الله، وإذا فرَّط في التأهب؛ خِيفَ عليه مِن خروج الوقت قبل التأهُّبِ، إذْ هجوم وقتِ الموافاةِ مُضَيَّقٌ لا يَقبَلُ التَّوسِعةَ، فلا يُمكَّنُ العبدُ من التطهُّرِ والتأهُّبِ عند هجوم الوقت، بل يقال له: هَيْهات، فات ما فات، وقد بَعُدَتْ بيْنك وبيْن التَّطهُّرِ المسافات، فمَن شامَ برقَ الوعيدِ بقِصَرِ الأمل؛ لم يَزَلْ على طهارة.

وأما (**تَزْهِيدُه في الخَلْقِ على القُرْبِ**)؛ أي: وإن كانوا مِن أقارِبه أو مُناسبيه، أو مجاوريه ومُلاصقيه، أو معاشريه ومُخالطيه: فلِكمالِ حذرِه، واستِعدادِه واشتغاله بما أمامَه، وملاحظة الوعيد من أُفقِ ذلك البارق الذي ليس بخُلَّبٍ، بل هو أصدَقُ بارقٍ.

ويحتمل أن يريد بقوله (**عَنْ قُرْبٍ**)؛ أي: عن أقربِ وقت، فلا ينتظر بزهده فيهم: أملًا يؤمِّلُه، ولا وقتًا يَستقبِلُه.

قوله: (**ويَرغَبُ في تَطهِيرِ السِّرِّ**)؛ يعني: تطهيرَ سرِّه عمَّا سِوى الله. وقد تقدَّم بيانُه.

أُفُق ملاطفة الرب تعالى لعبده

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: بَرْقٌ يَلْمَعُ مِن جانِبِ اللُّطْفِ في عَيْنِ الافْتِقارِ، فيُنْشِئُ سَحابَ السُّرُورِ، ويُمْطِرُ قَطْرَ الطَّرَبِ، ويَجْري مِن نَهْرِ الافتِخارِ**).

هذا البرق يلمع مِن أُفقِ ملاطفة الرَّبِّ تعالى لعبده بأنواع الملاطفات، ومطلع هذا البرق؛ في عين الافتخار، الذي هو باب السُّلوكِ إلى الله تعالى، والطريقُ الأعظم الذي لا يُدخَلُ عليه إلا منه، وكلُّ طريقٍ سِواهُ فمَسدودٌ.

ومع هذا فلا يَصِلُ العبدُ منه إلا بالمتابعة؛ فلا طريقَ إلى الله البتَّةَ

أبدًا ـ ولو تعنَّى المتعنُّون، وتمنَّى المُتمنُّون ـ إلَا الافتِقار، ومتابعة الرسول فقط، فلا يُتعِبِ السَّالكُ نفْسَه في غير هذه الطريق؛ فإنَّه على غير شيء، وهو صيد الوحوش والسباع.

قوله: (**فيُنشِئُ سَحابَ السُّرُورِ**)؛ أي: ينشئ للعبد سرورًا خاصًّا وفرحًا بربِّه لا عهْدَ له بمِثله، ولا نظيرَ له في الدنيا، ونفحة من نعيم الجنة، ونسمة من ريح شمالهم، فإذا نشأ له ذلك السحابُ أمطر عليه صَيِّبَ الطَّرَبِ، فطرِبَ باطنُه وسرُّه لِما ورد عليه من عند سيِّده ووليِّه، وإذا اشتد ذلك الطرب، جرى به نهرُ الافتخار، بتميُّزه به عن أبناء جنسِه بما خصَّه الله به.

فإمَّا أن يريد به: افتخارَه على الشيطان؛ وهذه مخيلة محمودة، طرَبًا وافتخارًا عليه؛ فإنَّ الله لا يَكرَهُ ذلك، ولهذا يُحِبُّ المُختالَ بين الصَّفَّينِ عند الحرب، لِما في ذلك من مراغمة أعدائه، ويُحِبُّ الخيلاءَ عند الصدقة ـ كما جاء ذلك مصرَّحًا به في الحديث ـ لسِرٍّ عجيب، يعرفه أُولو الصَّدقاتِ والبَذْلِ مِن نفوسِهم عند ارتياحِهم للعطاء، وابتهاجِهم به، واختيالِهم على النَّفسِ الشَّحيحةِ الأمَّارةِ بالبخل، وعلى الشيطان المُزيِّنِ لها ذلك:

وهُمْ يُنفِذُونَ المالَ في أَوَّلِ الغِنَى ... ويَستأْنِفُونَ الصَّبرَ في آخِرِ الصَّبرِ
مَغاوِيرُ لِلعَلْيا، مَغابِيرُ لِلحِمَى ... مَفارِيجُ لِلغُمَّى، مَدارِيكُ لِلوَترِ
وتَأخُذُهُمْ في ساعةِ الجُودِ هِزَّةٌ ... كما تَأخُذُ المِطْرابَ عن نَزْوةِ الخَمْرِ

فهذا الافتخار من تمام العبودية.

أو يريد به: أنه حريٌّ بالافتخار بما تميَّز به، ولم يفتخر به إبقاء على عبوديته وافتقاره، وكلا المعنيين صحيح. والله أعلم.

وسِرُّ ذلك: أنَّ العبد إذا لاحظ ما هو فيه من الألطاف، وشَهِدَه مِن عين المِنَّة، ومحضِ الجُود؛ شَهِدَ مع ذلك فَقْرَه إليه في كل لحظة، وعدمَ استغنائه عنه طرفةَ عين، فكان ذلك من أعظمِ أبوابِ الشكر، وأسبابِ المزيد، وتوالي النِّعَمِ عليه.

وكلَّما توالتْ عليه النِّعَمُ؛ أنشأت في قلبه سحائبَ السُّرور، وإذا انبسطَتْ هذه السَّحائبُ في سماءِ قلْبِه، وامتلأ بها أُفُقُه؛ أَمطرَتْ عليه وابِلَ الطَّرَبِ بما هو فيه مِن لذيذ السُّرور، فإنْ لم يُصِبْه وابلٌ فطَلٌّ، وحينئذٍ يَجري على لسانه وظاهِرِه نَهرُ الافتِخارِ مِن غير عجبٍ ولا فخرٍ، بل فرَحًا بفضل اللهِ ورحمتِه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، فالافتِخارُ على ظاهره، والافتِقارُ والانكسارُ في باطنه، ولا ينافي أحدُهما الآخَرَ.





منزلة الذوق

و(**الذَّوْقُ**): مُباشرةُ الحاسَّةِ الظاهرةِ والباطنةِ للملائِم أو المُنافِر، ولا يختصُّ ذلك بحاسَّةِ الفمِ في لُغةِ القُرآنِ، بل ولا في لغةِ العربِ.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «**ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ: مَن رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وبالإسلامِ دِينًا، وبمُحمَّدٍ ﷺ رَسُولًا**»[(١)]، فأخبر: أنَّ للإيمان طَعمًا، وأنَّ القلب يَذوقُه كما يَذوقُ الفَمُ طعمَ الطعام والشراب.

سبل ذوق حقيقة الإيمان والإحسان

وقد عَبَّر النبيُّ ﷺ عن إدراك حقيقةِ الإيمان، والإحسانِ، وحُصولِه للقلب ومباشرتِه له: بالذَّوقِ تارةً، وبالطعام والشَّرابِ تارةً، وبوجود الحلاوةِ تارةً، كما قال: «**ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ**»، وقال: «**ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورسولُه أحَبُّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، ومَن كان يُحِبُّ المَرْءَ لا يُحِبُّه إلَّا للهِ، ومَنْ كان يَكْرَهُ أنْ يَرجِعَ في الكُفرِ ـ بَعْدَ إذْ أنْقَذَهُ اللهُ مِنهُ ـ كما يَكرَهُ أنْ يُلْقَى في النَّارِ**»[(٢)].

وهذا الذَّوقُ هو الذي استدَلَّ به هِرَقْلُ على صحَّةِ النُّبوَّةِ؛ حيث قال لأبي سُفيانَ: «فهل يَرتَدُّ أحدٌ منهم سَخْطةً لدِينِه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإيمانُ، إذا خالَطَتْ حَلاوَتُه بَشاشةَ القُلوبِ»[(٣)].

فاستدَلَّ بما يَحصُلُ لأتْباعِه مِن ذَوقِ الإيمان ـ الذي خالطتْ بشاشتُه القلوبَ: لم يَسخَطْه ذلك القلبُ أبدًا ـ على أنَّه دَعوةُ نُبُوَّةٍ ورسالةٍ، لا دَعوى مُلكٍ ورياسة.

(١) أخرجه مسلم (٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).
(٣) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان بن حرب.

والمقصود: أنَّ ذَوقَ حلاوةِ الإيمان والإحسانِ أمْرٌ يَجِدُه القلب، تكونُ نِسبتُه إليه كنسبةِ ذَوقِ حلاوة الطَّعامِ إلى الفَم، وذَوقِ حلاوةِ الجماعِ إلى آلته؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «**حتَّى تَذُوقي عُسَيْلَتَه، ويَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ**»[(١)]، فللإيمان طعمٌ وحلاوةٌ يتعلَّقُ بهما ذَوقٌ ووجْدٌ، ولا تزولُ الشُّبَهُ والشُّكوكُ إلَّا إذا وصل العبدُ إلى هذه الحال، فباشَرَ الإيمانُ قلبَه حقيقةَ المباشرة، فيَذوقُ طعمَه، ويَجِدُ حلاوتَه. والله الموفق.

درجات الذَّوْق

قال [صاحب «المنازل»]: (**وهو على دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولَى: ذَوْقُ التَّصْديقِ طَعْمَ العِدَةِ، فلا يَعْقِلُه ظَنٌّ، ولا يَقْطَعُه أَمَلٌ، ولا تَعُوقُه أُمْنِيةٌ).

يريد: أن العبدَ المُصدِّقَ إذا ذاق طعمَ الوعدِ من الله على إيمانه وتصديقِه وطاعته: ثَبَتَ على حُكمِ الوعدِ واستقام.

(**فلا يَعْقِلُه ظَنٌّ**).

والمقصود: أنَّ ذَوقَ طعم الإيمانِ بوعد الله يَمنعُ الذَّائقَ أن يَحبِسَه ظَنٌّ عن الجِدِّ في الطلب، والسَّيرِ إلى ربِّه. و(**الظَّنُّ**): هو الوقوف عن الجَزم بِصِحَّةِ الوعدِ والوعيد، بحيث لا يَترجَّحُ عنده جانبُ التَّصديق.

وكأنَّ الشيخ يقول: الذَّائقُ بالتَّصديقِ طعمَ الوعد، لا يُعارِضُه ظَنٌّ يَعْقِلُه عن صِدقِ الطلب، ويَحبِسُ عزيمتَه عن الجِدِّ فيه. وفي حديث سيِّد الاستغفارِ قولُه: «**وأنا على عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما استَطَعْتُ**»[(٢)]؛ أي: مقيمٌ على التَّصديق بوَعدِك، وعلى القيام بعهدك، بحسَب استطاعتي.

والحاملُ على هذه الإقامة والثباتِ: ذَوقُ طَعمِ الإيمان، ومباشرته للقلب.

وكان بعضُ الصَّحابةِ يُكثرُ التَّلبيةَ في إحرامه، ثم يقول: «لبَّيْكَ، لو كان رياءً لاضمحَلَّ»، وقد نفى اللهُ تعالى الإيمانَ عمَّنِ ادَّعاه، وليس له

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣١٧)، ومسلم (١٤٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

فيه ذَوقٌ، فقال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

فهؤلاء مسْلمون، وليسوا بمؤمنين؛ لأنَّهم ليسوا ممَّن باشَرَ الإيمانُ قلبَه، فذاق حلاوتَه وطعْمَه، وهذا حالُ أكثرِ المُنتسبينَ إلى الإسلام، وليس هؤلاء كفَّارًا؛ فإنَّه سبحانه أثبتَ لهم الإسلامَ بقوله: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، ولم يُرِدْ: قولوا بألسنتكم، مِن غير مُواطأةِ القلب؛ فإنَّه فرَّق بيْن قولِهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ وقولِهم: ﴿أَسْلَمْنَا﴾ ولكنْ لمَّا لمْ يَذوقوا طعمَ الإيمان، قال: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، ووعدَهم ﷻ ـ مع ذلك ـ على طاعتهم أنْ لا ينقصهم مِن أُجورِ أعمالهم شيئًا.

ثم ذَكر أهلَ الإيمانِ الَّذين ذاقوا طَعْمَه، وهُمُ الَّذين آمَنوا به وبرسوله، ثم لم يَرتابوا في إيمانهم، وإنما انتفى عنهم الرَّيب؛ لأن الإيمان قد باشر قلوبَهم، وخالطَتْها بَشاشتُه، فلم يبقَ للرَّيبِ فيه موضعٌ، وصدَّق ذلك الذَّوقَ: بَذْلُهم أحبَّ شيءِ إليهم في رِضا ربِّهم تعالى، وهو أموالُهم وأنفسُهم، ومِن الممتنع حصولُ هذا البَذْلِ مِن غير ذَوقِ طعمِ الإيمان، ووجودِ حلاوته؛ فإنَّ ذلك إنما يَحصُلُ بصِدقِ الذَّوقِ والوَجدِ، كما قال الحسَن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس الإيمانُ بالتَّمنِّي، ولا بالتَّحلِّي، ولكنْ ما وقَرَ في القلب، وصدَّقه العملُ».

فالذَّوقُ والوَجدُ: أمرٌ باطن، والعمل دليلٌ عليه ومُصدِّقٌ له، كما أنَّ **الرَّيبَ والشَّكَّ والنِّفاقَ**: أمرٌ باطن، والعمل دليلٌ عليه ومُصدِّقٌ له؛ فالأعمالُ ثمراتُ العلومِ والعقائد.

فاليقين: يُثمِرُ الجهادَ، ومقاماتِ الإحسانِ. فعلى حسَب قوَّتِه تكون ثَمرتُه ونتيجتُه.

والرَّيبُ والشَّكُّ: يُثمِرُ الأعمالَ المناسِبةَ له. وبالله التوفيق.

من علامات الذوق النافع

وقوله: (**ولا يَقْطَعُه أمَلٌ**)؛ أي: مِن علامات الذَّوقِ: أن لا يَقطعَ صاحبَه عن طلبِه أمْرُ دُنيا، وطمعٌ في غرض من أغراضها؛ فإنَّ الأملَ والطَّمعَ يَقْطعان طريقَ القلبِ في سَيرِه إلى مطلبه؛ فإنَّه مَن ذاق حلاوةَ

معرفةِ الله والقُربِ منه والأُنسِ به؛ لم يكنْ له أملٌ في غَيرِه، وإنْ تعلَّق أمَلُه بسِواه، فهو لإعانتِه على مَرْضاتِه ومَحابِّه، فهو يؤمِّلُه لأجْلِه، ولا يؤمِّلُه معه.

فإنْ قلتَ: فما الَّذي يَقطَعُ به العبدُ هذا الأملَ؟

قلتُ: قوَّةُ رغبتِه في المَطلب الأعلى، الذي ليس شيءٌ أعلى منه، ومعرفتُه بخِسَّةِ ما يؤمَّلُ دُونَه، وسرعةِ ذهابه، ووشْكِ انقطاعِه، وأنَّه في الحقيقة كخيالِ طَيفٍ، أو سحابةِ صَيفٍ، فهو ظِلٌّ زائل، ونَجمٌ قد تدلَّى للغروب فهو عن قريبٍ آفِل.

قال النبيُّ ﷺ: «**ما لي ولِلدُّنْيا؟ إنَّما أنا كَراكِبٍ قال في ظِلِّ شَجَرةٍ ثُمَّ راحَ وتَرَكَها**»[1]، وقال: «**ما الدُّنْيا في الآخِرة إلَّا كما يُدخِلُ أحَدُكُم إصْبَعَه في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟**»[2]، فشَبَّه الدُّنيا في جنب الآخرة بما يعلق على الإصبع من البلل حين تُغمَس في البحر.

قال عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه: «لو أنَّ الدنيا مِن أوَّلها إلى آخِرِها أُوتيها رجُلٌ، ثم جاءه الموتُ: لكان بمنزلة مَن رأى في منامه ما يَسُرُّه، ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيءٌ».

وقال مُطرِّفُ بن عبد الله ـ أو غيرُه ـ: «نعيمُ الدُّنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة؛ أقلُّ مِن ذَرَّة في جنب جبال الدنيا». ومَن حَدَّق عينَ بصيرته في الدنيا والآخرة؛ عَلِم أنَّ الأمر كذلك.

فكيف يَليقُ بصحيح العقلِ والمعرفةِ: أن يَقطعَه أملٌ مِن هذا الجزءِ الحقيرِ عن نَعيم لا يَزولُ، ولا يَضمحِلُّ؟ فضْلًا عن أن يَقطَعه عن طلَبِ مَن نِسبةُ هذا النَّعيمِ الدَّائمِ إلى نعيم معرفتِه ومحبَّتِه، والأُنسِ به، والفرحِ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٠٣)، وأحمد (٣٧٠٩)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأبو يعلى (٤٩٩٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) من حديث المستورد رضي الله عنه.

بقُربه، كنِسبةِ نعيم الدُّنيا إلى نعيم الجنَّةِ؟ قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، فيسيرٌ مِن رِضوانه ـ ولا يُقال له يسير ـ أكبَرُ مِنَ الجنَّات وما فيها.

وفي حديث الرؤية: «**فوالله ما أعْطاهُمُ اللهُ شَيئًا أحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إلى وَجْهِه**»[(١)]، وفي حديثٍ آخَرَ: «**إنَّهُم إذا رَأوْهُ ـ سبحانه ـ لمْ يَلتفِتُوا إلى شَيءٍ ممَّا هُمْ فيه مِنَ النَّعيمِ، حتَّى يَتوارَى عنهُم**».

فمَن قطَعَه عن هذا أمَلٌ، فقد فاز بالحِرمان، ورضِيَ لنفْسِه بغايةِ الخُسران. والله المستعان، وعليه التُّكلان، وما شاء الله كان.

قوله: (**ولا تَعُوقُه أُمْنِيةٌ**)، الأُمنية: هي ما يَتمنَّاه العبدُ من الحظوظ، وجمْعُها: أماني.

والأُمنية: قد تتعلَّق بما لا يُرجى حُصولُه، كما يَتمنَّى العاجزُ المَراتبَ العالية.

والأماني الباطلةُ: هي رُؤوسُ أموالِ المَفاليس، بها يَقطَعون أوقاتَهم ويَلتذُّون بها، كالتِذاذِ مَن زال عقْلُه بالمُسْكِر، أو بالخيالات الباطلةِ.

وفي الحديث المرفوع: «**الكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَه، وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوتِ، والعاجِزُ مَن أتْبَعَ نفْسَه هَواها، وتَمَنَّى على اللهِ الأمانيَّ**»[(٢)].

ولا يَرضى بالأماني عنِ الحقائقِ إلَّا ذَوُو النُّفوسِ الدَّنيئةِ الساقطة. كما قيل:

واتْرُكْ مُنَى النَّفْسِ لا تَحْسَبْهُ يُشْبِعُها ... إنَّ المُنَى رأسُ أموالِ المَفالِيسِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥٣١٩).

وأُمنيةُ الرَّجُلِ تدُلُّ على عُلوِّ همَّتِه وخِسَّتِها، وفي أثَرٍ إلٰهيٍّ: «**إنِّي لا أنظُرُ إلى كَلامِ الحَكيم، وإنَّما أنظُرُ إلى هِمَّتِه**»، والعامة تقول: قيمةُ كلِّ امرئ ما يُحسِنُه. والعارفون يقولون: قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يَطلُبُ.

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: ذَوْقُ الإرادةِ طَعْمَ الأُنْسِ، فلا يَعْلَقُ بهِ شاغِلٌ، ولا يُفسِدُه عارِضٌ، ولا تُكدِّرُه تَفرِقةٌ**).

والفرق بيْن هذه الدرجةِ والَّتي قَبلَها: أنَّ الأُولى وصْفُ حالِ العابد الذي ذاق بتصديقه طَعمَ وعْدِ الرَّبِّ ﷻ، فجَدَّ في العبادة وأعمالِ البرِّ؛ لثِقَتِه بالوعد عليها. وصاحب هذه الدرجةِ: ذاقتْ إرادتُه طَعمَ الأُنس؛ ولهذا عَلَّق حالَ صاحبِ الدَّرجةِ الأُولى بالوعد الجميل، وعلَّق حالَ صاحبِ هذه الدَّرجةِ بالأُنسِ بالله. والأُنسُ به سبحانه أعلى مِنَ الأُنسِ بما يَرْجوه العابدُ مِن نعيمِ الجنَّةِ.

الأنس بالله تعالى من مقامات الإحسان

(**فلا يَعْلَقُ به شاغِلٌ**)؛ أي: لا يَتعلَّقُ به شيءٌ يَشغَلُه عن سُلوكه، وسَيرِه إلى الله؛ لشِدَّةِ طلَبِه الباعثِ عليه أُنْسُه، الَّذي قد ذاق طَعْمَه، وتلذَّذَ بحلاوتِه.

والأُنسُ بالله: حالةٌ وِجْدانيَّةٌ، وهي مِن مقامات الإحسان، تَقوى بثلاثةِ أشياءَ: دوامِ الذِّكر، وصِدقِ المحبَّةِ، وإحسانِ العمل.

وقوَّةُ الأُنسِ وضَعفُه: على حسَب قوَّةِ القُربِ، وكلَّما كان القلبُ مِن ربِّه أقرَبَ، كان أُنْسُه به أقوى. وكلَّما كان منه أَبعَدَ، كانتِ الوَحشةُ بيْنه وبيْن ربِّه أشَدَّ.

قوله: (**ولا يُفسِدُه عارِضٌ**)، العارِضُ المُفسِدُ: هو الَّذي يَعْذِلُ المُحِبَّ، ويَلومُه على النَّشاط في رضا مَحبوبِه وطاعتِه، ويَدْعوه إلى الالتِفات إليه، والوقوفِ معه دُونَ مَطلبِه العالي، فهو كالَّذي يَجيءُ عرَضًا يَمنَعُ المارَّ في طريقِه عن المرور، ويَلفِتُه عن جهةِ مَقصدِه إلى غَيرِها.

قوله: (**ولا تُكدِّرُه تَفْرِقةٌ**)، الكدَر: ضدُّ الصَّفاء. والتَّفرقة: ضِدُّ

الجمعيَّة. والجمعيَّة: هي جمْعُ القلبِ والهِمَّةِ على الله بالحضور معه بحال الأُنس، خاليًا مِن تفرقةِ الخواطر.

و(**التَّفْرِقةُ**) مِن أَعظم مُكدِّراتِ القلب، وهي تُزيلُ الصَّفاءَ الَّذي أَثمَره له الإسلامُ والإيمانُ والإحسان؛ فإنَّ القلب يَصفو بذلك، فتَجيءُ التَّفرقةُ فتُكدِّرُ عليه ذلك الصَّفاءَ، وتُشعِّثُ القلبَ، فيَجِدُ الصَّادقُ أَلَمَ ذلك الشَّعَثِ وأَذاهُ، فيَجتهِدُ في لمِّه، ولا يَلمُّ شعَثَ القلوبِ شيءٌ غيرُ الإقبالِ على الله والإعراضِ عمَّا سِواه، فهناك يُلَمُّ شعَثُه، ويَزولُ كدَرُه، ويَصِحُّ سفَرُه، ويَجِدُ رَوحَ الحياة، ويَذوقُ طَعمَ الحياةِ الملَكيَّة.

أهمية جمع العبد لقلبه وهمّه على رضا محبوبه ومراده

وأعلى منه [ـ جمع الربوبية ـ]: الجمعُ في الأُلوهيَّة، وهو جمْعُ قلبِه وهمِّه وسِرِّه على محبوبِه ومَراضيه ومُرادِه منه، فهو عُكوفُ القلبِ بكُلِّيَّتِه على الله ﷻ، لا يَلتفِتُ عنه يَمنةً ولا يَسرة، فإذا ذاقتِ الهِمَّةُ طَعمَ هذا الجمْعِ؛ اتَّصَل اشتياقُ صاحبِها، وتأجَّجتْ نيرانُ المَحبَّةِ والطَّلبِ في قلبه، وعَدَّ صَبرَه عن مَحبوبِه مِن أعظمِ كبائرِه.

كما قيل:

والصَّبْرُ يُحمَدُ في المَواطِنِ كُلِّها ... إلَّا عَلَيْكَ فإنَّهُ لا يُحمَدُ

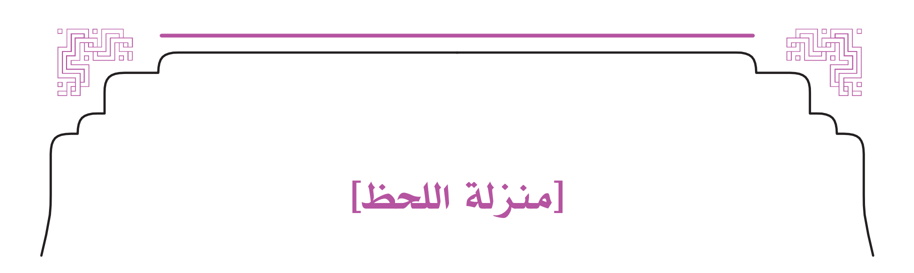
وقد تقدَّم ذِكرُ الأثرِ الإلٰهيِّ: «إنِّي لا أنظُرُ إلى كَلامِ الحَكيمِ، وإنَّما أنظُرُ إلى هِمَّتِه».

فللَّه همَّةُ نفْسٍ قَطَعتْ جميعَ الأكوان، وسارتْ فما أَلْقَتْ عصا السير إلَّا بيْن يدَي الرَّحمٰنِ تبارك وتعالى، فسجدَتْ بيْن يديه سجدةَ الشُّكر على الوصول إليه، فلم تَزَلْ ساجدةً حتى قيل لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

فسبحان مَن فاوَتَ بيْن الخلْقِ في هِمَمِهم، حتى ترى بين الهِمَّتَينِ أَبعَدَ ممَّا بين المشرقين والمغربين، بل أبعدَ ممَّا بين أسفلِ سافِلينَ

وأعلى عِلِّيِّينَ، وتلك مَواهبُ العزيزِ الحكيم: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: ٢١].





[منزلة اللحظ]

قال شيخ الإسلام: (**قال الله تعالى**: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]).

قلتُ: يريدُ ـ والله أعلم ـ بالاستِشهادِ بالآية: أن الله سبحانه أراد أن يُريَ موسى ﷺ مِن كمال عظمتِه وجلالِه ما يَعلَمُ به أنَّ القوَّةَ البشَريَّةَ في هذه الدَّارِ لا تَثبُتُ لرؤيتِه ومَشاهدتِه عِيانًا؛ لصيرورةِ الجبلِ دَكًّا عِندَ تَجلِّي ربِّه سبحانه أَدْنى تَجلٍّ.

لأنَّ اللهَ سبحانه أَمَر موسى أن يَنظُرَ إلى الجبلِ حين تَجلَّى له ربُّه، فرأى أثَرَ التَّجلِّي في الجبلِ دَكًّا، فخَرَّ موسى صَعِقًا.

مفهوم اللحظ ومعناه

قال الشيخ: (**اللَّحْظُ: لَمْحٌ مُسْتَرقٌ**)، فوصَفَ (**اللَّمْح**) بأنَّه (**مُسْتَرَقٌ**)، كما يُقال: سارَقْتُه النَّظرَ، وهو لَمْحٌ بخُفيةٍ، بحيث لا يَشعُرُ به المَلموحُ.

ولهذا الاستراقِ أسبابٌ: منها: تعظيمُ المَلموحِ وإجلالُه، فالنَّاظرُ يُسارِقُه النَّظرَ، ولا يُحِدُّ نظرَه إليه إجلالًا له. كما كان أصحابُ النَّبيِّ ﷺ لا يُحِدُّون النَّظرَ إليه إجلالًا له. وقال عَمرُو بن العاص: «لم أكُنْ أَمْلأُ عَيْنيَّ منه إجلالًا له، ولو سُئِلْتُ أن أصِفَه لكم لَمَا قدرْتُ؛ لأنِّي لم أكُن أملأُ عَيْني منه»[(١)].

فهكذا صاحبُ هذه الحالِ إذا لاحَظَ بقلبه جلالَ الرُّبوبيَّة، وكمالَ الربِّ سبحانه، وكمالَ نُعوتِه، ومواقعَ لُطفِه وفضلِه وبرِّه وإحسانِه؛ استرقَّ قلبُه له وصارتْ له عبوديَّةٌ خاصَّةٌ.

* * *

(١) أخرجه مسلم (١٢١).

من أعظم مقامات الإيمان: الفرح بالله، والسرور به

اللَّحظ مِنَ العبد يُنبِتُ له السُّرورَ، إذا عَلِمَ أنَّ فضْلَ ربِّه قد سَبَق له بذلك قبل أن يَخلُقه، مع عِلمِه به وبأحوالِه وتقصيرِه، على التفصيل، ولم يَمنَعْه عِلمُه به أن يُقدِّرَ له ذلك الفضلَ والإحسان، فهو أَعلَمُ به إذْ أنشأه مِنَ الأرض، وإذْ هو جَنينٌ في بطنِ أمِّه، ومع ذلك فقَدَّر له مِنَ الفضل والجُودِ ما قدَّره بدونِ سببٍ منه، بل مع عِلمِه بأنَّه يأتي مِنَ الأسباب ما يقتضي قَطْعَ ذلك ومَنْعَه عنه.

فإذا شاهَدَ العبدُ ذلك؛ اشتَدَّ سُرورُه بربِّه، وبمواقع فضْلِه وإحسانِه، وهذا فَرَحٌ محمودٌ غيرُ مذموم. قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

ففضْلُه: الإسلامُ والإيمان، ورحمتُه: العِلمُ والقُرآن. وهو يُحِبُّ مِن عبدِه أن يَفرَحَ بذلك ويُسَرَّ به، بل يُحِبُّ مِن عبدِه أن يَفرَحَ بالحسنةِ إذا عَمِلَها وأن يُسَرَّ بها، وهو في الحقيقة فَرَحٌ بفضلِ الله؛ حيث وفَّقه اللهُ لها، وأعانه عليها، ويَسَّرَها له، ففي الحقيقةِ إنَّما يَفرَحُ العبدُ بفضْلِ اللهِ وبرحمتِه.

ومِن أَعظم مَقاماتِ الإيمان: الفَرَحُ بالله، والسُّرورُ به، فيَفرَحُ به إذْ هو عبْدُه ومُحِبُّه، ويَفرَحُ به سبحانه ربًّا وإلهًا، ومُنْعِمًا ومُرَبِّيًا، أشَدَّ مِن فَرَحِ العبدِ بسيِّدِه المخلوقِ المُشْفِقِ عليه، القادرِ على ما يُريدُه العبدُ ويَطلُبُه منه، المُتنَوِّعِ في الإحسانِ إليه، والذَّبِّ عنه.

فإنَّ السُّرورَ والفرحَ يَبسُطُ النَّفْسَ ويُنميها، ويُنسيها عيوبَها وآفاتِها ونقائصَها؛ إذْ لو شَهِدَتْ ذلك وأبصَرَتْه لشَغَلَها ذلك عن الفرَح.

وأيضًا فإنَّ الفرحَ بالنِّعمةِ قد يُنسيه المُنعِمَ، ويَشتغِلُ بالخِلْعةِ الَّتي خَلَعها عليه عنه، فيَطفحُ عليه السُّرورُ، حتَّى يَغيبَ بنعمتِه عنه، وهنا يكونُ المَكرُ إليه أَقرَبَ مِنَ اليدِ للفَم.

ولله كَمْ هاهنا مِن مُستَرَدٍّ منه ما وُهِبَ له عِزَّةً وحِكمةً! وربَّما كان ذلك رحمةً به؛ إذْ لو استَمَرَّ على تلك الولايةِ لخِيفَ عليه مِنَ الطُّغيانِ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦،

٧]، فإذا كان هذا غِنًى بالحُطام الفاني، فكيف بالغِنى بما هو أعلى مِن ذلك وأكثَرُ؟ فصاحبُ هذا إنْ لم يَصحَبْهُ حذَرُ المَكرِ: خِيفَ عليه أن يُسلَبَه ويَنحَطَّ عنه.

من أحيل على نفسه فقد مكر به

و(**المَكْرُ**) الذي يُخافُ عليه منه: أنْ يُغيِّبَ اللهُ سبحانه عنه شُهودَ أوَّليتِه في ذلك ومِنَّتِه وفضْلِه، وأنَّه مَحْضُ مِنَّتِه عليه، وأنَّه به وحدَه، ومنه وحدَه، فيغيبُ عن شُهودِ حقيقةِ قولِه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقولِه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقولِه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧]، وقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وأمثالِ ذلك.

فيُغيِّبُه عن شُهودِ ذلك، ويُحيلُه على معرفتِه في كسْبِه وطلَبِه، فيُحيلُه على نفْسِه الَّتي لها الفقرُ بالذَّاتِ، ويَحجُبُه عن الحَوالةِ على المَلِيء الوَفيِّ الَّذي له الغِنى التَّامُّ كلُّه بالذَّاتِ، فهذا مِن أعظمِ أسبابِ المَكرِ. والله المستعان.

ولو بَلَغ العبدُ مِنَ الطَّاعةِ ما بَلَغ، فلا يَنبَغي له أنْ يُفارِقَه هذا الحذَرُ، وقد خافه خيارُ خَلْقِه، وصَفْوَتُه من عبادِه. قال شُعَيب ﷺ، وقد قال له قومُه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، فرَدَّ الأمر إلى مَشيئةِ اللهِ تعالى وعِلمِه؛ أدبًا مع الله، ومعرفةً بحقِّ الرُّبوبيَّة، ووُقوفًا مع حدِّ العُبوديَّة، وكذلك قال إبراهيمُ ﷺ لقومِه ـ وقد خوَّفُوه بآلهتِهم ـ فقال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، فرَدَّ الأمرَ إلى مشيئةِ اللهِ وعِلمِه. وقد قال تعالى:

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩].

وبالجملة؛ فمَن أُحيلَ على نفْسِه، فقد مُكِر به.

عن مُطَرِّف قال: «وجدْتُ هذا الإنسانَ مُلْقى بيْن اللهِ ﷻ وبيْن الشَّيطانِ، فإنْ يَعلَمِ اللهُ تعالى في قلْبِه خيرًا يَجبذْهُ إليه، وإنْ لم يَعلَمْ فيه خيرًا وَكَلَه إلى نفْسِه، ومَن وكَلَه إلى نفْسِه فقد هلَكَ».

وقال جعفرُ بنُ سُليمانَ: حدَّثَنا ثابتٌ، عن مُطَرِّفٍ، قال: «لو أُخرِجَ قلبي فجُعِل في يدي هذه في اليسار، وجِيءَ بالخيرِ فجُعِل في هذه اليُمنى، ثم قُرِّبَتْ مِنَ الأُخرى ما استطعْتُ أنْ أُولِجَ في قلْبي شيئًا حتَّى يكونَ اللهُ ﷻ يَضعُه».

وممَّا يدُلُّ على أنَّ الفرحَ مِن أسبابِ المكرِ، ما لمْ يُقارِنْه خَوفٌ: قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال قَومُ قارونَ له: ﴿لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: ٧٦]. فالفرحُ متى كان باللهِ، وبما مَنَّ اللهُ، مقارِنًا للخوفِ والحذَرِ: لم يَضُرَّ صاحبَه، ومتى خلَا عن ذلك: ضَرَّهُ ولا بدَّ.

* * *

[بين الجمعية وفعل العبادات][(١)]

طريقة الأقوياء، أهلِ الاستقامة: القيامُ بالجمعيَّةِ في التَّفرقةِ ما أَمكَنَ؛ فيقوم أحدُهم بالعبادات، ونفْعِ الخَلْق، والإحسانِ إليهم، مع جمعيَّتِه على الله، فإنْ ضَعُفَ عنِ اجتِماعِ الأمْرَينِ، وضاق عن ذلك:

---

(١) نعتذر لعدم تمكننا من وضع سياق مناسب لكلام ابن القيم قبل هذا المقطع والذي يليه، ولنفاسة كلام ابن القيم فيهما؛ آثرنا أن نضع عنوانًا لهما.

قامَ بالفرائض، ونزَل عنِ الجمعيَّة، ولم يَلتفِتْ إليها، إذا كان لا يَقدِرُ على تحصيلِها إلَّا بتعطيل الفرضِ؛ فإنَّ ربَّه سبحانه يريدُ منه أداءَ فرائضِه، ونفْسَه تريدُ الجمعيَّةَ، لِما فيها مِنَ الرَّاحة واللَّذَّة، والتَّخلُّصِ مِن ألَمِ التَّفرقةِ وشعَثِها، فالفرائضُ حقُّ ربِّه، والجمعيَّةُ حظُّه هو.

فالعبوديَّةُ الصَّحيحةُ: توجِبُ عليه تقديمَ أحدِ الأمْرَينِ على الآخَر، فإذا جاء إلى النَّوافلِ، وتعارَضَ عِندَه الأمْران؛ فمِنهم مَن يُرجِّحُ الجمعيَّةَ، ومنهم مَن يرجِّحُ النَّوافلَ، ومنهم مَن يؤْثِرُ هذا في وقتٍ وهذا في وقت.

والتَّحقيقُ ـ إن شاء الله ـ أنَّ تلك النَّوافلَ إنْ كانت مصلحتُها أَرجَحَ مِنَ الجمعيَّة، ولا تُعوِّضُه الجمعيَّةُ عنها؛ اشتَغل بها، ولو فاتتِ الجمعيَّةُ، كالدَّعوةِ إلى الله، وتعليمِ العِلمِ النَّافعِ، وقيامِ وسَطِ اللَّيلِ، والذِّكرِ أوَّلَ اللَّيلِ وآخِرَه، وقراءةِ القرآنِ بالتَّدبُّر، ونَفْلِ الجهادِ، والإحسانِ إلى المُضْطَرِّ، وإغاثةِ المَلهوفِ، ونحوِ ذلك، فهذا كلُّه مَصلحتُه أَرجَحُ مِن مصلحة الجمعيَّة.

وإن كانت مَصلحتُه دُونَ الجمعيَّةِ ـ كصلاةِ الضُّحى، وزيارةِ الإخوان، والغُسلِ لحضور الجنائز، وعيادةِ المرضى، وإجابةِ الدَّعوات، وزيارةِ القدس، وضيافةِ الإخوان ونحوِ ذلك ـ فهذا فيه تفصيلٌ.

فإنْ قوِيَتْ جمعيَّتُه فظَهَر تأثيرُها فيه؛ فهي أَولى له، وأنفَعُ مِن ذلك، وإن ضعُفَتِ الجمعيَّةُ، وقوِيَ إخلاصُه في هذه الأعمال؛ فهي أنفَعُ له، وأفضَلُ مِنَ الجمعيَّة.

والمُعوَّلُ عليه في ذلك كلِّه: إيثارُ أَحَبِّ الأمْرَينِ إلى الرَّبِّ تعالى.

وذلك يُعرَفُ بنفعِ العملِ وثمَرتِه، مِن زيادة الإيمانِ به، وترتُّبِ الغاياتِ الحميدةِ عليه، وكثرةِ مواظبةِ الرَّسولِ ﷺ عليه، وشدَّةِ اعتِنائِه به، وكثرةِ الوصيَّةِ به، وإخبارِه أنَّ الله يُحِبُّ فاعِلَه، ويباهي به الملائكةَ، ونحو ذلك.

الصادق في عبوديته لربه يؤثر مرضاته على حظ نفسه

ونُكتةُ المسألةِ وحرفُها: أنَّ الصادقَ في طلبِه يؤْثِرُ مَرضاةَ ربِّه على حظِّه، فإنْ كان رِضا اللهِ في القيام بذلك العملِ، وحظُّه في الجمعيَّة: خلَّى الجمعيَّةَ تَذهَبُ، وقام بما فيه رضا الله.

ومتى عَلِمَ اللهُ مِن قلبه: أنَّ تَردُّدَه وتوقُّفَه ـ ليَعلَمَ: أيُّ الأمْرينِ أحبُّ إلى اللهِ وأرضا له ـ أَنشأَ له مِن ذلك التَّوقُّفِ والتَّردُّدِ حالةً شريفةً فاضلة، حتَّى لو قَدَّم المَفضولَ ـ لظَنِّه أنَّه الأحَبُّ إلى الله ـ: رَدَّتْ تلك النِّيَّةُ والإرادةُ عليه ما ذهَبَ عليه وفاتَه مِن زيادةِ العملِ الآخَرِ. وبالله التوفيق.

السائر إلى الله لا ينقطع سيره إليه ما دام حيًّا

وبعدُ، فالعبدُ ـ وإنْ لاحظَ عَينَ الجمْع، ولم يَغِبْ عنها ـ فهو سائرٌ إلى الله، ولا يَنقطِعُ سَيرُه إليه ما دام في قَيدِ الحياةِ، ولا يَصِلُ العبدُ ما دام حيًّا إلى اللهِ وُصولًا يَستغني به عنِ السَّيرِ إليه البتَّةَ، وهذا عَينُ المُحالِ.

بل يشتدُّ سَيرُه إلى الله كلَّما زادتْ ملاحظتُه لتَوحيدِه، وأسمائه وصفاتِه؛ ولهذا كان رسولُ اللهِ ﷺ أعظمَ الخَلْقِ اجتِهادًا، وقِيامًا بالأعمالِ ومحافظةً عليها إلى أنْ تَوفَّاه الله، وهو أَعظَمُ ما كان اجتِهادًا وقيامًا بوظائفِ العبوديَّةِ؛ فلو أتى العبدُ بأعمالِ الثَّقَلَينِ جميعِها لم تُفارِقْه حقيقةُ السَّيرِ إلى الله، وكان بَعْدُ في طريقِ الطَّلبِ والإرادةِ.

ولقد كان ساداتُ الطَّائفةِ أشَدَّ ما كانوا اجتِهادًا في آخِرِ أعمارِهم.

قال إسماعيل بن نُجَيد: «كان الجُنَيدُ يَجيءُ كلَّ يوم إلى السُّوق، فيَفتحُ بابَ حانوتِه، فيَدخُلُه ويُسْبِلُ السِّترَ، ويُصلِّي أربعَمائةِ ركعةٍ، ثمَّ يَرجِعُ إلى بيته»، «ودخلَ عليه ابنُ عَطاءٍ ـ وهو في النَّزْع ـ فسَلَّمَ عليه، فلم يَرُدَّ عليه، ثم رَدَّ عليه بعد ساعةٍ، فقال: اعذُرني؛ فإنِّي كنتُ في وِرْدي، ثم حَوَّل وجْهَه إلى القِبلة، وكبَّرَ، ومات».

وقال أبو سعيد ابنُ الأعرابيِّ: سمِعتُ أبا بكرٍ العَطَّارَ يقول: «حضرتُ أبا القاسمِ الجُنَيدَ ـ أنا وجماعةٌ مِن أصحابِنا ـ وكان قاعدًا يُصَلِّي، ويُثْني رِجْلَه إذا أراد أن يَسجُدَ، فلمْ يزَلْ كذلك حتَّى خرَجَتِ الرُّوحُ مِن رِجْلَيهِ، فثَقُلَتْ عليه حركَتُها، وكانَتا قد تورَّمَتا، فقال له بعضُ

أصحابِه: ما هذا يا أبا القاسمِ؟ فقال: هذه نِعَمُ اللهِ، اللهُ أَكبَرُ. فلمَّا فرَغ مِن صلاتِه، قال له أبو محمدٍ الجريريُّ: يا أبا القاسم، لو اضْطَجَعْتَ، فقال: يا أبا محمدٍ، هذا وقتٌ يؤخَذُ فيه؟ اللهُ أَكبَرُ. فلمْ يزَلْ ذلك حالُه حتَّى مات».

ودخل عليه شابٌّ ـ وهو في مرضِه الذي مات فيه، وقد تَورَّمَ وجْهُه، وبيْن يدَيهِ مِخَدَّةٌ يُصلِّي إليها ـ فقال: «وفي هذه السَّاعةِ لا تَترُكُ الصَّلاةَ؟ فلمَّا سلَّمَ دعاه، وقال: هذا شيءٌ وصلْتُ به إلى اللهِ، فلا أَدَعُه». ومات بعدَ ساعةٍ ـ رحمةُ الله عليه.

وقال أبو محمدٍ الجريريُّ: «كنتُ واقِفًا على رأس الجُنَيدِ في وقت وفاتِه، وكان يومَ جُمُعةٍ، ويومَ نيروزٍ، وهو يَقرأُ القرآنَ، فقُلْتُ له: يا أبا القاسمِ، ارفُقْ بنفْسِك، فقال: يا أبا محمدٍ، أرأيْتَ أحدًا أَحوَجَ إليه منِّي في مِثلِ هذا الوقتِ، وهو ذا تُطْوى صحيفتي؟».

وقال أبو بكرٍ العَطَويُّ: «كنتُ عِندَ الجُنَيدِ حين مات، فختَمَ القرآنَ، ثمَّ ابتَدَأ في ختمةٍ أخرى، فقرأ مِنَ البقرة سبعين آيةً، ثمَّ مات».

وقال محمدُ بنُ إبراهيمَ: «رأيتُ الجُنيدَ في النَّومِ، فقلتُ: ما فَعَلَ اللهُ بك؟ فقال: طاحتْ تلك الإشاراتُ، وغابتْ تلك العباراتُ، وفَنِيَتْ تلك العُلومُ، ونَفِدَتْ تلك الرُّسومُ. وما نَفَعَنا إلَّا ركَعاتٌ كنَّا نَركَعُها في الأسحار».

* * *

[بين همة البداية والفتور بعدها]

لــذة أوقات البداية وجمع الهمة على الطلب

قال الجُنَيد: «واشَوْقاهُ إلى أوقاتِ البداية».

يعني: لذَّةَ أوقاتِ البداية، وجمْع الهمَّةِ على الطلب، والسَّير إلى الله؛ فإنَّه كان مجموعَ الهمَّةِ على السَّير والطلَب.

فارتاح إلى أوقاتِ البدايات؛ لِما كان فيها مِن لَذَّةِ الإعراضِ عنِ الخَلْقِ، واجتِماعِ الهمَّةِ.

ومَرَّ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ على رجُلٍ، وهو يبكي مِن خشية الله، فقال: «هكذا كنَّا حتَّى قسَتْ قلوبُنا».

تخلل الفترات للسالكين

وقد أخبر النبيُّ ﷺ: «**إنَّ لكُلِّ عامِلٍ شِرَّةً، ولكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرةً**»(١).

فالطالب الجادُّ: لا بد أن تَعرِضَ له فَتْرةٌ، فيَشتاقُ في تلك الفَترةِ إلى حالِه وقتَ الطَّلبِ والاجتِهاد.

«**ولَمَّا فَتَرَ الوَحيُ عن النبيِّ ﷺ كان يَغْدو إلى شواهِقِ الجبالِ لِيُلقيَ نفْسَه، فيَبْدُو له جبريلُ** عليه السلام**، فيقولُ له: إنَّك رسولُ اللهِ، فيَسْكُنُ لذلك جأشُه، وتَطمئِنُّ نفْسُه**»(٢).

فتخلُّلُ الفترَاتِ للسَّالِكينَ: أمْرٌ لازِمٌ لا بدَّ منه، فمَن كانت فَتْرَتُه إلى مُقارَبةٍ وتَسديدٍ، ولمْ تُخرِجْه مِن فرْضٍ، ولم تُدخِلْه في مُحرَّمٍ: رُجيَ له أن يَعودَ خيرًا ممَّا كان.

قال عُمرُ بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ: «إنَّ لهذه القُلوبِ إقبالًا وإدبارًا؛ فإذا أقبلَتْ فخُذوها بالنَّوافلِ، وإنْ أدبرَتْ فألزِموها الفَرائضَ».

وفي هذه الفَتراتِ والغُيومِ والحُجُبِ الَّتي تَعرِضُ للسَّالكينَ مِنَ الحِكَمِ ما لا يَعلَمُ تفصيلَه إلَّا اللهُ، وبها يَتبيَّنُ الصَّادقَ مِنَ الكاذبِ.

فالكاذب: يَنقلِبُ على عَقِبَيه، ويَعودُ إلى رُسوم طبيعتِه وهَواه.

والصَّادقُ: يَنتظِرُ الفرَجَ، ولا يَيأسُ مِن رَوح اللهِ، ويُلْقي نفْسَه بالباب طَريحًا ذليلًا مِسكينًا مُستَكينًا، كالإناءِ الفارغِ الَّذي لا شيءَ فيه

---

(١) أخرجه أحمد (٦٧٦٤)، وابن خزيمة (٢١٠٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه الترمذي (٢٤٥٣)، وقال: «حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن حبان (٣٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٥٠).

(٢) أخرج أصلَه البخاريُّ (٦٩٨٢) مسندًا من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرج الفقرة المذكورة بلاغًا؛ فليستْ هي على شَرْطه.

البَتَّةَ، يَنتظِرُ أن يَضعَ فيه مالِكُ الإناءِ وصانِعُه ما يَصلُحُ له، لا بسببٍ مِنَ العبد ـ وإنْ كان هذا الافتِقارُ مِن أعظَمِ الأسبابِ ـ لكن ليس هو منك؛ بل هو الَّذي مَنَّ عليك به، وجرَّدَك منك، وأَخْلاك عنك، وهو الَّذي يَحُولُ بيْن المرءِ وقلْبِه.

فإذا رأيتَه قد أقامَك في هذا المَقامِ، فاعلَمْ أنَّه يُريدُ أن يَرحمَك ويَملأَ إناءَك، فإنْ وضعْتَ القلبَ في غيرِ هذا الموضعِ فاعلَم أنَّه قلبٌ مُضيَّعٌ، فسَلْ ربَّه ومَن هو بيْن أصابِعه، أن يَرُدَّه عليك، ويَجمَعَ شَمْلَك به، ولقد أحسَنَ القائلُ:

إذا ما وَضَعْتَ القَلْبَ في غَيرِ مَوضِعٍ بِغَيرِ إناءٍ فهْوَ قَلْبٌ مُضَيَّعُ





[منزلة الوقت]

قال صاحب «المنازل»: (قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: ٤٠]).

وجْهُ استشهادِه بالآية: أنَّ الله سبحانه قدَّر مَجيءَ موسى أَحْوجَ ما كان الوقتُ إليه؛ فإنَّ العربَ تَقولُ: جاء فُلانٌ على قدَر؛ إذا جاء وقْتَ الحاجةِ إليه.

والمعنى: جِئتَ على الموعد الَّذي وعَدْناك أن نُنجِزَه، والقَدَرِ الذي قدَّرْنا أن يكونَ في وقتِه؛ لأنَّ الشيءَ إذا وقع في وقتِه الَّذي هو أَلْيَقُ الأوقاتِ بوقوعِه فيه، كان أحسَنَ وأنفعَ وأَجْدى، كما إذا وقَع الغَيثُ في أَحوجِ الأوقاتِ إليه، وكما إذا وقَعَ الفرَجُ في الوقتِ الَّذي يَليقُ به.

ومَن تأمَّلَ أقدارَ الرَّبِّ تعالى، وجرَيانَها في الخَلْقِ: عَلِمَ أنَّها واقعةٌ في أَلْيَقِ الأوقاتِ بها.

فبعَثَ اللهُ سبحانه موسى: أَحوَجَ ما كان النَّاسُ إلى بَعثتِه، وبعَثَ عيسى كذلك، وبعَثَ محمدًا صلى الله عليه وعليهم: أَحوَجَ ما كان أهْلُ الأرضِ إلى إرسالِه، فهكذا وقتُ العبدِ مع اللهِ يُعمِّرُه بأَنفعِ الأشياءِ له: أَحوَجَ ما كان إلى عمارتِه.

قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صحِبتُ الصُّوفيَّةَ فما انتفعْتُ منهم إلَّا بكلمتين؛ سمِعتُهم يقولون: الوقتُ سَيفٌ؛ فإنْ قطَعْتَه وإلَّا قطَعَك، ونفْسُك إنْ لم تَشغَلْها بالحقِّ؛ وإلَّا شغَلَتْك بالباطلِ».

قلتُ: يا لَهما مِن كلمتَينِ، ما أَنفعَهما وأَجمعَهما، وأَدلَّهما على علوِّ همَّةِ قائلِهما، ويقَظَتِه.

وإذا أراد اللهُ بالعبد خيرًا أعانَه بالوقت، وجَعَل وقتَه مساعِدًا له، وإذا أراد به شرًّا جَعَل وقتَه عليه، وناكَدَه وقته، فكلَّما أراد التَّأهُّبَ للمَسيرِ لم يُساعِدْه الوقت.

محبة صاحب الفضل والشوق إلى لقائه

قال: **(الوَقْتُ: حِينُ وَجْدٍ صادِقٍ، لإيناسِ ضِياءِ فَضْلٍ جَذَبَه صَفاءُ رَجاءٍ، أو لِعِصْمةٍ جَذَبَها صِدْقُ خَوْفٍ، أو لِتَلَهُّبِ شَوْقٍ جَذَبَه اشتِعالُ مَحَبَّةٍ)**.

ومقصوده: أنَّ هذا الوقتَ وقتُ وجْدٍ، صاحبُه صادقٌ فيه لرؤيته ضياءَ فضلِ اللهِ ومَنِّه عليه، والفضلُ هو العطاءُ الذي لا يَستَحِقُّه المُعطَى، أو يُعطى فوقَ استحقاقِه، فإذا آنَسَ هذا الفضلَ، وطالَعَه بقلبِه: أثار ذلك فيه وجْدًا آخَرَ باعِثًا على محبَّةِ صاحبِ الفضلِ والشَّوقِ إلى لقائِه، فإنَّ النُّفوسَ مَجبولةٌ على حُبِّ مَن أحسَنَ إليها.

ودخلتُ يومًا على بعضِ أصحابِنا، وقد حصَل له وجْدٌ أبكاه، فسألْتُه عنه؟ فقال: ذكرْتُ ما مَنَّ اللهُ به عليَّ مِنَ السُّنَّةِ ومعرفتِها، والتَّخلُّصِ مِن شُبَهِ القومِ وقَواعدِهمُ الباطلةِ، وموافقةِ العقلِ الصَّريحِ والفِطرةِ السَّليمةِ، لِما جاء به الرَّسولُ ﷺ، فسَرَّني ذلك حتى أبكاني.

فهذا الوَجدُ أثارَه إيناسُ ضياءِ فضلِ اللهِ ومِنَّتِه.

قوله: **(جَذَبَه صَفاءُ رَجاءٍ)**؛ أي: جذَبَ ذلك الوجدَ ـ أو الإيناسَ أو الفضل ـ رجاءٌ صافٍ غيرُ مُكَدَّر. والرَّجاءُ الصَّافي هو الذي لا يَشوبُه كَدَرٌ يوهِم مُعاوضةً منك، وأنَّ عملَك هو الذي بعَثَك على الرَّجاء، فصفاءُ الرَّجاءِ يُخلِّصُه مِن ذلك؛ بل يكونُ رجاءً مَحْضًا لمَن هو مُبتدِئٌ بالنِّعَم مِن غيرِ استِحقاقٍ، والفضلُ كلُّه له ومنه، وفي يدِه أسبابُه وغاياتُه، ووسائلُه، وشروطُه، وصرْفُ مَوانعِه، كلٌّ بيدِ الله؛ لا يستطيعُ العبدُ أن يَنالَ منه شيئًا بدون توفيقِه، وإذنِه ومشيئتِه.

وملخَّصُ ذلك: أنَّ الوقت عبارةٌ عن وجْدٍ صادقٍ، سببُه رؤيةُ فضلِ اللهِ على عبدِه؛ لأنَّ رجاءَه كان صافيًا من الأكدار.

وهذه الثلاثةُ ـ وهي: الحُبُّ والخوفُ والرَّجاءُ ـ هي التي تَبعَثُ على عمارة الوقتِ بما هو الأَولى بصاحبه والأَنفعُ له، وهي أساسُ السُّلوكِ، والمَسيرِ إلى الله سبحانه.

وقد جَمَع سبحانه الثَّلاثةَ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وهذه الثلاثةُ هي قُطبُ رَحَى العُبوديَّةِ، وعليها دارتْ رَحى الأعمالِ. والله أعلم.

* * *

أنواع السالكين

السَّالكونَ ضَرْبانِ: سالِكونَ على الحال، مُلتفِتون إلى العِلم، وهُم إلى التَّمكُّنِ أَقرَبُ، وسالِكون على العِلم، مُلتفِتون إلى الحال، وهُم إلى التَّلوُّنِ أَقرَبُ.

وهذه النُّكتةُ هي المُفرِّقةُ بيْن أهلِ العِلمِ وأهلِ الحالِ، حتَّى كأنَّهما غَيرانِ وحِزبانِ، وكلُّ فِرقةٍ منهما لا تَأنَسُ بالأخرى، ولا تُعاشِرُها إلا على إغماضٍ ونَوعِ استِكراهٍ.

وهذا مِن تقصيرِ الفَريقَينِ؛ حيث ضَعُفَ أحدُهما عنِ السَّيرِ في العِلم، وضعُفَ الآخَرُ عنِ الحالِ في العِلم، فلمْ يتمكَّنْ كلٌّ منهما مِنَ الجمْعِ بيْن الحالِ والعِلم، فأخَذَ هؤلاء العِلمَ وسَعتَه ونورَه ورجَّحوه، وأخَذَ هؤلاء الحالَ وسُلطانَه وتمكينَه ورجَّحوه، وصار الصادقُ الضَّعيفُ مِنَ الفَريقَينِ: يسيرُ بأحدِهما مُلتفِتًا إلى الآخَر.

فهذا مطيعٌ للحال، وهذا مطيعٌ للعِلم، لكنَّ المطيعَ للحال متى عصى به العِلم: كان منقطِعًا مَحجوبًا، وإن كان له مِنَ الحال ما عساه أن يكونَ.

والمطيع للعِلم متى أَعرَضَ به عن الحالِ كان مُضيعًا مَنقوصًا، مشتغِلًا بالوسيلةِ عن الغاية.

وصاحبُ التَّمكينِ: يَتصرَّفُ عِلمُه في حالِه، ويَحكُمُ عليه فيَنقادُ لحُكمِه، ويَتصرَّفُ حالُه في عِلمِه، فلا يدَعُه أن يقفَ معه، بل يَدْعوه إلى

غايةِ العِلم، فيُجيبُه ويُلبِّي دعوتَه، فهذه حالُ الكُمَّلِ مِن هذه الأُمَّة، ومَنِ استَقرأَ أحوالَ الصَّحابةِ وجَدَها كذلك.

فلمَّا فرَّق المُتأخِّرونَ بيْن الحالِ والعِلم: دخَل عليهِمُ النَّقصُ والخَلَلُ، واللهُ المستعانُ ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]، فكذلك يَهَبُ لمَن يَشاءُ عِلْمًا، ويَهَبُ لمَن يشاءُ حالًا، ويَجمَعُ بيْنهما لمَن يَشاءُ، ويُخلي مَن يَشاءُ منهما.

وسِرُّ المسألةِ: أنَّ الواصلَ إلى هذا المَقامِ [أي: الوقت] يَصيرُ له وُجودٌ آخَرُ، غَيرُ وُجودِه الطَّبيعيِّ المشتركِ بيْن جميعِ المَوجوداتِ، ويَصيرُ له نشأةٌ أُخرى لقلبِه ورُوحه، نِسبةُ النَّشأةِ الحيوانيَّةِ إليها كنِسبةِ النَّشأةِ في بطنِ الأُمِّ إلى هذه النَّشأةِ المُشاهَدةِ في العالَم، وكنِسبةِ هذه النَّشأةِ إلى النَّشأةِ الأُخرى.

ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان

فللعبدِ أربعُ نَشآتٍ: نشأةٌ في الرَّحِم، حيث لا بَصَرَ يُدرِكُه، ولا يدٌ تَنالُه. ونشأةٌ في الدُّنيا. ونشأةٌ في البَرزَخ. ونشأةٌ في المَعادِ الثاني. وكلُّ نشأةٍ أَعظَمُ مِنَ الَّتي قَبْلَها، وهذه النَّشأةُ للرُّوحِ والقلبِ أصلًا، وللبدَنِ تَبَعًا.

فللرُّوحِ في هذا العالَم نشأتانِ:

إحدُاهما: النَّشأةُ الطبيعيَّةُ المشتركة.

والثانية: نشأةٌ قلبيَّةٌ رُوحانيَّةٌ، يولَدُ بها قلبُه، ويَنفصِلُ مِن مَشيمةِ طبْعِه، كما وُلِدَ بدَنُه وانفصَل مِن مَشيمةِ البطنِ.

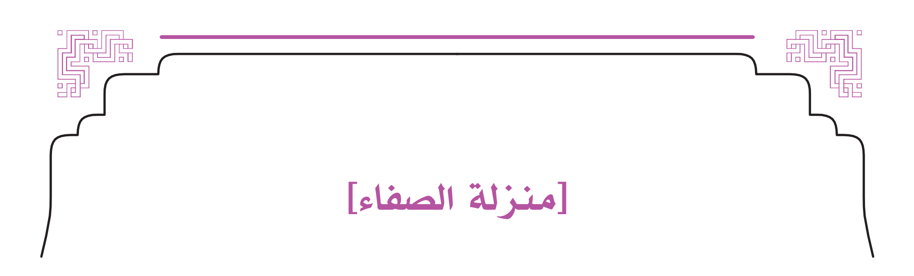
ومَن لم يُصدِّقْ بهذا فليَضرِبْ عن هذا صَفْحًا، وليَشتغِلْ بغيره.

وفي كتاب الزُّهد للإمام أحمدَ: أنَّ المسيحَ قال للحَواريِّينَ: إنَّكم لن تَلِجوا مَلَكوتَ السَّماءِ حتَّى تُولَدوا مرَّتينِ.

وسمِعتُ شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ يقول: «هي وِلادةُ الأرواحِ والقلوبِ مِنَ الأبدانِ، وخروجُها مِن عالَمِ الطَّبيعةِ، كما وُلِدَتِ الأبدانُ

مِنَ البطنِ وخرجتْ منه، والولادةُ الأخرى: هيَ الولادةُ المعروفةُ». والله أعلم.





[منزلة الصفاء]

قال صاحب «المنازل»: (قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: ٤٧]. **الصَّفاءُ: اسْمٌ لِلْبَراءَةِ مِنَ الكَدَرِ، وهو في هذا البابِ: سُقُوطُ التَّلْوِينِ**).

قوله: (**الصَّفاءُ: اسْمٌ لِلْبَراءَةِ مِنَ الكَدَرِ**).

البراءة: هي الخَلاصُ. والكَدَر: امتِزاجُ الطَّيِّبِ بالخبيث.

قوله: (**وهو في هذا البابِ سُقُوطُ التَّلْوِينِ**).

التَّلوين: هو التَّردُّدُ والتَّذَبْذُبُ، كما قيل:

كُلّ وَقْتٍ تَتَلوَّنْ غيرُ هذا بِكَ أَجْمَلْ

درجات الصفاء

قال: (**وهو على ثَلاثِ دَرَجاتٍ**:

الدَّرَجةُ الأُولَى: صَفاءُ عِلْمٍ يُهذِّبُ لِسُلُوكِ الطَّرِيقِ، ويُبصِّرُ غايةَ الجِدِّ، ويُصحِّحُ هِمَّةَ القاصِدِ).

ذكر الشيخُ له في هذه الدَّرجةِ ثلاثَ فوائدَ:

الفائدة الأولى: (**يُهذِّبُ لسُلُوكِ الطَّرِيقِ**) وهذا العِلم الصافي ـ الذي أشار إليه ـ هو العِلمُ الذي جاء به الرَّسولُ صلواتُ الله وسلامُه عليه.

وكان الجُنيدُ يقولُ دائمًا: عِلْمُنا هذا مقيَّدٌ بالكِتابِ والسُّنَّةِ، فمَن لم يَحفَظِ القرآنَ، ولم يَكتُبِ الحديثَ، ولم يَتفقَّهْ فلا يُقْتَدَى به.

فهذا العِلمُ الصافي، المُتلقَّى مِن مِشكاةِ الوَحي والنُّبوَّةِ: يُهذِّبُ صاحبَه لسلوكِ طريقِ العبوديَّةِ. وحقيقتُه: التَّأدُّبُ بآداب رسولِ اللهِ ﷺ باطنًا وظاهرًا، وتحكيمُه باطنًا وظاهرًا، والوقوفُ معه حيث وقَفَ بك،

والمَسيرُ معه حيث سار بك؛ بحيث تَجعَلُه بمنزلةِ شيخِك الَّذي قد ألْقَيْتَ إليه أمْرَك كلَّه، سِرَّه وظاهِرَه، واقتدَيْتَ به في جميعِ أحوالِه، ووقفْتَ مع ما يأمُرُك به، فلا تُخالِفُه البَتَّةَ، فتَجعَلُ رسولَ اللهِ ﷺ لك شيخًا، وإمامًا وقُدوةً وحاكمًا، وتُعلِّقُ قلبَك بقلبِه الكريم، ورُوحانيَّتَك برُوحانيَّتِه، فتُجيبُه إذا دعاك، وتَقِفُ إذا استَوْقَفَك، وتَسيرُ إذا سار بك، وتَقِيلُ إذا قال، وتَنزِلُ إذا نزَل، وتَغضَبُ لغضبِه، وتَرضى لرِضاه، وإذا أَخبَرَك عن شيءٍ أنزلْتَه منزلةَ ما تراه بعينك، وإذا أَخبَرَك عنِ اللهِ بخبرٍ أنزلْتَه منزلةَ ما تَسمَعُه مِنَ اللهِ بأُذُنِك.

وبالجملة؛ فتَجعَلُ الرَّسولَ شيخَك وأستاذَك، ومعلِّمَك ومُربِّيك ومؤدِّبَك، وتُسقِطُ الوسائطَ بيْنك وبيْنه إلَّا في التَّبليغ، كما تُسقِطُ الوسائطَ بيْنك وبيْن المُرسِلِ في العبوديَّة، ولا تُثبِتُ وساطةً إلَّا في وُصولِ أمْرِه ونَهيِه ورسالتِه إليك.

وهذانِ التَّجريدانِ: هُمَا حقيقةُ شَهادةِ أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، فاللهُ وحدَه المعبودُ المألُوه، الَّذي لا يَستحِقُّ العبادةَ سِواه.

ورسولُه: المُطاعُ المُتَّبَعُ، المُهتدَى به، الَّذي لا يَستحِقُّ الطَّاعةَ سِواه، ومَن سِواهُ: فإنَّما يُطاعُ إذا أَمَر بطاعته، فيُطاعُ تبَعًا لا أصلًا.

وبالجملة؛ فالطريقُ مَسدودةٌ إلَّا على مَنِ اقتَفى آثارَ الرَّسولِ ﷺ، واقتَدى به في ظاهِرِه وباطِنِه.

فلا يَتعنَّى السَّالكُ على غيرِ هذا الطَّريقِ؛ فليس حظُّه مِن سُلوكِه إلَّا التَّعبَ، وأعمالُه ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [النور: ٣٩].

ولا يتعنَّى السَّالكُ على هذه الطَّريقِ؛ فإنَّه واصِلٌ ولو زحَف زحْفًا، فأتْباعُ الرَّسولِ ﷺ إذا قعَدَتْ بهم أعمالُهم، قامَتْ بهم عزائمُهم وهِمَمُهم ومُتابعتُهم لنبيِّهم؛ فَهُم كما قيل:

مَنْ لي بمِثْلِ سَيْرِكَ المُدَلَّلِ   تَمشِي رُوَيْدًا وتَجِي في الأوَّلِ

قوله **(ويُبصِّرُ غايةَ الجِدِّ)** الجِدُّ: الاجتِهادُ والتَّشميرُ، و**(الغاية)**: النِّهاية.

يريد: أنَّ صفاءَ العِلم يَهْدي صاحبَه إلى الغاية المقصودةِ بالاجتِهادِ والتَّشمير؛ فإنَّ كثيرًا مِنَ السَّالِكينَ ـ بل أكثرَهم ـ سالِكٌ بجِدِّه واجتِهادِه، غيرُ مُنتبِهٍ إلى المقصود.

وأَضرِبُ لك في هذا مَثَلًا حسَنًا جدًّا، وهو: أنَّ قومًا قَدِموا مِن بلادٍ بعيدةٍ عليهم أثَرُ النَّعيم والبَهجة، والملابس السَّنِيَّة، والهيئة العجيبة، فعَجِبَ النَّاسُ لهم، فسألُوهم عن حالهم؟ فقالوا: بلادُنا مِن أحسَنِ البلاد، وأجمَعِها لسائرِ أنواعِ النَّعيم، وأرخاها وأَكثَرِها مِياهًا، وأصَحِّها هواءً، وأكثَرِها فاكهةً، وأَعظَمِها اعتِدالًا، وأهْلُها كذلك أحسَنُ النَّاسِ صُوَرًا وأبشارًا، ومع هذا فمَلِكُها لا يَنالُه الوصفُ جمالًا وكمالًا، وإحسانًا وعِلمًا وحِلمًا، وجُودًا ورحمةً للرَّعيَّة، وقُربًا منهم، وله الهَيبةُ والسَّطوةُ على سائرِ مُلوكِ الأطرافِ، فلا يَطمَعُ أحدٌ منهم في مُقاوَمتِه ومحاربتِه، فأهلُ بلدِه في أمانٍ مِن عدوِّهم، لا يَحُلُّ الخَوفُ بساحتِهم، ومع هذا: فله أوقاتٌ يَبرُزُ فيها إلى رَعِيَّتِه، فيُسهِّلُ لهم الدُّخولَ عليه، ويَرفَعُ الحِجابَ بيْنه وبيْنهم، فإذا وقعَتْ أبصارُهم عليه: تلاشى عِندَهم كلُّ ما هُم فيه مِنَ النَّعيم واضْمَحَلَّ، حتى لا يَلتفِتون إلى شيءٍ منه، فإذا أَقبَلَ على واحدٍ منهم: أَقبَلَ عليه سائرُ أهلِ المملكةِ بالتَّعظيم والإجلال، ونحنُ رُسُلُه إلى أهلِ البلادِ، نَدْعوهم إلى حضرته، وهذه كُتُبُه إلى النَّاس، ومعنا مِنَ الشُّهودِ ما يُزيلُ سوءَ الظَّنِّ بنا، واتِّهامَنا بالكذبِ عليه.

أقسام الناس في اتباع هداية الرسل

فلمَّا سمِعَ النَّاسُ ذلك، وشاهَدوا أحوالَ الرُّسُلِ: انقسَموا أقسامًا:

فطائفةٌ قالت: لا نُفارِقُ أوطانَنا، ولا نَخرُجُ مِن ديارِنا، ولا نَتجشَّمُ مشقَّةَ السَّفرِ البعيدِ، ونَترُكُ ما أَلِفْناه مِن عَيشِنا ومَنازِلِنا، ومُفارقة آبائِنا وأبنائِنا وإخوانِنا لأمْرٍ وُعِدْنا به في غيرِ هذه البلاد، ونحنُ لا نَقدِرُ على تحصيلِ ما نحنُ فيه إلَّا بعدَ الجُهدِ والمَشقَّةِ، فكيف نَنتقِلُ عنه؟

ورأتْ هذه الفِرقةُ مُفارقتَها لأوطانِها وبلادِها: كمُفارقةِ أنفُسِها لأبدانِها؛ فإنَّ النفْسَ ـ لشدَّةِ إلْفِها للبدنِ ـ أكرَهُ ما إليها مُفارقتُه، ولو فارقَتْه إلى النَّعيمِ المُقيمِ.

فهذه الطَّائفةُ غلَبَ عليها داعي الحِسِّ والطَّبعِ على داعي العقلِ.

والطَّائفةُ الثانية: لمَّا رأتْ حالَ الرُّسُلِ، وما هُم فيه مِنَ البهجةِ وحُسنِ الحالِ، وعَلِموا صِدْقَهم: تأهَّبُوا للمَسيرِ إلى بلادِ المَلِكِ، فأخَذوا في السَّير، فعارَضَهم أهْلُهم وأصحابُهم وعشائِرُهم مِنَ القاعِدينَ، وعارضَتْهم مَساكِنُهم ودُورُهم وبساتينُهم، فجَعَلوا يُقدِّمون رِجْلًا ويؤَخِّرون أخرى، فإذا تذكَّروا طِيبَ بلادِ المَلِكِ وما فيها مِن سَلْوةِ العَيشِ: تَقدَّموا نَحوَها، وإذا عارَضَهم ما أَلِفُوه واعتادُوه مِن ظِلالِ بلادِهم وعَيشِها، وصُحبةِ أهْلِهم وأصحابِهم: تأخَّروا عنِ المَسير، والتَفَتوا إليهم، فهُم دائمًا بيْن الدَّاعِيينَ والجاذِبِينَ، إلى أن يَغلِبَ أحدُهما ويَقْوى على الآخَر، فيَصيرون إليه.

والطائفةُ الثالثة: رَكِبَتْ ظهورَ عزائمِها، ورأتْ أنَّ بلادَ المَلِكَ أَوْلى بها؛ فوطَّنَتْ أنفُسَها على قصْدِها، ولم يُثْنِها لَومُ اللُّوَّامِ؛ لكن في سَيْرِها بُطْءٌ بحسَبِ ضَعفِ ما كُشِف لها مِن أحوالِ تلك البلادِ وحالِ المَلِكِ.

والطائفةُ الرَّابعة: جدَّتْ في المَسير وواصلَتْه، فسارتْ سَيرًا حثيثًا، فهُم كما قيل:

ورَكْبٍ سَرَوا واللَّيلُ مُرْخٍ سُدُولَهُ ... على كُلِّ مُغْبَرِّ المَطالِعِ قَاتِمِ

حَدَوْا عَزَماتٍ ضاعَتِ الأرضُ بَيْنَها ... فَصارَ سُراهُمْ في ظُهُورِ العَزائِمِ

تُريهِمْ نُجُومُ اللَّيْلِ ما يَطلُبونَهُ ... على عاتِقِ الشِّعْرَى وهَامِ النَّعائِمِ

فهؤلاء هِمَمُهم مصروفةٌ إلى المَسير، وقُواهُم موقوفةٌ عليه مِن غيرِ تَنبُّهٍ منهم إلى المقصودِ الأَعظَمِ، والغايةِ العُليا.

والطائفةُ الخامسة: أخَذوا في الجِدِّ في المَسير، وهِمَّتُهم مُتعلِّقةٌ

بالغاية، فهُم في سَيرِهم ناظِرونَ إلى المقصود بالسَّير، فكأنَّهم يُشاهِدُونه مِن بُعدٍ، وهو يَدْعوهم إلى نفْسِه وإلى بلادِه، فهُم عامِلون على هذا الشَّاهدِ الذي قام بقلوبِهم.

وعمَلُ كلِّ أحدٍ منهم على قدَرِ شاهِدِه، فمَن شاهَدَ المقصودَ بالعملِ في عِلمِه كان نُصحُه فيه، وإخلاصُه وتحسينُه، وبَذْلُ الجُهدِ فيه أَتَمَّ ممَّن لا يُشاهِدُه ولم يُلاحِظْه، ولم يَجِدْ مِن مَسِّ التَّعبِ والنَّصَبِ ما يَجِدُه الغائبُ، والوجودُ شاهدٌ بذلك، فمَن عمِلَ عمَلًا لمَلِكٍ بحَضرتِه، وهو يُشاهِدُه: ليس حالُه كحالة مَن عمِلَ في غَيبتِه وبُعدِه عنه، وهو غيرُ متيقِّنٍ بوصوله إليه.

وقوله: **(ويُصحِّحُ هِمَّةَ القاصِدِ)**؛ أي: ويُصحِّحُ له صفاءُ هذا العِلمِ هِمَّتَه، ومتى صحَّتِ الهِمَّةُ عَلَتْ وارتفعتْ، فإنَّ سُفولَها ودناءتَها مِن عِلَّتِها وسَقَمِها، وإلَّا فهي كالنَّارِ تَطلُبُ الصُّعودَ والارتفاعَ ما لم تُمنَعْ.

مراتب الهمم وأعلاها

وأعلى الهِمَمِ: همَّةٌ اتَّصلَتْ بالحقِّ طلَبًا وقصْدًا، وأوصلَتِ الخَلْقَ إليه دَعوةً ونُصحًا، وهذه همَّةُ الرُّسلِ وأَتباعُهم، وصحَّتُها: بتَجريدِها مِنَ انقسامِ طلَبِها، وانقسامِ مَطلوبِها، وانقسامِ طريقِها؛ بل توحَّدَ مَطلوبُها بالإخلاص، وطلَبُها بالصِّدقِ، وطريقُها بالسُّلوكِ خلْفَ الدَّليلِ الَّذي نصَبَه اللهُ دليلًا، لا مَن نصَبَه هو دليلًا له.

ولله الهِمَمُ! ما أعجبَ شأنَها، وأشدَّ تفاوُتَها، فهِمَّةٌ متعلِّقةٌ بمَن فوقَ العرشِ، وهمَّةٌ حائمةٌ حولَ الأنتانِ والحُشِّ، والعامَّةُ تقولُ: قِيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسِنُه، والخاصَّةُ تقول: قيمةُ المرءِ ما يَطلُبُه، وخاصَّةُ الخاصَّةِ تقول: قيمتُه همَّتُه إلى مَطلوبِه.

وإذا أردْتَ أن تَعرِفَ مراتبَ الهِمَمِ، فانظُرْ إلى همَّةِ ربيعةَ بنِ كَعبٍ الأَسْلَميِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقد قال له رسولُ اللهِ ﷺ: «**سَلْنِي**»، فقال: «**أسأَلُكَ مُرافَقتَكَ في الجَنَّةِ**»[1]. وكان غَيرُه يَسألُه ما يَملأُ بطنَه، أو يُواري جِلدَه.

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩).

وانظُرْ إلى همَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ حين عُرِضَتْ عليه مَفاتيحُ كُنوزِ الأرضِ ـ فأباها ـ، ومعلومٌ أنَّه لو أخَذَها لأنفقَها في طاعةِ ربِّه، فأبَتْ له تلك الهِمَّةُ العاليةُ: أن يتعلَّقَ منها بشيء ممَّا سِوى اللهِ ومَحابِّه، وعُرِض عليه أن يَتصرَّفَ بالمُلْكِ، فأَباهُ، واختارَ التَّصرُّفَ بالعُبوديَّةِ المَحْضَةِ، فلا إلٰهَ إلَّا اللهُ خالقُ هذه الهِمَّةِ، وخالقُ نفْسٍ تَحمِلُها، وخالقُ هِمَمٍ لا تَعْدُو هِمَمَ أَخَسِّ الحيوانات.

مطالعة صفات كمال الله وعظمته وثمراتها

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: صَفاءُ حالٍ، يُشاهَدُ به شَواهِدَ التَّحقيقِ، ويُذاقُ به حَلاوةُ المُناجاةِ، ويُنْسَى به الكَونُ**).

والحال: هو تَكيُّفُ القلبِ وانصِباغُه بحُكمِ الوارداتِ على اختِلافِها، والحالُ يَدْعو صاحبَه إلى المَقامِ الَّذي منه جاءَ الواردُ، كما تَدْعوه رائحةُ البُستانِ الطَّيِّبةُ إلى دُخولِه والمُقامِ فيه.

[و] شواهدُ التحقيق، وهي علاماتُه: والتَّحقيقُ هو حُكمُ الحقيقة، وتأثُّرُ القلبِ والرُّوح بها، والحقيقةُ ما تعلَّقَ بالحقِّ المُبينِ سبحانه، فاللهُ هو الحقُّ، والحقيقةُ ما نُسِب إليه وتَعلَّقَ به.

قوله: (**ويُذاقُ به حَلاوةُ المُناجاةِ**).

فإنَّه متى صفَا له حالُه مِنَ الشَّوائبِ، خلصَتْ له حلاوتُه مِن مرارةِ الأكدار، فذاقَ تلك الحلاوةَ في حالِ مُناجاتِه، فلو كان الحالُ مَشوبًا مُكدَّرًا لم يَجِدْ حلاوةَ المُناجاةِ، والحالُ المُستنِدةُ إلى واردٍ تُذاقُ به حلاوةُ المُناجاةِ: هو مِن حضرةِ الأسماءِ والصِّفات، بحسَب ما يُصادِفُ القلبَ مِن ظُهورِها وكشْفِ معانيها.

فمَن ظَهَر له اسمُ الوَدودِ ـ مثَلًا ـ وكُشِف له عن معنَى هذا الاسمِ، ولُطْفِه، وتَعلُّقِه بظاهر العبدِ وباطنِه: كان الحالُ الحاصلُ له مِن حضرةِ هذا الاسمِ مُناسِبًا له.

فكان حال اشتغالِ حُبٍّ وشَوقٍ، ولَذَّةِ مُناجاةٍ، لا أحلى منها ولا أَطْيَبَ، بحسَبِ استِغراقِه في شُهودِ معنَى هذا الاسمِ، وحَظِّه مِن أثَرِه.

فإنَّ الوَدودَ ـ وإنْ كان بمعنَى المَوْدودِ، كما قال البُخاريُّ في صحيحه: الوَدودُ: الحبيبُ ـ واستغراق العبد في مطالعة صفاتِ الكمالِ الَّتي تَدْعو العبادَ إلى حُبِّ المَوصوفِ بها: أثمر له صفاءُ عِلمِه بها، وصفاءُ حالِه في تعبُّدِه بمُقتضاها: ما ذكره الشَّيخُ مِن هذه الأمورِ الثَّلاثةِ وغَيرِها.

وكذلك إنْ كان بمعنى الوادِّ، وهو المُحِبُّ: أَثمَرَتْ له مُطالعةُ ذلك حالًا تُناسِبُه.

فإنَّه إذا شاهَدَ بقلبه غنيًّا كريمًا جَوادًا عزيزًا قادرًا، كلُّ أحدٍ مُحتاجٌ إليه بالذَّات، وهو غنيٌّ بالذَّاتِ عن كلِّ ما سِواهُ، وهو ـ مع ذلك ـ يَوَدُّ عِبادَه ويُحِبُّهم، كان له مِن هذا الشُّهودِ حالةٌ صافيةٌ خالِصةٌ مِنَ الشَّوائبِ.

وكذلك سائرُ الأسماءِ والصِّفاتِ، فصفاءُ الحالِ بحسَب صفاءِ المعرفةِ بها، وخُلوصِها مِن دم التَّعطيلِ وفَرْثِ التَّمثيلِ، فتَخرُجُ المعرفةُ مِن بيْن ذلك فِطرةً خالِصةً سائغةً للعارِفينَ، كما يَخرُجُ اللَّبنُ مِن بيْن فَرْثٍ ودَمٍ لبنًا خالِصًا سائغًا للشَّارِبينَ.

والأمر الثالث: قوله: (**ويُنْسَى به الكَونُ**)؛ أي: يُنسى الكَونُ بما يَغلِبُ على القلب مِنَ اشتِغالِه بهذه الحالِ المذكورةِ، والمرادُ بالكَونِ: المخلوقاتُ؛ أي: فيَشتغِلُ بالحقِّ عنِ الخَلْقِ.

اندراج حظ العبودية في حق الربوبية

قال: (**الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: صَفاءُ اتِّصالٍ، يُدْرِجُ حَظَّ العُبُوديَّةِ في حَقِّ الرُّبُوبيَّةِ، ويُغرِقُ نِهاياتِ الخَبَرِ في بِداياتِ العِيَانِ**).

ومرادُ القومِ بالاتصال والوُصولِ: اتِّصالُ العبدِ بربِّه، ووُصولُه إليه.

قوله: (**يُدرِجُ حَظَّ العُبوديَّةِ في حَقِّ الرُّبوبيَّةِ**).

المعنى الصحيح، الذي يُحمَل عليه هذا الكلامُ: أنَّ مَن تمكَّنَ في قلبِه شهودُ الأسماءِ والصِّفاتِ، وصَفَا له عِلْمُه وحالُه: اندرَج عمَلُه جميعُه وأضعافُه وأضعافُ أضعافِه في حقِّ ربِّه تعالى، ورآه في جنبِ

حقِّه أقَلَّ مِن خَرْدَلةٍ بالنِّسبةِ إلى جبالِ الدُّنيا، فسقَطَ مِن قلبِه اقتِضاءُ حظِّه مِنَ المُجازاةِ عليه؛ لاحتِقارِه له، وقِلَّتِه عِندَه، وصِغَرِه في عَينِه.

قال الإمام أحمدُ: حدَّثَنا هاشمُ بنُ القاسم، حدَّثَنا صالحٌ، عن أبي عِمرانَ الجَونيِّ، عن أبي الجلد: أنَّ اللهَ تعالى أوحى إلى داودَ: «يا داودُ، أنذِرْ عِبادي الصِّدِّيقين، فلا يُعجَبُنَّ بأنفُسِهم، ولا يَتَّكِلُنَّ على أعمالِهم؛ فإنَّه ليس أحدٌ مِن عِبادي أَنصِبُه للحساب، وأُقيمُ عليه عَدْلي إلَّا عذَّبْتُه، مِن غيرِ أنْ أَظلِمَه، وبَشِّرْ عِبادي الخَطَّائينَ: أنَّه لا يَتعاظَمُني ذنبٌ أنْ أَغفِرَه وأَتَجاوَزَ عنه»[1].

وقال الإمام أحمدُ: وحدَّثَنا سَيَّار، حدَّثَنا جعفر، حدَّثَنا ثابتٌ البُنانيُّ، قال: «تَعَبَّدَ رجُلٌ سبعين سَنةً، وكان يقولُ في دعائِه: ربِّ اجْزِني بعَمَلي، فمات، فأُدخِلَ الجنَّةَ، فكان فيها سبعين عامًا، فلمَّا فرَغ وقْتُه، قيل له: اخرُجْ، فقد استوفَيْتَ عمَلَك، فقلَّبَ أمْرَه: أيُّ شيءٍ كان في الدُّنيا أَوثَقَ في نفْسِه؟ فلم يَجِدْ شيئًا أَوْثقَ في نفْسِه مِن دعاءِ اللهِ، والرَّغبةِ إليه، فأَقبَلَ يقولُ في دعائِه: ربِّ سَمِعْتُك ـ وأنا في الدُّنيا ـ وأنت تُقيلُ العثراتِ، فأَقِلِ اليومَ عَثْرَتي، فتُرِك في الجنَّة»[2].

وقال أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ: حدَّثَنا هاشِم، حدَّثَنا صالح، عن أبي عِمرانَ الجَونيِّ، عن أبي الجلد، قال: «قال موسى: إلٰهي، كيف أَشكُرُك، وأَصغَرُ نعمةٍ وضعْتَها عِندي مِن نِعَمِك لا يُجازيها عمَلي كلُّه؟ فأوحى اللهُ تعالى إليه: يا موسى، الآنَ شكَرْتَني»[3].

فهذا المعنى الصَّحيحُ مِنَ اندراجِ حَظِّ العُبوديَّةِ في حقِّ الرُّبوبيَّةِ.

وله مَحمَلٌ آخَرُ صحيحٌ أيضًا، وهو أنَّ ذاتَ العبدِ وصِفاتِه وأفعالَه وقُواهُ وحركاتِه: كلُّها مفعولةٌ للرَّبِّ، مملوكةٌ له، ليس يَملِكُ العبدُ منها

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٧٦).
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٤٩٨).
(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٤٩).

شيئًا، بل هو مَحْضُ مُلكِ الله، فهو المالكُ لها، المُنعِمُ على عبدِه بإعطائِه إيَّاها، فالمالُ مالُه، والعبدُ عبدُه، والخدمةُ مُستحَقَّةٌ عليه بحقِّ الرُّبوبيَّة، وهي مِن فضلِ اللهِ عليه، فالفضلُ كلُّه لله، ومِنَ الله، وبالله.

سمو مقام المشاهدة والعيان

قوله: **(ويُغرِقُ نِهاياتِ الخَبَرِ في بِداياتِ العِيَانِ)** ومقصودُه: أن يرى المُشاهِدُ ما أَخبَرَ به الصَّادقُ بقلبِه عِيانًا، قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]؛ فقابَلَ مَن رأى بعينِ قلبِه أنَّ ما أنزل إلى رسولِه هو الحقُّ بمَن هو أعمى لا يُبصِرُ ذلك. وقال النبيُّ ﷺ في مقامِ الإحسانِ: «**أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَراهُ**»[1]، ولا ريبَ أنَّ تصديقَ الخبرِ واليقينَ به يُقوِّي القلب، حتى يَصيرَ للقلبِ بمنزلةِ المُشاهَدِ بالعينِ، فصاحِبُ هذا المَقامِ: كأنَّه يرى ربَّه سبحانه فَوقَ سماواتِه على عرشه، مُطَّلِعًا على عبادِه ناظِرًا إليهم، يَسمَعُ كلامَهم، ويرى ظواهرَهم وبواطنَهم.

وكأنَّه يَسمَعُه وهو يتكلَّمُ بالوَحيِ، ويُكلِّمُ به عبْدَه جِبريلَ، ويأمُرُه ويَنهاه بما يُريدُ، ويُدبِّرُ أمْرَ المَملكةِ، وأملاكُه صاعدةٌ إليه بالأمر، نازِلةٌ مِن عِندِه به.

وكأنَّه يُشاهِدُه وهو يَرضى ويَغضَبُ، ويُحِبُّ ويُبغِضُ، ويُعطي ويَمنَعُ، ويَضحَكُ ويَفرَحُ، ويُثْني على أوليائِه بيْن ملائكتِه، ويَذُمُّ أعداءَه.

وكأنَّه يُشاهِدُ يدَيهِ الكريمتَينِ وقد قبضَتْ إحداهُما السَّمواتِ السَّبْعَ، والأخرى الأَرَضينَ السَّبْعَ، وقد طَوى السَّمواتِ السَّبْعَ بيدِه، كما يُطوى السِّجِلُّ على أَسطُرِ الكتابِ.

وكأنَّه يُشاهِدُه سبحانه وقد جاء لفصلِ القضاءِ بيْن عبادِه، فأَشرَقَتِ الأرضُ بنُورِه.

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

ونادى ـ وهو قائمٌ على عرشه ـ بصَوتٍ يَسمَعُه مَن بَعُدَ كما يَسمَعُه مَن قَرُبَ: «وعِزَّتي وجَلَالي، لا يُجاوِزُني اليَومَ ظُلْمُ ظالِمٍ»(١).

وكأنَّه يَسمَعُ نِداءَه لآدَمَ: «يا آدَمُ، قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ»(٢) بأُذُنِه الآنَ، وكذلك نداءَه لأهلِ الموقفِ: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص: ٦٥] وماذا كنتُم تَعبُدون؟(٣).

وبالجملة؛ فيُشاهِدُ بقلبِه ربًّا عرَّفَتْ به الرُّسُلُ، كما عرَّفَتْ به الكُتُبُ، ودِينًا دعَتْ إليه الرُّسُلُ، وحقائقَ أَخبَرَتْ بها الرُّسُلُ؛ فقام شاهِدُ ذلك بقلبِه كما قام شاهِدُ ما أَخبَرَ به أهلُ التَّواتُرِ ـ وإنْ لم يَرَهُ ـ مِنَ البلاد والوقائع، فهذا إيمانُه يَجري مَجرى العِيانِ، وإيمانُ غَيرِه فمَحْضُ التَّقليدِ.



(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.



[منزلة السرور]

قال صاحب «المنازل»: (قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨]).

فإنَّ الله تعالى أمَرَ عبادَه بالفرَحِ بفضلِه ورحمتِه، وذلك تَبَعٌ للفرَحِ والسُّرورِ بصاحبِ الفضلِ والرَّحمةِ، فإنَّ مَن فَرِحَ بما يَصِلُ إليه مِن جَوَادٍ كريمٍ مُحسِنٍ بَرٍّ كان فرَحُه بمَن أوصَلَ ذلك إليه: أَوْلى وأَحْرى.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] وقال أبو سعيدٍ الخُدْريُّ رضي الله عنه: «فضْلُ اللهِ: القُرآنُ، ورحمتُه: أنْ جعلَنا مِن أهْلِه»[1].

قلتُ: يريدُ بذلك أنَّ هاهنا **أمْرَينِ**:

أحدهما: الفضلُ في نفْسِه.

والثاني: استعدادُ المحلِّ لقَبولِه، كالغَيثِ يَقَعُ على الأرضِ القابلةِ للنبات؛ فيَتِمُّ المقصودُ بالفضل، وقَبولُ المحلِّ له. والله أعلم.

مفهوم الفرح وآثاره

والفرَحُ لذَّةٌ تَقَعُ في القلبِ بإدراك المحبوبِ ونَيلِ المُشتهَى؛ فيتَولَّدُ مِن إدراكِه حالةٌ تُسمَّى الفرحَ والسُّرورَ، كما أنَّ الحزنَ والغَمَّ مِن فقْدِ المحبوبِ؛ فإذا فقَدَه: تولَّدَ مِن فقْدِه حالةٌ تُسمَّى الحزنَ والغَمَّ.

وذكَرَ سبحانه الأمرَ بالفرح بفضلِه وبرحمتِه عَقِيبَ قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٠٦٦)، والطبراني في «الأوسط» (٥٥١٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٦٠).

ولا شيءَ أحَقُّ أن يُفرَحَ به مِن فضل ورحمةٍ تتضمَّنُ الموعظةَ وشِفاءَ الصُّدورِ مِن أدوائِها بالهدى والرَّحمة.

فأَخبَر سبحانه: أنَّ ما آتى عبادَه مِنَ الموعظةِ ـ الَّتي هي الأمرُ والنَّهيُ، المقرونُ بالتَّرغيبِ والتَّرهيب، وشفاءِ الصُّدورِ المُتضمِّنِ لعافيتها مِن داءِ الجهلِ، والظُّلْمةِ، والغيِّ، والسَّفَهِ ـ وهو أشدُّ ألَمًا لها مِن أدواء البدن، ولكنَّها لمَّا أَلِفَتْ هذه الأدواءَ لم تُحِسَّ بألمِها، وإنَّما يَقْوى إحساسُها بها عِندَ المفارقةِ للدُّنيا، فهناك يَحضُرُها كلُّ مؤْلِمٍ مُحزِنٍ، وما آتاها مِن الهُدى الَّذي يَتضمَّنُ ثلجَ الصُّدورِ باليقين، وطُمأنينةَ القلبِ به، وسُكونَ النفْسِ إليه، وحياةَ الرُّوحِ به، والرَّحمةَ الَّتي تَجلِبُ لها كلَّ خيرٍ ولذَّةٍ، وتَدفَعُ عنها كلَّ شرٍّ ومؤْلِمٍ.

فذلك خيرٌ ممَّا يَجمَعُ النَّاسَ مِن أعراضِ الدُّنيا وزينتِها؛ أي: هذا هو الَّذي يَنبَغي أن يُفرَحَ به، ومَن فَرِحَ به فقد فرِحَ بأجَلِّ مَفروحٍ به، لا ما يَجمَعُ أهلُ الدُّنيا منها، فإنَّه ليس بمَوضعٍ للفرح؛ لأنَّه عُرضةٌ للآفات، ووَشِيكُ الزَّوال، ووَخِيمُ العاقبة، وهو كطَيْفِ خَيالٍ زارَ الصَّبَّ في المَنام، ثم انقضَى المَنام، وولَّى الطَّيفُ، وأَعقَبَ مزارَه الهِجران.

فالفرحُ بالله، ورسولِه، وبالإيمانِ، والسُّنَّةِ، والعِلم، والقُرآنِ: مِن أعلى مَقاماتِ العارِفينَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالفرحُ بالعِلمِ والإيمانِ والسُّنَّةِ: دليلٌ على تعظيمِه عِندَ صاحبِه، ومَحبَّتِه له، وإيثارِه له على غيرِه؛ فإنَّ فرَحَ العبدِ بالشَّيءِ عِندَ حُصولِه: على قدْرِ محبَّتِه له، ورغبتِه فيه؛ فمَن ليس له رغبةٌ في الشَّيءِ لا يُفرِحُه حُصولُه له، ولا يَحزُنُه فَواتُه.

فالفرحُ تابعٌ للمحبَّةِ والرَّغبة.

والفرحُ صفةُ كمالٍ؛ ولهذا يوصَفُ الرَّبُّ تعالى بأعلى أنواعِه وأكمَلِها، كفرحِه بتوبةِ التَّائبِ أعظمَ مِن فرحِ الواجِدِ لراحلتِه الَّتي عليها طعامُه وشرابُه في الأرضِ المهلكةِ بعدَ فقْدِه لها، واليأسِ مِن حُصولِها.

والمقصود: أنَّ الفَرحَ أعلى أنواعِ نعيمِ القلبِ، ولذَّتِه وبَهجتِه، والفرحُ والسُّرورُ نعيمُه، والهَمُّ والحزنُ عذابُه، والفرحُ بالشَّيءِ فَوقَ الرِّضا به؛ فإنَّ الرِّضا طُمأنينةٌ وسُكونٌ واستِراحة، والفرحَ لذَّةٌ وبَهجةٌ وسرور.

مفهوم السرور

قال صاحبُ «المنازل»: (**السُّرُورُ: اسْمٌ لِاستِبْشارٍ جامِعٍ**).

«البُشرَى» يُرادُ بِها أمْرانِ؛ أحَدُهما: بِشارَةُ المُخْبِرِ. والثَّاني: سُرورُ المُخبَرِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]؛ فُسِّرَتِ البُشرى بهذا وهذا؛ ففي حديث عُبادةَ بنِ الصَّامت وأبي الدَّرْداءِ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ: «**هيَ الرُّؤْيا الصَّالِحةُ يَراها المُسْلِمُ، أو تُرى له**»[(١)].

وقال ابنُ عبَّاسٍ: «بُشرى الحياةِ الدُّنيا: هي عِندَ الموتِ؛ تأتيهم ملائكةُ الرَّحمةِ بالبُشرى مِنَ الله، وفي الآخرة: عِندَ خروجِ نفْسِ المؤْمنِ إذا خرجَتْ يَعرُجون بها إلى الله، تُزَفُّ كما تُزَفُّ العروسُ، تُبشَّرُ بِرضوانِ الله».

وقال الحسَن: «هي الجنَّةُ». واختارَه الزَّجَّاجُ والفَرَّاءُ.

وفُسِّرَت بُشرى الدُّنيا بالثَّناءِ الحسَنِ يَجري له على ألسِنةِ النَّاس. وكلُّ ذلك صحيحٌ.

[قال]: (**ووَرَدَ اسمُ السُّرورِ في القُرآنِ في مَوضِعَينِ في حالِ الآخِرةِ**).

يُريدُ بهما: قولَه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥١٠)، والترمذي (٢٢٧٣)، وقال: «حديث حسن»، والحاكم (٨١٨٠) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٩]

والموضع الثاني: قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١].

فيُقالُ: ووردَ السُّرورُ في أحوالِ الدُّنيا في موضع على وجْهِ الذَّمِّ، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٣].

السرور يخلص السالك من ثلاثة أحزان

وهذا السُّرورُ يُذهِبُ **ثلاثةَ أحزانٍ**:

الحزن الأول: حزْنٌ أَوْرَثَه خَوفُ انقطاعٍ، وهذا حُزنُ المُتخلِّفينَ عن ركْبِ الجنَّة، ووفْدِ المحبَّة، فأهلُ الانقطاعِ هُمُ المُتخلِّفونَ عن صُحبةِ هذا الرَّكبِ، وهذا الوَفدِ.

وهُمُ الَّذين ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦]، فثَبَّطَ عزائمَهم وهِمَمَهم: أنْ تَسيرَ إليه وإلى جنَّتِه، وأمَرَ قلوبَهم أمرًا كونيًّا قدريًّا: أنْ تقعُدَ مع القاعِدينَ المُتخلِّفينَ، فلو عايَنْتَ قلوبَهم ـ حين أُمِرَتْ بالقعودِ عن مُرافقةِ الوفدِ، وقد غمرَتْها الهُمومُ، وعقدتْ عليها سحائبُ البلاءِ، فأحضرتْ كل حزنٍ وغمٍّ، وأمواجُ القلقِ والحسراتِ تَتقاذَفُ بها، وقد غابتْ عنها المَسَرَّات، ونابتْ عنها الأحزانُ ـ لعَلِمْتَ أنَّ الأبرارَ في هذه الدَّارِ في نعيم، وأنَّ المُتخلِّفينَ عن رُفقتِهم في جحيم.

وهذا الحزنُ يَذهَبُ به ذَوقُ طَعمِ الإيمان، فيَذوقُ الصِّدِّيقُ طعمَ الوعدِ ـ الذي وُعِد به على لسانِ الرَّسولِ ـ فلا يَعقِلُه ظَنٌّ، ولا يَقطَعُه أمَلٌ، ولا تَعوقُه أُمنيةٌ ـ كما تقدَّم ـ فيُباشِرُ قلبُه حقيقةَ قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص: ٦١] وقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطر: ٥] وقولِه تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وأمثال هذه الآيات.

الحزن الثاني: هو حزنُ ظُلْمةِ الجهلِ.

والجهل نَوعانِ: جهلُ عِلمٍ ومعرفةٍ، وهو مرادُ الشيخِ هاهنا، وجهلُ عمَلٍ وغَيٍّ، وكِلاهما له ظُلْمةٌ ووحشةٌ في القلب، فكما أنَّ العِلمَ يوجِبُ نورًا وأُنْسًا، فضِدُّه يوجِبُ ظُلْمةً ويوقِعُ وحْشةً، وقد سمَّى اللهُ تعالى العِلمَ الَّذي بَعَث به رسولَه نورًا وهُدًى وحياة، وضِدَّه: ظُلْمةً ومَوتًا وضلالًا.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤﴾ [النساء: ١٧٤] وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، فجعله رُوحًا؛ لِما يَحصُلُ به مِن حياةِ القلوبِ والأرواح، ونُورًا؛ لِما يَحصُلُ به مِنَ الهدى والرَّشاد.

ومثَّلَ هذا النُّورَ في قلب المؤمنِ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥].

ومثَّلَ حالَ مَن فقَدَ هذا النُّورَ: بمَن هو في ظلماتٍ ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ

يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

الحزن الثالث: حُزْنٌ بَعَثَتْهُ وحْشةُ التَّفرُّقِ، التفرق هو: تفرُّقُ الهَمِّ والقلبِ عن الله ﷻ؛ ولهذا التَّفرُّقِ حزنٌ مُمِضٌّ على فَواتِ جمعيَّةِ القلبِ على الله ولذَّتِها ونعيمِها، فلو فُرِضَتْ لذَّاتُ أهلِ الدُّنيا بأجمَعِها حاصِلةً لرَجُلٍ، لم يكنْ لها نِسبةٌ إلى لذَّةِ جمعيَّةِ القلبِ على الله، وفرَحِه به، وأُنْسِه بقُرْبِه، وشَوقِه إلى لقائِه، وهذا أمْرٌ لا يُصدِّقُ به إلَّا مَن ذاقه، فإنَّما يُصدِّقُك مَن أشرَقَ فيه ما أشرَقَ فيك، ولله دَرُّ القائلِ:

أيا صاحِبِي أمَا تَرَى نارَهُمْ ... فقال: تُرِينِيَ ما لا أرَى
سَقاكَ الغَرامُ ولَمْ يَسْقِني ... فأبصَرْتَ ما لَمْ أكُنْ مُبصِرَا

فلو لم يكنْ في التَّفرُّق المَذكورِ إلَّا ألَمُ الوحشة، ونَكَدُ التَّشتُّت، وغُبارُ الشَّعَث؛ لكَفَى به عقوبةً، فكيف وأقلُّ عقوبتِه: أن يُبتَلى بصُحبةِ المُنقطعينَ ومُعاشرتِهم وخِدمتِهم؟ فتَصير أوقاتُه ـ الَّتي هي مادَّةُ حياتِه ـ ولا قيمةَ لها، مُستغرقةً في قضاء حوائجِهم، ونَيلِ أغراضِهم، وهذه عقوبةُ قلبٍ ذاقَ حلاوةَ الإقبالِ على الله، والجمعيَّةِ عليه، والأُنْسِ به، ثمَّ آثَرَ على ذلك سِواه، ورضِيَ بطريقةِ بَني جِنسِه، وما هُمْ عليه، ومَن له أَدْنى حياةٍ في قلبِه ونورٍ فإنَّه يَستغيثُ قلبُه مِن وحشةِ هذا التَّفرُّق، كما تَستَغيثُ الحاملُ عِندَ ولادتِها.

افتقار القلوب إلى بارئها

ففي القلبِ: شَعَثٌ لا يَلمُّه إلَّا الإقبالُ على الله، وفيه: وَحشةٌ لا يُزيلُها إلَّا الأُنْسُ به في خَلْوتِه.

وفيه حزنٌ: لا يُذهِبُه إلَّا السُّرورُ بمعرفته، وصِدقِ معاملتِه.

وفيه قَلَقٌ: لا يُسكنُه إلَّا الاجتماعُ عليه، والفرارُ منه إليه.

وفيه نِيرانُ حسَراتٍ: لا يُطفِئُها إلَّا الرِّضا بأمْرِه ونَهيِه وقَضائِه، ومعانقةُ الصبرِ على ذلك إلى وقتِ لقائِه.

وفيه طلَبٌ شديدٌ: لا يَقِفُ دُونَ أن يكونَ هو وحدَه مطلوبَه.

وفيه فاقةٌ: لا يَسُدُّها إلَّا محبَّتُه، والإنابةُ إليه، ودوامُ ذِكرِه،

وصِدقُ الإخلاصِ له، ولو أُعطيَ الدُّنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقةُ منه أبدًا.

فالتَّفرُّقُ يوقِعُ وَحشةَ الحجاب، وأَلَمُه أشدُّ مِن أَلَم العذاب، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطففين: ١٥ ـ ١٦]، فاجتَمَع عليهم عذابُ الحجاب، وعذابُ الجحيم.





[منزلة السر]

قال صاحب «المنازل»: **(قال اللهُ تعالى:** ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [هود: ٣١]).

والذي يَظهَرُ مِنَ الآية: أنَّ الله أَعلَمُ بما في أنفُسِهم، إذْ أهَّلَهم لقَبولِ دِينِه وتَوحيدِه، وتَصديقِ رُسُلِه، فاللهُ سبحانه حكيمٌ، يَضَعُ العَطاءَ في مَواضعِه، وتكونُ هذه الآيةُ مِثلَ قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣].

فإنَّهم أنكَروا أن يكونَ اللهُ سبحانه أهَّلَهم للهُدى والحقِّ، وحرَمَه رؤساءَ الكفَّارِ، وأهلَ العزَّةِ منهم والثَّروة، كأنَّهم استَدَلُّوا بعطاءِ الدُّنيا على عطاء الآخِرة، فأَخبَر سبحانه: أنَّه أَعلَمُ بمَن يؤهِّلُه لذلك؛ لسِرٍّ عِندَه: مِن معرفةِ قدْرِ النِّعمة، ورؤيتِها مِن مجرَّدِ فضلِ المُنعِم، ومحبَّتِه وشُكرِه عليها، وليس كلُّ أحدٍ عِندَه هذا السِّرُّ، فلا يُؤهَّلُ لهذا العطاء.

فضائل الأخفياء

[قال]: **(أَصْحابُ السِّرِّ: هُمُ الأخفِياءُ الَّذينَ وَرَدَ فيهِمُ الخَبَرُ)**.

قد يُريدُ به: حديثَ سعدِ بن أبي وقَّاصٍ، حيثُ قال له ابنُه: أنتَ هاهنا والنَّاسُ يَتنازَعون في الإمارة؟ فقال: إنِّي سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبدَ التَّقِيَ الغَنِيَّ الخَفِيَّ**»[(١)].

وقد يُريدُ به: قولَه ﷺ: «**رُبَّ أشْعَثَ أغبَرَ مَدفُوعٍ بالأبوابِ، لا يُؤْبَهُ لهُ، لوْ أقسَمَ على اللهِ لَأبرَّهُ**»[(٢)]، وقولَه في الحديثِ الآخَرِ وقد مَرَّ به

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٢).

رجُلٌ: فقال: «**ما تَقولُونَ في هذا؟**»، فقالوا: هذا حَرِيٌّ إنْ شَفَعَ أنْ يُشفَّعَ، وإنْ خَطَبَ أنْ يُنكَحَ، وإنْ قال أنْ يُسمَعَ لقَولِه. ثمَّ مَرَّ به آخَرُ، فقال: «**ما تَقولُونَ في هذا؟**»، فقالوا: هذا حَرِيٌّ إنْ شَفَعَ ألَّا يُشفَّعَ، وإنْ خَطَبَ أنْ لا يُنكَحَ، وإنْ قال ألَّا يُسمَعَ لقَولِه؛ فقال النَّبيُّ ﷺ: «**هذا خيرٌ مِن مِلْءِ الأرضِ مِن مِثْلِ هذا**»(١).

قال: (**وهُم ثَلاثُ طَبَقاتٍ، الطَّبقةُ الأُولى: طائِفةٌ عَلَتْ هِمَمُهُم، وصَفَتْ قُصُودُهُم، وصَحَّ سُلُوكُهُم، ولنْ يُوقَفَ لهُم على رَسْمٍ، ولمْ يُنسَبُوا إلى اسْمٍ، ولمْ يُشَرْ إليهِم بالأصابعِ، أُولَئِكَ ذَخائِرُ اللهِ حيثُ كانُوا**).

صفات الأخفياء الثبوتية

ذَكَر لهم ثلاثَ صفاتٍ ثُبوتيَّة، وثلاثًا سلبيَّة:

الأُولى: (**عُلُوُّ هِمَمِهِم**) وعُلُوُّ الهِمَّةِ: أن لا تَقِفَ دونَ الله، ولا تَتعوَّضَ عنه بشيءٍ، ولا ترضى بغَيرِه بدلًا منه، ولا تَبيعَ حظَّها مِنَ الله وقُرْبِه والأُنْسِ به، والفرحِ والسُّرورِ والابتِهاجِ به، بشيءٍ مِنَ الحُظوظِ الخَسيسةِ الفانية، فالهِمَّةُ العاليةُ على الهِمَم: كالطَّائرِ العالي على الطُّيور؛ لا يرضى بمَساقِطِهم، ولا تَصِلُ إليه الآفاتُ الَّتي تَصِلُ إليهم؛ فإنَّ الهِمَّةَ كلَّما عَلَتْ بعُدَتْ عن وُصولِ الآفاتِ إليها، وكلَّما نزلَتْ قصَدَتْها الآفاتُ مِن كلِّ مكان؛ فإنَّ الآفاتِ قواطعُ وجَواذِبُ، وهي لا تَعْلو إلى المكان العالي فتَجتذِبُ منه، وإنَّما تَجتذِبُ مِنَ المكان السافل، فعُلُوُّ همَّةِ المَرءِ: عُنوانُ فلاحِه، وسُفُولُ همَّتِه: عُنوانُ حِرمانِه.

العلامة الثانية: (**صَفَاءُ القَصدِ**) وهو خلاصُه مِنَ الشَّوائبِ الَّتي تَعوقُه عن مقصوده، فصفاءُ القصدِ: تَجريدُه لطلب المقصودِ له لا لغيره، فهاتانِ آفَتانِ في القصدِ؛ إحداهُما: أن لا يَتجرَّدَ لمطلوبه، الثانية: أن يَطلُبَه لغيره لا لِذاتِه.

وصفاءُ القصدِ يُرادُ به: خُلوصُ القصدِ مِن كلِّ إرادةٍ تُزاحِمُ مُرادَ

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

الرَّبِّ تعالى، بل يَصيرُ القصدُ مجرَّدًا لمُرادِه الدِّينيِّ الأمْريِّ، وهذه طريقةُ مَن يَجعَلُ الغايةَ: هي الفَناءَ عن إرادةِ السِّوى، وعلامته: اندراج حظِّ العبدِ في حقِّ الرَّبِّ تعالى، بحيث يصيرُ حظُّه هو نفْسَ حقِّ ربِّه عليه، ولا يخفى على البصير الصادقِ عُلُوُّ هذه المنزلة، وفضْلُها على منزلةِ الفناء، وبالله التوفيق.

العلامة الثالثة: **(صِحَّةُ السُّلُوكِ)** وهو سلامتُه مِنَ الآفات والعَوائقِ والقواطع، وهو إنَّما يَصِحُّ بثلاثةِ أشياءَ:

أحدها: أن يكونَ على الدَّربِ الأَعظَمِ، الدَّربِ النَّبويِّ المُحمَّديِّ، لا على الجَوادِّ الوَضعيَّة، والرُّسومِ الاصْطِلاحيَّة، وإنْ زَخْرَفوا لها القولَ، ودقَّقَوا لها الإشارةَ، وحسَّنوا لها العِبارةَ؛ فتلك مِن بقايا النُّفوسِ عليهم وهُم لا يَشعُرون.

الثاني: أن لا يُجيبَ على الطَّريق داعيَ البَطالةِ والوقوف والدَّعَة.

الثالث: أن يكونَ في سُلوكِه ناظِرًا إلى المقصود، وقد تقدَّمَ بيانُ ذلك.

فبهذه الثلاثةِ يَصِحُّ السُّلوكُ، والعبارةُ الجامعةُ لها: أن يكونَ واحدًا لواحد، في طريقٍ واحد، فلا يَنقسِمُ طلَبُه ولا مَطلوبُه، ولا يَتلوَّنُ طريقُه.

صفات الأخفياء السلبية

وأمَّا الثَّلاثةُ السَّلْبيَّةُ الَّتي ذكرَها:

فأوَّلُها: قولُه: **(ولمْ يُوقَفْ لهُم على رَسْمٍ)**.

[أي]: أنَّهم لعُلُوِّ هِمَمِهم سبَقوا النَّاسَ في السَّير، فلم يَقِفوا معهم، فهُمُ المُفَرِّدونَ السَّابِقون، فلِسَبْقِهم لم يوقَفْ لهم على أثَرٍ في الطريق، ولم يَعلَمِ المتأخِّرُ عنهم أين سَلَكوا؟ والمُشمِّرُ بَعدَهم: قد يرى آثارَ نيرانِهم على بُعدٍ عظيم، كما يُرى الكوكبُ، ويَستخبِرُ مَن رآهم: أين رآهُم؟ فحالُه كما قيل:

أُسائِلُ عنكُم كُلَّ غادٍ ورائِحٍ ... وأُومِي إلى أوْطانِكُمْ وأُسَلِّمُ

العلامة الثانية: قوله: (وَلَم يُنسَبُوا إلَى اسْم)؛ أي: لم يشتهروا باسمٍ يُعرَفون به عند الناسِ من الأسماء التي صارت أعلامًا لأهل الطريق.

وأيضًا، فإنَّهم لم يَتقيَّدوا بعملٍ واحد يَجري عليهم اسمُه، فيُعرَفون به دُونَ غيرِه مِنَ الأعمال؛ فإنَّ هذا آفةٌ في العُبوديَّة، وهي عُبوديَّةٌ مُقيَّدةٌ، وأمَّا العُبوديَّةُ المُطْلَقة: فلا يُعرَفُ صاحبُها باسمٍ معيَّنٍ مِن معاني أسمائها؛ فإنَّه مُجيبٌ لداعيها على اختلافِ أنواعِها، فله مع كلِّ أهلِ عبوديَّةٍ نصيبٌ يَضرِبُ معهم بسَهم، فلا يَتقيَّدُ برسمٍ ولا إشارة، ولا اسمٍ ولا زِيٍّ، ولا طريقٍ وضْعيٍّ اصْطِلاحيٍّ، بل إنْ سُئِل عن شيخه؟ قال: الرَّسولُ، وعن طريقِه؟ قال: الاتِّباعُ، وعن خِرقتِه؟ قال: لِباسُ التَّقوى، وعن مذهبِه؟ قال: تحكيمُ السُّنَّةِ، وعن مقصودِه ومَطلبِه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢، والكهف: ٢٨]. وعن رِباطِه وعن خانكاتِه؟ قال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧]. وعن نسَبِه؟ قال:

أبِـي الإسْـلامُ لا أبَ لـي سِـوَاهُ ... إذا افـتَـخَـرُوا بـقَـيْـسٍ أو تَـمِـيـمِ

وعنْ مَأكَلِه ومَشرَبِه؟ قال: ما لَكَ ولها؟ معها حِذَاؤُها وسِقاؤُها، تَرِدُ الماءَ وتَرعَى الشَّجَرَ حتَّى تَلْقَى رَبَّها.

واحَسْرَتاهُ تَقَضَّى العُمْرُ وانصَرَمَتْ ... ساعاتُهُ بيْن ذُلِّ العَجْزِ والكَسَلِ

والقَومُ قدْ أخَذُوا دَرْبَ النَّجاةِ وقدْ ... سارُوا إلى المَطْلَبِ الأعلَى على مَهَلِ

والعلامة الثالثة: قوله: (ولمْ يُشَرْ إليهِم بالأصابِعِ) يُريدُ: أنَّهم لخَفائِهم عنِ النَّاسِ لم يُعرَفوا بينهم، حتى يُشيروا إليهم بالأصابع.

قوله: (أُولَئِكَ ذَخائِرُ اللهِ حيثُ كانُوا) ذَخائرُ المَلِك: ما يخبؤه عِندَه، ويدَّخِره لمهمَّاته، ولا يَبذُلُه لكل أحد، وكذلك ذخيرةُ الرَّجُل: ما

يَدَّخِرُه لحوائِجِه ومُهمَّاتِه، وهؤلاء لمَّا كانوا مَستورينَ عنِ الناس بأسبابهم، غَيرَ مُشارٍ إليهم ولا مُتميِّزينَ برسمٍ دُونَ النَّاسِ، ولا مُنتسبينَ إلى اسمِ طريقٍ أو مذهبٍ أو شيخٍ أو زِيٍّ كانوا بمنزلةِ الذَّخائرِ المخبوءة.

قال: (**الطَّبقةُ الثَّانيةُ: طائِفةٌ أشارُوا عن مَنزِلٍ وهُم في غَيرِه، ووَرَّوْا بأمرٍ وهُمْ لغَيرِه، ونَادَوْا على شَأنٍ وهُم على غَيرِه، فهُمْ بيْن غَيرَةٍ عليهِم تَستُرُهُم، وأدَبٍ فيهِم يَصونُهُم، وظَرْفٍ يُهذِّبُهُم**).

فكأنَّهم يُظهِرون للمخاطَب: أنَّهم مِن أهل البدايات، وهُم في أعلى المقامات، يَتكلَّمون معهم في البداية والإرادةِ والسُّلوك، ومقامُهم فوقَ ذلك، وهُم مُحِقُّون في الحالتين، لكنَّهم يَسترون أشرفَ أحوالِهم ومقاماتِهم عنِ النَّاس.

فهُم عامِلون على إسقاطِ جاهِهِم ومنزلتِهم في قلوب النَّاس؛ لَمَّا رأَوُا المُغترِّينَ ـ المُغترَّ بهم ـ مِنَ المُنتسبينَ إلى السُّلوك يَعمَلون على تربية نُفوسِهم، وتوفيرِ جاهِهم في قلوب النَّاس، فعاكَسَهم هؤلاء وأَظهروا بَطالةً وأَبطَنوا أعمالًا، وكتَموا أحوالَهم جُهْدَهم، ويُنشِدون في هذه الحال:

فلَيْتَكَ تَحْلُو والحَياةُ مَريرةٌ ... ولَيْتَكَ تَرْضَى والأنامُ غِضَابُ
ولَيْتَ الَّذي بَيْنِي وبَيْنَكَ عامِرٌ ... وبَيْني وبَيْنَ العالَمِينَ خَرابُ
إذا صَحَّ مِنكَ الوُدُّ يا غايةَ المُنَى ... فكُلُّ الَّذي فَوْقَ التُّرابِ تُرابُ

علامات الأخفياء

قال الإمام أحمدُ: حدَّثَنا عبد الرَّزَّاق، حدَّثنا سُفيانُ، عن منصور، عن هلال بنِ يِساف، قال: كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «إذا كان يومُ صَومِ أحدِكُم فليدهن لحيتَه، ويمسحْ شفتَيهِ؛ حتَّى يَخرُجَ إلى النَّاس فيقولون: ليس بصائم»[(١)].

وسُئِل الحارثُ بنُ أسَدٍ عن علامات الصادقِ؟ فقال: «أن لا يُباليَ

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣١٦)، وهنَّاد بن السَّري في «الزهد» (٢/ ٤٤٤)، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٣٣).

أن يَخرُجَ كلُّ قدْرٍ له في قلوبِ الخَلْقِ مِن أجْلِ صلاحِ قلبِه، ولا يُحِبَّ اطِّلاعَ النَّاسِ على اليسيرِ مِن عملِه».

وهذا يُحمَدُ في حال، ويُذَمُّ في حال، ويَحسُنُ مِن رجُلٍ، ويَقبُحُ مِن آخَرَ؛ فيُحمَدُ إذا أَظهَرَ ما يجوزُ إظهارُه، ولا نقْصَ عليه فيه، ولا ذَمَّ مِنَ اللهِ ورسولِه؛ ليَكتُمَ به حالَه وعملَه، كما إذا أَظهَرَ الغنى وكتَمَ الفقرَ والفاقةَ، وأَظهَرَ الصِّحَّةَ وكتَمَ المرض، وأَظهَرَ النِّعمةَ وكتَمَ البَلِيَّة.

فهذا كلُّه مِن كُنوزِ البِرِّ، وله في القلبِ تأثيرٌ عجيبٌ يَعرِفُه مَن ذاقه.

وشكا رجُلٌ إلى الأحنفِ بنِ قَيسٍ شكاةً، فقال: يا ابنَ أخي، قد ذهَبَ ضَوءُ بصري مِن عشرين سَنةً، فما أَخبَرْتُ به أحدًا.

وأمَّا الحالُ الَّتي يُذَمُّ فيها: فأن يُظهِرَ ما لا يَجوزُ إظهارُه؛ ليُسيء النَّاسُ به الظَّنَّ، فلا يُعظِّمونه.

ليس الثقلاء من خواص الأولياء

فإذا تمكَّن العبدُ في حاله وصارَ له إقبالٌ على الله وجمعيَّته عليه ملكةً ومقامًا راسخًا أَنِسَ بالخَلْقِ وأَنِسوا به، وانبسط إليهم وحمَلَهم على ضَلَعِهم وبُطءِ سَيرِهم، فعكفتِ القلوبُ على محبَّتِه لِلُطفِه وظَرفِه، فإن الناس يَنفرون من الثقيل ولو بلغ في الدِّين ما بلغ، ولله ما يجلب اللُّطفُ والظَّرفُ من القلوب، ويَدفَعُ عن صاحبه من الشر، ويُسهِّلُ له ما توعَّرَ على غيرِه، فليس الثُّقلاءُ بخواصِّ الأولياء، وما ثقُل أحد على قلوب الصادقينَ المخلصين إلا مِن آفة هناك، وإلَّا فهذه الطريقُ تَكسو العبدَ حلاوةً ولَطافةً وظَرفًا، فترى الصادقَ فيها من أحلى الناسِ وألطفِهم وأظرفِهم، قد زالتْ عنه ثقالة النفْسِ وكُدورةُ الطبع، وصار رُوحانيًّا سمائيًّا بعد أن كان حيوانيًّا أرضيًّا، فتراه أكرمَ الناسِ عِشرةً، وألْيَنَهم عَريكةً، وألطفَهم قلبًا ورُوحًا، وهذه خاصية المحبة، فإنها تلطف وتظرف وتنظف.

وأهل هذه الطبقة، أثقَلُ شيءٍ عليهم: البحثُ عن ماجرايات الناس، وطلَبُ تعرُّفِ أحوالهم، وأثقلُ ما على قلوبِهم سَماعُها، فهُم

مشغولون عنها بشأنهم، فإذا اشتَغلوا بما لا يَعنيهم منها فاتَهم ما هو أعظمُ عنايةً لهم، فإنه يَحُطُّ الهِممَ العاليةَ من أوْجِها إلى حَضيضها، وربَّما يعزُّ عليه أن يحصل همةً أخرى يصعدُ بها إلى موضعه الذي كان فيه، فأهلُ الهِمَم والفِطَنِ الثاقبةِ لا يفتحون مِن آذانهم وقلوبِهم طريقًا إلى ذلك، إلَّا ما تقاضاه الأمر، وكانت مصلحتُه أرجَحَ، وما عداه فبطالةٌ وحطُّ مرتبةٍ.

من أعظم درجات السِّتر والإخفاء

قال: (**والطَّبقةُ الثَّالِثةُ: طائِفةٌ أَسَرَهُمُ الحَقُّ عنهُم، فألاحَ لهُم لائِحًا أذهَلَهُم عن إدراكِ ما هُم فيه**).

أهلُ هذه الطبقة: أحقُّ باسمِ السِّرِّ مِنَ الذين قَبلَهم؛ فإنَّه إذا كانت أحوالُ القلب، ومواهبُ الرَّبِّ التي وضعها فيه سرًّا عن صاحبه، بحيث لا يَشعُرُ هو بها، شُغْلًا عنها بالعزيز الوهَّابِ سبحانه، فلا يتَّسِعُ قلبُه لاشتغاله به وبغيره، بل يَشتغِلُ بمُجْريها ومُنشئِها وواهبِها عنها، فهذا أقوى وُجوهِ السِّرِّ، بل ذلك أخفى مِنَ السِّرِّ. ومِن أَعظَمِ السَّترِ والإخفاءِ أن يَستُرَ اللهُ ﷻ حالَ عبدِه ويُخفيه منه؛ رحمةً به ولُطفًا؛ لئلَّا يُساكِنَه ويَنقطعَ به عن ربِّه، فإنَّ ذلك خِلعةٌ مِن خِلَعِ الحقِّ، فإذا ستَرَها صاحبُها ومُلْبِسُها عن عبدِه، فقد أراد به أن لا يَقِفَ مع شيءٍ دُونَه، وقد يكونُ ذلك السَّترُ لِما شُغِل به العبدُ عن مشاهدةِ جلالِ الرَّبِّ تعالى وكمالِه وجَمالِه، أعني: مشاهدةَ القلبِ لمعاني تلك الصِّفاتِ، واستغراقَه فيها.

وعلامةُ هذا الشُّهودِ الصَّحيحِ: أن يكون باطنُه معمورًا بالإحسان، وظاهرُه معمورًا بالإسلام، فيكون ظاهرُه عُنوانًا لباطنه مُصَدِّقًا لِما اتَّصَف به، وباطِنُه مُصحِّحًا لظاهره، هذا هو الأكملُ عند أصحاب الفناء.

وأَكمَلُ منه: أنْ يَشهَدَ ما وَهَبه اللهُ له ويُلاحِظَه ويراه مِن مَحضِ المِنَّةِ وعَينِ الجُودِ، فلا يَفنى بالمُعطي عن رؤية عطيَّتِه، ولا يَشتغِلُ بالعَطيَّةِ عن مُعطِيها، وقد أَمَرَ اللهُ سبحانه بالفرحِ بفضلِه ورحمتِه، وذلك لا يكونُ إلَّا برؤيته وملاحظتِه، وأمَرَ بذِكرِ نِعمتِه وآلائِه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [فاطر: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ

ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

فقوله: **(أسَرَهُمُ الحَقُّ عنهُم)**؛ أي: شغَلَهم به عن ذِكرِ أنفسِهم، فأنساهم بذِكرِه ذِكرَ نُفوسِهم، وهذا ضدُّ حالِ الذين نَسُوا اللهَ فأنساهم أنفسَهم؛ فإنَّ أولئك لمَّا نسوه أنساهم مصالحَ أنفسِهم التي لا صلاح لهم إلَّا بها، فلا يَطلُبونها، وأنساهم عيوبَها، فلا يُصلِحونها، وهؤلاء أنساهم حظوظَهم بحقوقه، وذِكرَ ما سِواهُ بذِكرِه.

والمقصود: أنَّه سبحانه أخَذَهم إليه، وشغَلَهم به عنهم.

قوله: **(وألَاحَ لهُم لائِحًا أذهَلَهُم عن إدراكِ ما هُم فيه)**.

ألاح؛ أي: أظهرَ، والمعنى: أَظهَرَ لهم مِن معرفة جَمالِه وجلالِه لائحًا ما، لم تَتَّسِع قلوبُهم بعدَه لإدراك شيءٍ من أحوالهم ومقاماتِهم، وهذا رقيقةٌ مِن حال أهلِ الجنَّة، إذا تَجلَّى لهم سبحانه وأراهم نفْسَه، فإنَّهم لا يَشعُرون في تلك الحالِ بشيء مِنَ النَّعيم، ولا يَلتفِتون إلى سِواهُ البَتَّةَ، كما صرح به في الحديث الصَّحيحِ في قَولِه: «**فلا يَلتَفِتُونَ إلى شَيءٍ مِنَ النَّعيمِ ما دامُوا يَنظُرُونَ إليه**»[١].

والصحيح: أنَّ أهلَ الطبقةِ الثانيةِ أعلى مِن هؤلاء، وأَرفَعُ مَقامًا، وهُمُ الكُمَّلُ؛ وهُم أقوى منهم، كما كان مَقامُ رسولِ الله ﷺ ليلةَ الإسراءِ أَرفَعَ مِن مقامِ موسى ﵇ يومَ التَّجلِّي، ولم يَحصُلْ لرسولِ الله ﷺ مِنَ الفناء ما حصل لموسى، وكان حُبُّ امرأةِ العزيزِ ليوسفَ أَعظَمَ مِن حُبِّ النِّسوة، ولم يَحصُلْ لها مِن تقطيع الأيدي ونَحوِه ما حصل لهُنَّ، وكان حُبُّ أبي بكرٍ لرسولِ الله ﷺ أَعظَمَ مِن حُبِّ عُمرَ وغَيرِه، ولم يَحصُلْ له عند موته مِنَ الاضطراب والغَشْيِ والإقعادِ ما حصَل لغَيرِه.

---

(١) أخرجه الكلاباذي في «بحر الفوائد» (ص٢٩٤) من حديث جابر بن عبد الله مرفوعًا وضعفه الألباني في المشكاة (٥٦٦٤)، وأخرجه الآجُرِّي في «الشريعة» (٥٧٢) عن الحسن مقطوعًا.



[منزلة الغربة]

قال شيخ الإسلام: (قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]).

استِشهادُه بهذه الآية في هذا الباب يدُلُّ على رُسوخِه في العِلم والمعرفة وفَهم القرآن، فإن الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهُمُ الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: «**بَدَأَ الإسلامُ غريبًا، وسيَعُودُ غريبًا كما بَدَأَ، فطُوبَى لِلغُرَباءِ**»، قيل: ومَنِ الغُرَباءُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**الَّذِينَ يَصلُحُونَ إذا فَسَدَ النَّاسُ**»(١).

الغرباء الممدوحون

وعن المُطَّلِب بن حَنْطَب، عن النبيِّ ﷺ قال: «**طُوبَى لِلغُرَباءِ**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، ومَنِ الغُرَباءُ؟ قال: «**الَّذين يَزِيدُونَ إذا نَقَصَ النَّاسُ**»(٢).

فإن كان هذا الحديثُ بهذا اللَّفظِ محفوظًا لم يَنقلِبْ على الرَّاوي لفْظُه ـ وهو: الَّذين يَنقصون إذا زاد النَّاسُ ـ فمعناه: الذين يَزيدون خيرًا وإيمانًا وتُقًى إذا نَقَصَ النَّاسُ مِن ذلك، والله أعلم.

وفي حديث عبدِ الله بن مَسعودٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الإسلامَ بَدَأَ غريبًا، وسيَعُودُ غريبًا كما بَدَأَ، فطُوبَى لِلغُرَباءِ**»، قيل: ومَنِ الغُرَباءُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**النُّزَّاعُ مِنَ القَبائِلِ**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(١٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه إسماعيل بن جعفر في جزءه (٣٦٧) وهو مرسل.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٦٦)، وأحمد (٣٧٨٤)، وابن ماجه (٣٩٨٨)، والدارمي (٢٧٩٧)، وأبو يعلى (٤٩٧٥)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (٦٤)، =

وفي حديث عبد الله بن عَمرٍو قال: قال النبيُّ ﷺ ذاتَ يوم ونحن عنده: «**طُوبَى لِلغُرَباءِ**»، قيلَ: ومَنِ الغُرَباءُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ناسٌ صالِحُونَ قَليلٌ في ناس سوء كَثيرٍ، مَن يَعصِيهِم أكثَرُ مِمَّن يُطِيعُهُم**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: قال: «**إنَّ أحَبَّ شَيءٍ إلى اللهِ الغُرَباءُ**»، قيلَ: ومَنِ الغُرَباءُ؟ قال: «**الفَرَّارُونَ بدِينِهِم، يَجتَمِعُونَ إلى عيسى ابنِ مَريمَ** عليه السلام **يَومَ القِيامةِ**»(٢).

وفي حديث آخَرَ: «**بَدَأ الإسلامُ غَرِيبًا، وسيَعُودُ غَرِيبًا كما بَدَأ، فطُوبَى لِلغُرَباءِ**»، قيلَ: ومَنِ الغُرَباءُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**الَّذِين يُحْيُونَ سُنَّتِي، ويُعلِّمُونَها النَّاسَ**»(٣).

وقال نافع، عن مالك: «دخَل عُمرُ بن الخطَّابِ المسجدَ، فوجد معاذَ بنَ جبل جالسًا إلى بيت النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له عمر: ما يُبكيك يا أبا عبدِ الرحمٰن؟ هلَك أخوك؟ قال: لا، ولكنَّ حديثًا حدَّثَنيه حبيبي ﷺ وأنا في هذا المسجد، فقال: ما هو؟ قال: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ الأخْفِياءَ الأحْفياءَ الأتقِياءَ الأبرِياءَ، الَّذِينَ إذا غابُوا لَمْ يُفتَقَدُوا، وإذا حَضَرُوا لَمْ يُعرَفُوا، قُلوبُهُم مَصابِيحُ الهُدَى، يَخرُجُونَ مِن كُلِّ فِتنةٍ عَمْياءَ مُظْلِمةٍ**»(٤).

= وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٢٦٩، ٢٧٠): قال البغوي: «هذا حديث صحيح، وأقول: هو كما قال، لولا أن أبا إسحاق ـ وهو السبيعي عمرو بن عبد الله ـ مدلس وقد عنعنه في جميع الطرق عنه، مع كونه كان اختلط، فأنا متوقف في صحته».

(١) أخرجه أحمد (٦٦٥٠)، والطبراني في «الأوسط» (٨٩٨٦)، وابن المبارك في «الزهد» (٧٧٥)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦١٩).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٤٠٤)، وابن المبارك في «الزهد» (١٥١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥)، والبيهقي في «الزهد» (٢٠٤)، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٨٥٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٣٠)، وقال: «حديث حسن»، من حديث عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٤١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (٦)، وابن ماجه بلفظ مقارب (٣٩٨٩)، =

أقسام غربة أهل الإسلام

فهؤلاء هُمُ الغرباءُ المَمْدوحونَ المَغْبوطون، ولِقِلَّتِهم في النَّاسِ جدًّا؛ سُمُّوا غُرباءَ، فإنَّ أَكثَرَ النَّاسِ على غيرِ هذه الصِّفاتِ، فأهلُ الإسلامِ في النَّاسِ غُرباءُ، والمؤْمنونَ في أهلِ الإسلامِ غُرباءُ، وأهلُ العِلمِ في المؤْمنينَ غُرباءُ.

وأهلُ السُّنَّةِ ـ الَّذين يُميِّزونها مِنَ الأهواء والبِدَعِ ـ فهُم غرباءُ، والدَّاعون إليها الصَّابرونُ على أذَى المخالِفينَ لهم أشَدُّ هؤلاء غربةً، ولكن هؤلاء هُم أهلُ الله حقًّا، فلا غربةَ عليهم، وإنما غربتُهم بين الأكثرينَ، الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فأولئك هم الغرباءُ مِن الله ورسوله ودينِه، وغربتُهم هي الغربة الموحِشة، وإن كانوا هم المعروفين المشارَ إليهم، كما قيل:

فليسَ غَرِيبًا مَن تَناءَتْ دِيارُهُ ... ولكنْ مَن تَنْأيْنَ عنهُ غَرِيبُ

ولمَّا خرَج موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هاربًا مِن قَومِ فرعونَ انتهى إلى مَدْينَ على الحالِ الَّتي ذكَرَ اللهُ، وهو وحيدٌ غريبٌ خائفٌ جائع، قال: يا ربِّ، وحيدٌ مريضٌ غريب، فقيل له: يا موسى، الوحيد: مَن ليس له مِثْلي أنيس، والمريض: مَن ليس له مِثلي طبيب، والغريب: مَن ليس بيْني وبيْنه معاملةٌ.

* * *

أنواع الغربة

فالغربة ثلاثةُ أنواع:

النوع الأول

غربة أهلِ الله وأهلِ سُنَّةِ رسوله ﷺ بين هذا الخلْق، وهي الغربة التي مدح رسولُ الله ﷺ أهلَها، وأخبر عن الدِّين الذي جاء به: أنَّه بدأ غريبًا وأنه سيعود غريبًا كما بدأ، وأنَّ أهله يصيرون غرباءَ.

وهذه الغُربة قد تكون في مكانٍ دون مكان، ووقتٍ دون وقت،

= والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٢١)، وفي «الأوسط» (٤٩٥٠)، والحاكم (٧٩٣٣) من وجه آخر، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٩٧٥).

وبين قومٍ دون قومٍ غيرِهم، ولكن أهل هذه الغربةِ هم أهلُ الله حقًّا، فإنَّهم لم يأووا إلى غير الله تعالى، ولم يَنتسِبوا إلى غير رسولِه ﷺ، ولم يَدْعوا إلى غير ما جاء به، وهُمُ الذين فارَقوا الناسَ أحوجَ ما كانوا إليهم، فإذا انطلق الناسُ يوم القيامة مع آلهتهم بَقوا في مكانهم، فيقال لهم: ألا تَنطلِقون حيث انطلق الناسُ؟ فيقولون: فارَقْنا الناسَ ونحن أحوجُ إليهم منَّا إليهم اليومَ، وإنا ننتظر ربَّنا الذي كنَّا نَعبُدُه[(١)].

فهذه الغربة لا وحشةَ على صاحبها، بل هو آنَسُ ما يكون إذا استوحش الناسُ، وأشدُّ ما يكون وحشةً إذا استأنسوا، فوليُّه اللهُ ورسولُه والذين آمنوا، وإن عاداه أكثرُ الناس وجَفَوه.

وفي حديث أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أغبَطَ أوليائي عِندِي: لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ الحاذِ، ذُو حَظٍّ مِن صَلاتِه، أحسَنَ عِبادةَ رَبِّه، وكان رِزْقُه كَفافًا، وكان مع ذلك غامِضًا في النَّاسِ، لا يُشارُ إليهِ بالأصابِعِ، وصَبَرَ على ذلك حتَّى لَقِيَ اللهَ، ثُمَّ حَلَّتْ مَنِيَّتُه، وقَلَّ تُراثُه، وقَلَّتْ بَواكِيهِ**»[(٢)].

ومِن هؤلاء الغرباء: مَن ذَكَرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ: «**رُبَّ أشْعَثَ أغبَرَ، ذِي طِمْرَينِ، لا يُؤْبَهُ له، لو أقسَمَ على اللهِ لأبَرَّهُ**»[(٣)].

وفي حديث معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: «**ألا أُخبِرُكُم عن مُلُوكِ أهْلِ الجَنَّةِ؟**»، قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: «**كُلُّ ضَعيفٍ أغْبَرَ ذي طِمْرَينِ لا يُؤْبَهُ له، لو أقسَمَ على اللهِ لأبَرَّهُ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٦٧)، والترمذي (٢٣٤٧)، وابن ماجه (٤١١٧)، والحاكم (٧١٤٨)، وقال: هذا إسنادٌ للشاميِّين صحيح عندهم. وتعقَّبه الذهبي بقوله: «إلى الضعف هو»، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٩٧٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٢٢)، وقد تقدم.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤١١٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٥٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٠٦). وفي البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣) من =

وقال الحسن: «المؤمنُ في الدنيا كالغريب لا يَجزع من ذلِّها، ولا ينافِسُ في عزِّها، للناس حالٌ وله حال، الناسُ منه في راحة، وهو مِن نفْسِه في تعب».

من صفات الغرباء

ومن صفات هؤلاء الغرباءِ الذين غبطهم النبيُّ ﷺ: التمسُّك بالسُّنَّة، إذا رغِبَ عنها الناسُ، وتركُ ما أحدثوه؛ وإن كان هو المعروفَ عندهم، وتجريدُ التوحيد؛ وإن أنكر ذلك أكثرُ الناس، وتركُ الانتساب إلى أحدٍ غيرِ الله ورسولِه، لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحدَه، وإلى رسوله بالاتِّباع لِما جاء به وحدَه، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا، وأكثرُ الناس بل كلُّهم لائمٌ لهم.

فلِغُربتِهم بين هذا الخلْق: يَعُدُّونهم أهلَ شذوذٍ وبدعة، ومفارقةٍ للسَّواد الأعظَمِ!

ومعنى قول النبي ﷺ: «**هُمُ النُّزَّاعُ مِنَ القَبائِلِ**»: أن الله سبحانه بعَث رسولَه وأهلُ الأرض على أديانٍ مختلفة، فهُم بين عُبَّادِ أوثانٍ، وعُبَّادِ نيرانٍ، وعُبَّادِ صلبان، ويهودٍ وصابئة وفلاسفة، فكان الإسلامُ في أوَّل ظهوره غريبًا، وكان مَن أسلم منهم واستجاب لله ورسوله غريبًا في حَيِّه وقريته وقبيلتِه وأهلِه وعشيرته.

وكان المستجيبون لدعوةِ الإسلام نُزَّاعًا من القبائل، بل آحادًا منهم تغرَّبوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباءَ حقًّا، حتى ظهر الإسلامُ وانتشرتْ دعوتُه ودخل الناسُ فيه أفواجًا، فزالت تلك الغربةُ عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والتَّرحُّل، حتى عاد غريبًا كما بدأ.

الإسلام الحقيقي غريب جدًّا

بل الإسلام الحقُّ الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه هو

= حديث حارثة بن وهب الخزاعي، قال: سمِعت النبي ﷺ يقول: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره**».

اليومَ أشدُّ غربةً منه في أوَّلِ ظهوره، وإن كانت أعلامُه ورسومُه الظاهرةُ مشهورةً معروفة، فالإسلام الحقيقيُّ غريب جدًّا، وأهلُه غرباءُ بين الناس.

وكيف لا تكون فِرقةٌ واحدةٌ قليلةٌ جدًّا غريبةً بين اثنتين وسبعين فرقةً، ذاتَ أتباع ورئاساتٍ ومناصبَ وولايات، ولا يقوم لها سوقٌ إلا بمخالفة ما جاء به الرسولُ ﷺ؟ فإنَّ نفْسَ ما جاء به يُضادُّ أهواءَهم ولذَّاتِهم، وما هُم عليه من الشُّبهات والبِدَع التي هي منتهى فضيلتهم وعلمِهم، والشهواتِ التي هي غايةُ مقاصِدِهم وإراداتِهم؟

فكيف لا يكون المؤمنُ السائرُ إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتَّبعوا أهواءهم، وأطاعوا شُحَّهم، وأُعجِب كلٌّ منهم برأيه؟ كما قال النبيُّ ﷺ: «**مُرُوا بالمَعروفِ، وانْهَوْا عنِ المُنكَرِ، حتَّى إذا رَأيْتُم شُحًّا مُطاعًا، وهَوًى مُتَّبَعًا، ودُنْيا مُؤْثَرةً، وإعجابَ كُلِّ ذي رأيٍ برَأْيِه، ورَأيْتَ أمْرًا لا يَدَ لكَ به، فعليكَ بخاصَّةِ نفْسِكَ، وإيَّاكَ وعَوَامَّهُم، فإنَّ وَراءَكُم أيَّامَ صَبْرٍ، الصَّابِرُ فيهِنَّ كالقابِضِ على الجَمرِ**»[(١)].

ولهذا جُعِل له في هذا الوقت إذا تمسَّك بدينه: أجرُ خمسينَ من الصحابة؛ ففي سنن أبي داودَ والتِّرمذيِّ من حديث أبي ثَعلبةَ الخُشَنيِّ، قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] فقال: «**بلِ ائتَمِرُوا بالمَعرُوفِ، وتَناهَوْا عنِ المُنكَرِ، حتَّى إذا رَأيْتَ شُحًّا مُطاعًا، وهَوًى مُتَّبَعًا، ودُنيَا مُؤْثَرةً، وإعجابَ كُلِّ ذي رأيٍ برأيِه، فعليكَ بخاصَّةِ نَفْسِك، ودَعْ عنكَ العَوامَّ، فإنَّ مِن وَرائِكُم أيَّامَ الصَّبرِ؛ الصَّبرُ فيهِنَّ مِثلُ قَبضٍ على الجَمرِ، لِلعامِلِ فيهِنَّ أجرُ خَمسِينَ رجُلًا يَعمَلُونَ مِثلَ عَمَلِه**»، قلتُ: يا

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤٠١٤)، وابن حبان (٣٨٥)، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٠٢٥) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

رسولَ اللهِ، أجْرُ خَمسِينَ منهُم؟ قال: «**أجرُ خَمسِينَ منكُم**»[(١)]. وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسُّكِ بالسُّنَّة بين ظُلُماتِ أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمنُ الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه، وفِقْهًا في سُنَّةِ رسوله، وفَهمًا في كتابه، وأراه ما الناسُ فيه من الأهواء والبِدَع والضلالات وتنكُّبِهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، فإذا أراد أن يَسلُكَ هذا الصراطَ فليوطِّنْ نفْسَه على قدْحِ الجهَّالِ وأهلِ البِدَعِ فيه، وطعْنِهم عليه، وإزرائهم به، وتنفيرِ الناس عنه، وتحذيرِهم منه، كما كان سلفُهم من الكفار يفعلون مع مَتبوعِه وإمامِه ﷺ، فأمَّا إنْ دعاهم إلى ذلك، وقدَح فيما هُم عليه: فهناك تقوم قيامتُهم، ويَبغون له الغَوائلَ، ويَنصِبون له الحبائلَ، ويَجلِبون عليه بخَيلِ كبيرِهم ورَجِله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريبٌ في تمسُّكِه بالسُّنَّةِ لتمسُّكِهم بالبِدَع، غريبٌ في اعتقاده لفساد عقائدِهم، غريب في صلاته لسُوء صلاتِهم، غريب في طريقه لفساد طُرُقِهم، غريب في نِسبته لمخالفةِ نِسَبِهم، غريبٌ في معاشرته لهم؛ لأنَّه يُعاشِرُهم على ما لا تهوى أنفسُهم.

وبالجملة؛ فهو غريب في أمور دنياه وآخرته لا يجِد مساعدًا ولا معينًا فهو عالِم بين جهَّال، صاحبُ سُنَّة بين أهل بِدَع، داعٍ إلى الله ورسولِه بين دعاةٍ إلى الأهواء والبدع، آمرٌ بالمعروف ناهٍ عن المنكر بين قومٍ المعروفُ لديهم منكَرٌ والمنكَرُ معروفٌ.

غربة أهل الباطل بين أهل الحق

النوع الثاني من الغربة: غربةٌ مذمومة؛ وهي غربة أهلِ الباطل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٤٠١٤)، وابن حبان (٣٨٥)، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٠٢٥) وقال: لكن لجملة «أيام الصبر» شواهد.

وأهل الفجور بين أهل الحقِّ، فهي غربة بين حزب الله المفلحينَ وإنْ كثُر أهلُها فهم غرباءُ على كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهلُ وحشةٍ على كثرة مؤْنِسهم، يُعرَفون في أهل الأرض، ويَخفون على أهل السماء.

غربة مشتركة لا تـحـمـد ولا تذم

النوع الثالث: غربة مشتركة لا تُحمد ولا تُذَم: وهي الغربة عن الوطن؛ فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء، فإنها ليست لهم بدار مقام، ولا هي الدار التي خلقوا لها، وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عُمرَ رضي الله عنهما: «**كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ، أو عابرُ سَبيلٍ**»[1]، وهكذا هو نفس الأمر؛ لأنَّه أمر أن يطالع ذلك بقلبه ويعرفه حقَّ المعرفة.

ولي من أبياتٍ في هذا المعنى:

وحَيَّ على جَنَّاتِ عَدْنٍ فإنَّها ... مَنازِلُكَ الأُولَى وفيها المُخَيَّمُ
ولكِنَّنا سَبْيُ العَدُوِّ فهَلْ تَرَى ... نَعُودُ إلى أوْطانِنا ونُسَلَّمُ
وأيُّ اغتِرابٍ فَوقَ غُربَتِنا الَّتي ... لها أضْحَتِ الأعْداءُ فينا تَحَكَّمُ
وقدْ زَعَمُوا أنَّ الغَريبَ إذا نَأى ... وشَطَّتْ به أوْطانُهُ ليس يَنْعَمُ
فمِنْ أجْلِ ذا لا يَنْعَمُ العَبدُ ساعةً ... مِنَ العُمْرِ إلَّا بَعْدَها يَتألَّمُ

وكيف لا يكون العبد في هذه الدارِ غريبًا، وهو على جَناح سفر، لا يحلُّ عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافر في صورة قاعد، وقد قيل:

وما هذِهِ الأيَّامُ إلَّا مَراحِلٌ ... يَحُثُّ بها داعٍ إلى المَوْتِ قاصِدُ
وأعْجَبُ مِن ذا لوْ تَأمَّلْتَ أنَّها ... مَنازِلُ تُطْوَى والمُسافِرُ قاعِدُ

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).



[منزلة التمكُّن]

قال صاحب «المنازل»: (**قال الله تعالى**: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم: ٦٠]).

وجْهُ استدلاله بالآية في غاية الظهور، وهو أن المتمكن لا يبالي بكثرة المشغولات، ولا بمخالطة أصحاب الغفلات، ولا بمعاشرة أهل البطالات، بل قد تمكن بصبره ويقينه عن استفزازهم إياه، واستخفافهم له، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠] فمن وفَّى الصبر حقَّه، وتيقَّن أن وعد الله حق لم يستفزَّه المبطلون، ولم يستخفه الذين لا يوقنون، ومتى ضعف صبره ويقينه أو كلاهما استفزه هؤلاء واستخفه هؤلاء، فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره ويقينه، فكلما ضعف ذلك منه قوي جذبهم له، وكلما قوي صبره ويقينه قوي انجذابه منهم وجذبه لهم.

شروط التمكن والوسائل المعينة عليه

قال: (**وهو أنْ يَجتَمِعَ له صِحَّةُ قَصْدٍ يُسيِّرُه، ولَمعُ شُهودٍ يَحْمِلُه، وسَعَةُ طَرِيقٍ تُروِّحُه**).

وقد ذكر الشيخ للتمكُّن ثلاثةَ أمور: صِحَّة قصد، وصِحَّةَ عِلم، وسَعةَ طريق؛ فبصحة القصد يَصِحُّ سَيرُه، وبصحة العلم تنكشِفُ له الطريقُ، وبسَعة الطريق يَهونُ عليه السَّيرُ، وكلُّ طالب أمر من الأمور فلا بد له من تعين مطلوبه، وهو المقصود، ومعرفة الطريق الموصل إليه، والأخذ في السلوك، فمتى فاتَه واحدٌ من هذه الثلاث: لم يَصِحَّ طلبُه ولا سَيرُه، فالأمر دائر بين مطلوب يتعيَّن إيثارُه على غيره، وطلبٍ يقوم بقلب مَن يَقصِده، وطريقٍ توصل إليه.

فإذا تحقَّق العبدُ بطلب ربِّه وحدَه: تعيَّن مطلوبُه، وإذا بَذَل جُهدَه

في طلب ربِّه صحَّ له طلبُه، فإذا تحقَّق باتِّباع أوامره واجتنابِ نواهيه صحَّ له طريقُه، وصحةُ القصد والطريقِ موقوفةٌ على صحة المطلوب وتعينه.

فحُكم القصد يُتلقَّى من حُكم المقصود، فمتى كان المقصودُ أهلًا للإيثار كان القصدُ المتعلِّقُ به كذلك، فالقصد والطريق تابعان للمقصود.

من تمام العبودية: موافقة الرسول في مقصوده وطريقه

وتمام العبودية: أن يوافق الرسولَ في مقصوده وقصْدِه وطريقه، فمقصوده: اللهُ وحدَه، وقصدُه: تنفيذ أوامره في نفسه وفي خلْقِه، وطريقه: اتِّباع ما أوحي إليه، فصَحِبَه أصحابُه على ذلك حتى لَحِقوا به، ثم جاء التابِعون لهم بإحسان، فمَضَوا على آثارهم.

ثم تفرَّقتِ الطُّرُقُ بالناس، فخِيارُ الناس مَن وافقه في المقصود والطريق، وأبعدُهم من الله ورسوله مَن خالفه في المقصود والطريق؛ وهُم أهلُ الشِّركِ بالمعبود، والبدعةِ في العبادة، ومنهم مَن وافقه في المقصود وخالَفَه في الطريق، ومنهم مَن وافَقَه في الطريق وخالفه في المقصود.

فمَن كان الله مراده والدارُ الآخرة فقد وافقه في المقصود، فإنْ عبَدَ الله بما أمَر به على لسان رسوله فقد وافقه في الطريق، وإن عبَدَه بغير ذلك فقد خالفه في الطريق.

ومَن كان مقصودُه من أهل العلم، والعبادة، والزُّهدِ: الدنيا والرِّياسةَ، فقد خالفه في المقصود، وإنْ تقيَّدَ بالأمر؛ فإنْ لم يتقيَّدْ به، فقد خالف في المقصود والطريق.

وقوله: **(ولَمعُ شُهودٍ يَحْمِلُه)** إشارةٌ إلى معرفة المقصود، وقوَّةِ اليقين به، فيحصُل لقلبه كشفٌ يَحمِله على سلوكه، فإن السالك إذا كُشِف له عن مقصوده حتى كأنه يُعايِنُه جدَّ في طلبه، وذهبت عنه رُخَصُ الفُتور.

وقوله: **(وسَعَةُ طَريقٍ تُروِّحُه)** إشارة إلى صحة طريقه، وذلك

بأمْرين: بسَعتها حتى لا تضيق عليه، فيعجزَ عن سلوكها، وباستقامتها حتى لا يَزيغَ عنها إلى غيرها، فإنَّ طريق الحق واسعةٌ مستقيمة، وطُرُقَ الباطل ضيقةٌ معوجَّة، وهذا يدلُّ على رسوخ الشيخ في العلم، ووقوفِه مع السُّنَّة، وفِقهِه في هذا الشأن.





[منزلة المكاشفة]

قال صاحب «المنازل»: (**قال اللهُ تعالى**: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠]).

وجْهُ احتجاجِه بإشارة الآية: أنَّ الله سبحانه كشَف لعبدِه ﷺ ما لم يَكشِفْه لغيره، وأطلَعَه على ما لم يُطلِعْ عليه غيرَه، فحصل لقلبه الكريمِ من انكشاف الحقائق التي لا تخطر ببال غيره ما خصَّه الله به.

المكاشفة الصحيحة: علومٌ يُحدِثُها الربُّ سبحانه وتعالى في قلب العبد، ويُطلِعُه بها على أمور تخفى على غيره، وقد يواليها وقد يُمسِكُها عنه بالغفلة عنها، ويواريها عنه بالغَينِ الذي يغشى قلبه، وهو أرقُّ الحُجُب، أو بالغَيم، وهو أغلظ منه أو بالرَّان، وهو أشدُّها.

فالأول: يقع للأنبياء عليهم السلام، كما قال النبي ﷺ: «**إنَّه لَيُغَانُ على قَلْبي، وإنِّي لَأستَغْفِرُ في كل يوم اللهَ أكثَرَ مِن سَبعِينَ مَرَّةً**»[1].

والثاني: يكون للمؤمنين.

والثالث: لمَن غلبتْ عليه الشِّقوةُ، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤] قال ابن عباس وغيره: هو الذنْبُ بعد الذنب يغطي القلبَ حتى يصير كالرَّانِ عليه.

عشرة حجب بين القلب وبين الله تعالى

والحُجُب عشَرةٌ:

الأول: حِجابُ التعطيل، ونفي حقائقِ الأسماء والصفات، وهو أغلظُها، فلا يَتهيَّأُ لصاحب هذا الحجابِ أن يَعرِفَ الله، ولا يَصِلُ

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه. ولفظه: «**وإني لأستغفرُ الله، في اليوم مِائة مرَّة**».

إليه البَتَّةَ إلَّا كما يَتهيَّأُ للحَجَر أن يَصعَدَ إلى فوقَ.

الثاني: حجاب الشِّرْكِ، وهو أن يتعبَّد قلبُه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القوليَّة، كحجاب أهل الأهواء، والمقالاتِ الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العمليَّة، كحجاب أهلِ السُّلوكِ المبتدعينَ في طريقهم وسلوكِهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهلِ الكِبْرِ والعُجبِ والرِّياءِ والحسد، والفخر والخُيَلاءِ ونحوِها.

السادس: حِجاب أهلِ الكبائر الظاهِرة، وحجابهم أرقُّ من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عِباداتهم وزهاداتِهم واجتهادهم؛ فكبائرُ هؤلاء أقربُ إلى التوبة من كبائرِ أولئك؛ فإنها قد صارت مقاماتٍ لهم لا يتحاشَوْن من إظهارها وإخراجِها في قوالبِ عبادةٍ ومعرفةٍ، فأهل الكبائر الظاهرةِ أدنى إلى السلامة منهم، وقلوبُهم خيرٌ من قلوبهم.

السابع: حجاب أهلِ الصغائر.

الثامن: حجاب أهلِ الفضلات، والتوسُّع في المباحات.

التاسع: حِجاب أهلِ الغفلة عن استحضار ما خُلقوا له وأُريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدينَ مِنَ السالكين، المُشمِّرينَ في السَّير عن المقصود.

أسباب الحُجُب بين الله وعبده

فهذه عشرةُ حُجُب بين القلب وبين الله ﷻ، تَحول بينه وبين هذا الشأن، وهذه الحُجُب تَنشأُ من أربعة عناصرَ: عنصر النفْس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى، فلا يمكن كشْفُ هذه الحُجُبِ مع بقاء أصولِها وعناصرِها في القلب البَتَّةَ.

وهذه الأربعة: تُفسِدُ القولَ والعملَ والقصدَ والطريقَ بحسَب غلبتها وقلَّتها، فتقطع طريق القول والعمل والقصد: أنْ يصل إلى القلب، وما

وصَل منه إلى القلب قطعتْ عليه الطريق: أنْ يصل إلى الربِّ، فبين القول والعملِ وبين القلب مسافةٌ يُسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائبَ ما هناك، وفي هذه المسافة قُطَّاعُ الطريق المذكورون، فإنْ حاربهم وخلص العمل إلى قلبه دار فيه، وطلب النفوذ من هناك إلى الله، فإنه لا يستقرُّ دون الوصول إليه ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: ٤٢] فإذا وصل إلى الله سبحانه أثابه عليه مَزيدًا في إيمانه ويقينه، ومعرفتِه وعقله، وجمَّل به ظاهرَه وباطنَه، فهداه به لأحسَنِ الأخلاق والأعمال، وصرَفَ به عنه سيِّئَ الأخلاق والأعمال، وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قُطَّاعَ طريق الوصول إليه، فيحارب الدُّنيا بالزُّهد فيها وإخراجِها من قلبه ـ ولا يضرُّه أن تكون في يده وبيتِه ـ وقوَّة يقينه بالآخرة، ويحارب الشيطانَ بترك الاستجابة لداعي الهوى، فإن الشيطان مع الهوى لا يفارِقُه، ويحاربُ الهَوى بتحكيم الأمر المْطْلَقِ والوقوفِ معه، بحيث لا يبقى له هوًى فيما يفعله ويتركه، ويحاربُ النفْسَ بقوَّة الإخلاص.

هذا كلُّه إذا وجَد العملُ مَنْفَذًا من القلب إلى الربِّ ﷻ، وإن دار فيه ولم يجد مَنْفَذًا وثبت عليه النفس، فأخذته وصيَّرته جندًا لها، فصالت به وعَلَت وطغتْ، فتراه أزْهَدَ ما يكون، وأعبدَ ما يكون، وأشدَّ اجتهادًا، وهو أبعدُ ما يكون عن الله، وأصحابُ الكبائر أقرب قلوبًا إلى الله منه، وأدنى منه إلى الإخلاص.

طغيان المعاصي أسلم من طغيان الطاعات

فانظر إلى السَّجَّاد العَبَّادِ الزاهد الذي بين عينيه أثرُ السجود، كيف أورثه طُغيانُ عمَلِه أنْ أنكَرَ على النبيِّ ﷺ، وأورث أصحابَه احتقارَ المسلمين، حتى سَلُّوا عليهم سيوفَهم، واستباحوا دماءهم.

وانظر إلى الشرِّيب السِّكِّير الذي كان كثيرًا ما يؤتى به إلى النبي ﷺ، فيَحدُّه على الشراب، كيف قامت به قوةُ إيمانه ويقينِه، ومحبته لله ورسوله، وتواضعِه وانكسارِه لله حتى نهى رسولُ الله ﷺ عن لعنته؛ فظهر بهذا أن طغيانَ المعاصي أسلَمُ عاقبةً مِن طُغيانِ الطاعات.

وقد روَى الإمامُ أحمدُ في «كتاب الزهد»: «أنَّ الله سُبحانه أوحى

إلى موسى ﷺ: يا موسى، أنذر الصدِّيقين، فإني لا أضع عدلي على أحد إلا عذَّبتُه من غير أن أظلمَه، وبشِّر الخطَّائين، فإنه لا يتعاظمني ذنبٌ أن أغفرَه». فلنرجع إلى شرح كلامه[١].

وليس مُرادُ الشيخ في هذا الباب: الكَشفَ الجزئيَّ المشترك بين المؤمنين والكفَّار، والأبرار والفجار، كالكشف عمَّا في دار العبد أو في يده، أو تحت ثيابه، أو ما حمَلَت به امرأتُه بعد انعقاده ذكرًا أو أنثى، وما غاب عن العيان من أحوال البلد الشاسع ونحو ذلك، فإن ذلك يكون من الشَّيطان تارة، ومن النفس تارة، ولذلك يقع من الكفار.

الكشف الرحماني

والكشف الرَّحماني: هو مثل كشف أبي بكر لمَّا قال لعائشةَ رضي الله عنها: «إنَّ امرأتَه حاملةٌ بأنثى»[٢]، وكشْفِ عُمرَ رضي الله عنه لمَّا قال: «يا ساريةُ، الجبلَ»[٣]، وأضعاف هذا من كشْف أولياء الرحمٰن.

والمقصود: أنْ يَكشف للسالكِ عن طريق سلوكه؛ ليستقيمَ عليها، وعن عيوب نفْسه ليُصلحَها، وعن ذنوبه ليتوبَ منها.

فما أكرمَ اللهُ الصادقين بكرامةٍ أعظَمَ مِن هذا الكشف، وجعلهم مُنقادين له عامِلينَ بمقتضاه، فإذا انضمَّ هذا الكشفُ إلى كشف تلك الحُجُبِ المتقدمة عن قلوبهم، سارت القلوبُ إلى ربها مَسيرَ الغَيثِ استَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ.



---

(١) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد برقم (٣٨٢) ونصه: عن أبي الجلد أن الله تبارك وتعالى، أوحى إلى داود عليه السلام: «يا داود، أنذر عبادي الصديقين؛ فلا يعجبن بأنفسهم، ولا يتكلن على أعمالهم؛ فإنه ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب، وأقيم عليه عدلي إلا عذبته من غير أن أظلمه، وبشر الخطائين أنه لا يتعاظمني ذنب أن أغفره وأتجاوز عنه».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٧٥٢ (٤٠)، وصحَّحه الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ٦١).

(٣) أخرجه البيهقي في «الاعتقاد» (ص٣١٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١١٠).

[منزلة المشاهدة]

شـروط الانتفاع بالمواعظ الربانية

قال صاحب «المنازل»: (قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]).

قلت: جعَل الله سبحانه كلامَه ذِكرى، لا ينتفِعُ بها إلا مَن جمَع هذه الأمورَ الثلاثةَ:

أحدها: أن يكون له قلب حَيٌّ واعٍ، فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذِّكرى.

الثاني: أن يُصغي سمعَه فيميله كلَّه نحوَ المخاطِب له، فإن لم يفعل لم ينتفِعْ بكلامه.

الثالث: أن يُحضِر قلبَه وذهنَه عند المكلِّم له، وهو الشهيد؛ أي: الحاضر غير الغائب، فإن غاب قلبه وسافر في موضع آخر: لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أنَّ المُبصِرَ لا يُدرك حقيقة المرئيِّ إلا إذا كانت له قوةٌ باصرة، وحدَّق بها نحوَ المرئيِّ، ولم يكن قلبه مشغولًا بغير ذلك، فإنْ فقَدَ القوَّةَ المبصرة، أو لم يحدِّق نحو المرئيِّ، أو حدَّق نحوه وقلبُه كلُّه في موضعٍ آخَرَ لم يُدرِكه، فكثيرًا ما يمرُّ بك إنسان أو غيرُه، وقلبُك مشغول بغيره، فلا تشعر بمروره، فهذا الشأنُ يستدعي صحةَ القلب وحضوره، وكمالَ الإصغاء.





[منزلة المعاينة]

المعاينة مفاعلة من العِيان، وأصْلُها من الرؤية بالعين، يقال: عاينه إذا وقعت عينه عليه، كما يقال: شافهه إذا كلَّمه شفاهًا، وواجَهَه إذا قابله بوجهه، وهذا مستحيل في هذه الدار أن يظفر به بَشَر.

أنواع المعاينة وأقسامها

قال صاحب «المنازل»: (**المُعايَناتُ ثَلاثٌ. إحْداها: مُعايَنةُ الأبْصارِ، الثَّانيةُ: مُعايَنةُ عَيْنِ القَلْبِ، وهيَ مَعرِفةُ عَيْنِ الشَّيءِ على نَعْتِه، عِلْمًا يَقطَعُ الرِّيبةَ، ولا تَشُوبُه حَيْرةٌ، الثَّالِثةُ: مُعايَنةُ عَيْنِ الرُّوحِ، وهيَ الَّتي تُعايِنُ الحَقَّ عِيانًا مَحْضًا**).

فمعاينة العين: هي رؤية الشَّيءِ عِيانًا، [فـ]الله سبحانه جعَل في العين قوَّةً باصرة، كما جعل في الأذن قوَّةً سامعة، وفي الأنف قوَّةً شامة، وفي اللِّسان قوَّةً ناطقة، فهذه قُوًى أودعها الله سبحانه هذه الأعضاء، وجعل بينها وبينها رابطة، وجعَل لها أسبابًا ومخارجَ، وموانعَ تمنع حكمها.

وأما معاينة القلب: فهي انكشاف صورة المعلوم له، بحيث تكون نِسبتُه إلى القلب كنِسبة المرئيِّ إلى العين، وقد جَعَل الله سبحانه القلب يبصر ويعمى، كما تُبصر العين وكما تعمى، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]

فالقلب يرى ويسمع، ويَعمى ويَصَمُّ، وعمَاه وصَممُه أبلغُ من عمى البصر وصممه.

والرُّوح: هي الحاملةُ للبَدن، ولهذه القُوى كلِّها؛ فلا قِوامَ للبدن ولا لقُواه إلَّا بها، ولها ـ باعتبار إضافتِها إلى كلِّ مَحلٍّ ـ حُكمٌ واسمٌ يَخصُّها هناك؛ فإذا أُضيفت إلى محلِّ البصر سُمِّيت بَصرًا، وكان لها

حُكمٌ يَخصُّها هناك، وإذا أُضيفت إلى محلِّ السَّمع سُمِّيت سمعًا، وكان لها حُكمٌ يَخصُّها هناك، وإذا أُضيفت إلى محلِّ العَقل ـ وهو القلبُ ـ سُمِّيت قلبًا، ولها حُكمٌ يَخصُّها هناك؛ وهي في ذلك كلِّه رُوحٌ.

فالقوة الباصرة والعاقلةُ والسامعة والناطقة رُوحٌ باصرة وسامعةٌ وعاقلة وناطقة، ففي الحقيقة هذا العاقل، الفَهِم المدرك، المحِبُّ العارف، المحرِّك للبدن الذي هو محلُّ الخطاب والأمر والنهي هو شيءٌ واحد له صفاتٌ متعددة بحسب متعلِّقاته.

والرب تبارك وتعالى وراءَ ذلك كلِّه، منزَّهٌ مقدَّسٌ عن اطلاع البشر على ذاته، أو أنوار ذاته، أو صفاته، أو أنوارِ صفاته، وإنما هي الشواهد التي تقوم بقلب العبد، كما يقوم بقلبه شاهدٌ من الآخرة والجنة والنار، وما أعدَّ الله لأهلِهما.

وهذا هو الذي وجده عبد الله بن حرام الأنصاري يوم أُحُدٍ، لمَّا قال: «واهًا لِرِيح الجَنَّةِ! إنِّي أجِدُ واللهِ ريحَها دُونَ أُحُدٍ»، ومِن هذا قولُه ﷺ: «**إذا مَرَرْتُم بِرياضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا**»، قالوا: وما رِياضُ الجَنَّةِ؟ قال: «**حِلَقُ الذِّكْرِ**»[١]، ومنه قولُه: «**ما بَيْنَ بَيْتي ومِنبَرِي رَوْضةٌ مِن رِياضِ الجَنَّةِ**»[٢]، فهو روضة لأهل العلم والإيمان؛ لِما يقوم بقلوبهم من شواهد الجنة، حتى كأنها لهم رأي عين، وإذا قعد المنافق هناك لم يكن ذلك المكان في حقه روضة من رياض الجنة، ومِن هذا قولُه ﷺ: «**الجَنَّةُ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**»[٣].

فالعمل: إنَّما هو على الشواهد، وعلى حسَب شاهِد العبد يكون عملُه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٢٣)، والترمذي (٣٥١٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٨٨)، ومسلم (١٣٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨١٨)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

ونحن نُشير ـ بعون الله وتوفيقه ـ إلى الشواهد، إشارةً يُعلَم بها حقيقةُ الأمر.

شواهد السائر إلى الله

فأوَّلُ شواهدِ السائرِ إلى الله والدارِ الآخرة:

شاهد حقارة الدنيا

أن يقومَ به **شاهِدٌ من الدنيا وحقارتِها**، وقلَّةِ وفائها، وكثرة جفائها، وخِسَّةِ شركائِها، وسرعةِ انقضائها، ويرى أهلها وعشَّاقَها صَرْعى حَولَها، قد بدَّعت بهم، وعذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أمرَّ الشراب، أضحكتهم قليلًا، وأبكتهم طويلًا، سقتهم كؤوس سُمِّها، بعد كؤوس خمرها، فسكروا بحبِّها، وماتوا بهجرها.

شاهد دوام الآخرة

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها: ترحَّل قلبه عنها، وسافر في طلب الدار الآخرة وحينئذ يقوم بقلبه **شاهد من الآخرة ودوامها**، وأنها هي الحيوان حقًّا، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها، بل هي دارُ القرار، ومحطُّ الرجال، ومنتهى السَّير، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: «**ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا كما يَجعَلُ أحَدُكُم إصبَعَه في اليَمِّ، فَلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟**»[1]. وقال بعض التابعين: ما الدنيا في الآخرة إلا أقلُّ مِن ذرَّة واحدة في جبال الدنيا.

شاهد النار وأوصافها

ثم يقوم بقلبه **شاهد من النار**، وتوقُّدِها واضطرامها، وبُعْد قعرها، وشدَّة حرِّها، وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سودَ الوجوه، زُرْقَ العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلما انتهوا إليها فُتِّحت في وجوههم أبوابُها، فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفًا ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣]

فأراهم شاهد الإيمان، وهُم إليها يدفعون، وأتى النِّداءُ مِن قِبَلِ ربِّ العالَمين أن: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤] ثم قيل لهم:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤١٠٨) من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه.

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٦] فأراهم شاهد الإيمان، وهم في الحميم على وجوههم يسحبون، وفي النار كالحطب يسجرون ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ﴾ [الأعراف: ٤١]، فبئس اللّحافُ وبئسَ الفِراشُ، وإنْ يَستَغيثوا من شدة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾ [الكهف: ٢٩] فإذا شربوه قَطَّع أمعاءَهم في أجوافهم، وصهَرَ ما في بطونهم، شرابُهُم الحميم، وطعامُهم الزَّقُّومُ، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٦ ـ ٣٧].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهدُ: انخلع من الذنوب والمعاصي، واتِّباع الهوى، ولبِس ثيابَ الخوف والحذر، وأخْصَب قلبَه من مطر أجفانه، وهان عليه كلُّ مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسَب قوَّةِ هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيُذيب هذا الشاهدُ من قلبه الفضلات، والموادَّ المهلِكةَ، ويُنضجها ثم يُخرِجها، فيجدُ القلبُ لذَّةَ العافية وسرورَها.

شاهد الجنة وما أعده الله فيها

فيقوم به بعد ذلك: **شاهد من الجنة**، وما أعدَّ الله لأهلها فيها، «**ممَّا لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلْبِ بَشَرٍ**»[1]، فضلًا عمَّا وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصَّل، الكفيل بأعلى أنواع اللَّذَّة، من المطاعم والمشارب، والملابس والصور، والبهجة والسرور، فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها، «**تُرْبَتُها المِسْكُ، وحَصْباؤُها الدُّرُّ، وبِناؤُها لَبِنُ الذَّهبِ والفِضَّةِ**»[2]، وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل، وأطيب

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو بَرَزَ وجْهُ إحداهُنَّ في هذه الدنيا لغلَب على ضوء الشمس[(١)]، ولباسهم الحرير من السُّندس والإستبرق، وخَدَمُهم وِلْدانٌ كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غَوْلٌ ولا هم عنها يُنزَفون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يُحبَرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

شاهد يوم المزيد

فإذا انضم إلى هذا الشاهد: **شاهد يوم المزيد**، والنظر إلى وجه الرب ﷻ، وسماع كلامه منه بلا واسطة، كما قال النبي ﷺ: «**بَيْنما أهْلُ الجَنَّةِ في نَعيمِهِم، إذْ سَطَعَ لهُم نُورٌ، فرَفَعُوا رُؤُوسَهُم، فإذا الرَّبُّ تعالى قدْ أشرَفَ عليهِم مِن فَوقِهِم، وقال: يا أهْلَ الجَنَّةِ، سَلامٌ عليكُم، ثُمَّ قَرَأ قوله تعالى**: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨]، **ثمَّ يَتَوارَى عنهُم، وتَبقَى رَحمَتُه وبَرَكَتُه عليهِم في دِيارِهِم**»[(٢)].

فإذا انضمَّ هذا الشاهدُ إلى الشواهد التي قبله: فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابِّها، فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا.

شاهد جلال الربِّ تعالى

هذا، وفوق ذلك: شاهِدٌ آخَرُ تَضمحلُّ فيه هذه الشواهد، ويغيب به العبدُ عنها كلها، وهو **شاهدُ جلال الربِّ تعالى**، وجماله وكماله، وعزِّه وسلطانه، وقيوميِّتِه وعلوِّه فوق عرشه، وتكلُّمِه بكتبه وكلمات تكوينه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهد بقلبه قيُّومًا قاهرًا فوق عباده، مستويًا على عرشه،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٦)، والترمذي (١٦٥١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، والدارقطني في «الرؤية» (٥١)، والآجُرِّي في «الشريعة» (٦١٥)، واللالكائي في «شرح أصول أهل السُّنَّة» (٨٣٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

منفردًا بتدبير مملكته، آمرًا ناهيًا، مرسِلًا رسله، ومنزِلًا كتبه، يرضى ويغضب، ويُثيب ويُعاقب، ويعطي ويَمنع، ويعزُّ ويذلُّ، ويحب ويبغض، ويرحم إذا استُرحم، ويَغفِر إذا استُغفر، ويعطي إذا سُئل، ويجيب إذا دُعي، ويقيل إذا استقيل، أكبر مِن كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعَزُّ من كل شيء، وأقْدَرُ من كل شيء، وأعلم من كل شيء، وأحكَمُ من كل شيء، فلو كانت قوى الخلائق كلِّهم على واحد منهم، ثم كانوا كلُّهم على تلك القوة، ثم نُسِبَتْ تلك القوى إلى قوته تعالى لكانت أقل من قوة البَعوضة بالنسبة إلى قوَّة الأسد، ولو قُدِّر جمالُ الخَلْق كلِّهم على واحد منهم، ثم كانوا كلُّهم بذلك الجمال، ثم نُسِبَ إلى جمال الربِّ تعالى لكان دُون سراجٍ ضعيف بالنسبة إلى عين الشمس. ولو كان عِلمُ الأوَّلينَ والآخِرينَ على رجُلٍ منهم، ثم كان كلُّ الخَلقِ على تلك الصِّفة، ثم نُسِب إلى عِلم الرَّبِّ تعالى لكان ذلك كنقرة عصفور من البحر.

وهكذا سائر صفاته، كسمعه وبصرِه، وسائر نُعوتِ كماله، فإنه يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنُّنِ الحاجات، فلا يَشغَلُه سمْعٌ عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرَّم بإلحاح المُلِّحينَ، سواءٌ عنده مَن أسَرَّ القولَ ومَن جَهَر به، فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظَّلماء، ويرى نِياطَ عروقها ومجاري القوت في أعضائها، يضع السموات على إصبع من أصابع يده، والأرضَ على إصبع، والجبالَ على إصبع، والشجَر على إصبع، والماءَ على إصبع، ويقبض سماواته بإحدى يديه، والأرضين باليد الأخرى، فالسموات السبع في كفه كخردلة في كف العبد، ولو أن الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم قاموا صفًّا واحدًا ما أحاطوا بالله ﷻ، لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: اضمحلَّت فيه الشواهد المتقدمة

من غير أن تعدم، بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد، وتندرج فيه الشواهدُ كلها، ومَنْ هذا شاهده فله سلوك وسير خاص، ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن، هو في واد وهم في واد.

خَلِيلَيَّ لا واللَّهِ ما أنا مِنكُما   إذا عَلَمٌ مِن آلِ لَيلَى بَدَا لِيَا

المثل الأعلى الذي ذكره سبحانه

والمقصود: أن العِيانَ والكشفَ والمشاهدةَ في هذه الدار إنما تقع على الشواهد والأمثلةِ العِلمية، وهو المَثَل الأعلى الذي ذكره سبحانه في ثلاثةِ مواضعَ من كتابه في سورة النحل: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آية: ٦٩]، وسورة الروم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [آية: ٢٧]، وسورة النور: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [آية: ١١]، وهو ما يقوم بقلوب عابديه ومحبِّيه، والمنيبين إليه من هذا الشاهد، وهو الباعث لهم على العبادة والمحبة، والخشيةِ والإنابة، وتفاوُتُهم فيه لا ينحصر طرَفاه، فكلٌّ منهم له مقامٌ معلوم لا يتعدَّاه، وأعظم الناس حظًّا في ذلك معترف بأنه لا يُحصي ثناءً عليه سبحانه، وأنه فوق ما يثني عليه المثنون، وفوق ما يحمده الحامدون، كما قيل:

وما بَلَغَ المُهْدُونَ نَحْوَكَ مِدْحَةً   وإنْ أطْنَبُوا إلَّا الَّذي فيكَ أعظَمُ
لَكَ الحَمدُ كُلَّ الحَمدِ لا مُبتَدًا لهُ   ولا مُنتَهًى واللَّهُ بالحَمدِ أعلَمُ

وطهارة القلب، ونزاهته من الأوصاف المذمومة، والإرادات السفلية، وخلوُّه وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه، هو كرسيُّ هذا الشاهد، الذي يجلس عليه، ومقعده الذي يتمكن فيه، فحرام على قلب

متلوثٍ بالخبائث والأخلاق والصفات الذميمة، متعلقٍ بالمرادات السافلة أن يقوم به هذا الشاهد، أو يكونَ من أهله.

نَزِّهْ فُؤَادكَ عن سِوانَا وائْتِنَا   فجَنابُنَا حِلٌّ لكُلِّ مُنَزَّهِ
والصَّبْرُ طِلَّسْمٌ لكَنْزِ لِقائِنا   مَنْ حَلَّ ذا الطِّلَّسْمَ فازَ بكَنْزِهِ

إذا طلعت شمس التوحيد، وباشرت حرارتها الأرواح، ونورها البصائر، تجلت بها ظلمات النفس والطَّبْع، وتحركت بها الأرواح في طلب من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، فسافر القلب في بيداء الأمر، ونزل منازل العبوديَّة، منزلًا منزلًا، فهو ينتقل من عبادة إلى عبادة، مقيم على معبود واحد، فلا تزال شواهدُ الصفات قائمةً بقلبه، توقظُه إذا رقد، وتذكِّرُه إذا غَفَل، وتحدُو به إذا سار، وتقيمُه إذا قعد، إن قام بقلبه شاهدٌ من الربوبية والقيُّوميَّة رأى أن الأمر كلَّه لله، ليس لأحد معه من الأمر شيء ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٢ ـ ٣] ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨] ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩].

إن قام بقلبه شاهد من الإلٰهية: رأى في ذلك الشاهد الأمر

والنهي، والنُّبوَّات، والكتب والشرائع، والمحبة والرِّضى، والكراهة والبغض، والثواب والعقاب، وشاهد الأمرَ نازلًا ممن هو مستوٍ على عرشه، وأعمالُ العباد صاعدة إليه، ومعروضة عليه، يجزي بالإحسان منها في هذه الدار وفي العُقْبى نضرة وسرورًا، ويَقدِم إلى ما لم يكن على أمره وشرعه منها فيجعله هباء منثورًا.

وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة: رأى الوجودَ كلَّه قائمًا بهذه الصفة قد وسع من هي صفته كلَّ شيء رحمة وعلمًا، وانتهت رحمتُه إلى حيث انتهى علمُه، فاستوى على عرشه برحمته؛ لِتسَعَ كلَّ شيء، كما وسع عرشُه كل شيء.

وإن قام بقلبه شاهدُ العِزَّةِ والكبرياء، والعظمةِ والجبروت: فله شأنٌ آخَرُ.

وهكذا جميع شواهدِ الصفات، وما ذكرْناه أدنى تنبيهٍ عليها، فالكشف والعِيانُ والمشاهدةُ لا تتجاوز الشواهد.





منزلة الحياة

قال صاحب «المنازل»: (قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]).

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهرٌ جدًّا؛ فإن المراد بها: مَن كان ميتَ القلب بعدم رُوح العلم والهدى والإيمان، فأحياه الربُّ تعالى برُوح أخرى غيرِ الرُّوح التي أحيا بها بدنَه، وهي رُوح معرفته وتوحيدِه، ومحبته وعبادته وحدَه لا شريك له؛ إذ لا حياة للرُّوح إلَّا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات، ولهذا وصَفَ الله تعالى مَن عدمَ ذلك بالموت، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠].

وسمَّى وحيه رُوحًا؛ لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأخبر أنه روح تحصل به الحياة، ونور تحل به الإضاءة، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾ [غافر: ١٥]، فبالوحي حياة الروح، كما أن بالروح حياة البدن، ولهذا مَن فقَد هذه الروح فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة: فإنه له جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

حياة القلب بالإيمان ومعرفة الله

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته؛ فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، وقد فُسِّرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا، والرزقِ الحسن وغير ذلك، والصواب: أنها حياة القلب ونعيمُه، وبهجته وسرورُه بالإيمان ومعرفة الله، ومحبَّتِه، والإنابة إليه، والتوكُّلِ عليه؛ فإنه لا حياةَ أطيَبُ من حياة صاحبها، ولا نعيم فوقَ نعيمِه، إلا نعيمَ الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنَّه لتَمُرُّ بي أوقاتٌ أقول فيها: إن كان أهلُ الجنة في مِثلِ هذا إنهم لفي عَيشٍ طيِّب. وقال غيرُه: إنه لتَمُرُّ بالقلب أوقاتٌ يرقص فيها طَربًا.

وجود الحياة الطيِّبة في الدُّور الثلاث

وإذا كانت حياة القلب حياة طيِّبةً تبعته حياة الجوارح؛ فإنه مَلِكُها، ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمَن أعرض عن ذِكْرِه، وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيِّبة تكون في الدُّور الثلاث؛ أعني: دارَ الدنيا، ودارَ البَرزخ، ودار القرار، والمعيشة الضنك أيضًا تكون في الدُّور الثلاث، فالأبرار في النعيم هاهنا وهناك، والفُجَّار في الجحيم هاهنا وهناك، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

فذِكْرُ الله ﷻ، ومحبته وطاعته، والإقبال عليه: ضامنٌ لأطيب الحياة في الدنيا، والإعراضُ عنه والغفلةُ، ومعصيته: كفيلٌ بالحياة المنغَّصَة، والمعيشةِ الضنك في الدنيا والآخرة.

* * *

أنواع الحياة

قال صاحب «المنازل»: **(اسْمُ الحَياةِ في هذا البابِ يُشارُ به إلى أشياءَ. الحَياةُ الأُولى: حَياةُ العِلْمِ مِن مَوتِ الجَهلِ، ولها ثَلاثةُ أنفاسٍ: نفَسُ الخَوفِ، ونفَسُ الرَّجاءِ، ونفَسُ المَحبَّةِ)**.

قوله: **(الحَياة في هذا البابِ)** يريد: الحياةَ الخاصَّةَ التي يتكلَّم

عليها القومُ دون الحياة العامَّةِ المشتركةِ بين الحيوان كلِّه، بل بين الحيوان والنبات. وللحياة مراتبُ، ونحن نُشير إليها:

المرتبة الأولى: **حياةُ الأرض بالنبات**، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النحل: ٦٥].

المرتبة الثانية: **حياة النموِّ والاغتذاء**. وهذه الحياة مشتركةٌ بين النبات والحيوانِ الذي يعيش بالغذاء، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

المرتبة الثالثة: **حياة الحيوان المغتذي بقدْرٍ زائد على نُموه واغتذائه**، وهو إحساسه وحركته.

المرتبة الرابعة: **حياة الحيوان الذي لا يغتذي بالطعام والشراب**، كحياة الملائكة، وحياة الأرواح بعد مُفارقتها الأبدان، فإن حياتها أكملُ من حياة الحيوان المغتذي؛ ولهذا لا يَلحَقُها كَلالٌ ولا فتور، ولا نومٌ ولا إعياء، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وكذا الأرواح إذا تخلصتْ من هذه الأبدان وتجرَّدت: صار لها حياةٌ أُخرى أكملُ من هذه إن كانت سعيدة، وإن كانت شقيةً كانت عاملة ناصبةً في العذاب.

المرتبة الخامسة: الحياة التي أشار إليها المصنِّف، وهي **حياة العلم من موت الجهل**؛ فإن الجهل موت لأصحابه، كما قيل:

وفي الجَهلِ قَبْلَ المَوتِ مَوتٌ لأهْلِهِ ... وأجسامُهُم قَبْلَ القُبورِ قُبورُ
وأرواحُهُم في وَحْشةٍ مِن جُسُومِهم ... فليس لهُم حتَّى النُّشورِ نُشورُ

فالجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حيَّ البدن فجسدُه قبرٌ يمشي به على وجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنْ

هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢]، وشبَّههم في موت قُلوبهم بأهل القبور؛ فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامُهم قبورًا لها، فكما لا يسمع أصحابُ القبور، لا يسمع هؤلاء، وإذا كانت الحياة هي الحِسَّ والحركةَ أو ملزومَهما، فهذه القلوب لمَّا لم تُحِسَّ بالعِلم والإيمان، ولم تتحرَّكْ له: كانت ميتة حقيقة، وليس هذا تشبيهًا لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والرُّوح.

وقد ذَكر الإمام أحمد في «كتاب الزهد» من كلام لُقمان: أنَّه قال لابنه: «يا بني جالِسِ العلماءَ، وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل القطر»[(١)].

وقال مُعاذُ بن جَبلٍ: «تعلَّموا العِلمَ؛ فإنَّ تعلُّمَه لله خشيةٌ، وطلبَه عِبادة، ومذاكرتَه تسبيح، والبحثَ عنه جِهاد، وتعليمَه لمَن لا يَعلمه صدقة، وبَذْلَه لأهله قُربة؛ لأنه معالمُ الحلال والحرام، ومنارُ سبيل أهل الجنة، وهو الأنيسُ في الوحشة، والصاحبُ في الغربة، والمُحدِّث في الخَلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزَين عند الأخلَّاء، يَرفع الله به أقوامًا، فيجعلهم في الخير قادة، وأئمة تُقْتَص آثارهم، ويُقْتدى بأفعالهم، ويُنْتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خُلَّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يَستغفر لهم كلُّ رَطْبٍ ويابسٍ، وحيتانُ البحر وهوامُّه، وسِباع البر وأنعامه؛ لأنَّ العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العُلى في الدنيا والآخرة. التفكُّر فيه يَعدل الصيام، ومُدارسته

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٥٥٢)، ولفظه: «**بِوابِلِ السَّماءِ**» بدلًا من «**بوابِل القَطْرِ**».

تَعدل القيامَ، به تُوصَل الأرحام، وبه يُعرَفُ الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابع له، يُلْهَمُه السُّعداء، ويُحْرَمُه الأشقياء». رواه الطبراني وابن عبد البر وغيرهما»[(١)].

حياة الإرادة والهمة والمحبة

المرتبة السادسة: **حياة الإرادة والهمة والمحبة**؛ فإن فتور الهمة وضعف الإرادة والطلب: من ضعف حياة القلب، وكلما كان القلب أتمَّ حياةٍ، كانت همته أعلى، وإرادته ومحبته أقوى؛ فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب، وسلامة القلب من الآفة التي تَحُول بينه وبين طلَبِهِ وإرادته، فضعف الطلب وفتور الهمة: إما من نقصان الشعور والإحساس، وإما من وجود الآفة المُضْعِفَة للحياة، فقُوَّة الشعور، وقوة الإرادة دليلٌ على قوة الحياة، وضعفها دليلٌ على ضعفها، وكما أن علو الهمة، وصدق الإرادة والطلب: من كمال الحياة، فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها، فإن الحياة الطيبة إنما تُنال بالهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة، فعلى قدْر ذلك تكون الحياة الطيبة، وأخسُّ الناس حياةً أخسهم هِمة، وأضعفهم محبة وطلبًا، وحياةُ البهائم خير من حياته. كما قيل:

نَهارُكَ يا مَغرورُ لَهْوٌ وغَفلةٌ ... ولَيْلُكَ نَومٌ والرَّدى لكَ لازِمُ

وتَكْدَحُ فيما سوف تَسخَطُ غِبَّهُ ... كذلكَ في الدُّنيا تَعيشُ البَهائِمُ

تُسَرُّ بما يَفنى وتَفرَحُ بالمُنى ... كما غُرَّ باللَّذَّاتِ في النَّوم حالِمُ

والمقصود: أن حياة القلب بالعلم والإرادة والهمة، والناسُ إذا شاهدوا ذلك من الرجل، قالوا: هو حيُّ القلب، وحياة القلب بدوام الذكر وتركِ الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ:

رأيْتُ الذُّنوبَ تُميتُ القُلوبَ ... وقدْ يُورِثُ الذُّلَّ إدمانُها

وتَرْكُ الذُّنوبِ حَياةُ القُلوبِ ... وخَيرٌ لنفْسِكَ عِصْيانُها

وهلْ أفسَدَ الدِّينَ إلَّا المُلو ... كُ وأحبارُ سُوءٍ ورُهْبانُها

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٦٨).

وباعُوا النُّفوسَ ولمْ يَرْبَحوا ولمْ يَغْلُ في البَيعِ أثمانُها
فقدْ رَتَعَ القَومُ في جِيفةٍ يَبِينُ لذي اللُّبِّ خُسْرانُها

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «مَن واظب على (يا حيُّ يا قيومُ، لا إلٰهَ إلَّا أنت) كلَّ يومٍ، بين سُنة الفجر وصلاة الفجر أربعين مرَّةً: أحيا اللهُ قلبه».

وكما أنَّ الله سبحانه جعَل حياة البدن بالطعام والشراب، فحياةُ القلب بدوام الذِّكر، والإنابةِ إلى الله، وتركِ الذنوب، والغفلةُ الجاثمةُ على القلب، والتعلقُ بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قُرب: يُضعِف هذه الحياةَ، ولا يزال الضعفُ يتوالى عليه حتى يموت، وعلامة موته: أنه لا يَعرِف معروفًا، ولا يُنكِر مُنكرًا، كما قال عبد الله بن مسعود: «أتدرون مَن ميِّت الأحياء؟ الذي قيل فيه:

ليس مَن ماتَ فاستَراحَ بمَيْتٍ إنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ

قالوا: ومَن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا، ولا يُنكِر مُنكرًا».

والرجل: هو الذي يخاف موتَ قلْبه، لا موت بدنه؛ إذ أكثرُ هذا الخلق يخافون موتَ أبدانهم، ولا يُبالون بموت قلوبهم، ولا يَعرِفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية، وذلك من موت القلب والروح، فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهةٌ بالظلِّ الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام الذي يُخيَّل لرائِيه أنه حقيقة، فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالًا، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو أنَّ الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها أُوتِيها رجل واحد، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة مَن رأى في منامه ما يسُرُّه ثم استيقظ، فإذا ليس في يده شيء».

وقد قيل: إنَّ الموت موتان: موتٌ إراديٌّ، وموت طبيعيٌّ؛ فمن أمات نفسه موتًا إراديًا، كان موته الطبيعي حياة له. ومعنى هذا أن

الموت الإرادي: هو قمْعُ الشهوات المُرْدِية، وإخماد نيرانها المحرقة، وتسكين هوائجها المتلفة، فحينئذ يتفرَّغ القلب والروح للتفكُّر فيما فيه كمالُ العبد، ومعرفته، والاشتغال به. ويرى حينئذ أن إيثارَ الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم: أخسرُ الخُسران، فأمَّا إذا كانت الشهواتُ وافدةً، واللذات مُؤثَرةً، والعوائد غالبةً، والطبيعةُ حاكمة، فالقلب حينئذٍ إما أن يكون أسيرًا ذليلًا، أو مهزومًا مُخرجًا عن وطنه ومُستقرِّه الذي لا قرار له إلا فيه، أو قتيلًا ميتًا، وما لِجُرح به إيلام، وأحسن أحواله: أن يكون في حرب، يُدال فيها مرة، وتدال عليه مرة.

فإذا مات العبد موتَه الطبيعي، كانت بعده حياة رُوحه بتلك العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التي حصلت له بإماتة نفسه، فتكون حياته هاهنا على حسب موته الإرادي في هذه الدار.

وهذا موضع لا يفهمه إلا ألبَّاءُ الناس وعقلاؤهم، ولا يعمل بمقتضاه إلا أهلُ الهمم العليَّة، والنفوس الزكية الأبية.

حياة الأخلاق

المرتبة السابعة من مراتب الحياة: **حياة الأخلاق، والصفات المحمودة**، التي هي هيئات راسخة للموصوف بها، فهو لا يتكلَّف الترقِّيَ في درجات الكمال، ولا تشُقُّ عليه؛ لاقتضاء أخلاقه وصفاته لذلك، بحيث لو فارقَه ذلك لَفارَقَ ما هو مِن طبيعته وسجيته، فحياةُ مَن قد طُبِعَ على الحياء والعِفَّة، والجُود والسخاء، والمروءة والصِّدقِ والوفاء، ونحوها: أتمُّ مِن حياة مَن يَقهر نفْسَه، ويُغالب طبْعَه، حتى يكونَ كذلك، فإن هذا بمنزلة مَن تُعارِضُه أسبابُ الداء وهو يعالِجها ويَقمعُها بأضْدادِها، وذلك بمنزلة مَن قد عُوفِيَ من ذلك.

وكلما كانت هذه الأخلاقُ في صاحبها أكمَلَ، كانت حياتُه أقوى وأتمَّ، ولهذا كان خُلُق الحياء مشتقًّا من الحياة اسمًا وحقيقة، فأكملُ

الناس حياةً أكملهم حياءً، ونُقصانُ حياءِ المرء مِن نقصان حياته؛ فإن الرُّوح إذا ماتت لم تُحِسَّ بما يؤْلِمُها من القبائح، فلا تستحيي منها، فإذا كانت صحيحةَ الحياة أحسَّت بذلك، فاستحيت منه، وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة، والصِّفات الممدوحة تابعةٌ لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة، ولهذا كانت حياةُ الشجاع أكملَ من حياة الجبان، وحياةُ السَّخِيِّ أكملَ من حياة البخيل، وحياة الفَطِنِ الذَّكيِّ أكمَلَ مِن حياة الفَدْمِ البَليدِ، ولهذا لمَّا كان الأنبياءُ صلوات الله وسلامه عليهم أكملَ الناس حياةً، حتى إن قوة حياتهم تمنعُ الأرضَ أنْ تبليَ أجسامَهم: كانوا أكملَ الناس في هذه الأخلاق، ثم الأمْثل فالأمْثل مِن أتْباعهم.

فانظر الآن إلى حياة ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٢]، وحياة جواد شجاع، بر عادل، عفيف محسن؛ تجد الأول ميتًا بالنسبة إلى الثاني، ولله دَر القائل:

وما لِلْمَرءِ خَيرٌ في حَياةٍ ... إذا ما عُدَّ مِن سَقَطَ المَتاعِ

حياة الفرح والسرور وقرة العين بالله

المرتبة الثامنة من مراتب الحياة: **حياة الفرح والسرور، وقرة العين بالله.** وهذه الحياة إنما تكون بعد الظفر بالمطلوب، الذي تقر به عين طالبه، فلا حياة نافعة له بدونه، وحول هذه الحياة يدندن الناس كلهم، وكلهم قد أخطأ طريقها، وسلك طرقًا لا تُفْضي إليها، بل تقطعه عنها، إلا أقل القليل.

فدار طَلَبُ الكل حول هذه الحياة، وحُرِمَها أكثرُهم.

وسبب حرمانها: ضعْفُ العقل والتمييزِ والبصيرة، وضعْفُ الهِمَّةِ والإرادة؛ فإن مادتها بصيرةٌ وقَّادةٌ، وهِمَّةٌ نفَّاذة، والبصيرة كالبصر تكون عَمًى وعورًا وعمشًا ورمدًا، وتامة النور والضياء، وهذه الآفات قد تكون لها بالخِلقة في الأصل، وقد تَحدُث فيها بالعوارض الكسبية.

والمقصود: أن هذه المرتبة من مراتب الحياة أعلى مراتبها، ولكن كيف يصل إليها مَن عقْلُه مَسبيٌّ في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ العادات، ودِينه مستهلك

بالمعاصي والمخالفات، وهمَّته واقفة مع السُّفليات، وعقيدته غير مُتلقَّاة من مِشكاة النُّبوات؟!

فهو في الشهوات مُنغمِسٌ، وفي الشُّبهات مُنتكس، وعن الناصح مُعرِض، وعلى المرشد مُعترِض، وعن السُّرى نائمٌ، وقلبه في كل وادٍ هائم؛ فلو أنه تجرَّد من نفْسه، ورغِب عن مُشاركة أبناء جنسه، وخرج مِن ضِيق الجهل إلى فضاء العِلم، ومِن سجن الهوى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس إلى طهارة القدس: لرأى الإلفَ الذي نشأ بنشأته، وزاد بزِيادته، وقَوِيَ بقوته، وشرُف عند نفْسه وأبناء جنسه بحُصوله، قذًى في عين بصيرته، وشجًا في حلق إيمانه، ومرضًا مُترامِيًا إلى هلاكه.

فإنْ قُلتَ: قد أشرتَ إلى حياة غيرِ معهودة بين أموات الأحياء؛ فهل يُمكنك وصفُ طريقها؛ لأصلَ إلى شيء من أذواقها، فقد بان لي أنَّ ما نحن فيه من الحياة حياةٌ بهيمية، ربما زادتْ علينا فيه البهائم بخُلوِّها عن المنكرات والمنغِّصاتِ وسلامة العاقبة؟

قلت: لَعَمْرُ الله إنَّ اشتياق القلب إلى هذه الحياة، وطلَبِ عِلمِها ومعرفتها: لَدليلٌ على حياته، وأنه ليس من جملة الأموات.

فأوَّلُ طريقِها: أن تعرف اللهَ سبحانه، وتهتديَ إليه طريقًا يوصلك إليه، ويحرِق ظُلُماتِ الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهدٌ من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكُلِّيَّتِه، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترْكِ المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارسًا على قلبه، فلا يسامِحُه بخطرة يَكرَهُها الله، ولا بخطرة فضولٌ لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبُه عن حديث النفْس ووساوسها، فيُفْدى مِن أسرها، ويصير طليقًا، فحينئذ يخلو قلْبُه بذكر ربه، ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخرج من بين البيوت لعلني ... أُحدث عنك النفسَ في السر خاليًا

فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك: رُزِقَ محبة الرسول ﷺ، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديًا إليه، فيطالع سيرته ومبادئ أموره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلْبُه في ذلك: فُتِحَ عليه بفَهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث إذا قرأ السورة، شاهَدَ قلبُه ما أُنزِلت فيه، وماذا أُريد بها، وحظه المختص به منها؛ من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة، فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف، ومن الصفات والأفعال الممدوحة، فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكَّن من ذلك: انفتَح في قلبِه عينٌ أخرى، يُشاهِدُ بها صفاتِ الرَّبِّ ﷻ، حتى تصيرَ لقلبه بمنزلة المَرئيِّ لعينه، فيشهد عُلُوَّ الرَّبِّ سبحانه فوقَ خلْقِه، واستواءَه على عرشه، ونزولَ الأمر مِن عندِه بتدبير مملكتِه، وتكلُّمَه بالوحي، وتكليمَه لعبدِه جِبريلَ به، وإرسالَه إلى مَن يَشاءُ بما يَشاءُ، وصُعودَ الأمور إليه، وعَرْضَها عليه.

فيشاهِد قلبُه ربًّا قاهرًا فوقَ عباده، آمِرًا ناهيًا، باعثًا لرُسُله، منزلًا لكُتبه، معبودًا مُطاعًا، لا شريك له، ولا مثيلَ له، ولا عِدْل له، ليس لأحد معه مِنَ الأمر شيءٌ، بل الأمرُ كلُّه له، فيَشهَدُه سُبحانه قائمًا بالمُلكِ والتَّدبير، فلا حركةَ ولا سكون، ولا نفعَ ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبْض ولا بسط: إلَّا بقُدرته وتدبيره، فيشهد قيامَ الكونِ كلِّه به، وقيامَه سُبحانه بنفْسه، فهو القائمُ بنفْسه، المقيمُ لكلِّ ما سِواه.

فإذا رَسَخ قلْبُه في ذلك: شهِد الصِّفةَ المصحِّحةَ لجميع صفات الكمال، وهي (الحياة) التي كمالُها يَستلزِمُ كمالَ السَّمعِ والبصر، والقدرةِ

والإرادة، والكلام وسائرِ صفات الكمال. وصفةَ القَيُّوميَّةِ المصحِّحة لجميع الأفعال، فالحَيُّ القَيُّوم: مَن له كلُّ صفةِ كمال، وهو الفَعَّالُ لِما يريد.

أطيب الحياة على الإطلاق

فإذا رسخ قلبُه في ذلك: فُتِح له مشهد القُرب والمَعِيَّة، فيَشهَدُه سُبحانه حاضرًا معه، غيرَ غائب عنه، قريبًا غير بعيد، مع كَونِه فوقَ سماواته على عرشه، بائنًا مِن خَلْقه، قائمًا بالصُّنع والتدبير، والخلْقِ والأمر، فيحصُلُ له مع التعظيم والإجلال الأُنسُ بهذه الصِّفة، فيأنس به بعد أن كان مستوحشًا، ويَقْوى بعد أن كان ضعيفًا، ويَفرح بعد أن كان حزينًا، ويجد بعْدَ أن كان فاقدًا، فحينئذ يجد طعم قولَه: «**ولا يَزالُ عَبْدي يَتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الَّذي يُبصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه الَّتي يَمْشي بها، ولئِنْ سَألَني لأُعْطِيَنَّه، ولئِنِ استَعاذَني لأُعيذَنَّه**»[(١)].

فأطيبُ الحياةِ على الإطلاق حياةُ هذا العبد؛ فإنه مُحِبٌّ محبوب، مُتقرِّب إلى ربِّه، وربُّه قريبٌ منه، قد صار له حبيبَه لفرط استيلائِه على قلبه، ولَهجِه بذِكرِه، وعُكوفِ هِمَّته على مَرضاته بمنزلة سمعِه وبصره، ويدِه ورِجلِه، وهذه آلاتُ إدراكِه وعملِه وسَعْيِه، فإنْ سمِع سمِع بحبيبه، وإن أَبصَرَ أَبصرَ به، وإنْ بَطَشَ بَطَشَ به، وإنْ مشى مشى به.

فإنْ صَعُب عليك فَهْمُ هذا المعنى، وكَون المُحِبِّ الكاملِ المحبَّةِ يَسمَعُ ويُبصِرُ ويَبطِشُ ويمشي بمحبوبه، وذاتُه غائبة عنه، فاضرِبْ عنه صَفْحًا، ودَعْ هذا الشأْن لأهله.

خَلِّ الهَوى لأُناسٍ يُعرَفونَ بهِ قد كابَدوا الحُبَّ حتَّى لانَ أصْعَبُهُ

فإنَّ السالك إلى ربِّه لا تزال همَّتُه عاكفةً على أمْرين: استفراغ القلب في صِدْق الحب، وبَذْلِ الجهد في امتثال الأمر، فلا يزال كذلك حتى يبدو على سِرِّه شواهدُ معرفته، وآثارُ صفاته وأسمائه، ولكن يتوارى عنه ذلك أحيانًا، ويبدو أحيانًا، يبدو مِن عينِ الجُود، ويَتوارى بحكم

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الفَترة، والفترات أمْرٌ لازمٌ للعبد، «**فلِكُلِّ عامِلٍ شِرَّة، ولكل شِرَّة فترةٌ**»[(١)]، فأعلاها فَترة الوحي، وهي للأنبياء، وفَترةُ الحال الخاصِّ للعارفين، وفترة الهمَّةِ للمريدين، وفترة العمل للعابدين، وفي هذه الفَتَراتِ أنواعٌ من الحكمة والرَّحمة، والتَّعرُّفاتِ الإلٰهيَّة، وتعريفِ قدْرِ النِّعمة، وتجديدِ الشَّوقِ إليها، وعضِّ النَّواجِذ عليها، وغير ذلك.

ولا تزال تلك الشواهدُ تتكرَّرُ وتتزايد، حتى تَستقرَّ، ويَنصبغَ بها قلبُه، وتَصيرَ الفَترةُ غيرَ قاطعةٍ له، بل تكونُ نعمةً عليه، وراحةً له، وترويحًا وتنفيسًا عنه.

فهِمَّةُ المحبِّ إذا تعلَّقَتْ رُوحه بحبيبه، عاكفًا على مَزيد محبَّتِه، وأسباب قوتها، فهو يعمل على هذا، ثم يترقَّى منه إلى طلب محبَّةِ حبيبِه له، فيعمل على حصول ذلك، ولا يعدم الطلبَ الأول، ولا يفارِقُه البتَّةَ، بل يَندرِجُ في هذا الطلبِ الثاني، فتتعلَّقُ هِمَّتُه بالأمْرين جميعًا؛ فإنَّه إنَّما يحصُل له منزلةُ: «**كنتُ سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الَّذي يُبصِرُ به**» بهذا الأمرِ الثاني، وهو كَونُه محبوبًا لحبيبه، كما قال في الحديث: «**فإذا أحْبَبْتُه كنتُ سَمْعَه وبَصَرَه...**» إلخ، فهو يَتقرَّبُ إلى ربِّه؛ حِفظًا لمحبَّتِه له، واستدعاءً لمحبَّةِ ربِّه له.

فحينئذٍ يشُدُّ مِئزرَ الجِدِّ في طلب محبَّةِ حبيبِه له بأنواع التقرُّبِ إليه؛ فقلبُه: للمحبة والإنابة والتوكُّلِ، والخوفِ والرجاء، ولسانُه: للذِّكرِ وتلاوةِ كلامِ حبيبه، وجوارحُه: للطاعات، فهو لا يَفتُرُ عنِ التَّقرُّبِ مِن حبيبه.

وهذا هو السَّيرُ المُفْضي إلى هذه الغايةِ التي لا تُنال إلَّا به، ولا يُوصَلُ إليها إلَّا مِن هذا البابِ وهذه الطريق، وحينئذ تجتمِعُ له في سَيره

(١) يشير المؤلف إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٦٥٣٩، ٦٧٦٤)، وابن خزيمة (٢١٠٥)، وابن حبان (١١) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٩): «رجال أحمدَ ثِقاتٌ».

جميعُ متفرِّقاتِ السُّلوك: من الحضور، والهَيبةِ، والمراقبة، ونَفيِ الخواطر، وتخلية الباطن.

فإن المحبَّ يَشرَعُ أوَّلًا في التَّقرُّبات بالأعمال الظاهرة، وهي ظاهر التقرُّب، ثم يترقَّى من ذلك إلى حال التقرب، وهو الانجذاب إلى حبيبه بكُلِّيَّته برُوحه وقلبه، وعقلِه وبدنه، ثم يترقَّى من ذلك إلى مقام الإحسان، فيَعبُدُ اللهَ كأنَّه يراه، فيتقرَّبُ إليه حينئذ بأعمال القلوب؛ من المحبة والإنابة، والتعظيم والإجلال والخشية، فينبعث حينئذ من باطنه الجُودُ ببَذْلِ الرُّوح، والجُودُ في محبَّةِ حبيبه بلا تكلُّفٍ، فيَجودُ برُوحِه ونفْسِه، وأنفاسِه وإرادتِه، وأعمالِه لحبيبه حالًا لا تكلُّفًا.

مراتب القرب من الرحمٰن

فإذا وجد المحِبُّ ذلك، فقد ظفِرَ بحال التقرُّب وسرِّه وباطنه، وإن لم يَجِدْه فهو يتقرَّب بلسانه وبدنه وظاهرِه فقط، فلْيَدُم على ذلك، وليتكلَّفِ التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام؛ فعساه أن يحظى بحال التقرُّب.

ووراء هذا التقرُّبِ الباطن أمرٌ آخَرُ أيضًا، وهو شيء لا يُعبَّر عنه بأحسن من عبارة أقربِ الخلق إلى الله ﷺ عن هذا المعنى؛ حيث يقول حاكيًا عن ربه تبارك وتعالى: «**مَن تَقرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقرَّبْتُ منهُ ذِراعًا، ومَن تَقرَّبَ مِنِّي ذِراعًا تَقرَّبْتُ منهُ باعًا، ومَن أتاني يَمْشي أتَيْتُه هَرْوَلةً**»[(١)]. فيجد هذا المحب في باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًّا.

فذكر من مراتب القرب ثلاثة، ونبَّه بها على ما دونها وما فوقها؛ فذكر تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعًا، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع، فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعًا.

فإذا ذاق حلاوةَ هذا القُرب الثاني: أسرع المشيَ حينئذ إلى ربه، فيذوق حلاوةَ إتيانه إليه هَرْوَلةً، وهاهنا منتهى الحديث، منبِّهًا على أنه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إذا هَروَلَ عبدُه إليه كان قُربُ حبيبه منه فوق هَرْولةِ العبد إليه؛ فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعِظَم شأنِ هذا الجزاء، وأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أُذُن، ولم يخطر على قلب بشر، أو إحالةً له على المراتب المتقدمة، فكأنه قيل: وقِسْ على هذا، فعلى قدْرِ ما تَبذُلُ منك متقرِّبًا إلى ربك، يتقرَّبُ إليك بأكثرَ منه، وعلى هذا فلازِمُ هذا التقرُّب المذكور في مراتبه؛ أي: مَن تقرَّب إلى حبيبه برُوحه وجميع قُواه، وإرادتِه وأقواله وأعماله: تقرَّبَ الرَّبُّ منه سبحانه بنفْسِه في مقابلة تقرُّبِ عبْدِه إليه.

وليس القرب في هذه المراتب كلِّها قُرْبَ مسافة حسية ولا مماسة، بل هو قرب حقيقة، والرب تعالى فوق سماواته على عرشه، والعبد في الأرض.

وهذا الموضع هو سِرُّ السلوك، وحقيقة العبودية، وهو معنى الوصول الذي يُدَنْدِنُ حَوْلَه القومُ.

ومِلاك هذا الأمرِ هو قصْدُ التقرُّبِ أولًا، ثم التقرُّب ثانيًا، ثم حال التقرب ثالثًا، وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقة هذا الانبعاث: أنْ تَفنَى بمُراده عن هواك، وبما يُحبُّه عن حظِّك، بل يصير ذلك هو مجموع حظك ومرادك.

وقد عرَفْتَ أن مَن تقرَّب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جُوزِيَ على ذلك بقُربٍ هو أضعافه، وعرَفت أن أعلى أنواع التقرب تقرب العبد بجملته ـ بظاهره وباطنه، وبوجوده ـ إلى حبيبه، فمَن فعل ذلك فقد تقرَّبَ بكُلِّه، ولم تَبقَ منه بقيَّةٌ لغير حبيبه، كما قيل:

لا كان مَن لِسِواكَ فيهِ بَقِيَّةٌ   يَجِدُ السَّبيلَ بها إليهِ العُذَّلُ

وإذا كان المتقرِّب إليه بالأعمال يُعطى أضعاف أضعاف ما تَقرَّب به، فما الظنُّ بمَن أُعطيَ حالَ التقرُّبِ وذَوْقَه ووجْدَه؟ فما الظنُّ بمَن تقرَّب إليه برُوحه، وجميعِ إرادته وهِمَّتِه، وأقواله وأعمالِه؟

وعلى هذا فكما جادَ لحبيبه بنفسه، فإنه أهْلٌ أن يُجادَ عليه، بأن يكون ربُّه سبحانه هو حظَّه ونصيبه، عِوضًا عن كل شيء، جزاءً وِفاقًا؛ فإن الجزاء من جنس العمل، وشواهد هذا كثيرة.

منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ففرق بين الجزاءين كما ترى، وجعَل جزاءَ المتوكل عليه كَونَه سُبحانه حَسْبَه.

ومنها: أنَّ الشهيد لَمَّا بذَل حياته لله أعاضَه اللهُ سبحانه حياةً أكمل منها عنده في محلِّ قُربه وكَرامته.

ومنها: أنَّ مَن بذَل لله شيئًا أعاضه الله خيرًا منه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢].

ومنها: قولُه في الحديث القدسي: «**مَن ذَكَرَني في نفْسِه ذَكَرْتُه في نفْسي، ومَن ذَكَرَني في مَلأٍ ذَكَرْتُه في مَلأٍ خَيرٍ منهُ**»(١).

ومنها: قولُه: «**مَن تَقَرَّبَ مِنِّي شِبرًا، تَقَرَّبْتُ منهُ ذِراعًا**»(٢) الحديثَ.

فالعبد لا يزال رابحًا على ربه أفضل مما يقربه له، وهذا المتقرب بقلبه وروحه وعمله يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة، بل حياة من ليس كذلك بالنِّسبة إلى حياته كحياة الجنين في بطن أمِّه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذَّتِهم فيها، بل أعظم من ذلك.

فهذا أنموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضْلِها، وإذا كان عِلمُ هذا يوجب لصاحبه حياةً طيبة، فكيف إن انصبغ القلب به، وصار حالًا ملازمًا لذاته؟ فالله المستعان.

فهذه الحياة هي جنة الدنيا ونعيمُها في الحقيقة، فمَن فقدَها ففَقْدُه لحياتِه الطبيعيةِ أولى به.

---

(١) متفق عليه، وقد تقدَّم تخريجُه.

(٢) متَّفق عليه، وقد تقدَّم تخريجُه.

هَذي حَياةُ الفَتى فإنْ فُقِدَتْ ... فـفَـقْـدُهُ لـلـحَـيـاةِ ألْـيَـقُ بِـهْ

فلا عيش إلا عيش المحبين، الذين قَرَّت أعينهم بحبيبهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعموا بحبه، ففي القلب فاقة لا يسدها إلا محبة الله والإقبال عليه والإنابة إليه، ولا يُلم شعثه بغير ذلك البتة، ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم، وآلام وحسرات، فإنه إن كان ذا همة تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، فإن همَّته لا ترضى منها بالدُّون، وإن كان مَهينًا خسيسًا، فعيشه كعيش أخسِّ الحيوانات، فلا تَقَرُّ العيونُ إلا بمحبَّةِ الحبيب الأول.

نَقِّلْ فُؤادَكَ حيثُ شِئْتَ مِنَ الهَوى ... ما الحُبُّ إلَّا للحبيبِ الأوَّلِ

كمْ مَنزِلٍ في الأرضِ يَأْلَفُهُ الفَتى ... وحَـنِـيـنُـهُ أبـدًا لأوَّلِ مَـنْـزِلِ

حياة الأرواح بعد فراق الأبدان

المرتبة التاسعة من مراتب الحياة: **حياة الأرواح بعد مفارقتها لأبدانها**، وخلاصُها من هذا السِّجن وضِيقِه، فإن من ورائه فضاءً ورَوحًا وريحانًا وراحة، نسبةُ هذه الدارِ إليه كنسبة بطنِ الأمِّ إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك.

قال بعض العارفين: لتكن مبادرتُكَ إلى الخروج من الدنيا كمبادرتِكَ إلى الخروج من السجن الضَّنكِ إلى أحبَّتِك، والاجتماع بهم في البساتين المونقة. قال الله تعالى في هذه الحياة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩].

ويكفي في طِيب هذه الحياة: مفارقةُ الرفيقِ المؤْذي المنكِّد، الذي تُنغِّصُ رؤيتُه ومشاهدتُه الحياةَ، فضلًا عن مخالطته وعشرته، إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، في جوار الرب الرحمٰن الرحيم.

قدْ قُلْتُ إذْ مَدَحوا الحَياةَ فأسرَفوا ... في المَوتِ ألْفُ فَضيلةٍ لا تُعرَفُ

مِـنـهـا أمـانُ لِـقـائِه بِـلِـقـائِـه ... وفِراقُ كُلِّ مُعاشِرٍ لا يُـنـصِفُ

ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة، وجسر يعبر منه إليها: لكفى به تُحفة للمؤمن.

جَزى اللَّهُ عنَّا المَوتَ خَيرًا فإنَّهُ ... أبَـرُّ بـنـا مِـن كُـلِّ بَـرٍّ وألْـطَـفُ
يُعَجِّلُ تَخليصَ النُّفوسِ مِنَ الأذى ... ويُدْني إلى الدَّارِ الَّتي هيَ أشْرَفُ

فالاجتهاد في هذا العمر القصير، والمدةِ القليلة، والسَّعيُ والكدْح، وتحمُّل الأثقال، والتعب والمشقة: إنَّما هو لهذه الحياة، والعلومُ والأعمالُ وسيلة إليها، وهي يقظة، وما قبلها من الحياة نَوم، وهي عين، وما قبلها أثَر، وهي حياة جامعة بين فقْدِ المكروه، وحصولِ المحبوب في مقام الأُنس، وحضرةِ القُدس، حيث لا يتعذَّرُ مطلوب، ولا يُفقد محبوب، حيث الطمأنينةُ والراحة، والبهجة والسرور، حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها؛ لأنها في بلد لا عهْدَ لنا به، ولا إلْفَ بيننا وبين ساكنيه، فالنفْسُ ـ لإلفها لهذا السجن الضيِّقِ النَّكِدِ زمانًا طويلًا ـ تَكرَهُ الانتقالَ منه إلى ذلك البلد، وتستوحش إذا استشعرت مفارقتَه.

وحصول العلم بهذه الحياة إنما وصل إلينا بخبر إلٰهي، على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم ﷺ، فقامت شواهدها في قلوب أهل الإيمان، حتى صارت لهم بمنزلة العيان، فعزفت نفوسهم عن هذا الظل الزائل، والخيال المضمحل، والعيش الفاني المشوب بالتنغيص وأنواع الغصص، رغبة في هذه الحياة، وشوقًا إلى ذلك الملكوت، ووجدًا بهذا السرور، وطربًا على هذا الحدا، واشتياقًا لهذا النسيم الوارد من محل النعيم المقيم.

ولعَمْرُ الله، إنَّ مَن سافر إلى بلد العدل والخِصبِ والأمنِ والسرور، صَبَرَ في طريقه على كل مشقة وإعواز وجدب، وفارَقَ المتخلِّفينَ أحوجَ ما كان إليهم، وأجاب المنادي إذْ نادى به: حَيَّ على الفلاح، وبَذَلَ نفْسَه في الوصول بَذْلَ المُحِبِّ بالرضا والسماح، وواصل السَّيْرَ بالغُدُوِّ والرَّواح، فحَمِدَ عند الوصول مَسراه، وإنما يَحمَدُ المسافرُ السُّرى عند الصباح.

عِندَ الصَّباحِ يَحمَدُ القَومُ السُّرى وفي المَماتِ يَحمَدُ القَومُ التُّقى

وما هذا ـ واللهِ ـ بالصعب ولا بالشديد، مع هذا العمر القصير، الذي هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤]، فلو أن أحدنا يجر على وجهه يتَّقي به الشوك والحجارة إلى هذه الحياة، لم يكن ذلك كثيرًا ولا غبنًا في جنب ما يؤمله.

خطورة الركون إلى همة دنية

فواحسرتاهُ على بصيرة تشاهدُ هاتين الحياتين على ما هُمَا عليه، وعلى همة تؤْثر الأدنى على الأعلى، وما ذاك إلَّا بتوفيق مَن أزِمَّةُ الأمور بيديه، ومنه ابتداءُ كلِّ شيء، وانتهاؤه إليه، أقعَدَ نفوسَ مَن غلبَت عليهم الشقاوةُ عن السَّفر إلى هذه الديار، وجذَبَ قلوبَ مَن سبقتْ لهم منه الحسنى، وأقامهم في الطريق، وسهَّل عليهم رُكوب الأخطار، فأضاع أولئك مراحلَ أعمارهم مع المتخلِّفين، وقطع هؤلاء مراحلَ أعمارهم مع السائرين، وعُقِدت الغَبَرةُ، وثارَ العَجَاج، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون. وسينجلي عن قريب، فيفوز العاملون، ويخسر المبطلون.

وعن طِيب هذه الحياة ولذَّتِها قال النبيُّ ﷺ: «**ما مِن نفْسٍ تَموتُ لها عِندَ اللهِ خيرٌ، يَسُرُّها أنْ تَرجِعَ إلى الدُّنيا، وأنَّ لها الدُّنيا وما فيها، إلَّا الشَّهيدَ، فإنَّه يَتمنَّى الرُّجوعَ إلى الدُّنيا؛ لِمَا يَرى مِن كَرامةِ اللهِ لهُ**»[1]؛ يعني: لِيُقْتَلَ فيه مرةً أخرى.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم (١٨٧٧) من حديث أنس ﷺ.

وسمِع بعض العارفين مُنشدًا ينشد:

إنَّما العَيشُ في بَهيمِيَّةِ اللَّـ ـذَّةِ وهو ما يَقولُهُ الفَلْسَفيُّ
حُكْمُ كأسِ المَنونِ أنْ يَتَساوَى في حَسَاها البَليدُ والألْمَعيُّ
ويَصيرُ الغَبيُّ تحتَ ثَرى الأر ضِ كما صارَ تحتَها اللَّوْذَعيُّ
فسَلِ الأرضَ عنهُما إنْ أزالَ الشَّـ ـكَّ والشُّبهةَ السُّؤالُ الخَفِيُّ

فقال: قاتله الله، ما أشدَّ معاندتَه للدِّين والعقل! هذا نفس عدو الفطرة والشريعة، والعقل والإيمان والحكمة، يا مسكين! أمِن أجل أن الموت تساوى فيه الصالح والطالح، والعالم والجاهل، وصاروا تحت أطباق الثرى، يجب أن يتساووا في العاقبة؟ أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد في الطريق، فلما بلغوا القصد، نزل كل واحد في مكان كان معدًّا له، وتلقى بغير ما تُلقِّي به رفيقُه في الطريق؟ أما دخل قوم دارًا، فأُجْلِس كل واحد منهم حيث يَليق به؟ وقوبل هذا بشيء، وهذا بضده؟ أما قدم على الملك من جاءه بما يحبه فأكرمه عليه، ومن جاءه بما يسخطه فعاقبه عليه؟ أما قدِم ركب المدينة، فنزل بعضهم في قصورها وبساتينها وأماكنها الفاضلة، ونزل قوم على قوارع الطريق بين الكلاب؟ أما قدِم اثنان من بطن الأم الواحدة، فصار هذا إلى المُلك، وهذا إلى الأسر والعناء؟

وقولك: «سَلِ الأرضَ عَنهُما» أما إنا قد سألْناها، فأخبَرَتْنا: أنها قد ضمَّتْ أجسادهم وجُثَثَهم وأوصالهم، لا كفرَهم وإيمانهم، ولا إساءتهم وإحسانَهم، ولا حِلمَهُم وسَفَهَهُم، ولا طاعتَهم ومعصيتهم، ولا يقينَهم وشكَّهم، ولا توحيدَهم وشركهم، ولا جورهم وعدلهم، ولا علمهم وجهلهم، فأخبرتنا عن هذه الجثث البالية والأبدان المتلاشية، والأوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة، وقالت: هذا خبر ما عندي.

وأمَّا خبرُ تلك الأرواح وما صارت إليه، فسَلوا عنها كُتُبَ ربِّ العالَمين، ورسلَه الصادقينَ، وخلفاءَهم الوارثين، سَلُوا القرآن؛ فعنده الخبرُ اليقين، وسلوا مَن جاء به؛ فهو بذلك أعرَفُ العارفين، وسلوا

العِلمَ والإيمانَ؛ فهُمَا الشاهدان المقبولان، وسلوا العقولَ والفِطَر؛ فعندها حقيقةُ الخبر ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، تعالى الله أحكمُ الحاكمين عن هذا الظنِّ والحسبان، الذي لا يليق إلا بأجهلِ الجاهلين.

أقسام الناس في النظر إلى الدنيا

ثم قال: الناظر في هذا الباب رجُلان؛ رجُل ينظر إلى الأشياء، ورجل ينظر في الأشياء، فالأول: يَحارُ فيها؛ فإن صُوَرَها وأشكالها وتخاطيطَها تَستفرِغُ ذِهْنَه وحِسَّه، وتُبدِّدُ فِكْرَه وقلبَه، فنظَرُه إليها بعين حِسِّه لا يفيدُه منها ثمرة الاعتبار، ولا زبدة الاختيار؛ لأنه لـمَّا فقَدَ الاعتبار أولًا، فاتَه الاختيارُ ثانيًا.

وأما الناظرُ في الأشياء: فإن نظره يَبعثُه على العبور من صورَها إلى حقائقها والمراد بها، وما اقتضى وجودُها من الحكمة البالغة والعِلمِ التامِّ، فيفيده هذا النظرُ تمييزَ مراتبها، ومعرفةَ نافعِها من ضارها، وصحيحِها من سقيمها، وباقيها من فانيها، وقشرها من لُبِّها، ويميز بين الوسيلة والغاية، وبين وسيلة الشيء ووسيلة ضدِّه، فيعرف حينئذ أن الدنيا قشر والآخرةَ لُبٌّ، وأن الدنيا محلُّ الزرع، والآخرةَ وقتُ الحصاد، وأن الدنيا مَعبَرٌ ومَمَرٌّ، والآخرةَ مستقَرٌّ.

وإذا عرَف أن الدنيا طريقٌ وممرٌّ، كان حَرِيًّا بتهيئة الزاد لقراره، ويعلم حينئذ أنه لم يَنشأ في هذه الدار للاستيطان والخلود، ولكن للجواز إلى مكانٍ آخَرَ، هو المنزل والمُتبَوَّأُ، وأن الإنسان دُعِيَ إلى ذلك بكل شريعة، وعلى لسان كل نبيٍّ، وبكل إشارة ودليل، ونُصِبَ له على ذلك كلُّ علَم، وضُرِبَ لأجله كل مثل، ونُبِّه عليه بنشأته الأولى ومبدئه، وسائر أحواله، وأحوال طعامه وشرابه، وأرضه وسمائه، بحيث أُزِيلَت عنه الشبهة، وأُوضِحَت له المحجة، وأُقِيمت عليه الحُجة، وأُعذِر إليه غاية الإعذار، وأُمْهِل أتم الإمهال، فاستبان لذي العقل الصحيح والفطرة السليمة: أنَّ الظعن عن هذا المكان ضروري، والانتقال عنه حق لا مِرية

فيه، وأن له محلًا آخر، له أُنْشِئَ، ولأجله خُلِقَ، وله هُيِّئ، فمصيره إليه وقدومه بلا ريب عليه، وأن داره هذه منزل عبور، لا منزل قرار.

وبالجملة؛ مَن نظر في الموجودات، ولم يَقنَعْ بمُجرَّدِ النظر إليها، وجَدَها دالَّةً على أن وراء هذه الحياةِ حياةً أخرى أكمل منها، وهذه الحياة بالنِّسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة، وكالظِّلِّ بالنسبة إلى الشخص، وسمِعَها كلَّها تنادي بما نادى به ربُّها وخالقها وفاطِرُها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: ٥]، وتنادي بلسان الحال بما نادى به ربها بصريح المقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم ندبهم إلى المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها، فقال: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١].

وسمِع بعضُ العارفين منشدًا يُنشِدُ عن بعض الزنادقة عند موته، وهو محمد بن زكريا المتطبِّب:

لَعَمْري ما أدري وقد أذِنَ البِلَى ... بعاجِلِ تَرْحالي إلى أينَ تَرْحالي

وأينَ مكان الرُّوحِ بَعْدَ خُروجِه ... عنِ الهَيكلِ المُنحَلِّ والجَسدِ البالي

فقال: وما علينا مِن جهلِه؛ إذ لم يدْرِ أين تَرحالُه؟ ولكننا ندري

إلى أين تَرحالُنا وتَرحاله؛ أما تَرحالُه فإلى دار الأشقياء، ومحلِّ المنكرين لقدرة الله وحكمته، والمكذبين بما اتَّفقت عليه كلمةُ المرسَلينَ عن ربِّهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ [الرعد: ٥] ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ [السجدة: ١٠ ـ ١٢].

أحوال المؤمنين في جوار أرحم الراحمين

وأما تَرحالُنا ـ أيُّها المسلمون المصدِّقون بلقاء ربهم، وكُتُبه ورُسُلِه ـ فإلى نعيم دائم، وخلودٍ متَّصلٍ، ومَقامٍ كريم، وجنةٍ عَرْضُها السمٰوات والأرض في جِوار رب العالمين، وأرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، الذي له الخَلْقُ والأمر، وبيده النفع والضرُّ، الأول بالحق، الموجود بالضرورة، المعروف بالفِطرة، الذي أقَرَّتْ به العقول، ودَلَّتْ عليه الموجودات، وشهِدتْ بوحدانيته وربوبيته المخلوقاتُ، المشهود وجودُه وقَيُّومِيَّتُه بكل حركة وسكون، وبكل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، الذي خلق السمواتِ والأرضَ، وأنزل من السماء ماءً، فأنبت به أنواع النباتات، وبث به في الأرض جميع الحيوانات، ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾ [النمل: ٦١]، الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه، ويكشف السوء ويُفرِّج الكُربات، ويُقيل العثرات، الذي يهدي خلقه في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بُشرًا بين يدي رحمته، فيحيي الأرض بوابل القطر، ﴿ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، ويرزق من في السموات والأرض من خلقه وعبيده، الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر الذي ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ [الفرقان: ٢]، المستعان به على كل نائبة وفادحة، والمعهود منه كل بر وكرامة، الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، وسبَّحت بحمده الأرض والسموات وجميع الموجودات، الذي لا تسكن الأرواح إلا بحبه، ولا تطمئن القلوب إلا بذكره، ولا تزكو العقول إلا بمعرفته، ولا يُدْرَك النجاح إلا بتوفيقه، ولا تحيا القلوب إلا بنسيم لُطفه وقُربه، ولا يقع أمر إلا بإذنه، ولا يهتدي ضالٌّ إلا بهدايته، ولا يستقيم ذو أَوَدٍ إلا بتقويمه، ولا يَفهم أحدٌ شيئًا إلا بتفهيمه، ولا يُتخلَّصُ من مكروه إلا برحمته، ولا يُحْفَظُ شيء إلا بكلاءته، ولا يُفْتتح أمر إلا باسمه، ولا يَتِم إلا بحمده، ولا يُدْرَك مأمول إلا بتيسيره، ولا تُنال سعادةٌ إلا بطاعته، ولا حياةٌ إلا بذكره ومحبته ومعرفته، ولا طابت الجنة إلا بسماع خطابه ورؤيته، الذي وسِع كل شيء رحمة وعلمًا، وأوسع كل مخلوق فضلًا وبِرًّا.

فهو الإلٰه الحق، والرَّبُّ الحق، والملِك الحق، والمنفرد بالكمال المطْلق من كل الوجوه، المبرَّأ عن النقائص والعيوب من كل الوجوه، لا يبلغ المثنون ـ وإن استوعبوا جميع الأوقات بكل أنواع الثناء ـ ثناء عليه، بل ثناؤه أعظم من ذلك، فهو كما أثنى على نفسه، هذا الجارُ.

الجنة دارُ الأفراح والمسرات

وأما الدار: فلا تَعلَمُ نفسٌ حُسنَها وبهاءها، وسَعتَها ونعيمها، وبهجتها ورَوحها وراحتها، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، فيها ما تشتهي الأنفُسُ، وتَلَذُّ الأعينُ، فهي الجامعة لجميع أنواع الأفراح والمسرات، الخالية من جميع المنكِّدات والمُنغِّصات، ريحانةٌ تَهتَزُّ، وقَصْرٌ مَشِيدٌ، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة.

فتَرحالُنا ـ أيها الصادِقون المُصدِّقون ـ إلى هذه الدار بإذن ربِّنا وتوفيقِه وإحسانه. وتَرحالُ الكاذبينَ المُكذِّبينَ إلى الدار التي أُعِدَّتْ لمَن

كَفَر بالله ولقائِه، وكُتُبِه ورُسُلِه؛ فلن يجمع الله بين الموحِّدين له، الطالبين لمَرضاته، السَّاعينَ في طاعته، الدَّائبينَ في خدمته، المجاهدين في سبيله، وبيْن المُلحِدين، السَّاعينَ في مَساخِطِه، الدَّائبينَ في معصيته، المستفرغين جُهدَهم في أهوائهم وشهواتِهم، في دارٍ واحدة، إلا على سبيل الجواز والعبور، كما جمع بينهم في هذه الدنيا، ويجمع بينهم في موقف القيامة، فحاشاه من هذا الظنِّ السَّيِّئِ الذي لا يليقُ بكماله وحِكمتِه.

وفي هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا، وأتم وأطيب، وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة، وأوصالهم متفرقة، فليس العمل على الطلل، إنما الشأن في الساكن؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤]، وإذا كان الشهداء إنما نالُوا هذه الحياةَ بمتابعة الرُّسُلِ وعلى أيديهم؛ فما الظنُّ بحياة الرُّسُلِ في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل:

فالعيشُ نَومٌ والمَنِيَّةُ يَقْظةٌ والمَرءُ بيْنهُما خَيالٌ ساري

فللرُّسُلِ والشُّهداءِ والصِّدِّيقينَ من هذه الحياة ـ التي هي يقظة من نوم الدنيا ـ أكملُها وأتمها، وعلى قدْرِ حياةِ العبد في هذا العالَم يكونُ شَوقُه إلى هذه الحياة، وسَعْيُه وحِرْصُه على الظَّفرِ بها، والله المستعان.

الحياة الدائمةُ بعد نهاية العالَم

المرتبة العاشرة من مراتب الحياة: **الحياة الدائمةُ الباقية بعد طَيِّ هذا العالَم**، وذهابِ الدنيا وأهلِها في دار الحيوان، وهي الحياة التي شمَّر إليها المشمِّرون، وتسابق إليها المتسابقون، وتنافس فيها المتنافسون، وهي التي أجريْنا الكلام إليها، ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها، وهي التي يقول من فاته الاستعداد لها ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ

يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٦]، وهي التي قال الله عز وجل فيها: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والحياة المتقدمة كالنوم بالنِّسبة إليها، وكل ما تقدم ـ مِن وصْفِ السَّيْرِ ومَنازِلِه، وأحوال السائرين، وعبوديتِهِمُ الظَّاهرةِ والباطنةِ ـ فوسيلةٌ إلى هذه الحياة، وإنما الحياة الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: «**ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا كما يُدخِلُ أحدُكُم إصبَعَهُ في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟**»(١).

وكما قيل: تنفَّستِ الآخرة، فكانت الدنيا نفَسًا من أنفاسها، فأصاب أهل السعادة نفس نعيمها، فهُم على هذا النفس يعملون، وأصاب أهل الشقاوة نفس عذابها، فهُم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياةُ أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياةً طيِّبةً، فما الظنُّ بحياتهم في البرزخ، وقد تخلَّصوا مِن سجن الدنيا وضِيقِها؟ فما الظَّنُّ بحياتهم في دار النعيم المُقيم الذي لا يزول، وهُم يَرَوْنَ وجهَ ربِّهم تبارك وتعالى بُكْرةً وعَشِيًّا، ويسمعون خِطابَه؟

أسباب الرغبة والتعلُّق بالحياة الفانية

فإن قلت: ما سببُ تخلُّفِ النفْسِ عن طلب هذه الحياةِ التي لا خطر لها، وزهدها فيها؟ وما سبب رغبتِها في الحياة الفانية المضمحلة، التي هي كالخيال والمنام؟ أفسادٌ في تصوُّرِها وشعورها؟ أم تكذيبٌ بتلك الحياة؟ أمْ لآفةٍ في العقل، وعمًى هناك؟ أمْ إيثارٌ للحاضر المشهود بالعِيان على الغائب المعلوم بالإيمان؟

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه.

قيل: بل ذلك لمجموع أمورٍ مُركَّبةٍ من ذلك كلِّه. وأقوى الأسباب في ذلك: ضعْفُ الإيمان؛ فإن الإيمان هو رُوحُ الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمِرُ بأحسَنِها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدْرِ قوَّةِ الإيمان يكونُ أمْرُه ونَهيُه لصاحبه، وائتِمارُ صاحبِه وانتهاؤه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣].

وبالجملة؛ فإذا قَوِيَ الإيمانُ قوِيَ الشوقُ إلى هذه الحياة، واشتدَّ طلب صاحبه لها.

السبب الثاني: جُثوم الغفلة على القلب؛ فإنَّ الغفلة نوم القلب، ولهذا تجد كثيرًا من الأيقاظ في الحِسِّ نِيامًا في الواقع، فتحسبهم أيقاظًا وهم رقود، ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائمٌ، فإنَّ القلب إذا قَوِيت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن، وكمال هذه الحياة كان لنبيِّنا ﷺ، ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتِّباع رسوله على بصيرةٍ من ذلك بحَسَب نَصيبه منهما.

فالغفلةُ واليقظةُ يكونان في الحس والعقل والقلب، فمُستيقظ القلب وغافلُه كمستيقظ البدن ونائمه، وكما أنَّ يقظة الحِسِّ على نوعين؛ فكذلك يقظة القلب على نوعين.

فالنوع الأوَّل من يقظة الحِسِّ: أنَّ صاحبها يَنفُذ في الأمور الحسيَّة، ويتوغَّل فيها بكيسه وفَطانته، واحتياله وحسن تأتِّيه.

والنوع الثاني: أن يُقْبِلَ على نفْسِه وقلبه وذاته، فيعتني بتحصيل كماله، فيلحظ عوالي الأمور وسفسافَها، فيؤْثِر الأعلى على الأدنى، وخَيرَ الخيرين بتفويتِ أدناهما، ويرتكب أخفَّ الشَّرَّينِ خشيةً من حصول أقواهُما، ويتحلَّى بمكارم الأخلاق ومعالي الشِّيَم، فيكون ظاهره جميلًا، وباطنُه أجمَلَ مِن ظاهره، وسريرتُه خيرًا من علانيته، فيزاحم أصحاب المعالي عليها كما يتزاحم أهلُ الدِّينار والدِّرهم عليهما، فبهذه اليقظةِ يَستَعِدُّ للنوعين الآخرين منهما:

أحدهما: يَقظةٌ تبعثُه على اقتباس الحياة الدائمةِ الباقية، التي لا

خَطرَ لها من هذه الحياة الزائلة الفانية، التي لا قيمة لها.

اقتباسُ الحياة الدائمة من الحياة الفانية

فإنْ قلتَ: مثِّل لي كيف تُقتبَسُ الحياةُ الدائمةُ من الحياة الفانية؟ وكيف يكون هذا؟ فإنِّي لا أفهَمُه.

قلتُ: وهذا أيضًا من نوم القلب، بل من موته، وهل تُقْتبس الحياةُ الدائمة إلا من هذه الحياة الزائلة؟ وأنت قد تُشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء، فيتَّقد الثاني ويضيء غاية الإضاءة، ويتصل ضوؤه وينطفئ الأول، والمقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة إنما ينتقل من دار منقطعة إلى دار باقية، وقد توسط الموت بين الدارين، فهو قنطرة لا يُعْبر إلى تلك الدار إلا عليها، وباب لا يُدْخَل إليها إلا منه، فهما حياتان في دارين بينهما الموت، وكما أن نور تلك الدار مُقتبَس من نور هذه الدار، فحياتها مُقتبسَة من حياتها، فعلى قدْر نور الإيمان في هذه الدار يكون نور العبد في تلك الدار، وعلى قدْر حياته في هذه الدار تكون حياته هناك.

نعم؛ هذا النور والحياة الذي يُقتبس منه ذلك النورُ والحياة لا ينقطع، بل يُضيء للعبد في البرزخ، وفي موقف القيامة، وعلى الصراط، فلا يُفارقه إلى دار الحيوان، يُطفأ نورُ الشمس وهذا النور لا يُطفأ، وتبطل الحياة المحسوسة، وهذه الحياة لا تبطل، هذا أحد نوعَيْ يقظة القلب.

النوع الثاني: يَقظة تبعث على حياة، لا تدركها العبارة، ولا ينالها التوهُّم، ولا يطابق فيها اللفظ لمعناه البتة، والذي يُشار به إليها حياة المحب مع حبيبه، الذي لا قِوامَ لقلبه ورُوحِه وحياتِه إلا به، ولا غِنى له عنه طَرْفةَ عين، ولا قُرَّةَ لعَينِه، ولا طُمأنينةَ لقلبه، ولا سُكونَ لرُوحِه إلا به، فهو أحوج إليه مِن سمعِه وبصرِه وقُوَّته، بل ومن حياته؛ فإن حياته بدونه عذاب وآلام، وهموم وأحزان، فحياته موقوفة على قُربه وحُبِّه ومُصاحبته، وعذاب حجابه عنه أعظم من العذاب الآخر، كما أن نعيم القلب والروح بإزالة ذلك الحجاب أعظم من النعيم بالأكل

والشرب، والتمتع بالحور العين، فهكذا عذاب الحجاب أعظم من عذاب الجحيم، ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: رؤية وجهه الكريم في جنات عدن، وجمَع لأعدائه بين العذابين في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطففين: ١٥ ـ ١٦].

الغفلة نوم القلب وحجابه

والمقصود: أنَّ الغفلةَ هي نومُ القلب عن طلَب هذه الحياة، وهي حِجاب عليه، فإن كُشِفَ هذا الحجاب بالذِّكر، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب، واشتغالٍ بما لا يُفيد، فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاصٍ وذنوبٍ صغار تُبعده عن الله، فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب كبائرَ تُوجِب مقْت الرب تعالى وغضبه ولعنته، فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عملية يعذِّب العاملُ فيها نفسه، ولا تُجْدي عليه شيئًا، فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية، تتضمن الكذب على الله ورسوله، والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول.

فإن بادر إلى كشفِه، وإلَّا تكاثف حتى صار حجابَ شكٍّ وتكذيبٍ، يقدحُ في أصول الإيمان الخمسة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكُتُبِه، ورُسُلِه، ولقائه، فلِغِلَظ حجابه وكثافته وظلمته وسواده لا يَرى حقائق الإيمان، ويتمكن منه الشيطان، يَعِده ويُمنِّيه، والنفس الأمارة بالسوء تَهْوى وتشتهي، وسلطان الطبع قد ظَفِرَ بسلطان الإيمان، فأسَرَه وسجنه إن لم يُهْلِكْه، وتولَّى تدبير المملكة، واستخدم جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التي جرى عليها العمل، وأغلق باب اليقظة، وأقام عليه بوَّاب الغفلة، وقال: إياك أن نُؤْتَى من قِبَلِك، واتَّخذ حاجبًا من الهوى، وقال: إياك أن تمكِّن أحدًا يدخل عليَّ إلا معك، فأمْرُ هذه المملكة قد صار إليك، وإلى البوَّاب، فيا بوَّاب الغفلة، ويا

حاجب الهوى لِيَلْزم كلٌّ منكما ثغره، فإن أخليتما فسد أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان سوم الخزي والهوان، ولا نفرح بهذه المدينة أبدًا.

فلا إلٰه إلا اللهُ! إذا اجتمعتْ على القلب هذه العساكرُ ـ مع رِقَّة الإيمان، وقلَّة الأعوان، والإعراض عن ذِكر الرحمٰن، والانخراطِ في سلك أبناء الزمان، وطولِ الأمل المُفسِدِ للإنسان ـ آثَرَ العاجلَ الحاضر على الغائب، الموعود به بعد طَيِّ هذه الأكوان، فالله المستعان، وعليه التُّكلان.

فهذا فصل مختصر نافع في ذكر الحياة وأنواعها، والتشويق إلى أشرفها وأطيبها، فمن صادف من قلبه حياةً انتفع به، وإلا فَخودٌ تُزَفُّ إلى ضرير مُقعد.

أقسام أنفاس حياة العلم

قال: «**ولها ثَلاثةُ أنفاسٍ: نفَسُ الخَوفِ، ونفَسُ الرَّجاءِ، ونفَسُ المَحَبَّةِ**».

لما كان كلُّ حيوان مُتنفِّسًا ـ فإن النفَس مُوجِب الحياة وعلامتها ـ كانت أنفاس الحياة المشار إليها ثلاثة أنفاس:

نفَسًا بالخوف، ومصدره: مطالعة الوعيد، وما أعد الله لمَن آثر الدنيا على الآخرة، والمخلوق على الخالق، والهوى على الهدى، والغي على الرشاد.

ونفسًا بالرجاء، ومصدره: مطالعة الوعد، وحُسن الظن بالرب تعالى، وما أُعِدَّ لمَن آثَرَ الله ورسولَه والدارَ الآخرة، وحكَّم الهدى على الهوى، والوحيَ على الآراء، والسُّنَّةَ على البدعة، وما كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه على عوائد الخلق.

ونفسًا بالمحبة، مصدره: مُطالعة الأسماء والصفات، ومشاهدة النعماء والآلاء.

أشرف أنفاس العبد على الإطلاق

فإذا ذكر ذنوبه: تنفَّس بالخوف، وإذا ذكر رحمةَ ربِّه، وسَعةَ مغفرتِه وعفوِه: تنفَّس بالرجاء، وإذا ذكر جماله وجلاله وكماله، وإحسانه وإنعامه: تنفَّس بالحب.

فلْيَزِنُ العبدُ إيمانَه بهذه الأنفاس الثلاثة؛ ليعلمَ ما معه من الإيمان، فإن القلوب مفطورةٌ على حُبِّ الجمال والإجمال، والله سبحانه جميل، بل له الجمال التَّامُّ الكامل من جميع الوجوه؛ جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، وإذا جمع جمال المخلوقات كلِّها على شخص واحد، ثم كانت جميعُها على جمال ذلك الشخص الواحد، ثم نُسِب هذا الجمال إلى جمال الربِّ تبارك وتعالى: كان أقلَّ من نسبة سراج ضعيف إلى عين الشمس.

فالنفَس الصادر عن هذه الملاحظة والمطالعة أشرف أنفاس العبد على الإطلاق، فأين نفَسُ المشتاق المُحِبِّ الصادق إلى نفَس الخائفِ الراجي؟ ولكن لا يحصُلُ له هذا النفس إلا بتحصيل ذَيْنَكِ النَّفَسينِ؛ فإن أحدهما ثمرةُ ترْكِه للمخالفات، والثاني: ثمرةُ فِعْلِه للطاعات، فمِن هذين النفَسين يَصِلُ إلى النَّفَسِ الثالث.

جمْع القلب على الله

قال: (**الحياةُ الثَّانيةُ: حياةُ الجَمعِ مِن مَوتِ التَّفرِقةِ، ولها ثَلاثةُ أنفاسٍ: نفَسُ الاضْطِرارِ، ونفَسُ الافتِقارِ، ونفَسُ الافتِخارِ**).

ومراده ـ إنْ شاء الله ـ بالجمع في هذه الدرجة: جمع القلب على الله، وجمع الخواطر والعزوم في التوجه إليه سبحانه، لا الجمع الذي هو حَضرةُ الوجود؛ لأنَّه قد ذَكَر حياةَ هذا الجمع في الدرجة الثالثة، وسمَّاها حياة الوجود.

وإنما كان جمْعُ القلب على الله والخواطر على السير إليه حياة حقيقية؛ لأن القلب لا سعادة له، ولا فلاحَ ولا نعيم، ولا فوزَ ولا لذَّة، ولا قُرَّةَ عينٍ، إلا بأن يكون اللهُ وحدَه هو غايةَ طلبِه، ونهايةَ قصْدِه، ووجهه الأعلى، هو كلُّ بُغيتِه، فالتَّفرقةُ المُتضمِّنةُ للإعراض عن التوجه إليه، واجتماع القلب عليه هي مرضه إن لم يمُتْ منها.

الافتقار إلى الله لبُّ العبودية

قال: (**نفَسُ الاضْطِرارِ**)؛ وذلك لانقطاع أمَلِه ممَّا سِوى الله، فيضطر حينئذ بقلبِه ورُوحِه ونفْسِه وبدنه إلى ربه ضرورة تامةً، بحيث يَجِدُ في كل منبت شعرةٍ منه فاقةً تامَّةً إلى ربه ومعبوده؛ فهذا النَّفَس نفَس

مضطرٍّ إلى ما لا غنى له عنه طرفة عين، وضرورته إليه من جِهة كونه ربَّه، وخالقَه وفاطرَه، وناصرَه وحافظَه، ومُعينَه ورازقَه، وهاديَه ومُعافيَه، والقائمَ بجميع مصالحه، ومن جِهة كونه مَعبودَه وإلهَه، وحبيبَه الذي لا تَكمُل حياتُه ولا تنفع إلا بأن يكون هو وحْده أحبَّ شيء إليه، وأشوقَ شيء إليه، وهذا الاضطرار هو اضطرارُ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والاضطرار الأول: اضطرار ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

ولعَمرُ الله: إن (**نفَس الافتِقارِ**) هو هذا النفس، أو من نوعه، ولكن الشيخ جعلهما نفَسين، فجعل نفَس الاضطرار بداية، ونفَس الافتقار توسطًا، ونفَس الافتخار نهايةً، وكأن نفَس الاضطرار يقطع الخلْق من قلبه، ونفَس الافتقار يُعلق قلبه بربه.

أين العبوديةُ مِن نفَس الافتخار؟

وأما (**نفَسُ الافتِخارِ**) فهو نتيجة هذين النفَسين؛ لأنهما إذا صَحَّا للعبد حصَل له القُربُ من ربه، والأُنسُ به، والفرح به، وبالخلع التي خلعها على قلبه ورُوحِه ما لا تقوم لبعضه ممالكُ الدنيا بحذافيرها.

فإن قلت: ما للعبد والافتخار؟ وأين العبوديةُ مِن نفَس الافتخار؟

قلت: لا يريد بذلك أن العبد يفتخر بذلك، ويختال به على بني جنسه، بل هو فرح وسرور لا يمكن دفعه عن نفْسِه بما فتح عليه ربُّه، ومنحه إياه، وخصَّه به، وأولى ما فرح به العبد فضلُ ربِّه عليه؛ والله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويحب الفرح بذلك؛ لأنه من الشكر، ومن لا يفرح بنعمة المنعِم لا يُعَدُّ شكورًا، فهو افتِخارٌ بما هو محض مِنَّة الله ونعمته على عبده، لا افتخار بما من العبد، فهذا هو الذي ينافي العبوديةَ لا ذاك.

وهاهنا سِرٌّ لطيف، وهو أن هذا النفَس يفخر على أنفاسه التي ليست كذلك، كما تفخر الحياة على الموت، والعلم على الجهل، والسمع على الصمم، والبصر على العمى، فيكون الافتخار للنفَس على النفَس، لا للمتنفِّس على الناس، والله أعلم.



[منزلة الانفصال]

قال صاحب «المنازل»: (**قال اللهُ تعالى**: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]. **ليس في المَقاماتِ شَيءٌ فيه مِنَ التَّفاوُتِ ما في الانفِصالِ**).

وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه المقرِّب المبعِد، فلْيحذر القريبُ من الإبعاد، والمتصِل من الانفصال؛ فإنَّ الحَقَّ ﷻ غيورٌ، لا يرضَى ممَّن عرَفه ووجد حلاوةَ معرفته، واتَّصلَ قلبُه بمحبَّتِه والأُنسِ به، وتعلَّقتْ رُوحُه بإرادة وجْهِه الأعلى: أنْ يكون له الْتِفاتٌ إلى غيره البتَّةَ.

الالتفات والحيدة عن طريق الحق سبحانه

ومِن غَيْرتِه سبحانه: حرَّم الفواحشَ ما ظهَر منها وما بَطَنَ، والله سبحانه يَغار أشد الغيرة على عبده أن يلتفت إلى سواه، فإذا أذاقه حلاوة محبته، ولذة الشوق إليه، وأُنس معرفته، ثم ساكن غيره: باعده مِن قُربه، وقطعه مِن وصْلِه، وأوحش سِرَّه، وشتَّت قلبه، ونغَّص عيشه، وألبسه رداء الذُّلِّ والصَّغارِ والهوان، فنادى عليه حالُه، إن لم يُصرِّح به قالُه: هذا جزاءُ مَن تعوَّض عن وليِّه وإلهه وفاطره، ومَن لا حياة له إلا به بغيره، وآثَرَ غَيْرَه عليه، فاتخذ سواه له حبيبًا، ورضي بغيره أنيسًا، واتخذ سواه وليًّا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ۝٥٠﴾ [الكهف: ٥٠].

فإذا ضُرِب هذا القلب بسوط البُعد والحجاب، وسُلِّط عليه مَن يَسومه سوء العذاب، ومُلِئَ من الهموم والغموم والأحزان، وصار محلًّا للجيف والأقذار والأنتان، وبُدِّل بالأُنس وحشةً، وبالعز ذُلًّا، وبالقناعة

حرصًا، وبالقُرب بُعدًا وطردًا، وبالجمع شتاتًا وتفرقةً: كان هذا بعض جزائه، فحينئذ تطرقه الطوارق والمؤلمات، وتعتريه وفود الأحزان والهموم بعد وُفود المسرَّات.

لا أحد أغير من الله

قرأ قارئٌ بين يدَي السَّرَيِّ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: ٤٥]، فقال السَّرَيُّ: «تدرون ما هذا الحجاب؟ هو حجاب الغيرة، ولا أحدَ أغيرُ من الله».

فمَن عرَفه وذاق حلاوةَ قُربه ومحبَّتِه، ثم رجع عنه إلى مُساكنة غيره: ثبَّط جوارحَه عن طاعته، وعقل قلبَه عن إرادته ومحبته، وأخَّره عن محل قُربه، وولَّاه ما اختاره لنفسه.

وقال بعضهم: «احذرْهُ؛ فإنه غيور؛ لا يُحبُّ أن يَرى في قلب عبده سواه».

ومِن غَيْرته سبحانه: أنَّ صفيَّه آدمَ لمَّا ساكن بقلبه الجنة، وحرَص على الخلود فيها؛ أخرجه منها.

ومِن غَيرته سبحانه: أن إبراهيم خليلَه لمَّا أخذ إسماعيلُ شُعبةً من قلبه أمَرَه بذبحه؛ حتى يخرج من قلبه ذلك المزاحم.

بلاء الانفصال وذُلُّ الحجاب

إنما كان الشِّرْكُ عنده ذنْبًا لا يُغْفَر؛ لتعلُّق قلْب المشرك به وبغيره، فكيف بمن علق قلْبَه كلَّه بغيره، وأعرض عنه بكُلِّيَّته؟!

إذا أردت أن تعرف ما حلَّ بك من بلاء الانفصال، وذُل الحجاب، فانظر لمَن استعبَدَ قلْبَك، واستخدَمَ جوارِحَك، وبمن شغل سِرَّك، وأين يبيت قلْبُك إذا أخذت مضجعك؟ وإلى أين يطير إذا استيقظت من منامك؟ فذلك هو معبودك وإلهك، فإذا سمعت النداء يوم القيامة: لِينطلق كل واحد مع مَن كان يعبده، انطلقت معه كائنًا من كان.

لا إلٰه إلا اللهُ! ما أشدَّ غبنَ من باع أطيب الحياة في هذه الدار المتَّصِلة بالحياة الطيِّبة هناك، والنعيمَ المُقيمَ بالحياة المنغصة المنكدة

المتَّصلةِ بالعذاب الأليم، والمدة ساعة من نهار، أو عشية أو ضحاها، أو يوم أو بعض يوم، فيه ربح الأبد، أو خسارة الأبد.

فما هيَ إلَّا ساعةٌ ثُمَّ تَنقَضي   ويَـذهَـبُ هـذا كُـلُّـهُ ويَـزولُ



[منزلة المعرفة]

قال صاحب «المنازل»: (قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].
المَعرِفةُ: إحاطةٌ بعَينِ الشَّيءِ كما هوَ).

قلت: وقع في القرآن لفظُ المعرفة ولفظُ العِلم، فلفظ المعرفة كقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وأما لفظ العِلم فهو أكثرُ وأوسعُ إطلاقًا، كقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية.

واختار الله سبحانه لنفسِه اسمَ العِلم وما تصرَّف منه، فوصف نفسه بأنه عالِم، وعليم، وعلام، وعَلِم، ويعلم، وأخبر أنَّ له عِلمًا، دون لفظ المعرفةِ في القرآن، ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكملُ نوعِه المشارِكِ له في معناه.

وهذه الطائفة [أي: المتصوفة] تُرجِّح المعرفة على العِلم جدًّا، وكثير منهم لا يرفع بالعِلم رأسًا، ويَعُدُّه قاطعًا وحجابًا دون المعرفة، وأهلُ الاستقامة منهم: أشدُّ الناس وصيَّةً للمريدين بالعلم، وعندهم أنه لا يكون وليٌّ لله كامل الولاية مِن غير أولي العِلم أبدًا.

الفرق بين العلم والمعرفة

والفرق بين العلم والمعرفةِ عند أهل هذا الشأن: أن المعرفة عندَهم هي العِلم الذي يقوم العالِمُ بموجبه ومقتضاه، فلا يُطْلِقون المعرفةَ على مدلول العِلم وحدَه، بل لا يَصِفون بالمعرفة إلَّا مَن كان عالِمًا بالله، وبالطريق الموصلِ إليه، وبآفاتها وقواطِعها، وله حالٌ

مع الله تشهد له بالمعرفة، فالعارف ـ عندهم ـ: مَن عرَف الله سبحانه بأسمائه وصفاتِه وأفعاله، ثم صدَق الله في معاملاته، ثم أخلَصَ له في قُصوده ونيَّاتِه، ثم انسلَخَ من أخلاقه الرَّديئةِ وآفاته، ثم تطهَّر من أوساخه وأدْرانِه ومخالفاته، ثم صَبر على أحكامه في نِعَمِه وبليَّاته، ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته، ثم جرَّد الدعوةَ إليه وحدَه بما جاء به رسوله، ولم يَشُبْها بآراء الرجال وأذواقِهم ومَواجيدِهم ومقاييسِهم ومعقولاتهم، ولم يَزِنْ بها ما جاء به الرسولُ عليه من الله أفضلُ صلواته وأكملُ تحياته.

آثار المعرفة وشواهدها

وقد تَكلَّموا في المعرفة بآثارها وشواهدها؛ فقال بعضهم: «مِن أمارات المعرفة بالله: حصول الهيبة منه، فمَنِ ازدادتْ معرفتُه ازدادتْ هَيْبَتُه».

وقال أيضًا: «المعرفة تُوجِب السكون، فمَن ازدادتْ معرفته ازدادت سكينته».

وقال الشِّبلي: «ليس لعارف علاقة، ولا لمُحِبٍّ شكوى، ولا لعبد دعوى، ولا لخائف قرار، ولا لأحد من الله فرار».

وهذا كلام جيِّد؛ فإن المعرفة الصحيحة تقطع من القلب العلائق كلها، وتعلقه بمعروفه، فلا يبقى فيه عَلاقةٌ بغيره، ولا تمرُّ به العلائق إلا وهي مجتازة، لا تَمُرُّ مرورَ استيطانٍ.

وقال أحمدُ بن عاصم: «من كان بالله أعرفَ كان له أخوف»، ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقولُ النبي ﷺ: «**أنا أعرَفُكم باللهِ، وأشَدُّكم لهُ خَشْيةً**»[(١)].

وقال آخر: «مَن عرَف اللهَ تعالى ضاقتْ عليه الدنيا بسَعَتِها».

وقال غيره: «مَن عرَف الله تعالى اتَّسع عليه كلُّ ضيقٍ».

(١) أخرجه البخاري (٢٠، ٦١٠١)، ومسلم (١١١٠) من حديث عائشة ﵂. وفيه لفظ: «**أعلم**» بدل «**أعرف**».

ولا تنافي بيْن هذين الأمْرين؛ فإنه يضيق عليه كلُّ مكان لا يُساعَد فيه على شأنه ومطلوبِه، ويتَّسع عليه ما ضاق على غيره؛ لأنَّه ليس فيه، ولا هو مساكِنٌ له بقلبه، فقلبُه غيرُ محبوس فيه. والأول: في بداية المعرفة، والثاني: في نهايتها التي يَصِلُ إليها العبد.

وقال آخَرُ: «مَن عرَف الله تعالى صفَا له العيشُ، وطابتْ له الحياة، وهابَه كلُّ شيء، وذهب عنه خوفُ المخلوقين، وأنس بالله».

وقال غيره: «مَن عرَف الله قرَّت عينُه بالله، وقرَّتْ به كلُّ عين، ومَن لم يعرفِ اللهَ تقطَّع قلبُه على الدنيا حسراتٍ، ومَن عرَف الله لم تبقَ له رغبةٌ في سِواه، ومَنِ ادَّعى معرفة الله ـ وهو راغب في غيره ـ كذَّبت رغبتُه معرفتَه، ومن عرَف الله أحبَّه على قدْر معرفته به، وخافَه ورجاه، وتوكَّل عليه، وأناب إليه، ولهِجَ بذِكره، واشتاق إلى لقائه، واستحيا منه، وأجَلَّه وعظَّمه على قدْر معرفته به».

ومن علامات المعرفة: أن يبدوَ لك الشاهدُ، وتفنى الشواهدُ، وتنحلَّ العلائقُ، وتنقطعَ العوائقُ، وتجلس بيْن يدَي الربِّ تعالى، وتقوم وتضطجع على التأهُّب للقائه، كما يجلس الذي شدَّ أحماله وأزمَعَ السفر على التأهُّبِ له، ويقوم على ذلك ويضطجع عليه، وكما ينزل المسافر في منزله، فهو قائم وجالسٌ ومضْطَجِعٌ على التأهُّب.

وقيل للجُنَيد: «إنَّ أقوامًا يدَّعون المعرفة، يقولون: إنهم يَصِلون بتركِ الحركات مِن باب البرِّ والتقوى؟ فقال الجُنَيد: هذا قولُ أقوام تكلَّموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرِقُ ويزْني أحسَنُ حالًا مِن الذي يقول هذا؛ إنَّ العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإلى الله رجَعوا فيها، ولو بقِيتُ ألْفَ عامٍ لم أنقُصْ من أعمال البِرِّ ذرَّةً إلَّا أن يُحال بيني وبينها».

من علامات العارفين

ومن علامات العارف: أنه لا يطالِب ولا يخاصم، ولا يعاتِب، ولا يرى له على أحدٍ فضلًا، ولا يرى له على أحد حقًّا.

ومن علاماته: أنه لا يأسَفُ على فائت، ولا يفرَحُ بآتٍ؛ لأنَّه ينظر

إلى الأشياءِ بعين الفناء والزوال، وأنها في الحقيقة كالظِّلال والخيال.

وقال الجُنَيد: «لا يكون العارفُ عارفًا حتى يكون كالأرض يطؤها البَرُّ والفاجر، وكالسَّحاب يُظِلُّ كلَّ شيء، وكالمطر يَسقي ما يُحِبُّ وما لا يحب».

وقال يحيى بن مُعاذ: «يَخرُجُ العارفُ من الدنيا ولم يَقضِ وطرَه من شيئين: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربِّه».

وهذا مِن أحسَنِ الكلام؛ فإنه يدلُّ على معرفته بنفسه وعيوبِه وآفاته، وعلى معرفته بربه وكمالِه وجلاله؛ فهو شديد الإزراء على نفسه، لَهِجٌ بالثناء على ربه.

قال ابنُ عطاء: «المعرفة على ثلاثة أركان: الهيبة، والحياء، والأُنس».

وقيل لذي النُّون: «بِمَ عرَفْتَ ربك؟ فقال: عرَفْتُ ربِّي بربي، ولولا ربي لَمَا عرفت ربي».

وقيل لعبد الله بن المبارك: «بماذا نعرِفُ ربَّنا؟ قال: بأنه فوقَ سماواته على عرشه، بائنٌ مِن خلْقِه. فأتى عبدُ الله بأصل المعرفة التي لا يصحُّ لأحد معرفةٌ ولا إقرارٌ بالله سبحانه إلَّا به، وهو المباينة والعلوُّ على العَرش».

ومن علامات العارف: أن يَعتزلَ الخَلْقَ بينه وبين الله، حتى كأنهم أمواتٌ لا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ويعتزل نفْسَه بينه وبين الخلق، حتى يكون بينهم بلا نفْس. وهذا معنى قول مَن قال: «العارف يقطع الطريق بخُطوتين: خُطوة عن نفْسه، وخُطوة عن الخَلق».

وقيل: العارف ابنُ وقتِه. وهذا من أحسَنِ الكلام وأخصَرِه؛ فهو مشغولٌ بوظيفة وقتِه عمَّا مضى وصار في العدم، وعمَّا لم يدخل بعدُ في الوجود، فهَمُّه عِمارةُ وقتِه الذي هو مادَّةُ حياته الباقية.

ومن علاماته: أنه مستأنِسٌ بربِّه، مستوحش ممَّن يقطعه عنه، ولهذا قيل: العارف مَن أنِس بالله فأوحشه من الخلْق، وافتقر إلى الله فأغناه عنهم، وذَلَّ لله فأعزَّه فيهم، وتواضَعَ لله فرفعه بينهم، واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

وقال ذو النُّون: «لكل شيء عقوبة، وعقوبةُ العارف انقطاعُه عن ذكر الله».

وسُئِل الجُنَيدُ عن العارف، فقال: «لونُ الماء لون إنائه»، وهذه كلمة رَمَز بها إلى حقيقة العبودية؛ وهو أن يتلوَّن بتلوُّن أقسامِ العبودية، فبينما تراه مصليًّا إذ رأيتَه ذاكرًا وقارئًا، ومعلِّمًا، ومتعلِّمًا، ومجاهدًا، وحاجًّا، ومساعدًا للضيف، ومغيثًا للمَلهوف، فيَضرِبُ في كلِّ غنيمة من الغنائم بسهم، فهو مع المتسبِّبين متسبِّب، ومع المتعلِّمين متعلِّم، ومع الغُزاة غازٍ، ومع المصلين مصلٍّ، ومع المتصدقين متصدقٌ، فهو يتنقَّلُ في منازل العبودية من عبودية إلى عبودية، وهو مقيم على معبود واحد، لا ينتقل عنه إلى غيره.

وقال ذو النُّون: «علامةُ العارف ثلاثةٌ: لا يُطفِئ نورُ معرفته نورَ وَرعِه، ولا يَعتقد باطنًا من العِلم ينقض عليه ظاهرًا من الحُكم، ولا تحمله كثرةُ نِعَمِ الله على هتْك أستار محارمِ الله».

وهذا مِن أحسَنِ ما قيل في المعرفة، وهو محتاجٌ إلى شرح؛ فإنَّ كثيرًا من الناس يرى أنَّ التورُّعَ عن الأشياء من قِلَّة المعرفة؛ فإنَّ المعرفة مُتَّسِعة الأكناف، واسعةُ الأرجاء. فالعارف واسع موسع، والسَّعة تطفئ نورَ الورع، فالعارف لا تنقص معرفتُه ورعَه، ولا يُخالف ورعُه معرفتَه.

وأما: (باطن العِلْمِ الَّذي يَنقضُه ظاهِرُ الحُكْمِ) فإنه يشير به إلى ما عليه المنحرفون، ممَّن ينتسب إلى السلوك؛ فإنهم تقع لهم أذواقٌ ومواجيدُ، وارداتٌ تخالِفُ الحُكمَ الشَّرعيَّ، وتكون تلك معلومةً لهم لا يمكنهم جحْدُها، فيعتقدونها ويتركون ظاهرَ الحُكم.

المعرفة الحقيقية هي حياة القلب مع الله تعالى

قوله: **(ولا تَحمِلُه كَثرةُ نِعَمِ اللهِ على هَتْكِ أستارِ مَحارِمِ اللهِ)** كثرة النعم تُطْغِي العبدَ، وتَحمِلُه على أن يصرِفَها في وجوهها وغير وجوهها، وهي تدعو إلى أن يتناول العبد بها ما يحل وما لا يحل، وأكثر المنعم عليهم لا يقتصرون في صرْف النعمة على القدْر الحلال، بل يتعدَّاه إلى غيره، وتُسوِّل له نفسه أن معرفته بالله تردُّ عليه ما انتهبته منهم أيدي الشهوات والمخالفات.

وقال محمد بن الفضل: «المعرفة حياةُ القلب مع الله».

وقال بعض السلف: «نوم العارف يقظةٌ، وأنفاسُه تسبيح، ونومُ العارف أفضلُ من صلاة الغافل».

إنما كان نومُ العارف يقظةً؛ لأنَّ قلبه حَيٌّ؛ فعيناه تَنامانِ، ورُوحه ساجدة تحت العرش بين يدي ربها وفاطرها، جسده في الفرش، وقلبه حول العرش، وإنما كان نومه أفضلَ من صلاة الغافل؛ لأن بدن الغافل واقفٌ في الصلاة، وقلبُه يَسبح في حُشوش الدنيا والأماني؛ ولذلك كانت يقظته نومًا؛ لأن قلبه موات.

وقيل: مجالسة العارف تدعوك مِن سِتٍّ إلى ستٍّ: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذِّكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكِبْر إلى التواضع، ومن سوء الطَّوِيَّة إلى النصيحة.

أهمية الإيمان بالله تعالى ومعرفة صفاته

قال صاحب «المنازل»: **(المَعرِفةُ مَعرِفةُ الصِّفاتِ والنُّعوتِ، وقد ورَدَتْ أساميها بالرِّسالةِ، وظَهَرَتْ شَواهِدُها في الصَّنعةِ: بتَبَصُّرِ النُّورِ القائِمِ في السِّرِّ، وطِيبِ حَياةِ العقلِ لزَرْعِ الفِكْرِ، وحَياةِ القلبِ: بحُسْنِ النَّظرِ بيْن التَّعظيمِ، وحُسْنِ الاعتِبارِ)**.

لا يستقِرُّ لعبد قدمٌ في المعرفة ـ بل ولا في الإيمان ـ حتى يؤْمِنَ بصفات الربِّ ﷻ، ويعرِفَها معرفةً تُخرِجُه عن حدِّ الجهل بربه؛ فالإيمان بالصفاتِ ومعرفتُها: هو أساس الإسلام، وقاعدةُ الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمَن جَحَدَ الصفات، فقد هدم أساس الإسلام والإيمانِ والإحسان، فضلًا عن أن يكون من أهل العرفان.

والرُّسُلُ مِن أوَّلِهم إلى خاتمهم ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين ـ أُرْسِلوا بالدعوة إلى الله، وبيانِ الطريق الموصل إليه، وبيانِ حال المَدْعوِّينَ بعد وصولهم إليه، فهذه القواعد الثلاثُ ضرورية في كلِّ مِلَّةٍ على لسان كلِّ رسول.

قواعد ضرورية على لسان كل رسول

القاعدة الأولى: فعرَّفوا الرَّبَّ المدعُوَّ إليه بأسمائه وصفاتِه وأفعاله تعريفًا مُفصَّلًا، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوقَ سماواته على عرشه، يكلِّم ملائكته، ويدبِّرُ أمرَ مملكتِه، ويسمع أصواتَ خلْقِه، ويرى أفعالَهم وحركاتِهم، ويشاهد بواطنَهم كما يُشاهد ظواهرَهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويُحِبُّ ويَسخَطُ، ويضحك مِن قُنوطهم وقُرْب غيرِه، ويجيب دعوةَ مُضْطَرِّهم، ويُغيث مَلهوفَهم، ويُعِينُ محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويُغني فقيرهم، ويميت ويُحْيي، ويُعطي ويَمنع، يؤتي المُلك من يشاء، ويَنزِع المُلك ممن يشاء، ويُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، بيده الخيرُ، وهو على كل شيء قدير، كلَّ يوم هو في شأن؛ يغفر ذنْبًا، ويُفرِّج كربًا، ويفكُّ عانيًا، وينصر مظلومًا، ويَقْصِم ظالمًا، ويرحم مسكينًا، ويُغيث ملهوفًا، ويَسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويُجريها على نظامها، ويقدِّم ما يشاء تقديمَه، ويؤخِّر ما يشاء تأخيره؛ فأزِمَّة الأمورِ كلِّها بيديه، ومدار تدبيرِ الممالك كلِّها عليه، وهذا مقصود الدعوة، وزُبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه لرُسُلِه وأتباعِهم؛ وهو امتِثال أمْرِه، واجتنابُ نَهْيِه، والإيمان بوعْده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحالِ بعد الوصول؛ وهو ما تضمَّنه اليومُ الآخِرُ من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحَوضِ والميزان والصراط.

فالإيمان بالصفات ومعرفتُها، وإثباتُ حقائقها، وتعلُّقُ القلب بها، وشهودُه لها: هو مبدأ الطريقِ ووسَطُه وغايته، وهو روح السالكين،

وحاديهم إلى الوصول، ومحرِّك عزَماتِهم إذا فتَروا، ومُثيرُ هِمَمِهم إذا قصَّروا؛ فإنَّ سَيرَهم إنما هو على الشواهد، فمَن لا شاهدَ له لا سَيرَ له، ولا طلبَ ولا سلوك. وأعظم الشواهد: شواهدُ صفاتِ محبوبِهم، ونهايةِ مطلوبهم، وذلك هو العَلَم الذي رُفع لهم في السَّير فشمَّروا إليه، كما قالت عائشةُ ﵂: «مَن رأى رسولَ الله ﷺ، فقد رآه غاديًا رائحًا، لم يضع لَبِنةً على لَبِنة، ولكن رُفِعَ له علَمٌ فشَمَّر إليه»(١). ولا يزال العبد في التَّواني والفتورِ والكسل، حتى يرفع الله ﷻ له ـ بفضله ومَنِّه ـ علَمًا يشاهده بقلبه، فيشمِّر إليه، ويعمل عليه.

فإن عُطِّلَت شواهدُ الصفات، ووُضِعَت أعلامها من القلوب، وطُمِسَت آثارُها فيها، وضُرِبَت بسياط البُعد، وأُسْبِلَ دونها حجابُ الطرد، وتخلَّفتْ مع المتخلِّفين، وأوحى إليها القدرُ: أنِ اقعدي مع القاعدين، فإن أوصاف المَدْعوِّ إليه، ونعوتَ كماله، وحقائق أسمائه: هي الحاديةُ للقلوب إلى محبَّتِه، وطلبِ الوصول إليه؛ لأن القلوب إنما تُحِبُّ مَن تَعرِفُه، وتَخافُه وترجوه وتشتاقُ إليه، وتَلتَذُّ بقُرْبه، وتطمئن إلى ذِكره، بحسَب معرفتها بصفاته، فإذا ضُرِبَ دونها حجابُ معرفة الصفات والإقرار بها: امتَنَع منها بعد ذلك ما هو مشروط بالمعرفة، وملزومٌ لها؛ إذ وجود الملزوم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه: ممتنع.

عُدْنا إلى شرح كلامه.

إثبات الصفات دل عليها الوحي

قوله: **(وقد وردتْ أساميها بالرِّسالة...)** إلى آخره.

ذكر أن إثبات الصفاتِ دلَّ عليها الوحيُ الذي جاء من عند الله على لسان رسوله، والحس الذي شاهد به البصير آثار الصَّنعة.

فأما الرسالة: فإنَّها جاءت بإثبات الصفات إثباتًا مُفصَّلًا على وجه أزال الشبهة، وكشف الغطاء، وحصَّل العِلمَ اليقينيَّ، ورفَع الشَّكَّ

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٢٤١)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٥٠).

والرَّيب؛ فثلجت له الصدور، واطمأنت به القلوب، واستقرَّ به الإيمانُ في نِصابه.

دلالة الصنعة من طرق إثبات صفات الله تعالى

قوله: **(وظَهَرَتْ شَواهِدُها في الصَّنعةِ)**.

هذا هو الطريق الثاني من طرق إثبات الصِّفات، وهو دَلالةُ الصَّنعةِ عليها؛ فإنَّ المخلوق يدلُّ على وجود خالقه، على حياته، وعلى قدرته، وعلى عِلْمِه ومشيئته، فإنَّ الفعل الاختياريَّ يَستلزِمُ ذلك استلزامًا ضروريًّا، وما فيه من الإتقان والإحكامِ ووقوعه على أكمل الوجوه: يدلُّ على حكمة فاعِلِه وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق: يدلُّ على رحمة خالقه، وإحسانِه وجُودِه، وما فيه من آثار الكمال: يدلُّ على أن خالقه أكمَلُ منه، فمُعطي الكمالِ أحقُّ بالكمال، وخالقُ الأسماع والأبصار والنُّطقِ أحقُّ بأن يكون سميعًا بصيرًا متكلِّمًا، وخالق الحياة والعلوم، والقُدَر والإرادات أحقُّ بأن يكون هو كذلك في نفْسِه، فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات مِن أدلِّ شيءٍ على إرادة الرَّبِّ سبحانه، ومشيئته وحِكمتِه التي اقتضت التخصيص.

وحصولُ الإجابة عَقِيبَ سؤالِ الطالب على الوجه المطلوب: دليلٌ على عِلم الربِّ تعالى بالجزئيات، وعلى سمْعِه لسؤال عَبِيده، وعلى قدرته على قضاء حوائجهم، وعلى رأفته ورحمته بهم.

والإحسان إلى المطيعين، والتقرُّبُ لهم والإكرام، وإعلاءُ درجاتهم: يدلُّ على محبته ورضاه، وعقوبتُه للعصاة والظَّلَمة، وأعداءِ رسُلِه بأنواع العقوبات المشهودة: تدلُّ على صفة الغضبِ والسخط، والإبعادُ والطردُ والإقصاء: يدلُّ على المَقْتِ والبغض.

فهذه الدلالاتُ من جنس واحد عند التأمُّل؛ ولهذا دعا سبحانه في كتابه عبادَه إلى الاستدلال بذلك على صفاته، فهو يثبت العِلم بربوبيته ووحدانيته، وصفاتِ كماله بآثار صنعه المشهودة، والقرآنُ مملوءٌ بذلك.

فيظهر شاهدُ اسم «الخالق» من نفْس المخلوق، وشاهدُ اسم

«الرازق» من وجود الرزق، وشاهدُ اسم «الرَّحيم» من شهود الرحمة المبثوثةِ في العالم، واسم «المعطي» من وجود العطاء الذي هو مِدْرار لا ينقطع لحظة واحدة، واسم «الحليم» من حِلمه عن الجُناة والعُصاةِ وعدمِ معاجلتهم، واسم «الغفور» و«التواب» من مغفرة الذنوب، وقَبولِ التوبة، ويظهر شاهد اسمه «الحكيم» مِن العِلم بما في خَلْقِه وأمْرِه من الحِكَم والمصالح ووجوهِ المنافع.

وهكذا كلُّ اسمٍ من أسمائه الحسنى له شاهدٌ في خلْقه وأمْرِه، يَعرِفُه من عرَفَه، ويجهله مَن جَهِله، فالخَلْق والأمرُ من أعظمِ شواهدِ أسمائه وصفاته.

وكلُّ سليم العقلِ والفطرة يَعرِف قدْرَ الصانع وحذقَه وتبريزَه على غيره، وتفرُّدَه بكمالٍ لم يشارِكْه فيه غيرُه من مشاهدة صنعه، فكيف لا تُعرَف صفاتُ مَن هذا العالَمُ العُلْويُّ والسُّفليُّ، وهذه المخلوقاتُ من بعض صنعه؟!

وإذا اعتبرْتَ المخلوقاتِ والمأمورات، وجدْتَها بأسْرِها كلها دالَّةً على النُّعوت والصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وعلِمْتَ أن المعطلة مِن أعظم الناس عمًى ومكابرة، ويكفي ظهورُ شاهد الصنع فيك خاصَّةً، كما قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]، فالموجودات بأسْرِها شواهدُ صفاتِ الربِّ جَلَّ جَلَالُهُ ونعوتِه وأسمائه، فهي كلُّها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقِها، وتنادي عليها، وتدلُّ عليها، وتُخبِرُ بها بلسان النطق والحال، كما قيل:

تأمَّلْ سُطورَ الكائناتِ فإنَّها ... مِنَ المَلِكِ الأعلى إليكَ رَسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأمَّلْتَ خَطَّها ... ألَا كُلُّ شَيءٍ ما خَلَا اللَّهَ باطِلُ
تُشِيرُ بإثباتِ الصِّفاتِ لرَبِّها ... فصامِتُها يَهدي ومَن هو قائِلُ

فلستَ ترى شيئًا أدلَّ على شيء مِن دَلالةِ المخلوقات على صفات خالقِها، ونعوتِ كماله، وحقائقِ أسمائه، وقد تنوَّعتْ أدلَّتُها بحسَب تنوُّعِها، فهي تدلُّ عقلًا وحسًّا، وفِطرةً ونظرًا، واعتبارًا.

نور التصديق بصفات الله

قوله: **(بتبصير النُّورِ القائِمِ في السِّرِّ)**؛ يعني: أن النور الإلٰهيَّ الذي يَجعلُه اللهُ لعبده، ويُلقيه عليه، ويُودِعُه في سِرِّه: هو الذي يُبصِّره بشواهدِ صفاته، فكلَّما قويَ هذا النورُ في قلب العبد، كان بصرُه بالصفات أتمَّ وأكمل، وكلَّما قَلَّ نصيبُه من هذا النور، وطُفئ مِصباحُه في قلبه؛ طُفِئَ نورُ التصديق بالصفات وإثباتِها في قلبه؛ فإنَّه إنَّما يشاهِدُها بذلك النور، فإذا فقده لم يُشاهِدْها، وجاءت الشُّبَهُ الباطلة مع تلك الظُّلْمة، فلم يكن له نصيبٌ منها سوى الإنكار.

قوله: **(وطِيبِ حَياةِ العَقلِ لزَرْعِ الفِكْرِ)**؛ أي: يدرك الصِّفاتِ بذلك النورِ القائم في سِرِّه، وطِيبِ حياةِ عقْلِه، التي طيَّبها زَرعُ الفِكرِ الصحيح، المتعلِّقِ بما دعا الله سبحانه عبادَه إلى الفِكر فيه، بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ﴾ [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]، فيتفكرون في الآيات التي بيَّنها لهم، فيَستدِلُّون بها على توحيده، وصفاتِ كماله، وصِدْقِ رسُلِه، والعِلمِ بلقائه، ويتفكَّرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها ودناءتها، والآخرةِ ودوامها وبقائِها وشرفِها، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]. فالفكر الصحيح، المؤيَّدُ بحياة القلب، ونور البصيرة: يدلُّ على إثبات صفاتِ الكمال ونعوتِ الجلال، وأمَّا فكرٌ مصحوبٌ بموت القلب وعمَى البصيرة، فإنما يُعْطِي صاحبَه نفيَها وتعطيلَها.

ثمرات تعظيم الخالق وحسن الاعتبار بمصنوعاته الدالة عليه

قوله: **(وحَياةِ القَلبِ بحُسْنِ النَّظَرِ بيْن التَّعظيمِ وحُسْنِ الاعتِبارِ)**؛ يعني: أنه ينضاف إلى نور البصيرة وطِيبِ حياة العقل: حياةُ القلب بحُسن النظر، الدائرِ بين تعظيم الخالقِ ﷻ وحُسنِ الاعتبار بمصنوعاته الدَّالَّةِ عليه، فلا بدَّ من الأمرين؛ فإنه إنْ غفَل بالتعظيم عن حُسن

الاعتبار، لم يحصُلْ له الاستدلالُ على الصفات، وإن حصل له الاعتبارُ من غير تعظيم الخالق سبحانه، لم يَستفِدْ به إثباتَ الصفات، فإذا اجتمع له تعظيمُ الخالق وحُسْنُ النظر في صنعه، أثمرَا له إثباتَ صفات كمالِه ولا بدَّ.

و«الاعتبار» هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثِّر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الدليل إلى المدلول، فينتقل إليه بسرعة ولطف إدراك، فينتقل ذهنه من الملزوم إلى لازمه، قال الله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢]. والاعتبار: افتِعال من العبور، وهو عبور القلب من المَلزوم إلى لازمه، ومن النظير إلى نظيره.

وهذا الاعتبار يَضعف ويَقوى، حتى يستدلَّ صاحبُه بصفات الله تعالى وكمالِه على ما يفعله؛ لحُسن اعتبارِه وصحَّةِ نظرِه، وهذا اعتبار الخواصِّ واستدلالُهم؛ فإنهم يستدِلُّون بأسماء الله وصفاتِه وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا، فيفعل ما هو موجب حكمتِه وعلْمِه وغِناه وحمده، ولا يفعل ما يناقض ذلك.

وقد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه، فقال تعالى في الطريق الأولى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ثم قال في الطريق الثانية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت: ٥٣]، فمخلوقاته دالَّةٌ على ذاته وأسمائه وصفاتِه، وأسماؤُه وصفاته دالَّةٌ على ما يفعله ويأمر به، وما لا يفعله ولا يأمر به.

مثال ذلك: أنَّ اسمه «الحميد» سبحانه يدلُّ على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر، واسمه «الحكيم» يدلُّ على أنه لا يخلق شيئًا عبثًا، واسمه «الغني» يدلُّ على أنه لم يتَّخِذْ صاحبة ولا ولدًا، واسمه «الملك» يدلُّ على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته، وتدبيره، وعطائه ومنعه، وثوابِه وعقابه، وبثِّ رسله في أقطار مملكته، وإعلامِ عبيده بمراسيمه وعهودِه إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد،

فمتى قام بالقلب تعظيمُ الحقِّ ﷻ وحسْنُ النظر في الشواهد، والتبصُّر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوتُ مشهودةً لقلبه قبْلةً له.

وكيف يَطمع العقلُ المخلوقُ المحصورُ المحدودُ، في معرفة كيفية مَن له الكمالُ كلُّه، والجمال كلُّه، والعلم كلُّه، والقدرةُ كلُّها، والعظمة كلُّها، والكبرياء كلُّها؟! مَن لو كُشِفَ الحجابُ عن وَجْهه، لَأحرقت سُبُحاتُه السمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينهما، وما وراء ذلك.

الذي يَقبِضُ سماواتِه بيده، فتغيبُ فيها كما تغيب الخردلةُ في كفِّ أحدِنا، الذي نسبة علوم الخلائق كلِّهم إلى عِلمِه أقلُّ من نسبة نقرة عصفورٍ من بحار العلم.

الذي لو أنَّ البحر ـ يَمُدُّه مِن بعدِه سبعةُ أبحر ـ مِدادٌ، وأشجارَ الأرض ـ من حين خُلقَتْ إلى قيام الساعة ـ أقلامٌ: لَفَنِي المِدادُ وفَنِيت الأقلام، ولم تَنفَدْ كلماتُه.

الذي لو أنَّ الخَلق من أوَّلِ الدنيا إلى آخِرها، إنسهم وجنهم، وناطقهم وأعجمهم، جُعلوا صفًّا واحدًا: ما أحاطوا به سبحانه، «**الذي يَضَعُ السَّمٰواتِ على إصبَعٍ مِن أصابِعِه، والأرضَ على إصبَعٍ، والجبالَ على إصبَعٍ، والأشجارَ على إصبَعٍ، ثمَّ يَهُزُّهُنَّ، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ**»[1].

وإذا علِمَ العبد انفرادَ الربِّ سبحانه بالأزل والبقاء والفعل، وعجْزَ مَن سواه عن القدرة على إيجاد ذرَّةٍ أو جزء من ذرة، وأنه لا وجود له من نفْسِه، فوجوده ليس له، ولا به، ولا منه، وتوالى هذا العِلمُ على القلب: سقط ذِكرُ غيره سبحانه عن البال والذِّكر، كما سقط غِناه وربوبيته وملكُه وقدرته، فصار الربُّ سبحانه وحدَه هو المعبودَ والمشهود والمذكور، كما كان وحدَه هو الخالقَ المالك، الغنيَّ الموجود بنفْسِه أزلًا وأبدًا، وما ما سِواه فوجوده وتوابعُ وجودِه عاريةٌ ليست له.

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وكلما فَنِيَ العبد عن ذكر غيره وشهودِه، صَفَتْ هذه المعرفةُ في قلبه، وانجذبت رُوحُه وقلبُه إلى الواحد القهار، فهي تجول في ميدانٍ أوسعَ من السموات والأرض، بعد أن كانت مسجونةً في سجون المخلوقات، فإذا استمرَّ له عُكوفُ قلبه على الحقِّ سبحانه، ونظرُ قلبه إليه كأنه يراه، ورؤية تفرُّدِه بالخلْق والأمر، والنفعِ والضر، والعطاءِ والمنع: كَمَلَت وتمَّت في هذه الدَّرجةِ معرفتُه.



[منزلة الفناء]

الفناء الذي يُترجِم عليه [الهَرَوي في منازله] هو غايةُ التعلُّق ونهايتُه [عنده]؛ فإنه انقطاع عمَّا سِوى الرَّبِّ تعالى من كلِّ وجه؛ ولذلك قال: **(الفَناءُ في هذا البابِ: اضْمِحْلالُ ما دُونَ الحَقِّ عِلْمًا، ثُمَّ جَحْدًا، ثمَّ حَقًّا)**؛ يعني: يضمحل عن القلب والشهود عِلمًا، فتغيب صوَرُ الموجودات في شهود العبد، بحيث كأنها دخلتْ في العدم، كما كانت قبل أن توجَد، ويبقى الحقُّ تعالى ذو الجلال والإكرامِ وحدَه في قلب الشاهد، كما كان وحدَه قبل إيجاد العوالم.

فإن الرَّبَّ سبحانه إذا رقَّى عبدَه بالتدريج نوَّرَ باطنَه وعقْلَه بالعِلم، فرأى أنه لا خالقَ سِواه، ولا ربَّ غيرُه، ولا يملِكُ الضُّرَّ والنفعَ، والعطاءَ والمنعَ غيرُه، وأنه لا يستحق أن يُعبَدَ بنهاية الخضوع والحبِّ سِواه، وكلُّ معبودٍ سِوى وجهِه الكريمِ فباطلٌ، فهذا توحيد العِلم.

ثم إذا رقَّاه الحق سبحانه درجةً أخرى فوق هذه، أشهده عَودَ المفعولات إلى أفعاله سبحانه، وعودَ أفعاله إلى أسمائه وصفاتِه، وقيام صفاته بذاته، فيضمحل شهودُ غيره من قلبه.

ثم إذا رقَّاه درجة أخرى، أشهده قيامَ العوالِم كلِّها ـ جواهرِها وأعراضِها، ذواتِها وصفاتِها ـ به وحدَه؛ أي: بإقامته لها وإمساكِه لها؛ فإنه سبحانه يُمسِكُ السمواتِ والأرضَ أن تزولَا، ويُمسِك البحارَ أن تَغيض أو تفيض على العالَم، ويمسِكُ السماءَ أن تقع على الأرض، ويمسِكُ الطَّيرَ في الهواء صافَّاتٍ ويَقبِضْنَ، ويمسِكُ القلوبَ الموقِنةَ أن تَزيغ عن الإيمان، ويمسك حياةَ الحيوانِ أن تفارِقه إلى الأجل المحدود، ويمسك على الموجودات وجودَها، ولولا ذلك لاضمحلَّتْ

وتلاشَتْ، والكلُّ قائم بأفعاله وصفاتِه التي هي من لوازم ذاته، فليس الوجود الحقيقيُّ إلَّا له، أعني الوجودَ الذي هو يستغني فيه عن كلِّ ما سِواه، وكلُّ ما سِواه فقيرٌ إليه بالذات، لا قيامَ له بنفسِه طَرفةَ عين.

كيفية الوصول إلى منازل المحبة والمعرفة والاستغراق

[و] الذي يشير إليه القوم: أن العبد يَصِلُ في منازل المحبَّةِ والمعرفة والاستغراقِ في المشاهدة إلى حالة يستولي عليه أنوارُ القرب وآثارُ الصفات، بحيث يَذهَلُ لُبُّه عن شعوره بطلبه وإرادتِه ومحبَّتِه.

وإيضاح ذلك: أن العبد إذا أقبل على ربِّه، وتفقَّد أحواله، وتمكَّن من شهود قيامِ ربِّه عليه؛ فإنَّه يَكونُ في أوَّلِ أمرِه مُكابِدًا وصابرًا ومُرابِطًا، فإذا صبَر وصابَر ورابَط ـ صبَر في نفسه، وصابَرَ عدوَّه، ورابَط على ثغرِ قلبِه أن يدخل فيه خاطرٌ لا يحبُّه ولِيُّه الحقُّ ـ ظهر حينئذٍ في قلبه نورٌ من إقباله على ربِّه، فإذا قَوِي ذلك النور غيَّبه عن وجوده الذِّهنيِّ، وسرى به في مطاوي الغيب، وحينئذٍ يَصفو له إقبالُه على ربه، فإذا صفا له ذلك، غاب عن وجوده العَينيِّ والذِّهني، فغاب بنور إقباله على ربِّه لوصول خالص الذِّكر وصافيه إلى قلبه، حيث خَلا من كل شاغلٍ من الوجود العَينيِّ والذهني، وصار واحدًا لواحدٍ، فيستولي نورُ المراقبة على أجزاء باطنِه، فيمتلئ قلبُه من نور التوجُّه، بحيث يَغمر قلبَه، ويستُرُه عمَّا سِواه، ثم يَسري ذلك النُّورُ من باطنه، ويَعُمُّ أجزاءَ ظاهرِه، فيتشابَهُ الظاهرُ والباطنُ فيه، وحينئذٍ يفنى العبدُ عمَّا سِواه، ويبقى بالمشهد الرُّوحيِّ الذاتيِّ الموجِب للمحبَّةِ الخاصَّةِ الملْهِبةِ للرُّوح.

* * *

حقيقة الفناء وموقف أهل السُّنَّة والجماعة منه

لم يَرِدْ في الكتاب، ولا في السُّنَّة، ولا في كلام الصحابة والتابِعين: مدحُ لفظ (الفناء) ولا ذمّه، ولا استعمَلوا لفظَه في هذا المعنى المشارِ إليه البَتَّةَ، ولا ذكره مشايخُ الطريق المتقدِّمون، ولا جعلوه غايةً ولا مقامًا، وقد كان القومُ أحقَّ بكل كمال، وأسبقَ إلى كلِّ غاية محمودة، ونحن لا نُنكِرُ هذا اللفظ مطْلقًا، ولا نَقبَلُه مطْلقًا.

ولا بد فيه من التفصيل، وبيانِ صحيحِه من معلوله، ووسيلتِه من غايته، فنقول ـ وبالله التوفيق، وهو الفتاح العليم ـ:

حقيقة «الفناء» المشارِ إليه: هو استهلاك الشَّيءِ في الوجود العِلميِّ الذِّهني، وهاهنا تقسمه أهلُ الاستقامة وأهلُ الزيغ والإلحاد؛ فزعم أهل الاتِّحاد ـ القائلون بوَحدة الوجود ـ أن الفناء الذي هو غايةُ الفناء عن وجود السِّوى، فلا يثبت للسِّوى وجودٌ البتة؛ لا في الشهود، ولا في العِيان.

وأما أهلُ التوحيد والاستقامة: فيُشيرون بالفناء إلى أمرين، أحدُهما أرفَعُ من الآخَر:

الأمر الأول: الفناء في شهود الربوبيَّةِ والقَيُّوميَّة، فيشهد تفرُّدَ الربِّ تعالى بالقيومية والتدبير، والخَلقِ والرِّزق، والعطاءِ والمنع، والضرِّ والنفع، وأن جميع الموجوداتِ منفعلةٌ لا فاعلة، وما له منها فعلٌ فهو منفعلٌ في فِعله، محل محض لجريان أحكام الربوبية عليه، لا يملك شيئًا منها لنفسه ولا لغيره؛ لا ضرًّا ولا نفعًا.

فإذا تحقَّق العبدُ بهذا المشهد، خمدتْ منه الخواطرُ والإرادات؛ نظرًا إلى القيُّوم الذي بيده تدبير الأمور، وشُخوصًا منه إلى مشيئته وحُكمه، فهو ناظر منه به إليه، فانٍ بشهوده عن شهود ما سواه، ومع هذا فهو ساعٍ في طلب الوصول إليه، قائمًا بالواجبات والنوافل.

الأمر الثاني: الفناء في مشهد الإلٰهية، وحقيقته: الفناءُ عن إرادة ما سِوى الله ومحبَّتِه، والإنابةِ إليه، والتوكل عليه، وخوفِه ورجائه، فيفنى بحُبِّه عن حبِّ ما سواه، وبخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه.

وحقيقة هذا الفناء: إفراد الربِّ سبحانه بالمحبة، والخوفِ والرجاء، والتعظيم والإجلال، ونحن نشير إلى مبادئ ذلك وتوسُّطِه وغايته.

آثار خلو القلب من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها

اعلمْ أن القلب إذا خلا من الاهتمام بالدُّنيا والتعلُّقِ بما فيها من مال، أو رياسةٍ أو صورة، وتعلَّق بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل العُدَّة، والتأهُّبِ للقدوم على الله ﷻ: فذلك أول فُتوحِه، وتباشير فجرِه، فعند ذلك يتحرَّكُ قلبُه لمعرفة ما يرضى ربَّه منه، فيفعله ويتقرب به إليه، وما يسخطُه منه، فيجتنبه، وهذا عنوان صدقِ إرادته، فإنَّ كل مَن أيقن بلِقاءِ الله، وأنه سائِلُه عن كلمتين، يُسأل عنهما الأوَّلون والآخِرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لا بد أن يتنبه لطلب معرفة معبودِه، والطريقِ الموصلة إليه، فإذا تمكَّن في ذلك، فُتِحَ له بابُ الأُنس بالخَلوةِ والوَحدةِ والأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصواتُ والحركات، فلا شيءَ أشوقُ إليه من ذلك، فإنها تجمع عليه قُوى قلبِه وإرادته، وتَسُدُّ عليه الأبواب التي تفرِّق همَّه وتشتِّتُ قلبه، فيأنس بها ويستوحش من الخلْق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها، ويَجِدُ فيها من اللذة والراحة أضعافَ ما كان يجده في لذة اللَّهو، واللَّعِبِ، ونَيلِ الشهوات، بحيث إنه إذا دخل في الصلاة، وَدَّ ألَّا يخرجَ منها.

ثم يفتح له باب حلاوةِ استماع كلام الله، فلا يشبعُ منه، وإذا سمِعه هدَأ قلبُه به، كما يهدأ الصبيُّ إذا أُعْطِيَ ما هو شديدُ المحبة له.

ثم يُفْتَح له بابُ شُهود عظمة الله المتكلِّمِ به وجلالِه، وكمالِ نُعوتِه وصفاتِه وحكمته، ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتى يغيب فيه، يُحِسُّ بقلبه وقد دخل في عالم آخر غير ما الناس فيه.

ثم يُفْتَح له بابُ الحياء من الله، وهو أول شواهدِ المعرفة، وهو نورٌ يقع في القلب، يُريه ذلك النور: أنه واقف بين يدَيْ ربه ﷻ، فيستحي منه في خَلَواته، وجلواته، ويُرزق عند ذلك دوامُ المراقبة للرقيب، ودوامُ التطلُّع إلى حضرة العلي الأعلى، حتى كأنه يراه ويشاهِده فوقَ سماواته، مستويًا على عرشه، ناظرًا إلى خلْقه، سامعًا لأصواتهم، مُشاهِدًا لبواطنهم.

فإذا استولى عليه هذا الشاهدُ، غطَّى عليه كثيرًا من الهموم بالدنيا وما فيها، فهو في وجود، والناسُ في وجودٍ آخَرَ؛ هو في وجود بين يديْ ربِّه ووليِّه، ناظرًا إليه بقلبه، والناسُ في حجاب عالَمِ الشَّهادة في الدنيا، فهو يراهم وهُم لا يرونه، ولا يرون منه إلا ما يُناسب عالَمهم ووجودَهم.

الشعور بمشهد قيومية الله فوق خلقه

ثم يُفْتَح له بابُ الشعور بمشهد القيُّوميَّة، فيرى سائر التقلُّباتِ الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحدَه، فيشهده مالكَ الضر والنفع، والخلْقِ والرزق، والإحياءِ والإماتة، فيتَّخِذُه وحدَه وكيلًا، ويرضى به ربًّا ومدبرًا وكافيًا، وعند ذلك إذا وقع نظرُه على شيء من المخلوقات، دلَّه على خالقه وبارئه، وصفاتِ كماله ونُعوتِ جلالِه، فلا يحجُبُه خلْقُه عنه سبحانه، بل يناديه كلٌّ من المخلوقات بلسان حاله: اسمَعْ شَهادتي لمَن أحسَنَ كلَّ شيء خلَقَه، فأنا صُنعُ الله الذي أتقن كلَّ شيء.

فإذا استمرَّ له ذلك فُتِحَ عليه بابُ القبض والبسط، فيقبض عليه حتى يَجِدَ ألم القبض لقوَّة وارده، ثم يفيض وعاءَه بأنوار الوجود، فيفنى عن وجوده، وينمحي كما يمحو نورُ الشمس نورَ الكواكب، ويُطوى الكونُ عن قلبه، بحيث لا يبقى فيه إلَّا اللهُ الواحد القهار، وتفيض أنوار المعرفة والمعاملة، والصدقِ والإخلاص، والمحبَّةِ من قلبه، كما يفيض نورُ الشمس عن جِرْمها، فيغرق حينئذٍ في الأنوار كما يغرق راكبُ البحر في البحر، وذلك إنما يكون بعد الرياضة والمجاهدة، وزوالِ أحكام الطبيعة، وطولِ الوقوف في الباب.

فإن استمرَّ على حاله واقفًا بباب مولاه، لا يلتفتُ عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا يجيب غيرَ مَن يدْعوه إليه، ويعلم أن الأمر وراءَ ذلك، وأنَّه لم يَصِلْ بعدُ ـ ومتى توهَّم أنه قد وصل، انقطع وانقطع عنه المزيدُ ـ: رُجِيَ أن يُفْتَح له فتحٌ آخر، هو فوقَ ما كان فيه، فيستغرق قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجودِ الحقِّ، ومحْوِ وجودِه هو، ولا تتوهَّمْ أن وجود صفاتِه وذاتِه تَبطُل، بل الذي يَبطُلُ: وجودُه النَّفْسانيُّ

الطَّبْعيُّ، ويبقى له وجودٌ قلبيٌّ رُوحانيٌّ ملَكي، فيبقى قلبُه سابحًا في بحرٍ من أنوار آثار الجلال، فتنبع الأنوار من باطنه، كنَبْعِ الماء من العين، حتى يَجِدَ الملكوت الأعلى كأنه في باطنه وقلبِه، ويَجِدَ قلبَه عاليًا على ذلك كلِّه، صاعدًا إلى مَن ليس فوقَه شيء.

ترقي الصالحين في درجات المحبة والإكرام

ثم يُرقِّيه الله سبحانه، فيُشهده أنوارَ الإكرام بعدما شهِد أنوارَ الجلال، فيستغرق في نورٍ من أنوار أشعة الجمال، وفي هذا المشهد يَذوق المحبَّةَ الخاصَّةَ الملهِبةَ للأرواح والقلوب، فيبقى القلب مأسورًا في يد حبيبه ووليِّه، ممتحنًا بحبه.

وإن شئتَ أن تفهم ذلك تقريبًا، فانظر إليك وإلى غيرك، وقد امتحنت بصورة بديعة الجمال ظاهرًا وباطنًا، فملكتْ عليك قلبَك وفِكرَك، وليلَك ونهارَك، فيحصُلُ له نار من المحبة، فتضرم في أحشائه يعز معها الاصطبار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فيا له مِن قلب ممتحَنٍ مغمورٍ مستغرقٍ بما ظهر له من أشعة أنوار الجمال الأَحَدي، والناس مَفتونون ممتحَنون بما يَفْنى من المال والصور والرياسة، معذَّبون بذلك قبل حصوله، وحال حصوله، وبعد حصوله، وأعلاهم مرتبة: مَن يكون مفتونًا بالحور العين، أو عاملًا على تمتُّعه في الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح، وهذا المحب قد ترقَّى في درجات المحبة على أهل المقامات، ينظرون إليه في الجنة كما ينظرون إلى الكوكب الدُّرِّي الغابر في الأفق؛ لعلوِّ درجتِه، وقُرب منزلته من حبيبه، ومعيَّتِه معه؛ فإنَّ المرء مع مَن أحب، ولكلِّ عملٍ جزاءٌ، وجزاءُ المحبةِ المحبةُ والوصول والاصطناع والقُرب، فهذا هو الذي يصلُح، وكفى بذلك شرفًا وفخرًا في عاجل الدنيا، فما ظنُّك بمقاماتهم العالية عند مليكٍ مُقتدِر؟ فكيف إذا رأيْتَهم في موقف القيامة، وقد أسمَعَهُمُ المنادي: لِيَنطلِقْ كلُّ قوم مع ما كانوا يعبدون، فيبقون في مكانهم ينتظرون معبودَهم وحبيبَهُمُ الذي هو أحبُّ شيءٍ إليهم، حتى يأتيَهم، فينظرون إليه ويتجلَّى لهم ضاحكًا.

ترقية الله تعالى لعبده الصالح طبقًا بعد طبق

والمقصود: أن هذا العبد لا يزال اللهُ يُرقِّيه طبَقًا بعد طبق، ومنزلًا بعد منزل، إلى أن يوصله إليه، ويمكن له بين يديه، أو يموت في الطريق، فيقع أجْرُه على الله، فالسعيد كلُّ السعيد، والموفَّق كل التوفيق: مَن لم يلتفت عن ربِّه تبارك وتعالى يمينًا ولا شمالًا، ولا اتَّخذ سِواه ربًّا ولا وكيلًا، ولا حبيبًا ولا مدبرًا، ولا حكمًا ولا ناصرًا ولا رازقًا.

وجميع ما تقدم من مراتبِ الوصول إنما هي شواهدُ وأمثلة إذا تجلَّتْ له الحقائق في الغيب ـ بحسَب استعداده ولُطفه ورِقَّته من حيث لا يراها ـ ظهر مِن تجلِّيها شاهدٌ في قلبه، وذلك الشاهد دالٌّ عليها ليس هو عينَها، فإن نور الجلال في القلب ليس هو نورَ ذي الجلال في الخارج؛ فإنَّ ذلك لا تقوم له السمواتُ والأرض، ولو ظهر للوجود لتَدَكْدَكَ، لكنَّه شاهدٌ دالٌّ على ذلك، كما أنَّ المَثَل الأعلى شاهد دالٌّ على الذات، والحقُّ وراءَ ذلك كلِّه، مُنزَّهٌ عن حلولٍ واتِّحاد، وممازجةٍ لخلْقه، وإنما تلك رقائقُ وشواهدُ تقوم بقلب العارف، تدلُّ على قُرب الألطاف منه في عالم الغيب حيث لا يراها، فالوصول حق، يَجِدُ الواصل آثارَ تجلِّي الصفات في قلبه، وآثار تجلِّي الحق في قلبه، ويُوقِف القلب فوق الأكوان كلها بين يدي الرب تعالى، وهو على عرشه، ومن هناك يُكاشَف بآثار الجَلال والإكرام، فيجد العرشَ والكرسيَّ تحت مشهدِ قلبِه حُكمًا، وليس الذي يَجِدُه تحتَ قلبِه حقيقةً العرش والكرسيِّ، بل شاهِدٌ ومِثالٌ عِلميٌّ، يدلُّ على قُرْب قلبِه من ربِّه، وقُربِ ربِّه مِن قلبِه، وبيْن الذَّوقينِ تفاوُتٌ، فإذا قرُب الرَّبُّ تعالى من قلب عبدِه، بَقِيَتِ الأكوانُ كلُّها تحتَ مشهدِ قلبِه، وحينئذٍ يطلُع في أُفقِه شمسُ التوحيد.

۞ ۞ ۞



[منزلة التحقيق]

قال [صاحب «المنازل»]: **(التَّحقيقُ: تَلخيصُ مَصْحُوبِكَ مِنَ الحَقِّ، ثُمَّ بالحَقِّ، ثمَّ في الحَقِّ، وهذهِ أسماءُ دَرَجاتِهِ الثَّلاثِ)**.

المصحوب: هو ما يَصحَبُ الإنسانَ في قصدِه ومعرفتِه مِن معلومٍ ومراد.

[و] الحق: هو اللهُ سبحانه، وما كان موصلًا إليه، مُدْنيًا للعبد من رضاهُ.

إذا عُرِفَ هذا: فمصحوبُ العبد من الحقِّ: هو معرفته ومحبَّتُه، وإرادةُ وجهِه الكريم، وما يستعين به على الوصول إليه، وما هو محتاج إليه في سلوكه، فتحقيق ذلك هو تخليصُه من المفسدات القاطعةِ عنه، الحائلةِ بين القلب وبين الموصل إليه، وتحصينُه من المخالطات، وتجريدُه من المشوِّشات؛ فإن تلك قواطعُ له عن مصحوبه الحقِّ، وهي نوعان لا ثالث لهما: عوارضُ محبوبةٌ، وعوارضُ مكروهةٌ.

العوارض والمحن سريعة المرور والتغيير

فصاحبُ مقامِ التحقيق لا يقف مع العوارض المحبوبة؛ فإنها تَقطعُه عن مصحوبه ومطلوبِه، ولا مع العوارض المكروهة؛ فإنها قواطعُ أيضًا، ويتغافَلُ عنها ما أمكنه، فإنها تمرُّ بالمكاثرة والتَّغافُلِ مرًّا سريعًا، لا يوسِّع دوائرَها، فإنه كلَّما وسَّعها اتَّسَعتْ، ووجدتْ مجالًا فسيحًا، فصالتْ فيه وجالت، ولو ضيَّقها بالإعراض عنها والتغافل لَاضْمَحلَّتْ وتلاشت، فصاحب مقامِ التحقيق يَنساها ويَطمسُ آثارها، ويعلم أنها جاءتْ بحُكم المقادير في دار المِحَنِ والآفات.

قال لي شيخ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ مرَّة: «العوارض والمِحَنُ هي

كالحَرِّ والبرد؛ فإذا عَلِم العبدُ أنه لا بدَّ منهما لم يغضب لورودِهما، ولم يَغتَمَّ لذلك، ولم يَحزَن له».

فإذا صبَر العبدُ على هذه العوارضِ ولم ينقطِع بها؛ رُجِيَ له أن يَصِلَ إلى مقامِ التحقيق، فيبقى مع مصحوبه الحقِّ وحدَه، فتتهذَّب نفْسُه، وتطمئنَّ مع الله، وينفطم عن عوائدِ السوء، حتى تغمر محبةُ الله قلبَه ورُوحَه، وتتعوَّد جوارحُه متابعةَ الأوامر، فيُحِسُّ قلبُه حينئذٍ بأثر معيَّة الله معه وتولِّيه له، فيبقى في حركاته وسكناتِه بالله لا بنفْسه، وتَرِدُ على قلبه التعريفاتُ الإلٰهية، وذلك إنما يكون في منزل البقاء بعد الفناء، والظفرِ بالمحبَّة الخاصَّة، ومشهد الإلٰهية والقَيُّوميَّةِ والفَرْدانية؛ فإن على هذه المشاهدِ الثلاثةِ مدارَ المعرفة والوصول.

الفرق بين أحوال العابدين الزاهدين وأحوال العارفين

والمقصود: أنَّ صاحب مقامِ التحقيق يَعرِفُ الحقَّ، ويميِّزُ بينه وبين الباطل، فيتمسَّكُ بالحقِّ، ويُلْغِي الباطل، فهذه مرتبة، ثم يتبيَّنُ له أن ذلك ليس به، بل بالله وحدَه، فيبرأُ حينئذ من حَولِه وقوَّتِه، ويعلم أنَّ ذلك بالحقِّ، ثم يتمكن في ذلك المقام، ويرسخ فيه قلبُه، فيصير تحقيقُه بالله وفي الله.

ففي الأول: تخلَّص له مطلوبُه من غيره، وتجرَّد له مِن سِواه.

وفي الثاني: تخلَّص له إضافتُه إلى غيره، وأن يكون بسِواه سبحانه.

وفي الثالث: تجرَّد له شهودُه وقُصودُه وإراداته، بحيث صارتْ في مطلوبه.

فالأول: سفرٌ إلى الله. والثاني: سفرٌ بالله. والثالث: سفرٌ في الله.

وإنْ أَشكَلَ عليك معنى (السفر فيه) والفرْقُ بينه وبين (السفر إليه)، ففرِّق بين حال العابد الزاهدِ السائر إلى الله، ولم يُفْتَح له في الأسماء والصفاتِ والمعرفةِ الخاصَّةِ والمحبة الخاصة، وبين حال العارفِ الذي قد كُشِفَ له من معرفة الأسماء والصفات والفقه فيها ما حُجِبَ عن غيره.

[منزلة الوجود]

هذا الباب هو العَلَمَ الذي شمَّر إليه القوم، والغايةُ التي قصَدوها، ولا ريبَ أنهم قصدوا معنى صحيحًا، وعبَّروا عنه بالوجود، [و] منه الأثرُ المعروف: «**ابنَ آدَمَ، اطْلُبْني تَجِدْني، فإنْ وجَدْتَني وَجَدْتَ كلَّ شَيءٍ، وإنْ فُتُّك فاتَك كلُّ شَيءٍ، وأنا أحَبُّ إليكَ مِن كلِّ شَيءٍ**»، ومنه الحديثُ: «**أنا عِندَ ظَنِّ عَبْدي بي**»[(١)].

ومنه الأثرُ الإسرائيليُّ: أنَّ موسى قال: يا ربِّ، أين أجِدُكَ؟ قال: عند المُنكَسرةِ قلوبُهم مِن أجْلي[(٢)]. ومنه الحديثُ الصحيح: «**إنَّ اللهَ تعالى يَقولُ يومَ القيامةِ: عَبْدي، استَطْعَمْتُكَ فلمْ تُطْعِمْني، قال: يا ربِّ، كيف أُطْعِمُكَ وأنتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قال: استَطْعَمَكَ عَبْدي فُلانٌ فلمْ تُطْعِمْه، أمَا لو أطْعَمْتَه لوَجَدْتَ ذلك عِندي. عَبْدي، اسْتَسْقَيْتُكَ فلمْ تَسْقِني، قال: يا ربِّ، كيف أسقِيكَ وأنتَ رَبُّ العالَمينَ؟ قال: اسْتَسْقاكَ عَبْدي فُلانٌ فلمْ تَسْقِه، أمَا لو سَقَيْتَه لوَجَدْتَ ذلك عِندي. عَبْدي، مَرِضْتُ فلمْ تَعُدْني، قال: يا ربِّ، كيف أعُودُكَ وأنتَ رَبُّ العالَمينَ؟ قال: مَرِضَ عَبْدي فُلانٌ فلمْ تَعُدْهُ، أمَا لو عُدْتَهُ لوَجَدْتَني عِندَه**»[(٣)].

فتأمَّلْ قولَه في الإطعام والإسقاء: «**لوَجَدْتَ ذلكَ عِندي**»؛ أي: لوجدْتَ جزاءَه وثوابَه عندي، وقولَه في العيادة: «**لوَجَدْتَني عِندَه**»، ولم

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٩١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٧٧)، وأورده السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص١٦٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يقُلْ: لوَجدْتَ ذلك عندي؛ إيذانًا بقُرْبِه من المريض، وأنَّه عنده؛ لذُلِّه وخضوعه، وانكسارِ قلبه، وافتقارِه إلى ربِّه، فأوجب ذلك وجودَ الله عنده، هذا، وهو فوقَ سماواته، مستوٍ على عرشه، بائنٌ مِن خلْقه، وهو عند عبدِه. فوجود العبدِ ربَّه: ظفرُه بالوصول إليه.

أقسام الناس في الوصول إلى الله تعالى

والناس ثلاثة: سالِكٌ، وواصِل، وواجِد.

فإن قُلتَ: اضرِبْ لي مثَلًا، أفهم به معنى الوصول في هذا الباب والوجود.

قُلتُ: إذا بلغك أنَّ بمكان كذا وكذا كَنزًا عظيمًا، مَن ظَفِرَ به، أو بشيء منه، استغنى غِنى الدَّهر، وترحَّل عنه العدمُ والفقر، فتحرَّكَتْ نفْسُه للسَّير إليه، فأخذ في التأهُّب للمسير، فلمَّا جَدَّ به السَّيرُ، انتهى إلى الكَنز ووصل إليه، ولكن لم يَظفَرْ بتحويله إلى داره، وحصولِه عنده بعدُ، فهو واصلٌ غيرُ واجِد، والذي في الطريق سالكٌ، والقاعد عن الطلب منقطِع، وآخِذُ الكَنزِ ـ بحيث حصَل عِندَه، وصار في داره ـ واجِدٌ.

❁ ❁ ❁



[منزلة التَّجريد]

قال [صاحب «المنازل»]: (قال الله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١٢])، أمر بالتجرُّدِ مِنَ النَّعلَينِ في ذلك المكان، وتلك الحال.

وموضع الإشارة: أنَّه أمَرَ موسى عليه السلام بالتَّجرُّدِ من نعليه عند دخول الوادي، فعُلِمَ أن التجرُّدَ شرطٌ للدخول فيما لا يصلُحُ الدخولُ فيه إلا بالتجرُّد.

وعلى هذا: فيُقال لمَن أراد الوصولَ إلى الله سبحانه وتعالى والدخولَ عليه: اخلَعْ مِن قلْبِك ما سِواه، وادخُلْ عليه، وأوَّلُ قدَمٍ تدخُل بها في الإسلام: أن تخلع الأندادَ والأوثانَ التي تُعبَدُ مِن دون الله، وتتجرَّدَ منها، فكأنه قيل له: اطرَحْ عنك ما لا يكون صالحًا للوطْءِ به على هذا البِساط، أو لأنَّ ذلك الوادي لَمَّا كان من أشرفِ الأودية وأطهرِها ـ ولذلك اختاره الله سبحانه على غيره من الأودية لِتكليم نَبيِّه وكليمِه ـ فأمره سبحانه أن يُعظِّم ذلك الوادي بالوطء فيه حافيًا، كما يُوطَأ بِساطُ الملك، وصار ذلك سُنَّةً في بني إسرائيلَ في مواضع صلواتهم وكنائسِهم، وشريعتُنا جاءت بخلاف ذلك؛ فصلَّى النبيُّ صلى الله عليه وسلم في نعليه، وأمَرَ أصحابَه أن يُصَلُّوا في نعالهم، وقال: «**إنَّ اليَهودَ والنَّصارى لا يُصَلُّونَ في نِعالِهِم، فخالِفُوهُم**»[1].



(١) أخرجه أبو داود (٦٥٢)، والحاكم في المستدرك (٩٥٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢١٠).

[منزلة التفريد]

قال صاحب «المنازل»: (**التَّفريدُ: اسْمٌ لتَخلِيصِ الإشارةِ إلى الحَقِّ، ثُمَّ بالحَقِّ، ثمَّ عنِ الحَقِّ**).

فأمَّا تخليصُها: فهو تجريدُها ممَّا يُمازِجُها ويخالِطُها، وأما متعلَّقُها، فثلاثة أمور: الإشارة إلى الحقِّ، وبه، وعنه، فالإشارة إليه: غاية، والإشارة به: وجودٌ ومصاحبة، والإشارة عنه: إخبارٌ وتبليغ، فمَن خلُصتْ إشارتُه إلى الحقِّ كان من المخلصين، ومَن كانت إشارتُه به فهو من الصادقين، ومَن كانت إشارته عنه فهو من المبلِّغين، ومَنِ اجتمعت له الثلاثةُ فهو من الأئمَّة العارفين، فالكمال: أن يشير إليه به عنه، فتخليصُ الإشارة إليه هو حقيقة الإخلاص، وتخليصُ الإشارة به: هو حقيقة الصِّدق، وتخليص الإشارة عنه هو حقيقة المتابعة، وذلك هو مَحضُ الصِّدِّيقيَّة.

فمتى اجتمعتْ هذه الثلاثةُ في العبد، فقد خُلِعَت عليه خلعةُ الصِّدِّيقية، فما كلُّ مَن أشار إلى الله أشار به، ولا كلُّ مَن أشار به أشار عنه، والرُّسلُ ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ هُمُ الذين كمَّلوا المراتبَ الثلاثة، فخلصت إشارتُهم إلى الله، وبه، وعنه، مِن كلِّ شائبة، ثم الأمثَلُ فالأمثلُ على مِنهاجهم.

وما أكثرَ ما تَشتبهُ الإشارةُ إلى الله وبه بالإشارةَ إلى النفْس والإشارةَ بها، فيشير بنفسه وإلى نفسه، ظانًّا أن إشارته بالله وإلى الله، ولا يميِّزُ بين هذا وهذا إلا خواصُّ العارفين، الفقهاء في معرفة الطريق والمقصود، وهاهنا انقطع مَنِ انقطع، واتَّصَل مَنِ اتصل.

فلا إلٰه إلا اللهُ! كم مَن تنوَّع في الإشارة، وبالَغَ ودقَّق، وحقَّق،

ولم تَعْدُ إشارتُه نفْسَه، وهو لا يعلم، أشار بنفسه وهو يظنُّ أنه أشار بربِّه، وإنَّ فلتاتِ لسانِه ورائحةَ كلامِه لَتُنادي عليه: أنا، وبي، وعني.

تخليص الأعمال من شوائب النفوس

فإذا خلُصت الإشارةُ ـ بالله، وإلى الله، وعن الله ـ من جميع الشوائب؛ كانت متَّصِلةً بالله، خالصةً له، مقبولةً لديه، راضيًا بها، وعلى هذا كان حِرصُ السابقينَ الأوَّلين، لا على كثرة العمل، ولا على تدقيق الإشارة، كما قال بعضُ الصحابة: لو أعلم أن الله قَبِلَ مِنِّي عملًا واحدًا، لم يكن غائبٌ أحبَّ إليَّ من الموت.

وليس هذا على معنى أن أعماله كانت لغير الله تعالى، أو على غير سُنَّةِ رسوله ﷺ؛ فشأنُ القوم كان أجَلَّ من ذلك، ولكن على تخليص الأعمال من شوائب النفوس، ومشاركاتِ الحظوظ، فكانوا يخافون ـ لكمال علْمِهم بالله وحقوقِه عليهم ـ أن أعمالهم لم تخلص مِن شوائبِ حظوظِهم، ومشاركاتِ أنفسهم، بحيث تكون متمحِّضةً لله، وبالله، ومأخوذةً عن الله، فمَن وصل له عملٌ واحد على هذا الوجه، وصل إلى الله، والله تعالى شكورٌ؛ إذا رضيَ من العبد عملًا مِن أعماله نجَّاه، وأسعده به، وثمَّرَه له، وبارَكَ له فيه، وأوصله به إليه، وأدخله به عليه، ولم يَقْطَعْه به عنه.

فما أكثرَ المنقطعينَ بالإشارة عن المشار إليه، وبالعبادة عن المعبود، وبالمعرفة عن المعروف! فتكونُ الإشاراتُ والمعارفُ قِبْلَةَ قلْبِه، وغايةَ قصدِه، فيتغذَّى بها، ويجد من الأُنس بها والذَّوقِ والوَجْدِ ما يسكُن قلبُه إليه، ويطمئنُّ به، ويظنُّ أنه الغاية المطلوبة، فيصير قلبُه محبوسًا عن ربِّه وهو لا يشعُر، وتصير نفْسُه راتِعةً في رياض العلومِ والمعارفِ واجدةً لها، وهو يظنُّ أنه قد وصل واتَّصل، وعلى منزل الوجودِ حصَل، فهو دقيق الإشارة، لطيفُ العِبارة، فَقيهٌ في مسائلِ السلوك، وبينه وبين الله حِجابٌ لم ينكشِفْ عنه، وإنما يرتفع هذا الحجابُ بحال التَّجريدِ والتفريد، لا بمجرَّد عِلم ذلك، فبتفريد المعبودِ المطلوب المقصودِ عن غيره، وبتجريد القصدِ والطَّلب، والإرادةِ

والمحبَّة، والخوفِ والرجاء، والإنابةِ والتوكُّلِ عليه، واللَّجَأِ إليه عن الحظوظ وإرادات النفْسِ: ينكشِفُ عن القلب حجابُه، ويَزولُ عنه ظَلامُه، ويطلُع فيه فجرُ التَّوحيد، وتَبزُغُ فيه شمسُ اليقين، وتستبين له الطَّريقُ الغَرَّاء، والمَحَجَّةُ البيضاءُ التي ليلُها كنهارِها.





[منزلة الجَمْع]

يراد بالجَمْع: الجمعُ في الإرادة والطَّلبِ على المراد المطلوبِ وحدَه، وبالتَّفرقةِ: تفرقةُ الهِمَّةِ والإرادة، وهذا هو الجمْعُ الصحيح، والتفرقةُ المذمومة؛ فحدُّ الجمع الصحيح: ما أزال هذه التَّفرقةَ.

[قال صاحب «المنازل»]: (**الجَمْعُ: نِهايةُ مَقاماتِ السَّالِكينَ**).

الجمْع عنده: نهايةُ سفرِ السَّالِكينَ إلى الله، وهذا موضعٌ غيرُ مسلَّم له على إطلاقه؛ وإنما غايةُ مقامات السَّالِكينَ: التوبةُ التي هي بداياتُ منازلهم.

التوبة نهاية كل عارف

فاعلَمِ الآنَ: أنَّ التوبة نهايةُ كلِّ عارف، وغايةُ كلِّ سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية، والحاجة إليها في النهاية أشدُّ من الحاجة إليها في البداية، بل هي في النهاية في محلِّ الضرورة.

فاسمَعِ الآنَ ما خاطبَ اللهُ به رسولَه في آخِرِ الأمرِ عند النهاية، وكيف كان رسولُ الله ﷺ في آخِرِ حياتِه أشدَّ ما كان استغفارًا وأكثرَه، قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التوبة: ١١٧]، وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوةِ تَبوكَ، وهي آخرُ الغزواتِ التي غزاها ﷺ بنفْسِه، فجعَل الله سبحانه التَّوبةَ عليهم شكرانًا لِما تقدَّم من تلك الأعمالِ وذلك الجهاد.

دلالات أمر النبي ﷺ بالاستغفار في آخر أمره

وقال تعالى في آخِرِ ما أنزل على رسوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، وفي «الصحيح»

أنَّه ﷺ ما صلَّى صلاةً ـ بعد ما نزلت عليه هذه السورةُ ـ إلَّا قال: «**سُبحانَكَ اللَّهُمَّ ربَّنا وبحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي**»(١). وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا فهِم منها علماءُ الصحابة ـ كعمرَ بنِ الخطاب، وعبدِ الله بن عباس رضي الله عنهم ـ: أنَّ أجَلَ رسولِ الله ﷺ، أَعْلَمَه اللهُ إيَّاه(٢).

فأمَرَه سبحانه بالاستغفار في نهاية أحوالِه وآخِرِ أمْرِه، أعلى ما كان عليه ﷺ مقامًا وحالًا، وآخر ما سُمِع مِن كلامه عند قدومِه على ربِّه: «**اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، وألْحِقْني بالرَّفيقِ الأعلى**»(٣). وكان ﷺ يختم على كلِّ عمل صالح بالاستغفار، كالوُضوء، والصَّلاة، والحجِّ، والجهاد، فإنه كان إذا فرَغ منه وأشرف على المدينة، قال: «**آيِبُونَ، تائِبونَ، لرَبِّنا حامِدُونَ**»(٤). وشرَع أن يختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلسَ خير وطاعةٍ(٥). وشرع أن يختم العبدُ عملَ يومِه بالاستغفار، فيقول عند النوم: «**أستَغفِرُ اللهَ الَّذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ الحَيَّ القَيُّومَ وأتوبُ إليه**»(٦)، وأن ينام على سَيِّدِ الاستغفار(٧).

نهاية السالكين تكميل مرتبة العبودية صرفًا

والعارف بالله وأسمائِه وصفاته وحقوقِه، يعلم أن العبد أحوجُ ما يكون إلى التوبة في نهايته.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٩٠، ٤٢٩٤).
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٤٠)، ومسلم (٢١٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) أخرجه البخاري (٣٠٨٤)، ومسلم (١٣٤٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٥) أخرجه أبو داود (٤٨٥٩)، وأحمد (١٩٨١٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٨٥٩).
(٦) أخرجه الترمذي (٣٣٩٧)، وقال: «حديثٌ غريب لا نعرِفه إلا من هذا الوجه»، وأحمد (١١٠٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٢٨).
(٧) حديث سيد الاستغفار أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه وليس فيه إشارة إلى ذكره عند النوم.

فالحقُّ: أنَّ نهاية السالكينَ تكميلُ مرتبةِ العبودية صِرْفًا، وهذا ممَّا لا سبيل إليه لبَني الطبيعة، وإنما خُصَّ بذلك الخليلان ـ عليهما الصلاةُ والسلام ـ من بين سائر الخلْق، أمَّا إبراهيمُ الخليلُ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإن الله ﷻ شهِد له بأنَّه وفَّى، وأما سيِّدُ ولدِ آدمَ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه كمَّل مرتبةَ العبودية، فاستحق التقديمَ على سائر الخلائق، وكان صاحبَ الوسيلة والشفاعةِ التي يتأخَّرُ عنها جميعُ الرُّسل، ويقول هو: «**أنا لها**»؛ ولهذا ذكره الله سبحانه وتعالى بالعبودية في أعلى مقاماته وأشرفِ أحواله، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ولهذا يقول المسيح حين يُرْغَب إليه في الشفاعة: «**اذهَبوا إلى محمَّدٍ؛ عَبْدٍ غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تَأخَّرَ**»(١)، فاستحق تلك الرتبةَ العُليا بتكميل عبوديته لله، وبكمال مغفرة الله له.

غاية المقامات ونهايتها: هو التوبة والعبودية المحضة

فرجع الأمرُ إلى أن غاية المقاماتِ ونهايتَها: هو التوبةُ والعبوديةُ المَحْضة، لا جمعُ العين، ولا جمعُ الوجود، ولا تلاشي الاتصال.

فإن قلتَ: فهذا الجمْعُ إنَّما يحصُل لمَن قام بحقيقة التوبةِ والعبودية؟

قيل: ليس كذلك، بل الجمْعُ الذي يحصُل لمَن قام بذلك: هو جمْعُ الرُّسلِ وخلفائِهم، وهو جمعُ الهمَّةِ على الله سبحانه؛ مَحبَّةً وإنابة وتوكُّلًا، وخوفًا ورجاء ومراقبة، وجمعُ الهمة على تنفيذ أوامرِ الله في الخلْق دعوةً وجهادًا، فهما جمْعان: جمْعٌ للقلب على المعبود وحدَه، وجمعٌ له على مَحضِ عبوديته.

فإن قلتَ: فأين شاهدُ هذين الجمعين؟

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢، ٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قلتُ: في القرآن كلِّه؛ فخُذْه من فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، وتأمَّلْ ما في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ من التخصيص لذاته المقدَّسةِ بالعبادة والاستعانة، وما في قوله: الذي هو للحال والاستقبال، وللعبادة الظاهرة والباطنةِ من استيفاء أنواعِ العبادة، حالًا واستقبالًا، قولًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا، والاستعانة على ذلك به لا بغيره، ولهذا كانت الطريقُ كلُّها في هاتين الكلمتين، وهي معنى قولِهم: الطريق في: إيَّاك أُريد بما تُريد، فتجمع المراد في واحد، والإرادة في مراده الذي يُحبُّه ويَرضاه، فإلى هذا دعَتِ الرُّسلُ مِن أولِّهِم إلى آخِرهم، وإليه شخَصَ العامِلون، وتوجَّه المتوجِّهون، وكلُّ الأحوال والمقاماتِ مِن أوَّلِها إلى آخِرها مندرجةٌ في ضِمن ذلك، ومن ثمراته وموجباتِه.

العبودية تجمع كمال الحب في كمال الذل

فالعبودية تَجمعُ كمالَ الحبِّ في كمال الذلِّ، وكمالَ الانقيادِ لمراضي المحبوب وأوامره، فهي الغاية التي ليس فوقَها غايةٌ، وإذا لم يكن إلى القيام بحقيقتها كما يجب سبيلٌ، فالتوبة هي المعوَّل والآخيَّة.

وقد عرَفْتَ ـ بهذا وبغيره ـ أنَّ الحاجة إليها في النهاية أشدُّ من الحاجة إليها في البداية، ولولا تنسُّمُ رَوحها، لحالَ اليأسُ بين ابنِ الماء والطين وبين الوصول إلى ربِّ العالَمين، هذا لو قام بما ينبغي عليه أن يقوم به من حقوق ربِّه وسيِّده، فكيف والغفلةُ والتقصير، والتفريطُ والتهاوُن، وإيثارُ حظوظِه في كثير من الأوقات على حقوق ربِّه لا يكاد يتخلَّصُ منها!





[منزلة التوحيد]

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

التوحيد أوَّلُ دعوةِ الرُّسل، وأوَّلُ منازلِ الطريق، وأوَّلُ مقام يقوم فيه السالكُ إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال هودٌ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال صالحٌ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال شُعيبٌ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

التوحيد مفتاح دعوة الرسل

فالتوحيد: مِفتاح دعوةِ الرُّسلِ؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ لرسوله معاذِ بن جبلٍ رضي الله عنه وقد بعثَه إلى اليمن: «**إنَّك تأتي قومًا أهْلَ كِتابٍ، فلْيَكُنْ أوّلَ ما تَدْعُوهُم إليه: عِبادةُ اللهِ وحْدَه، فإذا شَهِدوا أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فأخبِرْهُم أنَّ اللهَ قد فَرَضَ عليهِم خَمْسَ صَلَواتٍ في اليومِ واللَّيلةِ...**» وذكر الحديثَ[(١)].

فالتوحيد: أوَّلُ ما يدخلُ به في الإسلام، وآخِرُ ما يخرجُ به من الدنيا، كما قال النبيُّ ﷺ: «**مَن كان آخِرُ كَلامِه: لا إلٰهَ إلّا اللهُ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ**»[(٢)]؛ فهو أوَّلُ واجب، وآخِرُ واجب، فالتوحيد: أوَّلُ الأمر وآخِرُه.

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨، ٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٠٣٤، ٢٢١٢٧)، والحاكم (١٢٩٩، ١٨٤٢)، وقال: «حديثٌ صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.

أنواع التوحيد

وأمَّا التوحيد الذي دعتْ إليه رُسُلُ الله، ونزلت به كتُبُه فنَوعانِ: توحيدٌ في المعرفة والإثبات، وتوحيدٌ في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذاتِ الربِّ تعالى، وأسمائه، وصفاتِه، وأفعاله، وعلُوِّه فوقَ سماواته على عرشه، وتكلُّمِه بكتبه، وتكليمِه لمَن شاء مِن عباده، وإثباتُ عموم قضائه، وقدَرِه، وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدَّ الإفصاح.

كما في أوَّل سورة الحديد، وسورةِ طه، وآخِر الحشر، وأول سورة «تنزيل» السجدة، وأوَّل سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك.

النوع الثاني: مِثل ما تضمَّنَتْه سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية، وأوَّلُ سورة «تنزيل الكتاب» وآخرُها، وأوَّلُ سورةِ يونسَ ووسَطُها وآخِرُها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام وغالب سور القرآن، بل كلُّ سورة في القرآن فهي متضمِّنةٌ لنوعَي التوحيد.

بل نقول قولًا كُليًّا: إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمِّنةٌ للتوحيد، شاهدة به، داعيةٌ إليه؛ فإن القرآن: إمَّا خبرٌ عن الله، وأسمائه وصفاتِه وأفعاله، فهو التوحيد العِلميُّ الخبَريُّ، وإمَّا دعوة إلى عبادته وحدَه لا شريك له، وخلْعِ كلِّ ما يُعْبَد مِن دونه، فهو التوحيد الإراديُّ الطلَبيُّ، وإمَّا أمرٌ ونهيٌ، وإلزامٌ بطاعته في نهيه وأمرِه، فهي حقوقُ التوحيد ومكمِّلاتُه، وإمَّا خبرٌ عن إكرامه لأهل توحيدِه وطاعته، وما فعَل بهم في الدنيا، وما يُكرِمُهم به في الآخرة، فهو جزاءُ توحيده، وإمَّا خبرٌ عن أهل الشرك، وما فُعِلَ بهم في الدنيا من النَّكال، وما يحلُّ بهم في العُقبى من العذاب، فهو جزاءُ مَن خرج عن حُكم التوحيد.

مراتب التوحيد

فالقرآن كلُّه في التوحيد وحقوقِه وجزائه، وفي شأن الشِّركِ وأهلِه وجزائهم؛ فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: ٢] توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة: ٣] توحيد،

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: ٤] توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ توحيد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة: ٥] توحيد، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: ٦] توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٧] الذين فارقوا التوحيد.

ولذلك شهِدَ الله لنفْسِه بهذا التوحيد، وشهِد له به ملائكتُه، وأنبياؤه ورسُلُه، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

فتضمَّنتْ هذه الآية الكريمةُ إثباتَ حقيقةِ التوحيد، والرَّدَّ على جميع هذه الطوائف، والشهادةَ ببطلان أقوالهم ومذاهبهم، وهذا إنما يتبيَّن بعد فَهم الآية وبيانِ ما تضمَّنته من المعارف الإلٰهية، والحقائقِ الإيمانية.

فتضمنت هذه الآيةُ: أجلَّ شهادة، وأعظمَها، وأعدلَها، وأصدقها، مِن أجلِّ شاهد، بأجلِّ مشهود به.

وعبارات السَّلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء، والإعلامِ والبيان، والإخبار؛ قال مجاهد: «حَكَم، وقضَى». وقال الزَّجَّاج: «بيَّن». وقالت طائفة: «أعلَمَ وأخبَرَ».

مراتب الشهادة وأركانها

وهذه الأقوال كلُّها حقٌّ لا تنافيَ بينها؛ فإن الشهادة تتضمَّنُ كلامَ الشاهدِ وخبرَه، وقولَه، وتتضمن إعلامه، وإخبارَه وبيانه، فلها أربعُ مراتبَ؛ فأوَّلُ مراتبِها: عِلم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته، وثانيها: تكلُّمه بذلك، ونُطقُه به، وإن لم يُعْلِم به غيرَه، بل يتكلم بها مع نفسه ويذكرها، ويَنطِق بها أو يَكتُبها، وثالثها: أن يُعلِم غيرَه بما شهِد به، ويُخبِرَه به، ويبيِّنَه له، ورابعها: أن يُلزِمه بمضمونها ويأمُرَه به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيامِ بالقسط: تضمَّنتْ

هذه المراتبَ الأربعة: علمه سبحانه بذلك، وتكلُّمه به، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

وإذا كانت شهادتُه سبحانه تتضمَّنُ بيانَه للعباد، ودَلالتَهم وتعريفَهم بما شهِد به، وإلَّا فلو شهِد شهادة لم يتمكَّنوا من العِلم بها: لم ينتفعوا، ولم تقُم عليهم بها الحُجَّةُ، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادةٌ ولم يبيِّنْها، بل كتمها؛ لم ينتفِعْ بها أحد، ولم تَقُمْ بها حُجَّة، وإذا كان لا يُنتفع بها إلا ببيانها، فهو سبحانه قد بيَّنها غايةَ البيان بطُرُقٍ ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أمَّا السَّمع: فبسمع آياته المتلوَّةِ القَوليةِ المتضمِّنةِ لإثبات صفاتِ كماله ونعوتِ جلاله، وعلوِّه على عرشه فوق سبع سماواته، وتكلُّمِه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده تكلُّمًا وتكليمًا، حقيقة لا مجازًا.

وفي هذا إبطالٌ لقولِ مَن قال: إنه لم يُرِد من عباده ما دلَّت عليه آياتُه السَّمعية من إثبات معانيها وحقائقها، التي وُضِعَت لها ألفاظها؛ فإنَّ هذا ضدُّ البيان والإعلام، ويعودُ على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان.

وقد ذمَّ الله مَن كتم شهادة عنده من الله، وأخبر أنَّه مِن أظلم الظالمين؛ فإذا كانت عند العبد شهادة من الله تحقَّق ما جاء به رسولُه من أعلام نبوَّته، وتوحيد الرسل، وأنَّ إبراهيم وأهلَ بيته كانوا على الإسلام كلُّهم، وكتم هذه الشهادة: كان مِن أظلم الظالمين ـ كما فعله أعداءُ رسول الله ﷺ من اليهود، الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ـ فكيف يُظن بالله سبحانه أنه كتَم شهادةَ الحق التي يَشهدُ بها الجهميةُ والمعتزلةُ والمعطِّلة، ولا يشهد بها لنفْسِه، ثم يَشهد لنفْسِه بما يضادها ويناقضها، ولا يجامعها بوجهٍ ما؟! سبحانك هذا بُهتانٌ عظيم!

فإنَّ الله سبحانه شهِد لنفسه بأنه استوى على العرش، وبأنه القاهرُ فوق عباده، وبأنَّ ملائكتَه يخافونه مِن فوقهم، وأنَّ الملائكةَ تَعرُج إليه بالأمر، وتنزل من عنده به، وأن العمل الصالح يَصعَد إليه، وأنه يأتي

ويجيء، ويتكلَّم، ويرضى ويغضب، ويحب ويكره، وينادي، ويَفرح ويَضحَك، وأنه يسمع ويبصر، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم المعاد، إلى غير ذلك ممَّا شهِد به لنَفْسِه، وشهِد له به رُسلُه، وشهدتْ له الجهميةُ بضدِّ ذلك، وقالوا: شهادتُنا أصحُّ وأعدل من شهادة النصوص؛ فإنَّ النصوص تضمَّنت كتمان الحق وإظهار خلافه!

فشهادةُ الرَّبِّ تعالى: تُكذِّب هؤلاء أشدَّ التكذيب، وتتضمَّن أنَّ الذي شهِد به بيَّنه وأوضحه وأظهره، حتى جعله في أعلى مراتبِ الظهور والبيان، وأنه لو كان الحقُّ فيما يقوله المعطلة والجهمية، لم يكن العبادُ قد انتفعوا بما شهِد به سبحانه؛ فإنَّ الحق في نفس الأمر ـ عندهم ـ لم يشهد به لنفسه، والذي شهد به لنفسه، وأظهره وأوضحه، فليس بحق، ولا يجوز أن يُستفاد منه الحق واليقين.

وأمَّا آياته العِيانية الخلقية، والنظر فيها والاستدلال بها: فإنها تدلُّ على ما تدلُّ عليه آياتُه القوليَّةُ السمعيَّةُ، وآيات الربِّ هي دلائلُه وبراهينه التي بها يَعرِفه العباد، ويَعرفون أسماءَه وصِفاتِه، وتوحيده، وأمْرَه ونهيه، فالرسل تُخبِرُ عنه بكلامه الذي تكلَّم به، وهو آياته القَولية، ويَستدِلُّون على ذلك بمفعولاته التي تَشهَدُ على صحَّة ذلك، وهي آياته العِيانية، والعقل يَجمَعُ بين هذه وهذه، فيَجزم بصحَّةِ ما جاءت به الرُّسلُ، فتتَّفِقُ شهادةُ السمعِ والبصر والعقل والفِطرة، وهو سبحانه ـ لكمال عدله ورحمتِه، وإحسانِه وحكمته، ومحبَّتِه للعذر، وإقامتِه للحُجَّة ـ لم يبعث نبيًّا من الأنبياء إلَّا ومعه آيةٌ تدلُّ على صدقِه فيما أخبر به؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ

فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٣، ١٨٤].

حتى إنَّ مِن أخفى آياتِ الرسلِ آياتِ هودٍ ﵇، حتى قال له قومُه: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، ومع هذا فبيِّنَتُه مِن أظهر البيِّنات، وقد أشار إليها بقوله: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، فهذا مِن أعظم الآيات: أنَّ رجُلًا واحدًا يخاطِبُ أُمَّةً عظيمةً بهذا الخطاب، غيرَ جَزِعٍ ولا فزِعٍ، ولا خوَّار، بل واثقٌ ممَّا قاله، جازمٌ به، فأشهدَ اللهَ أوَّلًا على براءته من دِينهم، ومما هم عليه إشهادَ واثقٍ به، مُعتمِدٍ عليه، مُعْلِمٍ لقومه أنَّه وليُّه وناصرُه، وأنه غيرُ مسلِّطِهم عليه.

ثم أشهدَهم إشهادَ مجاهرٍ لهم بالمخالفة: أنَّه بريءٌ من دينهم وآلهتِهم، التي يوالون عليها ويعادون، ويَبذُلون دماءَهم وأموالَهم في نصرتها.

ثم أكَّد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارِهم وازدرائِهم، وكونهم لو يجتمعون كلُّهم على كَيدِه، وشفاءِ غيظهم منه، ثم يعاجِلونه ولا يُمهِلونه، وفي ضِمن ذلك: أنكم أضعفُ وأعجزُ وأقلُّ من ذلك، وأنكم لو رُمْتُموه لانقلبْتُم بغَيظِكم مكبوتين مَخذولين.

ثم قرَّر دعوته أحسَنَ تقرير، وبيَّن أن ربه تعالى وربَّهم، الذي نواصيهم بيده: هو وليُّه ووكيلُه، القائمُ بنصره وتأييدِه، وأنَّه على صراط مستقيم، فلا يَخذُلُ مَن توكَّل عليه وآمَنَ به، ولا يُشمِتُ به أعداءَه، ولا يكون معهم عليه؛ فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه في قوله وفعلِه يمنع ذلك ويَأْباه.

وتحتَ هذا الخِطاب: أنَّ مِن صراطه المستقيم أنْ ينتقم ممَّن خرج عنه وعمِل بخلافه، ويُنزِل به بأسَه؛ فإن الصراط المستقيم هو العدلُ

الذي عليه الرَّبُّ تعالى، ومنه انتقامُه من أهل الشرك والإجرام، ونصْرُه أولياءَه ورُسُلَه عليهم، وأنه يَذهَبُ بهم، ويَستخلِفُ قومًا غيرَهم، ولا يَضُرُّه ذلك شيئًا، وأنَّه القائمُ سبحانه على كل شيء حِفْظًا ورعايةً، وتدبيرًا وإحصاء.

فأيُّ آيةٍ وبرهانٍ ودليلٍ أحسَنُ من آيات الأنبياء وبراهينِهم وأدلَّتِهم؟! وهي شهادة من الله سبحانه لهم، بيَّنها لعباده غايةَ البيان، وأظهرها لهم غايةَ الإظهار بقوله وفعلِه، وفي «الصَّحيح» عنه ﷺ أنه قال: **«ما مِن نَبيٍّ مِنَ الأنبياءِ إلَّا وقد أُوتيَ مِنَ الآياتِ ما آمَنَ على مِثْلِه البَشَرُ، وإنَّما كان الَّذي أُوتيتُه وَحْيًا أوحاهُ اللهُ إليَّ، فأرجو أنْ أكُونَ أكثَرَهُم تابِعًا يَومَ القيامةِ»**[(١)].

ومِن أسمائه تعالى: المؤمنُ، وهو - في أحد التفسيرين - المصدِّق الذي يُصدِّقُ الصادقين بما يُقيم لهم مِن شواهدِ صدقِهم، فهو الذي صدَّق رسلَه وأنبياءَه فيما بلَّغوا عنه، وشهِد لهم بأنهم صادقون بالدَّلائلِ التي دلَّ بها على صِدْقِهم قضاءً وخلْقًا، فإنه سبحانه أخبر - وخبرُه الصِّدقُ، وقولُه الحقُّ - أنه لا بد أن يُرِيَ العبادَ من الآيات الأُفُقيَّةِ والنَّفْسيَّةِ ما يُبيِّن لهم أن الوحيَ الذي بلَّغَتْه رسُلُه حقٌّ؛ فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أي: القرآن؛ فإنه هو المتقدِّمُ في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢]، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت: ٥٣]، فشهِد سبحانه لرسوله بقوله: أن ما جاء به حقٌّ، ووعَدَه أن يُرِيَ العباد من آياته الفِعليَّةِ الخلْقيَّةِ ما يَشهَدُ بذلك أيضًا، ثم ذكر ما هو أعظمُ مِن ذلك وأجلُّ، وهو شهادته سبحانه على كلِّ شيء؛ فإن من أسمائه (الشَّهيدَ) الذي لا يغيب عنه شيءٌ، ولا يَعزُبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، بل هو

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مطَّلِعٌ على كل شيء، مشاهِدٌ له، عليمٌ بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاتِه، والأوَّلُ استدلال بقوله وكلماتِه، والاستدلال بالآيات الأُفُقيَّةِ والنَّفْسيَّةِ استدلالٌ بأفعاله ومخلوقاتِه.

الاستدلال بأسماء الله وصفاته على كماله وعظمته

فإن قلتَ: قد فهِمتُ الاستدلالَ بكلماته والاستدلالَ بمخلوقاته، فبيِّنْ لي كيفيةَ الاستدلال بأسمائه وصفاتِه؛ فإن ذلك أمرٌ لا عهْدَ لنا به في تخاطُبِنا وكُتُبِنا.

قلت: أجَلْ، هو لعَمْرُ اللهِ كما ذكرتَ، وشأنُه أجلُّ وأعلى؛ فإن الرَّبَّ تعالى هو المدلولُ عليه، وآياتُه هي الدليل والبرهان.

فاعلَم أنَّ الله سبحانه في الحقيقة هو الدالُّ على نفْسِه بآياته؛ فهو الدليلُ لعباده في الحقيقة بما نَصَبه لهم من الدَّلالات والآيات، وقد أودع في الفِطَر التي لم تتنجَّسْ بالتعطيل والجحود: أنه سبحانه الكاملُ في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوفُ بكلِّ كمال، المُنَزَّهُ عن كل عيبٍ ونقص، فالكمال كلُّه، والجمالُ والجلالُ والبهاء، والعزَّةُ والعظَمةُ والكبرياء: كلُّه من لوازم ذاتِه، يستحيل أن يكون على غير ذلك، فالحياة كلُّها له، والعِلم كلُّه له، والقدرة كلُّها له، والسمع والبصرُ والإرادة، والمشيئةُ والرحمة والغِنى، والجُودُ والإحسان والبِرُّ، كلُّه حاضر له قائمٌ به، وما خفِيَ على الخلْق مِن كماله أعظمُ، وأعظمُ ممَّا عرَفوه منه، بل لا نِسبةَ لِما عرَفوه من ذلك إلى ما لم يَعرِفوه.

ومِن كماله المقَدَّس: اطِّلاعُه على كلِّ شيء، وشهادتُه عليه، بحيث لا يَغيب عنه وجهٌ من وجوه تفاصيلِه، ولا ذرَّةٌ من ذرَّاته، باطنًا وظاهرًا، ومَن هذا شأنُه: كيف يليق بالعِباد أن يُشرِكوا به، وأن يَعبدوا معه غيرَه، ويجعلوا معه إلهًا آخرَ؟! وكيف يليق بكماله أن يُقِرَّ مَن يَكذِبُ عليه أعظمَ الكذب، ويخبرُ عنه بخلاف ما الأمرُ عليه، ثم يَنصُرُه على ذلك ويؤيِّده، ويُعلي كلمتَه، ويرفع شأنَه، ويجيب دعوتَه، ويُهلِكُ عدوَّه، ويُظهِرُ على يديه من الآيات والبراهينِ والأدلَّةِ ما تعجزُ عن مِثله قوى البشر، وهو ـ مع ذلك ـ كاذبٌ عليه مُفْتَرٍ، ساعٍ في الأرض بالفساد؟!

ومعلومٌ أنَّ شهادته سبحانه على كلِّ شيء، وقُدرتَه على كلِّ شيء، وحِكمته وعِزَّته وكمالَه المقدَّس يأبى ذلك كلَّ الإباء، ومَن ظنَّ ذلك به، وجوَّزه عليه: فهو مِن أبعدِ الخلْق عن معرفته، وإنْ عرَف منه بعضَ صفاته، كصفة القدرة وصفةِ المشيئة.

والقرآن مملوءٌ من هذه الطريق، وهي طريق الخاصة، بل خاصَّةُ الخاصَّةِ هم الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعلَه.

وإذا تدبَّرتَ القرآنَ رأيْتَه ينادي على ذلك، ويُبديه ويُعيده لمَن له فَهمٌ وقلبٌ واعٍ عن الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، أفلا تراه كيف يخبر سبحانه: أن كماله وحكمتَه وقدرتَه تأبى أن يُقِرَّ مَن تَقوَّل عليه بعضَ الأقاويل؟ بل لا بد أن يجعله عِبرةً لعباده، كما جرَتْ بذلك سُنَّتُه في المتقوِّلينَ عليه، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾ [الشورى: ٢٤]، هاهنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبَر خبرًا جازمًا غيرَ معلَّق: أنه ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ [الأنعام: ٩١]، فأخبر أنَّ من نفى عنه الإرسال والكلامَ لم يَقْدُره حقَّ قدْرِه، ولا عرَفه كما ينبغي، ولا عظَّمه كما يستحق، فكيف مَن ظنَّ أنه ينصر الكاذبَ المفتري عليه ويؤيِّدُه، ويُظهِرُ على يديه الآياتِ والأدلةَ؟! وهذا في القرآن كثير جدًّا، يَستدِلُّ بكماله المقدَّس، وأوصافِه وجلاله على صِدقِ رسُلِه، وعلى وعدِه ووعيده، ويَدْعو عبادَه إلى ذلك، كما يَستدِلُّ بأسمائه وصفاته على وحدانيَّتِه، وعلى بطلان الشِّرك، كما في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٣]، وأضعافُ أضعافِ ذلك في القرآن.

ويَستدِلُّ سبحانه بأسمائه وصفاتِه على بطلان ما نُسِبَ إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأنَّ كماله المقدَّسَ يَمنَعُ مِن شرْعها، كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقولِه عَقِيبَ ما نهى عنه وحرَّمه مِنَ الشِّرك والظُّلْم والفواحشِ والقولِ عليه بلا عِلم: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨]، فأعلمك أنَّ ما كان سيئةً في نفْسِه فهو يَكرَهُه، وكمالُه يأبى أن يجعله شرعًا له ودِينًا، فهو سبحانه يدلُّ عبادَه بأسمائه وصفاتِه على ما يفعله ويأمُرُ به، ويُحِبُّه ويُبغِضه، ويُثِيب عليه ويعاقِبُ عليه، ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلَّا خاصَّةُ الخاصة، فلذلك كانت طريقُ الجمهورِ الدلالةَ بالآيات المشاهَدة؛ فإنَّها أوسعُ وأسهل تناوُلًا، والله سبحانه يفضِّل بعضَ خلْقِه على بعض، ويرفعُ درجاتِ مَن يَشاءُ، وهو العليم الحكيم.

فضائل القرآن العظيم وشهاداته وتقريراته

فالقرآن العظيمُ قد اجتَمعَ فيه ما لم يجتمِعْ في غيره؛ فإنَّه هو الدَّعوةُ والحجَّة، وهو الدليل والمدلولُ عليه، وهو الشاهد والمشهودُ له، وهو الحكم والدَّليل، وهو الدَّعوى والبيِّنة؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]؛ أي: من ربِّه، وهو القرآن. وقال تعالى لمَن طلب آيةً تدلُّ على صِدقِ رسولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥١ ـ ٥٢]، فأخبر سبحانه أن الكتابَ الذي أنزله على رسولِه يكفي عن كلِّ آية؛ ففيه الحُجَّةُ والدلالةُ على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسولَه، وفيه بيانُ ما يوجِب لمَنِ اتَّبعه السعادة، ويُنجيه من العذاب، ثم قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، فإذا كان الله سبحانه عالِمًا بجميع الأشياء، كانت شهادتُه أصدقَ شهادةٍ وأعدلَها،

فإنَّها شهادةٌ بعِلمٍ تامٍّ، محيطٍ بالمشهود به، فيكون الشاهدُ به أعدلَ الشُّهداءِ وأصْدَقَهم، وهو سبحانه يَذكُرُ عِلمَه عند شهادته، وقدرتَه وملكَه عند مجازاته، وحِكمتَه عند خلْقِه وأمْرِه، ورحمتَه عند ذكرِ إرسالِ رسولِه، وحِلمَه عند ذكر ذنوبِ عبادِه ومعاصيهم، وسَمْعَه عند ذكر دعائِهم ومسألته، وعزَّتَه وعِلْمَه عند قضائه وقدَرِه.

فتأمَّلْ ورودَ أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطَها بالخلْق والأمرِ والثوابِ والعقاب.

* * *

الاستشهاد على الرسالة بشهادة الله له

ومِن هذا قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرعد: ٤٣]، فاستشهد على رسالته بشهادة الله له.

ولا بدَّ أن تُعلمَ هذه الشَّهادةُ، وتَقومَ بها الحجَّةُ على المكذِّبين له، وكذلك قولُه: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكذلك قولُه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النساء: ١٦٦]، وكذلك قولُه: ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣﴾ [يس: ١ ـ ٣]، وقولُه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة: ٢٥٢] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: ١]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فهذا كلُّه شهادةٌ منه لرسوله، قد أظهرها وبيَّنها، وبيَّن صحَّتَها غايةَ البيان، بحيث قطَع العذرَ بيْنه وبين عبادِه، وأقام الحجَّةَ عليهم.

ومِن شهادته أيضًا: ما أودعه في قلوب عبادِه: من التصديق الجازم، واليقينِ الثابت، والطُّمأنينة بكلامه ووحْيِه؛ فإن العادة تُحيل حصولَ ذلك بما هو مِن أعظم الكذبِ والافتراء على ربِّ العالَمين، والإخبارِ عنه بخلاف ما هو عليه مِن أسمائه وصفاته، بل ذلك يوقع أعظمَ الرَّيبِ والشَّك، وتَدفَعُه الفِطَرُ والعقولُ السليمة، كما تدفع الفِطَرُ

التي فُطِر عليها الحيوانُ الأغذيةَ الخبيثة الضارَّةَ التي لا تُغذِّي، كالأبوال والأنتان؛ فإن الله سبحانه فَطَر القلوبَ على قَبول الحقِّ، والانقيادِ له، والطُّمأنينة به، والسُّكونِ إليه ومحبَّتِه، وفَطَرَها على بُغضِ الكذبِ والباطل، والنُّفورِ عنه، والرِّيبةِ به، وعدمِ السُّكونِ إليه.

ثمرات تدبُّر القرآن

ولو بَقِيَتِ الفِطَرُ على حالها لَما آثَرَتْ على الحقِّ سِواه، ولَما سكنتْ إلَّا إليه، ولا اطمأنَّت إلا به، ولا أحبَّتْ غيرَه، ولهذا نَدَبَ اللهُ ﷻ عبادَه إلى تدبُّر القرآن؛ فإنَّ كلَّ مَن تدبَّره أوجب له تدبُّرُه عِلمًا ضروريًّا، ويقينًا جازمًا: أنه حقٌّ وصِدْقٌ، بل أحقُّ كلِّ حق، وأصْدَقُ كلِّ صِدق، وأن الذي جاء به أصدقُ خلْقِ الله، وأبَرُّهم، وأكملُهم عِلمًا وعملًا ومعرفة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

فلو رُفعَتِ الأقفالُ عن القلوب لَباشرتْها حقائقُ القرآن، واستنارتْ فيها مصابيحُ الإيمان، وعَلِمَتْ عِلْمًا ضروريًّا يكون عندها كسائر الأمور الوِجْدانية ـ من الفرح، والألم، والحبِّ، والخوف ـ أنه مِن عند الله، تكلَّم به حقًّا، وبلَّغه رسولُه جِبريلُ عليه السلام عنه إلى رسوله محمد ﷺ، فهذا الشاهد في القلب مِن أعظم الشواهد، وبه احتجَّ هِرَقْلُ على أبي سُفيانَ؛ حيث قال له: «**فهل يَرتَدُّ أحدٌ منهم سَخْطةً لدِينه بعد أن يَدخُلَ فيه؟ فقال: لا، فقال له: وكذلك الإيمانُ إذا خالَطَتْ حَلاوتُه بَشاشةَ القلوبِ لا يَسخَطُه أحَدٌ**»[1].

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الحج: ٥٤]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ﴾ [الرعد: ١٩].

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان رضي الله عنه.

أقسام الموحدين

لا ريبَ أنَّ أهلَ التوحيد متفاوِتون في توحيدهم ـ عِلمًا ومعرفةً وحالًا ـ تفاوُتًا لا يُحصيه إلَّا الله، فأكملُ الناسِ توحيدًا: الأنبياءُ صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسَلون منهم أكملُ في ذلك، وأولو العَزمِ مِنَ الرُّسل أكملُ توحيدًا، وهُم: نوح، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى ومحمدٌ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين.

وأكملُهم توحيدًا: الخليلان محمدٌ وإبراهيمُ، صلواتُ الله وسلامُه عليهما؛ فإنهما قامَا من التوحيدِ بما لم يَقُمْ به غيرُهما؛ عِلمًا ومعرفة وحالًا، ودعوةً للخلْق وجِهادًا، فلا توحيد أكملُ مِن الذي قامت به الرُّسُل، ودعوْا إليه، وجاهَدوا الأُممَ عليه؛ ولهذا أمَر اللهُ سبحانه نبيَّه ﷺ أن يقتديَ بهم فيه، كما قال سبحانه بعد ذِكرِ إبراهيمَ ومناظرتِه أباه وقومَه في بطلان الشِّركِ وصحَّةِ التوحيد، وذِكرِ الأنبياء من ذرِّيَّتِه، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

اتِّباعُ مِلة إبراهيم ودين محمد سبيلُ الفلاح

ولمَّا قاموا بحقيقته ـ عِلمًا وعملًا، ودعوة وجهادًا ـ جعلَهم الله أئمَّةً للخلائق، يَهدُون بأمْره، ويَدْعون إليه، وجعَلَ الخلائقَ تبعًا لهم، يأتمرون بأمْرهم، وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده، وخصَّ بالسعادة والفلاح والهدى أتباعَهم، وبالشَّقاء والضَّلالِ مخالفيهم، وقال لإمامهم وشيخِهم إبراهيمَ خليلِه: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]؛ أي: لا ينال عهدي بالإمامةِ مشركٌ، ولهذا أوصى نبيَّه محمدًا ﷺ أن يتَّبعَ ملَّة إبراهيمَ، وكان يُعلِّمُ أصحابَه إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أصبَحْنا على فِطْرةِ الإسلام، وكَلِمةِ الإخلاصِ، ودِينِ نَبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ، ومِلَّةِ أبينا إبراهيمَ، حَنيفًا مُسْلِمًا، وما كان مِنَ المُشرِكينَ**»(١).

(١) أخرجه أحمد (٥٣٦٤)، والدارمي (٢٧٣٠) من حديث عبد الرحمٰن بن =

فمِلَّة إبراهيمَ: التوحيد، ودِينُ محمد: ما جاء به من عند الله قولًا وعملًا واعتقادًا، وكلمة الإخلاص: هي شهادة أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ، وفِطرةُ الإسلام: هي ما فَطَرَ الله عليه عِبادَه مِن محبَّتِه وعبادته وحدَه لا شريك له، والاستِسلامِ له عبوديَّةً وذُلًّا، وانقيادًا وإنابةً.

* * *

الجمع الصحيح

الجمْع الصحيحُ الذي عليه أهلُ الاستقامة: هو جمْعُ توحيد الربوبية، وجمْعُ توحيد الإلٰهية، فيشهد صاحبُه قَيُّوميَّةَ الرب تعالى فوق عرشه، يُدبِّرُ أمْرَ عِبادِه وحدَه، فلا خالق ولا رازقَ، ولا مُعطيَ ولا مانع، ولا مميتَ ولا مُحْييَ، ولا مدبِّرَ لأمر المملكة ظاهرًا وباطنًا: غيرُه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرَّكُ ذَرَّةٌ إلَّا بإذنه، ولا يجري حادث إلَّا بمشيئته، ولا تَسقُطُ ورقة إلَّا بعِلمه، ولا يَعزُبُ عنه مِثقالُ ذرَّةٍ في السموات ولا في الأرض، ولا أصغرُ مِن ذلك ولا أكبرُ، إلَّا وقد أحصاها عِلمُه، وأحاطت بها قدرتُه، ونفذتْ بها مشيئتُه، واقتضَتْها حِكمتُه، فهذا جمْعُ توحيد الربوبية.

وأما جمْعُ توحيدِ الإلٰهية، فهو: أن يجمع قلبه وهَمَّه وعزمَه على الله، وإرادتَه وحركاتِه على أداء حقِّه تعالى، والقيامِ بعبوديته سبحانه، فتجتمع شؤونُ إرادته على مرادِه الدِّينيِّ الشَّرعيِّ.

وهذان الجَمْعان هما حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإن العبد يشهد من قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ الذاتَ الجامعةَ لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى، ثم يَشهَدُ من قوله: ﴿نَعۡبُدُ﴾ جميعَ أنواع العبادة ظاهرًا وباطنًا، قصدًا، وقولًا وعملًا، وحالًا واستقبالًا، ثم يشهد من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] جميعَ أنواع الاستعانة، والتوكُّلِ والتفويض، فيَشهَدُ منه جمْعَ الربوبية، ويشهد من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] جمع الإلٰهية، ويشهد

= أبزى رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦٧٤).

من ﴿إِيَّاكَ﴾ الذاتَ الجامعةَ لكلِّ الأسماء الحسنى والصِّفاتِ العُلى.

مراتب الهداية

ثم يشهد من ﴿ٱهْدِنَا ۝٦﴾ عشْرَ مراتبَ، إذا اجتمعت حصلتْ له الهدايةُ:

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان، فيجعله عالمًا بالحق مُدرِكًا له.

الثانية: أن يُقدِرَه عليه، وإلا فهو غير قادر بنفْسه.

الثالثة: أن يجعله مريدًا له.

الرابعة: أن يجعله فاعلًا له.

الخامسة: أن يُثبِّتَه على ذلك، ويَستمِرَّ به عليه.

السادسة: أن يَصرِف عنه الموانعَ والعوارض المضادَّةَ له.

السابعة: أن يَهدِيَه في الطريق نفْسِها هداية خاصَّةً، أخصَّ من الأُولى؛ فإن الأُولى هدايةٌ إلى الطريق إجمالًا، وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلًا.

الثامنة: أن يُشهِده المقصود في طريقه، ويُنَبِّهَه عليه، فيكون مطالعًا له في سَيرِه، ملتفتًا إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشهِدَه فقره وضرورتَه إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشهِدَه الطريقين المنحرفينِ عن طريقها، وهُمَا: طريق أهل الغضب، الذين عدَلوا عن اتِّباع الحق قصْدًا وعنادًا، وطريقُ أهل الضلال الذين عدَلوا عنها جهلًا وضلالًا، ثم يشهد جمْع الصراط المستقيم في طريق واحد عليه جميعُ أنبياء الله ورسله، وأتباعُهم مِنَ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالِحينَ.

فهذا هو الجمْع الذي عليه رُسُلُ الله وأتباعُهم، فمَن حصَل له هذا الجمعُ، فقد هُدِيَ إلى الصراط المستقيم، والله أعلم.

سمات التوحيد الحق

والتوحيد الحقُّ هو ما نَعَتَ اللهُ به نفْسَه على ألسنة رُسُلِه، فهُم لم يَنعَتُوه مِن تِلقاء أنفسهم، وإنما نعتوه بما أذِنَ لهم في نعْتِه به، وقد صرَّح

سبحانه بهذا المعنى في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٦٠﴾ [الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠]، فنزَّه نفْسَه عما يَصِفُه به العباد إلا المُرسَلين؛ فإنهم لم يَصِفوه من عند أنفسِهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

خاتمة الكتاب

فنختم الكتابَ بهذه الآيةِ حامدينَ لله، مُثْنِينَ عليه بما هو أهْلُه، وبما أثنى به على نفْسه.

والحمد لله ربِّ العالَمينَ، حمدًا طيبًا مباركًا فيه، كما يُحِبُّ ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرَمِ وجْهِه وعِزِّ جلاله، غَيرَ مَكْفيٍّ ولا مَكفورٍ، ولا مُوَدَّعٍ، ولا مُستَغنًى عنه ربَّنا.

ونسأله أن يوزعَنا شُكرَ نعمته، وأن يوفِّقَنا لأداء حقِّه، وأن يُعينَنا على ذِكره وشُكرِه وحُسنِ عبادته، وأن يجعل ما قَصَدْنا له في هذا الكتابِ وفي غيرِه خالصًا لوجهه الكريم، ونصيحةً لعباده.

فيا أيُّها القارئُ له، لك غُنْمه، وعلى مؤلِّفه غُرْمه، ولك ثمرتُه، وعليه تَبِعتُه، فما وجدْتَ فيه مِن صواب وحقٍّ فاقْبَلْهُ، ولا تَلتَفِتْ إلى قائله، بل انظُر إلى ما قال لا إلى مَن قال، وقد ذَمَّ الله تعالى مَن يَرُدُّ الحقَّ إذا جاء به مَن يُبغِضُه، ويَقبَلُه إذا قاله مَن يُحِبُّه، فهذا خُلُق الأمَّةِ الغَضَبيَّة، قال بعض الصحابة: اقبَلِ الحقَّ ممَّن قاله وإنْ كان بَغيضًا، ورُدَّ الباطلَ على مَن قاله وإنْ كان حبيبًا. وما وجدت فيه من خطأ، فإن قائله لم يَأْلُ جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرَّد بالكمال، كما قيل:

والنَّقصُ في أصْلِ الطَّبيعةِ كامِنٌ   فبَنُو الطَّبيعةِ نَقْصُهُم لا يُجْحَدُ

وكيف يُعْصَم من الخطأ من خُلق ظلومًا جهولًا؟! ولكن من عُدَّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عُدَّت إصاباته.

وعلى المتكلِّم في هذا الباب وغيرِه: أن يكون مصدرُ كلامِه عن العِلم بالحق، وغايتُه النَّصيحةَ لله ولكتابِه ولرسوله ولإخوانه المسلمين،

وإنْ جعل الحقّ تَبَعًا للهوى، فسَدَ القلب والعملُ والحال والطريق؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال النبي ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتَّى يَكونَ هَواهُ تبَعًا لِمَا جِئْتُ بهِ**»[(١)].

فالعلم والعدل أصلُ كلِّ خير، والظُّلْمُ والجهل أصلُ كلِّ شر، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأمَرَه أن يَعدِل بين الطوائف ولا يَتَّبعَ أهواء أحدٍ منهم؛ فقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥]

والحمد لله ربِّ العالَمينَ، وصلى الله وسلَّمَ وبارَكَ على خاتم المرسَلينَ؛ محمدٍ، وعلى آلِه أجمعينَ.



(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١٥) من حديث عبد الله بن عمرو، وضعَّفه الألباني في «تخريج كتاب السُّنَّة» (١/ ١٢)، و«مشكاة المصابيح» (١٦٧).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة